فجر الأندلس

بسم الله الرحمن الرحيم

الدكتور حسين مؤنس

فجر الأندلس

دراسة في تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي
إلى قيام الدولة الأموية (٧١١ - ٧٥٦م)

دار المناهل
للطباعة والنشر والتوزيع

العصر الحديث
للنشر والتوزيع

الطبعة الأولى

١٤٢٣هـ - ٢٠٠٢م

العصر الحديث
للنشر والتوزيع

دار المنهال
للطباعة والنشر والتوزيع
بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

لهذه الطبعة الجديدة من «**فجر الأندلس**»، وهي **تحيةُ وفاءٍ وتقديرٍ للمؤلّف** العلاّمة الدكتور **حسين مؤنس** رحمه الله، بعد أعوامٍ عديدةٍ على رحيلِه، قصّة.

فلقد كُنّا أعددنا لإصدار هذه الطبعة عام ١٩٨٧م، مزدانةٍ بمقدّمةٍ جديدةٍ، ومحتويةٍ على ذيلٍ كان المؤلّفُ قد أعدَّهُ للطّبعةِ السابقةِ، لكنْ ـ كما ذَكَرَ في المقدّمة ـ فإنّ الطّابع أَسقَطَ المظْروف الجامِع للذَّيل، وطُبِعَ الكِتابُ تصويراً عن الطبعة السابقة.

حين التقيناهُ ـ رحمه الله ـ في القاهرة مطلع عام ١٩٨٧م على هامش معرِض القاهِرة الدّولي للكتابِ، كان عتبُهُ شديداً أنّ الطبعة الثانية (١٩٨٥م) التي صدرت عن **الدار السعودية** قد اعْتَوَرَها نقصٌ كان طامِحاً إلى تكملتِه، وأنّهُ سلّم التعديلاتِ إلى النّاشِر، ثُمّ فوجِئ بأنّ الطبعةَ المذكورةَ جاءَتْ خِلْواً من كلّ ذلك، وأنّها قد صُوِّرَت بالأُوفست.

اليومَ، تصدُرُ هذه **الطّبعة (الأولى)** المنقّحة، بعدما حالَتْ أحوالٌ، يعودُ بعضُها إلى ما جرى في لبنان من حوادثَ مؤلمةٍ، حالت دون ظهورِها، رغم نفادِ الطبعة السابقة منذ عدّة سنوات.

والدكتور **حسين مؤنس** علمٌ مِن أَعلام المؤَلّفين في **تاريخ الأَندلس (الفردوس المفقود)** كما يُطلِقُ عليه، ويكتسبُ مؤلَّفُهُ هذا أهمّيّةً كبرى، **لأَنّهُ قائِمٌ** على معرفةٍ تامّةٍ باللغات: اللاتينية واللاتينية الدّارجة والقشتاليّة ـ الإسبانية اليوم ـ والبرتغاليّة والقطلونيّة إلى جانب اللغاتِ الحيّة. وكان عند ظهورِهِ للمرّة الأولى في العام ١٩٥٩م قد لقيَ قبولاً كبيراً، وراج رواجاً واسعاً في العالمين العربي والإسلامي، وفي إسبانيا وأوروبا.

الناشر

مُقَــدِّمَــة

بسم الله والحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله .

وبعد فقد نفدت الطبعة الأولى من هذا الكتاب من سنواتٍ طويلة ، وكان له عند ظهوره أثر محمود في تعديل مسار الدراسات الأندلسية عندنا ، فقد كانت العادة إلى ذلك الحين هي الاكتفاء بالمراجع العربية ، وإغفال كل المراجـع غير العربية عن عدم علم بها أو بلغاتها وقصور في المنهج العلمي الذي كان المؤلفون عنـدنا يتبعـونه في دراسـاتهم ، وكنتُ أنـا عنـدمـا دخلت هـذا الميـدان أواخـر الأربعينات من هذا القرن قد تنبهت إلى أن تاريخ الأندلس الإسلامي صراع أو قسمة بيننا وبين أصحاب شبه الجزيـرة الأيبيريـة قبلنا وهم فئتـان : الأيبيريـون الرومان وهم عامة أهل شبه الجزيرة ، والقوط الغربيون الذين غزوا الجزيرة مع من غزاها من قبائل الجرمان ابتداءً من القرن الخامس عشر الميلادي ، ثم قُدر لهم أن يسـودوها سيـادة الغـزاة حتى دخـل العـرب بـالإسـلام فـأزالـوهم عن السلطان ، وطـاردوهم إلى أقصى الشمال فيما يقـع شـمالي الجبـال الكنتـبريـة ، وحصروهم في إقليم اشْتُرِيس وجليقية ، ولم يستـطيعوا القضـاء عليهم ، فظلوا هناك آمنين وتكاثروا وأقاموا دولاً نصرانية نمت واستقوت مع الزمن وقامت لهم ممالك وإمارات ، وفي نفس الوقت عاشت في خوانق جبال ألبرت (الـبرانس) جماعات نصرانيـة كثيرة أنشـأت دويلاتٍ فيـما يُعرف بِنَـبِرَّة Navarra وهي بلاد اليشكُنس أو اليشكـونس Los Vascones أو Los Vasoos وأرجـون Arogon

وشُبْرُب Soborbe وريباجورزا Ribagorza التي لم تلبث أن دخلت في أرجون . ثم إن الفرنجة أصحاب بلاد غالة وهي فرنسا انتهزوا فرصة الحروب الأهلية التي نشبت بين المسلمين في الأندلس في عصر الولاة الذي نؤرخ له في هذا الكتاب واستعادوا من المسلمين بلاد Septemania وامتدادها إلى الجنوب في إقليم قطلونية Catalunia وقاعدته برشلونة . وعرفت هذه الناحية التي خرجت عن الحكم الإسلامي باسم الثغر الإسباني La Morc Hisphanica التي أصبحت مع الزمن كونتية كتالونيا ثم مملكة كتالونيا (قطلونية) التي لم يقم المسلمون بمجهود جادٍّ متصل لاستعادتها .

وبهذا أصبح تاريخ شبه الجزيرة قسمة بين الأندلس الإسلامي ووحدات مسيحية شتى في الشمال . هذا بالإضافة إلى أن غالبية الشعب الأندلسي كانت أول الأمر من المستعربين الذين تمسكوا بدينهم النصراني وعرفوا العربية وربما برعوا فيها ، ولكنهم ظلوا نصارى يتحدثون في حياتهم العامة لغة خاصة بهم هي خليط من لغتهم الدارجة الأيبيرية الرومانية والعربية . وهذه اللغة عُرفت عندنا بعجمية أهل الأندلس . وعند أهلها كانت تُعرف بالرومانسية El Romance وعجمية أهل الأندلس هذه عرفها عامة المسلمين في الأندلس بمن فيهم الأندلسيون من أصول عربية أو بربرية لأن أمهات الغالبية العظمى منهم كن إسبانيات . أما تاريخ إسبانيا النصرانية بشتى إماراتها وممالكها فقد كتبه أهلها في الغالب باللاتينية وبالإسبانية فيما بعد ، وخلف مؤرخوها وأصحاب مدوناتها من الرهبان باللاتينية ، ومؤلفاتهم كثيرة جداً ومعظمها وكذلك معظم وثائق الدول الإسبانية النصرانية ـ باللغة اللاتينية ـ مطبوع ، فكيف تستطيع أن تؤلف كتاباً له قيمة علمية في تاريخ إسبانيا الإسلامية أو أدبها أو مجتمعها دون معرفة باللاتينية واللاتينية الدارجة EL Latin Vulgàr والقشتالية EL Castellane وهي اللغة المعروفة اليوم بالإسبانية ولا بدَّ كذلك من العلم بالبرتغالية والقطلونية ؟

وهذا الكتاب الذي بين يديك هو أول مؤلف عربي في تاريخ الأندلس قائم على معرفة تامة بهذه اللغات بالاضافة إلى المعرفة بكل ما ألّف الإسبان المحدثون ـ وهو كثير جداً والإحسان فيه كثير ، وكل ما ألّف الفرنسيون خاصة

وغيرهم من الأوروبيين في تاريخ الأندلس . ونحن ننسى دائماً أن تاريخ الأندلس وهو شبه الجزيرة الإيبيرية الأندلسية ويشمل إسبانيا والبرتغال هو فصل من تاريخ الإسلام ، وهو في نفس الوقت ـ وعلى نفس المستوى ـ جزء من تاريخ إسبانيا والبرتغال وأوربا جميعاً ، فكيف نكتب في تاريخ أوربا ونحن لا نعرف الإسبانيّة ولغة أوربية على الأقل ؟

ولقد لقي هذا الكتاب عند أول ظهوره سنة ١٩٥٩ قبولاً عظيماً وراج رواجاً واسعاً في العالم الإسلامي وفي إسبانيا وأوربا على السواء ، واشتدت الحاجة إليه ، وما منعنا من إعادة طبعه إلا أن العلم فيما يتعلق بتاريخ الأندلس وحضارته زاد واتسع اتساعاً عظيماً ، وتوالت التواليف فيه وكان علينا متابعة ذلك كله وتقييد أهم ما فيه وجمع شوارده وأوابده ، وفيما يتعلق بموضوع هذا الكتاب زاد العلم زيادة عظيمة ، وظهرت مجلات علمية متخصصة كثيرة نشرت عشرات الأبحاث التي لا بدَّ من مراجعة هذا الكتاب على ضوئها ، فإلى جانب مجلة الأندلس الإسبانية التي ظهرت قبل صدور هذا الكتاب بسنواتٍ طويلة ظهرت مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد ومجلة أرابيكا ، في باريس ومجلة دراسات عربية وعبرية التي تصدر في غرناطة ومجلة Arbor التي يصدرها المجلس الأعلى للبحث العلمي في مدريد وغير ذلك كثير ، وكان علينا أن نرجع ذلك كله ونعدِّل مادة الكتاب بما يجعلها مسايرة لعصرها وذلك كله استلزم منّا زماناً طويلاً في المراجعة والتعديل . ثم إنني غيرت رأيي تغييراً تامّاً في صلب فصل من فصول هذا الكتاب وهو الفصل الخامس الخاص بصراع العرب والبربر (٢٠١ ـ ٢٧٣) وتعدلت كذلك معلوماتي عن فتح العرب للأندلس على ضوء دراسات قيِّمة قام بها نفرٌ من أجِلاَّء الباحثين ما بين عرب وغير عرب .

حين نشرت الدار السعودية للنشر والتوزيع ، جدة ، الطبعة الثانية من « فجر الأندلس » سنة ١٤٠٥ هـ / ١٩٨٥ م . رأت أن تُعيد تصويره بالأوفست لصعوبة إعادة جمع هذا الكتاب الضخم بكل ما فيه من مراجع غير عربية ، ولقد تفاهمنا في حينه مع الناشر على إدخال ما تيسّر من

التعـديلات عـلى صلب الأصل ، وإضـافـة ضـمائم للتعـديـلات المـوضـوعيـة المطـولة ، وجعل ذلـك كلـه ذيـلاً على الكتاب داخلاً في صلبـه وبين دفَّتيـه ، وعملـنا ذلك فعلاً ، ولكن الطابع أسقط المظروف الجامع لـذلك كله ، وطُبـع الكتاب كما هو في طبعته الأولى .

والآن ، وإذ كلّفـنا [**العصر الحديث للنشر والتوزيع في بيروت**] طبـاعة هذا الكتاب بعد أن نفدت طبعتـه الثانيـة ، رأينـا أن نضم الذيـل المذكـور إلى مكـانه من صلب الكتاب ، وأعـدنا جمـع الكتـاب من جـديـد ، لتكـون هذه الطبعة ـ بإذن الله ـ مصححة منقحة يرضى عنها المؤلف ، الذي يرجو أن يرضى قراؤه أيضاً . . . .

❊ ❊ ❊

وأفرغ بعد ذلك لتوجيه الشكـر لكل من كـان له فضـل على هذا الكتـاب وصاحبه ، سواء في طبعتـه الأولى والثانيـة وأولهم أستـاذي الأجلّ محمـد شفيق غـربال رحمه الله ، وهو أول من أشاد بهـذا الكتـاب ونبـه إلى قـدره وأهميتـه ، وزمـلائي الأعزاء د . محمود عـلي مكي ود . أحمد مختار العـبادي ود . إحسـان عبـاس وإميـليو غـرسـيه غـومـس الذي أطـرى الكتـاب وكثرت إشـاراتـه إليه والأستاذ هـاينريخ هونبراخ الذي طـال بيني وبينه الأخـذ والـرد في بعض مـادة الكتـاب ، ثم الأخ المؤرخ فاتنتـو يوسـك بيلا أستـاذ تاريـخ الأندلس بجـامعة غرناطة .

وأخيراً صاحبنـا الراحـل ليـڤي بـروڤنسـال عميد الدراسات الأندلسية من الأوروبيين في عصره الذي طالت المحاورة بيني وبينه في بعض ما قلت نظراً لأن كتابنا هذا مكتوب بروح عربية خالصة لا تعجبه كثيراً ثم اعترف لنا بما رأى من وجوه الفضل في النهاية . وأختتم هذا الشكر بكلمة أقرر فيها فضل شـاب من الجيل الثاني من تلاميذي وهو السيد / محمد فخري عبد الرحمن الوصيف الذي أبدى ملاحظات قيّمة على مادة الكتاب وأعانني على عمل التعديلات والإضافات في وقتٍ يتضاءل فيه نور البصر . وكذلك تلميذي محمد زينهم الذي بذل جهداً

ضخماً في إنجازها ، كذلك الأخ الأستاذ **أحمد فضل الله عاصي** الذي بذل فائق الجهد في ضم الإضمامات والإشراف على هذه الطبعة ، ولله سبحانه الحمد والمنة على ما يُعطي ويأخذ ، وهو - عزَّ وجلّ - من وراء القصد والنية وهو الموفق .

والله سبحانه مستعان على كل خير ، وهو سبحانه العاطي الوهّاب ، له الحق والمنة من نفسٍ مطمئنة وقلبٍ خاشع .

د. حسين مؤنس

القاهرة ١٩٨٧م

الفصل الأول

إسبانيا قبيل الفتح الإسلامي

١ ـ القوط الغربيون في أواخر أيامهم

في أواخر القرن الرابع الميلادي، استطاع القوط الغربيون بقيادة ألاريك أن يسيطروا على مصائر القسم الغربي من الدولة الرومانية، ذلك أن الإمبراطور تيودوسيوس كان قد وصل إلى عرش الإمبراطورية معتمداً على تأييدهم وتأييد من انضم إليهم من طوائف المتبربرين من الآلان والهون وبقايا الوندال، فجعل يمالئهم على أهل البلاد الأصليين من الرومان، حتى إذا توفي تيودوسيوس سنة ٣٩٥ كان ألاريك قائد القوط الغربيين قد أصبح أقوى شخصية في وسط أوروبا وغربها جميعاً.

وكان إمبراطور الجزء الغربي من الدولة الرومانية «هونوريوس بن تيودوسيوس» قد عهد في قيادة جيوشه إلى وندالي ماهر هو ستليخو، وكان ألاريك يحسده وينازعه ويود لو يحل محله، وكان ستليخو يعرف أطماع ألاريك ومن معه من القوط الغربيين ويحاول أن يدفع عن الدولة شره وشرهم، ولكن هونوريوس تخلى عن قائده واتهمه بالخيانة وأعدمه في سنة ٤٠٨، وبهذا أزال من وجه ألاريك القوة الوحيدة التي كانت قمينة أن تحول بينه وبين إيطاليا لو أراد غزوها، ولم يكذّب ألاريك أن جمع جنده وتحرك نحو الغرب، وخاف هونوريوس شره فغادر روما وتحصن في راڤنا في شمالي إيطاليا، وأخذ ألاريك يهاجم روما المرة بعد المرة وأهلها يدافعونه عن أنفسهم بالمال مرة وبالجند مرة أخرى، ولكنهم انتهوا آخر الأمر إلى الهزيمة، فاقتحم ألاريك ومن معه من القوط الغربيين المدينة الخالدة سنة ٤١٠، وأصبح غرب أوروبا جميعه تحت رحمته فأخذ يخرب شمالي إيطاليا تخريباً سيئاً، ولم ينقذ إيطاليا من مساءاته إلا موته بعد ذلك بقليل[١].

FERDINAND LOT. *La fin du Monde Antique et le début du Moyen - âge.* (Paris, 1927) pp. (1) 233-242

وخلفه في قيادة القوط الغربيين ومن معهم من شراذم المتبربرين أطاوولف، فجرى على منواله وأنزل بإيطاليا بلاءً شديداً، ثم اتجه بجموعه نحو غالة، وعبر إلى إسبانيا وأخذ ينازع من استقر فيها من القوط الشرقيين ومن معهم من السويف والوندال، واضطرت الدولة آخر الأمر إلى مهادنة أطاوولف وإقراره في الجزء الجنوبي من غالة في الإقليم المحيط بتولوز (طولوشة) سنة ٤١٦ـ ٤١٨م.

وكانت جماعات القوط الشرقيين المستقرة في إسبانيا في ذلك الحين قليلة العدد، وكان مقامها في الزاوية الشمالية الشرقية جنوبي جبال البرت (التي تُعرف خطأً بالبرانس)، أما السويف والوندال فكانوا أكثر عدداً، وكانوا قد استقروا في الركن الشمالي الغربي فيما يُعرف بجليقية وأشتورياس (أو أشتريس)، وكانت الدولة قد سمحت لهم بالإستقرار في هذه النواحي في سنة ٤١١، واشترطت عليهم أن لا يغيروا على ما جاورهم من البلاد، ولكنهم لم يراعوا هذا الشرط وروعوا بقية الجزيرة الأندلسية وجنوبي غالة بغاراتهم. وكان الوندال مسيطرين على شرق الجزيرة ووسطها، ولم يكونوا أحسن حالاً من السويف والالان، فجعلوا هم الآخرون يغيرون على جنوبي غالة وحوض الرون، وما زالت هذه الجموع المتبربرة تشتد في أعمال التخريب حتى كادت تقضي على كل أثرٍ للإستقرار والحضارة في الجزيرة الإيبيرية كلها.

فلما أقرت الدولة أطاوولف وأصحابه القوط الغربيين جنوبي غالة سلطوهم على طوائف المتبربرين التي تسكن إسبانيا، فأعلنوا عليها حرباً شعواء وارتد الآلان إلى مواقعهم الأولى وانحصروا على الساحل الشمالي المطل على خليج بسكاية، وانحصر السويف في الركن الشمالي الغربي الأقصى من شبه الجزيرة واستقروا هناك وانقطع شرهم. وحاول الوندال المقاومة، ولكن القوط الغربيين تغلبوا عليهم وأزاحوهم نحو الجنوب، فأقاموا قليلاً في الطرف الجنوبي لشبه الجزيرة المعروف بولاية بيطي (بيتيكا) الإغريقية القديمة، وكانت لا تزال تحتفظ إلى ذلك الحين بآثارٍ جليلة من الحضارة اليونانية المادية والفكرية، وكان الوندال أجلافاً عتاة فلم يلبثوا أن قضوا على معظم ما وجدوا من آثار العمران والتحضر في بيتيكا واضطر زعيمهم

جيسَرْك ـ أمام ضغط القوط الغربيين المتصل ـ إلى العبور إلى إفريقية سنة ٤٢٩، بعد أن خرب أُمهات مدائن بيتيكا العامرة مثل: هسپاليس (سڤيليا ـ إشبيلية) وكرتاجو نوڤا (قرطاجنة) وجادِس (جوادِكس ـ قادش) ومُورجي (مرسية ـ مورثيا) وكُردُوبا (قرطبة ـ كوردڤا) وغيرها،وخلّف هذا الإقليم العامر وراءه يباباً على عادة الوندال. وقد بلغ من عمق الأثر الذي خلفه الوندال في هذا الإقليم أن اختفى اسمه القديم «بيتيس» (الذي عرّبه العرب إلى «بيطي») وأصبح يسمى من ذلك الحين ڤاندالوسيا، إقليم الوندال، وعنه أخذ العرب لفظ «الأندلس» الذي أطلقوه فيما بعد على شبه الجزيرة كلها[1].

استقر القوط الغربيون في شبه الجزيرة، وأخذوا يمتدون في نواحيها شيئاً فشيئاً، وظهر فيهم بعد أطاوولف زعيم قادر هو «واليا» (Valia) استطاع أن يقرر سلطانهم في نواحي الجزيرة كلها. ولم يكن جميع من تحت سلطانه من الجند قوطاً غربيين، وإنما كانت فيهم أشتات من المتبربرين من كل جنس، ولكنهم كانوا يدينون له جميعاً بالطاعة والولاء، وكانت علاقته بالإمبراطورية علاقة التابع أو الفَصَل، فلما طمع إدواكر المتبربر في حكومة الجزء الغربي من الدولة الرومانية، وأقره الإمبراطور البيزنطي زينَون على حكومة إيطاليا في الرابع من سبتمبر سنة ٤٧٦، كان معنى ذلك زوال الدولة الرومانية الغربية من الوجود وتحلل جميع أتباعها من المتبربرين من الولاء لها، وبهذا استقل القوط الغربيون بإسبانيا وأعلنوا أنفسهم ملوكاً غير تابعين لأحد، وكان زعيمهم يوريك (Euric) قد اتخذ لقب الملك فعلاً قبل ذلك بنحو تسع سنوات (سنة ٤٦٧)، وهو يُعدُّ لذلك مؤسس دولة القوط الغوبيين في إسبانيا، وسنكتفي بأن نسميهم القوط وحسب من الآن فصاعداً[2].

(١) LÉVI- PROVENÇAL, *L'Espagne musulmane au Xe. siècle*, *pp. 18- 39.*
THOMAS W, ARNOLD. *the Preaching of Islam* (London, 1935) pp. 130- 144.

(٢) GEORGE YVER. *Euric, roi des Wisigoths* (466- 485) des Etudes d'Histoire du Moyen-âge dédiées à Gabriel Monod (Paris 1896) pp. 11- 46.

٢ ـ دولة القوط في إسبانيا

وكان يوريك قد حرص منذ صارت إليه زعامة القوط على أن يمد سلطانه شيئاً فشيئاً حتى يبسطه على شبه الجزيرة الإيبيرية كله ، ولم يتنازل إلى جانب ذلك عما كان لأسلافه من الأقاليم شمال جبال البرت ، وكان الرومان يعتبرون جنوبي غالة وشمالي إسبانيا وجزءاً كبيراً من غربها إقليماً واحداً ، فحرص يوريك أن تضم دولته هذا الإقليم الواسع إلى شبه الجزيرة الإيبيرية ، ففتح إقليم لُشْدَانية (لوزيتانيا ـ البرتغال) وقرر فيه سلطانه ، ومد حدود مملكته إلى الجنوب وأدخل فيها إقليم بيطي (الذي يعرف باسم بيتيكيا) وولاية قرطاجنة الرومانية القديمة وهي الركن الجنوبي الغربي لشبه الجزيرة ، وتابع جهوده في شمال جبال البرت ، واستولى على آرل ومرسيليا ، وبهذا أصبحت دولته تمتد من أقصى الهضبة الفرنسية الوسطى إلى طرف إسبانيا الجنوبي ، وحكم شعبين كبيرين هما الغاليون الرومان (Gallo- romani) شمال البرت والإسبان الرومان (Hispano- romani) جنوبيها . وكانا شعبين متحضرين يشتغل معظمها بالزراعة ، ويزيدان في العدد على القوط مرات عديدة ، وكان معظم أهلها مسيحيين كاثوليك ، يسيطر على نفوسهم قساوسة خاضعون لسلطان روما وأسقفها الكبير[1] .

وكان القوط مسيحيين آريين ، أي أنهم كانوا لا يعتقدون في ألوهية المسيح ، ولا يعترفون للقساوسة بحق الوساطة بين الله والناس ، ولا يجعلون للعذراء مكاناً ممتازاً في العقيدة ، وكان لهم أسلوب خاص في العبادة ، فلم يلبث السكان الأصليون من غاليين وإيبيريين أن نفروا من حكمهم ، واجتهد القساوسة في تقوية شعور النفور هذا ، لأن القوط كانوا ينكرون عليهم أي سلطان روحي على الناس . واشتد هذا النفور مع الأيام بسبب ما كان القوط ينزلونه بالقساوسة من اضطهادٍ ، وظل مركزهم بين رعاياهم مضطرباً مزعزعاً ،

(١) MANUEL TORRES. *Historia politica del Reino de Tolosa en Historia de Espana de Menendez Pidàl* (Tomo III. Madrid, 1940, pp. 70 Sqq.
BALLESTEROS, RAFAEL, *Histoire d'Espagne des origines à nos jours* (Paris 1938) pp. 35- 36.

فلما نهض كلوفيس زعيم الفرنجة وأخذ يمد سلطانه نحو الجنوب سارع القساوسة لتأييده لأنه كان كاثوليكياً ، وانضم إليه الغال الرومانيون ، فاستطاع أن يزيح القوط إلى الجنوب ويجليهم عن إقليم طولوشة (تولوز) الذي ظلوا يحكمونه مدى طويلاً ، ثم انتصر عليهم انتصاراً حاسماً في فوييه (Vouillé) شمالي بواتييه سنة ٥٠٧ وأجلاهم عن جل ما كان بيدهم من أراضي غالة ، فلم يبقَ لهم إلا إقليم سبتمانية المتاخم لجبال ألبرت من الشمال ويمتد حتى نهر الرون وعاصمته نربونة[١] .

بهذا اقتصر سلطان القوط الغربيين على إيبيريا ، وأخذت علاقة شبه الجزيرة مع بقية العالم الأوروبي الواقع إلى الشمال تفتر ، ولما كان القوط قد وحدوا شبه الجزيرة كله تحت سلطانهم فقد أخذت « إسبانيا » تظهر كوحدة سياسية وجنسية واحدة للمرة الأولى في التاريخ . وذلك أمر له خطره ، لأن الإغريق لم يعرفوا منها إلا الغرب وبعض الجنوب ، ولأن الرومان كانوا يقسمونها ولايات مختلفة لا علاقة بين بعضها وبعض: هي بيتيكا في الجنوب وهسپانيا تَرّاكُونِنْسِسْ (إسبانيا الطركونية) وتشمل الوسط والشرق والشمال الغربي، ولوزيتانيا وهي غرب الجزيرة وناربونِنْسِسْ (ولاية نربونة) من حدود برشلونة إلى جبال الألب، وكانت عاصمتها على أيامهم تراجونا (طَرَكُونة) جنوبي برِكِينو (برسينونا ـ برشلونة)[٢] .

أما القوط فقد اعتبروا شبه الجزيرة كله بلداً واحداً ، واتخذوا عاصمة لهم بلداً متوسطاً يقع في وسط شبه الجزيرة وهو « طليطلة »

---

(١) GUERRA (A. FERNANDEZ). *Caida y Ruina del Imperio Visigotico Espãnol* Madrid, 1883.

MANUEL TORRES. *Las Invasiones y los Reinos germanicos de Espana en Historia de Espana editada de* RAMON MENÉNDEZ PIDAL. Tomo III pp. 81- 84.

(٢) MANUEL TORRES. *op. cit. pp. II2 Sqq.*

= *LEGENDRE, MAURICE. Nouvelle Histoire d'Espagne* (Paris, 1938) pp. 66- 67.

ولطليطلة موقع جغرافي سياسي هام تمتاز به عن طركونة عاصمة إسبانيا الرومانية وقرطبة عاصمة إسبانيا الإسلامية ، فهي على هضبة مرتفعة في وسط شبه الجزيرة تقريباً ، يستطيع الحاكم منها مراقبة البلد كله والاتصال بأطرافه على سبيل أسهل مما يستطيعه الحاكم المقيم بقرطبة ، وهي تقع على صخرة عند منحنى من منحنيات نهر تاجه ، ولا يصل إليها العدو المهاجم إلا مجهداً بعد أن يعبر جبال قشتالة القاحلة في الشمال وإقليمي الإسترامادورا والمنشا القاحلين الموحشين في الجنوب ، ثم إن مركزها المتوسط يحفز الحاكم على تحقيق الوحدة وييسرها له ، لأنها موسطة البلاد وقلبها . أما طركونة فبعيدة جداً عن الجنوب والغرب ، وقرطبة بعيدة جداً عن أشتريس وجليقية ولوزيتانيا ، ومن ثم ليس بغريب أن نلاحظ أن المسلمين لم يوفقوا إلى حكم البلاد كلها تماماً ، وأن أشتريس وجليقية لم تخضعا لهم أبداً ، بل لم يدم سلطانهم على إقليم برشلونة ونواحي الغرب إلا خلال فترات قصيرة جداً[1] .

= قسم الرومان إسبانيا أول الأمر إلى قسمين يفصل بينهما خط غير محدد بالضبط يمتد من الدويرة إلى قسطلة (Cazlona) Gàstulo في الأندلس. ثم قسمها أغسطس إلى ثلاث ولايات:

إسبانيا الشرقية Tarraconensis

إسبانيا الجنوبية Betica

إسبانيا الغربية Lusitania

ثم أضاف كراكالا إلى هذه الولايات الثلاث ولاية جديدة تضم الشمال الغربي وتسمى (Gallaecia) أي إسبانيا الجليقية، وعن هذا اللفظ أخذ العرب لفظ جليقية وسموا به الطرف الشمالي الغربي المسمى في الإسبانية(Gallicia) .

ولما أعاد دقلديانوس تنظيم الدولة الرومانية وقسمها إلى مديريات (Praefecturae)، وقسم هذه إلى دوائر (Diocesis)، وهذه بدورها إلى ولايات (provinciae) ، ضم إسبانيا إلى مديرية غاليد، وجعلها دائرة تضم سبع ولايات:

Tarraconensis, Cartaginensis, Betica, Lusitania, Gallaecia, Balearica, Tingtana أي أنه أضاف إليها جزائر البليار وجزءاً من إفريقية هو مرطانية الطنجية، وستظل مرطانية الطنجية مرتبطة بإسبانيا حتى الفتح الإسلامي.

Cf: BALLESTEROS, RAFAEL. *Histoire d'Espagne*, pp. 28 Sqq.

وأنظر عن ذلك كله الفصل الحادي عشر من هذا الكتاب، وهو خاص بالتنظيم الإداري والمالي.

(١) تناولنا هذه الناحية في كتابنا: مقدمة جغرافية لتاريخ المسلمين في الأندلس.

ولعل أظهر أثـر لاستقرار القـوط في طليطلة هـو تحولهم إلى « إسبـان » في وقتٍ قصير ، في حين لم يصبح العرب إسباناً إلا بعد فترة طـويلة ، لأن المقيم في طليطلة تنقطع الصلات بينه وبين ما يلي البرت وما يلي الزقاق ، ويتـأقلم ويصبح إيبيريًّا ، أما المقيم في قرطبة فتظل صلته بإفريقية وما يتصل بها من بلاد الشـرق أوثق وأظهـر من صلاتـه بجليقية وأشتـريس ونواحي البـرت ، وكـان ذلـك من أسباب الضعف الرئيسية في دول المسلمين في الأندلس(١) .

استطاع القوط من عاصمتهم طليطلة أن يفتحوا شبه الجزيرة كله ، ولكن سلطانهم لم يستقـر في البـلاد أول الأمـر بسبب مـا ثـار بينهم وبـين أهـل البـلاد الإيبيريين من منازعات دينية وبسبب ما شجر بين أمرائهم من خلافـات ، ولهذا ظلت البـلاد طوال القـرن السادس نهبـاً للحـروب الأهليـة ومـا ينجم عنهـا من الفـوضى وسـوء الحـال . وقـد لقي نفـرٌ من ملوك القـوط مصـارعهم في هـذه الحروب ، وطمع ثيودوريك ملك القوط الشرقيين في عرش إسبانيا فغزاها وأقـام حفيداً له على عرشها . ولم يلبث أحد قواد القوط الغربيين الأقوياء أن ثـار بهذا الدخيل وأعلن نفسـه ملكاً على إسبانيا بفضل معـاونة حـربية أمـده بها جستنيـان إمبراطور بيـزنطة في سنـة ٥٥٤ وانضم إليه أهـل البلاد من الإيبيـريين الـرومان الكاثوليكيين ، واحتل النقـطة الواقعـة بين الـوادي الكبير وجُكَـرْ (نهر شقر) ، وانفصل هذا الإقليم عن حكومة طليطلة .

وكـان آخـر ملوك القـوط الآريـين هــو ليـوفيجيلد (Liuvigild) (٥٦٨ - ٥٨٦) وكان محارباً مقداماً ظل يحارب الكاثـوليكيين طـول حياتـه ، وخلفه ابنـه ريكاريدو (Recaredo) فاستبان أنه لا صلاح لدولة القوط في هذه البـلاد إلا إذا تخلى ملوكها عن الآرية ، ففعل ذلك وأعلنه في مجمع طليطلة الديني سنة ٥٨٧ : اعتنق الكـاثوليكيـة هو وأهـل بيته ، وتبعـه الأمراء وكبـار أهل المملكـة ، وبهذا أصبحت الكاثوليكيـة هي الديـانة الـرسمية في إسبـانيا من ذلـك الحين . وهـذا حادث خطير سيظل مؤثراً في التاريخ الإسباني كله ، فإن الكاثوليكيـة تأصلت في

(١) LEGENDRÉ MAURICE. *Nouvelle Hist. d'Espagne.* (Paris, 1938.) pp. 66- 67.

أهل البلاد مع الزمان ، وزادها قوة ميل الإسبان للتشدد في الإيمان والتعصب لكل ما يؤمنون به ، فأصبحت إسبانيا معقلاً من أمنع معاقل الكاثوليكية ، وكان لهذا أثر بعيد جداً في حياة الإسبان وفي مجرى تاريخهم كله(١) .

وأعقب هذا التحول إلى الكاثوليكية اعتبار اللاتينية اللغة الرسمية في البلاد ، وتوثق صلات إسبانيا بالبابوية ، وقد تفانى خلفاء ريكاريدو في الولاء للبابوية تفانياً شجع البابوات على بسط نفوذهم الديني - بل السياسي - في البلاد ، وبدأ يفد على البلاد هذا الفيض المتصل من قساوسة الكاثوليك ورهبانهم ، وأصبحت طليطلة أسقفية يقيم فيها أسقف كبير يمثل سلطان البابا ونفوذه ، وأيده الشعب الروماني الإيبيري الذي لم يتخل عن الكاثوليكية بعد ذلك . ومن هنا نفهم السر في أن نفوذ أسقف طليطلة لم يقل في فترة من فترات التاريخ الإسباني المسيحي عن نفوذ الملوك ، إن لم يزد عليه في كثير من الأحيان . كان تحول القوط إلى الكاثوليكية الخطوة الفعالة الأولى لامتزاج الشعبين القوطي والإيبيري الروماني ، فقد ظلا متباعدين ما اختلفت عقيدتاهما الدينيتان ، فأما وقد اتفقا في العقيدة فقد انفتح الباب أمام الامتزاج ، ولكنه لم يتم إلا على صورة مصغرة جداً ، لأن القوط حرصوا على أن يحتفظوا لأنفسهم بمركز الشعب الحاكم ، مما كان له أثرٌ بعيد سيء على مصير دولة القوط في إسبانيا .

وكانت الملكية القوطية انتخابية ، أي أن نفراً من كبار أهل المملكة والأمراء كانوا يجتمعون بعد وفاة الملك لاختيار ملك من بين أظهرهم ، فكان هذا النظام مدعاة لإثارة المنافسات بين الأمراء وكبار القوط ، ومن ثم لا غرابة في أن يكون تاريخ القوط في إسبانيا سلسلة من المؤامرات والحروب والاغتيالات . ومهما حاول مؤرخو الإسبان - القدامى والمحدثون - أن يقللوا من

---

(١) MANUEL TORRES. *Las invasiones y los reinos germônicos de Espana en Historia de Espana de* RAMON MENENDEZ PÉDAL *Tomo III*(Madrid, 1940) pp. 109 Sqq.

شأن هذه الاضطرابات ، رغبة منهم في الدفاع عن دولة القوط ، فإن الإنسان يستطيع أن يتتبع سلسلتها في سهولة ويسر ، وأن يستبين أن العرب لو لم يتدخلوا في سنة ٧١١ ، في شؤون الجزيرة ويضعوا نهاية لهذا العصر المضطرب لبلغ القوط بإسبانيا مبلغاً من السوء لا يسهل تصوره(١) .

بيد أننا ينبغي أن نستثني من سلسلة ملوك القوط نفراً أجمع المؤرخون على أنهم كانوا قادرين خيرين ، وأنهم قدموا للبلاد خدمات حربية وعمرانية بعيدة الأثر ، مثل : ششبرت (Sisiberto ٦١٢ ـ ٦٢١) الذي أتم فتح شبه الجزيرة كله ، وشنداسفنتو (Chindaswinto ٦٤٩ ـ ٦٧٢) الذي ألغى التفرقة بين أجناس الشعب ، وحكم البلاد بمقتضى قانون جديد مزج فيه القانون الروماني القديم الذي كان قد سنه الملك ألاريك الثاني والقانون القوطي الذي وضعه يوريك ، مما قرر السلام بين أهل المملكة وجنبها مصاعب وخلافات شتى(٢) .

---

(١) BALLESTEROS, RAFAÉL op. cit p. 37.

(٢) BALLESTEROS, RAFAEL. op. cit. p 37- 39.

وقد أخذت الصور العربية لهذه الأسماء القوطية مما وجدته في المراجع العربية ، ولم تتحدث المراجع العربية عن ملوك القوط كثيراً ، ولم تذكر منهم إلا واحداً أو اثنين ، ولكنها ذكرت أشخاصاً لهم أسماء هؤلاء الملوك خلالاً فترة الفتح ، فأخذت عنها هذه الصور. وهذه المراجع العربية هي : الأخبار المجموعة ، ونفح الطيب (أنظر فهارس الأعلام فيهما) ، ومرجعان عربيان : الأول مجهول المؤلف ، لم نعثر إلا على فقرات منه مترجمة إلى اللاتينية والإسبانية ، والثاني عثرنا على ترجمتين إسبانية وبرتغالية لجزء منه :

أ ـ فتح الأندلس : لمؤلف مجهول ، وقد نشره JAQAUIN DE GONZALES مع ترجمة إسبانية له تحت عنوان *Relacion de la conquista de Espana y de sus emires* وقد استعمله سافدرا في دراسته عن فتح الأندلس .

ب ـ *La Cronica del Mora Rasis* ، وهو تاريخ الأندلس المشهور للرازي ، وقد ضاعت النسخة العربية لهذا الكتاب ، ولم نجد إلا فقرتين صغيرتين منه باللغة الإسبانية ، الفقرة الأولى تتناول جغرافية الأندلس ، وقد نشرها وعلق عليها وأثبت صحتها بشكوال دي جايانجوس ، راجع :

PASCUAL DE GAYANGOS. *Memoria sobre la Autenticidad de la Cronica denominada del Moro Rasis; Memorias de la Real Academia de la Historia, tomo VIII, 1850*

وأما القطعة التاريخية منها فلاتينية ، ولم تنشر إلا سنة ١٨٩٢ ، إذ ترجمها سافدرا إلى الإسبانية وألحقها بدراسته عن فتح المسلمين للأندلس . انظر : =

ولعل أكبر ملوك القوط هؤلاء واما (Wamba ٦٧٢ ـ ٦٨٠) فقد كان أميراً عظيم الهمة ، استطاع أن يقرر سلطانه فيما بقي للقوط من الممتلكات شمالي جبال البرت : قضى على ثورة خطيرة دبرها هلدريك كونت نِيمة (نيم) ، وأخمد ثورة أخرى دبرها باوْلُس أمير سبتمانية للانفصال بها ، وحكم البلاد كلها حكماً رشيداً حازماً فأحبه الناس والتفوا حوله ، وبلغ من تعلق الناس به أن أصبح اسمه وعصره أسطورة لا تخلو من المعجزات والخوارق ، ومن هذه الخوارق واحدة نسجلها لأن المؤرخين الغربيين يسجلون مثلها لعبد المؤمن بن علي مؤسس الدولة الموحدية بعد ذلك بنحو ستة قرون ، وملخصها أن واما وقف بين يدي الأسقف في الكنيسة لكي يلبس التاج ، فبينما هو في هذا الموقف الرهيب إذا عمود من الدخان يتصاعد من رأسه تطير فيه نحلة من ذهب[١] .

وقد انتهى حكم وامبْا نهاية لا تخلو من غرابة وطرافة ، فقد احتال عليه أحد حاسديه ودس له من سقاه جرعة مخدرة لم يلبث بعد أن شربها أن غاب في سباتٍ عميق ، وحسبه الناس قد مات ، وهيَّأوه ليواروه التراب ، فبينما هم في ذلك إذ عاد إلى رشده ، وبدلاً من أن ينهض لتأديب من ائتمروا به على هذا

= D. EDUARDO SAAVEDRA. *Estudio sobre la invasion de los Arabes en Espana (Madrid, 1892)* ص ١٤٥ وما يليها. وقد كان جايانجوس قد تعرض لها وأثبت قيمتها التاريخية في تعليقاته على ترجمته لكتاب TICKNOR المسمى: تاريخ الأدب الإسباني (ج١ ص ٥١٩)، وراجع كذلك تعليق سافدرا على الرازي وما بقي من كتابه في كتاب سافدرا الآنف الذكر، ص ٨ وما يليها. وقد عثر الأستاذ LUIS F. LINDLEY CINTRA البرتغالي على نص صحيح لترجمة القسم الجغرافي من تاريخ الرازي إلى البرتغالية ونشره، وترجمه ليفي بروفنسال إلى الفرنسية:

CF: LEVI- PROVENCAL.*La description de l,Espagne de Ahmad al- Razi* AL- ANDALUS, 1953. fasc. I pp. 51- 108.

(١) ذكر الرازي الملك «وامبا» في صورة محرّفة جداً هيBenete ، وإذا تصورنا أن هذا اللفظ يكتب بالعربية بنيه أو فنبه عرفنا كيف حدث هذ التصحيف. وقد امتدحه الرازي وقال إنه كان ملكاً حسناً جداً وعادلاً جداً، ولم تسعد إسبانيا قبله أو بعده بملك مثله، لأنه لم يسيء إلى أحد، ولم تعرف إسبانيا أقوى منه ولا أكثر همة. راجع : SAAVEDRA. *op. cit. apendice, p. 146.*

النحو الغريب ، ترك العرش للطامعين فيه ، وترهب وقضى بقية حياته في الدير .

وعندما اعتلى غيطشة (Witiza)[١] العرش في نوفمبر سنة ٧٠٠ كانت الأمور قد اضطربت بسبب المؤامرات المتوالية التي كان كبار القوط يدبرونها ، ولسنا نستطيع أن نتعرف حقيقة أمر هذا الملك الذي سيلعب أبناؤه دوراً عظيماً في التمهيد للفتح الإسلامي ، لأن النصوص الباقية عنه تعطينا صوراً متناقضة عن شخصه وأسلوبه في الحكم ، مما حدا ببعض المؤرخين من أمثال ردريجو خيمنيث والأب ماريانا إلى جعله مسؤولاً عن الفوضى التي أعقبت أيامه ويسرت للعرب القضاء على دولة القوط ، في حين تصدى دوزي وفرناندث جرًّا Guerra وتايلهان للدفاع عنه وتبرئته مما نسبته إليه بعض النصوص[٢] .

والظاهر أن هؤلاء الأخيرين على حق ، لأن معظم النصوص الإسبانية تثني عليه ، وتؤكد أن أعداءه ومنافسيه هم المسؤولون عما أصاب البلاد في أواخر عصره من فوضى واضطراب ، وأنه حاول جهده أن يصلح الأمور فعفا عمن كان والده أخيكا[٣] قد أساء إليهم ، ومال إلى إنصاف الناس من استبداد نبلاء القوط ، فكرهه هؤلاء وعولوا على القضاء عليه وعلى حكمه ، فأخذوا يشورون عليه في نواحي المملكة ، واستمر يحاربهم ويحبط كل مناوراتهم ، فلما علت به

---

(١) هذه الصورة العربية لاسم وِتِزا محرفة هي الأخرى تحريفاً ظاهراً، وقد رسمه الرازي هكذا: Acosta أكوستا. وقد أتى التحريف من أن وِتِزا تنطق بالإسبانية القديمة ڤِتِشَة أو فِطِشَة أو فِيطِشَة. وهذه الصورة تعطينا قُسْطَة وهي Acosta التي أوردها الرازي وغيطشة التي أوردها مؤرخو العرب. وقد امتدحه الرازي كذلك وذكر أنه حاول أن يزيل مساوىء أبيه، وأعطانا تفاصيل طيبة عن كفاحه مع كبار مملكته وشقائه بهم. راجع: SAAVEDRA. *op. cit. apendice* p. 147.

(٢) SAAVEDRA. *op. cit. p. 25*

(٣) رسم الرازي هذا الاسم Abarca أباركا، ومرد هذا التحريف إلى خطأ في الإملاء، لأن نسخة الرازي التي بين يدينا أمليت على رجل لا يعرف العربية ولا يحسن الكتابة بها (راجع ملاحظات جايانجوس وساقدرا التي سبقت الإشارة إليها) فكتب إبقَة بدلاً من إجِقَة، وعندما ترجمها الإسبان إلى الإسبانية عدلوا أبقة إلى أبرقة وهو اسم إسباني معروف، وعلى هذا الرسم وردت في هذه النسخة الإسبانية من الرازي راجع: SAAVEDRA. *op. cit. apendice p. 146.*

السن عجز عن أن ينهض لكل واثبٍ به مدبرٍ عليه ، وتآمر عليه أهله ، واستطاعت زوجته أن ترغمه على أنْ يعلن ابنه الصبي وَقِله (أخيلا Achila) وأقامه حاكماً على الولايتين الناربونية والطركونية تحت وصاية أخيه رخشندش(Rechesindo)[١]، وكان الإعلان حافزاً للطامعين في العرش من كبار القوط إلى مضاعفة الجهد في التدبير على غيطشة ومحاولة القضاء عليه وعلى دولته ليخلو لهمْ العرش يفعلون به ما يشاؤون. ويبدو أنه لم يأل جهداً من جانبه في القضاء على كل محاولة يقومون بها، لأن النصوص تحدثنا أنه عاقب ثيودفريدو دوق قرطبة بسمل عينيه، ونفى ثائراً آخر اسمه بلايُه من البلاط [٢].

ويبدو كذلك أنه أساء الظن في اليهود ، فاضطهدهم وأوقع بهم في أواخر أيامه ، ولم يكن ذلك الاضطهاد بالجديد عليهم في أيام القوط ، لأن الواقع ـ كما سنرى ـ أنهم لاقوا منهم عسفاً بالغاً متصلاً ، وأن الفتح العربي لو لم يكن قد أدركهم وأبقى على من أبقى عليه ظلم القوط منهم لما بقي لهم في شبه الجزيرة الإيبيرية أثر . اتهمهم غيطشة بالتدبير عليه وبالتآمر مع من تسميهم النصوص الإسبانية « أهل ما وراء البحر Los transmarinos » ، وهو تعبيرٌ غير واضح ، لا يفهم إن كان المراد به أنهم راسلوا بربر إفريقية أو يهودها أو العرب ، ولا يستقيم فرض من هذه الثلاثة ، لأننا لا نملك دليلاً واحداً على علاقة ما بين يهود إسبانيا وبربر إفريقية قبل الفتح الإسلامي ، وأما يهود إفريقية فكانوا وقتئذٍ في محنة ، لأن الحرب بين حسان بن النعمان والكاهنة في جبال الأوراس كانت إذ ذاك على أشدها ، وأما العرب فلا يعقل أن يكونوا قد راسلوا يهود إسبانيا وهم بعد لم يفتحوا المغرب الأوسط[٣] .

---

(١) هذا الرسم عن ابن عذاري: البيان المغرب، ج٢ ص ٤؛ وهو يثني عليه. أما الرازي فيحمل عليه حملة عنيفة. SAAVEDRA. *op. cit.apendice p. 146.*

أما أخيلا فيكتبه الرازي أبرقة، وقد سبق تعليلُ ذلك.

(٢) SAAVEDRA. *op. cit.p. 29.* وأنظر المراجع المعطاة.

(٣) هذه المسألة غير واضحة الوضوح الكافي لأن النصوص القديمة لا تتحدث عنها بما فيه الكفاية، فيقول لوقا =

ولسنا على أي حـال بحاجـة إلى البحث عن سبب لهذا الاضـطهاد ، لأن الإسبـان كانـوا طوال تـاريخهم من أقسى الناس عـلى مخالفيهم في الـدين ، وعلى اليهود خاصة . وكل ما يهمنا هنا هو أن هؤلاء اشتـد بهم الأمر خـلال السنوات الأخيرة للفترة القوطية ، حتى باتوا يـرجون الخـلاص عن أي سبيل . ويبـدو أن غيطشة رجع عن سياسته تلك في أخريات أيامـه ، فأحب أن يـرفع السخط عن اليهود ، وتحدث إلى كبار أهل الدولة فيما انتواه من العفو عنهم ، فلم يكد رجال الكنيسة يسمعون بذلك حتى سخـطوا عليه ، وأخـذوا يغرون النـاس به ، حتى اشتد عليه سخط الناس ، وتحدث أهل البلاد من الرومان الإيبيريين في الـوثوب به أو معاونة أول ثائرٍ عليه[1] .

في هذا الظرف العصيب ، والبلد منشق على نفسه مفرق بين رجال الدين والملك المسن والكبراء الطامعين ، مات غيطشة ميتة طبيعية في أواخر سنة ٧٠٨ أو أوائل ٧٠٩ ، وكانت هذه الأحزاب كلهـا تنتظر فـرصة مـوته لينقض بعضهـا على بعض ، وكان أفراد البيت المالك أنفسهم من أكثر النـاس انقسامـاً وأشدهم ميلاً إلى الخـلاف ، ذلـك أن غيـطشـة تـرك من بعـده زوجـاً أرملة طـامعـة في العرش ، وأخاً لا يقل عنها طمعاً هو أبّه (Oppa) وكان أسقفاً لإشبيلية ، وثلاثة بنـين هم : أخيـلا (رُمُله عنـد المقـري وابن القــوطيـة وصحتــه وَقِله) والمنـد

= التودي LUCAS DE TUY وهو من كتّاب القرن الثاني عشـر : idialis immunitatum previlegia dedit (ج١ فقرة ٣ من تاريخ العالم) ويقول : ردريجو خيمينيث RODRIGO XIMENEZ :

revocavit iudaeos et maiori immunitatis quam ecclesias previlegiis honoravit (I, III, cap, XVII)

ولا يشتم من أي من هاتين الروايتين ما يفهم منه إتهام لليهود بالخيانة أو التعاون مع يهود إفريقية. وقد وردت عبارة التعاون مع «القوم الذين يسكنون فيها وراء البحر» في نص الخطاب الذي ألقـاه أخيلا في المجمـع الكنيسي السـابـع عشـر، وهي عبارة لا تكفي. ولا تعـرف المـراجـع التي استمـد منهـا DOM VISSETTE معلوماته التي يوردها عن هذا الموضوع في كتابه *Histoire Languedoc* ج١، ص ٧٥٠ - ٧٥١ ، وعلى أي الأحوال فالثابت أن أخيلا اضطهد اليهود.

(١) SAAVEDRA. *op. cit. p. 30*

(Olmundo) وأرطـافازدُس أو أردبست (أرطبـاس ، أرطبان) ، وتضيف بعض الـروايات شخصـاً آخر سيلعب فيـما يلي من الحـوادث دوراً هامـاً هو سيسبـرتـو (ششبرت ، سبري ، سبـرة في النصوص العربية) وتزعم أنه كان أخاً لغيطشة أو ابنـاً له ، ويـذهب سافـدرا إلى أنه لم يكن من العـائلة وإنما من المتصلين بهما وحسب[1] .

ولم يرض نفرٌ من كبار القوط بـالخضوع لصبي مثـل أخيلا ، وتخـوف كثيرٌ منهم من مطامع الوصي رخشندش واستبداده ، فامتنع من أقام منهم في طليـطلة عن الـطاعة ، واستقـل بـالأطـراف والنـواحي منهم من كـان مقيـماً في النـواحي والأطراف ، ودارت رحى الحرب بين المتنافسين ، وتعذر على الملكة وابنهـا المقام في طليـطلة ففرا منهـا . واستمـرت هـذه الفـوضى نحـو العـام ونصف العـام ، واستطاع الوصي أن يجمع نفراً كبيراً من الانصار ، وتحبب إلى عـامة أهـل البلاد الرومان الإيبيريين من أهل المزارع والمدن واستطاع أن يكسبهم إلى جانبه . وبدا لخصومه أنه مستطيع القضاء على الفتنة وإقرار الحق لذويه عما قـريب ، فاجتمـع منهم نفرٌ وائتلفوا ، واعتبروا أنفسهم « مجلس شيوخ وكبراء » له الحق في أن يقرر شؤون دولـة القـوط كـما يـرى ، ثم اختـاروا واحـداً منهم اسمـه رودريكـو ـ أو رودريك أو رودريجو (لذريق) ـ وانتخبوه ملكاً خلفاً لغيطشة، واستعدوا لنصرته والقضاء على منافسيه بحد السيف.

وتجمع النصوص كلها على أن هذه الجماعة التي بايعت لذريق كانت جماعة من كبار القوط وأعيانهم، وأنهم أرادوا باجتماعهم هذا إنقاذ دولة القوط وتقويم ما وهى من بنيانها، فإذا أضفنا إلى ذلك ما سبقت الإشارة إليه من أن رخشندش

---

(١) SAAVEDRA. *op. cit.*pp. 30- 33. وتقول الأخبار المجموعة إن أبناء غيطشـة كانـوا اثنين فقط شـثبرت (Siseberto) وأبَّه (Oppa): ص ٨.

ونص الرازي مضطرب هنا اضطراباً شـديداً جداً بحيث لم نـستطع الاعتماد عليه.

ويكتب ابن القوطية رُمُلَه بدلاً من أخيلا، وقد جعله بعضهم رومولوس، وذهـب سافدرا إلى أنه تحريف من وَقِلَه الذي هو أخيلا.

أراد أن يستعين بالإيبيريين الرومان ليثبت أمر أخيلا، استطعنا أن نستنتج من غير حرج أن المسألة لم تكن مجرد خلاف على العرش بين زعماء القوط، بل كان فيها لون من ثورة أهل البلاد على القوط ورغبتهم في التخلص من كبرائهم ونبلائهم. ولعل هذا الاستنتاج يتيح لنا أن نقرر ما تحاول الكثرة الغالبة من مؤرخي الإسبان ـ قدامى ومحدثين ـ نفيه وإنكاره، وهو أن دولة القوط لم تكن في نظر أهل البلاد دولة قومية، بل ظلت في نظر غالبيتهم دولة أجانب لقي الناس في ظلهم كثيراً من الأذى، وحاولوا الخلاص منهم مراراً متكررة[1].

٣ ـ لذريق

والخلاف شديد حول أصل لذريق هذا ، فمن قائل أنه كان زعيماً قوطياً كبيراً ذا علم بأمور الحرب والسلم ، ومن قائل إنه ينحدر من أصلاب ملكية ، وأن جده الملك شنداسفنتو ، ومن قائل إنه ابن تيودافريدو دوق قرطبة الذي كان غيطشة قد عاقبه على ثورته عليه بسمل عينيه . ومهما يكن من أمر فإن المراجع الإسبانية اللاتينية القديمة تجمع على أنه كان رجلاً قادراً ، وأنه كان قبل ادعائه العرش حاكماً لولاية بيتيكا ، وأن الذين بايعوه على العرش فعلوا ذلك في قرطبة عاصمة ولايته[2] .

ولم يسر لذريق إلى طليطلة مباشرة بعد إعلانه نفسه ملكاً ، بل تريث بعض الوقت ليتيسر له جمع أنصاره وملاقاة رخشندش ورجاله في موقعة حاسمة ، وكان قد أعلن نفسه ملكاً في « ربيع سنة ٧١٠ ، قبل الهزيمة المسماة عادة بهزيمة جوادا ليتي (وادي بكة) بعام، وكان ذلك في السنة الخامسة من

---

(١) MAUEL TORRES. *Op. cit.* p. 135. ويشير سيمونيت إلى ذلك إشارة غير واضحة وغير دقيقة، فهو يقرر وجود حالة الثورة ورغبة الإيبيريين الرومان في الخلاص من القوط، ولكنه ـ على عهده من الدفاع عن القوط، لأنهم كاثوليكيون ـ يلقي التبعة كلها على الشعب وعدم تقديره لفضل ملوكه عليه. وهو يقرر بالطبع خيانة اليهود دون أن يحقق مراجع التهمة. انظر :

FRANCISCO JAVIER SIMONET. *Historia de los Mozarabes de Espana* (Madrid, 1897-1903) pp. 4 sqq.

والمراجع المعطاة. وراجع كذلك ص ١٠ وما يليها من نفس المرجع.

(٢) FERNANDEZ GUERRA. *Caida.* pp. 81 sqq.

حكم الوليد في دمشق » ، كما يقول « النص اللاتيني المجهول المؤلف » ، ويذهب راوية آخر إلى أنه ذهب إلى بطليوس ، دون أن يذكر لنا السبب في الذهاب إلى ذلك البلد البعيد . والثابت أنه سار إلى طليطلة بعد أشهر من إعلان نفسه ملكاً على رأس جيش كبير فيه جلة قواد القوط ونبلائهم ، وهزم رَخَشَندش في واقعة حاسمة قتل فيها هذا الأخير وتفرق أتباعه . وأما أبناء غيطشة فلم يجدوا مفراً من مغادرة البلاد فراراً من الغاصب ، ففروا إلى إفريقية ، وصادر لذريق أملاكهم معتبراً إياهم ثائرين على العرش ، والقانون القوطي يقضي بمصادرة أملاك كل ثائرٍ على العرش[١] .

ويبدو أن لذريق ظل يخشى طيلة حكمه القصير عودة أبناء غيطشة إلى البلاد ومحاولتهم استعادة عرشهم بمساعدة أنصارهم الكثيرين ، ومن ثم حرص على أن ينفر الناس منهم بالمبالغة في تصوير أعمال أبيهم ومظالمه ، وأعانه على ذلك القساوسة، لأن غيطشة كان لا يجيبهم إلى ما تصبو إليه نفوسهم من القضاء المبرم على اليهود ، ومن ثم لا غرابة في أن نجد عند معظم المؤرخين الإسبان اللاتين صوراً بغيضة جداً لهذا الملك وأولاده ، وما كانوا يدبرون للبلد وأهله من سوء ، وزاد هؤلاء المؤرخين إصراراً على هذه الآراء إنضمام أولاد غيطشة للعرب ومعاونتهم في فتح البلاد . وقد تصدى نفرٌ من المؤرخين الإسبان المحدثين للدفاع عن غيطشة وأبنائه ، وذهبوا في الدفاع عنهم إلى حد إنكار دورهم المعروف الثابت الذي قاموا به أثناء الفتح العربي ، ولسنا نستطيع تفسير هذه النزعة عند المحدثين إلا بما يعرف عن الإسبان من مبالغة في التسامي بوطنهم وأهله ، وعداء بعضهم للفتح الإسلامي وكل ما يتصل به ، ورغبتهم في تنقية صفحات تاريخهم من كل ما يشتم منه رائحة التعاون مع المسلمين[٢] .

بيد أن هذا الدفاع عن غيطشة وأولاده ، والإصرار على تبرئة لذريق من

---

(١) SAAVEDRA. *op. cit.pp. 34 Sqq.*

(٢) SAAVEDRA. *op. cit. p. 37.* ويستثنى من ذلك بعض المؤرخين الإسبان المحدثين مثل: BAL-LESTEROS. *Histoire d'Espagne*. p. 45. وهو يورد هذه الحوادث في إيجاز شديد جداً.

كل عيبٍ وتصويره في صورة بطل وطني جاهد العرب عن بلاده وبذل كل ما يملك لينجو ببلاده من خطرهم ، كل هذا الجهد لا يمنعنا من تعرف شخص لذريق وأحوال عصره تعرفاً معقولاً هو أقرب ما يكون إلى الصواب . فإن الظاهر الذي لا تستطيع المناقشة إخفاءه أن الرجل كان يشعر باضطراب الأمر عليه ، وأنه ظل حياته متخوفاً من وثبة تكون من أحد أعدائه الكثيرين ، لأن هؤلاء الأعداء لم يكونوا أولاد غيطشة وحدهم ، بل كانوا في واقع الأمر جلة الشعب الإيبيري الروماني واليهود ، أي معظم أهل البلاد التي اقتحمها القوط عليهم(١) .

ومصداق ذلك أن لذريق لم يكد الأمر يستقر له حتى مضى يرغم رجال الدين على إصدار قرارات يتهمون فيها غيطشة بكل شر ، ويصورونه للناس في

---

(١) SAAVEDRA. *op. cit.* p. 37. وكلامه في هذه النقطة غامض غير واضح لأنه لا يستند إلى مراجع واضحة مفصلة، وأهم مراجعه فرنانديث جرًّا في كتابه *Gaida y Ruina* ص ٨٢ وما بعدها، وهو مرجع حديث.

ويناهض هذا الرأي سيمونيت في تاريخ المستعربين، ص ١٢ وما يليها، وسيمونيت إسباني كاثوليكي متعصب جداً لوطنه ودينه، وذلك هو عيب كتاباته الكثيرة.

والصور التي يعطينا إياها عن الحال أيام لذريق جديرة بأن نعرضها، لأنها لا تخلو من نفع، فهو يقول إن الشعب الإسباني وجد نفسه تحت حكم غيطشة وخلال السنوات الأخيرة من حكمه على الخصوص، منقسماً إلى حزبين كبيرين: حزب مناصر الملكية غيطشة القائمة، ومن ثم فهو مؤيد من اليهود منصرف عن مصالح البلاد المعنوية والدينية، وحزب ثانٍ مناهض لذلك مهتم بمصالح البلاد حريص عليها، وكان هذا الحزب يميل إلى طرد اليهود من البلاد جملة ومناصرة الكاثوليكية مناصرة تامة. فأما الحزب الأول فكان حزب الأرستقراطية القوطية، ولم يكن أفراده كاثوليكاً ولا آريين، وإنما كانوا متشككين ملاحدة (كذا!) ومن كبار هذا الحزب أوباس (أبة) أخو الملك وأسقف إشبيلية، والنبلاء ششبرت ورخشندش (وربما كانا أخوين للملك نفسه). وأما رجال الحزب الثاني فكانوا طائفة من كبار القوط المؤمنين يؤيدهم معظم أهل البلاد من الإسبان الرومان، وأهل الصلاح والدين من سكان الجزيرة كلها وفي مقدمتهم تيودفريدو دوق قرطبة، وخلفه في زعامة الحزب ردريجو (لذريق) وكان معه بلايو (بلايُه) الذي قدر له أن يعيد دولة القوط بعد ذلك SIMONET. *Historia de los Mozarabes,* pp. 11- 13.

وليس لدينا دليل واحد على صحة ما يذكره من أن بلايو هذا هو نفس بلايو الذي سيفر أمام العرب ويتحصن في جليقية ويعيد إنشاء دولة القوط SAAVEDRA. *op. cit.p. 29.*

صورة جبار ظالم أراد بالناس وبالكنيسة كل أذى ، وأن لذريق لم ينهض إلا لإنقاذ الناس من شره وشر أولاده وكل من كان يلوذ بهم ، وقد أجاب رجال الدين طلبه ، فحفلت قرارات مجامعهم الدينية في عصر لذريق بأسوأ الاتهامات لغيطشة وبنيه واليهود . ومصداق ذلك أيضاً أن لذريق قضى معظم أيام حكمه القصير يحارب الثائرين عليه في كل ناحية ، وأنه قام بحملات متتابعة على البشكنس في الشمال ، وطوائف من الثائرين في الشرق والجنوب ، ولسنا نعرف على وجه التحقيق من كان هؤلاء الثائرون عليه في الجنوب ، وإن كان من المعقول جداً أن نزعم أنهم كانوا أنصار أولاد غيطشة ، وسنرى في أثناء الفتح العربي ما يؤيدنا في هذا الظن[١] .

وربما كان من دلائل سوء الحال في عهد لذريق أنه كان في حاجة مستمرة ملحة للمال ، ولو كان قد حكم البلاد حكماً عادلاً منتظماً لما احتاج إلى إرهاق نفسه وإرهاق الناس ، لأن إسبانيا بلد غني لا يحتاج إلا إلى الإدارة المنظمة حتى يفيض بالخير على أهله وحاكميه ، ولو كانت البلاد هادئة في عصره لما اضطر إلى هذا الإرهاق ، ولكن البلاد كانت مضطربة في عصره لا يكاد يطيعه من نواحيها إلا إقليم صغير .

والغالب أن حاجة لذريق إلى المال هي التي دفعته إلى السطو على الذخائر الغالية التي كان ملوك القوط قبله قد كدسوها في كنيستي سان بدرو وسان بابلو ، فقد جرت عادة كل ملك منهم أن يودع إحدى الكنيستين تاجه وبعض ذخائره ، وكانت هذه الذخائر مكدسة في حجرتين مغلقتين في الكنيستين ، فلما اشتدت حاجة لذريق للمال حدثته نفسه بأخذ بعض هذه الذخائر للانتفاع بها . وقد حذره القسس من أن يفعل ذلك ، ولكنه لم يصغ ، ومضى ففتح مستودع الذخائر ، ويبدو أنه ذهل من كثرة ما وجد من الذهب والجواهر ، ويبدو كذلك أنه لم يجرؤ على أخذ شيء لأن رهبة المكان منعته من أن ينفذ ما أراد ، وتحدث

(١) SAAVEDRA. *op. cit.*p.47.

SIMONET.*Op. cit.* pp..42 Sqq.

الناس في ذلك وتناقلوه حتى أصبح أسطورة في أفواه الناس ، ورواها العرب على صورة لا تخلو من طرافة[1].

وقد استطاع لذريق أن يقضي على كل أمل لأبناء غيطشة وأنصارهم بعد أن استمر يوالي غزوهم أشهراً متتابعة ، فلما ضاقت عليهم البلاد فكروا في ناحية يستنصرون بها على هذا الطاغية الذي غصبهم عرش أبيهم وشردهم في غير جناية ، وكان العرب قد فتحوا المغرب الأقصى ووصلوا إلى الزقاق وانضم إليهم من البربر نفرٌ كبير وأخذوا يتطلعون جميعاً إلى بلاد جديدة يفتحونها ويمدون رواق الإسلام إليها ، وتسامع أولاد غيطشة بهم فبعثوا الرسل إليهم يدعونهم إلى القدوم[2] .

* * *

٤ - نظرة في أحوال إسبانيا تحت حكم القوط[3]

لم يغير القوط شيئاً كثيراً من أحوال المجتمع الإسباني في العصر الروماني : ظلت الأرستقراطية الرومانية القديمة على عهدها من الغنى والسيطرة على الناس ، وظل الأحرار من أهل المدن والتجار وأصحاب المزارع الصغيرة يعيشون تحت رحمة الأقوياء في حال ٍ هي وسط بين الحرية والرق ، وظلت بقية أهل البلاد رقيق أرض أو عبيداً يشقون في سبيل الأقلية الغنية المسيطرة . وقد ائتلف الأغنياء مع القوط لكي يحتفظوا بأملاكهم ، واستقر نفرٌ كبيرٌ من هؤلاء في المزارع واشتغلوا بالزراعة ، وإن بقيت أغلبيتهم تقيم في المدن في معسكرات تعيش من إتاوات وضرائب فرضوها على الزراع وضعاف أهل المدن ، حتى ساء أمرهم كثيراً . ولم يكن القوط كثيرين ، ولم يكن بهم ميلٌ إلى المشاركة في صناعة أو زراعة ، فظلوا غرباء عن البلاد في الغالب ، ولم يخلفوا فيها من الآثار ما يمكن مقارنته بما خلفه

---

(١) SAAVEDRA. *op. cit.*pp. 40- 43. وقد أورد معظم مؤرخي المسلمين هذه الأسطورة، أنظر نفح الطيب (طبعة الشيخ محيي الدين عبد الحميد) ج١ ص ٢٣١ وما بعدها.

(٢) SIMONET. *Op. cit.* pp.12- 13.

SAAVEDRA. *op. cit.p. 43.*

(٣) درسنا هذه الناحية بتفصيل أوفى في الفصل الحادي عشر من هذا الكتاب، وهو خاص بالإدارة وشؤون المال.

الفرنجة في فرنسا مثلاً[1] .

ولم تنعم البلاد في حكم القوط بنصيبٍ كبير من الطمأنينة والرخاء ، لأن العصر كله كان عصر اضطراب وفوضى في أوروبا كلها ، لا في إسبانيا وحدها . وانهارت في نواحي غرب أوروبا قواعد المجتمع الروماني الثابت القديم الذي كان يقوم على تقسيم الأرض بين الدولة وطائفة من كبار الأغنياء المقيمين في الريف ، ثم تأجيرها بعد ذلك للفلاحين يزرعونها ويؤدون عنها مالاً ، وكان معظم الأرض تابعاً للدولة ، فكانت تزرعه بواسطة الفلاحين الأحرار أو العبيد ، فلما طال الزمن واستمر كل فلاح يزرع نفس القطعة من الأرض عاماً بعد عام نشأت بينه وبينها صلة هي أقرب ما تكون إلى صلة الملكية . فلما أقبل المتبربرون واستولوا على أراضي الدولة آلت إليهم أملاكها ، وبهذا تعرض حق هؤلاء الزراع الأحرار في أراضيهم للضياع ، وغصب المتبربرون من الكثير منهم أرضه واستقروا فيها وأجبروه على زراعتها كأنه عبد أو قن ، ولجأ بعضهم إلى مالكٍ غني مجاور تنازلوا له عن أرضهم في سبيل حمايتهم من الغاصبين المقبلين . وشاعت هذه الطريقة وعمت ، ونشأت عنها طبقة اجتماعية جديدة هي طبقة البوتشللاري (Buccellarii) أي طبقة المحميين ، وكان القانون يعتبرهم أحراراً ، ولكن التزاماتهم حيال الأغنياء الذين كانوا يحمونهم جعلتهم في الواقع في مراتب التابعين والعبيد .

أقام القوط في إسبانيا حكومة عسكرية انتخابية ، يؤيدها الأشراف وملاك الأرض من القوط وأهل البلاد الأصليين على السواء (optiates أو proceres)، واستمروا يدبرون شؤون البلاد بنفس النظام الروماني القديم : ظلت البلاد مقسمة إلى أقاليم (provinciae) ومدن (civitates) ، وكان يحكم كل إقليم دوق ، وكل مدينة كونت (comes) ، وكان كل من هؤلاء الحكام يستعين بطائفةٍ صغيرة أو كبيرة من الموظفين (tiumfadi أو centenarii) يقومون بما تحتاج إليه حكومة الناحية من النواحي المالية والقضائية والحربية . وكان هؤلاء الموظفون

(١) DOZY. *Musulmans Espagne*, I pp. 253 Sqq.

طبقات تختلف بحسب العمل الذي يقوم به كل منهم[١] .

وكان الملك يحكم مستبداً ، أي منفرداً برأيه ، يقضي في شؤون البلاد كما يشاء . وكان لـه مجلس من النبلاء يساعده في كـل شيء ، ولكن الملوك استبدوا بـالأمـر حتى لم يعـد لهـذا المجلس ظـل من السلطان ، فكـان الملوك يصـدرون القوانين وينفذونها ويقضون في الأحكام بما يريدون ، وكـان المفروض أن ينتخب الملك من بين هؤلاء النبلاء ، ولكن العادة جرت بأن يعتلي العرش أقواهم بحـد السيف[٢] .

٥ ـ مجلس طليطلة

ولكن الدولة القوطية حوت في نظامها عنصراً طيبـاً كان لـه أثر حسن في سـير الأمـور في دولـة القـوط ، ذلـك هـو « مجلس طليطلة » الذي كـان يجتمع بـين الحين والحـين للنظر في أمـور الدولـة الكبرى ، وكان أصل هذا المجلس دينياً ، كان مجلساً من كبـار القساوسـة الكاثـوليكيين ، يعقـدونه للنـظر في أمور كنيـستهم ورعـاياهم ، فلما اعتنق الملوك الكـاثوليكيـة في عصر ريكـاريدو أصبـح هذا المجلس رسميـاً يدعـو الملك لعقـده ويحضـره كبـار رجاله ، وأصبح مع الزمن مجلساً سيـاسياً دينيـاً ، يتناول المسـائل جميعـاً : دينية وغـير دينية ، ويصـدر القوانـين والأحكام في شتى القضـايا ، ثم اتسـع سلطانـه وتنـاول القضاء وأصبح بذلـك محكمـة عليـا ، وانتهى الأمـر بـأن انضم مجلس النبـلاء إلى المجلس الديني وأصبحـا مجلساً أعـلى للدولة . وقـد كـان الملوك أول السـاعين في تـوحيد المجلسـين ، لأنهم أرادوا أن يزيـدوا أحكامهم قـوة ومهابـة بالتصديق عليها من هذه الهيئة التي تضم كبار رجال الكنيسـة الكـاثوليكيـة وكبار أهل الدولة[٣] .

---

(١) MANUEL TORRES y RAMON PRIETO BANCES.*Instituciones. Economicas, Sociales y Politico administrativas de la Peninsula Hispanica durante. Los siglos V-VII en Historia de Espana III (Madrid, 1940) p. 205 Sqq.*

BALLESTEROS. Histoire d'Espagne, p. 39

(٢) BALLESTEROS.*Op. cit.* p. 39- 40.

(٣) BALLESTEROS.*Op. cit.* p. 40.

وقد كان لهذه المجالس تأثير أحسن ، فقد سن أعضاؤها مع الزمن قانوناً شاملاً يضمن حريات الناس ويسوي بينهم جميعاً : قوطاً وإيبيريين ، وهو المسمى (Fuero Juzgo)[١] ، وكان لتشريعاته الأخرى أثرٌ طيب في تهذيب نفوس القوط وتهيئتهم للعيش المستقر والائتلاف مع أهل البلاد ، واستطاع رجاله كذلك الحيلولة بين الملوك وبين الاستبداد السيىء المطلق بشؤون الرعية .

٦ - المجتمع الإسباني أيام القوط

والخلاف شديد بين المؤرخين حول أحوال المجتمع الإسباني خلال هذا العصر القوطي ، فمعظم الإسبان شديدو العصبية لهذا العصر ، يذهبون إلى أن الناس فيه كانوا يستمتعون برخاء ظاهر في كل ناحية من نواحي الحياة ، وأن الزراع والصناع كانوا في رفاهية لا يكاد الحكام يعسفونهم في شيء ، وأن موارد البلاد كانت في ازدياد ، وأن العصر على العموم كان عصر نهضة إسبانية مسيحية. وهم إنما يبالغون هذه المبالغة لكي يؤكدوا للقارىء أن النهضة التي حدثت في ظلال الإسلام بعد ذلك لم تكن شيئاً جديداً على البلاد ، وأن فضلها لا يعود إلى المسلمين وحدهم ، وإنما كانت البلاد سائرة في طريقها على أي حال . ومن هؤلاء المؤرخين من يبالغ لكي يظهر للفرنسيين ومؤرخيهم أن إسبانيا كانت على وشك أن تصل إلى شأو الدولة الفرنجية في عهد الكارولنجيين لو لم يفتح العرب بلادها ويحولوا بينها وبين إدراك هذه الغاية[٢] .

أما حقيقة الحال فكانت بعيدة جداً عما يذهب إليه هؤلاء المؤرخون ، نعم

---

(١) عن اللاتينية Forum judicun (القانون القوطي) أي مجموع القوانين القوطية، وقد تكون في مدى قرن، وقد بدأه يوريك، ثم أضاف إليه خلفه ألاريك الثاني مجموعة من القوانين الرومانية تسمى Breviarum وهو مختصر للقوانين التي كانت تطبق على الرومان ، ويعزى إلى شنداسفنتو الفضل في مزج المجموعتين معاً وتكوين مجموع متناسق منهما يطبق على الناس أجمعين، وهو مجموعة قانونية شاملة لها قيمة تشريعية عظيمة، ولو طبقت على الناس لكانت سيرة القوط في إسبانيا سيرة أخرى.
MAURICE LEGENDRE, *Nouvelle Histoire d'Espagne*. pp. 73. Sqq.

(٢) نفس المصدر السابق والصفحات عينها.

إن الحال لم يبلغ من السوء هذا المبلغ المحزن الذي يصوره دوزي في كتابه ، ولكنه كان سيئاً على أي حال ، ولا يقارن بحال بما وصلت إليه البلاد من الرفاهية والرقي في عصور المسلمين . وذلك هو الرأي الذي يميل إليه المؤرخون المنصفون من الإسبان أنفسهم ، بعد أن تجلت مظاهر الحضارة الإسلامية الإسبانية ، وأصبحت أوضح من أن يماري فيها أحد أو يفضل عليها نظاماً اجتماعياً مضطرباً كنظام المجتمع القوطي الإسباني قبيل الفتح العربي(١) .

طبيعي ألا يستطيع القوط إنشاء مجتمع جديد خير من المجتمع الروماني القديم ، إذ لم يكن لهم هم أنفسهم نظام اجتماعي مقبول قبل أن يدخلوا الدولة الرومانية ويستقروا في أرضها ويستعيروا نظمها ، ولكن ذلك لا يمنع أن يكونوا قد أنعشوا المجتمع الروماني المضمحل وأدخلوا عليه عناصر جديدة نشيطة توجهه توجيهاً جديداً .

وينبغي أن نقول أيضاً إن القوط كانوا أقل إنسانية ونظاماً من طوائف المتبربرين الأخرى التي استقرت في شبه الجزيرة حتى الوندال أنفسهم ، لأن الوندال كانوا لا يبهظون البلاد التي ينزلون فيها بتكاليف حكومة ضخمة تريد أن تستقصي كل شيء وتتشبه بالرومان : كانوا يزيلون النظام القديم بمحاسنه ومساوئه ، أما القوط فقد احتفظوا بمساوىء هذا النظام ، وأضافوا إليه مساوئهم ، فعمّ ضررهم الجميع ، من المزارع الصغير والقن الفقير إلى الغني صاحب الضياع ، ولم يتدخل الوندال أو السويف في مسائل الناس الدينية ، أما القوط فتدخلوا واضطهدوا مخالفيهم ، كما رأينا ، فعمّ بلاؤهم الناس أجمعين(٢) .

وقد ذهب الراهب الراوية باوبوس أوروزيوس إلى أن القوط قسموا الأرض وأحسنوا إلى الناس ، ولكن أوروزيوس كاتب كنسي ، ورجال الكنيسة

(١) DOZY. *Musulmans d'Espagne*, I, pp. 258- 259.

(٢) DOZY. *Op. cit.* I, p. 258.

لا يهتمون إلا بما يمس مصالحهم ، ولم تكن لهم عناية بشؤون الناس وصغارهم خاصة كالزراع وأهل المدن . ومن هذا القبيل ما يؤكده راوية آخر من رواة هذا العصر هو سلفيان المرسيلي (Salvianus Marsallanus) من أن الناس كانوا يفضلون الفقر والحرية في عهد القوط على ظلم الرومان ، ولكن الغالب أن كلامه هنا منصب على حكم القوط الشرقيين ، لأنه عاش في كنفهم ، وكان القوط الشرقيون في واقع الأمر خيراً من القوط الغربيين بكثير . وينبغي أن نقرر هنا أن الرهبان كانوا راضين عن القوط بعد تحول هؤلاء إلى الكاثوليكية ، وكانوا ساخطين على الناس لأنهم لم يكونوا يراعون أشراط الدين ، بل بقي معظمهم غير مسيحيين . وتلك حقيقة لا ينبغي أن نهملها من الحساب ، إذ الواقع أن الإسبان لم يكونوا جميعاً مسيحيين في حكومة القوط ، بل ظل الكثير منهم وثنيين ، وقد وجدهم المسلمون كذلك ، وكان هذا مما يسر عليهم أمر كسبهم إلى الإسلام ، هذا على الرغم مما بذله نفرٌ من قساوسة الكنيسة الكاثوليكية في تحويل الناس إليها . فقد قضى القس ماسونا (Masona) القوطي حياته كلها يبشر بالمسيحية في نواحي الغرب وإقليم ماردة على الخصوص ، وهو الذي أوصل المسيحية إلى السويف وإلى نواحي جليقية ، والراهب ليانــدرو (Leandro) وكان مبشراً كاتباً مؤرخاً ، وإليهما يرجع الفضل في ثبات المسيحية على التربة الإسبانية وما أدركته من تأصل في بعض النواحي ، حتى لم يستطع الإسلام إزالتها خلال قرون[1] .

لم يعمل القساوسة شيئاً لتحسين حال الناس ، إذا استثنينا ماسونا ، فقد كان حبراً إنسانياً حقاً ، بل لم يحاول واحد منهم أن يعترض على ما كان الأغنياء يسرفون فيه من الاستبداد بالضعفاء والاستكثار من العبيد ، حتى إيزودور الإشبيلي نفسه على الرغم من علمه الواسع ونزعته الإنسانية ، لم ينكر الرق صراحة ، وإن كان قد قرر أن الناس كلهم متساوون أو يكادون أن يكونوا متساوين ، هذا في حين أننا نجد راهباً آخر هو إيزودور الثيابيدي (الصعيدي)

MAURICE LEGENDRE.*op. cit*. p. 73. (١)

يدهش من أن نصرانياً في مصر يقتني عبداً ، وهذا في ذاته شعورٌ جميل جدير بالذكر ولكنه لم يقترن بأي جهد إيجابي من شأنه أن ينفع هؤلاء العبيد ، وكان عددهم كبيراً جداً ، كان الأغنياء يقتنونهم بالآلاف ، ويعاملونهم معاملة جافية كأنهم بعض المتاع ، وقد يئس هؤلاء المساكين من كل إنصافٍ من جانب الحاكمين أو من جانب رجال الدين ، وباتوا يترقبون فرصة الخلاص[1] .

ولم يكن أواسط الناس ممن يسمون كوريالِس (Curiales) من أهل المدن والصناع وأحرار الزراع أحسن حالاً ، لأن ملوك القوط لم يلتفتوا إلى شيء يعود بالخير على عامة الناس ، ولم يؤثر عنهم إنشاء قنطرة أو تعبيد طريق أو وضع قانون يخفف عن الناس مظالم الحكام أو يجعلهم في مأمنٍ من الظلم والعدوان ، وقد كانوا هم أنفسهم أبعد الناس عن أي لون من هذا التفكير .

ويضاف إلى هذه المساوىء الاضطهاد الديني بألوانه : اضطهاد القوط للكاثوليك حينما كانوا آريين ، ثم اضطهادهم لليهود على النحو الذي رأيناه في أيام لذريق مما جعلهم يميلون إلى الخلاص من هذا الحكم البغيض ، وقد اتهمهم القوط بالتآمر على سلامة الدولة مع قوم خارج إسبانيا ، لكي يبرروا عسفهم بهم ، والغالب أن رجال الدين الكاثوليك كانوا هم المحرضين على هذا الاضطهاد لأننا رأينا أنه من غير المعقول أن يحاول يهود إسبانيا الاتصال بيهود إفريقية في ذلك الحين .

وحينما تقادم العهد بالقوط في البلاد ، وتمتعوا بخيراتها الوفيرةِ مالت بهم نفوسهم إلى الدعة ، وجعلوا يكلون أمور الحرب إلى عبيدهم ، حتى زاد عدد العبيد على عدد الأحرار في الجيش . ويبدو أن الحروب المتعددة بين ملوك القوط ونبلائهم هي التي حفزت هؤلاء الملوك إلى الاستكثار من هؤلاء العبيد في الجيش ، لأن أعداد محاربي القوط القليلة توزعت بين الملوك والثائرين ، وكانت

(١) DOZY. *Musulmans d'Espagne, I, 265.*

كثـرة العبيد في الجيش من أسبـاب ضعفه ، لأنهم كـانوا سـاخطين عـلى الدولـة ينتظرون الفرصة للتخلي عنها وتركها لمصيرها[١] .

٧ ـ الحالة الثقافية

ولا بـد من إشارة قصيـرة إلى حال الثقـافـة بـألـوانها في البـلاد قبل الفتح الإسلامي ، فهذه هي النـاحية الـوحيدة التي سيجـد المسلمون فيها أساساً طيباً يزيدون عليه . وقـد كانت إسبـانيا منـذ فجر التـاريخ بلد ثقافة وموطن علم وفن ، وضع الفينيقيون أساس ذلك كله وزاد عليه اليونان والرومان ، ثم أقبلت المسيحية فأنعشته وسارت به خطوات إلى الأمام ، ولعل في هذا بعض ما يفسر لنـا سراً من أسـرار الازدهار الفكـريّ السـريـع الذي حققـه المسلمون في إسبانيا ، على قلة اتصالهم بمنابع الثقافة القديمة والوسيطة في العالمين الإسلامي والمسيحي .

تأصلت المسيحية في إسبـانيا بـأسرع ممـا تأصلت في غـالة مثـلاً ، ولم يكد القرن السـادس عل حتى كانت البلاد تفيض بالأديرة يقيم فيها الرهبان يـدرسون ويتذاكرون ، والكنائس يقوم بأمرها قسـس معنيون بالدرس مشغـوفون بـالكتابة والتأليف ، وقد أشرنا إلى القس القوطي ماسـونا (تـوفي سنة ٥٧١ م) ونـزعاتـه الإنسانية واجتهاده في تهذيب المتبربرين ونشر مبـادىء الأخلاق المسيحيـة فيهم . ومن هذا الطراز القديس لياندرو المتوفى سنة ٦٠٣ م ، فقد كان دارساً مجتهـداً ، وقد ترك لنا آثاراً فكرية طيبة : ومن آثاره رسالة مسيحية صوفيـة قريبـة الشبه بكتابات القديس أوغسطين فيها زهدٌ في الـدنيا وتـرغيبٌ في الكمال ، ومـادتها مقتبسة من الإنجيل ولكنها طيبة جداً إذا عرفنا أنها كُتبت في القرن السادس ، وأنه كتبها وهو منفردٌ بنفسه في نواحي ماردة ، وكانت إذ ذاك قفراً لا يسكنه إلا القليل[٢] .

وأكبر شخصيات هذاالعصر مكاناً وأبقاها أثراً في مستقبل البلاد الثقافي هو

---

(١) DOZY. *Musulmans d'Espagne,* I, p. 269.

(٢) M. LEGENDRE. *Nouvell Hist. d,Espagne,* p. 77.

القديس إيزودور الإشبيلي (Isidoro de Sevilla) ولم يكن قوطياً وإنما من الإيبيريين الرومان ، ولم يكن كاتباً دينياً فحسب بل كان مصنفاً موسوعياً حاول أن يجمع في كتبه ما انتهى إليه من علوم اليونان والرومان معدلة تعديلاً مسيحياً ، وهو يعد من هذه الناحية من كبار الكتّاب والمفكرين المسيحيين بل من آباء الكنيسة ، وكتاباته تسلكه مع كتابات القديس أوغسطين في سلكٍ واحد ، وأعظم كتبه وأبقاها كتاب أصول الكلمات (Originume sive Etmologiarum) . وربما وجدنا فيما يورده من أصول الكلمات أشياء أسطورية دينية لا يقبلها العقل ، ولكن الكتاب موسوعة أخلاقية تضم ثروة عظيمة من الأفكار اليونانية والرومانية وفلسفة المسيحية الأولى ، وهو يُعالج في الأجزاء الثلاثة الأولى الفنون السبعة : النحو والبلاغة والمنطق والحساب والهندسة والموسيقى والفلك ، ثم يخص الطب بالجزء الرابع ، ويختص بالقانون والتاريخ الجزء الخامس ، ويجعل الجزء السادس للإنجيل وغيره من الكتب الدينية ، وهكذا يختص كل لون من المعارف الإنسانية بجزء ، حتى الفنون اليدوية كالنجارة والهندسة والموازين والمكاييل والألعاب ، بما يجعل كتابه موسوعة غنية بكل غريب طريف ، تدل على أن جميع ألوان المعارف الإنسانية التي كانت معروفة في ذلك الحين كانت موجودة متدارسة في إسبانيا ، وأن العرب حينما دخلوا البلاد وجدوا فيها تراثاً ثقافياً طيباً[١] .

ونستطيع أن نذكر إلى جانب القديس إيزودور عدداً عظيماً من القساوسة والرهبان الذين تركوا مؤلفات شتى ، منهم : باولوس أوروزيوس قس لوزيتانيا ، ولم يكن إسباني الأصل ، وإنما كان صقلياً ، وهو من تلاميذ القديس أوغسطين

---

(١) أراد إيزودور أن ينشىء موسوعة تضم معارف عصره كلها وجعلها في ٢٠ جزءاً: الستة الأولى منها مقدمة والباقية تتناول أصناف العلوم والفنون المعروفة في عصره، وله مؤلفات تاريخية كثيرة، منها كتاب عظماء الرجال *(Liber de viris illustribus)* والمدونة *(Chronicon)* وتاريخ ملوك القوط *(Historia de Regibus Gothorum)* وتاريخ ملوك الوندال والسويف *(Historia de regibus Vandalorum et Suevorum)*

انظر :

JUSTO PEREZ DE URBEL. *Las letras en la epoca visigoda en Historia de Espana,* tomo III. *Espana Visigoda* (Madrid, 1940), pp. 401 Sqq.

أسقف بونة ، أخذ عنه العلم وتشبع بآرائه وهو لهذا يكتب على غراره : يهاجم الوثنية ويدعو إلى الله ، وقد حاول تقليد القديس أوغسطين في كتابه « مدينة الله » (Civitate Dei) ونلاحظ هذا التشابه في التاريخ العالمي الذي كتبه تحت اسم (Historiarum Libri vii contra paganos) الذي يفسر فيه التاريخ تفسيراً دينياً مسيحياً ويصور العناية الإلهية توجه أعمال البشر والرسل يقودون الناس إلى أحسن مصير(١) .

أما ما عدا الآداب من الفنون ، فإن القوط لم يخلفوا إلا ثروة معمارية فقيرة جداً ، ومن أمثلة هذا الطراز بازيليكية سان خوان دِبانيوس التي بنيت في عصر رخشندش وجزء من كنيسة سان بدرو دِتارّاسا وبعض عمد باقية في كنيسة سان بابلو دل كامبو في برشلونة ، وينسب بعض مؤرخي الفنون العقد المخمس إلى القوط(٢) .

وخلاصة القول أن إسبانيا القوطية لم تكن شراً كلها كما يرى بعض المؤرخين الفرنسيين والعرب ، ولم تكن خيراً كلها كما يزعم الإسبان ، وإنما كانت جوانبها الاجتماعية ضعيفة جداً ، بل تعد امتداداً للعصر الروماني المضمحل. وذلك معقول لأن القوط أنفسهم كانوا قبائل متبدية لا تملك من الأسس الإجتماعية ما يعينها على تنظيم بلدٍ واسع كإسبانيا ومجتمعٍ متشعب مختلف كمجتمعها الذي ضم أخلاطاً من كل صنف، وقد حاولوا أنْ يتخذوا مظاهر النظام السياسي الروماني فلم يوفقوا، لأنهم كانوا أبعد من أن يفهموه أو يستطيعوا البناء عليه، ولم يصب الناس من وراء ذلك إلا شرٌّ بالغ .

وأما الناحية الفكرية فكانت خيراً خالصاً، لأن الذين قاموا بها كانوا هم الإسبان الأصليين بعد أن دخلوا المسيحية وتأثروا بأفكارها وفلسفتها، فلا عجب أن ظهر في هذ القطر النائي رجال من طراز إيزودور الإشبيلي وباولوس

(١) نفس المصدر ص ٧٢.

(٢) BALLESTEROS. *Op. cit.* p. 41.

أوروزيوس وليانادرو، لأن البلد كان قبل ذلك موطن حضارة فكرية وفلسفة باقية الأثر في عهود الرومان. لقد سبقت إسبانيا المسيحية أوروبا الغربية كلها في هذه الناحية، كما ستسبق إسبانيا الإسلامية بقية العالم الإسلامي في نواحٍ شتى من نواحي التفكير الإسلامي. ولعل مرد هذا إلى أثر هذا القطر البديع فيمن يقيم فيه، وليس من وحي المصادفة أن يتواتر السبق والنبوغ في أهله من أقدم العصور إلى يومنا هذا، ولعل إيزودور الإشبيلي قد أحس فضل الوطن الإسباني على ما وصل إليه من ذكاء وعلم واقتدار فعبر عن شكره لبلده في أسطرٍ تفيض رقة وحناناً يقول فيها مناجياً إسبانيا:

«أي إسبانيا ! إنما أنتِ أجمل الأرضين التي تمتد من أقصى الغرب حتى الهند . . . إنك لارضٌ مباركة سعيدة بأمرائك ! إنكِ أم لشعوب عديدة ، وأنتِ ملكة الولايات أجمعين . . . منك يقبس الغرب والشرق النور . وعلى أرضك يزدهر خصب الشعب القوطي المجيد . . . »[1] .

---

(١) MAURICE LEGENDRE Op cit. p. 78.

الفصل الثاني

فتح المغرب

٨ - فتح المغرب

لم يدخل الشمال الإفريقي في حوزة الإسلام بحرب واحدة بل بسلسلة من الحروب استمرت حوالي سبعين سنة متوالية ، بدأت ببعث استطلاعي قام به عقبة بن نافع في ذي القعدة سنة ٢١ هـ (سبتمبر ٦٤٢) وانتهت بحملة موسى بن نصير الأخيرة الموفقة التي أخضع فيها المغرب الأقصى سنة ٩٠ هـ (سنة ٧٠٨ م)، وقد لقي فيها العرب من الجهد والخسائر ما لم يلقوا مثله في فتح إقليم آخر، حتى شمال الهند نفسه[1].

بيد أننا لو قارنا هذا الجهد الذي بذله العرب بسعة البلاد التي تم فتحها ووعورة أراضيها واختلاف أجناسها ، لتبينا أن العرب فتحوا هذه الأقطار المترامية بأيسر مما فتحها الرومان ، وأنهم وفقوا إلى إخضاعها توفيقاً لا يكاد يقارن به توفيق الرومان في العصر القديم أو توفيق الفرنسيين في العصر الحديث ، وأن خسائر العرب كانت أقل بكثير جداً من خسائر هؤلاء وأولئك . هذا في حين كانت النتيجة التي وصل إليها العرب رائعة على غير مثال ، وقد علق جوتييه على ذلك بقوله : « لا زالت النتائج التي وصل إليها العرب (في فتحهم الشمال الإفريقي) تدهشنا إلى الآن . لقد عُرِّب المغرب إلى حدٍ كبير ، وتحول إلى الإسلام تحولاً تاماً عميقاً ، وهذه نتيجة تدعو إلى الإعجاب ، ما في ذلك شك ، ولم توفق إلى مثل هذه النتيجة حركة استعمارية (كذا) أخرى

(١) أوجزت في الصفحات التالية فتح إفريقية اعتماداً على بحثي في هذا الموضوع «فتح العرب للمغرب» ـ القاهرة سنة ١٩٤٧ ، والبحث الذي نشره ليفي بروفنسال «نص جديد عن فتح العرب للمغرب» في صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد ـ مجلد ٢ سنة ١٩٥٤ ، وتعليقنا على كلام بروفنسال ونص عبيدالله .

قامت على وجه الأرض ، ولنكرر القول أن هذا الفتح أحدث ، خلال القرن السابع ، ثورة كبرى : لقد انهار الحاجز المغلق اغلاقاً محكماً من كل ناحية ، الذي كان يفصل الشرق عن الغرب . ولو أننا قارنا هذه القفزة الواسعة نحو المجهول بثوراتنا ـ الفرنسية أو الروسية مثلاً ـ لبدت لنا هاتان الأخيرتان صغيرتين جداً ، فإذا دفعنا تطلعنا إلى فهم الأسلوب الذي تمت به هذه الثورة الكبرى وإلى الإحاطة بتفاصيلها استبنّا أن الفتح العربي كان طويلاً جداً وعنيفاً جداً ، إذ قاومتهم البلاد مقاومة عنيدة »(1) .

هذه الملاحظة تعطينا فكرة واضحة عن طبيعة الفتح العربي للمغرب وعن ضخامة العمل الذي قام العرب به ومدوا خلاله رواق الإسلام بضعة آلاف من الكيلومترات ، من حدود مصر إلى المحيط الأطلسي . والثابت تماماً أن العرب لم يتصوروا اتساع المغرب الشاسع واختلاف شعوبه حينما أقبلوا على فتحه ، وأنهم فتحوه جزءاً جزءاً : كل إقليم يؤدي بهم إلى الذي يليه حتى وصلوا إلى النهاية ، أما ما نجده عند بعض المؤرخين والجغرافيين من تصورٍ صحيح للمغرب وأهله فقد كتب بعد تمام الفتح وإسلام المغرب بقرون(2) :

---

(1) E.F. GAUTIER. *Le passé de L'Afrique du Nord*. pp. 247- 248. وبقية عبارة جوتييه في هذا الصدد لا تقل عن هذه الفقرة أهمية ولا عمقاً، فهو يقول مثلاً بعد استعراض سريع لخطوات الفتح العربي: «كان الفتح الفرنسي للجزائر طويلاً ومؤلماً، وكانت قيادته سيئة، وليس لنا الحق في أن نفخر به كثيراً. ولكن لنقارنه بالفتح العربي، ولنفرض أنه بين سنتي ١٨٣٠ و١٩٠٠ طرد الفرنسيون من البلاد طرداً تاماً ثلاث مرات، وأنهم لم يحتفظوا في أحسن هذه المرات إلا بالجزائر وضواحيها ـ مدينة الجزائر تقابل عندنا القيروان عند العرب ـ ، إذا استطعنا تصور ذلك أخذنا فكرة عما حدث أثناء الفتح العربي. . .» .

ثم يورد بعد ذلك نصوصاً لمؤرخي العرب وجغرافييهم تصور صعوبة هذه البلاد وعتو أهلها، وقد أوردت معظم هذه النصوص في صلب البحث. (نفس المصدر ص ٢٤٩ وما يليها).

(2) مثل هذه القالة نسبها ابن عبد الحكم إلى عمرو بن العاص رواية عن عبد الملك بن مسلمة عن ابن لهيعة عن ابن هبيرة عن أبي تميم الجيشاني، قال: إن عمرو بن العاص بعث يستأذن عمر بن الخطاب في فتح إفريقية، فكتب إليه عمر: «لا . . . إنها ليست بإفريقية، ولكنها المفرقة، غادرة مغدور بها، لا يغزوها أحد ما بقيت. . .» .

=

مر فتح العرب للمغرب في ستة أدوار[1] :

(أ) **الدور الأول** : من أوائل الفتح في ذي القعدة سنة ٢١ هـ (سبتمبر ٦٤٢م) إلى نهاية ولاية معاوية بن حديج في أوائل سنة ٤٨ هـ (سنة ٦٦٨ م) :

وفي خلالها غزا عمرو بن العاص برقة ، وكسب قبيلة لواتة الكبيرة إلى جانب المسلمين ، بل أدخل بعض أهلها في الإسلام ، فكان هذا أول كسب للإسلام فيما يلي حدود مصر غرباً . واستفاد عمرو في أثناء ذلك بجهود عقبة بن نافع الفهري ، وكان إذ ذاك قائداً صغيراً في جيشه ، فبعثه إلى زويلة وفزان وودّان . وقد أقام عقبة في هذه النواحي الصحراوية المنعزلة نحو عشرين

= ومثل قول ابن عذارى: «فكتب حسان (بن النعمان) إلى أمير المؤمنين عبد الملك يخبره بذلك، وأن أمم المغرب ليس لها غاية، ولا يقف أحد منها على نهاية كلما بادت أمة خلفتها أمم، وهم من الحفل والكثرة كسائمة النعم. . . » .

ابن عبد الحكم: فتوح، ص ١٧٣ . ابن عذارى: البيان، ج١ ص ٢١ .

(١) اعتمدت في كتابة هذا الموجز لفتح العرب للمغرب على بحثي الخاص بهذا الموضوع (القاهرة ١٩٤٧). وإليك أهم المراجع والصفحات التي اعتمدت عليها:

ابن عبد الحكم: فتوح مصر والمغرب والأندلس (حققه شارل س. توري سنة ١٩٢٢). ابتداء من ص ١٧٠ .

والبلاذري: فتوح البلدان من ص ٢٢٤ .

والبكري: وصف إفريقية ص ١، ٢ وفي مواضع متفرقة أخرى، لأنه يذكر ما يعرفه عن فتح المسلمين لكل بلدٍ عند ما يذكره.

ورياض النفوس للمالكي (القاهرة ١٩٥١) ج١، من ص ١ وما بعدها.

وابن الأثير: ج٣، ابتداء من ص ١٠ .

وابن خلدون ج٦، من ص ١٤٤ .

والنويري: نهاية الأرب، (مخطوط بدار الكتب) من ص ٦٣ .

وأبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج١، من ص ٧٦ .

والدباغ: معالم الإيمان، ج١ من ص ٤٠ .

وكل من هذه المراجع لا يخصص للفتح إلا بضع صفحات، وسأكتفي بهذه الإشارة عن ذكر المراجع بعد كل فقرة.

يدعو للإسلام ويضرب لأهلها مثلاً جميلاً للمسلم الصحيح المتفاني في دينه.. واستطاع أن يكسب إلى صفه قلوب الكثيرين من أهلها ومعظمهم من نفوسة ولواتة ونفزاوة (أي من البُتر ، أي البربر الظواعن) ، فأما من أسلم منهم فسينضم إلى المسلمين منذ الساعة وسيكون له أثره في نجاح فتوحهم وتقدمها ، وأما من لم يسلم فقد أصبح صديقا للمسلمين يواليهم بالعون ويؤيدهم على الروم والبرانس (البربر المستقرين المتحضرين بالحضارة اللاتينية) .

وفي خلال هذا الدور وفق المسلمون الى الانتصار الحاسم العظيم على الروم عند سبيطلة في أوائل سنة ٢٨ هـ (٦٤٨ م) . وقد كانت لهذا الانتصار العظيم نتيجة واحدة : هو أنه كسر سلطان البيزنطيين كسرة لن يعود بعدها إلى ما كان عليه في البلاد قبل الفتح الإسلامي ، وسيحاول البيزنطيون العودة إلى البلاد والاتحاد مع البربر ومغالبة العرب ، ولكن كل محاولاتهم لن تزيد عن أن تكون محاولات قليلة الخطر عديمة النتائج ، ولو أن عبدالله بن أبي سرح أقام في البلاد أو ترك فيها حامية لكان لانتصار سبيطلة نتائج بعيدة حاسمة ، ولكنه عجل بالعودة لأسباب غير ظاهرة ، مكتفياً بمال عظيم جمعه من أهل البلاد ، فكان على من أتى بعده أن يبدأ من جديد ، لأن انسحابه عفى على معظم النتائج التي كان المسلمون قد وصلوا إليها في البلاد .

(ب) الدور الثاني: ويمتد من سنة ٤٩هـ (٦٦٩ - ٦٧٠م) إلى ٦٢ هـ (٦٨١م) ويشمل ولاية عقبة بن نافع الأولى وولاية أبي المهاجر دينار:

لم يقم المسلمون بشيء حاسم في إفريقية بين سنتي ٢٨ و٤٥ هجرية ، ذلك أن فتنة عثمان وما تلاها من الأحداث أوقفت نشاط التوسع الإسلامي في كل وجه ، نعم إن عثمان لم يقتل إلا سنة ٣٥هـ (٦٥٤ م) ولكن السنوات الأخيرة من حكمه كانت سنوات اضطراب وشغب عليه ، وكان والي مصر وقائد الفتوح في إفريقية هو عبدالله بن سعد بن أبي سرح أحد المغضوب عليهم من الناس في ذلك الحين ، فكان طبيعياً أن ينصرف فكره عن إفريقية ومواصلة الفتوح فيها منذ عودته من غزواته التي ذكرناها في سنة ٢٨ هـ (٦٤٧ م) .

فلما انتهت الفتنة واستقر الأمر لمعاوية عاد عمرو بن العاص إلى مصر سنة ٣٨ هـ (٦٤٨ م) واتجه ذهنه من أول الأمر إلى معاودة الغزو في إفريقية ، لأنها كانت ، في حسابه ، باباً مفتوحاً للكسب والمغانم . ولا نزاع في أن معاوية لم يكن راضياً عن هذه الحرية التي أباحها عمرو لنفسه ، لأن حملة عبدالله بن سعد وما عادت به من المغنم الوفير فتحت عينه على أهميتها ، وجعلته يفكر في فصلها عن مصر وإفرادها بوالٍ خاص . فلما توفي عمرو سنة ٤٤ هـ (٦٦٥ م) سنحت له الفرصة ليحدث هذا التغيير الهام الذي يعين لنا تطوراً خطيراً في علاقة المغرب بالخلافة الإسلامية ، فمن ذلك الحين أصبح المغرب ولاية مستقلة تابعة للخلافة رأساً ، وكان أول والٍ إسلامي عُين على إفريقية معاوية بن حديج أحد كبار أنصار معاوية .

عجل معاوية بن حديج بالسير إلى مصر في سنة ٤٥ هـ (٦٦٦ م) فلم يكد يصل برقة حتى بلغه أن البيزنطيين عادوا فأرسلوا جيشاً إلى البلاد ، وأن قائد هذا الجيش قد طالب أهل إفريقية بأن يؤدوا له من المال بقدر ما أدوا للعرب ، فثار به الأهلون ، فعاد إلى بلاده ليعود بجيشٍ قوي وفي نيته إرغام الأهلين على أن يؤدوا له ما طلب ، فوصل إلى قرطاجنة قبيل الوقت الذي عبر فيه معاوية بن حديج حدودها ومعه عشرة آلاف من العرب فيهم نفرٌ كبير من الصحابة والتابعين ، من أمثال : عبدالله بن عمر بن الخطاب وعبدالله بن الزبير ابن العوام وعبد الملك بن مروان وعدة من أشراف قريش ، ونفرٌ كبير من جند مصر . ولم يكد الجيش يحط رحاله في إقليم قمونية جنوبي قرطاجنة حتى تسامع بنزول الروم ؛ فتقدم نحوهم وعسكر في مكان يسمى القَرْن ، ومن هناك أرسل عبدالله بن الزبير ليستطلع أحوال جيش الروم ، فلم يكد هذا الأخير يشعر باقتراب العرب حتى تراجع إلى سوسة ، وأدركه عبدالله بن الزبير فيها وناوشه مناوشة خفيفة ، أقلع بعدها إلى صقلية ، واستولى المسلمون على سوسة . وأرسل معاوية سرية أخرى إلى جلولاء (Couloulis) الرومية استولت عليها وغنمت غنيمة متواضعة، ثم سار بنفسه إلى بنزر فاستولى عليها، ولا صحة لما يذكره بعض المؤرخين من أن معاوية بن حديج بعث سرية إلى صقلية. ولسنا

نستطيع إعتبار أعمال معاوية بن خديج فتوحاً، وإنما كانت سرايا قليلة الأهمية لم تترك في البلاد أثراً يُذكر .

(ج) الدور الثالث: ولاية عقبة الأولى واختطاط القيروان (٤٩ - ٥٥ هـ / ٦٦٩ - ٦٧٥ م):

٩ - اختطاط القيروان

وأما نشاط الفتح الصحيح فيعود من جديد بتولي عقبة بن نافع قيادة الفتوح في المغرب سنة ٤٩ هـ (٦٦٩ - ٦٧٠ م) وقد كان عقبة أقدم المسلمين عهداً بإفريقية وأعرفهم بأحوالها ، وكان في نفسه رجلاً شديد الإيمان تميل نفسه نحو نشر الدين لا إلى مجرد الفتوح والانتصارات وما وراء هذه من مكاسب . ويبدو أنه كان قد وضع في نفسه خطة طويلة للفتح ، ولهذا لم تكد ولاية إفريقية تؤول إليه حتى سارع بإنشاء مدينة للمسلمين ، اختطها في إقليم قمونية جنوبي قرطاجنة ، ويغلب أنه لم يرد إنشاء مدينة بالمعنى المعروف وإنما معسكراً ، فقد قال : « وأرى لكم يا معشر المسلمين أن تتخذوا بها مدينة نجعل فيها عسكراً ، وتكون عزاً للإسلام إلى آخر الدهر»، وقد قضى عقبة في إنشائها نحو أربع سنوات (٤٩ - ٥٢ هـ / ٦٦٩ - ٦٦٣ م) فلم تكد المدينة تقوم حتى بدأت « ولاية إفريقية » الإسلامية تظهر ، ولم يعد العرب مجرد غزاة يخرجون من مصر للغزو ثم يعودون إليها ، بل أصبحت العاصمة الجديدة مركزاً تخرج منه الغزوات وتنظم منه شؤون البلاد ، وهذا في ذاته تطورٌ له معناه . واشتغل عقبة أثناء بناء المدينة في إرسال السرايا في كل وجه ، فكانت نتيجة ذلك أن القبائل البربرية المقيمة في سهل تونس ، وفي الهضاب المجاورة بدأت تشعر بقوة المسلمين ، واجتذبتهم المدينة الجديدة ، وأثرت فيهم شخصية عقبة القوية ، فأخذوا يقتربون من المسلمين وأسلم منهم نفرٌ عظيم ، وبهذا نشأت في سهل تونس جماعة إسلامية بربرية . وكانت تلك خطوة حاسمة في تحويل المغرب إلى الإسلام ، وزادها أهمية أن الكثيرين من هؤلاء البربر الذين أسلموا أخذوا ينتمظون في جيوش المسلمين ويسيرون معهم لإتمام فتح البلاد .

فلما أتم عقبة تأسيس « نقطة الارتكاز » وفيما هو يشرع بأخذ الأهبة للخروج للغزو الواسع النطاق ، إذا معاوية بن أبي سفيان يفاجئه بالعزل سنة

٥٥ هـ (٦٧٤ م) نتيجة لسعايات والي مصر مسلمة بن مخلد ، الذي كان يغار من عقبة ويحسده .

وأقام مسلمة على إفريقية أحد مواليه دينار أبا المهاجر سنة ٥٥ هـ (٦٧٤ م) وكان مسلماً حسناً وجندياً نشيطاً ، وكان أول قائد مسلم يقدر له أن يخرج من سهل تونس ليتوغل هضاب المغرب الأوسط ويهاجم القبائل البربرية في مواطنها الحصينة . وكانت أول كتلة بربرية قوية اصطدم بها هي كتلة أَوْرَبة أقوى قبائل البرانس في ذلك الحين ، وكانت النصرانية قد انتشرت بين أفرادها . وكان رئيسها كَسِيلة بن لَمَزَم الأوربي ، وكان رئيساً ذكياً قادراً ، وقد استطاع أبو المهاجر أن يغزو مواقع أوربة في جبال الأوراس وأن يجتذب كسيلة إلى الإسلام ، فأسلم وتبعه نفرٌ كبير من قومه في غزوة طويلة وصل فيها إلى تلمسان ، ثم هاجم قرطاجنة هجوماً قوياً سنة ٥٩ هـ ، ولم يرجع عنها إلا بعد أن تنازل الروم له عن شبه جزيرة شريك الواقعة جنوبي إقليم قرطاجنة ، فاحتلها المسلمون وضيقوا الخناق على عاصمة إفريقية البيزنطية .

(د) الدور الرابع : حملة عقبة الكبرى (٦٢ - ٦٤هـ / ٦٨٢ - ٦٨٤ م):

وانتهت ولاية أبي المهاجر سنة ٦٠ هـ ، إذ عزله يزيد بن معاوية ورد عقبة إليها بعد أن طال غيابه عنها وطالت شكواه من حرمانه منها ، ثم عجل بالخروج في غزواته الكبرى التي وصل فيها إلى المحيط ، ومن الغريب أن هذا الرجل القادر لم يحسن استغلال هذه الفرصة العظيمة التي أتيحت له، فقد كان الروم في حالة من الضعف لا تأذن لهم بمقاومة المسلمين ، وكانت أَوْرَبة كلها إلى جانب العرب يقودها رئيسها كَسِيلة . بدأ عقبة فأساء معاملة كسيلة ونفّره وقومه من المسلمين ، ثم مضى في مغامرة طويلة المدى قليلة الأثر السياسي ، تذهب المراجع إلى أنه انتهى فيها إلى ساحل المحيط عند « إيغيران يطوف » ، ثم عاد ليلقى مصرعه عند تهودة على يد البربر ونفرٌ من أحلافهم من الروم سنة ٦٤ هـ (٦٨٣ ؛ ٦٨٤ م) . وقد استشهد مع عقبة في هذه الوقعة نفرٌ كبير من رؤساء المسلمين فيهم أبو المهاجر دينار نفسه ، فإذا تم ذلك لكسيلة فقد سار بمن معه من

البربر فاحتل القيروان ، وتراجع من بقي من المسلمين إلى برقة يقودهم زهير بن قيس البلوي[1] .

بهذا خرجت إفريقية من أيدي المسلمين ، وتراجعوا إلى برقة التي كان عمرو بن العاص قد فتحها منذ نحو أربعين سنة ، وكان على خليفة عقبة أن يبدأ العمل من جديد . ولكن الواقع أن هذه الهزيمة لم تكن قاضية على كل أثر للمسلمين في البلاد ، إذ إن إفريقية كانت تضم إذ ذاك جماعات إسلامية قوية في القيروان وحولها وفي بعض نواحي الأوراس ، وقد خضعت هذه الجماعات لكسيلة ولكنها ظلت تترقب فرصة عودة المسلمين ، ويبدو أن نزاعاً وقع بينه وبينهم ، لأن المراجع تصور لنا إفريقية خلال الفترة التي انقضت بين انسحاب المسلمين وعودتهم في حالة مضطربة .

(هـ) الدور الخامس : ولاية زهير بن قيس والقضاء على مقاومة البرانس (٦٩ - ٧١ هـ /٦٨٨ - ٦٨٩ م) :

عاد المسلمون إلى إفريقية بعد هذه الهزيمة بأربع سنوات - أي سنة ٦٩ هـ / ٦٨٩ م - يقودهم زهير بن قيس البلوي الذي ظل هذه السنوات ينتظر المدد في برقة، وقد أبدى زهير مقدرة عظيمة خلال السنوات الثلاث التي قاد فيها جيوش المسلمين في إفريقية: بدأ بحملة عنيفة على الروم قضت على كل أمل لهم في معاودة الوقوف في وجه المسلمين أو التحالف مع البربر، ثم أسرع إلى كسيلة الذي كان متحصناً في ممّس، فهزمه وقتله في معركة حامية «كسرت شوكة البرانس وقضت على مقاومتهم، وقضت على ما كان معقوداً بينهم وبين الروم من تحالف على العرب وتعاون على طردهم». وبهذا قضى هذا القائد الماهر خلال هذه الفترة القصيرة على عنصرين من أشد عناصر المقاومة، وهما الروم والبربر البرانس أي المستقرين في السهل الساحلي المتأثرين بالحضارة البيزنطية

---

(١) أنظر: حسين مؤنس: فتح العرب للمغرب (القاهرة ١٩٤٧) وليفي بروفنسال: نص جديد عن فتح العرب للمغرب، نشر في صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد، المجلد الثاني ١٩٥٤ ص ١٩٣ وما يليها.

والمسيحية، وبقيت ضربة أخرى توجه إلى القبائل المتبدية (البُترية) لكي يمكن القول بأن المسلمين قد قضوا على كل عناصر المقاومة الجدية في المغرب.

قاد جيوش الإسلام المظفرة في هذا الدور الخطير من أدوار الفتح رجلٌ لا يقل قدرة ولا أهمية عن عقبة بن نافع أو زهير بن قيس، وهو حسان بن النعمان. وكان زهير قد استشهد عند برقة، تربص له الروم على طريق العودة بعد هزيمتهم وهزيمة أحلافهم، وكأن قتلهم زهير قد أنعش في نفوسهم الآمال في عودة إفريقية إليهم، وأرسل الإمبراطور ليونتيوس مدداً صغيراً إلى قرطاجنة قويت به نفوس من بها من الروم، فكان على حسان خليفة زهير أن يبدأ العمل من جديد كما بدأه زهير.

(و) الدور السادس : القضاء على مقاومة البُتر وإتمام فتح المغرب (٧٦ ـ ٨٥ هـ / ٦٩٥ ـ ٧٠٥ م) :

فطن عبد الملك بن مروان إلى أن إفريقية لن تفتح فتحاً كاملاً ثابتاً إلا إذا سار إليها جيش كبير حسن الإعداد . وواتته الظروف على إرسال هذا الجيش ، إذ كانت ثورة ابن الزبير قد قُضي عليها، ولهذا وُضع تحت تصرف حسان جيشاً كبيراً حسن العدة يبلغ عدد جنوده أربعين ألفاً . وسار حسان إلى إفريقية بعد أن رسم لنفسه خطة واضحة : كان يعرف أن القادة قبله كانوا ينفقون معظم وقتهم وجهودهم في أعمال حربية ثانوية تفرق قواهم وتحول بينهم وبين أن يقوموا بعمل حاسم يقضي على مقاومة البربر أو الروم . جعل حسان الروم وجهته الأولى ، وكان يعرف أن ما بقي لهم من القوة في قرطاجنة شيء صغير لا يستطيع مواجهة العرب ، ولكنه كان يستطيع مضايقتهم وشل حركتهم وإحباط مساعيهم فعول على مهاجمتهم في قرطاجنة والقضاء عليهم القضاء الأخير ؛ وقد ألح في حربه لقرطاجنة ومن فيها وثابر على ذلك حتى استبان لمن فيها من الروم أن لا نجاة إلا بالهرب وترك البلاد جملة ، « فركبوا مراكبهم ، وسار بعضهم إلى صقلية، وبعضهم إلى الأندلس، ودخلها حسان بالسيف فسبى ونهب»، وبهذا

ثلاثين سنة، ولو قد أرادوا القضاء عليه سنة ٢٧ هـ لفعلوا، ولكن الأمر كان يحتاج إلى رجلٍ في قدرة حسان وبُعد نظره. ثم مضى حسان يهاجم الروم فيما عسى أن يعرفه من مراكزهم الباقية، وأبدى في ذلك نشاطاً مشكوراً.

ثم عاد ليتوجه بكل قواه نحو مركز المقاومة الآخر وهم البربر البُتر، وكانوا قد تجمعوا حول امرأة لقبها العرب بالكاهنة، ويغلب أن اسمها كان «داهية بنت ماتية بن تيغان» ملكة جبل أوراس، وكانت على جانبٍ عظيم من المهارة والقدرة، فجمعت حول رايتها نفراً غفيراً من البربر الرحل «فيهم بنو يفرن، ومن كان بإفريقية من قبائل زناتة وسائر البتر»، وكانت هي تنتسب إلى قبيلة جِرواة، ويذهب المؤرخون إلى أن هذه القبيلة كانت يهودية وهذا أمر لا يستبعد وإن كان يفتقر إلى ما يثبته.

ولم تكن الكاهنة ثائرة على العرب من أول الأمر كما يُفهم من النصوص، وإنما كانت مطمئنة بمقامها في جبل أوراس ترقب الحوادث، فلما رأت حسان يقضي على الروم ويتقدم نحو بلادها سارعت فجمعت من استطاعت جمعه من رجالها، وانتظرت في «باغاية» على مدخل الجبال، فلما اقترب حسان منها تراجعت حتى ثبتت عند نهر نيني على مقربة من موضع قسنطينة الحالية. وثبتت الكاهنة ومن معها للعرب ثباتاً عظيماً، بل شدت عليهم حتى هزمتهم بعد أن قتلت منهم عدداً كبيراً، وتقهقروا أمامها فتتبعتهم حتى أخرجتهم من إفريقية جملة، وبهذا خرجت هذه البلاد عن يد العرب مرة أخرى بعد ما تكبدوه من جهدٍ وتضحية، وأرادت الكاهنة أن تقطع أمل العرب من هذه البلاد، فأمرت رجالها فخربوا ما استطاعوا تخريبه من مظاهر العمران.

أضر هذا العمل بالكاهنة وقضيتها ضرراً بالغاً، لأنه غيّر عليها نفوس الناس، وجعلهم يرون أن العرب خير من هذه الرئيسة على كل حال، فهم لا يخربون ما يدخلونه من البلاد هذا التخريب الذريع. وانتهز الروم الفرصة فعادوا في سفن ودخلوا قرطاجنة، وطردوا من كان بها من المسلمين. وأقام حسان في برقة خمس سنين حتى أرسل له عبد الملك بن مروان المدد، فتحرك إلى إفريقية من

جديد سنة ٨١ هـ (٧٠١ م) .

لم يكد حسان يطل على سهل تونس حتى تسارع نفرٌ عظيم من البربر والأفارقة فانضم إليه ، فعظم جمعه وسار للقاء الكاهنة ، ويبدو أنها أحست ضعف أمرها وقرب نهاية شأنها ، فأخذت تتراجع متوغلة في جبال أوراس ، وبعثت ولديها ليستأمنا حسان ، فأمنهما وولى كلاً منهما على ستة آلاف ممن استأمن من البربر والأفارقة ، ثم لقيت العرب عند « بئر الكاهنة » فانهزمت . وهكذا قضى العرب على آخر حركة قام بها أهالي البلاد لردهم ، إذ كانت الكاهنة هي الحصن الأخير الذي احتمى وراءه أهل البلاد ، فلما سقطت انتهت كل مقاومة ، ولم يبقَ أمام العرب بعد ذلك إلا « غبار قبائل » كما يقول جوتييه ، ثم سار حسان نحو قرطاجنة وطرد الحامية التي كانت قد استقرت فيها بقيادة البطريق يوحنا .

١٠ - اختطاط تونس

ولم يطمئن حسان من ناحية الروم ، ورأى أن سقوط قرطاجنة في يديه لا يمنع الروم من العودة إلى أي مكانٍ آخر من الساحل ، فعول على إنشاء ميناء إسلامي جديد على مقربة من قرطاجنة ، ليشرف منه على البحر ويحول بين الروم وبين الاقتراب ، وبهذا نشأت « تونس » . ولم تزد في عهد حسان عن محرس صغير به بعض المساجد والمباني ، ولكن إنشاءها سيتم على يد عبيدالله بن الحبحاب بعد ذلك بثلاثين سنة ، فتصبح ثغر إفريقية الكبير ، ويتكون فيها أسطول عظيم يغزو المسلمون به صقلية وجنوبي إيطاليا بل جنوبي فرنسا ، ويمهدون به السبيل للسيطرة على غرب البحر الأبيض المتوسط .

* * *

١١ - تنظيم ولاية إفريقية

لم يكد الفتح يتم حتى عجل حسان بتنظيم أمور الولاية الجديدة ، « فدوّن الدواوين وصالح على الخراج ، وكتبه على عجم إفريقية وعلى من أقام معهم على دين النصرانية . وقسّم البلاد خططاً : لكل قبيلة خطة ، وفرض على القبائل أن يقدموا للمسلمين عَدداً من الجنود يحاربون معهم . ويبدو أن البربر أقبلوا على الإسلام في حماس ،

فعمرت بهم جيوش المسلمين في المغرب من ذلك الحين ، وكان حسان بعيد النظر فسوى بين العرب والبربر في قَسم الفيء ، ثم أقام العمال على نواحي الإدارة من خراج وزكاة وجند ، وأرسل الخليفة قاضياً للقيروان أسوة بغيرها من العواصم الإسلامية الكبرى ، وبهذا تم فتح المغرب وتنظيمه . ونستطيع القول إن حسان صاحب الفضل الأول في ذلك كله ، فقد دخل البلاد سنة ٨١ هـ فوجدها مضطربة ثائرة ، ووجد أمر الإسلام فيها مشفياً على الزوال ، وغادرها سنة ٨٦ هـ (٧٠٦ م) ولاية إسلامية هادئة منظمة ، بل تركها وأهلها مقبلون على الإسلام إقبالاً عظيماً ، ويكفي أن نلاحظ أن معظم الجيش الإسلامي في إفريقية كان من البربر حتى تتضح لنا هذه الناحية .

ولو امتدت ولاية حسان لجنى المغرب على يديه كثيراً من الخير ، لأنه كان كما رأينا رجلاً مخلصاً نشيطاً بعيد النظر ، ويبدو أن صفاته تلك أوقعته في خلاف مع عبد العزيز بن مروان عامل مصر للوليد بن عبد الملك ، وكان عبد العزيز يرى نفسه صنو الخليفة ويطلق يده في الأمور كما يشاء دون نظر صادق لصالح الرعية ، وكانت نفسه معلقة منذ زمن بإفريقية ، فلم يزل يضايق حسان ويلاحيه حتى أخافه وجعل استمراره في العمل غير ميسور ، فاعتزل هذا الرجل القدير العمل في أوائل سنة ٨٦ هـ (٧٠٦ م) والمغرب في أشد الحاجة إليه .

١٢ ـ موسى ابن نصير يتولى أمور المغرب(١)

وسارع عبد العزيز فأقام على إفريقية وليَّه وأقرب رجاله إليه موسى بن نصير، وكان من أقدر رجال الدولة الأموية وأذكاهم، وإن كنا لا نستطيع مقارنته بحسان بن النعمان من حيث النزاهة

(١) اعتمدت في كتابة هذا الجزء على المراجع السابق ذكرها، ولم أجد حرجاً في الاعتماد على التفاصيل الهامة التي وردت في كتاب الإمامة والسياسة لأبي حنيفة الدينوري (طبعة القاهرة، ج٢ ص ٩٦ وما يليها).
وواضح جداً أن الكلام الخاص بموسى بن نصير وأعماله في ذلك الكتاب مستقى من مراجع صحيحة، فالتشابه بينه وبين ابن عذارى ظاهر جداً يصل إلى الحرفية في بعض الأحيان، ولا معنى للاستغناء عن معلومات هامة كهذه لمجرد أن دوزي شك في صحة الكتاب كله.
وقد ناقش رأي دوزي وأثبت أصالة ما ورد في كتاب الإمامة والسياسة عن موسى بن نصير الدكتور محمود علي مكي في مقال نشره في المجلد الخامس من صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد. وقد ذهب في هذا المقال إلى أن هذا الجزء من كتاب أبي حنيفة الدينوري مأخوذٌ من كتاب ضاع لمعارك النصيري.

والإخلاص والعناية بصالح الدولة والرعية : فبينما كان حسان ينظر إلى صالح الأهلين ويسعى في تمكين سلطان الدولة والإسلام على نفوسهم بالعدل والخير، كان موسى يحسب أن المسألة مسألة حروب وغنائم وكفى . فكان همه منذ تولى منصرفاً إلى القيام بغزوات يعود منها بالمغنم الوفير والسبي الكثير ولا يهتم بعد ذلك بما كانت تثيره هذه الضربات من الحفيظة وسوء الظن في نفوس أهل البلاد، وسنلاحظ فيما نتناول من شؤون المغرب في سياق هذا البحث أن شيئاً كثيراً من سوء الظن بالعَرب قد انغرس في قلوب البربر نتيجة لسياسة موسى بن نصير ومن بعده حتى أصبح من العسير اقتلاعه، وأن سوء الظن هذا ظل يستشري مع الزمن حتى فصل بين العرب والبربر جملة، وانتهى كما سنرى بانفصال المغرب عن مركز الخلافة، وانحراف الكثيرين من أهله إلى مذاهب ثورية انقلابية تسمى صفرية تارة وخارجية تارة أخرى، وما هي في الواقع إلا خوف وكراهية تأصلا في نفوس البربر بسبب إسراف موسى ومن جاء بعده من ولاة بني أُمية في غزو البربر.

ويبدو أن إسراف موسى في غزو القبائل البربرية دون سبب أو مبرر ظاهر هو شعوره بأن عبد الملك بن مروان يسيء الظن به ويتوقع أن ينهب أموال الولاية الجديدة كما نهب أموال البصرة . وكان عبد العزيز يشد أزره ، ويود لو أثبت أنه خير من حسان بن النعمان وغيره من رجال عبد الملك ، فمضى يذرع البلاد من شرقها إلى غربها ويرمي نواحيها وقبائلها بأبنائه عبدالله وعبد العزيز ومروان وكبار رجاله من أمثال عيّاش بن أخيَل وموسى بن عياش بن عقبة والمغيرة بن أبي بُردة وزُرعة بن أبي مدرك . ولم يكن أهل المغرب بحاجة إلى هذه الغزوات حتى يطيعوا ويقبلوا على الإسلام ، فقد كان معظم القبائل قد ركن إلى الهدوء في ظل الفاتحين الجدد ، وأقبل الكثيرون من البربر ينضمون للمسلمين ويشتركون معهم في حروبهم عن طواعية ورضى . ولم يكن موسى ليتوخى النواحي المضطربة أو القبائل الثائرة ليغازيها ، بل كان يتوخى المطمئنين فينزل بهم على غرة ، والظاهر أن عيوناً له كانت تجوس النواحي وينهون إليه أخبار

القبائل ومن يمكن أخذه على غرة منها ، فنحن نقرأ في أخباره : « أن الجواسيس أتوا موسى فقالوا له : إن صنهاجة بغرة منهم وغفلة ، وأن إبلهم تنتج ولا يستطيعون براحاً ، فأغار عليهم موسى بأربعة آلاف من أهل الديوان وألفين من المطوعة ومن قبائل البربر وخلف عيَّاشاً على أثقال المسلمين . . . فسار موسى حتى غشي صنهاجة ومن كان معها من قبائل البربر وهم لا يشعرون فقتلهم قتل الفناء ، فبلغ سبيهم يومئذٍ مائة ألف رأس (كذا) ومن الإبل والبقر والغنم والخيل والحرث والثياب ما لا يحصى . ثم انصرف قافلاً إلى القيروان ، وهذا كله في سنة ثمانين (كذا) » . ولسنا نفهم سبباً آخر لمثل هذه الغزوة غير الطمع في المغانم ، بل حدث أن غزا كتامة واشتد في أذاها ، فسارع رجالها يؤكدون له طاعتهم وحُسن ولائهم ، فأصر على أن يسيء الظن بهم ، ومضى يواتر الغزو عليهم وأصر على قتل رهائنهم ، حتى انكشفت له براءتهم على نحو لا يقبل الشك ، فانصرف عنهم بمغنمٍ وافر .

ولهذا نحن لا نسمي أعمال موسى بن نصير في المغرب فتوحاً ، لأن الفتح تم على يد حسان ، وكان موسى قديراً على الاستيثاق من طاعة من بقي خارج الطاعة من القبائل ، أو من بعد مكانه منها كأهل السوس الأدنى ، بوسائل أخرى غير هذا الغزو العنيف . بيد أن هذه الغزوات لم تكن شراً خالصاً ، بل هي أحدثت في الغرب رجة كبرى أفاقت بسببها القبائل وتنبهت إلى هذا العصر الجديد الذي بدأ في حياة بلدهم ، وملك الروع معظمهم فتسارعوا إلى المسلمين يدخلون في الطاعة ويعتنقون الإسلام ، ورأى الكثيرون منهم ما يجنيه مواطنوهم الذين يسلمون وينضمون إلى جيوش المسلمين من الخير والغنم ، فأقبل الكثيرون منهم ينضمون إلى جيوش المسلمين آلافاً، ولا يكاد الواحد منهم يسلم حتى يسير مع الجيش الفاتح يغزو معه ويغنم معه . ووافق ذلك مزاج القبائل البربرية المتبدية ، وجمعتها مع العرب صفات البداوة والفطرة والنشاط وحب القتال ، فازدادت جيوش المسلمين في إفريقية زيادة سريعة مطردة لا نكاد نجد لها شبيهاً في أية ناحية أخرى من نواحي الدولة الإسلامية إذ ذاك. وكان لا بد لابن نصير أن يجد لهذه الآلاف مجالاً للغزو والنشاط وإلا صعب عليه ضبطها ،

فمضى هذا الرجل الموفق يقود الجيوش وتقوده الجيوش ، مضى يفتح ويسترسل في الغزو حتى أدرك من ذلك غاية لم تكتب إلا للقلائل جداً من قادة المسلمين .

توجه موسى بضرباته في كل ناحية ، وبدأ بتوجيه حملة نحو سجوما ، ويبدو أن طوائف البربر التي اشتركت في حرب عقبة بن نافع سنة ٨٧ هـ (٧٠٢ م) وقتله عند تهودة كانت تسكن على مقربة من هذه المدينة البربرية ، وقد قاد هذه الحملة عياض وعثمان وأبو عبدة من أبناء عقبة بن نافع ، فانتقموا لمقتل أبيهم من أهل البلد ومن حوله انتقاماً شديداً . ثم أعقب ذلك بسلسلة من الحملات على هوارة وزناتة وكتامة ، وقضى على ما عسى أن يكون قد اختلج في نفوسها من تفكير في الثورة والاستخفاف بالحكام كما كان الحال أيام البيزنطيين . ولما كان موسى يهتم اهتماماً عظيماً بمسألة الأسرى والمغانم ، فقد كان أهل البلاد يسارعون بالإسلام افتداء لأنفسهم من الأسر ، وبهذا جعلت أعداد عظيمة من أهل هذه القبائل تسلم وتقبل على القيروان طلباً للإشتراك في الفتوح والغزوات . ومن هنا لا غرابة في أن نسمع أن موسى أرسل بعد ذلك بقليل جيشاً عظيماً عدته ١٧٠٠٠ من العرب و١٢٠٠٠ من البربر لفتح السوس الأقصى ، وأن هذا الجيش وصل إلى نهر درعة وعاد بطاعة أهله، وكانت تلك هي أول مرة في التاريخ يصل فيها فاتح أجنبي إلى هذه النواحي الداخلية النائية من بلاد إفريقية ، ومن هناك اتجه بهذا الجمع نحو طنجة فافتتحها وترك عندها حامية عظيمة يقودها مولاه طارق بن زياد ، وعهد إليه بالعمل على نشر الإسلام فيما يجاور طنجة من بربر غمارة وبرغواطة . وعسكر طارق بمن معه من المسلمين على سواحل بحر الزقاق ، وبدأت أنظارهم تتجه نحو إسبانيا في العدوة الأخرى .

ويبدو أن ميدان إفريقية ضاق بنشاط موسى وقواده وجنوده ، لأن ابن عذارى يحدثنا ـ رواية عن ابن القطان ـ عن حملة إلى صقلية ، غزا المسلمون فيها سرقوسة وعادوا موقرين بالغنائم .

وعاد موسى إلى القيروان مخلفاً طارق بن زياد ومن معه بموضعهم هذا ،

وعلم طارق أن ميناء سبتـة على مقـربة منـه ، فبدأ يتحـرك نحوهـا وهناك وجـد شخصية غريبة غامضة يتحدث عنها المؤرخون كثيراً ، ولا تزيدها كثـرة الحديث إلا إمعاناً في الغموض ، تلك هي شخصية يليان .

الفصل الثالث

فتح الأندلس

(١)

رواية جديدة * عن

فتح المسلمين الأندلس

١ - إعادة نظر في الموضوع

منذ أكثر من ٦٠٠ سنة قال لسان الدين بن الخطيب (رجب ٧١٢ - ربيع الثاني ٧٧٦ / نوفمبر ١٣١٣ - سبتمبر ١٣٧٤) متحدثاً عن فتح الأندلس (وحديث الفتح ، وما مَنَّ الله به على الإسلام من المنح ، وأخبار ما أفاء من الخير ، على موسى بن نصير ، وكتب من جهاد لطارق بن زياد ، مملول قصاص وأوراق ، وحديث أفول وإشراق ، وإرعاد وإبراق ، وعظم امتشاش ، وآلة معلقة في دكان قشاش »[١] .

ولا شك في أن التوفيق لم يصاحب عالم لوشة العظيم في هذه العبارة التي أرسلها وزوّقها في أسلوبه الساذج المنمق وفي تصوره أنه بلغ من العلم منتهاه ، وهو تصور يثير في نفوسنا الإعجاب بذلك الرجل أحياناً والحب والرثاء له أحياناً أخرى .

فإننا لا زلنا إلى يومنا هذا نبدي ونعيد في تفاصيل فتح الأندلس ، وكلما حسبنا أننا انتهينا إلى قول فصل جاءنا ما يذكرنا بالحقيقة العلمية التي تقول إن

(*) جزء من دراسة عن فتح الأندلس نشر في صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد .
(١) رواه المقري في نفح الطيب (تحقيق إحسان عباس ، بيروت ١٩٦٨) ١ / ٢٣٠ .

العلم لا يعرف قط ذلك الشيء الذي نسميه بالكلمة الأخيرة في أي موضوع . . .

وقد تراكمت الأبحاث لدينا عن فتح الأندلس بصورة تدعو إلى العجب حقاً ، وقد بلغ الأمر بواحد من أجلاء الباحثين وهو إميليو غرسيه غومس أن ألقى ظلاً كثيفاً من الشك على الموضوع كله في بحث طريف له[١] نشره عن كتاب « فتح الأندلس » لمؤلف مجهول نشره من نحو قرن العلامة الإسباني خواكين دِ. جنثالث ونعيد نحن تحقيقه اليوم .

٢ ـ تفسيرات جديدة للنصوص

ولكننا نلاحظ أن هذه الأبحاث كلها تقوم على تفسيراتٍ جديدة لنفس النصوص التي كانت بين يدي أدواردو ساڤدرا عندما قام ببحثه القيم عن فتح العرب للأندلس[٢] فيما عدا بعض نصوص كانت قد غابت عن التفات الباحثين فأبرزناها وأعطيناها حقها في دراستنا للفتح في كتابنا هذا في طبعته الأولى ، وفيما عدا تفاصيل جديدة وجدها أحمد مختار العبادي في الجزء الذي عني بتحقيقه ونشره من كتاب « الإكتفاء في تاريخ الخلفاء » لأبي مروان عبد الملك بن الكردبوس الخاص بتاريخ الأندلس ، وفي الشروح الضافية التي كتبها محمد بن علي بن محمد بن الشباط المصري التوزري (ت ٦٨١ / ١٢٨٢) للمدحة النبوية المعروفة باسم « القصيدة الشقراطيسية » التي نظمها أبو عبد الله محمد الشقراطيسي (ت ٤٦٦/ ١٠٧٣) وهي شروح مطولة أدرج فيها ابن الشباط معلوماتٍ كثيرة عن فتوح الإسلام تضم الكثير من التفاصيل الجديدة حقاً عن فتح الأندلس ووصف بلاده . وقد قدم أحمد مختار العبادي للنصين بمقدمة ضافية تناول فيها فتح الأندلس من جديد وأبدى آراء وملاحظات ذات قيمة كبيرة سنشير إليها في سياق هذا البحث[٤] .

---

(١) Emilio Garcia Gomez, Novedades sobre la Croniea anonima titulada « Fath al-Andalus », apud, Annales de l'Institut d'Etudes Orieutales de la Faculté des Lettres d'Alger ; Tome XII, 1954' pp. 31-42.

(٢) Eduardo Saavedra, Estudio sobre la Invasion de los Arabes en Espana. Madrid 1882.

(٣) أحمد مختار العبادي : تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ووصفه لابن الشباط . نصان =

لكن نقطة البداية لكل الدراسات المعاصرة لفتح المسلمين للأندلس هي كتاب ساقدرا الذي استولى فيه دراسة كل ما سبقه من أبحاث في الموضوع بما في ذلك بحث راينهارت دوزي الذي نشره في الجزء اوول من «أبحاثه» المشهورة.

والنقطة الرئيسية التي ميزت دراسة ساقدرا وجعلت له مكاناً فريداً بين مؤرخي إسبانيا الإسلامية هو قوله بأن القضاء على قوة القوط تم على مرحلتين لا مرحلة واحدة كما كان الناس يظنون : الأولى تتمثل في اللقاء الكبير المعروف بين قوات طارق بن زيادٍ وقوات لذريق ابتداء من ٢٨ رمضان ١٩/٩٢ يوليو ٧١١ في السهل الواقع بين جبل رتين Sierra del Retin وبحيرة الخندق Lago de la Janda ومجرى نهر البرباط ، وفي هذا اللقاء على رأي سابدرا انكسرت شوكة القوة القوطية وأبيد معظم رجالها ، ولكن لذريق نجا بحشاشة نفسه وعبر نهر البرباط مخلفاً وراءه ثقله وذخائره . وأراد عبور النهر فلصق نعله بالطين فتركه ومضى على وجهه . فلما عثر العرب على النعل ظنوا أن الرجل قد قتل . ثم انطلق نحو الشمال وتلاحقت به فلول الناجين ، ومضوا حتى استقروا في موضع جنوبي سلمنقة وقرب بلدة تمامس الحالية .

أما المرحلة الثانية فكانت بعد أن نزل موسى الأندلس وسار في خط فتوحه المعروف ، فلما اقترب من طلبيرة غربي طليطلة ، وكان طارق ينتظره هناك ، ظن لذريق ومن معه من القوط أن الفرصة قد سنحت لمباغتة جيش موسى قبل أن يلتقي مع جيش طارق ، فانقضوا على جيش موسى عند موضع يسميه صاحب « فتح الأندلس » السواقي أو السواني في حين تسميه الترجمة الإسبانية لنص الرازي Saguyue . وقد وقف ساقدرا وقفة طويلة عند سجوية Saguyue هذه ، ولاحظ أولاً أنها قريبة الشبه من لفظ السواقي فإن مفردها ساقية ، إذا كتبت بالإفرنجية كانت Saquia ، ثم مضى يبحث عن سجوية فوجد أن بعض

= جديدان. صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، مجلد ١٣ مدريد ١٩٦٥، ص٧ـ ١٢٦ ومجلد ١٤ ص٩٩ـ١٦٤ . والمقدمة التي ذكرناها توجد في مجلد ١٣ ص٢٠ وما يليها.

مؤرخي الإسبان الذين كتبوا عن لذريق (ويسمـونه الـدون رودريجو آخـر ملوك القوط Don Rodrigo el ùltimo rey godo) يطلقون على الموضع الـذي قتل فيـه اسم Sanguyuela أو Sangonera فـرأى في ذلك مـا يؤيـد ظنـه . ثم إنـه قـرأ في حـوليات ألفونـسو الكبـير أن بعضـهم رأى قبـر لـذريق في بلدة بـازو أو بيـزيـو Viseu قرب تمامس عند موضـع يسمى Saguyuela de los Cornejos وعليه كتـابة باللاتينية تؤكد موته هناك، فقطع بأن ما ذهب إليه صحيح، وقرر بصورة نهائية أن المعركة الأخيرة بين لذريق والمسلمـين وقعت في هذا المـوضع ، وهنـاك انتهت حياة آخر ملوك القوط[١] .

ولم يبتكر ساقدرا نظريته هذه ابتكاراً بل اعتمـد في القول بهـا على مـا ذهب إليه مؤرخ إسباني قديم هو بدرو دل كورال الذي اعتمد عـلى « مدونـة ألفونـسو الثالث التي تذكر اسم الموضع الذي قتـل فيه لـذريق في صورة Saguyue وتـربط بينه وبين ما جاء في نفس المـدونة من العثـور على قبـر يحمل شاهده عبـارة تدل عـلى أنـه قبـر لـذريق وذلـك في مـدينـة بـازو التي تكتب في الإسبـانيـة أحيـانـاً Vuseu[٢] وقد ورد نفس الخبر في هـذه المدونـة نقلاً عن مـدونة تسمى بمخـطوط روطـة Codice Rotense ونشرت في مجمـوعة تسمى « المـدونات الأولى الخـاصـة بالاسترداد » ظهرت في مجلة أكاديمية التاريخ الإسبانية .

Las Primeras Cronicas de la Reconquista en Boletin de la Academia de la Historia, T. C. Cuaderno II, PP. 562-628.

وهذا النص يقول :

Nostris temporibus quum Çivitas Viseo et Suburbio ejus jussum nostrum esset populatus in quidam ibi basilica monumentus inventus est ubi desuper epitafion hujusmodi est conscriptus : Hic requuiescit Rudericus ultimus rex gotorum.

---

(١) عرضنا ذلك بالتفصيل في هذا الكتاب ص ١٥٨ وما بعدها.

(٢) Pedro del Corral, Cronica del Rey Don Rodrigo con la Destruccion de Espana, p. 145.

وهـو نص باللاتينيـة الـدارجـة التي كـان يكتب بهـا الكثيـرون من رهبان العصور الوسطى ، ونستطيع ترجمتـه كما يـلي : وفي أيامنـا هذه وفي مـدينة بـازو وما حولها يذيع بين عامة الناس القول بـأن في كنيستها قبـر عليه شـاهد يقـول : « هنا يرقد رودريكوس (لذريق) آخر ملوك القوط » .

وعن مـدونة ألفونسو الثـالث هذه أخـذت هـذا النص المـدونـة الإسبـانيـة العـامة الأولى التي صنفت للملك العـالم ألفـونسو العـاشر المعـروفـة بـاسم La Primera Cronica General de Espana وفي هـذه المـدونـة التي كـان الفـراغ من كتـابتها سنـة ١٢٨٩ نجد خبـر وجود قبـر لذريق هـذا في مـدينـة بـازو . وتلك المدونة تنقل في جزئها الخاص بفتح العرب لإسبـانيا عن تـاريخ أحمـد بن محمد الرازي وتضيف إليه معلومات أخرى ترجع إلى عصر تحـريرهـا ، ومن الواضـح أن القول بوجود هذا القبـر لا يوجـد عند الـرازي ، لأن الرازي تـوفي في القرن الـرابع الهجـري بل هـو من الإضافـات التي أدخلهـا المتـرجمـون الإسبـان عـلى الأصل ، وهو خبر مشكوك فيـه ، ويزيـد شكنا أنـه يقول بعـد ذلك إن لـذريق قتـل عند نهر وادي الـطين Guadalentin وهو أحـد نهيرات نهر شقـورة Segura وهو نهر مرسيـة ، فأين بـازو التي تقع قـرب سلمنقة من وادي الـطين في ناحيـة مـرسية ؟ ولا بـد أن نلاحظ هنـا أن اسم وادي الطين يـرد في صـورة Guadalet وهي صورة تحتمل أيضـاً أن يكون المـراد بها وادي لكة الذي يكتب أحيـاناً عن طريق الخطأ Guadalete .

وورد ذكر قبر لذريق وشاهـده كذلـك في المدونـة البرتغـالية المعـروفة بـاسم Cronica General de Espanba de 1344 . وهـذه المـدونـة تعتمـد أسـاسـاً عـلى مـدونـة ألفـونسو العـاشر التي ذكـرنـاهـا ، ولكنهـا تقتبس من تـاريـخ الـرازي وجغرافيته فقرات أكثر مما نجد في مدونة ألفونســو العـاشر ، ولهذا فـإن لها أهميـة خاصة بالنسبة إلينا .

ومعنى هذا أن نظرية سـاقدرا تبدو مقبـولة في جملتهـا ، فقد اعتمـد الرجـل في القـول بها عـلى أصول قـديمة مـوثوق فيهـا وانتفع بهـا انتفاعـاً سليماً ، وكيف

كان يمكنه مثلاً أن يهمل ذلك الخبر الذي يقول بوجود قبر لذريق في بازو ؟ ولم يكن الرجل يجهل أن ذلك الخبر أضيف على نص الرازي على يد مترجمي ألفونسو العاشر ، ولكنه حقق الأمر تحقيقاً علمياً صحيحاً ، واجتهد حتى حقق اسم موضع Saguyue الذي ورد في بعض مخطوطات الترجمة الإسبانية السيئة حتى وصل إلى أنه يقابل قرية Saguyuela de Los Cornejos وهي قرية غير بعيدة عن بازو ، فهي من توابع مدينة تمامس Tamames في محافظة سلمنقة وكل هذا جعله يؤكد القول بهذا اللقاء الثاني الأخير بين لذريق والمسلمين .

وقد اتجهت إلى الأخذ بهذا الرأي في كتابي « فجر الأندلس » اقتناعاً مني بما أورد سافدرا من البينات ، ثم إنني عندما تتبعت سير الفتح استوقفتني المقاومة الشديدة التي أبدتها حامية ماردة في مقاومة موسى بن نصير وما تحمل المسلمون من خسائر في فتح ذلك البلد مما رجح في رأيي لجوء أعداد كبيرة من فلول القوط إلى غرب الأندلس وترصدها للمسلمين هناك ، وقد تحدث عن ذلك فرانثيسكو خابيير سيمونيت وأعطانا تفاصيل قيمة عن المقاومة في نواحي قورية وماردة وما يليها شمالاً ، ومن المعروف أن سيمونيت أخذ برأي ساقدرا واعتبره قضية مسلمة لا شك فيها .

ومع ذلك فقد رفض الأخذ بهذا الرأي مؤرخ إسباني كبير هو خوان منندث بيدال Juan Menéndez Pidal ابن أخي العلامة المشهور دون رامون منندث بيدال[١] . أما ليفي بروفنسال فقد قال عن رأي ساقدرا أنه استنتاج فيه غرر كثير[٢] une conclusion assez hasardeuse ولكنه مع ذلك لم يقطع برأي في الموضوع .

ثم إن هناك مؤرخين آخرين كثيرين قبلوا ذلك الرأي ومنهم كما قلنا فرانثيسكو سيمونيت الذي حقق كل الفقرات التي استند إليها ساقدرا تحقيقاً

---

(١) Juan Menéndez Pidal, Leyendas del ùltimo Rey Godo, pp. 141-142.

(٢) Levi-Provençal, Historia de l'Espagne Musulmane, I, 25.

بالغاً وقرر أن نظريته صحيحة بل أيدها بأصول أخرى[١]، وقد انتفعت بالمادة الغنية التي أتى بها سيمونيت وراجعتها كلها على أصولها عند مؤرخينا العرب وفي المدونات النصرانية وأتيت بذلك كله مفصلاً في « فجر الأندلس »[٢] .

ولكن سانشيث البورنوث رفض رأي ساقدرا رفضاً باتاً ، وقرر في بحث مطول ممتع له أن المعركة بين لذريق والعرب كانت واحدة هي التي دارت عند بحيرة الخندق ، وقرر أن لذريق قتل قرب شذونة غير بعيد عن موقع المعركة . وخلاصة كلامه أن لفظ Saguyue الذي يرد في الترجمة الإسبانية الرديئة لتاريخ الرازي يرد في نسخ أخرى من نفس الترجمة في صور مثل Sigonera أو Sagonera وعلى هذا فلا يجوز التمسك بقراءة واحدة للفظ وهي

---

(١) Francisco Javier Simonet, Historia de los Mozarabes de Espana, (Madrid, 1897-1903), pp. 23-29

(٢) وواضح أننا نقوم بهذا الجهد في دراسة تاريخ الأندلس خدمة للحقيقة والتاريخ ، ونحن لا نرجو من وراء ذلك إلا مجرد الذكر ، وهو أقل ما نطلبه من دلائل العرفان . ولكن زميلاً معاصراً هو د . السيد عبد العزيز سالم أخذ ثمرات الجهد الطويل والقراءات المضنية في مدونات لاتينية وكتب إسبانية عتيقة لا توجد إلا في المكتبات الإسبانية في مدريد والأسكوريال وشانت مانقش Simancas وأدرجها في كتابه عن « تاريخ المسلمين وحضارتهم في الأندلس » دون أن يفكر في الإشارة إلينا إلا إذا تصور أننا وقعنا في خطأ . ولن أعلق على ذلك بشيء ، ولكني أستأذنه في أن أعينه على الأخذ عنا ـ فلهذا تكتب الكتب ـ وذلك بتصحيح شيء أخذه منا وأساء استعماله .

فقد أوردت في ص ١٠١ من فجر الأندلس النص اللاتيني لأول عملة ضربها موسى بن نصير في الأندلس وذلك النص لاتيني وهو :

In Nomine Domini. Non Deus nisi Deus. Solus Sajiens, Non Deo Similis alius.

فأخطأ في نقل الفقرة الأخيرة من العبارة فجاءت عنده Non Deus Alios وقد كنا تركنا ترجمة هذا النص لسهولته ووضوحه لمن يتجشم مثل هذه الأبحاث ، ولكن الدكتور السيد سالم أراد أن يتم عملنا فترجم النص هكذا : الله واحد والله عالم والله ليس له كفوا .

ونستطرد عن الخطأ اللغوي العربي الذي وضعنا تحته خطاً مع فداحته ونستطرد كذلك عن قوله تعليقاً على ترجمته : وهي اختصار من الآية الكريمة (ثم يورد نص سورة الإخلاص) لأن الآيات لا تختصر ، وإنما تضمن أو تقتبس ، ولا يجوز الاختصار في كلام الله ، ثم إن سورة الإخلاص ليست آية كما قال بل هي سورة . أما صحة الترجمة فهي :

بسم الله * لا إله إلا الله * واحد عليم * ليس كمثله إله غيره *

فانظر ـ هداك الله ـ كم خطأ وقع فيه في إكمال سطر واحد مما كتبناه !

Saguyue ثم القول بأنها قرية Saguela de los Cornejos قرب تماس في محافظة سلمنقة . ثم يقول إن Sigonera أو Sagonera ما هما إلا تحريف لاسم شذونة اللاتيني القديم وهو Gigonza أو Saguntia ، وهذه الصورة الأخيرة لاسم شذونة هي أصل التسمية العربية والحالية : (Sadunna = Saguntia = شذونة = Sidonia) ويرى سانشيث البورنوث أن لفظ Saguyue وصوره الأخرى التي ترد في الترجمة الإسبانية لنص الرازي إنما هي تحريفات للفظ السواني أو السواقي الذي ورد في « فتح الأندلس » لمؤلف مجهول نقلاً عن أصل الرازي ، وعبارة « فتح الأندلس » هي : « وأفلت لذريق إلى موضع يقال له السواني ، فقيل إنه وجه قتيلاً وهو لا يعرف ، وقيل إنه أراد العبور في الوادي فغرق فيه . ووجد في ذلك الموضع خف منظوم بالدر والياقوت قد سقط من رجله » .

ولفظ السواني هذا يمكن قراءته السواقي ، وهي القراءة الأصح ، ومخطوطة الكتاب بين أيدينا الآن نعدها للنشر(١) .

وعاد إلى الموضوع مرة أخرى بحاثة إسباني آخر معروف بالدقة البالغة والأصالة في الرأي والمعرفة بتحقيق الأعلام الجغرافية هو فيلكس إيرنانديث . ففي نهاية مقال له عن « مخاضة الفتح »(٢) التي يرد ذكرها في بعض النصوص العربية وقف عند لفظ السواني أو السواقي الوارد في « فتح الأندلس » وردد النظر في آراء ساقدرا وسانشيث البورنوث . فقال إنه لا يرى الأخذ بكلام ساقدرا ، ويرفض القول بقيام معركة ثانية بين لذريق والمسلمين عند تماس ، ويرى أن الحجج التي استند إليها بدرو دل كورال في ذلك القول غير مقنعة . وهو يستند في ذلك إلى أننا عثرنا على الترجمة البرتغالية لنص الرازي في وصف

---

(١) مخطوط المكتبة الأهلية في الجزائر ، رقم ١٨٧٦ من فهرسة فانيان ص ٣ .

انظر

Claudio Sànchez Albornoz : ? Donde y cuàndo murio don Rodrigo? en Cnadernos de Historia de Hispana. III, p. 5-105. Buenos Aires, 1945.

Félix Hernàndez Giménez Acerca de Majadat al Fath y Saguyue. AL-Andalus, XXIX, fasc. 1, 1964, p. 18 sqq. (٢)

الأندلس وفتحه ، وهذه الترجمة البرتغالية هي الأصل الذي عملت منه الترجمة الإسبانية الرديئة التي نشرها بسكوال جايانجوس سنة ١٨٥٢ وكتب بحثاً في أصالتها وقيمتها العلمية رغم رداءتها(١) . وهذه الترجمة البرتغالية ترد في سياق المدونة البرتغالية المعروفة باسم مدونة ١٣٤٤ التي نشر لويس فيليب لندلي سينترا الجزء الثاني منها في لشبونة ١٩٥٤(٢) .

يقول فيليكس إيرناندث إن هذه الترجمة البرتغالية تعطينا اسم الموضع الذي قتل فيه لذريق في الصور التالية : Sagaynera, Sigonera, Sagoneira و Sogoynera ولا نجد من بينها صورة Saguyue التي جعلت بدرو دل كورال يفترض وجود موضع قريب الاسم منها في ناحية بازو ، وهذا هو الأساس الذي استند عليه ساقدرا .

ثم تناول لفظ السواني الذي ورد ذكره في « فتح الأندلس » فقال إن قراءته الأصح هي السواقي ، ثم إن حرف الواو الوارد في اللفظ إذا كتب بالإسبانية على طريقة قدامى المترجمين الإسبان جاء في صورة gu فهم إذا قالوا « وادي » قالوا guadi فالوادي الكبير هو Guadalquivir والنويري هو al-Noguairi وهكذا ، فلفظ السواني يصير Saguani والسواقي يصير Saguaqui وهاتان الصورتان قريبتان من الصور الواردة في الترجمة البرتغالية ، وليس بينها واحدة تقرب من Saguyue وإذن فلا محل للقول بوقوع معركة عند Sogoyuela de los Cornejos (كما يقول ساقدرا) ولا محل للقول بأن هذه الصورة تحريف للفظ Saguntia وهو الاسم القديم لشذونة (وهذا رأي سانشيث البورنوث) . وأما العبارة الخاصة بقبر لذريق في كنيسة في بازو فيرى فيليكس إيرنانذث أنها ليست من كلام الرازي وإنما أقحمها المترجم نقلاً عن أصل آخر .

---

(١) Gayangos, Pascual de, Memoria sobre la autenticidad de la Cronica denominada del Moro Rasis, Memorias de la Real Academia de la Historia. Madrid, 1852.

(٢) Crónica General de Espanba de 1344, volume II, ediçao critica do texto Portugues por Luis Filipe Lindley Cintra. Lisboa 1954. P. 330 spp.

ودرس أحمد مختار العبادي ذلك كله في بحثه الذي أشرنا إليه في مفتتح هذا المقال ، وقد أداره كما قلنا على ما ورد عند ابن الكردبوس وابن الشباط عن اللقاء بين لذريق والمسلمين ، فأما أبو مروان عبد الملك بن الكردبوس التوزري الذي عاش في النصف الثاني من القرن السادس والنصف الأول من القرن السابع الهجريين ، فيقول : « ثم لم يكن له (أي للذريق) بد من المقابلة (المقاتلة ؟) فالتقيا يوم الأحد ، وصدق المسلمون القتال ، وحملوا حملة رجل واحد على المشركين ، فخذلهم الله وزلزل أقدامهم ، وتبعهم المسلمون بالقتل والأسر ، ولم يعرف لملكهم لذريق خبر ، ولا بان له أثر ، فقيل إنه ترجل ، وأراد أن يستتر في شاطىء الوادي ، فصادف غديراً ، فغرق فيه فمات ، ولهذا وجد فيه فرد خفه ، وهو مرصع بالدر والياقوت عليه الخمل ، فانسل من رجله ، وقوِّم في المغنم بمائة ألف دينار . وانتهبت محلته ، وانتشر عسكر المسلمين في الجزيرة يميناً وشمالاً . . . »[1] .

وهذا النص لا يتضمن تحديداً لتاريخ أو مكان .

أما نص محمد بن علي بن الشباط المصري التوزري المتوفى سنة ٦٨١/١٢٨٢ فأكثر تفصيلاً وتحديداً ، فهو يقول في الفصل الذي أداره على ما سماه « صفة قضية فتح الأندلس » :

« . . . ثم زحف طارق بجميع أصحابه حتى نزل قريباً من عسكر لذريق فتلاقوا يوم الأحد لانسلاخ شهر رمضان ، فاقتتل المسلمون والمشركون ثمانية أيام قتالاً شديداً ، وصبر الفريقان جميعاً صبراً عظيماً . ثم أنزل الله عز وجل نصره على المسلمين ، فانهزم أبناء الملك[2] بأهل الميمنة وأهل الميسرة من عسكر لذريق ، فقتل العجم قتلاً ذريعاً ، وقتل أبناء الملك ، ولم يغن عنهما كَيدهما (كذا) وأفلت لذريق إلى موضع يقال له السواقي ، فقيل إنه قتل وهو

(١) أحمد مختار العبادي : تاريخ الأندلس لابن الكردبوس . صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد ، مجلد ١٣ ، مدريد ١٩٦٥ ، ص ٤٨ .

(٢) يريد أبناء غيطشة Witiza الذين حالفوا المسلمين على لذريق .

لا يعرف ، ويقال أيضاً إنه أراد الاستتار بسمار الوادي فغرق فيه وهلك . ووجد في ذلك المكان خف منظوم بالدر والياقوت قد سقط من رجله . وأصاب المسلمون من السبي ما لا عهد لهم بمثله . وكان يعرف أشراف العجم في القتلى بخواتيم الذهب توجد في أصابعهم ، ومن دونهم بخواتيم الفضة » .

ويتضح من القراءة الدقيقة لنص الرازي في ترجمتيه الإسبانية والبرتغالية أن العبادي على حق في القول بأن عريباً بن سعد الذي ينسب إليه ابن الشباط هذه العبارة قد اعتمد على نص الرازي فيما أورد من الأخبار التي أكمل بها فوات تاريخ الطبري .

وأعتقد الآن بعد هذه الدراسات القيمة التي قام بها هؤلاء الأساتذة الأجلاء لما ذهب إليه ساقدرا عن المعركة الثانية بين لذريق والعرب عند تماس أنه لم يعد هناك ما يدعو إلى التمسك بهذا القول ، وإن كنا كذلك لا نستطيع إنكاره كلية ما دامت هناك نصوص قديمة ترجع إلى نهاية القرن الثالث عشر الميلادي تقول بأنه كان هناك بالفعل قبر للذريق في كنيسة في مدينة بازو Viseu في محافظة سلمنقة .

ومن الواضح أن العبادي على حق في قوله إن المعركة الحاسمة بين قوات لذريق وقوات طارق لم تقتصر رحاها على جنوب شذونة أو شمالها ، بل شملت جميع أنحاء هذه المنطقة ، فهي معركة كورة شذونة بأسرها وليست معركة مدينة شذونة قاعدتها ، ومن هنا جاز لنا أن نقول بأن ما ورد في كتب التاريخ من تسميات مختلفة لهذه المعركة مثل « البحيرة » ووادي بكة ووادي البرباط ووادي لكة وشريش والسواقي ما هي في الواقع إلا تسميات لتلك الأماكن التي دارت وتشعبت عندها تلك المعركة الكبيرة في أراضي كورة شذونة »[1] .

---

(١) تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ، مقدمة البحث في المرجع المشار إليه آنفاً ، ص ٤٠ ـ ٤١ .

ونضيف هنا أن هناك من يرون أن لفظ Sagonera الذي يرد في بعض المخطوطات على أنه تحريف لاسم الموضع الذي قتل فيه لذريق هو الإسم القديم لنهر وادي الطين Guadalentin وهو أحد روافد نهر شقورة وهو يجري في مقاطعة مرسية ، وعلى هذا يكون لذريق قد فر من مكان المعركة واتجه نحو الشرق وتبعه المسلمون حتى أدركوه ، فأراد عبور نهر وادي الطين فغرق فيه قرب لورقة . وسنرى بعد قليل أن هذا الفرض محتمل .

وصاحب الكتاب المجهول في جغرافية الأندلس وتاريخه يؤيد القول بأن لذريق فر إلى الشرق وقتل عند نهر وادي الطين . وكان أول ما مال بي إلى قبول هذا الفرض أنني وجدت صاحب مخطوط وصف الأندلس وتاريخه ، وهو أحد الذخائر التي تكشفت عنها خزائن المغرب في السنوات الأخيرة ، وقد سبق أن تحدثت عنه في كتاب « تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس » ثم في بحث نشر في هذه الصحيفة تحت عنوان : وصف جديد لقرطبة الإسلامية[1] وقلت إننا مع جهلنا باسم مؤلف هذا الكتاب وعصره إلا أننا نعتقد أن هذا المؤلف اعتمد في القسم الجغرافي من كتابه على وصف الرازي للأندلس و« ترصيع الأخبار » لأحمد بن عمر بن أنس العذري[2] ، أما في القسم التاريخي منه فعماده الأصلي على أحمد بن محمد الرازي وهو يشير إليه دائماً بقوله : « قال صاحب التاريخ » ، وقد درست ما يقوله عن فتح الأندلس فوجدته مطابقاً إلى حد كبير لما لدينا من فقرات نص الرازي وترجمتيه البرتغالية والاسبانية ، وسآتي بالقطعة الخاصة بالفتح منه ذيلاً على هذا البحث ، ولكنني اجتزيء هنا بالفقرة التي تتحدث عن موت لذريق ، وهي : « وفر لذريق ، فأدركه المسلمون بوادي الطين ، فقتل هو ومن كان معه . وقيل إنه غرق في

---

(١) انظر : حسين مؤنس ، تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس ، مدريد ١٩٦٧ ، ص ٥٩٦ وما يليها و « وصف جديد لقرطبة الإسلامية » صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد (ص . م . د . ا . م .) مجلد ١٣ (١٩٦٥ - ١٩٦٦) ص ١٦١ وما يليها .

(٢) نشر قطعاً منه معهد الدراسات الإسلامية في مدريد بعنوان « نصوص عن الأندلس » بتحقيق د. عبد العزيز الأهواني ، مدريد .

النهر لأن المجاز كان وعراً ، وفرت الروم وقد فقدوا لذريق ، ووجد خفه في النهر ، وصار طارق إلى قرطبة » .

وهذا النص واضح في القول بأن لذريق فر من معركة شذونة وأن المسلمين أدركوه عند وادي الطين ، فلما أراد العبور لم يستطع وغرق في الماء ووجد المسلمون خفه في الماء .

ولا ذكر هنا للسواقي أو السواني ، أي لا محل لذكر Saguyue التي طالما حيرت الباحثين ، ولكن إحدى صور ذلك اللفظ في مخطوطات الترجمة البرتغالية تؤيد القول بأن موت الرجل كان عند وادي الطين ، فهي ترسمه Sagonera أو Sagoneira وهو اسم هذا النهير قبل أن يسميه العرب وادي الطين .

ويؤيد هذا الرأي نص فريد في بابه وجدته عند مطالعتي لكتاب تاريخ إفريقية والمغرب المنسوب إلى إبراهيم الرقيق الذي نشره السيد المنجي الكعبي في تونس سنة ١٩٦٨ وقال إنه قطعة من تاريخ إفريقية والمغرب لأبي إسحاق إبراهيم بن القاسم المعروف بالرقيق القيرواني ، الأديب الكاتب الشاعر الذي تولى ديوان الإنشاء لنصير الدولة باديس بن أبي الفتح المنصور (٣٨٦ ـ ٤٠٦ / ٩٩٦ ـ ١٠١٥) ثالث الأمراء من بيت بني زيري الصنهاجيين في إفريقية ثم لابنه المعز بن باديس (٤٠٦ ـ ٤٥٣ / ١٠١٥ ـ ١٠٦٢) إذ إنه توفي بعيد سنة ٤١٧ / ١٠٢٦ بعد عمر طويل حافل بالعمل والتأليف والمتع والرحلات .

وقد كنا من زمن طويل ننتظر العثور على كتاب الرقيق هذا في تاريخ بلده إفريقية ، وقد تمنيت هذه الأمنية من أكثر من ربع قرن عندما كنت أعد بحثي عن « فتح العرب للمغرب » (نشر سنة ١٩٤٧) ، فقد قلت في الفصل الأخير من ذلك الكتاب وهو الخاص بالمراجع إن تاريخ الرقيق مرجع هام أعتمد عليه كل من ابن الأثير وابن عذارى والنويري وغيرهم ممن كتب بعد القرن الخامس الهجري / الحادي عشر الميلادي ، وقلت إننا لو عثرنا عليه

لحصلنا على أصل لا تقدر قيمته عن تاريخ الغرب الإسلامي كله ، وقلت في كلامي عن القطعة الخاصة بتاريخ المغرب من نهاية الأرب للنويري (ص ٣١٠ من فتح العرب للمغرب) إنه كان هناك كتاب في مغازي إفريقية للواقدي يرد ذكره عند البلاذري وأبي عبيد البكري ثم اختفى بعد ذلك فلم يعد أحد من مؤرخي القرن السادس وما بعده يذكره إلا نادراً .

وقلت كذلك إن الواقدي يعتمد في الكثير مما يورد من أخبار فتح إفريقية على رجل يسمى المسور بن مخرمة بن نوفل الزهري « اشترك في فتح المغرب وروى أخبار ما رأى، وأخذ عنه الواقدي ، وقد أكد لي حسن حسني عبد الوهاب أن مغازي الواقدي هذا كان من المراجع الأساسية التي اعتمد عليها إبراهيم الرقيق ومحمد بن يوسف الوراق وأبو بكر المالي من أهل المغرب الذين كتبوا في تاريخ بلادهم ، وقد حلت مؤلفات هؤلاء محل مغازي الواقدي الخاص بالمغرب ، ولهذا حمل أمره واختفى . ومن القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي نجد أن هذه الأصول المغربية إلى جانب فتوح عبد الرحمن بن عبد الحكيم قد أصبحت هي الأصول الرئيسية التي يأخذ عنها الناس تاريخ المغرب والأندلس » .

والقطعة التي بين أيدينا من التاريخ المنسوب إلى الرقيق تؤيد هذا القول ، فهي تنقل عن الواقدي وعن عبد الرحمن بن زياد بن أنعم المعافري وعن يوسف بن هشام وعمر بن سهل ، فأما أبو خالد عبد الرحمن بن زياد بن أنعم (٩٥ ـ ١٦١/ ٧١٤ ـ ٧٧٧) فلا شك في أنه كان من أعلام أهل إفريقية ومن كبار رجال الفقه فيها في عصر الولاة ، وأما يوسف بن هشام فهو نفسه يقول إن جده كان من خاصة موسى وأصحابه ، وكذلك كان عمر بن سهل من موالي موسى ، وموالي موسى كانوا مغاربة وأندلسيين ولهم شأن عظيم في تاريخ المغرب حتى نهاية العصر الأغلبي . فنحن هنا أمام رواة من أهل المغرب ممن أخذوا الأخبار التي يروونها بالتواتر أو كتبوا بعض ما وصل إليهم ، ثم تجمع ذلك كله في المؤلفات الأولى التي كتبها أهل المغرب عن

تاريخ بلادهم وعلى رأسنهم أبو العرب تميم وأبو بكر المالكي وإبراهيم الرقيق ومحمد بن يوسف الوراق .

ولكن قطعتنا هذه تذكر أخباراً كثيرة مقدمة لها بعبارة « قال » فحسب ، وهذا هو ما نجده في بداية القطعة الخاصة بفتح الأندلس ، والأخبار التي يرويها بعد ذلك لا تشبه في شيء مالدينا من الأخبار التقليدية عن فتح الأندلس ، فمن هو صاحبها ؟ إنها تختلف عن أخبار ابن عبد الحكم وابن القوطية و« الأخبار المجموعة » و« فتح الأندلس » وغيرها مما نعتبره أقدم ما لدينا وأولاه بالثقة في رواية أخبار فتوح المغرب والأندلس ، ولكن عليها رغم ذلك طابع الأصالة وخاصة فيما يتصل بعلاقات أهل طنجة بقوات طارق بن زياد التي عسكرت فيها ، وما كان لذلك من أثر في فتح الأندلس . والقطعة تعطي صورة جديدة لليليان (تسمية أليان) وحقيقة علاقته بلذريق من ناحية وبالعرب من ناحية أخرى .

ونحن لا نستطيع القول بأن هذه هي رواية الواقدي التي ضاعت مخلفة فقرات واقتباسات في الكتب التي ألفت بعد ذلك . وجدير بالذكر أن ابن عذارى عندما ذكر مراجعه في مقدمته لم يذكر الواقدي من بينها مع أنه يروي له أخباراً في صلب تاريخه . وواضح أنه أخذ عبارات الواقدي تلك عن مراجع ألفت بعد ذلك واعتمدت عليه ، وأهمها فيما يخصنا هنا : مختصر عريب بن سعد القرطبي[1] وتاريخ إفريقية والمغرب لابراهيم الرقيق[2] وكتاب العبر لأبي

---

(١) عريب بن سعد القرطبي (ت ٩٨١/٣٧٠) انظر عنه تاريخ الفكر الأندلسي بترجمتنا (الفهرس) وبونس بويجس ص ٨٨ ـ ٨٩ والمقدمة التي كتبها دوزي لكتاب البيان المغرب لابن عذارى وجعلها دراسة لمؤرخي المغرب والأندلس وهي مشهورة باسم Introduction du Bayan ، وانظر كذلك نفح الطيب للمقري ٢/٢٧٥ و٣/١٣٤ و١٨٢ من طبعة محيي الدين عبد الحميد . وقد سبق أن تحدثنا عن مختصر عريب لتاريخ الطبري .

(٢) انظر عن أبي إسحاق إبراهيم الرقيق المقدمة الشاملة التي ساقها المنجي الكعبي بين يدي تحقيقه للقطعة التي نسبها إليه ، وهي موضوع حديثنا هنا . وانظر كذلك مقدمة كتاب « قطب السرور في وصف الخمور » من تأليفه ، وقد كتب هذه المقدمة محقق الكتاب .

بكر أحمد بن سعيد بن أبي الفياض الأسبخي (ت ٤٥٦ / ١٠٦٦)[١] وكتاب الذيل لمحمد بن شرف القيرواني [٢] وتاريخ الأندلس لأحمد بن محمد الرازي[٣] والمقتبس في تاريخ الأندلس لأبي مروان بن حيان [٤] وتاريخ إفريقية لمحمد بن يوسف الوراق الكاتب . وهذه في رأينا هي الكتب التي تتساوى في الأصالة والأهمية ، وأصحابها باستثناء أحمد بن محمد الرازي أبناء عصر واحد تقريباً والمغاربة منهم (إبراهيم الرقيق ومحمد بن يوسف الوراق ومحمد بن شرف القيرواني يتعادلون في القيمة والمستوى ، ويحتمل جداً أن تكون القطعة التي نشرها الأستاذ المنجي الكعبي من تأليف أي واحد من هؤلاء . وقد أداه اجتهاده إلى القطع بنسبتها إلى إبراهيم الرقيق ، ونحن لا نملك دليلاً بيناً يمكننا من تأكيد هذا القول أو نفيه ، فنترك هذه النسبة لصاحبها على مسؤوليته إلى أن تصل إلى أيدينا براهين أنصع مما بأيدينا اليوم .

أقول هذا وأنا أعلم أن الأستاذ الدكتور محمد الطالبي كتب بحثاً ممتعاً في « كراسات تونس » التي تصدرها كلية الآداب في الجامعة التونسية أنكر فيها صحة نسبة هذه القطعة إلى إبراهيم الرقيق ، وبذل جهداً مشكوراً في مقارنة نص هذه القطعة إلى ابن عذارى فيما يتعلق بحوادث الفتح ، ولاحظ أن أسلوب القطعة ركيك في بعض الأحيان وغير واضح في أحيان أخرى ، وهو لهذا يستبعد أن يكون هذا هو أسلوب إبراهيم الرقيق الكاتب الأديب

---

(١) عن ابن أبي الفياض انظر كتابنا « الجغرافية والجغرافيون في الأندلس » ص ١٠٦ ـ ١٠٧ .

(٢) المرجح في رأي د . محمود مكي أن المراد هنا أبو الفضل جعفر بن محمد بن شرف المتوفى سنة ٥٣٤ / ١١٣٩ وهو من مواليد مدينة برجة في شرق الأندلس ، وهو ابن الأديب الأندلسي أبي عبد الله محمد بن شرف الذي ترجم له ابن بسام في الذخيرة (قسم ٤ ـ ١ / ١٣٣ ـ ١٨٦) وعن أبي الفضل جعفر المراد هنا انظر المغرب لابن سعيد بتحقيق شوقي ضيف ٢ / ٢٣٠ والمراجع المعطاة هناك .

(٣) عن أحمد بن محمد الرازي ، انظر كتابنا « الجغرافية والجغرافيون » ص ٥٦ وما بعدها .

(٤) عن ابن حيان انظر المقدمة الوافية التي ساقها د . محمود مكي بين يدي تحقيقه لقطعة من المقتبس تشكل جزءاً من عصر الأمير عبد الرحمن الأوسط وعصر الأمير محمد ، القاهرة ١٩٧١ ، وأنظر كذلك تاريخ الفكر الأندلسي ، الفهرس .

الشاعر ، ثم إن الطالبي عثر في تلك القطعة على بعض التفاصيل الخاصة بحياة القاضي أبي عبد الرحمن عبد الله بن عمر بن غانم (١٢٨ - ١٩٦/ ٧٤٥ - ٨١١) موجودة في كتاب رياض النفوس للمالكي المتوفى بعد سنة ٤٥٣/١٠٦١ و « مدارك » القاضي عياض المتوفى سنة ٥٤٤/١١٤٩ وآستبعد أن يكون هذان قد نقلا عن إبراهيم الرقيق ، وقال إن العكس هو الممكن ، أي أن يكون صاحب القطعة التي نشرها المنجي الكعبي قد نقل عن هذين الفقيهين المؤرخين . ولا ندري لماذا يستبعد الطالبي أن يكون المالكي قد أخذ عن الرقيق دون أن يشير إلى ذلك ، أو لماذا لا يكون الإثنان قد أخذا عن أصل واحد ؟

وبهذه المناسبة هل لي أن ألاحظ أن د. الطالبي كان قاسياً القسوة كلها في نقده لعمل السيد المنجي الكعبي فقد اتهمه بالجهل والتسرع وقلة الضبط ، ثم زاد فرماه بأنه نسب هذه القطعة إلى الرقيق إلتماساً لرواج الكتاب بنسبته إلى الرقيق ، وأعتقد أن الطالبي لو راجع نفسه لوجد أنه جاوز الحد في العنف ، فما عسى أن يكسب إنسان من نشر قطعة من كتاب إبراهيم الرقيق حتى يدفعه ذلك إلى التدليس ؟ وما عسى أن يبيع من نسخ هذا الكتاب ؟ ولهذا فإننا نرجوه شيئاً من الرفق في نقد أهل البحث فهو أدرى من غيره بقلة جزاء العاملين على العلم في بلدنسا وليس من الإنصاف أن نقسو عليهم ونحن زملاؤهم وشركاؤهم في قلة الجزاء .

قيمة هذا النص المنسوب إلى الرقيق بالنسبة لتاريخ الأندلس

وقد حكم محمد الطالبي على هذه القطعة المنسوبة إلى الرقيق بأنها لا قيمة لها ولا تعطينا جديداً يتناسب مع ما كنا ننتظره من إبراهيم الرقيق وقال :

En resumé, l'ouvrage de N. (= attribué a Ibraim AL-Rakik) me presente aucun de ces avantagis substantiels que l'on se plait généralment à attribuer à l'histoire d'Ibn AL-Raqiq Sa valeur informative, touť compte fait, avec son apport certes, mais aussi avec ses omissions, ses confusions et ses incohérences, ne tranche pas, pour le moins que l'on puisse dire, sur

nos textes classiques[1].

ولكن هذه القطعة تقدم لنا لحسن الحظ مادة طيبة وعظيمة القيمة في أكثر من موضع رغم إنكار د. الطالبي نسبتها إلى الرقيق، وإذا كانت قيمة مادتها فيما يتصل بأحداث فتح العرب للمغرب قد بدت له مألوفة ومعروفة فالسبب في ذلك فيما نرى أننا درسنا هذا الفتح دراسة شاملة في كتابنا عنه بحيث لم نترك فيه غامضاً، ووقع في ظن الناس أن كل تفاصيل هذا الفتح معروفة كل المعرفة وخاصة بعد أن أضفنا إلى ذلك ترجمتنا للدراسة القيّمة التي قدم بها ليفي بروفنسال لنص عبيدالله بن صالح عن فتح المغرب. وتحقيق هذا النص منسوب إلى ليفي بروفنسال، ولكنه ترجمه فحسب إلى الفرنسية أما تحقيق النص ونشره فقد قمنا به نحن وعلقنا عليه في صحيفة معهد الدراسات الإسلامية بمدريد.

ولكن الأمر جد مختلف فيما يتصل بفتح الأندلس ، فلا زال الغموض يكتنف الكثير من التفاصيل رغم كثرة الأبحاث التي دارت حول هذا الموضوع .

هنا تقدم لنا القطعة التي نشرها السيد المنجي الكعبي شيئاً جديداً فعلاً ، فإن رواية النص الجديد لأخبار فتح الأندلس تختلف كل الاختلاف عن كل ما لدينا في أكثر من موضع . وهذا الاختلاف يدعونا إلى أن نعيد النظر في الكثير مما لدينا من المعلومات عن فتح ذلك القطر الكبير . ولو أننا عرفنا مؤلف الكتاب ورواته معرفة صحيحة لزاد ذلك في قيمة المعلومات التي يقدمها . ولا بد أن نقرر أننا إذا كنا لا زلنا نتردد في قبول نسبة القطعة إلى إبراهيم الرقيق فإننا نقرر في نفس الوقت أنها قطعة من كتاب أصيل ذي قيمة تاريخية كبيرة ، وحتى إذا تبين أنها لمؤلف من عصر متأخر ـ مثل عصر ابن عذارى مثلاً ـ (كما

---

(١) Mohamed Talbi, Un nouveau fragment de L'histoire de L'Occident Musnlman. L'Epoque d'AL-Kahina. Extrait des cahier de Tunisie ; tome XIX, 1971 nn. 73-74, p. 51.

يقول د. الطالبي) فإن ذلك لا يشينها ، وها هو تاريخ ابن عذارى نفسه يعتبر رغم تأخر زمانه من أمهات مصادرنا وأولاها بالثقة .

وسأورد فيما يلي ما ورد في هذه القطعة عن فتح الأندلس ليطلع عليه أهل العناية بذلك الشأن ، ثم أعلق عليه بما يوضح ما ورد فيه من معلومات وما يمتاز به من جديد .

ولا بد أن أنبه إلى أن تحقيق السيد المنجي الكعبي في هذا الجزء بالذات من النص الذي تفضل بنشره يحتاج إلى تصويب ومراجعة وإعادة نظر ، ومن الواضح أن خبرته بعمل التحقيق قليلة ومعلوماته عن الأندلس أقل ، ومن ثم فقد لاحظت في النص المنشور ما يقتضي التصويب والتعديل ، فقمت بذلك منبهاً إلى ذلك في كل حالة . وأرجو أن يحمل السيد المنجي الكعبي ما أبديه من الملاحظات على أحسن المحامل ، فأنا مقدر جهده معترف بفضله وعارف بصعوبة الإقبال على مثل هذا العمل ، والتجربة بعد قليلة وميدان التجويد وإتقان الصنعة بعد ذلك أمامه طويل .

ولاية موسى بن نصير[1]

وكتب الوليد بن عبد الملك ـ رحمه الله ـ إلى عبد العزيز بن مروان[2] يأمره بأن يوجه إلى إفريقية موسى بن نصير من قبل الوليد وقطع إفريقية عن عبد العزيز[3] .

(١) ص ٦٨ من المطبوع . ولم يحدد الناشر دائماً ما يقابل صفحات المخطوط كما جرت العادة .

(٢) علق المحقق على هذا الاسم بقوله : كذا في الأصل وهو خطأ ، وإنما هو عبد الله بن مروان كما جاء في البيان ١ / ٤١ الفقرة الأخيرة .

والملاحظة كلها خاطئة وابن عذارى نفسه أخطأ هنا ، لأن عبد الله بن عبد الملك بن مروان الذي خلف عبد العزيز بن مروان في ولاية مصر في جمادى الأولى سنة ٨٦ كان أخا الوليد بن عبد الملك . وكان موسى بن نصير في ذلك التاريخ والياً على إفريقية والمغرب بالفعل منذ عام (٨٥ / ٧٠٤) فلم يكن هناك ما يدعو إلى تعيينه من جديد .

(٣) توفي عبد العزيز بن مروان قبل وفاة عبد الملك بن مروان ، فلم يكن والياً على مصر عندما تولى الخلافة الوليد بن عبد الملك . الخطأ هنا من ابن عذارى .

فقدمها موسى فوجد أكثر مدنها خالية باختلاف أيدي البربر عليها ، فكان ينقل العجم من الأقاصي إلى . . . . .[1] .

قال : إن كنيسة كانت بشقبنارية[2] كان فيها عجب . . . منها مرآة في سلطان الروم ، فإذا اتهم الرجل امرأته [نظر إلى][3] المرآة فرأى المبتلى بالمرأة . وكانت البربر قد تنصرت . فكان رجل بربري قد أظهر اجتهاداً في النصرانية حتى صار شماساً . واتهم رجل امرأته ، فنظر في المرآة فإذا هو بوجه الرجل البربري الشماس . فدعا به الملك فقطع أنفه وطرده من الكنيسة ، فلما رأى ذلك قومه طرقوا المرآة فكسروها ، وأرسل الملك إلى حيهم فاستباحه . . .

وخرج موسى من إفريقية غازياً إلى طنجة ، فوجد البربر قد هربوا من المغرب خوفاً من العرب ، فتبعهم ، وقتلهم قتلاً فاحشاً ، وسبى منهم سبياً

(١) العبارة موجودة أيضاً عند ابن خلدون (٦/ ٢٢٠) قال : « وقدم موسى بن نصير القيروان والياً على إفريقية ، ورأى ما فيها من الخلاف ، وكان ينقل العجم من الأقاصي إلى الأداني ، وأثخن في البربر ودوخ المغرب ، وأدى إليه البربر الطاعة . . . » وقد فسرنا هذه العبارة في مقالنا « التنظيم الإداري والمالي لإفريقية والمغرب في عصر الولاة » صحيفة كلية الآداب بجامعة الكويت ، جـ ١ ، ١٩٧٣ ص ٨٨ بقولنا : فبدأ موسى بإخراج الروم من المدن والنواحي الداخلية ، وإسكانهم فيما قرب من مراكز الحكم .
أما عبارة : « فوجد أكثر مدنها خالية (باختلاف أيدي البربر عليها) الواردة هنا فموجودة أيضاً عند ابن عذارى (١/ ٤١) قال : وكانت أكثر مدن إفريقية خالية باختلاف البرابر عليها » وقد فسرتها في نفس البحث ص ٨٧ عمود ٢ بقولي : وأظن أن المراد أن مُعظم البلاد خلت من العمال لأن البربر الذين أسلموا تقاسموا البلاد فيما بينهم وتنازعوا في ذلك ، ووقعت الحروب فيما بينهم واختلفت أيديهم عليها ولم يعد للعرب عليها سلطان أي أن صحة قراءة العبارة (وخلت أكثر البلاد [من العرب والعمال] فاضطر موسى إلى إعلان الحرب عليهم فأثخن في البربر ودوخ المغرب ، وأدى إليه البربر الطاعة كما يقول ابن خلدون (٦/ ٢٢٠) .

(٢) علق السيد المنجي الكعبي على هذا اللفظ بقوله : « شمبنارية (بالميم) مدينة بيزنطية معناها « الكف الحالية » وصحة اللفظ شقيفارية وقد أتينا برسمها عند البيزنطيين Sicca Vaneria وعرفنا بها في « فتح العرب للمغرب » ص ٢٢٥ .

(٣) ترك الناشر موضع الكلمتين بياضاً . فأثبتنا هذين اللفظين بين حواصر فاستقام السياق . وأعتقد أن الأمر اختلط عليه لأنه رسم اللفظ بعد الفراغ . « المرأة » ولو قرأه « المرآة » لاستقام له السياق .

كثيراً ، حتى بلغ السوس الأدنى لا يدافعه أحد . فلما رأى البربر ما حل بهم استأمنوا وأدوا الطاعة ، فقبل منهم وولى عليهم والياً .

ثم استعمل موسى بن نصير على طنجة طارقاً بن زياد مولاه ، وتركه بها في سبعة وعشرين رجلاً من العرب واثني عشر ألف فارس ، وهي العدة التي جعلها عليهم حسان بن النعمان[1] . وكانوا قد دخلوا الإسلام وحسن إسلامهم فتركهم موسى وانصرف بعسكره من العرب خاصة ، وأمر العرب السبعة والعشرين الذين ترك عند طارق بن زياد أن يعلموا البرابر القرآن ويفقهوهم في الدين .

ثم مضى إلى إفريقية فمر بقلعة مجانة[2] ، وانحصر صاحبها منه ، فرأى موسى بن نصير . . . .[3] فلم يعرض له ، فلما نزل القيروان دعا بشر بن أرطأة فعقد [له] على أعنة الخيل ، وأمره أن يمضي إلى صاحب قلعة

---

(١) العبارة واردة عند ابن عذارى (١/٤٢) بخلاف : « . . واستعمل موسى طارقاً على طنجة وما والاها في سبعة عشر ألفاً من العرب واثني عشر ألفاً من البربر ، وأمر العرب أن يعلموا البرابر القرآن وأن يفقهوهم في الدين ، ثم مضى موسى قافلاً إلى إفريقية » .
ويعود ابن عذارى فيصحح العبارة في نهاية نفس الصفحة : « وترك موسى بن نصير سبعة عشر رجلاً من العرب يعلمونهم القرآن وشرائع الإسلام » .
وابن خلدون يجعل عدة العرب ٢٧ ألفاً (٦/٢٢٠) .
فما هي عدة العرب الذين تركهم موسى بطنجة : ٢٧ أو ١٧ ألفاً أو ٢٧ ألفاً ؟
فإذا كان قد ترك ١٧ ألفاً أو ٢٧ ألفاً فهي حامية . وإذا كان قد ترك ٢٧ رجلاً فهم معلمون للقرآن والإسلام .
وقد علق المنجي الكعبي على هذه العبارة بقوله : في البيان ، الموضع السابق س ٤ قبل الأخير : عقبة بن نافع وهو خطأ .
وأظن أن ابن عذارى لم يخطىء ، وأرجو السيد المنجي أن يعيد قراءة العبارة ليرى أنها صواب .

(٢) ذكر البكري مجانة وقال إنها على الطريق من فاس إلى القيروان وهي المحلة السابقة على باغاية . وقد أضاف البكري أيضاً خبر فتح بسر بن أبي أرطأة لها ، ص ١٤٥ . والأصح في اسم الرجل بسُر لا بشر .

(٣) وضعنا مكان البياضات نقطاً بعدد الكلمات بحسب ما ذكر السيد المنجي الكعبي ، وكل ثلاث نقط تعدل كلمة .

مجانة ، فلما أناخ عليهم عظم عليهم أمر القتال . ونظر الروم من العرب صبراً لم يُرَ مثله قط ، فملأهم ذلك رعباً ، فألقوا بأيديهم ، فدخلها ، فقتل المقاتلة وسبى الذرية ، وغنم منها أموالاً كثيرة ، فكانت تسمى باسمه قلعة بشر ، لا تعرف إلا به ، لأنه هو الذي افتتحها ، فأصاب عدداً من ولائد ووصفاء وذهباً وفضة ، فخمَّس ذلك ، وبعث بالخمس إلى موسى بن نصير وبعث موسى الخمس إلى الوليد ، فكانت قيمة ذلك الخمس عشرين ألف دينار .

فتح الأندلس(*)

١ - [طارق والحامية البربرية في طنجة]

قال : وتحامل أصحاب طارق بن زياد ، عامل موسى بن نصير بطنجة ، على أهل البلد ، وأساءوا إليهم ، وجاروا عليهم ، فكتبوا إلى أهل الأندلس يعرفونهم بما يلقونه من جهة البربر وسوء سيرتهم .

٢ - [أليان]

فكان طارق يوماً بطنجة إذ طلعت مراكب ، فأكمن لها المسلمين فلما أرست خرجوا إليها، وأنزلوا أهلها، فقال أهلها: إنا إليكم جئنا عامدين، فإذا هم يعظمون غلاماً حدثاً منهم يقال له أليان ، فقال له طارق : ما جاء بك ؟ فقال : أنا ابن ملك الأندلس[1] ، وليس بينك وبينها إلا هذا [الزقاق

(*) من هنا فصاعداً قسمت النص إلى فقرات أعطيتها أرقاماً وجعلت بعضها عناوين ليسهل التعليق عليه .

(١) علق السيد المنجي الكعبي على ذلك بقوله (ص ٧٠ هامش ١) : وهذا يخالف ما اجتمعت عليه المراجع من أن يليان هو ملك الأندلس .
والذي نعرفه أن واحداً من المراجع لم يقل إن يليان ملك الأندلس ، فمن أين يا ترى أتى بذلك ؟
وقد ورد نفس الخبر بتفصيل أقل عند ابن عذارى ٢ / ٦ رواية عن عيسى بن محمد من ولد أبي المهاجر « في كتابه » .

وأشار][1] إلى جبالها يريه إياها . قال طـارق : ما جاء بك ؟ قـال له : إن أبي مـات . ووثب على مملكتنـا بـطريق يقـال لـه لـذريق ، وبلغني أمـركم ، وجئت إليكم أدعوكم إليها ، وأكون دليلكم عليها[2] .

٣ - [عبور طارق]

ومـع طارق اثنا عشر ألفـاً من البربـر . فعزم طـارق على غـزو الأندلس ، واستنفـر البربـر . فجعل أليـان يحمل البـربر في مـراكب التجـار التي تختلف إلى الأنـدلس ، ولا يشعر بهم أهـل الأندلس ، ولا يـظنون إلا أنها تختلف بمثـل مـا كـانت تختلف به من معـايشهم ومتـاجـرهم ، فجعـل ينقلهم فـوجـاً فـوجـاً إلى الأنـدلس . وقـد تقـدم أليـان إلى أصحـاب المـراكب ألا يعلمـوا بهم ، وقـال لقومه : إني توثقت لكم ، فاعلموا أنها دولة العـرب ، وهم يملكون الأنـدلس ، ودعاهم إلى أن يأخـذوا نصيبهم منها ، فـأعجبهم ذلك ورغبـوا فيه ، وكتب لهم طـارق بـالأمـان عـلى أنفسهم وذراريهم وأمـوالهم . فلما لم يبق لهم إلا فـوج واحد[3] ركب طارق ومن بقي معـه ، فجاز إلى أصحـابه ، فنـزل بهم جبلاً من جبال الأندلس حريزاً منيعـاً ، فسمي ذلك الجبـل من يومئـذٍ جبل طـارق ، فلا يعلم إلا به[4] .

٤ - [اللقاء بين لذريق والمسلمين]

وموسى بن نصير بإفريقيـة لا يعلم شيئاً من هـذا ، فلما بلغ ملوك الأندلس خبـره نفروا إلى الملك الأعـظم ، وهو لـذريق ، وكان طـاغياً في جمـوع عـظيمـة

---

(١) ذكـر المنجي الكعبي أن هنا خرماً بقـدر ثلاث كلمـات فـأكملتـه بـين حـواصر للسيـاق . وقـد أخـذت لفظ الزقـاق من كلام عـلي بن سعيد عنـد المقـري . نفـح . (تحقيق إحسـان عبـاس) ١٤٥/١ .

(٢) بمراجعة هذه الفقرة مع ما ورد عند ابن عذارى ٦/٢ نسـتطيع القـول إنها مقتبسة أو منقـولة من كتاب عيـسى بن محمد من ولد أبي المهاجر .

(٣) المطبوع : لوح وصححته فوج للسياق ، وراجع ابن عذارى ٦/٢ .

(٤) هـذه القطعـة مقتبـسة من الـواقدي بـرواية أحمـد بن محمـد الـرازي . انظر ابن عـذارى ٦/٢ (الفقرة الأولى) .

على دين النصرانية ، وزحف إلى طارق في عدة عظيمة ، [فدعا][1] بسرير مكلل بالدرر والياقوت ، فشد السرير على [بغلين][2] ، وحفت به الرجال ، وقعد لذريق على سريره ، وعلى رأسه تاج ، وعليه قفازان مكللان بالدر والياقوت وجميع الحلية التي يلبسها الملوك قبله ، فلما انتهى إلى الجبل الذي فيه طارق خرج إليه طارق وجميع أصحابه رجالة ليس فيهم راكب ، فشمروا للموت ، فقال لرجاله : ليس هم أحق بالموت منكم ، قد دخلوا عليكم بلادكم !. ونادى بالنزول .

فنزل العسكر . . . فمشى بعضهم إلى بعض بالسلاح ، فاقتتلوا قتالاً شديداً ، فوقع الصبر حتى ظن الناس أنه الفناء ، وتواخذوا بالأيدي ، وضرب الله عز وجل وجوه أعدائه ، فانهزموا . وأدرك لذريق فقتل بوادي الطين .

وركب [المسلمون][3] آثارهم ، وكان الجبل وعراً ، فكان البربر أسرع منهم على أقدامهم . فسبقوهم إلى خيلهم ، فركبوا[4] خيولهم البربر ، ووضعوا فيهم السيف وأبادوهم ، ولم يرفعوا عنهم السيف ثلاثة أيام ولياليها[5] .

---

(١) المطبوع (ص ٧٤) « وعا بسرير » وفوق وعا رقم تعليق ، والتعليق يقول : موضع كلمة مأروضة . فإذا كانت مأروضة فمن أين أتى المحقق بـ (وعا) ؟ والصحيح الذي يستقيم به السياق ـ دون قطع منا بذلك ـ ودعا أو فدعا .

(٢) المؤلف يروي هنا عن نفس المصدر الذي أخذ عنه ابن عذارى في هذا الموضع ، وهو كتاب عيسى بن محمد من ولد أبي المهاجر ، وعنده في هذا الموضع على بغلين يحملانه (ابن عذارى ، ٢ / ٧) .

(٣) أضفنا هذه الكلمة للسياق . والجملة في الأصل بدون فاعلها .

(٤) كذا في الأصل وهو خطأ أتى في الغالب من الاستملاء .
وأخطاء كهذه في النص حفزت د. طالبي على القول بأن الأسلوب ركيك وأن الكاتب لا يعرف العربية معرفة جيدة ، ومن ثم فليس هو إبراهيم الرقيق . وواقع الحال أن أخطاء كهذه تقع من الناسخين والمملين والمستملين .

(٥) المؤلف هنا يتابع كلام عيسى بن محمد من ولد أبي المهاجر . قارن هذا بما عند ابن عذارى ٢ ـ ٧ .

٥ - [فتح قرطبة]

فمكثت جيفهم دهراً . وبقيت عظامهم إلى حديث من الزمان ، وأمر طارق فرسان المسلمين أن يسبقوهم إلى قرطبة ، فأتوها وقد وقف المسلمون حولها فقتلوهم ، فكانت قرطبة مدينة لذريق[١] . . . .

ودخل طارق قرطبة فأصاب فيها من الدر والياقوت والذهب والفضة ما لم يجتمع مثله قط ، وأصاب من الحرير . . . والنساء والذراري ما لا يحصى ولا يعد . فكانت جملة السبي عشرة آلاف رأس[٢]، وذلك سنة اثنتين وتسعين[٣] .

٦ - [عبور موسى]

وبلغ موسى بن نصير أن طارقاً بن زياد فتح الأندلس ودخلها ، فخاف أن يحظى بذلك عند الخليفة ، فغضب غضباً شديداً ، وكتب إليه يعنفه إذ دخلها بغير أمره ، وأمره ألا يجاوز قرطبة ، وأمر موسى الناس بالرحيل ، ورحل معه وجوه العرب . وكان مخرجه في رجب سنة ثلاث وتسعين ، واستخلف على القيروان ولده عبدالله وكان أسن ولده .

وسار حتى إذا كان بطنجة عبر البحر منها إلى الخضراء ، وهي على مجاز الأندلس . فكره طارق أن يخرج إليه من المدينة لكثرة العدو ، فوجه إليه

---

(١) الرواية هنا فيها شبه كبير من رواية الواقدي (انظر ابن عذارى ، ٢ ـ ٧) وقد أخذها الرازي وزاد عليها كثيراً . انظر رواية الرازي كاملة عند المقري (نفح : ١ ، ٢٥٩ وما بعدها) . والجملة هنا على أي حال ناقصة وربما كان تمامها : فكانت قرطبة مدينة لذريق قبل دخول المسلمين .

(٢) بهامش الأصل : خمسين ألفاً .

(٣) ينفرد النص بهذا القول في فتح قرطبة على يد طارق . والأغلبية على أن الذي فتحها مغيث الرومي أرسله إليها طارق وهو في طريقه إلى طليطلة . انظر : فجر الأندلس ، ص ٨٠ وما بعدها . وقد ذكرنا الأمر هناك بتفصيل وأتينا بكل المراجع .

بالخف والحافر والهدايا والجواري وغير ذلك[1] .

٧ - [موسى ورجاله يغيرون على سقيوما في المغرب الأقصى]

ولما كان موسى بن نصير بطنجة قبل جوازه مال عياض بن عقبة إلى قلعة يقال لها سقيوما ، وكان فيها بقية قتلة عقبة ، ومال معه سليمان بن أبي المهاجر وسألا أن يميل معهما ، فكره ذلك وقال : هؤلاء قوم في الطاعة ، فأغلظا له الكلام حتى يرجع ، فقاتل أهل سقيوما قتالاً شديداً حتى أخذوا لواء من ألوية العرب ، فكانوا يقاتلونهم به حتى تسور عليهم عياض بن عقبة من خلفهم في قلعتهم ، فانهزم البربر واشتد القتل عليهم . . . . التي دخل عليهم منها عياض ، فمات القوم وبادرهم . . . إلى اليوم[2] . وذكر ابن أبي حسان أن موسى لما فتح سقيوما كتب إلى الوليد بن عبد الملك : أنه صار لك من سبي سقيوما مائة ألف رأس ، فكتب إليه الوليد : ويحك إني أظنها من بعض كذباتك ، فإن كنت صادقاً فهذا محشر الأمة[3] .

---

(١) وهذا شيء جديد لا وجود له إلا هنا .

(٢) العبارة من « وبادرهم . . . إلى اليوم » غير سليمة ، وأظن أن صحتها ، بناء على نص أبي عبيد البكري ص ١١٧ : «فبادوا وفلت أورية إلى اليوم» .

(٣) روى ابن عذارى هذا الخبر مختصراً (٤١/١) وهو يسمي الموضع سجومة ، وعند البكري (ص ١١٧) سقوما ، وهاتان القراءتان أصح مما في النص المنسوب إلى الرقيق . والخبر كله منقول عن الإمامة والسياسة لابن قتيبة (صفحة٧٦) . وقد روى الخبر أيضاً عبيد الله بن صالح (نص جديد ، صفحة ٢٢٤) . وهذه الحملة كانت في ظاهرها انتقامية . ولهذا لم يشأ موسى أن يشترك فيها من أول الأمر ، وكان هدفها الإنتقام من قتلة عقبة بن نافع الذين أوقعوا به عند تهودة ، ولهذا فقد قام بها أولاد عقبة وأورد ابن أبي المهاجر دينار ولكن الحقيقة أنها كانت عملاً سياسياً على أكبر جانب من الأهمية إذ إن وجهتها كانت منازل قبيلة أورية - قبيلة كسيلة بن لمزم وقلعتهم المسماة سجوما (على مقربة من فاس كما يقول البكري) وهي في قلب إقليم طنجة الذي كان إلى ذلك الحين خارجاً عن سلطان المسلمين وإن كان محالفاً لهم . فكانت حملة موسى هذه قضاء على استقلال مرطانية الطنجية وإيذاناً بإنشاء ولاية طنجة ، وسنفصل الحديث عن ذلك .

٨ - [لقاء موسى وطارق في قرطبة]

فلما وصل موسى إلى قرطبة استجار طارق بابنه عبد العزيز ، فشفع له عند أبيه ، ودخل موسى قرطبة ، فأتاه طارق بن زياد فترضاه وقال : إنما هذا الفتح لك وإنما أنا مولاك . فقبل منه وعفا عنه . فتكاملت بقرطبة الجيوش من العرب والبربر ، فصاروا في خلق عظيم ، فلما رأى موسى بن نصير ذلك دعا بطارق بن زياد فوجهه على أعنة الخيل إلى طليطلة[١] .

٩ - [فتح مدينة طليطلة[٢]]

وهي مما يلي الإفرنج . فانتخب له الرجال[٣] . وسار طارق حتى وقف عليها وأناخ بها ، وبها أشراف الأندلس وأموالهم وذخائرهم ، فقاتلهم قتالاً شديداً حتى افتتحها ، فأصاب فيها كنوزهم وأموالهم ، وغنم منها من الجوهر ما لا يجد[٤] له قيمة . وأصاب فيها مائدة سليمان بن داوود، عليهما السلام ، وكانت من ذهب مكللة بالدر والياقوت وضروب الجواهر .

١٠ - [تاريخ المائدة]

وكان سبب وصولها إلى طليطلة أن الروم أخذوا ما كان في بيت المقدس من مكارم الأنبياء ، عليهم السلام ، حملوها إلى مدينة رومية ، وحمل أساقفة النصارى مائدة سليمان إلى الإسكندرية ، فلما غزا عمرو بن العاص مصر هربوا

= وقد اختلط الأمر على السيد المنجي الكعبي ، فبحث عن سقيوما في « كتب تاريخ الأندلس » كما يقول فلم يجدها (صفحة ٧٧ هامش ٢) وهذا طبيعي لأنها ليست في الأندلس أصلاً ، بل في المغرب الأقصى على رافد من روافد نهر المولدية غير بعيد عن فاس .

(١) لا نجد ما يؤيد هذه الرواية إلا خبر غير واضح عند ابن عبد الحكم (القاهرة ١٩٦١) صفحة ٢٧٨ .

(٢) هذا العنوان وارد في الأصل .

(٣) المؤلف يؤيد هنا ما يقوله آنفاً من أن موسى أقام في قرطبة وأرسل طارقاً لفتح طليطلة خلافاً لما هو معروف .

(٤) كذا في الأصل ، والأصح هنا : يوجد .

إلى مدينة طرابلس . فلما نزل عمرو لبدة هرب بها الروم إلى قرطاجنة ، فلما دخل المسلمون إفريقية هربوا بها إلى مدينة طليطلة ، ولم يكن لهم أمنع منها[١] .

فلما ظفر بها طارق نظر إلى عجب لم ير مثله قط ، فأمر بزبرجدها فقلع ، وهي مكللة بالدر والياقوت ، وعمل لها رجلاً غيرها[٢] ، ونهض بجميع ما معه من الجوهر والأموال إلى موسى . ونظر من المائدة إلى عجب لم ير مثله ، وذلك سنة أربع وتسعين .

فأتى موسى بن نصير شيخ كبير[٣] قد عصب على حاجبيه من الكبر ، فقال له موسى : من أنت ؟ فقال : رجل من أهل هذه البلاد . قال : ما لنا من العلم عندك ؟ قال : افتتحتم قمونية[٤] ؟ قال : نعم . قال : فإنكم لا بد أن تنتهوا من هذه البلاد إلى منتهاكم !

١١ - [موسى يستكمل فتح الأندلس]

فنهض موسى يفتح مدائن الأندلس مدينة بعد مدينة حتى انتهى إلى مدينة أربونة ، فأراد لقاء ملك إفرنجة ، فأخذ حنش الصنعاني بلجامه وقال : سمعتك أيها الأمير تقول حين فتحت طنجة : لم يكن لعقبة ولا لأبي المهاجر من ينصحهما حتى أتيت أنصحك اليوم ، فارجع فقد توغلت بالمسلمين[٥] .

---

(١) هذا أيضاً خبر طريف جديد علينا لا نجده عند ابن حيان (نفح الطيب ، ٢٧٢/١) الذي وافانا بأوفى خبر عن مائدة سليمان هذه . ولكننا نجده في الإمامة والسياسة .

(٢) في العبارة شيء ساقط ، لأنه واضح من السياق أن طارقاً خلع رجل المائدة ولا ذكر لهذا هنا .

(٣) هذا الشيخ مذكور في نص عبد الملك بن حبيب عن فتح الأندلس . نشره د. محمود علي مكي ذيلاً على مقاله عن مصر وأصول علم التاريخ في الأندلس . ص. م. د. ا. مجلد ٥ ص ٢٢١ من القسم الإفرنجي .

(٤) هذا الإسم محرف قطعاً ، لأن قمونية في إفريقية ، وهي تكتب أيضاً قبودة ، تعريب لاسمه اللاتيني Caput Vada .

(٥) علق المنجي الكعبي على ذلك بقوله (ص ٨١ هامش ١) : أورد هذا الخبر باختلاف ابن القوطية ، « تاريخ إفتتاح الأندلس »ط . بيروت ص ١٥٢ .

١٢ - [يا بني إسماعيل ، هذا منتهاكم]

وعن يوسف بن هشام قال : كان جدي من خاصة موسى . فأخبرني ، قال : انتهينا إلى صنم ، فوجدنا في صدر ذلك الصنم : « ارجعوا يا بني اسماعيل ، فإلى هذا منتهاكم ! وإذا سألتم إلى ماذا ترجعون أخبرتكم أنكم ترجعون إلى الاختلاف في ذات بينكم حتى يضرب بعضكم بعضاً ، وقد فعلتم »(١) .

وذكر عمر بن سهل مولى موسى بن نصير قال : لما أراد موسى الانصراف من ثغر الأندلس وضعت أكوام الذهب والفضة والجواهر بين يديه ، فأمر بالنيران فأوقدت ، ورمى فيها الجوهر والزمرد والياقوت وغير ذلك ، فما صلب على النار ولم يتفرق عزله ، وما تفرق منه تركه . وأتى بالمائدة فوضعت .

١٣ - [عود إلى المائدة]

وذكر لموسى شيخ كبير فدعا به ، فإذا شيخ قد وقعت حاجباه على عينيه . قال له موسى : أخبرني كم أتى عليك من السنين ؟ قال : خمسمائة سنة . قال له موسى : ما هذه المائدة ؟ فقال : هذه مائدة سليمان بن داوود ، عليهما السلام ، قال : وكيف وقعت إلى . . . النصرانية عن اليهود قتل عيسى عليه السلام . . بها إلى بيت المقدس وحلف بطروش الملك ليردمن البيت ، . . . . . فحمل عدو الله الذيل من الأندلس(٢) في مراكب حتى رماه

= والصواب أن ذلك ورد في قطعة من الإمامة والسياسة لابن قتيبة كان خليان ربيرا قد نشرها ذيلاً على تحقيقه لتاريخ ابن القوطية وجعل عنوانها : الرسالة الشريفية . أنظر ص ١٥٢ - ١٥٣ . وقد ورد هذا الخبر مع خلاف يسير في رواية عبد الملك بن حبيب منسوباً إلى عبد الحميد بن حميد من موالي موسى بن نصير . انظر مقال د . مكي الآنف الذكر ، ص ٢٢٧ .

(١) الخبر وارد بنفس المسند عند ابن عذارى ، ٢/١٧ .

(٢) العبارة هنا مضطربة إضطراباً شديداً ، والخبر وارد بالتفصيل في « فتح الأندلس » لمؤلف مجهول ص ١٨ و ١٩ ، وبناء عليه أقترح تصويب العبارة كما يلي :
قال : وكيف وقعت إلى [بلاد] النصرانية ، [قال لما أد] عت اليهود قتل عيسى عليه السلام [حميت النصرانية حيث كانت وجمعت جيوشاً وسارت] بها إلى بيت المقدس . وحلف بطروش الملك ليردمن البيت [بزبل الأندلس] فحمل عدو الله . . . إلخ .

في بيت المقدس . وغزت النصرانية من كل مكان ، واقتسموا ما في بيت المقدس ، فصار لأهل الأندلس الذراري والمائدة ، وصار لأهل رومية تابوت داوود وعصا موسى ، عليهما السلام ، والتوراة وحلة آدم ، عليه السلام ، وصار لأهل قسطنطينية الياقوتة ، فقال موسى : وما تلك الياقوتة ؟ قال ياقوتة ذي القرنين التي كان يهتدي بها في الظلمات ، وهذه[1] أول ما رجع إلى بيت المقدس ، وسيرجع كله[2] .

١٤ - [عودة بالمغانم]

فاجتاز موسى بالأموال والذهب والفضة والجوهر والمراكب إلى طنجة ، ثم حملها على العجل ، فكانت وسق مائة عجلة وأربع عشرة عجلة ، تبدل عليها الأزواج في كل مرحلة .

وقيل لرجل من أصحاب موسى يقال له أبو حميد[3] : كيف كانت المائدة ؟ قال : كانت من ذهب مشوب بشيء من فضة ملون بحمرة وصفرة ، وكانت مطوقة بثلاثة أطواق : طوق من ياقوت وطوق من زمرد وطوق من لؤلؤ . قلت : فما كان يحملها ؟ قال : لما كنا بباغاية أفلت بغل لرجل من أهل العسكر [و] قطع قيده [وجال بين] الأخبية ، وإذا من في العسكر [... ...] موسى بن نصير ، [فقال] احملوا عليه حمائلاً [فحملوا عليه المائدة] ، فما بلغ المرحلة حتى تفسخت قوائمه[4] . قال[5] إن

---

(١) أي أن هذه الياقوته أول ما رجع إلى بيت المقدس من الذخائر . وانظر تفاصيل أخرى عنها في « فتح الأندلس » ص ١٩ .

(٢) هذه العبارة تدل على أن أصل هذه الأسطورة مسيحي ، فإن كاتبها يرجو أن تعود هذه الذخائر إلى بيت المقدس .

(٣) الخبر وارد في الإمامة والسياسة ، واسم الرجل هناك عبد الحميد (انظر ملحق ابن القوطية) ، ص ١٥٤ وهو في الحقيقة عبد الحميد بن حميد الذي ذكره عبد الملك بن حبيب .

(٤) الخبر كله وارد في الإمامة والسياسة ، انظر ملحق ابن القوطية (بيروت) ص ٥٦ وسياق الأصل هنا مضطرب جداً فاجتهدت في إكماله بعبارات من أصل الخبر وضعتها بين حواصر . وهو وارد أيضاً عند ابن عذارى باختصار منسوباً إلى الرقيق (١/٤٣) وقد اعتبر المنجي =

موسى دعا ذلك الشيخ فقال له أين بلدك ؟ فقال : قرطاجنة ، قال موسى : كم أقمت بها ؟ قال : عمرت به ثلاثمائة سنة وبالأندلس مائتي سنة .

١٥ - [خبر قرطاجنة ومن بناها][١]

فقال[٢] كيف كان خبر قرطاجنة ومن بناها ؟ قال : قوم من بقية آل عاد الذين هلك قومهم بالريح ، وبقيت بعدهم خراباً ألف عام ، حتى أتى الزبير ابن لاوذ بن ثمود الجبار ، فبناها على البناء الأول . ثم احتاج إلى الماء العذب ، فبعث إلى أبيه ، وكان أميراً على الشام ، وعمه على السند والهند ، وكان ملكه من قرطاجنة إلى الأندلس ، فأرسل إليه أبوه المهندسين ، فهندسوا له الماء حتى وصلوا إلى قرطاجنة . قال : وكم كان عمره ؟ قال : سبعمائة سنة .

فارتادوا له مجرى القناة أربعين سنة . وكان لما حفر أساسه وجد حجراً مكتوباً فيه : هذه المدينة علامة خرابها إذا ظهر فيها الملح . فبينما نحن ذات

= الكعبي هذا الإقتباس من الأدلة على أن النص الذي نشره من تأليف إبراهيم الرقيق . والحجة هنا ليست قاطعة ، لأنه لا يستبعد أن يكون الرقيق وهذا الرجل قد أخذ الخبر عن الإمامة والسياسة خاصة وأن هذا الجزء من الإمامة والسياسة مأخوذ من كتاب ألفه واحد من آل موسى بن نصير في فضائل جدهم . ويؤخذ ذلك أيضاً أن أخبار موسى مروية هنا على ألسنة رجال من موالي بيته أو جنده الذين رافقوه مثل عبد الرحمن بن سالم وابن صخر ويزيد بن سعيد بن مسلم مولى موسى و « محمد بن سليمان وغيره من مشايخ مصر » وعبد الحميد بن حميد الذي يُسمى في الإمامة والسياسة عبد الحميد(ص١٥٤) ويسمي النص المنسوب إلى ابن الرقيق أبو حميد وهو يوصف بأنه من أصحاب موسى (ص ٨٢) وهناك أيضاً يوسف بن هشام وعمر بن سهل مولى موسى بن نصير (ص ٨١) . انظر عن بعض هؤلاء بحث د. مكي المشار إليه آنفاً .

(٥) الغالب أن الراوي هنا هو نفس أبو حميد عبد الحميد بن حميد .

(١) العنوان وارد في الأصل . وهذا الخبر خاص بقرطاجنة إفريقية ، ولكن فيما يليه إشارات كثيرة هامة إلى موسى وعلاقته بطارق وبالوليد وسليمان ابني عبد الملك ، فرأيت إيراده استكمالاً لهذه الرواية المنسوبة إلى الرقيق .

(٢) السائل هنا موسى والراوي هو هذا الشيخ الذي يزعم أن عمره ٥٠٠ سنة ، ٣٠٠ منها في إفريقية و ٢٠٠ في الأندلس !

يوم في غدير قرطاجنة إذ بان الملح على الحجر ، فعندها رحلت إلى هنا .

١٦ - [موسى يولي ابنه عبد العزيز الأندلس]

ثم إن موسى بن نصير ولى على الأندلس ابنه عبد العزيز . وخلى معه حبيباً بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع[١] . وشخص موسى قافلاً إلى الشام فوصل إلى مدينة القيروان في آخر سنة خمس وتسعين ، فلم ينزلها ، ونزل منها على ميل من القيروان .

١٧ - [موسى في منتهى مجده]

فحكى شيخ من أهل إفريقية [. . .] الهمداني[٢] : أن موسى بن نصير قعد في مجلسه ، وجاءه العرب ممن سافر معه ، وممن خلفه مع ابنه عبد الله بإفريقية ، فلما احتفل المجلس قال : قد أصبحت اليوم في ثلاث نعم : اقرأ يا غلام كتاب أمير المؤمنين ، فقرأ كتاب الوليد بشكره والثناء عليه ، ووصف ما أجرى الله تبارك وتعالى من الفتوحات على يديه ، فحمد الله ، فقاموا إليه فهنوه[٣] بذلك . ثم قال : اقرأ كتاب ابني عبد العزيز ، يصف ما فتح الله [على يديه][٤] بعده في الأندلس ، فقاموا إليه فهنوه . قال : وأما الثالثة فأنا أريكموها ، وأمر برفع ستر خلفه ، فإذا ببهو فيه جوار مختلفات الألوان ، من

---

(١) روى ذلك أيضاً ابن عذارى (١/٢٣) وأضاف : وترك معه حبيباً بن أبي عبيدة وزيراً ومعيناً وكلا ابن عذارى وصاحب هذا النص أخطأ فجعله حبيباً بن أبي عبدة . . . وصحته ابن أبي عبيدة . انظر جمهرة الأنساب لابن حزم ، ص ١٧٨ ، ويقرر ابن حزم في هذا الموضع أن حبيباً بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع هذا هو الذي قتل عبد العزيز بن موسى بن نصير .

(٢) الخبر وارد عند ابن عذارى (١/٤٤) بدون سنة . ولكن الخبر السابق عليه (١/٤٣) منسوب إلى الليث بن سعد ، وهو يقول : لم يسمع قط بمثل سبايا موسى بن نصير ، وهذه العبارة واردة في القطعة التي نشرها محمود مكي من تاريخ ابن حبيب .

(٣) تفاصيل الخبر هنا منقوصة . راجعها عند ابن عذارى ١/٤٤ وقد صحح المنجي الكعبي لفظ فهنوه إلى فهنأوه وأشار إلى ذلك في الهامش ، ولا داعي لهذا التصحيح .

(٤) زيادة من ابن عذارى (١/٤٤) لا يستقيم بغيرها السياق .

ملساء إلى ناهد إلى منكسرة[1] عليهم الحلي والحلل فهنيء بذلك ، وعلي ابن رباح اللخمي ساكت ، فقال له موسى : يا علي ، مالك لا تتكلم ؟ فقال : أصلح الله الأمير ، قد قال القوم ! قال : وقل أنت ! قال : أنا أقول وأنا أنصح الناس لك : إنه ما من دار ملئت حبره إلا امتلأت عبره ، ولا أنتهى شيء إلا رجع . فارجع قبل أن يرجع بك ! قال : فانكسر موسى ، ثم التفت فقال : يا فلان ، جئني بهؤلاء الجواري . هذه ، قم . . . يا فلان فخذ هذه ، حتى أزفهن كلهن[2] .

فأقام بعد عيد الأضحى بقصر الماء[3] ثلاثة أيام بعسكره ثم رحل إلى المشرق ومعه طارق ، وقد قفل به وبكل ما أصاب من الأموال والجوهر والمائدة ، وخلف على إفريقية عبد الله ابنه ، وكان أكبر بنيه ، وعلى طنجة ابنه عبد الملك[4]

وسار فلما [. . . . . .] ومر بخربة عادية ومدينة من مدائن الأولين نزل فركع ركعتين ، ومشى فيها ، وفكر في معالمها وآثارها ، وبكى بكاء كثيراً .

---

(١) جاء في لسان العرب (م . كسر) : « ورجل كاسر من قوم كسر ، وامرأة كاسرة من نسوة كواسر وكسر ، وشيء مكسور ، وفي حديث العجين : قد انكسر أي لان واختمر ، وكل شيء فتر فقد انكسر ، يريد أنه صلح لأن يخبز » . والمراد : ملساء أي صبية لم يظهر لها ثدي وناهد أي شابة في مقتبل العمر ومنكسرة أي امرأة ناضجة .

(٢) العبارة فيها إضطراب ونقص ، ولكنها واضحة ، ويمكن إكمالها هكذا :

ثم التفت فقال : يا فلان جئني بهؤلاء الجواري ، هذه ، قم [يا فلان وخذها ، وأنت] يا فلان فخذ هذه ، حتى أزفهن جميعاً .

أما ابن عذارى (١/٤٤) فقد أراح نفسه وقال : فانكسر موسى ، وفرق جواريه من حينه على الناس .

(٣) قال ابن عذارى إن موسى عندما اقترب من القيروان : فلم يدخلها ونزل بقصر الماء ، ثم قعد في مجلسه . . . إلخ .

(٤) ويفهم من ابن عذارى (١/٤٤) أن ابنه الثالث مروان كان على السوس ، وابنه الرابع عبد العزيز كان على الأندلس .

١٨ ـ [موسى بين الوليد وسليمان]

ثم إنه ركب يريد الشام ، فلما كان بالعريش جاء كتاب الوليد يستعجله ، وجاءه كتاب سليمان يأمره بالتربص . وكان سليمان ولي عهده ، وكان الوليد مريضاً بدير من غوطة دمشق ، فأسرع موسى ولم ينظر في كتاب سليمان ، ودفع الأموال إلى الوليد ، وأهدى إليه المائدة والدر والياقوت .

١٩ ـ [موسى وطارق أمام الوليد ـ غضب الوليد على موسى]

وذكر موسى للوليد أنه الذي أصاب المائدة وفتح طليطلة . فلما رأى ذلك طارق دخل على الوليد وهو مريض [و] أعلمه بالقصة ، وأخبره أن موسى تعدى في أموال المسلمين وأنفقها . فبعث إلى موسى وجمع بينهما بين يديه ، وكذبه موسى ، فقال طارق : يا أمير المؤمنين ، ادع بالمائدة ، وانظر هل ذهب منها شيء ، فدعا بها الوليد ، ونظرها ، فإذا رجل من أرجلها لا يشبه بقية الأرجل ، فقال له طارق : سله عنها يا أمير المؤمنين ، فإن أخبرك بأمر الرجل ، وإلا استدللت صدقي على كذبه ، فقال موسى : هكذا وجدتها ، فقال طارق : الرجل عندي فلما دعا بها ونظرها [و] وضعها في المائدة علم أنها منها ، فصدقه الوليد وقبل قوله واختاره ، ونزل منه أقرب مما كان ، وكذب موسى وأمر بحبسه ، وأحضر من يعرف قيمة الجوهر ، فقومت تلك المائدة بمائتي ألف دينار ، ولم يلبث الوليد إلا ثلاثة أيام حتى مات .

٢٠ ـ [موت الوليد بن عبد الملك . ولاية سليمان بن عبد الملك سنة ست وتسعين][١]

توفي سلخ جمادى الآخرة سنة ست وتسعين ، وكانت خلافته تسع سنين وثمانية أشهر .

وبويع لسليمان بن عبد الملك بالخلافة حين توفي الوليد ، فسخط على

---

(١) هذا العنوان وارد في الأصل .

موسى وقال له : يا يهودي ! كتبت إليك فلم تنظر في كتابيّ ، هلم مائة ألف ! قال : يا أمير المؤمنين ، قد أخذتم جميع ما في يدي ، فمن أين لي بمائة ألف ؟ فقال لا بد من مائتي ألف ! فاعتذر إليه ، فقال : لا بد من ثلاثمائة ألف ، وأمر بتعذيبه وعزم على قتله ، فلجأ موسى بن نصير إلى يزيد بن المهلب ، فاستجار به ، وكانت ليزيد ناحية من سليمان ، فاستوهبه دمه ، فقال : يؤدي ما عنده .

* * *

تلك هي رواية ذلك النص المنسوب إلى إبراهيم بن القاسم القيرواني المعروف بالرقيق عن فتح الأندلس ، وقد اندرجت فيها بعض أخبار فتوح المغرب وأخبار موسى وطارق بعد عودتهما إلى المشرق ، وهي رواية فيها مشابه من رواية ابن عذارى ، ولكنها تنفرد بتفصيلات جديدة علينا وخليقة بأن تحفزنا على إعادة النظر في بعض حلقات ذلك الفتح الكبير .

وسأكتفي هنا بالإشارة إلى أهم ما في هذه القطعة من جديد .

المسلمون وإقليم طنجة

يفهم من الفقرة أن حامية طارق التي أرصدها موسى في طنجة أساءت إلى أهل البلد فكتب هؤلاء إلى أهل الأندلس يشكون من هذه المعاملة ويستعينون بهم .

ونرى من هذه القطعة كذلك أن طارقاً وحاميته كانوا يتخوفون من أهل الأندلس ، ولهذا فلم يكادوا يرون مراكب أليان قادمة حتى كمنوا لها وهاجموها فسارع أليان وأبلغهم أنه أتى عامداً إليهم مستعيناً بهم .

ويبدو أن هذا الخبر يلقي ضوءاً على وضع طنجة وإقليمها وعلاقتها بالمغرب الأقصى والأندلس .

والآراء المختلفة عن وضع هذه الناحية في ذلك الحين تتلخص في ثلاثة

احتمالات : فهناك من يقولون : إن طنجة وسبتة وكل ما كان يعرف بولاية مرطانية الطنجية Mauretania Tingtana كانت تابعة ـ ولو من الناحية الإسمية ـ للدولة البيزنطية ، وإن هذه الناحية كانت بعض ما استعاده جستنيان (٥٢٧ ـ ٥٦٠) عندما نهض لاستعادة ما استولى عليه المتبربرون من أراضي الدولة الرومانية . وعلى هذا فيكون المسمى أليان أو يليان حاكماً بيزنطياً ، وهناك من أعطاه لقب الأجزرك أو البطريق[1] .

وهناك من يقولون : إنه زعيم بربري ، كان شيخ قبيلة غمارة .

وها هو ذلك النص يقول : إن يليان ابن ملك الأندلس ، أي ابن من أبناء غيطشة الذي عقب لذريق عرشه ، ولا نجد في مراجعنا ما يؤيد هذا القول ، وهو مستبعد ، لأننا نعرف آل غيطشة معرفة جيدة ، وليس في أخبارهم ما يسمح بالقول بأن غيطشة كان له ولد يسمى أليان أو ما يشبه ذلك الاسم .

ولكن قول النص إنه كان غلاماً حدثاً يدفعنا إلى التساؤل عما إذا كان أليان هذا هو نفس يليان الذي لقيه عقبة بن نافع على طنجة قبل ثلاثين سنة . ألا يمكن أن يكون هذا الحدث أليان ابن يليان القديم الذي لقيه عقبة ؟ لقد ذهبنا إلى هذا الإفتراض في بحث سابق قبل أن نطلع على هذا النص ، ومن الممكن الآن أن نقول : إن يليان الأول صاحب عقبة كان من أتباع غيطشة وأصحابه ، ولهذا اجتهد في صرف عقبة عن غزو الأندلس ونصحه بالاتجاه إلى الجنوب ومواصلة غزو البربر وأصبح بعد ذلك حليفاً للمسلمين معاهداً لهم . فلما وثب لذريق بغيطشة وأولاده وأنصاره ، أسرع هذا الشاب أليان الذي نفترض أنه ابن يليان الكبير إلى العرب وحرضهم على

---

(١) قال بأن هذه الناحية كانت تابعة اسمياً للدولة البيزنطية . ساقدرا في كتابه عن فتح العرب للأندلس ، بل ذهب إلى أن يليان نفسه كان فارسي الأصل خدم الدولة البيزنطية . انظر كتابه عن فتح العرب للأندلس ، ص ٨ .

غزو الأندلس ، واشترك معهم في ذلك انتقاماً من لذريق . وسنرى بعد قليل أن العرب كانوا قد فتحوا إقليم طنجة وأنشأوا فيها ولاية إسلامية قبل ذلك .

أما ما يحدثنا به النص من أن أصحاب طارق (أي الحامية الإسلامية التي احتلت إقليم طنجة) تحاملوا على أهل البلد وأساءوا إليهم فيدل على أن طنجة كانت أول الأمر جزءاً من مرطانية الطنجية التي كان يتولاها يليان نائباً عن ملك القوط أو عاملاً له ، فلما جاء موسى استولى على طنجة وأدخل فيها حامية من الجند الإسلامي وأنشأ ولاية إسلامية جديدة هي طنجة أو المغرب الأقصى ، وجعل عليها ابنه مروان بن موسى والياً ، بعد أن أتم فتح جنوبي المغرب الأقصى وأنشأ فيه ولاية السوس أو سجلماسة الإسلامية وأقام عليها مولاه طارقاً.

وتؤيد هذا عبارة لابن القطان أوردها ابن عذارى تقول : الأكثرون يقولون إن مستقر طارق قبل محاولة الأندلس كان بطنجة ، ومنهم من يقول : كان بموضع سجلماسة ، وإن سلا وما وراءها من أرض فاس وطنجة وسبتة كانت للنصارى[1] .

وعبارة « وإن سلا وما وراءها . . . إلخ » تؤيد ما قلناه من أن ولاية مرطانية الطنجية كانت لا تزال باقية عندما وصل موسى إلى طنجة . ومعنى هذا أن عقبة بن نافع لم يفتحها بل اكتفى بحلف يليان ثم اتجه إلى الجنوب لاستكمال فتح المغرب ، ثم جاء موسى وفتح طنجة في ظروف سنشرحها وجعلها ولاية إسلامية ، وأدخل فيها حامية إسلامية هي التي يقول النص إنها أساءت معاملة أهل طنجة فشكوا إلى أهل الأندلس ، وكان ذلك في أيام الانقلاب الذي قام به لذريق وقضى فيه على غيطشة وآله وأصحابه ومنهم آل

---

(١) ابن عذارى ، البيان المغرب ، ١/ ٤٤ .
وانظر بحثنا : التنظيم الإداري والمالي لإفريقية والمغرب خلال عصر الولاة . مجلة كلية الآداب بجامعة الكويت . مجلد ١ سنة ١٩٧٣ ص ٨٥ ـ ٨٦ .

يليان ، ومنهم هذا « الغلام الحدث » أي الشاب أليان الذي ركب البحر وعبر إلى طارق لكي يدعوه إلى فتح الأندلس .

وهذه الحامية الإسلامية التي أقامها موسى في طنجة تكونت من :

أ ـ الرهائن الذين أخذهم حسان بن النعمان من قبائل البربر بعد أن هزم الكاهنة وقتلها ، وعدد هذه الرهائن ١٢٠٠٠ فارس من مختلف قبائل البربر الذين كانوا يحاربون المسلمين مع الكاهنة ، وقد جعلهم حسان فرقتين ، كل فرقة ٦٠٠٠ فارس وأقام على الأولى يفرن ابن الكاهنة وعلى الثانية يزديان ابن الكاهنة الثاني ، وترك مع هؤلاء ثلاثة عشر رجلاً من علماء التابعين يعلمونهم القرآن وشرائع دينهم .فرجع حسان إلى القيروان، وذلك في سنة ٨٢ للهجرة[1] .

ولم يذكر عبيد الله أين أرصدهم حسان ، ولكنه يقول في نص سنأتي به بعد ذلك إنه جعلهم في طنجة .

ولما كانت قبيلة جراوة ـ قبيلة الكاهنة ـ زناتية فيغلب على الظن أن هؤلاء الرهائن كانت غالبيتهم من الزناتيين .

ب ـ الرهائن الذين أتى بهم قواد موسى الذين أتموا فتح السوس (أي الجزء الجنوبي من المغرب الأقصى جنوبي حوض نهر فاس) وأهمهم مروان بن موسى بن أبي مدرك ، فأخضعوا قبائل البربر الذين لم يأخذ حسان رهائنهم . وقد أشار إلى ذلك عبيد الله بن صالح بقوله « فأخذ (موسى) رهائنهم : رهائن كتامة وزناتة وهوارة ، فجمعهم مع رهائن حسان ،

---

(١) نص عبيد الله بن صالح عن فتح العرب للمغرب ، نشر ليفي بروفنسال في ترجمة فرنسية له في مجلة أرابيكا ونشرنا نحن نصه في صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد ، مجلد ٢ (١٩٥٤) ص ٢٢٣ وقمنا بترجمة الدراسة التي عملها المحقق من الفرنسية إلى العربية ثم علقنا على النص . أما قوله إن الثلاثة عشر الذين تركهم حسان عندهم كانوا من التابعين فغير صحيح في الغالب .

وولى عليهم طارقاً بن زياد ورجع إلى إفريقية »[1] ومعظم هذا الفريق من الرهائن من الصنهاجيين المصامدة .

جـ- يذهب ابن خلدون[2] إلى أن موسى ترك معهم ٢٧٠٠٠ من العرب ، وفي قول آخر ١٧٠٠٠ ولكن الراجح والمعقول ما يقوله عبد الملك بن حبيب من أن عدد العرب الذين تركوا هناك كان ١٧٠٠ فقط . وهناك من يذهب إلى أنهم كانوا سبعة عشر فحسب ، ولكن الغالب أن هذا عدد أهل العلم من العرب الذين تركوا هناك ليعلموا الناس الإسلام .

والمفهوم أن ما يسمى هنا بالرهائن يراد به أعداد من الجند تقدمها كل قبيلة دخلت في الطاعة ضماناً لطاعتها ودليلاً على ولائها للإسلام ودولته أي أنها جزية أو إتاوة على القبائل الموالية في صورة معاونات عسكرية للعرب . وقد استخدم طارق هذه القوات البربرية الزناتية والصنهاجية ومن كان معها من العرب القليلين في فتح الأندلس ، قال عبيد الله بن صالح : « وبرهائن المصامدة جاز طارق بن زياد إلى جزيرة الأندلس ففتحوها ، وذلك في آخر يوم من رمضان سنة ٩٢ من الهجرة ، وقتلوا لذريق ملك النصارى بجزيرة الأندلس . وذكر الرازي في كتابه أعيان القبائل الداخلين مع طارق بجزيرة الأندلس » (ص ٢٢٤) ويروي ابن عذارى الخبر نفسه ، ولكن بصورة أكمل وأكثر اتفاقاً مع الواقع وذلك في خبر طويل نورده فيما يلي مقسماً إلى فقرات لتتضح أهمية المعلومات التي يتضمنها :

---

(١) نفس النص ، ٢٢٤ .

(٢) قال بأن عدة العرب ٢٧٠٠٠ ابن خلدون (تاريخ ٦/ ٤٣٩) ، أما ابن عذارى فقد جعل عدتهم ١٧٠٠٠ (١/ ٤٢) وجعلهم عبيد الله بن صالح بن عبد الحليم ١٧ فقط (ص ٢٢٤) . وذكر عبد الملك بن حبيب أن عددهم ١٧٠٠ فقط . انظر نصه الذي نشره د. محمود مكي ذيلاً على مقاله عن مصر وأصول التأريخ للأندلس ، ص ٢٢٣ . ولكن ابن عذارى عاد فذكر أن موسى بن نصير ترك سبعة عشر رجلاً من العرب يعلمونهم القرآن وشرائع الإسلام » (نفس الصفحة) فهل يريد أن يقول إنه كان هناك ١٧٠٠٠ عربي من المقاتلين و ١٧ من المعلمين ؟ .

١ ـ ثم خرج موسى ـ رحمه الله ـ غازياً من إفريقية إلى طنجة ، فوجد البربر قد هربوا إلى الغرب خوفاً من العرب ، فتتبعهم ، وقتلهم قتلاً ذريعاً ، وسبى منهم سبياً كثيراً .

٢ ـ حتى بلغ بلاد السوس الأدنى وهو بلاد دَرعة[١] .

٣ ـ فلما رأى البربر ما نزل بهم استأمنوا وأطاعوا ، فولى عليهم والياً[٢] .

٤ ـ واستعمل مولاه طارقاً على طنجة وما والاها في سبعة عشر ألفاً من العرب واثني عشر ألفاً من البربر ، وأمر العرب أن يعلموا البرابر القرآن ، وأن يفقهوهم في الدين ثم مضى موسى قافلاً إلى إفريقية .

٥ ـ قال ابن القطان : وذكر أن موسى بن نصير بعث إثر بيعته للوليد في هذه السنة المؤرخة (سنة ٨٦/٧٠٥) زرعة بن أبي مدرك إلى قبائل من البربر ، فلم يلق حرباً منهم ، فرغبوا في الصلح منه ، فوجه رؤساءهم إلى موسى بن نصير ، فقبض رهونهم[٣] .

---

(١) نلاحظ هنا أن موسى لم يهاجم أول الأمر إقليم طنجة ، أي ولاية مرطانية الطنجية وواليها هو يليان المشهور ، وكان محالفاً للعرب من أيام عقبة بن نافع . قال عبد الله بن صالح في كلامه عن أعمال عقبة : « فوصل عقبة إلى طنجة ، فوجد عليها يليان ، فاستأمن معه يليان . فذهب عقبة حتى وصل مدينة وليلي بمقربة من الموضع الذي بنى فيه فاس قبل بنيان فاس ، فوجد فيه جموع البربر ، فقاتلهم حتى هزمهم واتبعهم حتى إلى درعة » (صفحة ٢٦٨) .
ومعنى هذا أن عقبة اعتبر منطقة طنجة محالفة فلم يحاربها واتجه جنوباً حتى وصل إلى وليلي ومن هناك بدأ حرب قبائل البربر . أي أن خط وليلي يعين حدود منطقة طنجة التي لم يفتحها عقبة .
ونفهم من هذا كله أن العرب فتحوا إقليم السوس وهو جنوبي المغرب الأقصى قبل أن يفتحوا شماله ، وأن ولاية السوس أو سجلماسة نشأت قبل أن تنشأ ولاية طنجة . ويؤيد ذلك قول ابن القطان (ابن عذارى ١/٤٤) إن مستقر طارق بن زياد أول الأمر كان في سجلماسة وإن سلا وما وراءها من أرض فاس وطنجة وسبتة كانت للنصارى » أي حتى مجيء موسى بن نصير .

(٢) يفهم من التعليق السابق أن هذا الموالي كان طارقاً بن زياد .

(٣) أعتقد أن ابن عذارى ترك هنا حادثة لها أهميتها ، وهي حملة سقوما التي ذكرناها . كانت =

٦ - ثم عقد لعياش بن أخيل على مراكب إفريقية ، فمشى في البحر إلى صقلية . فأصاب مدينة يقال لها سرقوسة ، ففتحها [وغنم] جميع ما بها ، وقفل سالماً غانماً(١).

٧ - ولما حمل أبو مدرك زرعة بن أبي مدرك رهائن المصامدة ، جمعهم موسى مع رهائن البربر الذين أخذهم(٢) من إفريقية والمغرب ، وكانوا على طنجة ، وجعل عليهم مولاه طارقاً(٣).

٨ - ودخل بهم جزيرة الأندلس(٤).

٩ - وترك موسى بن نصير سبعة عشر رجلاً من العرب يعلمونهم القرآن وشرائع الإسلام . وقد كان عقبة بن نافع ترك فيهم بعض أصحابه

سقوما داخل ولاية مرطانية الطنجية التي لم يفتحها العرب إلى ذلك الحين . وقد رأينا أن موسى أراد أن يحترم حلفه مع واليها ، ولهذا قال إن أهل سقوما قوم على الطاعة . وكان الذين ضغطوا عليه لفتحها أولاد عقبة وأولاد أبي المهاجر دينار . وقد فصل أمر الحملة ابن عذارى نفسه (صفحة ٤١) وعبيد الله بن صالح (صفحة ٢٢٤) والنص المنسوب إلى الرقيق (صفحة ٧٧) ولكن أحداً منهم لم يتنبه إلى أن هذه الحملة كانت نهاية استقلال مرطانية الطنجية ، فقد كانت هذه الناحية مستقر جزء كبير من قبيلة أورية ، قبيلة كسيلة وحلفائه النصارى . وبعد هذه الحملة مباشرة احتل موسى طنجة وأصبحت بذلك ولاية عربية إسلامية جديدة تشمل شمال المغرب الأقصى ، تولى أمرها أولاً مروان بن موسى ثم نقل إليها طارق بن زياد .

وبعد هذا الفتح انقطع الحلف مع يليان أو مع آله ، ولهذا نلاحظ من رواية النص المنسوب إلى الرقيق أن طارقاً ومن معه من المسلمين كانوا على حذر من أهل الأندلس ورجالهم . فلما أقبل رجال من الأندلس عليهم أليان كمنوا لهم ليقعوا بهم فقال لهم أليان أنه أتى هذه المرة صديقاً لهم مستعيناً بهم . ويظهر أن أليان الذي يُوصف في نص الرقيق بأنه غلام حدث كان ابن يليان القديم أو خليفته على مرطانية الطنجية .

(١) هذا يدل على أن موسى قام بنشاط واسع في الفتوح من مستقره في القيروان ، فغزا زغوان ثم المغرب الأقصى الجنوبي (السوس) ثم صقلية ثم الأندلس .

(٢) تتضح هذه العبارة أكثر إذا جعلناها : وجمعهم موسى إلى رهائن البربر الذين أخذهم حسان بن النعمان .

(٣) كان مع زرعة في هذه الغزوة مروان بن موسى بن نصير وعاد منها ومعه سبي عظيم .

(٤) هذه الفقرة زائدة ولا محل لها هنا .

يعلمونهم(١) القرآن والإسلام ، منهم شاكر صاحب الرباط وغيره .

١٠ ـ ولم يدخل المغرب الأقصى أحد من ولاة خلفاء بني أمية بالمشرق إلا عقبة بن نافع الفهري ، ولم يعرف المصامدة غيره ، وقيل إن أكثرهم أسلموا طوعاً على يديه . ووصل موسى بن نصير بعده .

١١ ـ وفي سنة ٩٣ من الهجرة جاز طارق إلى الأندلس ، وافتتحها بمن كان معه من العرب والبرابر ورهائنهم الذين تركهم موسى عنده والذين أخذهم حسان من المغرب الأقصى قبله .

١٢ ـ وكانت ولاية طارق على طنجة والمغرب الأقصى في سنة ٨٥ .

١٣ ـ وفي هذا التاريخ تم إسلام أهل المغرب الأقصى ، وحولوا المساجد التي كان بناها المشركون إلى القبلة ، وجعلوا المنابر في مسجد الجماعات وفيها صنع مسجد أغمات هيلانة .

١٤ ـ ونسب طارق هو : « طارق بن زياد بن عبد الله بن ولغو بن ورفجوم بن نبرغاسن بن ولهاص بن يطوفت بن نفزاو ، فهو نفزي ، ذكر أنه من سبي البربر . وكان مولى موسى بن نصير»(٢) .

الخلاصة

إلى هنا ينتهي نص ابن عذارى ، وقد أتينا فيما سبق بالنص المنسوب إلى الرقيق مع نصوص أخرى وحللنا في غضون هذا البحث كلام هذه النصوص فقرة فقرة ، ولهذا فإننا نرى أنه من المفيد في ختام هذا البحث أن

---

(١) هذه الفقرة كان ينبغي أن تأتي قبل السابقة عليها (رقم ٤) ، أي أن موسى أعاد فتح السوس على يد قائده زرعة بن أبي مدرك وأقر عليه طارقاً ، ثم فتح إقليم طنجة ونقل إليها طارقاً .

(٢) عند عبيد الله بن صالح أن الذي صنع إذ ذاك منبر أغمات هيلانة وهذا أصح (فقرة ١٩ من نصه ، ص ٢٢٣) .

نوجز أهم الوقائع الجديدة التي انتهينا إليها في هذا التحقيق خاصة بفتح العرب للمغرب والأندلس . وقد تكلمنا عنها كلها في سياق بحثنا ، ولكننا نجمعها كلها هنا في صعيد واحد على نسق مترابط :

١ ـ تولى موسى بن نصير المغرب سنة ٨٥/٧٠٤ بسعي عبد العزيز بن مروان عامل مصر . وكان غرض عبد العزيز من هذا السعي في عزل حسان بن النعمان واستبداله بموسى أن يقوم بفتوح واسعة تعود على الدولة بخير عظيم سواء في اتساع الرقعة أو في المغانم والمكاسب السريعة التي تنتج عن الفتح .

٢ ـ وقد بذل موسى بن نصير بالفعل نشاطاً واسعاً في فتوح إفريقية ثم الأندلس تغيرت نتيجة لها صورة الغرب الإسلامي كله . وقد أثبت موسى بن نصير بذلك أنه لا يقل قدرة عن معاصريه الفاتحين في الجناح الشرقي لمملكة الإسلام ومعظمهم من رجال الحجاج بن يوسف ، وكان لا يحب موسى بن نصير ولا يثق فيه ، فأثبت موسى أنه يضارع الحجاج ورجاله في هذه الناحية وسنورد فيما يلي فتوحه مرتبة على قدر ما تيسر لنا :

أ ـ فتح قلعة زغوان وإقليمها على مرحلة ـ أي نحو ٤٠ ك م ـ من تونس غرباً ، وكانت قاعدة ناحية جبلية غنية ، وهي إحدى الجيوب التي لم يكن قد تسنى لحسان بن النعمان فتحها .

ومن المؤكد أن موسى فتحها بعد وصوله إلى القيروان مباشرة .

ب ـ في الوقت نفسه بعث كلاً من ولديه عبد الله ومروان على رأس جيش لغزو ناحية ـ لم يحددها المؤرخون ـ مما لم يكن قد تم فتحه بعد من نواحي المغرب الأوسط فعاد كل منهما بغنائم كثيرة . وهذه الغزوات كانت ضربات يراد منها إخافة البربر أولاً ثم العودة بالغنائم الكثيرة ثانياً حتى تثبت قدم موسى في الولاية وقد تم لموسى ذلك فعلاً .

جـ ـ وقد اعتمد موسى في أعماله على أولاده الكثيرين وأهمهم عبد الله ومروان

وعبد الأعلا (أو عبد العلا في الإمامة والسياسة) وعبد العزيز وعبد الملك، ثم على عياض وأبي عبيدة ابني عقبة بن نافع وعبد الجبر بن سلمة بن عبد الرحمن بن عوف والمغيرة بن أبي بردة وأبي مدرك زرعة بن أبي مدرك وسليمان بن بحر بن أبي المهاجر وعياش بن أخيل وطارق بن زياد ومغيث الرومي وحبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع وغيرهم ممن أثبتوا فيما بعد أنهم من كبار القادة وقادة الفتوح .

د ـ وفي هذا الوقت أيضاً نستطيع أن نضع الحملة البحرية التي أرسلها موسى إلى صقلية بقيادة عياش بن أخيل ، وهي حملة ناجحة في فتوح البحر فقد عاد المسلمون منها بغنائم وفيرة . وهذا النجاح سيكون السابقة التي ستشجع العرب على القيام بغارات مماثلة على الأندلس مثل غارة أبي زرعة طريف على جنوبي الأندلس وكانت طليعة لحملة طارق .

وقد قام موسى بكل هذه الغزوات لأول ولايته لكي يثبت لعبد الملك بن مروان ثم لابنه الوليد أنه جدير بولاية المغرب كما قلنا . ومن المعروف أن عبد الملك لم يكن راضياً أول الأمر عن تحامل أخيه عبد العزيز بن مروان على حسان بن النعمان واضطراره إلى الاعتزال لإحلال موسى بن نصير محله ، فاجتهد موسى في الفتوح ليثبت أنه خير من حسان بن النعمان.

هـ ـ الحملة الكبرى التي أرسلها على السوس بقيادة زرعة بن أبي مدرك يرافقه ابنه مروان وطارق بن زياد وهي الحملة الحاسمة التي قضت على كل مقاومة لبربر المغرب الأقصى ، وقد ذكرها بتفصيل عبيدالله بن صالح (ص ٢٢٤ فقرة ٢٢) ، وتلك هي الغزوة التي افتخر بها موسى بن نصير وعدها واحدة من أكبر نعم الله الثلاث عليه عندما تحدث في مجلس ذكره ابن عذارى (١/ ٤٤) وغيره .

وعقب هذه الحملة نشأت بصورة نهائية ولاية السوس أو سجلماسة . ونعتقد أن طارق بن زياد كان أول ولاة هذه الولاية الجديدة . (انظر ابن عذارى ١/ ٤٤) .

و ـ بعد ذلك تجيء حملة سجوما أو سقومة أو سقيوما ، وكانت هذه البلدة كما قلنا معقل قبيلة أَوْرَبة وبقية القبائل المغربية المحالفة للبيزنطيين ثم للقوط الغربيين ، وكانت هذه القبائل تؤيد يليان والنصارى أي أهل الأندلس . ومؤرخونا القدامى يقولون إن موسى قام بها بعد احتلال طنجة . ولكن منطق الحوادث يقول إنها كانت سابقة على ذلك ، بل قام بها موسى ورجاله لإنهاء استقلال منطقة طنجة وشمال المغرب الأقصى عن الحكم العربي ، وكانت في نفس الوقت إنتقاماً من هذه القبائل التي اشتركت مع الروم في مقتل عقبة . هذه الغزوة تعين نهاية السلطان الحضاري للبيزنطيين على مرطانية الطنجية ونهاية السلطان السياسي للقوط الغربيين على نفس المنطقة . بعدها مباشرة احتل موسى طنجة ، وأنشأ ولاية طنجة أو المغرب الأقصى ، وأقام عليها ابنه مروان ثم طارق بن زياد .

احتل طارق طنجة بقوات بربرية بعضها من رهائن حسان، وكل هذه الرهائن من قبيلة جراوة الزناتية (قبيلة الكاهنة) والقبائل الموالية لها ، وبعض هذه القوات من رهائن موسى وكلها من قبائل صنهاجية مصمودية .

هؤلاء جميعاً كانوا أغراباً عن منطقة طنجة ، ولهذا فقد ثقلت وطأتهم على أهل الإقليم ، فأرسلوا يستنجدون بسادتهم القدماء وهم قوط الأندلس . هذه هي الحقيقة الجديدة التي يكشف عنها النص المنسوب إلى الرقيق . أرجو أن يراجع القارىء الفقرة الأولى من ذلك النص وقد أتينا بها آنفاً .

هنا أيضاً نستطيع أن نقول إن ذلك الاحتلال كان نهاية العلاقات الحسنة التي قامت بين يليان أو حلفائه والعرب ، وساد بعد ذلك شعور عداء بين المسلمين سادة إقليم طنجة والقوط الغربيين أو رجالهم في جنوب الأندلس . والفقرة الأولى من النص المنسوب إلى الرقيق تؤيد ذلك ، فقد كان طارق وحاميته متخوفين متحرزين من ناحية القوط في الأندلس .

أما عودة الاتصال والتعاون مع قوم يليان فتشرحه نفس الفقرة ، و أليان

الغلام الحدث الذي يحدثنا عنه النص ربما كان ابن يليان القديم ، ومجيئه إلى طنجة للاستعانة بطارق كان نتيجة لسوء تصرف لذريق الغاصب للعرش مع آل غيطشة وأنصارهم (ومنهم آل يليان) . لقد أتى أليان الإبن مستجيراً بالعرب ، ولم تكن فكرته مجرد الإستعانة بالعرب مؤقتاً على اعتبار أنهم أهل غارة ومغنم وأنهم سيزيلون ملك لذريق ويغنمون ثم يعودون . بل كان يعرف أن العرب سيزيلون ملك القوط ثم يحلون محلهم . (اقرأ الفقرة ٣ من النص) .

أما ما يذكره النص من أن أليان الغلام الحدث قال لطارق إنه ابن ملك الأندلس ، فيمكن تفسيره على أن المراد به أنه ابن أحد رجال ملك الأندلس الشرعي (غيطشة) الذي غصب لذريق عرشه .

ثم تجيء بعد ذلك أحداث فتح الأندلس حسب الرواية الجديدة وأهم ما فيها من الجديد :

١ ـ ما ذكرناه آنفاً من نوع العلاقات التي كانت بين أليان والعرب .
٢ ـ إن موسى بن نصير لم يعلم بعبور طارق إلا بعد أن تم هذا العبور .
٣ ـ تفاصيل جديدة تقدمها الفقرتان ٤ و ٥ من النص عن المعركة الحاسمة التي دارت بين المسلمين ولذريق .
٤ ـ في الفقرة ٥ نرى أن لذريق فر إلى الشرق وأدركه المسلمون وقتلوه عند وادي الطين Guadalentin قرب لورقة في ناحية مرسية .
هذا القول تؤيده بعض المراجع النصرانية كما رأينا ويؤيده أيضاً نص المؤلف المجهول الذي سنجعله ذيلاً على هذا البحث .
٥ ـ الفقرة ٦ من النص تقدم لنا تفاصيل هامة عن طبيعة المعركة .

٦ ـ عقب الهزيمة هرب فل القوط في اتجاه قرطبة ، فأمر طارق رجاله أن يسبقوهم إليها ، وبالفعل تم ذلك وتمكن المسلمون من منع القوط من دخول قرطبة والتحصن بها .

٧ ـ عقب ذلك دخل طارق قرطبة . فهو إذن الذي احتلها وليس مغيثاً الرومي . وربما يكون القول بأن مغيثاً هو فاتحها ناتجاً عن أن موسى وطارقاً تركاه والياً عليها عندما سارا معاً لفتح طليطلة وبقية إسبانيا .

٨ ـ عندما وصل الخبر إلى موسى غضب طارق وخاف أن يفوز بالفتح وحده ، فأقبل مسرعاً مع جنده العربي وعبر الزقاق ونزل عند الجزيرة الخضراء ثم اتجه نحو قرطبة .

٩ ـ ولم يخرج طارق من قرطبة للقاء موسى ، إما لأنه خاف أن ينتقض البلد عليه كما يقول النص (فقرة ٥) أو لأنه خاف من غضبه . وأعتقد أن هذا هو الفرض الأصح ؛ لأن طارقاً سارع بإرسال الهدايا والمغانم إلى موسى ليريه أن الفتح تم باسمه وأن خيراته ومغانمه تعود إليه .

١٠ ـ ويؤيد ذلك أيضاً أن النص يذكر أن طارقاً استجار بعبد العزيز بن موسى فشفع له عند أبيه حتى رضي عنه . وفي الفقرة ٧ نرى بوضوح كيف أن موسى اطمأن بعد ذلك إلى أنه انتزع شرف الفتح كله من طارق ورضي عنه . وتكاملت لديه الجيوش فأرسل طارقاً نحو طليطلة .

١١ ـ أما هو ـ موسى ـ فقد استقر في قرطبة واعتبرها مركزه وقاعدته في البلد الحديث الفتح ، وربما كان هذا هو السبب في أن قرطبة أصبحت عاصمة الأندلس ، الإسلامي فيما بعد .

١٢ ـ ويقرر النص (فقرة ٨) أن طارقاً هو الذي فتح طليطلة وحده ، وأرسل بالمغانم إلى موسى ومن بينها المائدة المشهورة .

١٣ ـ بعد ذلك نهض موسى لمواصلة فتح الأندلس . فسأل الناس عن طريق غير الطريق التي سار فيها طارق ، فدلوه على طريق إشبيلية ، فنهض إليها وفتحها وأرسل سرايا فتحت لبلة وباجة من مدن البرتغال الحالية . ثم استمر شمالاً وعبر نهر تاجة قرب ماردة وحاصر ماردة ولقي في فتحها عناء واستخدم المجانيق والكباش واستشهد نفر من المسلمين في الحصار ، ثم فتحها . ثم واصل السير إلى الشمال حتى وصل موضع تماس قرب سلمنقة على نهر التوريس فرع نهر الدويرة ، وهناك لقي قوة

قوطية تجمعت لمقاومة المسلمين ففضها ، وكان يقال إن لذريق كان على رأس هذه القوة وإنه قتل هناك وقد أثبتنا أن ذلك غير صحيح وأن الرجل فر من موضع موقعة وادي لكة ناحية الشرق فتتبعته فرقة من المسلمين وأدركته وقتلته عند لورقة على نهر وادي الطين ثم انعطف موسى بمن معه جنوباً بشرق حتى وصل نهر تاجة عند بلدة طلبيرة ، وهناك وجد طارقاً في انتظاره ، وكان الجو قد صفا بينهما كما قلنا ، ودخل الإثنان طليطلة ، وصارت قيادة الفاتحين المسلمين لموسى .

وأراد موسى أن يستمر المسلمون في الفتح في طريق سرقسطة وهو الطريق الروماني القديم الذي كان يصل إلى أربونة ثم يستمر حتى يصل روما ولكن يبدو أن بعض نصحائه ممن انضم إلى المسلمين من أهل البلاد أفهموه أنه إذا كان ولا بد من فتح الأندلس كله فلا بد أن ينقسم الجيش الإسلامي قسمين ، واحد منهما يسير شمالاً بشرق في طريق سرقسطة وما يليها إلى جبال ألبرت ، وواحد يسير شمالاً بغرب في اتجاه أشتريس وجليقية، وتم الاتفاق بينه وبين موسى على أن يسير طارق بفتح سرقسطة وما يليها ويسير موسى إلى برغش ثم أماية ، وهناك ينتظر طارقاً ليسيرا معاً لفتح شمال إيبيريا كله ، وتم هذا بالفعل وسار الجيش الإسلامي بقيادة موسى وطارق ففتحا أشتريس ووصل المسلمون إلى لك Lugo ثم خيخون وهربت بقايا القوط منهم إلى غرب أشتريس في اتجاه كانجاس دي أونيس وجبال قمم أوروبا .

فتح الأندلس

(٢)

مقدمات الفتح ونتائجه

١٣ ـ مقدمات الفتح

أقام طارق ومن معه من جند العرب والبربر على الساحل المغربي عند طنجة وما حولها ، وأخذت أعدادهم تزداد مع الزمن ، وبدأت أنظار طارق تتطلع إلى ميدان جديد يشغل فيه هذه القوى العظيمة التي كانت تحت يده . وقد كان موسى بن نصير يشغل قواه قبل ذلك في مغازاة القبائل البربرية واجتياح أرضها والغنم منها ، ولكن طارقاً لم يكن ليستطيع أن يفعل ذلك ، لأنه بربري الأصل من جهة ، ولأنه كان عميق الإيمان لا يرضى أن يضع السيف في قوم لم يعرض عليهم الإسلام بالحسنى . ويبدو أن من معه من الجند بدأوا يلفتون نظره نحو الأندلس وما هي عليه من ضعف وما تضمه من عيون الثروة ، ولا نزاع كذلك في أن أنظاره بدأت تتجه نحو حصن سبتة الذي عجز المسلمون عن الاستيلاء عليه مرتين : في المرة الأولى كان يقودهم عقبة بن نافع ، وفي المرة الثانية موسى بن نصير ، وظل هذا الحصن كالصخرة البارزة تقوم في وجه العرب في منتصف الطريق[1] .

١٤ ـ يليان

هنا تجمع الروايات العربية كلها على قيام شخصية غريبة بأمور سبتة في ذلك الحين : تلك هي شخصية يُليان . واختلفت المراجع حول يُليان هذا اختلافاً عظيماً ، فبعضها يزعم أنه قوطي وبعضها يزعم

---

(١) راجع عن هاتين المحاولتين : ابن الأثير : أسد الغابة ، ج٤ ، ص ٤٢
والنويري : نهاية الأرب ورقة ٧٠ ب .
وابن خلدون : العبر ، ج٤ ص ١٨٥ .
والأخبار المجموعة : ص ٤ .
وابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢٠٥ .

أنه رومي وبعضها الأخير يزعم أنه بربري من عمارة ، ولكنها جميعاً تتفق على أنه كان صاحب سبتة وما حواليها ، وأن سلطانه كان عظيماً على من كان يجاوره من البربر - من عمارة وبرغواطة على الخصوص - وأن صلات من الود والولاء كانت تربطه بلذريق ملك الأندلس[1] .

وقد حقق دوزي وكوديرا وساقدرا شخصية يُليان ، فأثبت دوزي وجوده فعلاً بعد أن كان بعض العلماء قد ذهبوا إلى أنه شخصية أسطورية خلقها خيال العرب[2] ، وأكمل ساقدرا عمل دوزي وزادنا علماً بشخصية يُليان وأصله والدور الذي قام به هو وأولاده[3] .

---

(١) يتحفظ ابن عبد الحكم في تحديد علاقة يليان بلذريق فيقول: إنه «كان يؤدي الطاعة إلى لذريق صاحب الأندلس» ولا يقول شيئاً عن أصله أو جنسه. وكذلك الأخبار المجموعة تكتفي من صفته بأنه «علج» وأنه كان يحكم «مداين على شط البحر فيها عمال صاحب الأندلس قد غلبوا عليها وعلى ما حولها، وكان رأس تلك المدينة مدينة يُقال لها سبتة، وكان عليها وعلى من حولها من المداين علج يسمى يليان»، مما يفهم منه أن يليان كان عاملاً من عمال لذريق. ويصفه ابن خلدون بأنه رومي، ويذهب ابن عذارى إلى أنه قوطي، ويلقبه ابن الأثير بالبطريق، أي أنه يقرر أنه كان رومياً.

ابن عبد الحكم: فتوح، ج١ ص ٢٠٤.

ابن الأثير: الكامل، ج٤ ص ٨٩.

أخبار مجموعة: ص ٤.

ابن خلدون: العبر، ج٤، ص ١٨٥.

ابن عذارى: البيان، ج١ ص٢١١.

(٢) انظر DOZY. ...Recherches (3éd.) pp. 57 Sqq.

وراجع عنده عبارة إيزودور الباجي التي تذكر يليان ووظيفته ذكراً محرفاً يصعب منها استكشاف حقيقة أمره.

(٣) SAAVEDRA. *Estudio*, pp. 48 Sqq. وقد ذهب ساقدرا إلى أنه فارسي الأصل وأنه من الأزارقة، وقد استنتج ذلك من أن يليان خلف ولداً اسمه بَلْكايش أسلم بعد الفتح العربي وحسن إسلامه. وبلكايش اسم من أسماء الفرس الأزارقة، بل ذهب إلى أنه من كونيسابور كبرى مدائن أديابين (Adiabene) وتقع كونيسابور بين تكريت وأربلاس، وإليك سلالة يليان بعد الفتح بحسب ما تذكره الروايات الإسلامية:

يليان ← بلكايش ← عبدالله ← الحكم ← سليمان ← أيوب (توفي سنة ٣٢٦) ← سليمان (توفي سنة ٣٧٩) ← أحمد (توفي سنة ٣٨٨).

وقد اشتهر الثلاثة الأخيرون بصدق الإسلام وسعة العلم.

ويلاحظ القارىء أن آراء ساقدرا فيما يتصل بأصل يليان فيها تكلف كثير.

ونستطيع أن نقرر ـ إعتماداً على أبحاث دوزي وساڤدرا ـ أن الإقليم الذي كان يحكمه يُليان ، وهو مرطانية الطنجية (Mauretania Tingtana) كان في ذلك الحين تابعاً للدولة البيزنطية لا لإسبانيا القوطية ، وأن يُليان كان يقوم حاكماً عاماً(Exarcus)لهذه الناحية من قبل الإمبراطور البيزنطي ، وأنه بدأ ولايته في سن صغيرة ، وأقام في هذه الناحية زماناً طويلاً ، ولما كانت مرطانية الطنجية بعيدة كل البعد عن بيزنطة ، ولما كانت أمور الدولة البيزنطية في ذلك الحين مضطربة اضطراباً لا يمكنها من الإشراف على ولاياتها القريبة فضلاً عن البعيدة ، فقد تحرر يليان من سلطان الدولة وأصبح كالحاكم المستقل في هذه الناحية ، وإذا انقطعت عنه الإمدادات من الدولة فقد بدأ يوثق علاقاته بمن جاوره من قبائل البربر حتى كسب ودها وأصبح كالزعيم لها ، حتى اختلط الأمر على الناس وحسبوه بربرياً .

عرف العرب يليان أول مرة عند وصول موسى بن نصير إلى إقليم طنجة سنة ٨٩ هـ (٧٠٩ م) على وجه التحقيق ، أما ما يذهب إليه ابن الأثير من أن عقبة لقي يليان سنة ٦٣ هـ (٦٨٣ م) وأنه نزل على حكم عقبة فأمر مشكوك فيه ولا تؤيده أية رواية أخرى . وكان ملك إسبانيا في ذلك الحين غيطشة . وكان الود معقوداً بينه وبين يليان ، ولهذا حرص هذا الأخير على صرف عقبة عن إسبانيا وتوجيهه نحو البربر ، فلما انصرف موسى إلى القيروان وخلف طارقاً على طنجة وما جاورها ، أحس يليان خطر المسلمين وضغطهم عليه وبدأ يصانعهم ، وعمل على كسب ود طارق بن زياد أمير طنجة واتصلت بينهما الأسباب . ولسنا نعلم شيئاً عن الأساس الذي قام السلام عليه بين الجانبين ، وكل ما نعرفه هو أن طارقاً حاول الاستيلاء على سبتة فلم يستطع فاكتفى بمودة صاحبها ، وكان طارق ـ كما سنرى ـ رجلاً سياسياً بعيد النظر ، فلعله صادق يليان ليستطيع به إخضاع من تحت سلطانه من البربر وهم كثيرون[١] .

---

(١) راجع بحثي دوزي وساڤدرا السابق الإشارة إليها، ونص الأخبار المجموعة يؤيد ما يذهبان إليه .

ويفهم من قول ابن عبد الحكم : «فراسل طارق يليان ولاطفه حتى تهاديا» أن طارقاً تفطن إلى مقدار الخير=

وفي هذه الأثناء كان لذريق قد قام بثورته وعزل غيطشة وقتله وتولى مكانه ، ولما كان يليان حليفاً لغيطشة فقد حاول أن ينزل الأندلس أثناء القتال بين الجانبين معيناً لحليفه ، ولكن أنصار لذريق ردوه إلى بلاده منهزماً فعاد يليان إلى بلدة سبتة وتحصن فيها ولبث يرقب الحوادث .

فلما قتل غيطشة وتفرق أتباعه فر بنوه نجاة بأنفسهم ، والخلاف شديد بين المؤرخين حول الوجهة التي اتخذوها بعد تفرق دولتهم ، فيذهب نفر إلى أنهم عبروا إلى إفريقية وأقبلوا يستعينون بالعرب على إدراك ثأرهم من قاتل أبيهم[1] ، ولكن المراجع العربية ـ فيما عدا ابن القوطية ـ لا تذكر شيئاً من ذلك ، بل تذهب إلى أنهم كانوا صغاراً حينما وقع لأبيهم ما وقع ، وأنهم تفرقوا في البلاد حيناً ثم صالحوا لذريق واستقروا في أمانة وقد انطوت قلوبهم على كراهية الغاصب ، وأن العرب لم يكادوا ينزلون الأندلس ويسيرون لحرب لذريق حتى سارع أولاد غيطشة وأتباعهم فتركوا صفوف القوط وانضموا للعرب أثناء الموقعة ، وأن فعلتهم هذه كانت قاصمة الظهر لجيش القوط .

ويغلب أن في هذه الرواية بعض المبالغة ، لأن تصرف العرب مع أولاد غيطشة بعد تمام الفتح لا يدل على أن العرب ، كانوا مدينين لهم بفضل كبير

= الذي يستطيع أن يجنيه من صداقة رجل قادر مثل يليان فاجتهد في كسب وده ، ولا يعقل أن يكون طارق قد لاطف يليان ليتقي شره ، بل ليفيد منه فيما هو أهم من سبتة ، وربما جاز لنا أن نستنتج من ذلك أن أنظار طارق كانت متجهة نحو الأندلس ، وأنه اجتهد في كسب ود يليان ليفيد منه في تحقيق أمنيته هذه .
ابن عبد الحكيم : فتوح ، ص ٢٠٥ .

(١) ينفرد المؤرخ سباستيان بالقول بأن أولاد غيطشة عبروا إلى إفريقية وذهبوا يستعدون العرب على الأندلس ويزينون لهم فتحها، وهذا نص روايته:

Witizano defuncto, Rudericus a Gothis eligitur in regno. Filii vero Witizani, invidia ducti eo quod Rudericus regnum patris eorum acceperat, callide cogitantes, Missos ad African mittunt, Saracenos in auxilium petunt, eosque navibus advectos Hispaniam intromittunt.

ولو أيد مؤرخو العرب هذا الرأي لقبلناه، ولكن سباستيان ينفرد به ولا يذكر ما يؤيده. SEBASTIAN, C.3.

DOZY. *Recherches* (3éd.) Ipp. 68 - 69

كهـذا ، وكل مـا حدث هـو أن أبناء غيـطشة هؤلاء تقـدمـوا إلى المسلمـين بعـد انتصارهم يطالبون بشيءٍ من ضياع أبيهم ، فأعطاهم المسلمون جزءاً كبيـراً منها كسباً لودهم ، وقد أحسن المسلمون بـذلك إحسـاناً عـظيماً ، لأن أبنـاء غيطشـة أصبحوا من ذلك الحين من أخلص الأنصار لهم ، بل لم يلبث بعضهم أن أسلم وحسُن إسلامه . وعلى هذا نستطيع أن نقـرر من غير حـرج أن أولاد غيطشـة لم يحرضوا العرب على غـزو البلاد بـل انتظروا حتى تم انتصـارهم فانضمـوا إليهم وجعلوا أنفسهم أدلـة للمسلمين عـلى عورات الأنـدلس ، والغـالب أنهم حسـوا أنهم مستـطيعون الاستعـانة بـالعرب عـلى إدراك ثأرهم من قـاتل أبيهم ، لأنهم كانوا يظنون أن العرب إذا أقبلوا إلى الأندلس لم يلبثوا أن ينصرفـوا عنها لأنهم لا يطلبون من فتوحهم غير الغنيمة ، ولكن العرب خيبوا ظنونهم وهبطوا البلاد بقوة كبيرة ، ولم يكد العرب يلقون القوط حتى قضوا على قوتهم القضاء المبرم ، وظهر أنهم ماضون في فتح البلاد بنية إدخالها في حوزة الدولة الإسلامية ، فلما استبان أبناء غيطشة ذلك تقدموا إلى العرب يطلبـون الأمان مـع من تقدم ، وأكـرمهم العرب وردوا عليهم شيئاً من أملاك أبيهم .

فإذا لم يكن أبناء غيـطشة هم الـذين استدعـوا العرب إلى الأنـدلس ، فما الذي حدا بهؤلاء إلى العبور ومحاولة فتحها في وقتٍ لم تكن أقدامهم فيه قد ثبتت في المغرب الأقصى ؟ ما الذي شجع طارق بن زياد وموسى بن نصير على الخروج في هذه المغامرة الكبرى التي كان من الممكن أن تجر على المسلمين شراً كبيراً ؟ ما الذي شجعهم على الخروج إلى شبه الجـزيرة الإيبيـرية الـواسعة في قـوة قليلة لا تـزيد عـلى السبعة آلاف ، وهم يعـرفون أن المغـرب ـ وهو أضعف من إسبـانيـا بكثـيرـ لم يتم فتحه إلا ببضعـة جيوش يبلغ أقلهـا أضعاف هـذه الآلاف السبعة التي سار بها طارق ؟

١٥ ـ فتح الأندلس

هنـا تذهب أغلبيـة المؤرخين إلى أن العـرب لم يفكـروا في فتـح الأنـدلس فتحاً كـاملاً والاستقـرار فيه من أول الأمـر وأنهم مـا كـانوا يـطلبون إلا بعض الغنيمـة ثم يعودون إلى إفـريقية ، وأن غـزوتهم للبلاد

أخذت طابعاً آخر بعد انتصار طارق هذا الانتصـار الحاسم الـذي لم يكن منتظراً عند وادي لكة ، ويعتمد هذا النفر من المؤرخين على ما ورد في المراجع العـربية من أن موسى غضب على طارق وعاقبه على الاسترسال في الفتـح خلافـاً لما كـان قد أمره به ، وقد روى ذلك ابن عذارى عن ابن القطان[١] .

وربما بـدا هذا الرأي صحيحاً لأول وهلة ، لأن خروج طارق إلى الأنـدلس بهذا العدد القليل لا يدل على أنه كـان ينوي غـزو البلاد وفتحهـا فتحاً كـاملاً ، وإنما هو مجرد الاستطلاع . ولكننا لو ذكرنا الأسلوب الذي جرى عليه العرب في فتح مصر والمغرب مثـلاً لـلاحـظنـا أن التقـديم للفتـوح بقـوة صغيـرة تعقبهـا الإمدادات كان أسلوب العرب في الفتح : يرسلون عدداً صغيـراً ويكونـون على الأهبة لإتباعه بالإمدادات إذا لزم الأمر ؛ وقد حدث هذا في الأندلس بالفعـل ، إذ أسرع موسى لعون طارق بخمسـة آلاف من الجند . وأمـا غضب موسى عـلى طارق فسببه أن موسى خشي أن يكون طارق قد تهـور وغامر بالمسلمين أكثر ممـا ينبغي ، وربما يكون قـد حسده عـلى ما نـال من التوفيق ومـا أدرك من المغانم ، وكان موسى على ما نعرف غير مجرد من الحسد أو الشره إلى المغانم

ولم يكن فتـح الأندلس إذن مجـرد مغامـرة صادفهـا التـوفيق فكـان لهـا مـا بعدها ، وإنما كانت من أول الأمر فتحاً مدبراً جـرى فيه المسلمـون على أسلوبهم الذي ذكرناه في فتح البلاد ، ومن أدلة ذلك ما ورد في « الأخبار المجموعة » من أن موسى كتب إلى الوليد يخبره بدعوة يليان إياه لفتح الأندلس « فكتب إليه أن

---

(١) ابن عذارى: البيان، (طبعة كولان وبروفنسـال، لايدن ١٩٥١) ج٢ ص ١٣.

وتجمع الروايات العربية كلها على أن موسى خاطب طارقاً بما يفهم منه أنه كان قد أمره بمجرد غزو البلاد والغنم منها ثم العودة، وقد استعان المستشرقون ـ والإسبان منهم خاصة ـ بهذه العبارات ليحكموا على الغزو العربي بأنه كان مجرد مغامرة.

راجع مثلاً:

DOZY.*Recherches* (3 éd.) I, Etudes sur la conquète de l,Espagne pqr les Arabes pp. XV. Sqq.

IBIDEM.*Musulmans d'Espagne, I.*

خضها بالسرايا حتى تختبر[ها] ولا تغرر بالمسلمين في بحرٍ شديد الأهوال » . فكتب إليه أنه ليس ببحر وإنما هو خليج يصف صفة ما خلفه للناظر ، فكتب إليه : « وإن كان ! فاختبره بالسرايا » مما يدل على أن موسى كان قد قرر الفتح وعرف من شأن الأندلس ما شجعه على المضي فيه ، ولهذا كتب إلى الخليفة يستأذنه ، ولو كان أراد مجرد الغزو للغنيمة ثم العودة لما كتب يستأذن ، ثم إن قول الخليفة له : « اختبره بالسرايا » يُفهم منه أنه يوافق على الغزو وإنما يأمر موسى أن يستوثق لجند المسلمين قبل أن يبدأ العمل[1] .

ومن دلائل ذلك أن طارقاً وموسى سارا في بلاد الأندلس منذ اللحظة الأولى سيرة من قدر كل شيء قبل الشروع في العمل : سار طارق قدماً من مدينة لمدينة حتى انتهى إلى طليطلة ، ولو كان يرجو مجرد الغارة والغنيمة لعاد بعد أن وقعت في يده مدينة أو مدينتان وامتلأت يداه وأيدي أصحابه من الغنيمة .

وتجمع المراجع العربية كلها على أن يليان هو الذي دعا موسى لغزو الأندلس وكشف له عوراتها وهون عليه أمرها[2]. وتجعل المراجع لذلك قصة ملخصها أن يليان كان قد أرسل ابنته إلى قصر لذريق لتتأدب وتنشأ أسوة بغيرها من بنات سروات القوط في ذلك الزمان، وأن لذريق بصر بالفتاة وطمع فيها ونال منها، فكتبت إلى أبيها بخبرها، فأحفظه ذلك على لذريق، ودفعه إلى التفكير في الانتقام منه، فاتصل بطارق وأخذ يزين له فتح الأندلس ويحرضه عليه حتى وفق لما أراد، ثم جعل نفسه وأتباعه أدلاء للعرب في الأندلس يدلونهم على طرقها وبلادها ومواضع الضعف فيها[3] .

---

(١) الأخبار المجموعة: ص ٥ـ ٧.

وابن عذارى: البيان، ج٢ ص٦.

(٢) انظر مثلاً: ابن عذارى، ج٢ ص٦. وليس في هذه الرواية أية إشارة إلى قصة ابنة يليان.

(٣) لا حاجة بنا إلى الإشارة إلى مواضع هذه القصة في مراجعنا العربية، لأنها متواردة فيها جميعاً من غير استثناء.

أما المراجع اللاتينية فلم تعرف هذه القصة إلا منذ سنة ١١١٠، إذ ورد ذكرها لأول مرة في مرجع إسباني لاتيني هو «تاريخ راهب سيلوس» ذكرها مجملة على صورة قريبة الشبه بما تذكره الروايات العربية.

وليس إلى الشك سبيل في أن العرب لم يخترعوا هذه القصة اختراعاً، ولكننا لا نستطيع مع الأسف الوقوف على أصلها. وقد ذهب ساڤدرا إلى أنه من الممكن أن يكون يليان قد أرسل نفراً من أهله إلى طليطلة ليأمنوا فيها حينما بدأ العرب حصار سبتة وتهديدها، وأن ذلك قد يكون أصل القصة، وأيد رأيه هذا بأن ابن خلدون وسان پدرو بسكوال يذهبان إلى أن الذي اعتدى على ابنة يليان كان غيطشة لا لذريق، لأن غيطشة كان صديقه كما قدمنا أما لذريق فلم يكن، ومن غير المعقول أن يكون يليان قد أرسل ابنته لتتأدب في قصر ملك بينه وبينه عداوة. وقد ذهب الاستاذ ساڤدرا إلى أننا حتى لو قبلنا هذه القصة فإننا لا نستطيع أن نجعلها سبب عبور العرب إلى الأندلس، لأن مثل هذا الاعتداء لم يكن ينظر إليه إذ ذاك بالاشمئزاز الذي ننظر به إلى مثله الآن.

ولم يذكر مؤرخ عربي واحد لابنة يليان اسماً، وتذكرها المراجع اللاتينية بين سنتي ١١١٠ - و١٣٠٠ من غير اسم كذلك، حتى اخترع لها PEDRO DEL CORRAL اسماً حوالي سنة ١٣٠٠. ولسنا نعرف من أين أتى پدرو بهذا الاسم، وإن كان المظنون أنه ابتكره جرياً على عادته في اختراع أسماء لمن لا يجد له اسماً من شخوصه التاريخية، وهذا الاسم هو «لاكاڤا» (La Cava). وكاڤا اسم مدينة ايطالية على مقربة من سالرنو في مملكة نابلي، ولما كان ألفونسو الخامس ملك إسبانيا قد غزا نابلي وزار بعض جنوده مدينة كاڤا، فقد عاد الجند يحملون هذا الاسم وتسمى به نفرٌ من الإسبانيات في ذلك العهد.

بيد أن عالماً إسبانياً هو MIGUEL DE LA LUNA خرج على الناس في سنة ١٥٨٩ بتفسير عربي لهذا اللفظ، فذهب إلى أنه مأخوذ عن اللفظة العربي «قحبة»، وذكر أن قصاص الأندلسيين كانوا يسمون ابنة يليان به في العصور الإسلامية، ولزمها هذا الاسم بعد ذلك، واحتج لذلك بأن لوقا التودي ذكر الفتاة بهذا الاسم في «تاريخ الدنيا» *"Cronicon Mundi"*. وحقيقة يوجد الاسم في بعض النسخ، ولكنه لا يوجد في النسخ المقطوع بصحتها، مما يؤيد القول بأن الناسخين أضافوا هذا الاسم من عندهم فيما بعد.

أما قصاص الإسبان وواضعو الأغاني الشعبية فقد سموا هذه الفتاة فلورندة Florinda ولزمتها هذه التسمية في كتب الأقاصيص والأشعار جميعاً، وذهب البعض إلى أن هذا الاسم صحيح وأنه مخفف من الاسم القوطي فلوريسندا (Floresinda).

ومهما يكن من الأمر فقصة ابنة يليان قليلة الأثر في التاريخ وإن كانت عظيمة الأثر في الفن والأدب، وهي بهذا أحسن حظاً من صاحبتيها «ابنة المقوقس» و«ابنة جرجير» والاثنتان من اختراع قصاص العرب، ولا يبعد أن تكون قصة ابنة يليان من اختراع قصاص العرب كذلك.

Cronicon Silense, N. 15.

= SAAVEDRA. *Estudio...*, pp. 58- 59.

ولسنا نريد أن نقف طويلاً عند هذه القصة ، فقد تكون صحيحة وقد تكون من اختراع القصاص ، ولسنا نحتاج إليها لكي نعلل دخول العرب الأندلس تعليلاً معقولاً ، فقد كان ذلك الدخول هو الأمر الوحيد المنتظر في الظروف التي سادت المغرب خلال السنوات التي سبقت الفتح . فقد رأينا طارقاً يقيم على الزقاق ومعه عدد عظيم من الجند العربي والبربري يتطلع معظمهم إلى الفتح والجهاد ، وكان يليان إلى جوارهم يوجس خيفة منهم ، فقد كان المسلمون قد حاولوا فتح معقله سبتة ، وكان موسى بن نصير قد رجع عنه بعد أن ألفى « عنده عدة وقوة ونجدة ليست تشبه ما قبلها فلم يطقهم ، فرجع عنهم إلى طنجة ، وجعل يجتث ما حولهم بالمغاورة فلم يطقهم »[1] ، مما يفهم منه أن المسلمين لم يدعوا يليان هادئاً مطمئناً في بلاده ، ومن الطبيعي أن يلجأ يليان في مثل هذه الظروف إلى صرفهم عن نفسه ، وكان طارق كما رأيناه قد صافاه بعد ذلك وصادقه[2] . وكان جند طارق من البربر يعلمون عن الأندلس شيئاً

= SAAVEDRA FARJADO. *Corona Gotica*, cap. XXIX.

PEDRO DEL CORRAL. *Cronica del Rey Don Rodrigo.*

MIGUEL DE LA LUNA. *Historia Verdadera del rey Rodrigo.*

ويظن أن هذا الكتاب الأخير مترجم عن كتاب عربي يسمى مؤلفه أبا القاسم طريف بن طارق (ABULCACIN TARIF ABEN TARIQUE) ممن شهدوا الفتح (كذا) لأن هوامش النسخة الإسبانية تحمل عبارات وألفاظاً عربية، ولكن البحث التاريخي يشكك في أن أبا القاسم هذا ممن شهدوا الفتح أو حتى من القدماء، لأن بعض ألفاظه مثل «مخزن» حديث لم يستعمله أهل المغرب إلا في زمن متأخر. وقد اعتمد على هذا الكتاب الأخير شاعران كبيرن هما:

Posterer Godo de Espana في LOPE DE VEGA

WASHINGTON IRVING. *Legends of the Conquest of Spain.*

وقد نسب پدرو دل كورال هذه الأسطورة إلى أحمد بن محمد الرازي المؤرخ.

وانظر من لفظ فلورندا :

LEMBKE. Geschichte von Spanien, I, 256.

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٤ ـ ٥ .

(٢) يقول ابن عبد الحكم في هذا : « وكان يليان يؤدي الطاعة إلى لذريق صاحب الأندلس . . . وكان لذريق يسكن طليطلة ، فراسل طارق يليان ولاطفه حتى تهادياه . . . » انظر : فتوح . . . ص ٢٠٥ .

كثيراً ، ولا بد أن نفوسهم كانت تنازعهم إلى خيراته ومغانمه . ومن الطبيعي في مثل هذا الظرف أن تولد فكرة فتح الأندلس .

ويذهب سافدرا إلى أن يليان ذهب للقاء موسى تنفيذاً لمؤامرة دبرها مع أبناء غيطشة وأنصاره . ولسنا نعرف كيف ذكر سافدرا ذلك في صيغة التأكيد ، مع أن المراجع جميعاً تختلف حوله اختلافاً شديداً ، ولا يتضح وجه الحق في هذه المسألة إلا إذا درسنا من جديد العبارات القليلة التي بين أيدينا عن الأحوال في طليطلة خلال الأشهر التي سبقت هذه الأحداث التي نرويها[1] .

يشير إيزودور الباجي في حوادث سنة ٧١٠ إلى « حادث محزن (suprafata clades) وقع بطليطلة ، واضطر كثير من نبلاء القوط إلى الهجرة من إسبانيا فتشردوا في كل ناحية »[2] . ولم يذكر لنا إيزودور ما هو هذا الحادث المحزن ،

---

(١) SAAVEDRA. *Op. cit.*pp. 54-55. وسياق رواية سافدرا قصصي في هذا الجزء من تاريخه القيم، فهو يذكر كيف أن يليان كان رجلاً ماهراً أريباً، اجتمع فيه عقل البيزنطي وشجاعة الإيراني وثبات الإفريقي، وأنه رأى أن يبعث إلى طارق وفداً يرأسه رجل من كبراء أتباعه يسمى أخيلا بسطوا لطارق مظلمتهم وصوروا له سوء حالهم بعد الذي أصابهم من لذريق وغدره، وأن نفس طارق تأثرت بهذا الكلام فبعث الرسل إلى موسى في القيروان، وأن هذ قدر خطورة المسألة، فأرسل الرسل إلى دمشق ليبسطوا المسألة للخليفة على وجهها ويقنعوه بضرورة الإذن لموسى في فتح الأندلس، وأنهم عادوا من دمشق بالإذن المطلوب، فسارع موسى في تنفيذه، وأحب أن يستوثق من صدق نية هؤلاء القوم فطلب إليهم أن يسلموه رهائن من لدنهم يكونون عنده.

وهذا كله كلام يحتاج إلى إثبات، أما أخيلا هذا فقد ورد ذكره في ابن عذارى، ويذهب سافدرا إلى أن شخصاً يسمى بهذا الإسم قد وجد في هذا الظرف فعلاً، وأنه كان حاكم طنجة أو كونتها، وقد ذكره رودريجو خيمينث ونسب إليه نفس الدور الذي تنسبه الروايات الإسلامية إلى يليان نفسه. RODRIGO XIMENEZ DE RADA (ARZOBISPO DE TOLEDO). *Historia de rebus hispaniae, i, iii, cap. 18, 20*

(٢) هذا نص عبارة إيزودور:

Huius temporibus Witiza decrepito iam patre pariter regnat; qui in aera DCCXXXIX suprafatae cladis non ferentes exitium, per Hispaniam e palatio vagitant, qu´a de caus´a propri`a morte decesso iam patre, florentissime suprafatos per annos Regnum retemptat, atque omnis Hispania, gaudio nimio freta, alacritur laetatur.

وذهب دوزي إلى أن إيزودور يشير بذلك إلى قتل لذريق لغيطشة معتمداً في ذلك على عبارة صريحةلابن عذاري تذكر أن لذريق ثار بغيطشة وقتله ، وعلل عدم ذكر إيزودور لذلك بأن نصه الذي بين أيدينا مضطرب ،سقطت ـ أو حذفت ـ منه عبارات ، وغيرت مواضع عبارات أخرى . ويؤيد رأيه هذا بأن إيزودور يقول في موضع آخر إن لذريق فاجأ المملكة المضطربة وحاول أن يستبد بمجلس الشيوخ[(١)] . ومن هنا يكون من الجائز أن نقول إن هذا الحادث المحزن الذي يشير إليه إيزودور إنما هو قتل لذريق لغيطشة ، لأن هذا الحادث روع أنصار غيطشة وفرقهم في البلاد بين قتيل وهارب يطلب النجدة حيث استطاع ، بل ذهب دوزي إلى أن « نبلاء القوط » الذينَ أشارَ إليهم إنما هم أبناء غيطشة وإخوته ، وأن إيزودور لم يذكره صراحة لأنه كان أمراً مشكوكاً فيه أيام الفتح، وأنه لم يتضح على وجه الصحة والتحقيق إلا فيما بعد[(٢)] .

ويقول سباستيان السلمنقي : « فلما انهزم غيطشة ، أقام القوط لذريق ملكاً ، فملأ الحسد ـ في الحقيقة ـ أولاد غيطشة من أن يغصبهم لذريق مملكة أبيهم ، فدبروا أمرهم بمهارة ، وأرسلوا رسلاً إلى إفريقية يرجون العرب المساعدة ، وقدموا لهم سفناً عبروا عليها إلى إسبانيا »[(٣)] . وهذه عبارة تكمل رواية إيزودور وتفسر غامضها تفسيراً معقولاً فلو جمعنا الروايتين معاً لجاز لنا أن نقرر أن الذي حدث هو أن لذريق بعد أن قتل غيطشة تتبع آله وأنصاره بالأذى ففروا يطلبون النجاة ، وكان أبناء غيطشة في مقدمة الفارين ، وسواء أكان هؤلاء

---

(١) نص عبارة إيزودور:

Rudericus tumultuose regnum hortante senatu invadit

(٢) DOZY. *Recherches*, (30 ´ed.) I. pp. 65.Sqq.

(٣) Witizano defuncto, Rudericus a Gothis eligiture in regno. Filii vero Witizani, invidia ducti eo quod Rudericus regnum patris eorum acceperat, callide cogitantes, Missos ad Africam mittunt, Saracenos in auxilium petunt, eosque navibus advectos Hispaniam intromittunt.

وفي الفقرة الأخيرة مخالفة لما تتفق عليه الرواية الإسلامية من أن السفن التي عبر عليها المسلمون كانت ليليان .

الأبناء قد عبروا إلى إفريقية بأنفسهم ليطلبوا عون العرب أم اختفوا في بعض نواحي جنوبي إسبانيا وأرسلوا من لدنهم رسلاً يبسطون للعرب أحوال إسبانيا ويدعونهم لغزوها ويهونون عليهم أمر هذا الغزو ، فإن الحقيقة التي تخلص لنا من هذا كله هي أن أولاد غيطشة وأقرباءه اتصلوا بالمسلمين في إفريقية ودعوهم إلى غزو البلاد ، ووضعوا أنفسهم - بطبيعة الأمر - تحت تصرفهم لتسهيل هذا الغزو وتهوينه .

وتؤيدنا المراجع العربية في هذا الرأي ، فهي تذهب إلى أن آل غيطشة مالأوا العرب من أول الأمر ، وأنهم دبروا الغدر بلذريق واتفقوا على أن يتخونوه يوم المعركة الفاصلة مع العرب[1] - وهو ما حدث فعلاً - وبهذا أدركوا ثأرهم منه واستعادوا بعض ما ضاع منهم ، لأن العرب ، وإن كانوا لم يعيدوا الأمر إلى بيت غيطشة ، إلا أنهم « أمضوا لأبناء غيطشة ضياع أبيهم » وكانت شيئاً كبيراً ، وأقاموا نفراً آخر من آل بيت غيطشة في وظائف كبرى كما سنرى .

فإذا كان آل غيطشة هم الذين اتصلوا بالعرب ودعوهم إلى غزو البلاد فما هو الدور الذي قام به يليان ؟ يبدو أنه كان رسول آل غيطشة لدى المسلمين ، لأنه - كما رأينا - كان من أنصار غيطشة وأصحابه ، وقد ساءته ولاية لذريق وتخوف أن يصيبه منها شر ، وكان من صالحه أن يعمل على إزالة ملكه والتخلص منه . وكان المسلمون جيرانه ، وليس إلى الشك سبيل في أنه فكر في أن توجيه نظرهم نحو الأندلس[2] يصرفهم عنه ويؤمنه من ناحية جندهم الكثير

---

(١) يجمع المؤرخون المسلمون على ذلك، انظر على الخصوص:
ابن القوطية : افتتاح الأندلس ص ٣.
الأخبار المجموعة، ص ٨.
فتح الأندلس: ص ٦ - ٧.

(٢) يفهم من هذا أن ابن عذارى وصاحب الأخبار المجموعة أصرح من غيرهما في هذا الصدد، فهما يذهبان إلى أن يليان سعى إلى المسلمين بنفسه وحرص على تحريضهم على غزو الأندلس، بل يذهب الأخير إلى أن يليان «عقد لنفسه ولأصحابه عهداً رضيه واطمأن إليه، ثم وصف له الأندلس ودعاه إليها». وهذه رواية يفهم منها - على إيجازها - ثلاثة أمور : =

الذي كان يتجمع عند طارق بن زياد في طنجة ، ولا يستبعد أن يكون أخيلا ـ حاكم طنجة الذي سبقت الإشارة إليه ـ كان من مؤيدي يليان في هذا التفكير ، ولا يستبعد أن يكون هو الذي تفاهم معهم ، لأنه كان قد أسلم بلده للمسلمين ودخل في ذمتهم ، وكانوا يعتبرونه تابعاً من أتباعهم .

* * *

١٦ ـ بدء الفتح

وتذكر الروايات العربية أن يُليان لم يكتف بمخاطبة طارق في الأمر ، بل تكلف مشقة الذهاب للقاء موسى في القيروان ، لإقناعه بسهولة فتح إسبانيا والتحدث إليه في الخير الذي يعود عليه ، إذا سارع وعبر إلى الأندلس واغتنم فرصة غياب لذريق مع خيرة جنده في حملة حربية نحو بنبلونة أقصى شمالي شبه الجزيرة . ويبدو أن خروج لذريق في هذه الحملة هو الذي دعا يُليان إلى الذهاب إلى موسى على عجل وإظهاره على الفرصة السانحة ، وربما جاز أن نستنتج من تعجيل يُليان بالذهاب إلى موسى أن فكرة الاستنجاد بالمسلمين كانت قد اختمرت في ذهنه وعول على إنفاذها رغبة منه في التخلص من لذريق خصمه وخصم صديقه غيطشة . ويذهب ساقدرا إلى أن يُليان ذهب تنفيذاً لمؤامرة دبرها مع أبناء غيطشة وأنصاره ، وليس لدينا دليل على صحة هذا الفرض إلا عبارة سباستيان السلمنقي التي ذكرناها ، وهي عبارة لا تجد ما يؤيدها إلا في كلام ابن القوطية(١) .

= ١ـ إن قصة ابنة يليان لم تكن السبب المباشر لدعوة يليان المسلمين لغزو الأندلس.
٢ـ أن يليان سعى لصحبة العرب حتى عقد معهم عهداً اطمأن إليه.
٣ـ فإذا تم له ذلك دعاهم لفتح الأندلس.
الأخبار المجموعة، ص ٥.
ابن عذارى: البيان، ج٢، ص ٤ـ٩. هذا والتفاصيل التي يوردها ابن عذارى عن يليان كثيرة ذات قيمة، وقد درسها دوزي في الفصل الذي عقده ليليان في بحثه عن مراجع العرب للأندلس، أنظر «الأبحاث»، ج١.

(١) أنظر: ابن القوطية: افتتاح، ص ٣.
فتح الأندلس، ص ٤.

رحب موسى بيليان وما عرضه عليه ، لأنه كان بطبعه ميالاً للفتوح والغزوات ، وكان من الطبيعي أن يتشكك في صحة المعلومات التي أدلى بها يُليان إليه ، فطلب إليه أن يقوم بسرية في جنوبي الأندلس ، وإنما أراد موسى بذلك أن يتأكد من أن يُليان عدو للذريق لا يخشى الإغارة على بلاده ، ويرى بعينيه رد الفعل الذي يحدثه مثل ذلك العمل[1] ، وقد قام يليان فعلاً بغارة سريعة عاد بعدها محملاً بالغنائم والسبي ، فتشجع موسى وقرر العمل .

ولم يكن موسى ليستطيع الشروع في عمل خطير كهذا دون أن يستأذن فيه الخليفة الوليد بن عبد الملك ، فكتب إليه يستأذنه ، فتردد عبد الملك وخاف على المسلمين مغبة مخاطرة كهذه في أرض مجهولة ، فكتب إلى موسى يأمره أن يختبر بلاد الأندلس بسرية صغيرة قبل أن يغامر بجيش كبير[2] . فانتدب واحداً من كبار أتباعه هو أبو زرعة طريف بن ملوك ، ويغلب أنه عربي ، ويبدو أنه كان رجلاً قادراً وحازماً ، لأنه سيقوم فيما بعد بدور خطير في تاريخ المغرب[3] .

١٧ - أبو زرعة يقود بعثة استطلاعية

عبر طريف إلى الأندلس في قوة صغيرة من أربعمائة راجل ومائة فارس ، وقد قدم لهم يليان أربعاً من السفن عبروا بها ، ونزل المسلمون في جزيرة صغيرة تسمى بالوماس (Palomas) على مقربة من الموضع الذي ستقوم فيه بلدة ستحمل اسم

(١) ويقول ابن عبد الحكم: «. . . فقال طارق (ليليان) لا أطمئن إليك حتى تبعث إليَّ برهينة، فبعث إليه بابنتيه - ولم يكن له ولد غيرهما - فأقرهما طارق بتلمسين، واستوثق منهما، ثم خرج طارق إلى يليان، وهو بسبتة على المجاز. . .» - فتوح، ص ٢٠٥.

(٢) ابن عذارى: البيان، ج٢ ص ٥.
فتح الأندلس، ص٥.

(٣) يذهب بعض المراجع إلى أن طريفاً كان من أهل اليمن، وتختلف بعد ذلك، فيزعم بعضها أنه كان من النخع، ويذهب البعض الآخر إلى أنه من مَعَافِر، ولم نعد نسمع عن طريف هذا بعد - هذه السرية الموفقة التي قام بها مستطلعاً أحوال الأندلس للمسلمين، ولكنه يظهر مرة أخرى على مسرح الحوادث في المغرب، ويلعب دوراً خطيراً في الثورة التي قام بها ميسرة البربري البرغواطي في المغرب الأقصى، والتي كانت أول حركة خارجية قام بها المغرب على المسلمين، ويقول ابن عذارى (٢/٥) إنه بربري.

طريف (جزيرة طريف Tarifa) من ذلك الحين ، وخفت قوة من أنصار يليان وأبناء غيطشة لعونهم ، وقامت بحراسة المعبر حتى تم نزولهم على الأرض الإيبيرية ، وكان ذلك في رمضان سنة ٩١ هـ (يوليو سنة ٧١٠ م) . ومن ذلك الموضع قام طريف وأصحابه بسلسلة من الغارات السريعة على الساحل غنموا فيها مغانم كثيراً وسبياً عديداً ، وعاد طريف بمن معه ، وبعث إلى موسى في القيروان بنصيبه من الغنيمة والسبي ، فتشجع موسى وأخذ يستعد لإرسال حملة عظيمة تقوم بالفتح الحقيقي (١)

١٨ ـ حملة طارق بن زياد

ندب موسى لهذا العمل الجليل رجلاً من خيرة جنده، هو طارق ابن زياد. ولسنا نعلم شيئاً موثوقاً فيه عن طارق قبل قيامه بقيادة جيش المسلمين في فتح الأندلس(٢) ولكن الغالب أنه بربري من نفزة ، ويبدو أن أباه زياداً قد أسلم أيام عقبة وحسّن إسلامه، وخلفه ابنه هذا فدخل في خدمة ولاة المسلمين . ويبدو أنه كان صغير السن حينما عهد إليه موسى بهذه المهمة الكبرى ، لأننا لم نسمع به قبل ذلك في أي فتح من فتوح موسى على كثرتها وتواترها ، ولو كان قديم عهد بالقيادة لسمعنا عنه قبل ذلك . والغالب أنه كان من المقربين المخلصين لموسى لأنه تخطى غيره من كبار العرب الذين كانوا يقودون الجند في أيامه مثل زُرْعة بن أبي مُدرك وعياش بن أخيَل وطريف بن ملوك والمغيرة بن أبي بردة وغيرهم كثيرون ، وعهد إليه في قيادة

---

(١) SAAVEDRA. *Op. cit.* pp. 64.

(٢) يسميه ابن خلدون : طارق بن زياد الليثي . (انظر المقري، ج١ ص ١٤٣) ويذهب بعض المراجع إلى أن طارقاً ربما كان فارسي الأصل، إعتماداً على ما يقوله الرازي : «فدعا (موسى) مولى له كان على مقدمته يسمى طارق بن زياد بن عبدالله فارسياً همذانياً، وقيل إنه ليس بمولى موسى، وإنما هو رجل من صَدِف وقيل مولى لهم، وقد كان عَقِبُهُ بالأندلس ينكرون ولاء موسى إنكاراً شديداً. وقيل إنه بربري من نفزة . .» ـ نقله المقري : النفح، ج١ ص ١٥٩.

انظر: ابن عذارى: البيان، ج٢ ص ٦. الأخبار المجموعة، ص ٦.

والترجمة الإسبانية للأخبار المجموعة قام بها إميليو لافونتْ إي ألكانترا، ص٥، وهو يترجم هذه العبارة: un persa de Hamadan.

Cf: LEVI- PROVENCAL. *Histoire de L,Espagne Musulmane (1 ´ed) I, 14.*

أخطر عمل حربي قام به إلى الساعة . ويبدو أن موسى كان عظيم الثقة في أمانته ، لأنه وكل إليه أمر هذه الحملة مع ما كانت تَعِد به من المغانم ، فأحب موسى أن يعهد فيها إلى رجلٍ ثقة مأمون عنده لا يطمع فيها ولا يتحدث بأمرها على الحقيقة عند العرب والخلفاء .

ومن غريب الأمر أن الجيش الذي أرسله موسى كان بربرياً صرفاً أو يكاد ، وهذه هي أول مرة نسمع فيها أن قائداً إسلامياً عهد في عمل حربي خطير كهذا إلى قائد غير عربي وجند غير عرب في الغالب، ولكن موسى مع ذلك احترز للأمر فأرسل مع طارق عدداً من كبار الجند من العرب وموالي الأمويين ، مثل : عبد الملك بن أبي عامر المعافري ومغيث الرومي مولى الوليد بن عبد الملك وعلقمة اللخمي وهو عربي صرف . وكان في الجيش عدد من كبار محاربي البربر ممن سنسمع عنهم كثيراً فيما يلي ، مثل : مونوسة البربري ، ويبدو أن موسى تعمد أن يختارهم من خيرة جنده لأننا سنراهم يقومون بما عهد إليهم فيه في دقة وقدرة تبعثان على الإعجاب .

وكان الاتفاق قد تم بين موسى ويليان على أن يكون هذا الأخير وصحابه أدلاء للمسلمين ومعينين لهم في أعمال الحملة ، وتعهد يليان كذلك بأن ينقل المسلمين إلى الأندلس على سفن من عنده ، وكانت سفن يليان التي تصلح لمثل هذا العمل قليلة لا تزيد على أربع ، فلم يكن بد من نقل المسلمين عبر المضيق على دفعات ، وأن يقيم من يعبر منهم ساكناً في خفية عن أهل الشاطىء حتى يتم جواز الجيش كله .

تم عبور المسلمين في ربيع سنة ٧١١ م ، وتذهب المراجع الإسلامية إلى أن العبور كان في رجب من سنة ٩٢ هـ ، ولكننا لا نعرف الشهر الذي عبروا فيه على وجه التحقيق[١] ، وتجمع المسلمون عند الجبل الذي سيعرف من ذلك التاريخ بجبل طارق، واجتهد طارق في أن يحصن هذا الموضع تحصيناً طيباً ليتخذ

---

(١) تجمع المراجع العربية كلها ـ بما فيها الطبري ـ على أن عبور المسلمين كان في ربيع الثاني سنة ٩٢ هـ (٧١١م)، ولو أخذنا بما يقوله الرازي (في ابن عذارى) من أن طارقاً نفسه وصل الأندلس في آخر فوج من أفواج العبور =

منه حصناً يحتمي به المسلمون إذا حدث ما لم يكن منتظراً(١) ، ولم يكد يفرغ من ذلك حتى بعث عبد الملك بن أبي عامر في فرقة مختارة من الجند سارت بحذاء الساحل شمالاً بغرب فاستولت على قرطاية Carteya-Torre de Cartagena ، ثم انحدرت نحو الجنوب واستولت على بلدة الجزيرة الخضراء في مقابل جبل طارق ، وبذلك أصبح مضيق جبل طارق كله في يد المسلمين ، وعهد طارق إلى يليان ومن معه من الجند حراسة هذا الموضع وحمايته من كل هجوم منتظر . وأمن المسلمون أن يعبر أحد إلى مركزهم الأول عند جبل طارق فيهدد مراكزهم وطريق مواصلاتهم مع إفريقية(٢) .

ولم يكد المسلمون يطمئنون في مركزهم هذا حتى هاجمتهم جماعة من أنصار لذريق يقودها قائد يسميه ابن عذاري « بنج »(٣) وتسميه المراجع الإسبانية بَنْشُو

= في الخامس من رجب سنة ٩٢هـ لكان في إمكاننا أن نستنتج أن المسلمين بدأوا العبور في آخر ربيع الثاني (ابن عذارى: البيان، ج٢ ، ص٧).

ويقول ابن حيان في «المقتبس» (ج١ ص١٥٥) إن العبور كان لسبع خلون من ربيع الأول سنة ٩٢هـ.

ويؤيد مؤرخي القوب في ذلك الملك ألفونسو الكامنو (الطاهر) في تاريخه، فيجعل العبور سنة ٦٤٩ بحسابه وهي تعادل سنة ٧١١ بالحساب الجريجوري (*Espana Sagrada*, XXXVII, 312) .

ويجعله إيزودور الباجي في السنة السادسة من خلافة الوليد، وهي سنة ٩٢ هـ.

(١) يميل المؤرخون المحدثون إلى القول بأن طارقاً عمد إلى السفن التي عبر عليها فأحرقها لكي يقطع كل أمل لجنوده في العودة إلى إفريقية وليدفعهم إلى الإستبسال في القتال، ولم يذكر تلك الواقعة من القدماء إلا الإدريسي وهو من رجال القرن الثاني عشر الميلادي (كتب جغرافيته سنة ١١٥٤) ولهذا نشك في صحة هذا الخبر؛ ثم إن طارقاً لم يكن يستطيع إحراق السفن لأنها لم تكن ملكه بل كانت ليليان.

(٢) SAAVEDRA, *Estudio*... p. 65.

(٣) كتب ابن عذارى هذا الاسم «بنج» من غير شكل، ونقله الأسقف ردريجو «بينجُ» (Eneco)، وجعله سافدرا «بَنْجُ» (Bancho) ، وورد في تاريخ إسبانيا العام Cronica general de Espana في صورة إنْيِجُو (Inego) وفي الترجمة الإسبانية للرازي شَنْجُ (Sancho). وقد خلط ابن قتيبة بينه وبين تدمير، أما بلياسن لم يرد ذكره إلا عند الرازي وعنه أخذه سافدرا وجعله Wiliesindo.

ابن عذارى: البيان، ج٢ ص ١٠.

Cf: *Cronica del Moro Rasis,* apud. SAAVEDRA. *Op. cit. p. 149.*

وفهرس الأسماء في تاريخ إسبانيا العام.

وبَنْشيو ، فقضوا عليها من غير كبير مشقة ، ولم ينج من جندهـا إلا واحد يسميـه الـرازي بِلْيَــاسِنْ (Williesindo- Beliasin) أسرع إلى معسكـر لـذريق في أقصى الشمال عند بنبلونة وأنبأه بخبر نزول العرب البلاد ، فسارع لذريق نحـو الجنوب واحتل قرطبة وأخذ يستعد للسير نحو الجنوب للقاء العرب(١).

ويبدو أن نية طارق كانت السير مباشـرة إلى قرطبة عاصمة إقليم بيطي (بيتِس) ، لأنه سار بحذاء الساحل حتى أدرك جزيـرة طريف ، ومن ثم اتجـه إلى الشمال في سهل قليل الارتفاع ، ومر بين جبلي سيليا دل بابا وسييـرا دل رِتين واقترب من بحيرة الخنـدق (لاخانـدا) الواسعـة التي تحصر بينها وبـين سييرا دل رتين سهلاً متسعاً بعض الاتساع حصيناً ، لأن البحيرة تحميـه من ناحيـة والجبل من ناحية أخرى ، واستمر حتى أدرِك نهير البرباط الذي يخترق بحيرة لاخـاندا ، وكانت بهذا الموضع في هذه الأيام بليدة صغيرة زالت الآن ويسميهـا العرب بِكَّـة ، ولهذا سموا هذا النهر وادي بكة ، وحرفـه بعضهم إلى لكة أو وادي لِكـةً ، وقد أساء الراوية الإسباني رودريجو دِرادا نقل هذا اللفظ فنقله لِيَتة ووادي ليتة ، ومن هنا نشأة هذه التسمية الخاطئة التي سيقع فيها كل المؤرخين الإسبان بعده فسموا هذا الموضع الذي دارت عنه المعركة الحاسمة بين العـرب والإسبان جـواداليتِ (Guadalete)(٢).

---

(١) كان لذريق قد توجه إلى الشمال في أوائل ربيع ٧١١ لصد هجوم قام به نفرٌ من الفرنجة على بعض نواحي نبرة (نفار)، وقد ذهب سافدرا إلى أن هجوم هؤلاء الفرنجة إنما كان بتحريض من يليان وحزب غيطشة، وقد أرادوا بذلك إشغال لذريق في ناحية نائية تيسيراً للأمر على العرب، وقد اعتمد سافدرا في ذلك عبارة للوقا دي توي يقول فيها:

"Juliaus callìde incitavit Francos ut expugnarent Hispaniam citeriorem..."

Cf: LUCAS DE TUY. *Cronicon Mundi,* L. III.p. 70

SAAVEDRA. *OP. CIT.* P. 65.

وقال المقري إن الذي انبأ لذريق نبأ العرب هو تدمير، وكان يليان قد استخلفه على الأندلـس، وليس لدينا ما يثبت ذلك. انظر: النفح، ج١ ص ١٤٩.

(١) هذا هو رأي سافدرا في أصل هذا اللفظ وصوره المختلفة التي ورد بها في النصوص، وقـد ذكر جايانجوس في تعليقاته على ترجمة نفح الطيب أن هذا النهر كان يسمى عند القدماء Chrysos ، =

وهنا عرف طارق عن سبيل عيـونه أن لـذريق سائـر إليه في جنـده ، وأنه وصـل إلى قرطبـة واستقر بهـا قليلاً ، ثم تقـدم جنوبيهـا وضرب معسكـره عنـد شذونة (Medinasidonia) واستعد للموقعة في سهل البرباط على مقربة من قرية (Casas Viejas) الحالية. وتقدر المراجع جيشه بمائه ألف، وربمـا كان في هـذا التقدير مبالغة، ولكن الذي لا شك فيه أن عدة جيشـه كانت تـزيد عـلى عدة جيش المسلمين أضعافاً كثيرة، وأن عدد الفرسان فيه كان عظيماً.

ورأى طارق أن العدد الذي معه لا يكاد يكفي للقاء جيش ضخم كجيش لذريق ، فبعث يطلب المدد من موسى ، فعجـل موسى بـإرسال خمسـة آلاف من خيـرة جنده يقـودهم طريف بن ملوك وفيهم عـدد عظيم من العـرب ، فأدركـوا طارقاً قبيل اللحظة الحاسمة ، وقـويت بهم نفسه ونفـوس من معـه . والغـالـب أن جزءاً عظيماً من هذا المدد كان من الفـرسان ، لأن المـراجع تحـدثنا أن قـوة طارق الأولى كانت كلها من الرجالة ، في حين أننا سنرى للمسلمين قوة يسـيرة من الخيل في المعركة الحاسمة[1] .

= وأورد كذلك صيغاً أخرى لاسم هذا النهر هي:

وادي لِد، وادي لكة: عند ابن الخطيب.

Vadilac, Vadileke, Wadalak عند لذريق الطليطلي (Rodericus Toletanus)

Gaudalede عند كوند. Leke في الصورة الإسبانية للرازي.

ثم أتبع ذلك برأي طريف، وهو أنه وجد عند فلوريث في الجزء التاسع من *Espana Sagrada* ص ٥٣ تفسيراً للفظ جْوَادالِيت ملخصه أن العرب سموا نهر كريسوس بهذا الاسم ومعناه «وادي السرور» بسبب ما أصابوا من السرور والراحة عنده، ثم استنتج من ذلك أن العرب لا بد قد سموا هذا النهر وادي اللذة أو وادي لذة، فكان هذا هو أصل هذه الصور كلها.

Cf: GAYANGOS. *The Hist, of the Moh. Dyn. In Spain,* I. p. 524.

SAAVEDRA. *Op. cit. p. 68- 69.*

وقد قرأ بروفنسال الاسم وادي لَكُه وقال إن هذا اللفظ تحريف للفظ Lago- Lacus أو البحيرة . والمقصود هنا بحيرة الخندق (Lajanda). وهذا التفسير هو أقرب التفاسير إلى الصحة.

(١) يذهب ساقدرا ـ إعتماداً على المراجع النصرانية ـ أن عدة جيش طارق بلغت قبل المعركة ٢٥ ألفاً بسبب من انضم إليهم من النصارى من أنصار غيطشة وأعداء لذريق ومن أهل البلاد. فإذا كانت عدة من مع طارق من المسلمين اثني عشر ألفاً، فإن عدة من انضم إليهم من النصارى كانت ثلاثة =

ويبدو أن سير المسلمين الموفق في البلاد إلى هذه اللحظة قد أنعش الأمر في أنفس أعداء لذريق ، فانضم منهم إلى المسلمين نفرٌ عظيم أعانوهم بالقوة والرأي[١] ، وتسامع بذلك نفر من جند لذريق الغاضبين عليه فبدأت نفوسهم تحدثُهم بتخوُّنه وتركه لمصيره إذا اشتبك مع المسلمين في القتال، ويُقال إن ششبرت وأبَّه أخوي غيطشة كانا على رأس هذا الفريق الذي عول على الخيانة، وأنهما انتظرا اللحظة المواتية ليتخليا عن لذريق، ويتركاه يلقى جزاءه على ما فعل بغيطشة[٢] .

ويبدو أن لذريق كان يشعر بما يدور حوله ، وكان يدرك أن نفراً من جنده يدبر الخيانة ، فأحب ـ قبل أن يلقى المسلمين ـ أن يتعرف ما لديهم من القوة ، فبعث طليعة من فرسانه لتناوشهم ، فلم يكد المسلمون يرونها حتى انقضوا عليها انقضاضاً فولت هاربة ، وأنبأت لذريق بحال العرب وما هم عليه من الحمية والتشوق للقتال ، فكاد يسقط في يديه[٣] .

١٩ ـ معركة وادي البرباط ١٩ يوليو سنة ٧١١

وبدأ اللقاء بين الجانبين يوم الأحد الثامن والعشرين من رمضان سنة ٩٢ هـ[٤] (التاسع عشر من يوليو سنة ٧١١ م) على وادي برباط على مقربة من شذونة ، واستمرت المعركة طول ذلك اليوم وحمي وطيسها في اليوم التالي، وأظهر البربر

= عشر ألفاً، أي أكثر من الجيش نفسه وهذا أمر مستبعد، بيد أن هذا لا يمنعنا من القول بأن بضعة آلاف من النصارى من القوط وأهل البلاد انضموا إلى الجيش الإسلامي.

Cf: *Cronicon Silense,* no. 16.

RODRIGO XIMENEZ Arzobispo de Toledo (i,iii,c. 20).

(١) ابن عذارى: البيان، ج٢ ص ١١. الرازي في المقري: نفح الطيب، ج١ ص ١٦٢.

ويفهم من رواية المقري أن الذي دبر الخيانة لم يكن ابناء غيطشة وأخويه، وإنما نفراً كبيراً من القوط كانوا غضاباً على لذريق.

(٢) انظر: ابن القوطية: افتتاح الأندلس، ص ٣.

ابن عذارى: البيان، ج٢، ص٨ . الأخبار المجموعة، ص ٦ .

(٣) الرازي: برواية المقري ـ نفح الطيب، ج١، ص ١٦٣.

(٤) الرازي: برواية المقري ـ نفح الطيب ، ج١، ص ١٦٣.

الذين أتى بهم يليان قدرة عظيمة على القتال ، فقد كان انتقاهم من خيار غمارة وأحسن تدريبهم على الأسلوب البيزنطي . وكان طارق قد قدم نفراً من السودان بين يدي جيشه ، ليتلقوا بما عرف عنهم من الصبر والثبات دفعة الجيش القوطي الأولى[١]. وأظهر فرسان القوط قدرة عظيمة في أوائل المعركة، وثبتوا لضغط العرب والبربر والسودان، وكان قواد الفرسان من أعداء لذريق الغاضبين عليه ، ويبدو أن يليان ورجاله كانوا نشيطين طوال المعركة ، يخذّلون الناس عن لذريق ويصرفونهم عنه ، مؤكدين لهم أن العرب لم يقبلوا إلى هذه البلاد للفتح والاستقرار ، بل للقضاء على لذريق والظفر بالغنيمة ، وأنهم إن خذلوا لذريق اليوم صفت لهم الأندلس بعد ذلك . ولم يلبث أثر هذا الكلام أن ظهر بين جنود لذريق ـ وكان كثيرٌ منهم كارهاً له ناقماً عليه ـ فلم يلبث فرسانه ـ وهم خيرة جنده ـ أن خرجوا من المعركة وتركوه لمصيره[٢] . وكان ذلك كافياً ليوقع الفوضى في جيش لذريق ، فاضطرب نظامه ولاذ من بقي منه بالفرار وأسياف المسلمين في أقفيتهم . وقد قتل من القوط في ذلك اليوم عدد عظيم . ولم يعثر للذريق على أثر ، وتذهب المراجع العربية إلى أنه أراد أن يعبر البرباط على عجل

---

(١) لم يذكر هؤلاء السود من المؤرخين المحدثين إلا ساقدرا، مع أنهم قاموا بدور خطير جداً في الفتح، وسيكون لهم دور حاسم فيما وقع بين العرب بعد ذلك من الحروب في الأندلس، وسننبه إلى ذلك في حينه.

Cf: SAAVEDRA. *Op. cit.* p. 71.

(٢) تجمع المراجع العربية على ذلك، وتؤكد أن خيانة لذريق وسط المعركة إنما وقعت بناء على تدبير سابق محكم بين آل غيطشة والعرب. وقد ناقش ساقدرا هذا الموضوع، وانتهى إلى أن الذي قام بترتيب المؤامرة كانا أخوي غيطشة وهما أبة، وششبرت، وكان أحدهما على خيل لذريق في هذه المعركة، وقد تعجب ساقدرا من أن لذريق يعهد في أمر هام كهذا لواحد من أعدائه، ولكن فاته أن بعض المراجع العربية تذكر أن لذريق سعى في الصلح مع آل غيطشة قبل المعركة الحاسمة، وهذا واضح من قول ابن القوطية: «فلما دخل طارق بن زياد الأندلس أيام الوليد بن عبد الملك، كتب لذريق إلى أولاد الملك غيطشة ـ وقد ترعرعوا وركبوا الخيل ـ يدعوهم إلى مناصرته وأن تكون أيديهم واحدة على عدوهم. . .»

ابن القوطية: افتتاح، ص ٢ـ٣.

فغرق فيه ولم يعثر المسلمون إلا على خفه[1] لكنه لم يمت في هذه المعركة كما سنرى وسيقوم بدورٍ خطير فيها بعد. وقتل فيه أيضاً ششبرت. وكان ممن تخلى عن لذريق طمعاً في الغنيمة والسلامة! وأصاب المسلمون من هذه الواقعة غنائم لا تكاد تحصى، ولعل أكثر ما يهمنا منها هي الخيل، فقد غنم المسلمون خيلاً كثيرة حتى لم يبق منهم راجل. وقد قتل من المسلمين ثلاثة آلاف، وبقي منهم تسعة آلاف زادهم النصر حماسة، فأسرع بهم طارق نحو قرطبة تتقدمهم هذه الشرذمة الباسلة من السود التي أبلت في هذه المعركة بلاء طيباً[2].

ولم يكد خبر هذا الانتصار يصل إفريقية «حتى أقبلوا نحوه من كل وجه، وخرقوا البحر على كل ما قدروا عليه من مركب وقِشْر، فلحقوا بطارق» ففاض سيل البربر على الأندلس، وأخذوا يستقرون في النواحي المفتوحة. وتضخم جيش المسلمين إلى حد يصعب معه تقديره بعد هذه الواقعة، وأسلم الآراء هو أن نقول إن جيش المسلمين تضخم تضخماً عظيماً. ورأى طارق أنه لن يستطيع السير بهذا الجحفل اللجب دفعة واحدة، فمال إلى تفريقهم في بعوث صغيرة يبعثها إلى النواحي.

وأعقب هذا الانتصار اضطراب في شؤون الأندلس كلها، «وارتفع أهل الأندلس عند ذلك إلى الحصون والقلاع، وتهاربوا من السهل ولحقوا بالجبال» كما يقول الرازي[3]. وحسب حزب غيطشة أن الفرصة قد سنحت لإعلان واحد منهم ملكاً مكان الطاغي المهزوم[4]، وفعلاً بذل وَقِلة (أخيلا) جهداً كبيراً لكي

---

(١) لا يقطع ابن عذارى بموت لذريق، ويكتفي بقوله: «ولم يعرف للذريق موضع ولا وجدت له جثة، وإنما وجد له خف مفضض، فقالوا إنه غرق، وقالوا إنه قتل. والله أعلم»
ابن عذارى: البيان، ج٢، ص١٠.

(٢) فتح الأندلس، ص ٧.
الرازي، برواية المقري - نفح الطيب، ج١، ص ١٦٣. وهو يقول إن طارقاً قسم الغنائم على ٩٠٠٠ من المسلمين، أي أن هؤلاء هم الذين سلموا وقتل الباقون.

(٣) رواه المقري: نفح الطيب، ج١، ص ١٦٣.

(٤) يقول ردريجو الطليطلي:

يستصدر من مجلس طليطلة قراراً باعتباره ملكاً ، ولكن الأمر لم يستقر لـه لأن الشائعات كانت تملأ الجو بأن لذريق لم يُقتل . وعمل هؤلاء الغيطشيون من جهةٍ أخرى على تشجيع طارق على الاستمرار في الفتح حتى يتم لهم الانتصار المحقق ، وأما يليان فقد ثبت بقواته في ناحية الجزيرة الخضراء[1] .

ولو عمل طارق بأمر موسى لكـان من الواجب أن يعـود الى إفريقيـة بعد هـذا النصر كما عـاد عبد الله بن أبي سـرح إلى مصر بعـد نصر سبيـطلة ، ولكن طارقاً كان أبعد نـظراً من عبد الله بن أبي سـرح ، ووجد أن الأبـواب قد فتحت أمامه فلا معنى لتركهـا والعودة إلى إفـريقية ، فمضى مسـرعاً نحـو استجة ليعبـر شنيل من مخاضتها في طريقه إلى قرطبة ، ويبدو أن عـدداً عظيـماً من بقايـا جيش لـذريق كان قـد تحصن فيها لأن طـارقاً لقي فيهـا مقاومـة عنيفـة ، واحتـاج إلى عـون يليان الـذي خف إليه مسـرعاً . ويبـدو أنه استبـان كثـرة من مـع طـارق وصعـوبة الاستفـادة منهم جميعاً في حملة واحـدة ، فنصحـه بـأن يفـرق جنـده في بعـوث جانبيـة ، فقال لـه : « قـد فتحت الأنـدلس ، فخـذ من أصحـابي أدلاء ففـرق معهم جيـوشـك وسر معهم إلى مـدينـة طليـطلة » . ففـرق جيـوشـه من استجة[2] .

= ... et rex Rudericus, cum esset magnanimus, antequam fugeret, permitteret se occidi, et eo mortuo, posset eis regnum perditum provenire...

RODERICUS TOLETANUS. *De Rebus Hispaniae,* Lib. IIÌ cap. 20.

C.f: SAAVEDRA. *op. Cit.* p. 76.

وللرازي إشارة هامة تؤيد هذا الرأي . قال إن يليان قال لطارق: «قد فضضت جيوش القوم ورعبوا، فاصمد لبيضتهم، وهؤلاء أدلاء من أصحابي مهرة، ففرق جيوشك معهم في جهات البلاد، وأعمد أنت إلى طليطلة حيث معظمهم، فاشغل القوم عن النظر في أمرهم والاجتماع إلى أولي رأيهم» مما يدل على أن كبار القوط كانوا يدبرون شيئاً في عاصمتهم، وأن يليان نصح طارقاً بالإسراع إلى طليطلة رأساً ليتدارك الأمر.

انظر: المقري ـ نفح الطيب ـ ج١، ص ١٦٤ .

(١) ابن عذارى: البيان، ج٢، ص ١٠ .

(٢) ابن عذارى: البيان، ج٢، ص١٠ .

SAAVDRA.*Op. cit.* p. 77.

ولم يلبث حاكم البلد أن أسلمه صلحاً ودخل في طاعة المسلمين[1] ، وانفتح أمامهم طريق قرطبة وطليطلة . ولو قائد غير طارق لاتجه نحو قرطبة وأنفق وقتاً طويلاً في الاستيلاء عليها ، ولكنه كان قد علم بعض ما كان يدور إذ ذاك في طليطلة ، وعرف أن الظروف لا تسمح بإنفاق الوقت في الحصول على مدائن جنوبي الجزيرة كقرطبة وغرناطة ومالقة . فعجل بإرسال مغيث الرومي في قوة كبيرة إلى قرطبة ليشغل من فيها عن قطع طريق عودته ، ثم مضى بمعظم جيشه مسرعاً نحو طليطلة ليصل إليها قبل أن يحكم أنصار لذريق الدفاع عنها ، وقبل أن يدبر أنصار غيطشة أمراً لا يكون في صالح المسلمين .

ويذهب بعض المؤرخين إلى أن طارقاً أرسل في هذا الوقت حملة فتحت جنوب شرقي الأندلس وكبار مدائنه مثل مالقة وغرناطة وأوريولة ، ولكن ذلك غير صحيح ، لأن المسلمين لن يفتحوا هذه النواحي إلا في ولاية عبد العزيز ابن موسى ، ولا يستبعد أن يكون قد بعث سرايا صغيرة إلى هذه النواحي وغيرها لمجرد الاستطلاع لا للفتح . وكان الجند عنده قد كثروا ففرق أعداداً منهم مع جماعات من رجال يليان يدلونهم على الطريق ، وربما كان يليان صاحب هذه الفكرة[2].

وكان جيش المسلمين يزداد عدة في الطريق بمن كان ينضم إليه من الغاضبين على لذريق وعهده ، وانضم إليه كذلك عدد من اليهود الذين استقبلوا أخبار انتصار المسلمين على القوط استقبال الظمآن للماء[3] ، فقد كان حالهم معهم كما رأينا سيئاً جداً ، ولا نزاع في أن طارقاً أفاد فائدة كبيرة من هذه الجماعات من الإيبيريين واليهود التي انضمت إليه ، فقد وجد فيهم الأدلاء الذين يقودونه في هذه الأباطح الفسيحة التي لم يكن المسلمون يعرفون

---

(١) فتح الأندلس، ص ٨.
(٢) ابن عذارى: البيان المغرب، ج٢، ص ١٠.
المقري: نفح الطيب، ج٢، ص١٦٤.
(٣) SAAVEDRA. *Op. cit.* p. 79.

عنها شيئاً ، وهكذا أُسعد المسلمون بأكثر مما كانوا ينتظرون ، وسار هذا القائد المجدود طارق يقود هذه الجماعات من العرب والبربر والموالي والسود والإيبيريين واليهود قاصداً طليطلة عاصمة القوط .

٢٠ - إحتلال طليطلة

عبر طارق الوادي الكبير عند مَنْجبار (Manjibar) وسار في الطريق القديم الذي كان يعرف في عهود الرومان باسم طريق هانيبال[١] ، ودخل طليطلة من غير مقاومة تذكر ، واستولى على الكنوز الزاخرة التي وجدها في قصور القوط وفي كنيسة طليطلة الكبيرة بوجه خاص ، ولم يسهب المؤرخون المسلمون في شيء مما وقع للمسلمين في فتوحهم كلها مثلما أسهبوا في صفة المذبح المحلى بالجوهر الذي اغتنمه المسلمون في هذه الكنيسة الجامعة ، فقد سموه مائدة سليمان بن داود ، وذهبوا إلى أن هذه المائدة كانت من زبرجد خالص ، ومن المحقق أن هذا المذبح كان درة من درر الفن ، محلى بأثمن ما لدى القوط من الذهب والجواهر ، وأن وقوعه في يد المسلمين أثار بينهم دهشة كبرى[٢] .

وقد وجد المسلمون المدينة شبه خالية لأن أهلها انتثروا عنها طالبين الهرب حينما علموا بمقدمهم ، حتى أسقف البلد سِنْدْرِدْ وكبار قساوسة المجمع الطليطلي فضلوا ترك البلد ينعي من بناه وتوجهوا إلى روما . ولم يشتغل طارق

---

(١) يذكر المقري أن طارقاً سار إلى طليطلة في الطريق المار بجَيان، وهذا يأذن لنا في القول بأنه تبع طريق هانيبال الروماني، لأنه كان طريقاً معموراً إذ ذاك، وفيه تمر الآن سكة حديد الأندلس.
المقري : نفح الطيب، ج١، ص ١٦٧ .

Cf: SAAVEDRA. *Op. cit, 79.*

(٢) يذهب معظم المؤرخين المسلمين إلى أن طارقاً غنم هذه التحفة الثمينة في «مدينة المائدة» وهذه المدينة هي في الغالب قلعة هنارس (Acala de Henares). وهي بالطبع ليست مائدة سليمان بن داود عليه السلام (إن كانت لسليمان مائدة)، وهي ليست كذلك بمائدة أصلاً، إذ لا يعقل أن يهتم القوط بصناعة «مائدة» بهذه الفخامة، ولكن الغالب أنها مذبح الكنيسة الجامعة في طليطلة، إذ لم تكن في قلعة هنارس إذ ذاك كنيسة كبيرة يحتمل وجود هذا المذبح الفخم بها. ويفهم ذلك من عبارة صريحة لابن حيان يقول فيها : «وهذه المائدة المنوه عنها المنسوبة إلى سليمان النبي عليه السلام لم تكن له فيما يزعم رواة العجم، وإنما أصلها أن العجم في أيام ملكهم كان أهل الحسبة منهم إذا مات أحدهم =

بالغنائم والذخائر وإنما مضى قدماً حتى أدرك وادي الحجارة ، واستمر صاعداً حتى أدرك بليدة تسميها المراجع العربية « المائدة » على مقربة من قلعة هنارس[1] ، وكان الصيف قد انقضى وأقبل أكتوبر ومعه برد الخريف ، ففضل طارق وأصحابه العودة لكي يقضوا الشتاء في طليطلة ، وكانت الغنائم قد أثقلت العسكر إلى حد عظيم . ويستبعد أن يكون طارق قد سار إلى أمايا (Amaya) وأشترقة (Astorga) في ذلك الحين كما يزعم بعض المؤرخين[2] ، لأن الشتاء كان قد اقترب ، وكان الإجهاد قد نال من المسلمين

= أوصى بمال للكنائس، فإذا اجتمع عندهم ذلك المال، صاغوا منه الآلات الضخمة من الموائد والكراسي وأشباهها من الذهب والفضة، تحمل الشمامسة والقسوس فوقها مصاحف الأناجيل إذا أبرزت في أيام المناسك، ويصفونها على المذابح في الأعياد للمباهاة بزينتها، فكانت تلك المائدة بطليطلة مما صيغ في هذه السبيل»... وبقية العبارة تدل صراحة على أن تلك المائدة إنما كانت لمذبح كنيسة طليطلة.

ولسنا نعلم كيف وجده المسلمون في قلعة هنارس، اللهم إلا إذا افترضنا أن قساوسة طليطلة حاولوا الفرار به لفخامته ولقدامته، ولم يستطيعوا التقدم به أكثر من ذلك الموضع، وذلك فرض يؤيده أن المؤرخين لا يحدثوننا بغنيمة كبيرة من قصور ملوك القوط في طليطلة، مما يفهم منه أن رجال القصور قد حملوا معهم أحسن طرفها حينما أخلوها لاقتراب المسلمين.

ووصف هذه المائدة لا يمكننا على أي حال من تصور هيئتها تصوراً صحيحاً، إذ أن ابن عبد الحكم وصاحب الأخبار المجموعة وابن عذارى والمقري وصاحب فتح الأندلس يتفقون في وصفها اتفاقاً حرفياً، فهي عندهم «كانت من زبرجدة خضراء، حافاتها وأرجلها منها»، والغالب أنهم يريدون أنها كانت محلاة بالزبرجد الأخضر. أما عن حجمها فإن صاحب الأخبار المجموعة يوقعنا في حيرة شديدة، لأنه يقول تارة: «ولها ثلثمائة رجل وخمسة وسبعون رجلاً»! ويقول تارة أخرى: «... وعمل لها سفط من خوص فأدخلها فيه».

انظر : ابن عبد الحكم، فتوح ص ٢٠٧ .

الأخبار المجموعة، ص ١٧، ١٩ .

ابن عذارى: البيان، ص ١٤ .

ابن حيان برواية المقري: نفح الطيب، ج١، ص ١٧٢ .

وفتح الأندلس: ص ٩ .

(١) SAAVEDRA. *Op. cit.* pp. 79- 80.

(٢) انظر : ابن حيان عند المقري: نفح الطيب، ج١، ص ١٦٧ .

وثقلوا بالغنائم . والأرجح أنه قام بحملاته نحو هذين البلدين القاصيين بعد ذلك بزمنٍ ليس بالقصير .

٢١ - فتح قرطبة

وأما مغيث الرومي ومن معه من الرجال ـ ولم يكن عددهم ليزيد على سبعمائة فارس ـ فقد أخذوا يقتربون من قرطبة حتى أدركوا الضفة اليسرى من الوادي الكبير مقابل قرطبة، وكانت القنطرة التي تصل الشاطئين مهدمة في ذلك الحين، فاضطر المسلمون إلى الانتظار حتى تسنح الفرصة المناسبة للعبور، ولبثوا حيناً مترصدين مختبئين في غابة بين قريتي شقندة (Secunda) وطرسيل[1] على الضفة اليسرى للوادي الكبير، وأخذوا من مخبئهم هذا يستطلعون أخبار البلد قبل أن يعبروا النهر إليه ويهاجموه. وكان أهل قرطبة كارهين لأمر القوط عامة وللذريق خاصة لأن القوط كانوا مختصين أنفسهم بالجزء الغربي من البلد، وتركوا جزءه الشرقي للأهلين، كما كان الرومان قبلهم يفعلون[2]، وأقاموا سوراً بينهم وبين الأهلين، حتى لا يقرب هؤلاء مساكنهم كأنهم منبوذون، وكان البلد حصيناً يدور عليه سور من الحجر الضخم، ولكن الظاهر أنه كان متداعياً في بعض أجزائه لأن العرب سينفذون من ثغرات فيه، وكان من حسن حظ العرب أن الجزء الذي كان يقابل القنطرة هو الجزء الذي كان الأهلون من الإيبيريين الرومان يسكنونه، وفيه الكنيسة الجامعة (الكاتدرائية) التي ستصبح جامع قرطبة الكبير فيما بعد. ولم يصعب على المسلمين الاتصال بنفرٍ من الأهلين واستطلاع أخبار البلد منهم، وبمعونة هؤلاء استطاعوا عبور الوادي الكبير في ليلة غزيرة المطر من ليالي أغسطس[3]، عبروا

---

(١) يسمى هذا الموضع اليوم El Campo de la Verdad. أما عن طرسيل فانظر تعليق سافدرا في كتابه المذكور آنفاً، ص٨١، هامش ٢.

(٢) SAAVEDRA. *Op. Cit.* p.82.

(٣) يقول الرازي: «وأقبل المسلمون رويداً حتى عبروا نهر قرطبة ليلاً، وقد أغفل حرس المدينة احتراس السور، فلم يظهروا عليه، ضيقاً بالذي نالهم من المطر والبرد، فترجل القوم حتى عبروا النهر، وليس بين النهر والسور إلا مقدار ثلاثين ذراعاً . .»
المقري: نفح الطيب، ج١، ص ١٦٤.

في مواجهة باب القنطرة أو باب الصورة، نسبة إلى تمثال أسد كان قائماً على مقربة من السور وظل قائماً أيام المسلمين، وجعل مغيث وأصحابه يدورون حول السور يلتمسون ثغرة فيه يدخلون منها.

ولم يكن من العسير على المسلمين أن ينفذوا إلى داخل البلدة من هذه الناحية ، إما من ثغرة دلهم عليها واحد من أهل البلد أو بتسلق السور . ولم يكد نفر من المسلمين يجتمع داخل البلد حتى اندفعوا إلى الباب ففتحوه ليدخل بقية إخوانهم[1] ، وحدثت في البلد هيعة أفاقت على أثرها حامية البلد من القوط ولم يكن عددها يزيد على ٤٠٠ فارس ، وكانت مقيمة مع الحاكم في الجزء الغربي الذي سيعرف أيام المسلمين بالمدينة أو القصبة (يسمى اليوم لافيليا = المدينة » ، وكان الحاكم مقيماً وحده في قصر منيف من الضاحية التي ستعرف أيام المسلمين بربض الوراقين . فأسرع إلى حاميته ، ولم يمهله العرب أن فاجأوه ، ففر بجنده إلى كنيسة قريبة تسمى كنيسة القديس أثيسكلو San) Acisclo)[2] وتحصن فيها ، وأقام المسلمون حولها محاصرين إياها . واستمر الحصار قرابة الثلاثة أشهر ، حتى استطاع المسلمون قطع الماء عن المحصورين ، وكان يجري إلى الكنيسة في مجرى تحت الأرض ، فلم يفطن إليه المسلمون ، حتى اكتشفه رجل من السود ممن كانوا مع المسلمين[3] . وقد صبر هؤلاء المحصورين صبراً طويلاً رغم قطع الماء عنهم ، ولم يستسلموا إلا بعد أن جهدوا جهداً عظيماً ، ويذهب الرازي إلى أن مغيثاً أوقد النيران في الكنيسة

---

(١) الرازي برواية المقري: نفح الطيب، ج١، ص ١٦٤ .

(٢) يسمي صاحب الأخبار المجموعة هذه الكنيسة شنت أجلح . وقد ورد في تقويم قرطبة لعريب الذي نشره دوزي أن هذه الكنيسة هي سان أثيسكلو بالعجمية.
انظر: الأخبار المجموعة، ص ١٢ وهامش ١ من ص ٢٥ من الترجمة الإسبانية.
وانظر كذلك: سافدرا، المصدر المشار إليه، ص ٨٥، هامش ١ .

(٣) راجع أخبار ما وقع لهذا الأسود على يد الإسبان والقوط، فقد وقع في يدهم وحسبوه مصبوغاً فحاولوا إزالة لونه بالغسل والحك حتى أعنتوه! ثم تركوه يمضي غير مقدرين أنه عين عليهم، لما مضى إلى المسلمين أظهرهم على مجرى الماء. ولسنا نعرف إن كنا نقبل هذه القصة أو لا نقبلها، لأننا لا نكاد نصدق أن الإسبان لم يكونوا قد رأوا أسوداً حتى الساعة .
الرازي - في المقري: نفح الطيب، ج١، ص ١٦٥ .

حتى ماتوا حرقاً . ونحن نستبعد ذلك ، لأن الكنيسة ظلت بعد ذلك في أيام المسلمين زماناً طويلاً وليس فيها للنار أثر[1] . وأراد قائد المحصورين الهرب ، فخرج يشتد على جواده ، فتبعه مغيث وحده ، وخرج الرجل من البلد وأفضى إلى ضاحية قُطِلبُرة وكاد ينجو ، لولا أن عثر به جواده ، فجلس على ترسه مستأسراً حتى أدركه مغيث وأسره ، وكان هو القائد الوحيد الذي أخذ أسيراً من كبار قواد القوط ، وقد سلمه مغيث لطارق ، واحتفظ به هذا ليذهب به إلى الخليفة ، ونازعه فيه موسى بن نصير فيما بعد ، فلما اشتد النزاع بينهما عليه أخرج مغيث سيفه وقتله .

أما بقية الحامية فقد قتلت عن آخرها عند باب الكنيسة التي اعتصمت فيها ، فسميت هذه الكنيسة من ذلك الحين كنيسة الأسرى . واحتل مغيث قصر الحاكم القوطي[2] ، الذي سيصبح فيما بعد مقام الأمراء والخلفاء ، بعد أن يعدل وتضاف إليه أجزاء كثيرة . وقد ترك المسلمون كنيسة الأسرى لنصارى قرطبة فظلت أكبر كنائسهم في عاصمة الأندلس الإسلامية طالما بقيت المدينة في حوزة الإسلام ، ثم عمد إلى اليهود فجعلهم بعض حرس المدينة ، « استنامة إليهم دون النصارى للعداوة بينهم » ، كما يقول الرازي[3] .

وقد لاحظنا أن المسلمين كانوا لا يفتحون في الأندلس بلداً إلا جعلوا بعض حرسه وحاميته من يهوده ، ولا يعلل هذا إلا بأن اليهود قد وقفوا إلى جانب المسلمين وأعانوهم من أول الفتح في كل مرحلة من مراحله . وهذا أمر طبيعي ، لأن اليهود كانوا يقاسون على يد القوط بلاء شديداً ، فلم يكادوا يرون المسلمين مقبلين حتى انضموا إليهم وآزروهم ، فجزاهم المسلمون بذلك . وللرازي في هذا عبارة تستحق التسجيل لا لأهميتها للفتح وحده ، بل

---

(١) الرازي، نفس المصدر والصفحة.

(٢) في هذا يقول صاحب الأخبار المجموعة : «ودخل مغيث بلاط قرطبة فاختطه». والبلا ط هو القصر، عن Palatum اللاتينية كما هو معروف.

انظر : الأخبار المجموعة، ص ١٢.

(٣) الرازي، في المقري : نفح الطيب، ج١، ص ١٦٥.

للتاريخ الأندلسي عامة : « وصار ذلك لهم سنة متبعة في كل بلد يفتحونه : أن يضموا يهوده إلى القصبة مع قطعة من المسلمين لحفظها ، ويمضي معظم الناس لغيرها ، وإذا لم يجدوا يهوداً وفروا عدد المسلمين المخلفين لحفظ ما فتح »[1] .

وهنا ، وبعد أن فتح المسلمون عاصمة البلاد وكسروا قوات لذريق وقضوا على كل أمل له أو لأنصاره في العودة إلى الحكم ، تقدم أبناء غيطشة إلى طارق يطلبون إليه الوفاء بما وعدهم من الكرامة وحسن الجزاء . ويبدو أنهم كانوا يؤملون أن ينسحب طارق وجند المسلمين معه من البلاد مكتفين بما أصابوا من الغنيمة ، فيعود آل غيطشة إلى ما كانوا فيه من الملك والسلطان ، فلما خيب طارق رجاءهم وأظهر أنه أقبل إلى البلاد للفتح الثابت ونشر الإسلام سقط في أيديهم ، ووجدوا أن لا مندوحة لهم عن القناعة بما يمنحهم المسلمون إياه . ووجد طارق أنهم لا يستحقون أكثر من ضياع أبيهم ، وهي كثيرة ، فأمضاها لهم . ويبدو أنهم استقلوها وطمعوا في المزيد ، ولم يستطع طارق إجابتهم إلى ما سألوا ، فاستأذنوه في المسير إلى موسى بن نصير في إفريقية ، وسألوه الكتابة إليه بشأنهم معه ، وما أعطاهم من عهد ففعل . فلما بلغوا موسى أقر طارقاً على ما فعل ، بعد أن قرأ كتابهم واستوثق من صدق معاونتهم للمسلمين ، ويبدو أنهم ألحوا على موسى في الزيادة ، لأنه ـ على قول الرازي ـ أحالهم على الخليفة نفسه[2] فأقر عهد موسى وطارق . وليس لدينا ما يؤيد ذهابهم إلى دمشق ، ونحن أميل إلى القول بأن موسى بعث إلى الوليد بالمسألة كلها ، فلم يفعل أكثر من أن أقر عهد أميريه ، وعاد الأمراء آخر الأمر إلى الأندلس قانعين بما أصابوا ، ولم يكن شيئاً قليلاً ، إذ أعطاهم المسلمون ثلاثة آلاف ضيعة ـ هي بعض ما كان لأبيهم الملك غيطشة ـ فأصاب كل منهم ألفاً : أخذ ألمند ألف ضيعة في الغرب واستقر في إشبيلية ، وأخذ أرطباس ألفاً

(١) الرازي ، عند المقري : نفح الطيب ، ج١ ، ص١٦٦ .
(٢) الرازي ، برواية المقري : نفح الطيب ، ج١ ، ص١٦٧ ـ ١٦٨ .

في وسط الأندلس واستقر في قرطبة ، وأصاب أخيلا (وقلة) ألفاً في شرق الأندلس وفضل الإقامة في طليطلة في ظلال المسلمين ، وبهذا كان الفتح الإسلامي خيراً عظيماً عليهم وعلى بيتهم المهضوم .

٢٢ - عبور موسى إلى الأندلس

وتذهب الرواية الإسلامية إلى أن موسى بن نصير لم يكد يسمع بأخبار ما وفق إليه مولاه طارق من الفتح حتى أكل قلبه الحسد ، وقرر أن يذهب إلى الأندلس بنفسه ليعاقبه وليفتح بنفسه فتوحاً أعظم من فتوحه . وعلى الرغم من أن موسى لم يكن بعيداً عن الغرور والحسد والطمع ، فإننا نستبعد أن يكون هذا الشعور أو ما يماثله هو الذي دفعه إلى العبور إلى الأندلس ، ثم إن طارقاً كان بطبعه رجلاً متواضعاً قنوعاً ، وكان قد فتح هذه الفتوح كلها باسم مولاه وأميره ، وكان يوقفه على الأخبار أولاً بأول ، فقد كان المسلمون قد استوثقوا لأنفسهم من ميناءي جبل طارق والجزيرة الخضراء ، وكانت السفن رائحة غادية ، ولا يعقل أن يكون موسى قد ظل جاهلاً بما يفعله حتى وصل هذا إلى طليطلة وما وراءها ، وقد رأينا طارقاً يبعث أبناء غيطشة إلى موسى يستشيره في أمرهم . وإنما المعقول أن يكون موسى قد شعر بأن المسلمين قد استرسلوا أكثر مما ينبغي ، وأن خطوط مواصلاتهم في شبه الجزيرة الواسعة في خطر ، فقد بقيت مدائن الشرق والغرب جميعاً لم تفتح ، وكان لا بد من فتحها وإلا تعرض المسلمون للخطر إذا شاء القوط في أوريولة أو إشبيلية مثلاً السير إلى استجة أو شذونة وفصل الجيش الإسلامي في الشمال عن الحامية الصغيرة التي كانت في قرطبة ، وقطع الجيش والحامية معاً عن موانى الاتصال بإفريقية .

ولو قرأ الإنسان روايات هؤلاء المؤرخين في شيء من الروية لاستبان أن بعض عباراتها يدل على تناقضهم ، فيذهب ابن حيان مثلاً إلى أن موسى « تنكب الجبل الذي حله طارق ، ونزل على الموضع المنسوب إليه المعروف الآن بجبل موسى ، فلما احتل الجزيرة الخضراء قال : ما كنت لأسلك في طريق طارق ولا أقفو أثره ، فقال له العلوج الأدلاء أصحاب يليان : نحن نسلك بك طريقاً هو أشرف من طريقه ، وندلك على مداين هي أعظم خطراً

وأوسع غنماً من مداينه ، لم تفتح بعد ، يفتحها الله عليك إن شاء الله تعالى . فملىء سروراً » . وهذه عبارة إن دلت على شيء فعلى بعد نظر موسى من ناحية ، وعلى شرهه إلى الغنائم من ناحية أخرى ، ولكنها لا تدل على الحسد بحال . فأما بعد النظر فلأنه وقد أقبل مع هذا الجيش الكبير من المسلمين ، لم يكن من الحكمة في شيء السير به في بلاد ومدائن قد فتحت فعلاً ، إنما الحكمة في استخدامه في فتح بلاد لم تفتح بعد . وأما الشره إلى المغانم فظاهر ، لأن موسى قد سره أن يسير به الأدلاء إلى مدن أغنى من مدن طارق وأكثر منها مالاً . وليس للحسد في مثل هذا الموضع مكان ، لأن طارقاً ، مهما كان الحال ، مولاه وتابعه ، وباسمه يفتح ولحسابه يغنم[1] .

لم يذهب موسى للقاء طارق وتأديبه ، وإنما انصرف إلى فتح كبار البلاد الجنوبية والغربية التي خلفها طارق دون فتح ، فلما تم له ذلك سار إليه ولقيه في طلبيرة على مقربة من طليطلة . وقد أطنب بعض المؤرخين في وصف ما وقع بين الرجلين عند هذا اللقاء ، فيذكر ابن عبد الحكم أن موسى شد وثاق طارق « وحبسه وهم بقتله » لولا تدخل مغيث الرومي . وكان طارق قد كتب إليه من محبسه يرجوه أن يسرع بخبر ما وقع له إلى الخليفة الوليد ، فذهب مغيث إلى موسى وحذره أن يسيء إلى طارق ، ثم ذهب مغيث ـ كما سنرى ـ إلى دمشق وأبلغ الوليد الأمر ، فكتب هذا يهدد موسى ويدعوه للمثول بين يديه ، فخاف موسى وأطلق طارقاً ، ثم لم يلبث أن عاد ليؤدي عند الخليفة حساباً عسيراً على ما فعل[2]. ولا نرى إلا تفسيراً واحداً لإنفراد ابن عبد الحكم من بين المراجع الموثوق فيها بهذه الرواية . هو أنها كانت معروفة في المشرق مجهولة عند أهل الأندلس . وأما وجودها في المشرق فمرجعه على أغلب الظن إلى مغيث الرومي ، فقد كان محنقاً على موسى مولعاً بالكيد له ، لأنه كان يرى أنه مولى الوليد وأنه أولى بولاية الأندلس كما سنرى ، فانتهز

(١) ابن حيان عند المقري، ج١، ص ١٧٠ .

(٢) ابن عبد الحكم: فتوح، ص ٢١٠ .

فرصة ذهابه إلى المشرق لإبلاغ الوليد أخبار انتصارات المسلمين ، وأخذ يبالغ في مساءات موسى ويختلق عليه ، حتى لقد أنكر عليه كل فضل في الفتح كما يرى من رواية ابن عبد الحكم الآنفة الذكر ، وانتشرت قالاته بين أهل قصر الخليفة وبين أهل المشرق ، وسجلها المؤرخون المشرقيون الذين يمثلهم ابن عبد الحكم في هذه الناحية .

وأما الأندلسيون ، وهم أحرى بأن يعرفوا مثل هذا الخبر على صحته لأن أخبارهم أخذت عن ناس حضروا بأنفسهم هذه المواقف ، فلا يعرفون إلا أن موسى « وضع السوط على رأس طارق وأنَّبَهُ » كما يقول صاحب الأخبار المجموعة ، وقد كان مستطيعاً أن يقول : إن موسى ضرب طارقاً بالسوط بدلاً من قوله : « وضع السوط على رأسه » فقط .

ثم إن الرجلين لم يلبثا أن تعاونا ، فترك موسى طارقاً على قيادة جيشه وسار كل منهما في اتجاه ، متعاونين متساعدين ، ولو كان ما ذكره عبد الحكم صحيحاً ، لما حدث ما سنراه من اشتراك الرجلين الكامل في العمل . وهذا واضح من قول ابن حيان : « قالوا : ثم إن موسى اصطلح مع طارق ، وأظهر الرضى عنه وأقره على مقدمته ، وأمره بالتقدم أمامه في أصحابه ، وسار موسى خلفه في جيوشه »(١) .

وعندنا أن ابن حيان أصح من ابن عبد الحكم في هذا الموضع ، وهو لم يذكر شيئاً عن ضرب موسى لطارق أو سجنه ، وكل ما يذكره هو أن موسى وبخ طارقاً على مخالفته أمره ، ثم لم يلبث الود أن عاد بينهما ، وظل طارق أوثق رجال موسى وصاحب مقدمته . ولو كان موسى « مغيظاً » على طارق إلى هذا الحد الذي يزعمه ابن عبد الحكم ، فكيف لم يستدعه إليه إلا بعد أن أتم فتح ماردة ، مع أنه ـ أي موسى ـ أقام على هذا الفتح بضعة أشهر ؟ ثم كيف

---

(١) ابن حيان، عند المقري : نفح الطيب، ج١، ص ١٧٢ .

طلب إليه أن يخرج للقائه في طلبيرة فقط وقد كان مستطيعاً استدعاءه إلى أبعد من ذلك ؟

الواقع أن موسى كان يعمل مع طارق من أول نزوله الأندلس ، وأن خروج طارق للقاء موسى عند طلبيرة لم يكن لمجرد اللقاء بل لغرض آخر حربي سنعرفه . وقد أتم الرجلان الفتح معاً على أحسن ما يكون الرجال تعاوناً ، وعادا إلى المشرق فلم نسمع أن طارقاً وقف يشكو موسى بين يدي الخليفة . ولو كانت بينهما هذه الخصومة لسمعنا لها صدى ـ ولو خافتاً ـ في المشرق بعد أن عادا معاً .

وللمقري رواية تؤيدنا في هذا المذهب ، إذ يقول : « . . . ولما سمع موسى بن نصير بما حصل من النصرة لطارق عبر إلى الجزيرة بمن معه ولحق بمولاه طارق فقال له : يا طارق ، لن يجازيك الوليد بن عبد الملك على بلائك بأكثر من أن يبيحك الأندلس ، فاستبحه هنياً مرياً ، فقال له طارق : أيها الأمير ، والله لا أرجع عن قصدي هذا ما لم أنتهِ إلى البحر المحيط . . . »(١) .

كل ذلك يحملنا على الظن بأن الرواية التي تصور القائدين المسلمين العظيمين متعادين إنما مرجعها إلى مغيث الرومي ، وللمقري عبارة تؤيدنا في هذا أيضاً ، فهو يقول من غير سند ظاهر : « ولما قفل موسى بن نصير إلى المشرق وأصحابه ، سأل مغيثاً أن يسلم إليه العلج صاحب قرطبة الذي كان في أسره ، فامتنع عليه وقال : لا يؤديه للخليفة سواي ، **وكان يدل بولائه من الوليد** ، وهجم عليه موسى فانتزعه منه ، فقيل له : إن سرت به حياً ادعاه مغيث ، والعلج لا ينكر قوله ، ولكن اضرب عنقه ، ففعل . فاضطغنها عليه مغيث ، وصار إلباً مع طارق الساعي عليه » . مما يفهم منه أن الخلاف كان واقعاً بين موسى ومغيث ، وأن مغيثاً كان يضطغن على موسى ويتربص به

(١) نفح الطيب، ج١، ص١٥١.

واقرأ عبارة ابن حيان، نفس المصدر، ج١، ص١٧٠.

الدوائر ، وأنه كان يدل بولائه من الخليفة ، يظن أن هذا يجعله في موضع ممتاز . ولما كان موسى بطبعه رجلاً فخوراً مزهواً بنفسه وبمكانه من عبد العزيز ابن مروان ومن يزيد بن المهلب ، فإنه من الطبيعي ألا يرضى عن مغيث وأن تقع الجفوة بينهما . ولم يحدثنا المؤرخون بما قال مغيث للخليفة في زيارته الأولى ، ولكنهم يقولون إنه حينما عاد مع طارق وموسى بعد الفراغ من الفتح « سبق إليه ـ أي إلى سليمان بن عبد الملك ـ طارق ومغيث بالشكية منه ورمياه بالخيانة ، وأخبراه بما صنع بهما من خبر المائدة والعلج صاحب قرطبة ، وقالا له إنه قد غل جوهراً عظيم القدر أصابه لم تحو الملوك من بعد فتح فارس مثله ، فلما وافى سليمان وجده ضغيناً عليه . . . »[1] .

ومما يؤيدنا في ذلك الرأي أيضاً أن مغيثاً هذا ـ الذي يزعم أنه ذهب منتصفاً لطارق ـ لم يكد يسمع أن الخليفة يريد تعيين طارق عاملاً على الأندلس بعد موسى حتى مضى يخوفه منه ويصده عن إنفاذ هذا الغرض ، لأنه كان يطمع لنفسه في ذلك في الغالب . ويبدو كذلك أن الخليفة استبان كذب حديثه فلم يعطه الولاية التي رجا ، فعاد إلى الأندلس كما خرج منها ، بل ترك سليمان بن عبد الملك الأندلس في يد عبد العزيز بن موسى[2] .

ولا شك في أن يليان كان على اتصال دائم بموسى ، وأنه تلقاه في الأندلس وسار معه كما سار مع طارق ، ولا نزاع كذلك في أن يليان هو صاحب الفضل فيما يبدو من تكامل فتوح طارق وموسى ، فإن الإنسان إذا نظر إلى فتوح هذا وفتوح ذاك حسب أنها دبرت جميعاً بإحكام من أول الأمر .

---

(١) المقري: نفح الطيب، ج١، ص ١٧٧.

(٢) انظر: و ابن عبد الحكم، ص ٢١٠.
الأخبار المجموعة، ص ١٩.
ابن عذارى: ص ١٨.
وهو يروي قصة موسى أول الأمر برواية يتفق فيها مع غيره من الأندلسيين ثم يقول: وقيل إنه ضربه أسواطاً كثيرة. . . إلخ، مما يدل على أنه يشك في هذه الرواية.

والحقيقة أن يليان وأصحابه تولوا إرشاد موسى إلى خير الطرق التي يستطيع بها إكمال ما بدأ به مولاه ، وبهذا تكامل العملان وتم بهما إخضاع شبه الجزيرة الإيبيرية على أحسن وجه .

ويبدو كذلك أن موسى إنما عبر إلى الأندلس بناء على استغاثة وجهها إليه طارق ، ولا ينبئنا عن هذه الاستغاثة إلا صاحب « الإمامة والسياسة »[1] ، ولكننا نقبلها لأنها تفسر لنا السبب في عبور موسى في ذلك الوقت بالذات . ولو كان موسى قد عبر مع عدد قليل من الجند لقلنا إنه عبر من تلقاء نفسه لكي يرى نتيجة ما وصل إليه قائده طارق ، ولكنه عبر في جيش تزيد عدته على جيش طارق بكثير ، وتخير الأجناد الذين صاحبوه تخير المقبل على عمل خطير .

والواقع أن الظروف كلها كانت تحتم إسراعه وتجعلنا أميل إلى قبول رواية ابن قتيبة في استغاثة طارق بموسى ، فقد كان المسلمون قد ساروا في البلاد شوطاً بعيداً دون أن يستوثقوا من سلامة خطوط مواصلاتهم بالجزيرة الخضراء وإفريقية ، ولم يكن بيدهم من المعاقل الكبيرة إلا قرطبة ، وكانت طوائف من القوط مفرقة في البلاد تستطيع أن تنقض على جماعات العرب القليلة المفرقة على طول الخط الطويل من جبل طارق إلى طليطلة وما يليها .

وكان يليان يقيم معظم الوقت بالجزيرة الخضراء يؤمن ظهور المسلمين ، وكان قد فرق كثيراً من جنوده مع المسلمين في كل ناحية ، وأحس في مقامه هذا أن القوط يتجمعون ويدبرون شيئاً ، وشعر بحاجته وحاجة المسلمين إلى عون جديد وإلا ساءت العاقبة[1] . ويبدو أنه أفضى إلى طارق بشيء من هذا ، لأن الرازي يذكر أن طارقاً رجاه أن يكتب إلى موسى ليعجل

---

(١) «قال: وكتب طارق إلى مولاه موسى: إن الأمم قد تداعت علينا من كل ناحية، فالغوث الغوث!».
ابن قتيبة: الإمامة والسياسة، ج٢، ص ١١٨.

(١) SAAVDRA. *Op. cit.* p.92.

العبور[١] . ويؤيدنا في ذلك الظن ما يذكره الرازي من أن طارقاً أقام ـ بعد عودته من سيره إلى مدينة المائدة ـ في طليطلة لا يكاد يصنع شيئاً[٢] ، ولو قد وجد عند نفسه من القوة ما يعينه على فعل شيء لفعل ، ولكن من معه من الجند كانوا قد أجهدوا إجهاداً عظيماً ، وكانت المقاومة في نواحي البلاد قد بدأت ترفع رأسها ، ففضل المقام حيث هو ، وكتب إلى موسى يستغيث به .

وحينما وطئت قدم موسى الأندلس خف يليان للقائه خفوف المنتظر المترقب ، وعقد معه مجلساً للتشاور في الأمر[٣] . فلو لم تكن الأحوال مضطربة مخوفة لما كانت هناك حاجة إلى المجلس والمشاورة ، ولسار موسى إلى طليطلة قدماً ليلقى طارقاً وليحاسبه على ما فعل ، كما تذهب المراجع . ويدلنا خط سير موسى واتجاهه إلى إشبيلية على أن يليان قد نبهه إلى خطورة ترك هذا المعقل الخطر في أظهر المسلمين دون فتح .

عبر موسى إلى الأندلس في رمضان سنة ٩٣ هـ ـ يونيو ٧١٢ م ، واستصحب معه ثمانية عشر ألفاً من خيرة جنده ، جلهم من العرب وفيهم عدد عظيم من القيسية واليمنية ومعهم أتباعهم ومواليهم ، وكان فيهم كذلك عدد طيب من التابعين وكبار العرب جعلهم موسى في فرقة واحدة عليها محمد ابن أوس[٤] . وكان هؤلاء العرب الذين ذهبوا مع موسى هم الجماعة الكبيرة

---

(١) يقول الرازي في النسخة الإسبانية:

"et embio luego a rogar a Don Juliano que le diese pasaje..."

Cf : GAYANGOS. *La Cronica del Moro Rasis*, n.7.

(٢) يقول الرازي:

"... oyo decir que folgaba en Toledo et que non se trabajaba a otra cosa..."

Cf: GAYANGOS. *Op. cit.* n.8.

(٣) الإدريسي: نزهة المشتاق، ص ٢١٣ من ترجمة دوزي.

(٤) انظر: الضبي: بغية الملتمس، ص ٥١ المقري: نفح الطيب، ج١، ص١٧٦ـ١٧٧.

وقد تحدث الرازي عن هؤلاء التابعين في شيء من الإفاضة، وذكر أنه دخلها صحابي واحد هو المنيذر الإفريقي، سمي الإفريقي لأنه سكن إفريقية. =

الأولى من مهاجري العرب إلى الأندلس ، يعرفون عند المؤرخين بطالعة موسى ، وستكون لهم الصدارة بين مسلمي الأندلس زمناً طويلاً ، وسيكون لهم أثر عظيم حاسم في سير الأمور .

ولم تصل هذه الآلاف الكثيرة إلى الأندلس دفعة واحدة ، بل كان موسى قد قسمهم فرقاً بحسب قبائلهم وأصولهم ومراتبهم ، وكان لكل جماعة راية . فلما عبر انتظرهم في مكان على مقربة من الجزيرة الخضراء ابتنى فيه مسجداً ، وأخذت الرايات تفد عليه في ذلك الموضع ، فعرف الموضع والمسجد بمسجد الرايات ، وظلا عامرين قروناً طويلة .

نزل موسى في الجزيرة الخضراء عند موضع قريب من جبل طارق سمي مرسى موسى ، ثم عجل بالسير إلى شذونة (Medina Sidonia) ومنها سار إلى قرمونة ورعواق (Alcalá Guadaira)[(١)] فاستولى عليهما ، وبهذا أمنت خطوط مواصلات المسلمين من الجزيرة الخضراء إلى قرطبة ، إذ أصبحت سلسلة مدائن الجزيرة وشذونة ورعواق وقرمونة وأستجة وقرطبة في يد المسلمين ، وأصبح في إمكان موسى أن يتجه نحو الغرب ليفتح إشبيلية كبيرة

= أما التابعون فهم : موسى بن نصير، وعلي بن رباح التميمي، وحيوة بن رجاء التميمي . وقيل إن رابعهم هو حنش بن عبدالله الصنعاني (صنعاء الشام).

وقد قفل هؤلاء من الأندلس بقفول موسى، إلا أن أهل سرقسطة يزعمون أن حنشاً مات عندهم ولم يقفل إلى المشرق، وقبره لديهم مشهور يتبركون به. ويضيف إليهم بعضهم خامساً هو: عبد الرحمن الحُبُليّ واسمه عبدالله بن يزيد، وسادساً : هو حيان بن أبي جبلة مولى بني عبد الدار، وكان في ديوان مصر، فبعثه عمر بن عبد العزيز إلى إفريقية في جماعة من الفقهاء ليفقهوا أهلها، وغزا مع موسى حين افتتح الأندلس، ويلي ذلك تفصيل طيب عن هؤلاء التابعين.

الرازي، عند المقري، ج١، ص١٧٦.

وانظر عن هذا الموضوع أيضاً أقوال ابن بشكوال وابن سعيد وابن حبيب والحجاري في : المقري : نفح الطيب، ج١، ص١٨٢ـ ١٨٣.

(١) ورد اسم هذه المدينة في المراجع العربية بصيغ مختلفة : رعوان، زعواق، ورعواق، وقد اثبت لافونت ألكانترا أن الرسم الصحيح لهذه التسمية العربيّة هو رعواق، وأنها هي قلعة جواديرا (Alcala de Guadaira)، انظر : LAFUENTE ALCANTARA. *Ajbar Machmua*, indice geografico, p. 256. ولم يرد ذكر فتح قرمونة قبل إشبيلية إلا في نفح الطيب رواية عن ابن حيان وفي الأخبار =

مدائن شبه الجزيرة بعد طليطلة إذ ذاك.

٢٣ ـ فتح إشبيلية

سقطت إشبيلية في يد المسلمين بعد بضعة أشهر من الحصار والقتال، ويبدو أن أهل البلد ومن فيها من اليهود سارعوا بفتح الأبواب حينما طال القتال واشتد، وأما الحامية القوطية فانسحبت إلى لَبْلة على مصب وادي آنة ومنها إلى أكشونبة (Sta.Maria de Faro=Ossonoba) ثم إلى باجة، وهناك راحت تنتظر الحوادث. وترك موسى في البلدة حامية قليلة معظمها من البربر واليهود، ثم سار قاصداً ماردة متتبعاً طريقاً رومانياً قديماً كان يصل البلدتين، واستولى في الطريق على بلد يسمى لَقَنت[١] سلم له أهله دون مقاومة فسموا لذلك «موالي موسى»[٢].

٢٤ ـ فتح ماردة

فلما أدرك موسى ماردة وجدها أحصن وأقوى مما ظنها، فقد كان أنصار لذريق والهاربون من فلول القوط قد تجمعوا فيها لأنها بلد بعيد صعب المنال وعر المسالك. فأقام موسى محاصراً البلد بقية الصيف والشتاء التالي، ولم يسلم البلد إلا في الثلاثين من يونيو ٧١٣ م (١ شوال سنة ٩٤ هـ) بعد قتالٍ طويل هلك فيه نفرٌ كبير من حامية البلدة بسبب كمائن أخفاها موسى

= المجموعة، وقد كادت تستعصي على موسى لولا أنه لجأ إلى حيلة نصحه بها من معه من الأدلاء من أنصار يليان، إذ تسربوا إلى داخل البلد في هيئة المستأمنين، ثم غافلوا أهل البلد وفتحوا أبوابه للمسلمين.

انظر: ابن حيان عند المقري، ج١، ص ١٧.

الأخبار المجموعة، ص ١٦.

(١) قال ابن القوطية: «ثم قصد من إشبيلية إلى لقنت إلى الموضع المعروف بفج موسى في أول لقنت إلى ماردة» ـ افتتاح الأندلس، ص ٩.

ولا يعقل أن تكون لقنت هذه هي لقنت المعروفة في جنوب الشاطىء الغربي لشبه الجزيرة. وقد قرأها سافدرا لَقَنْتُ أو لاكانتوس وقرر أنها عين كانتوس (Fuente de Cantos)

Cf: SAAVEDRA. *Op. cit.* p. 94 et note 2.

(٢) فتح الأندلس: ص ١١، وانظر تعليق JOAQUIN DE GONZALEZ بخصوص هذه العبارة، ص ٩٣ من الترجمة.

في مقاطع الصخر أمام مخارج البلد، وقد هلك أثناء محاولات نقب السور نفرٌ من المسلمين سقطت عليهم دبابة كانوا قد اختفوا تحتها لينقبوا طبقة من السور مبنية من شيء يشبه الأسمنت الصلب كان يسمى (Argamasa)[(1)]. ولم يسلم أهل البلد إلا بعد أن عاهدهم موسى على أن «جميع أموال القتلى يوم الكمين وأموال الهاربين إلى جليقية للمسلمين، وأموال الكنائس وحليها لها»، وهي شروط سيكون لها أثر في تحديد العلاقة بين المسلمين والأهالي فيما بعد[(2)].

يذهب ساڤدرا إلى أن فتح المسلمين لإسبانيا دخل في دور جديد أثناء فتح موسى لماردة، «لأن حراسة الحصون لم يعد يعهد فيها إلى اليهود، ولم يعد أهل البلد يفتحونها من الداخل للمسلمين، ولم يعد المسلمون يبغتون البلاد ويأخذونها من حكامها فجأة، وتلك كلها دلائل على أن لوناً من القطيعة قد وقع بين الأهالي والمشارقة. أما سبب هذا التغيير، فهو أن موسى - في مسيره من الجزيرة الخضراء إلى ماردة - رأى بعينه سوء حال الشعب (الإسباني) ورأى كذلك أن الملك لم يكن قادراً على جمع جيش محترم، وأن مجلس الشيوخ لم يكن ليستطيع الاجتماع للتشاور في الأمر، وأن أنصار غيطشة لم يكن يؤيدهم إلا نفر لا يملكون عدة للحرب أو قدرة على إدارة الحكومة. هنا بدأت فكرة «ضم» الأندلس تدور في رأسه، بدأ يفكر في تملك ما فتحه»[(1)].

---

(١) أورد ابن حيان هذا اللفظ بنصه محرفاً فكتبه «الاشة ماشة».

ابن حيان، عند المقري: نفح الطيب، ج١، ص ١٧٠.

(٢) وردت هذه العبارة الهامة عن ذلك الاتفاق في الأخبار المجموعة ونفح الطيب للمقري، ومن ذلك قصة المسلمين الذين استشهدوا تحت الدبابة التي كانوا يختبئون تحتها لنقب سور البلد، وذكرا أن هذا الموضع يسمى إلى وقتها «برج الشهداء» لهذا السبب، وهي ملاحظة هامة. ويذكران كذلك حيلة موسى مع أهل ماردة وتلوينه شعره من أبيض إلى أحمر إلى أسود إرهاباً لهم، وهي قصة مستبعدة الحدوث.

انظر: الأخبار المجموعة، ص ١٨.

ابن حيان، في نفح الطيب المقري، ج١، ص ١٧١.

(١) SAAVEDRA, *Op. cit.* P. 96.

أي أن المسلمين قد قاموا بما قاموا به في الأندلس حتى الساعة وهم يشعرون أنهم يقومون بغارة يعودون إلى بلادهم بعدها، حتى إذا استبان موسى ذلك كله في مسيره من الجزيرة إلى ماردة غيّر رأيه، وأخذ يعمل على الفتح الثابت الدائم، أي على ضم الأندلس إلى دولة الخلافة، وأن هذا التفكير غيّر نفوس أهل البلاد ـ الذين كانوا يؤازرون المسلمين إلى هذه الساعة على اعتبار أنهم مغيرون يطلبون المغانم لا غير، أو حلفاء يريدون القضاء على دولة الطاغية لذريق ورد الأمر لأهله ـ فلم يعودوا يؤازرونهم ولم يعودوا يفتحون لهم أبواب المدن ويدلونهم على ثغرات أسوارها وينقضون معهم على حكام القوط، بل بدأوا يعادونهم ويقفون منهم موقفهم من أي فاتحٍ معتدٍ يريد ببلادهم سوءاً.

وليس في سياق الحوادث ما يؤيد ساقدرا في هذا الزعم، لأن الواقع الذي لا شك فيه هو أن المسلمين نزلوا الأندلس من أول الأمر على نية الفتح الثابت الدائم، وأن طارقاً كان يسير في البلاد ليدخلها في حوزة الإسلام، لا ليغنم منها ثم يعود، ولا ليعين فريقاً من أهلها على فريق. ولا يستبعد أن يكون نفر من الإسبان وأنصار غيطشة ممن ساعدوا المسلمين من أول الأمر قد انتبهوا ـ بعد فوات الوقت كما رأينا ـ إلى أن المسلمين يفتحون البلاد لضمها إلى دولة الخلافة، لا لاقتسام غنائم الفتح معهم، فأخذوا يأسفون بعد فوات الفرصة على ما كان منهم، لأن إيزودور الباجي يقول في هذه المناسبة:

... pace fraudifica male diverberans (n, 36, v. 864)... pacem nonnullae civitates... iam coactae proclamitant, atque suadendo et irridendo astu quodam fallit[1].

ويؤيد ساقدرا رأيه هذا بما حدث بعد فتح ماردة من أن « عجم أهل

---

(1) ISODORO PACENSE. *Cronicon §36 apud* LAFUENTE ALCANTARA, *Ajbar Machmua, apendice pp. 147- 148.*

وقد أيد ساقدرا رأيه هذا بفقرتين: الأولى من «مدونة البلدة» *(Cronicon Albeldense)* يقول فيها: «ثم ثارت بين القوط والعرب بصورة مستمرة حروب استمرت سبع سنوات» (نفس المصدر ص ١٦٣) والثانية عن تاريخ راهب سيلوس (Cronicon Silense) فقرة ١٧.

إشبيلية تحيلوا على من بها من المسلمين ، وجاؤوا من مدينة يُقال لها لبلة ومدينة يُقال لها باجة ، فقتلوا من بها من المسلمين ، قتل فيها ثمانون رجلاً ، فقدم فلهم على موسى بن نصير بماردة ، فلما فتح ماردة بعث ابنه عبد العزيز على جيش إلى إشبيلية فافتتحها ورجع »[1] . حقيقة أن هذا هو أول انقلاب من أهل البلاد على المسلمين ، ولكن ، من أين استدل ساقدرا على أن الذين قاموا بهذا العمل كانوا من الإسبان ولم يكونوا من فلول القوط المنهزمة التي كانت تتجمع في نواحي الغرب ، وأن هؤلاء إنما جرؤوا على الانقضاض على من بإشبيلية من المسلمين حينما استبانت لهم قلة عددهم وابتعاد إخوانهم المسلمين عنهم؟

نظن أن هذا الفرض الأخير أقرب إلى الصحة ، لأن عبارة ابن حيان وصاحب الأخبار المجموعة تدل على أن الذين غدروا بالمسلمين لم يكونوا من أهل إشبيلية أو لبلة أو باجة ، فلو أن هذا هو الذي حدث لذكر المؤرخان أن أهل لبلة وباجة ثاروا أيضاً ، إذ لا يعقل أن يسيروا إلى إشبيلية للاشتراك في ثورتها وهم أنفسهم خاضعون ، ثم إن عبد العزيز بن موسى لم يعاقب أهل البلد بعد أن أخمد الثورة ، وتركهم على حالهم وأقام معهم فيها ، ولو كان لهم ضلع في الحادث لرأينا لذلك أثراً في معاملته لهم . ولا يستقيم الأمر إلا إذا فرضنا أن الذين فعلوا ذلك هم نفرٌ من القوط ، من حاميات البلاد التي فرت منها عند اقتراب المسلمين وعادت إليها بعد ذهاب الجيش الإسلامي عنها ، تحاول استعادتها أو الانتقام من المسلمين .

فلما فرغ عبد العزيز من أمر الثائرين في إشبيلية سار إلى لبلة وباجة[2]، وربما إلى أكشونبة، ليطرد منها من عسى أن يكون قد تجمع بها من القوط، ثم ترك في هذه البلاد جميعاً حاميات إسلامية لتؤمنها من أي تدبير يقوم به القوط. ويدلنا نص من المقري على أن حامية باجة كانت قوية، وأن قائدها كان قائداً

---

(١) الأخبار المجموعة، ص ١٨ .

(٢) ابن عذارى: البيان، ج٢، ص١٧ .

عربياً معروفاً، هـو عبد الجبـار قائـد ميسرة موسى وجـد بني زهرة أحـد بيوت إشبيلية التي سيكون لها شأن[1].

وأقام موسى شهراً في ماردة يرتب أمورها ويريـح جنده بعـد هذا العنـاء الذي تكلفوه في فتح هذا البلد، ومن الواضح أنه أحس أن عناصر المقاومة في هذه الناحية كانت أقوى ما لقي المسلمون في بلاد الأندلس إلى الآن، وأنه عرف أن فلول القوط ـ وأنصار لذريق خاصة ـ كانوا يتجمعون في هذه النواحي الجبلية الوعرة ظنـاً منهم أن المسلمين لن يصلوا إليهـا، واستعداداً للهـرب إلى نواحي قشتـالة واسـترامادورة إذا مـا وطئت أقدام المسلمـين هذه النـواحي من غـرب الأندلس، لأن سير الفتح الإسلامي سيبطؤ وسيصطدم بعقبات في هذه الناحية بعد أن كان يسير سيراً ذلولاً دون عقبة ظاهرة. وقد رأينا القوط في إشبيلية ولبلة وباجة كيف «تجالَب فَلُّهم» من هذه النواحي كما يقول ابن عذاري، ولاحظنا أن فتح ماردة كلف موسى من أمره عسراً، وأنه لم يفتحها إلا بحيلة، وأن المسلمين خسروا فيها خسائر لم يخسروها في قرطبة أو إشبيلية أو حتى طليطلة، وعلة ذلك أن فلول القوط كانت تتجمع في هذه النواحي الوعرة من كل جانب.

فإذا صح ذلك ، كان سير طارق للقاء موسى بعـد فراغ هـذا الأخير من فتح ماردة أمراً معقولاً ، لأن الإنسان يتسـاءل : ما الذي أخر طارق عن الخروج للقاء موسى حتى هذه اللحظة ، مع أن موسى كان في أشد الحـاجة إلى العـون أثناء حصار ماردة وكفاحه أهلها .

ولا يفسر هذا إلا بأن موسى رأى أن مقام طـارق بطليـطلة يؤمنه من عمـل يقـوم بها قـوطُها ، فلما فـرغ من أمر مـاردة وأراد السـير نحـو طليـطلة أحس أن الطريق طويل محفوف بالمخاوف ، لأن فلول القوط كانت «تتجـالـب » وتتجمع في هذه النواحي . فلما وجدت موسى يأخذ في الطريق رأت الفـرصة سـانحة لاعتراضه ومنازلته في معركة خطيرة الشأن كما سنرى . وهذا هـو السبب الذي حفز طارقاً إلى المسير للقائه . ولا يعلل سكوت طارق عن الذهاب إلى مـولاه

---

(١) المقري: نفح الطيب. ترجمة جايانجوس، ج٢، ص١١.

طيلة أشهر الشتاء رغم وجوده على مقربة منه ، إلا بأن موسى نفسه لم يطلب إليه المجيء إلا في هذه اللحظة ، حينما أحس ببعض ما كان يدبر حوله في هذه النواحي الفسيحة المجهولة للمسلمين .

والواقع أن حركة كبيرة كانت تدور حول جيوش المسلمين الغازية بين وادي آنة ونهر التاجة في ذلك الحين ، فقد كان لذريق قد تراجع بمن بقي له من فلوله وتحصن بهم في شعاب الهضبة ، مما يلي وادي آنة إلى الشمال في جبال سْيرّا دِفرانثيا على أبواب قشتالة الجديدة وأسترامادورة في السهل الفسيح الذي يحيط بسلمنقة ، ولبثوا هناك يتحينون الفرصة للانقضاض على جيوش المسلمين . ولم يكن موسى ليستطيع السير من ماردة إلى طليطلة وهؤلاء في ظهره ، بل كان لا بد له من القضاء عليهم ، ولهذا استدعى طارقاً ليلقاه في منتصف الطريق بين ماردة وطليطلة ، فسار طارق نحو مائة وخمسين ميلاً وانتظر مولاه في وادي الأرّوكامبو (Arrocampo) في مكان يسمى المعرض (Almaraz) بين التاجة ونهر التيتار[١] .

وأما موسى فقد سار في طريق روماني قديم يصل ماردة وسلمنقة بحذاء نهير سيحمل من ذلك الحين اسمه، وهو ڤالموثا (Valmiza) أي نهر موسى[٢]. وظن لذريق وأصحابه أن الفرصة سنحت في المسلمين لتوسطهم هذا

---

(١) يقول بهذا الرأي ساڤدرا وتؤيده به أقوال كثيرة لمؤرخين إسبان ونفر قليل من مؤرخي المسلمين، وهو في الواقع أقرب الآراء إلى الصحة في صدد نهاية لذريق. فإن المسلمين لم يقتلوه في واقعة وادي لكة، وتكتفي المراجع بالقول بأنه اختفى أو غرق، وسيرى القارىء في سياق الحديث أن هذا الرأي يصحح الوقائع أكثر مما يصححها القول بموته أو اختفائه من ميدان التاريخ عقب لقائه المسلمين أول مرة.

SAAVEDRA. *Op. Cit.* pp. 98. sqq.

(٢) وتعيين اتجاه موسى على هذا النحو يعيننا على تحديد المكان الذي التقى فيه بطارق على وجه التقريب، والمراجع العربية مختلفة حول هذه النقطة أشد الاختلاف، فابن عذارى مثلاً يقول: «اتفق الأكثرون على أن التقاءهما كان على طليطلة، وذكر الطبري أنه كان على قرطبة، وذكر الرازي أن طارقاً خرج من طليطلة لما بلغه مسير موسى إليه، فلقيه بمقربة من طليبرة. . .» وإشارة الرازي تدل على أن اللقاء تم على مقربة من هذ البلد الأخير. وقد ذكر صاحب الأخبار المجموعة على أن اللقاء وقع في =

الطريق الطويل وبُعدهم عن أي مركز يستطيعون طلب المعونة منه، وانقضوا على جيش موسى في ناحية يسميها بعض مؤرخي المسلمين «السواقي» وهي (Segoyuela de los Cornejos) على مقربة من تمامِس (Tamames)(١)، فانقض عليهم المسلمون وثبتوا لهم حتى أفنوهم عن آخرهم، وقتل لذريق نفسه، قتله مروان بن موسى بن نصير، فشهدت هذه البقعة مصرع آخر ملوك القوط، وقد حمل أتباعه رفاته بعد ذلك ودفنوها في فيزيو، وظل قبره هناك معروفاً حتى زمان ألفونسو الكبير، فقد ورد في حوليات هذا الملك أنه رأى قبر لذريق وقرأ عليه

= ناحية يرسمها «ناند» من غير نقط، ويمكن قراءتها تايد أو تايتر اعتماداً على عبارة أوردها ردريجو أسقف رادا في تاريخه : iuxta rivum qui Teitar dicitur

ولما كانت بعض المراجع الإفرنجية تقول بأن اللقاء وقع عند ناحية تسمى Almaraz ـ وهو لفظ عربي الأصل يرجح أن أصله «المعرض»، وهو مكان على مقربة من طلبيرة على نهر التيتار ـ فإننا نستطيع القول بأن اللقاء بين القائدين المسلمين الكبيرين وقع هناك.

ابن عذارى: البيان، ج٢، ص ١٧.

الأخبار المجموعة، ص١٨.

RODERICUS TOLITANUS. *De rebus Hispaniae,* I, III, cap. XXIV

Cf : SAAVEDRA. *oP. CIT.* P. 98.

(١) لم يذكر هذه الوقعة من المؤرخين المسلمين إلا الرازي (في الترجمة الإسبانية) وفتح الأندلس المجهول المؤلف، وقد ذكر هذا المرجع الأخير أن الموضع الذي وقع فيه اللقاء الأخير يسمى «السواني» في نسخة و«السواقي» في نسخة أخرى، وأما الرازي فيسمي هذه الوقعة La batalla de Saguyue، وهو لفظ قريب جداً من لفظ السواقي. أما مقتل لذريق على يد مروان ابن موسى فلم يذكره إلا ابن قتيبة في الإمامة والسياسة. انظر:

Fragmentos ineditos de la cronica llamada del MORO RASIS, apud SAAVEDRA *Op. cit.* apendice 145 sqq.

فتح الأندلس، ص ٨.

ابن قتيبة: الإمامة والسياسة، ج٢، ص٧٦

ولا شك في أن تسمية الرازي لهذا الموضع بـ Saguyue كانت الأصل الذي أخذ عنه المؤرخون الإسبان وقصاصهم اسم هذا الموضع، فقد كتب «فرناندو جنزالز» في قصيدته الطويلة عن لذريق Sangonera وكتبه «ردريجو كارو» سانجويلا.

C.f: FERNANDO GONZALEZ, *El Ultima Rey Godo,* Copla 79.

RODRIGO CARO, *Antiguedades y principado de Sevilla, f., 122 v.*

SAAVEDRA. Op. cit. pp 100 sq.

الوحة تقول: هنا يرقد لذريق ملك القوط.

(Hic requiescit Rudericus rex gothorum)

ومن الغريب أن هذه الواقعة التي أهملها المؤرخون إهمالاً شبه تام كانت الأساس التي دارت حوله الملاحم الإسبانية التي نشأت فيها بعد حول لذريق آخر ملوك القوط ودفاعه عن بلاده .

ويبدو أن اشتباك المسلمين مع القوط في هذه الواقعة الحاسمة الأخيرة قد شجع نفراً من بقايا القوط وأنصارهم في طليطلة على نقض طاعة المسلمين ، فانتهزوا فرصة خروج طارق وجنده منها ووثبوا بها ، فاضطر موسى إلى فتحها من جديد ودخولها دخول الظافر[1] . ويذهب المؤرخ الإسباني مودستو لافونتي إلى أن أفراد حزب غيطشة كانوا يؤملون ـ بعد مقتل لذريق ـ أن يقيمهم المسلمون ملوكاً على البلاد ، ولكن موسى خيب ظنونهم حينها أعلن بعد دخوله مباشرة أن البلاد كلها لخليفة المسلمين في دمشق ، ولم يجد أبناء غيطشة بداً من الرضوخ للأمر الواقع ، فسكنوا قانعين بما منحهم موسى من أملاك أبيهم وما شرفهم به من عظيم المكانة[2] . فاستقر أخيلا (وَقِلة) في طليطلة وعاش آمناً في ظلال المسلمين ،وخلفه ابنه أَلْبَرُو (ألفارو) ثم حفيده حفص الذي أصبح فيما بعد قاضياً للنصارى . وأما أرطباس فقد استقر في قرطبة مكرماً معززاً وأصبح له بين المسلمين مكان مرعي، واحتفظ بلقب «قومس» وورثه عنه ابنه أبو سعيد . وأما أَلْمُنْذُ فقد اختار المقام في إشبيلية وأنجب ابنة هي سارة، عاشت كريمة حتى أيام عبد الرحمن الداخل وابنه هشام، وابنين هاجر أحدهما إلى الشمال وبقي أحدهما في بلاد المسلمين ليحظى بمكان رفيع وليصبح أسقف المستعربين جميعاً فيما بعد. وكافأ موسى أبة (Oppas) أخا غيطشة ـ الذي طالما ساعد المسلمين وأعانهم ـ بتعيينه أسقفاً لطليطلة ، والظاهر أن جمهور النصارى لم يرض عن هذا التعيين

---

(١) فتح الأندلس، ص ١٢.

(٢) MODESTO LAFUENTE. *Historia general de Espana,* II, 429.

لأن إسبانياً آخر هو «أوربانو» لم يلبث أن خلفه في هذا المنصب الكبير سنة ٧١٩ م(١).

٢٥ ـ أول عملة إسلامية في الأندلس

ولم يكد موسى يستقر في طليطلة حتى سارع بضرب عملة ذهبية ليدفع منها رواتب الجند الذين كانوا معه، ولسنا نعلل ضرب موسى لهذه العملة الذهبية ـ التي كانت في ذلك الحين من حق الخليفة وحده ـ إلا بأن الخليفة كان قد خوله هذا الحق في إفريقية فأباحه لنفسه في الأندلس، لأنها كانت معتبرة في نظره أرضاً مفتوحة تابعة لإفريقية، وكان المسلمون يتعاملون خلال هذه الفترة القصيرة في إسبانيا بالعملة الإفريقية التي ضربها موسى قبل ذلك سنة ٩٠ هـ . وقد رسمت هذه الدنانير الذهبية الجديدة على هيئة العملة الإفريقية : كانت لاتينية عربية، ففي ناحية منها كتب «محمد رسول الله» يحيط به النص التالي باللاتينية على هيئة دائرة :

In nomine Domini, non Deus nisi Deus. Solus Sapiens. non Deo similis Alius.

وفي الناحية الثانية نجمة ذات ثمان أذرع كتب حولها باللاتينية : Solidus feritus in Spania

ويلي ذلك تاريخ سكها وهو سنة ٩٧ هـ (٢) .

وضرب موسى كذلك عملة برونزية صغيرة لاتينية الكتابة . ثم بعث موسى برسولين إلى الخليفة الوليد ينهيان إليه أخبار هذا الفتح العظيم ، ووقع اختياره على التابعي علي بن رباح ، وكان رجلاً صالحاً في نحو الثمانين من عمره ، ومغيث الرومي فاتح قرطبة . ويبدو أن مغيثاً كان حانقاً على موسى لشيء في نفسه ، أو لأنه ساءه أن ينسب فضل الفتح كله إلى نفسه مغفلاً بيان ما

---

(١) ابن القوطية: افتتاح، ص ٤ـ ٥ .

DOZY. *Recherches,* I, p. 79.

(٢) *El cronicon Silense,* n. 20

SAAVEDRA. *Op. cit.* pp. 104- 105.

SAAVEDRA. *oP. cit.* pp,. 106- 107.

LEVI- PROVENÇAL. *Hist. De l,Esp. Mus. pp. 20- 21.*

والمراجع المذكورة هناك.

قام به هو وما قام به طارق ، فلم يألُ جهداً في تنقص موسى وتشويه سمعته ، فكان لكلامه أسوأ الأثر على مصير موسى فيما بعد[1].

٢٦ ـ السير نحو الشمال

فلما اطمأن موسى إلى هدوء ما بيده من البلاد أخذ يستعد للسير نحو الشمال لإكمال فتح شبه الجزيرة ، ويذهب المؤرخون إلى أن نيته انعقدت إذ ذاك على التصعيد واختراق جبال ألبرت وغالة وأوروبا كلها ليصل إلى القسطنطينية من الغرب[2] . وليس لدينا دليل واحد نستطيع أن نؤيد هذه الأقوال ، ونستبعد أن يكون موسى قد فكر في أمر خيالي عسير التحقيق كهذا . وكل الذي نعرفه أن موسى جمع أجناده حينما انقضى الشتاء وسار بهم في اتجاه الشمال الشرقي ليفتح حوض الإبرو وما فيه من مدائن . وكان معه طارق وجماعة من كبار جنده ، وتقدم الجند محمد بن إلياس المغيلي أحد قادة البربر مع طائفة قليلة استولت على وادي الحجارة دون كبير جهد[3] .

ويبدو أن ما لقيه المسلمون من الشدة عند ماردة والسواقي ، وما دهمهم

(١) المقري : نفح الطيب، ج١، ص ١٩٤ـ ١٩٥ .
ويسهب ابن عبد الحكم ـ على غير عادته ـ في تفصيل ما فعل موسى بطارق، وما فعله مغيث من عون طارق والإسراع إلى الخليفة لإنقاذه. ولسنا نفهم سبباً لهذا الإسهاب إلا أن تكون أخبار كهذه قد شاعت وتداولها الناس في المشرق، ولما كان مغيث هو الوحيد الذي أتيح له الحديث إلى الخليفة، فلا يستبعد أن يكون صاحب هذه الشائعات. ورواية المقري تؤيدنا في هذا.

(٢) يذكر المقري أن موسى حينما أدرك هذا الموضع القاصي من شمال الأندلس وأشرف جنده على البحر الأخضر (المحيط الأطلسي) وجبال ألبرت، فكر في اختراقها والاستمرار في الفتوح، وأنه «كان يؤمل أن يخترق ما بقي عليه من بلد إفرنجة، ويقتحم الأرض الكبيرة حتى يصل بالناس إلى الشام مؤملاً أن يتخذ مخترقه بتلك الأرض طريقاً يسلكه أهل الأندلس في مسيرهم ومجيئهم من الشرق وإليه على البر لا يركبون بحراً». ولسنا نستطيع تحقيق قالة كهذه، وكل ما نستطيع استنتاجه منها هو أن الوليد لو لم يكن قد استدعاه وألح في استدعائه لأتم فتح جليقية ـ كما يذكر المقري ـ أو لاخترق جبال ألبرت وأفضى إلى غالة. أما ما يزعمه المقري من وصوله إلى نهر الرون (ردونة ـ من Rodanus) فأمر غير صحيح، وسنرى فيما بعد أن المؤرخين وضعوا كثيراً من أعمال الفاتحين المسلمين ممن أتى بعد موسى في حملته تلك ونسبوها إليه.
المقري : نفح الطيب، ج١، ص ١٧٤ـ ١٧٥ .

(٣) شهاب الدين الفاسي برواية المقري : نفح الطيب ترجمة جايانجوس، ج١، ص ٥٣٣ .

من ثورة أهل طليطلة مال بهم إلى الشدة، فنراهم في غزوتهم هذه أميل إلى العنف مما كانوا قبل ذلك، فبينما كان طارق يحتل المواقع احتلالاً سلمياً فيؤمن أهلها ولا يكاد يستبيح لنفسه إلا ما كان من أملاك القوط أو أملاك الكنيسة، نسمع من الآن فصاعداً عن نهب البلاد وإحراقها ورعب أهلها وخروجهم منها على وجوههم. ويبدو كذلك أن هذا كان نتيجة لسياسة موسى، وقد عرفناه شديداً قاسياً عظيم الميل إلى المغانم والأسرى والسبايا، وقد بلغ من إسرافه في هذا الوجه أن العرب أنفسهم - وعلى رأسهم الخليفة - أنكروا عليه هذا المسلك، فلم يلبث الخليفة أن استدعاه ليناقشه الحساب فيما يفعل.

ولم تكد طلائع المسلمين تشرف على سرقسطة حتى رعب أسقفها بنسيو (Bencio) ومن معه من الرهبان، فجمعوا كتبهم المقدسة وذخائرهم الموروثة وقرروا الهجرة من البلد والفرار بهذه الذخيرة، فلم يلبث موسى أن أرسل إليهم رسولاً يؤمنهم ويعطيهم عهده، فسكنت مخاوفهم واستقروا ودخل المسلمون البلد بعد قتال لا يذكر[١]. ولم يكد المسلمون يستقرون في البلد حتى قام التابعي حنش بن عبدالله السبئي الصنعاني بإنشاء مسجد للمدينة، وقد قدر لهذا المسجد أن يتسع حتى أصبح مسجداً جامعاً وظل قروناً متوالية مناراً للإسلام وأهله في هذه النواحي[٢].

ثم أعقب موسى ذلك باحتلال سرقسطة ووشقة ولاردة وطركونة، وأحب أن يتابع سيره نحو ألبرت، ولكن جنده روعوا لما شاهدوه من قفر هذه النواحي وقلة عمرانها، ثم إن أهلها كانوا يتكلمون اللغة البسكية فوقعت من العرب موقعاً غريباً، وظنوا أنهم لا يتكلمون[٣]. واستوحش الجند من هذه الناحية وأبدوا رغبتهم في العودة، وانضم إليهم التابعي حنش الصنعاني وأخذ موسى يحاول

---

(١) ISODOR PACENSE. *Cronicon,* n. 36. versos 871- 873.

(٢) ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس، ص ١١١.
الضبي: بغية الملتمس، ص ٢٦٣. المقري: نفح الطيب، ج٢، ص ٤.

(٣) «... وفتح بلاد البشكنس وأوغل في بلادهم حتى أتى قوماً كالبهائم، وغزا بلاد الإفرنج...»
ابن عذارى: البيان، ج٢، ص ١٨.

إقناعهم بضرورة الاستمرار[١] .

وفي ذلك الحين وصل مغيث الرومي عائداً من دمشق ومعه أمر لموسى وطارق بأن يشخصا إلى دمشق، وأحس موسى بما وراء هذه الدعوة ، وعرف أن مغيثاً مولى عبد الملك بن مروان لا بد أن يكون قد تقول عليه شيئاً ، ولكن ذلك لم يصرفه عن المضي في إتمام هذه الغزوة التي صاحبها التوفيق إلى هذه الساعة ، وأحب أن يسترضي مغيثاً حتى يدعه يمضي في إكمال فتح البلاد ، فعرض عليه أن يمنحه نصف ما يغنم من البلاد التي سيفتحها في هذه المهلة ، ومنحه القصر الذي كان يسكنه حاكم قرطبة في الجزء الشرقي منها ، فقبل مغيث وظل هذا القصر يعرف فيها بعد ببلاط مغيث[٢] . فإذا اطمأن موسى إلى ذلك فقد تابع سيره في قشتالة القديمة (Castilla la vieja) ليتم فتحها وليؤمن طليطلة من غدر أي عدو للمسلمين يكون فيها[٣]، واستقر رأيه على أن يقسم جيش المسلمين قسمين: قسماً يسير به هو، وقسماً يسير به طارق.

عهد موسى إلى طارق في السير نحو جبال كَنْتَبْرِيَة، فبدأ طارق بمهاجمة البشكنس غربي الإبرو فلم يجد صاحب الناحية «فرُتُون» (Fortunius) بُداً من الدخول في طاعة المسلمين بل اعتنق الإسلام ، ومنه تسلسل «بنو قسي» أصحاب الثغر الأعلى الذين سنلقاهم كثيراً على طول تاريخ المسلمين في الأندلس[٤]. ثم تابع طارق سيره، واستولى على أمايا واشترقة وليون[٥].

٢٧ ـ أقصى ما وصلت إليه فتوح المسلمين في إسبانيا

وسار موسى نفسه على الضفة الشرقية للإبرو في إقليم قشتالة، فأطاعه معظم من مر بهم من رؤساء هذه الناحية . وقد لقي

(١) ابن قتيبة: الإمامة والسياسة، ج٢، ص ١٣٧.

(٢) المقري: نفح الطيب، ج١، ص ١٧٤.

(٣) SAAVEDRA. *Op. cit.* pp. 113- 114.

(٤) ابن القوطية: افتتاح، ص ٦٣.

(٥) الأخبار المجموعة، ص ٢٨. وقد جعل هذا المرجع فتح هذه الحصون الثلاثة في سنة ٧١١، وهو خطأ واضح، وقد بيناه في حينه.

بعض المقاومة عند قرية تسميها المراجع بارو ـ أو بازو ـ في مقاطعة ڤاليادوليد (بلد الوليد) الحالية[١]، ولم يلبث أن تغلب عليها وسار متابعاً فتوحه. وبدلاً من أن يعرج على أشترقة ليلتقي فيها بجيش طارق، انحرف إلى الشمال واخترق باب تارنا (Tarna) وسار متابعاً مجرى نهير النالون (Nalon) ثم حط رحاله عند قلعة يسميها لُكْ (Lucus Asturum الرومانية وMaria de Lugo اليوم) غير بعيد من أبِيْط (Oviedo)، وما زال بها حتى سواها بالتراب وفر من كان بها إلى مكان قاصٍ من الشاطىء يسمى الصخرة (Picos de Europa). ثم سار بنفسه حتى بلغ خيخون (Gijon) وأقر فيها حامية، وجعلها حصناً لما فتحه من البلاد في هذه النواحي البعيدة، ثم بعث سرية من فرسانه أدركت البحر عند صخرة پلاي (Pena de Pelayo)[٢].

فإذا أدركت خيل موسى البحر من الشمال فقد أحس أنه فتح شبه الجزيرة كله ولم يعد هناك معنى للاسترسال في السير، وكان موسى يترك في كل قلعة يفتحها حامية من المسلمين، فتفرق جنده وطال السير بمن بقي معه منهم، ونال منهم الجهد فمالت نفوسهم إلى العودة، فاكتفى موسى بوصوله إلى خيخون وأزمع العودة غير عالمٍ أن نفراً كبيراً من القوط قد تراجعوا أمامه واحتموا في نواحي

(١) كتبها المقري بارو وبازو، وقد ظن بعضهم أن المراد بذلك ڤيزيو (Viseu) ولكن نظرة على الخريطة تدل على أنه من العسير أن يصل موسى إلى ڤيزيو من هذه الناحية في هذا الوقت القصير. وقد حقق موقعها ساڤدرا وقرر أن المراد بها ڤلياباروز (Villabaruz) وبهذا تكون صحة الاسم الذي أورده المقري باروز.

نفح الطيب، ج١، ص ١٧٤.

SAAVEDRA. *Op. cit.*p. 117.

(٢) هكذا وصل المسلمون إلى أقصى نقطة من أشتريس أدركوها في أيام موسى في دفعة الفتح الأول، وإليك عبارة المقري بهذا الصدد نوردها لأهميتها: «... ومشى معه (أي مع مغيث) حتى بلغ المفازة فافتتح حصن بازو وحصن لُكْ، فأقام هنالك وبعث السرايا حتى بلغوا صخرة بلاي على البحر الأخضر، فلم تبق كنيسة إلا هدمت ولا ناقوس إلا كسر، وطاعت الأعاجم فلاذوا بالسلم وبذل الجزية وسكنت العرب المفاوز...»

المقري: نفح الطيب، ج١ ص ١٧٤ ـ ١٧٥.

SAAVEDRA.*op. cit.* p. 117.

أشتريس وجليقية . وكان المسلمون يحسبون أنهم قضوا على القوط حتى لم يبق منهم إلا ثلاثون رجلاً[1]، والواقع أن من بقي من القوط إذ ذاك كان قليلاً، ولو لم يشتغل العرب بعد ذلك بحروب ومنازعات قبلية فيما بين أنفسهم لاستطاعوا الالتفات إلى هذه البقية الباقية من الأرض والناس ، ولكنهم شغلوا بأمور أنفسهم كما سنرى، فاستطاعت هذه الحفنة القوطية أن تطمئن في هذه النواحي القاصية القاحلة، وأن تنمو لتنتهز في المسلمين كل فرصة تسنح . وكانت معظم الحاميات التي خلفها المسلمون من البربر، وكان أكبرها حامية استقرت في خيخون على الغالب يقودها زعيم بربري سيكون له شأن ، هو «مونوسة» .

فإذا انتهى موسى في فتوحه إلى هذا الحد القصي فقد كان لا بد أن يعود، لا إلى طليطلة أو قرطبة فقط، بل إلى دمشق رأساً ، فقد كان مغيث رسول الخليفة يتعجله، وكان الوليد معجلاً عليه لا يريد أن يتمهل حتى لتذهب الروايات إلى أنه بعث إليه رسولاً آخر إسمه أبو نصر لقيه في «لك» فأخذ بعنان فرسه وأمره بالعودة . وذلك أمر مستبعد ، لأن مغيثاً قد وصل وموسى في سرقسطة في أوائل الربيع ، ولما تنقض على وصوله ثلاثة أشهر، ولا يتفق أن يكون الخليفة قد استطال هذه المدة القصيرة فأرسل يتعجل، وربما كان «أبو نصر» هذا كنية لمغيث كما يظن جايانجوس[2] .

أخذ موسى في طريق العودة في أواخر سنة ٩٥ هـ (منتصف صيف ٧١٤ م) وكان مغيث قد خف لِلقائه، فالتقيا بنواحي ليون، وهناك أدركهما طارق عائداً من أشتُرقة، وساروا جميعاً فاخترقوا فج موسى (Valmuza) في طريقهم إلى طليطلة ، ولم يقم موسى في طليطلة شيئاً وإنما مضى مجدّاً حتى دخل قرطبة ولقي فيها نفراً من كبار جنده، ثم مضى إلى إشبيلية حيث ركب البحر ومعه طارق ومغيث وكبار الجند في ذي الحجة سنة ٩٥ هـ ، وكان معهم يليان . وتذهب المراجع إلى أنه اصطحب معه ثلاثين ألف رأس من الأسرى، وهذا أمر

(١) عيسى بن أحمد الرازي برواية المقري : نفح الطيب، ج٢، ٦٧١- ٦٧٢ .
(٢) المقري : نفح الطيب، ج١، ص ١٧٢- ١٧٣ .

لا يصدق، نظراً لما يحتاجه مثل هذا العدد العظيم من العدة حتى يمكن نقله هذه المسافة الطويلة من الأندلس إلى دمشق، والغالب أن عدداً قليلاً جداً من هؤلاء رافق موسى في رحلته، وأما الباقي فقد ترك في المزارع يزرعها. ونكاد نتفق مع ابن قتيبة الذي يذكر أن موسى دخل دمشق ومعه ثلاثون من خيرة أسرى القوط، ألبسهم أفخر الثياب وسار بهم في موكبه ليدل على عظم الفتح الذي قام به، وكان موسى ميالاً إلى مثل هذه المظاهر(١).

٢٨ - عودة موسى وطارق إلى المشرق

بارح موسى الأندلس في ذي القعدة سنة ٩٥ هـ (سبتمبر ٧١٤) ووصل مصر في السابع من ديسمبر، وبلغ دمشق في السادس عشر من يناير سنة ٧١٥ م أي قبل وفاة الوليد بأربعين يوماً. وكان سليمان بن عبد الملك قد أحس باقتراب منية أخيه فكتب إلى موسى يأمره بأن يتريث حتى يصل بعد موت عبد الملك، فتؤول الذخائر التي كان يحملها معه إلى سليمان. ولكن موسى لم يشأ أن يتريث، ووجد الحجى في أن يسير سيره العادي، فإن وصل والوليد حي كانت الغنائم له، وإلا فهي لمن يخلفه بالحق والعدل. وكان ركب موسى في عودته ركب قائد مظفر أوسع الله عليه في الخير والمغانم، فكان لا يلقى أحداً إلا أعطاه شيئاً، ولسنا نعلم على وجه التحقيق من أي مالٍ كان يعطي؟ ولكن الذي نعلمه أن أحداً من الفاتحين المسلمين لم يبلغ هذا المبلغ من السخاء وكثرة الهبات(٢).

وصل موسى دمشق قبل وفاة الوليد بأربعين يوماً، فأذهل الناس بما أتى به من الخيرات والمغانم، بل يجمع المؤرخون على أن أحداً من الفاتحين المسلمين لم يعد بغنائم تشبه - بعد فتح فارس(٣) - غنائم موسى، ولكن الظاهر أن قلب

---

(١) الأخبار المجموعة: ص ٣٣.
المقري: نفح الطيب، ج١، ص ١٩٣.
الرازي: (في الجزء الإسباني الذي نشره جاياتجوس) رقم ١٤. فتح الأندلس، ص ١٩.
ابن قتيبة: الإمامة والسياسة، ج٢، ص ١٥٨.

(٢) ابن قتيبة: الإمامة والسياسة، ج٢، ص ١٥٨ وما بعدها.

(٣) المقري: ج١، ص ٧٧.

الوليد كان متغيراً على موسى تغيراً لا سبيل إلى إصلاحه، فلم يحسن لقاءه، ثم لم يلبث أن لقي ربه وخلفه أخوه سليمان وهو أشد من أخيه غضباً على موسى لما كان منه معه، ولهذا كان طبيعياً أن لا ينتظر موسى خيراً كثيراً، وأن يدرك أن أيام مجده وعزه قد مضت مع أمس الدابر.

بيد أننا نستبعد صحة ما يبالغ فيه المؤرخون من أفاعيل سليمان بموسى، نعم إن مغيثاً الرومي لم يدخر وسعاً في تشويه سمعة الفاتح العظيم، وصحيح أن قالاته لقيت قبولاً من آذان أولي الأمر في عاصمة الخلافة، ولكن الإنسان يستبعد ما يُقال من أن سليمان كان يقيم موسى في الشمس حتى يكاد يغمى عليه من شد التعب والجهد، أو أنه ألزمه أن يطوف بالقبائل محروساً يستجديها مالاً يفتدي به نفسه، حتى لقد كان يستجدي الدرهم والدرهمين «فيفرح بذلك ليدفعه إلى الموكلين به فيخففون عنه العذاب»[1]، لأن سليمان لو كان قد أنزل بموسى هذه المساءات لما ترك ولديه واليين على إفريقية والأندلس، ولأن موسى كان أثيراً على نفس يزيد بن المهلب وزير سليمان بن عبد الملك وصاحب الأمر في دولته. وكل ما نستطيع قبوله هو أن سليمان أهمل موسى وتركه في زوايا النسيان، وما نظن أن رجلاً كهذا كان يمكن عقابه بأقسى من ذلك، فقد فتح الفتوح ومصر الأمصار وكان حقيقاً بأن يعود إلى ما فتح لينظمه أو ليزيد فيه. ولا نزاع في أن موسى كان على نية مواصلة الفتح إذ عاد. فحرم مسلمو الأندلس من هذه القوة الدافعة التي وصلت إلى شاطىء خليج بسكاية في عام وبعض عام، وأصاب بقايا القوط الفرصة التي كانوا في أشد الحاجة إليها ليستريحوا بعد جهدٍ، وليستعدوا للصراع الطويل مع المسلمين من جديد[2].

خرج موسى من الميدان وعاش بقية حياته في ظلال النسيان لا نكاد نسمع من أخباره شيئاً، ولا تحدثنا المراجع بشيء عنه بعد ذلك حتى موته بعد ذلك بقليل

---

(١) المقري: نفح الطيب، ج١، ص ١٨٠.

(٢) انظر تفاصيل ذلك في نفح الطيب، ج١، ص ١٧٩ وما بعدها.

سنة سبع وتسعين أو تسع وتسعين وهو في طريقه إلى الحج في رفقة سليمان[1]، وإذا عرفنا أن سنه كانت قد جاوزت الثمانين عند وفاته لتبينا أن الرجل كان قد قارب الثمانين حين عاد من الأندلس، فلا يستبعد أن يكون سليمان قد لاحظ سنه العالية فاستحسن أن يخليه من العمل وأن يبقي ابنيه مكانه في إفريقية والأندلس فبقي الفاتح العظيم في صحبة الخليفة حتى مات في ركابه كما رأينا.

ومهما يكن الجزاء الذي لقيه موسى على يد سليمان، فإن الإنسان لا يسعه إلا أن يقرر أن الخلافة لم تعرف فضله ولم تجزه الجزاء الذي كان يستحقه، فقد فتح للإسلام فتوحاً تضعه في الصف الأول من رجال الإسلام الأوّل، وكانت له سياسة وقدرة تدفع الإنسان إلى أن يقرر في غير تردد أن هذ الرجل هو واضع أساس ما أدركه المسلمون من سلطان وحضارة في غرب البحر الأبيض المتوسط، لأن فتح الأندلس كان أمراً لا بد منه حتى يطمئن المسلمون على فتوحهم في الشمال الإفريقي، ولو لم يفتح الأندلس لاستمر المغرب الإسلامي مهدداً بجموع النصرانية، هذا إلى ما كان لهذا الفتح الإندلسي في ذاته من القيمة والأثر مما يغني عن كل حديث.

قال المقري: «. . . فقد كان له من الأثر ما يوجب أن يترحم عليه. وإن فعل سليمان به وبولده، وكونه طرح رأس ابنه عبد العزيز الذي تركه نائباً عنه بالأندلس ـ وقد جيء به من أقصى المغرب ـ بين يديه، من وصماته التي تعد عليه طول الدهر، لا جرم أن لم يمتعه الله بعده بملكه أو بشبابه»[2].

وتصمت الرواية الإسلامية كذلك عن طارق صمتاً كاملاً، ولسنا نفهم لهذا سبباً إلا ما يُقال من أن مغيثاً وشى به هو الآخر وخوّف الخليفة منه، وكان هذا يريد أن يوليه الأندلس بعد موسى. والحق أن مغيثاً الرومي أساء إلى قائديه إساءة كبرى، وربما كان دافعه إلى ما افتراه على طارق هو طمعه في ولاية الأندلس، ولكنه على كل

(١) وتختلف الروايات حول ذلك الموضوع، فيذهب الحجاري وابن بشكوال أن موسى توفي بوادي القرى في أسوأ حال. انظر المقري: نفح الطيب: ج١، ص ١٨٢ ـ ١٨٣.
(٢) المقري: نفح الطيب، ج١، ص١٨١.

حال لم يفز من ذلك بشيء، لأنه عاد إلى الأندلس فيما بعد ليعيش في «بلاطه» وأملاكه، ولكـي ينجب بنين سيكون لأحفادهم شأنٌ عظيم في تاريخ الأنـدلس الإسلامي[1].

وإذا كنا لا نأسف كثيراً على حرمان موسى من ثمرات فتوحه، لأنه في الواقع قد استمتع من هذه الثمرات بما فوق الكفاية، فإن المؤرخ لا يسعه إلا أن ينظر بعين الأسف إلى هذه الحجب الكثيفة التي أسدلت على بقية حياة طارق، هذا المسلم الإفريقي المجيد الذي لا تسجل الرواية الإسلامية عنه إلا خيراً. ولكن إهمال المؤرخين أمره لم يحرمه من نصيبه من الخلود، فقد أرادت المقادير أن تحمل اسمه أول بقعة من الأندلس وطئتها قدماه، وأن تنتقل هذه التسمية بصيغتها العربية محرفة تحريفاً بسيطاً إلى اللغات الأوروبية جميعاً، وتريد المقادير كذلك أن تكون هذه البقعة بالذات من المواضع التي سيشغل ذكرها الناس على مر العصور، لأسباب وعلى صورة لم تكن تدخل في حساب طارق، فلا يزال الناس من ذلك الحين يتحدثون عن جبل طارق أو جبر التار، ويدفعهم هذا الذكر إلى البحث عن طارق وأخباره.

٢٩ ـ استكمال الفتح — لم تـوقف عودة مـوسى وطارق نشـاط المسلمين في الأنـدلس ، فقد بقي فيه نفرٌ من الأجناد استمروا يواصلون العمل لإكمال ما بـدأوا بـه ، فتذكـر الأخبار المجمـوعة أن سنـة ٩٥ هـ ، شهدت فتـح كثير من بـلاد الأندلس على يد المسلمين دون أن تذكر هذه البلاد ، ويـذكر ابن الفَـرضي أن نعـمان بن عبد الله الحضرمي عـاد إلى الأندلس بعـدمرافقتـه موسى إلى دمشق ، واشترك في الجهاد ومات في سبيل الله ، واستمر التابعيان علي بن ربـاح وحنش الصنعاني في سيرهما بجند المسلمين نحو الشمال حتى فتح الله عليهما بنبلونـة في أواخـر سنـة ٩٥ هـ (٧١٤ هـ) . ويـذكـر ابن خلدون أن المسلمـين افتتحـوا بـرشلونة بعـد ذلك بقليـل ، دون أن يستطيـع التأكـد من صحـة أخبـار هـذه الفتوحات[2].

---

(١) المقري : نفح الطيب ، ج١ ، ص١٧٥ . جايانجوس : ترجمة نفح الطيب ، ج٢ ، ص٣٩٩ .
(٢) ابن الفرضي ، تاريخ علماء الأندلس ، ج٢ ص٢٩ وج١ ، ص١٠٩ ، ٢٥٦ .
المقري : نفح الطيب ، ترجمة جايانجوس ، ج٢ ، ص٢٦٠ .

وكان ينبغي أن نقف بقصة الفتح عند هذا الحد، لأن ولاية عبد العزيز بن موسى تبدأ عصر الولاة الذي سنتناوله في الفصل التالي، ولكن بقيت من الأندلس نواحٍ واسعة في الشرق لا بد من استقصاء أخبار فتحها أو دخولها في طاعة المسلمين حتى نستطيع القول بأننا قد فرغنا من أخبار فتح المسلمين للأندلس تماماً.

كان عبد العزيز بن موسى فاتحاً نشيطاً، فقد كانت له يد طولى في فتوح إفريقية، وقد رأيناه ملازماً أباه مشاركاً إياه في كل عملٍ قام به في الأندلس، ثم رأيناه بعد ذلك يقود جيشاً سار إلى إشبيلية ليخمد ثورتها التي قام بها أهلها على المسلمين في سنة ٧١٣م، وأقام عبد العزيز بعد ذلك في هذه الناحية مواصلاً الفتوح في نواحي الغرب، ففتح يابرة وشنترين وقلمرية خلال سنة ٧١٤ في الغالب.

ولم يكد عبد العزيز يستقر في ولاية الأندلس حتى نشط لإخضاع جنوب شرقي شبه الجزيرة الذي لم يصل إليه أحد من المسلمين حتى ذلك الحين، وكان عبد العزيز قد استقر برجال حكومته في إشبيلية، فظل هذا البلد عاصمة للأندلس طوال حكمه[١].

٣٠ ـ تدمير

بدأ عبد العزيز بفتح مالقة[٢] التي أسلمها حاكمها إلى المسلمين دون كبير عناء، ثم قصد غرناطة، ويُقال إن حاميتها كانت من اليهود ففتحوا للمسلمين أبوابها دون مقاومة[٣]، ثم اتجه عبد العزيز إلى إقليم

---

(١) ذكر المقري في نفح الطيب سبب استقرار عبد العزيز في إشبيلية واتخاذها عاصمة له، ورغبته في أن يظل على اتصال مستمر بإفريقية، وكانت إشبيلية ميناء كبيراً يسع السفن الكبيرة، ولم يكن جبل طارق كذلك.

(٢) يذهب المقري أن مالقة فتحت أيام موسى، وأنه أرسل ابنه عبد الأعلى في بعث حاصرها وكادت تستعصي عليه لولا أن حاكمها وقع في يد المسلمين نتيجة لعدم حرصه فلم تلبث المدينة أن سلمت. وهذه تفاصيل طريفة، غير أننا نستبعد أن تكون مالقة قد فتحت في أيام موسى وعلى يد ابنه هذا، لأننا نعرف أن هذه الحملة قادها عبد العزيز بن موسى بنفسه عقب رحيل أبيه.
المقري: نفح الطيب، ج١، ص ١٧٤.

(٣) أحمد الرازي: روى ذلك ابن الخطيب. انظر:
CASIRI. *Bibliotheca*, II. p. 105.

مرسية حيث كان يحكم قائد قوطي يسمى تدمير Teodomiro ويذهب ساڤدرا إلى أنه ابن (Ergpbado)[1] أحد كبار قواد غيطشة، وإلى أن تدمير هذا كان رجلاً نصرانياً حسن العقيدة وأنه كان مثقفاً استطاع بفضله وعلمه أن يكسب إحترام المسلمين بل إحترام الخليفة نفسه حينما سار إليه فيما بعد ليشكو إليه غبناً أصابه من عامل الأندلس[2]. ويذهب الرازي إلى أن تدمير دخل في طاعة المسلمين من أول الأمر دون أن يسلم، وأنه قاد جماعة من المسلمين سارت لفتح أستجة[3]، ولكن الغالب أن الرازي أخطأ في ذلك، لأنه يذكر أن المسلمين ساروا بعد ذلك لفتح أوريولة (Orihuela) التي كانت إذ ذاك عاصمة إقليم مرسية وكان فيها مقام تدمير، والغالب عندنا كذلك أن تدمير لم يفعل شيئاً لمقاومة المسلمين، مثله في ذلك مثل غيره من أنصار غيطشة، وبقي مكانه يرقب الحوادث حتى سار إليه المسلمون بقيادة عبد العزيز في أول ولايته سنة ٩٥ هـ على ما روينا[4].

فلما اقترب عبد العزيز وجنوده من بلاده تخوف وفكر في أن يحتمي منهم، وتذهب المراجع النصرانية إلى أنه استطاع رد جيوش المسلمين مهزومة مرتين[5]، أما المراجع العربية فتكتفي بقصة ـ موضوعة في الغالب ـ تدل على ذكاء تدمير وفطنته، فتذكر أنه احتال على المسلمين ليحصل منهم على شروط حسنة، «فأمر النساء فنشرن شعورهن وأعطاهن القصب وأوقفهن على سور المدينة، وأوقف معهن بقية من بقي من الرجال في وجه الجيش حتى عقد على نفسه، ثم هبط بنفسه

---

(١) قال الضبي في بغية الملتمس: إن اسم تدمير كان تدمير بن غبدوش، ويؤيد أحمد بن أنس العذري ذلك في «نظم المرجان»، ويقول ساڤدرا بأنه لا بد أن يقرأ غوبادوش أو جوبادوش Gobados، وأن هذا الاسم هو Ergobados وكان من أسماء القوط المشهورة المتداولة.
الضبي: بغية الملتمس، ص ٣٦٩و٣٣٧ و٤٠٠.
SAAVEDRA. *op. cit.* p. 87.

(٢) إيزودور الباجي، رقم ٣٨.

(٣) الرازي، طبعة جايانجوس، ص ٤.

(٤) وانظر أيضاً: SAAVEDRA. *op. cit.* pp. 88- 89.

(٥) SAAVEDRA. *Op.cit,* p. 127.

كهيئة الرسول فاستأمن فأمِّن، فلم يزل يراوض أمير ذلك الجيش حتى عقد على نفسه الصلح وعلى أهل بلده، فصارت تدمير صلحاً كلها ليس منها عنوة قليل ولا كثير، وعاملهم على ترك أمواله في يديه، فلما فرغ أبرز لهم اسمه وأدخلهم المدينة، فلم يروا فيها أحداً عنده مدفع، فندم المسلمون ومضوا على ما أعطوه. . .»[1].

ولسنا نستطيع أن نقبل هذه القصة على علاتها، ولسنا نستطيع كذلك أن نقر المراجع اللاتينية على ما تذهب إليه من هزيمة تدمير للمسلمين مرتين متواليتين[2]، وليس من المعقول كذلك أن تدمير سلم دون مقاومة أصلاً، لأنه لو كان فعل ذلك لما حرص المسلمون على إعطائه شروطاً خاصة. وكل ما نستطيع قوله هو أن تدمير كان صديقاً للمسلمين من أول الأمر، لأنه كان من أنصار غيطشة الكارهين للذريق وأمره[3]، وربما حسب أن المسلمين تاركوه وشأنه، وربما يكون قد تفاهم مع موسى أو طارق على شيء من ذلك، فلما وجد عبد العزيز يسير إليه ويقترب من بلاده أبدى من المقاومة ما أشعر المسلمين أن بلاده لن تفتح من غير عناء، وكان المسلمون مجهدين بعد هذه الحروب المتصلة، وكانوا يودون لو فرغوا من هذا الكفاح المتصل حتى تتاح لهم الفرصة لتنظيم شؤون البلاد، فانتهز الفرصة وأقبل يفاوض المسلمين في شروط التسليم، واستطاع أن يحصل على ما ضمن له بقاء شيء من السلطان في يده، وإن كان «لا تختلف في كثيرٍ عن معاهدات الصلح الكثيرة التي عقدها المسلمون في ذلك العصر».

وقد احتفظت لنا المراجع بنص هذا الصلح على خلاف ما فعلت بالكثير من أمثاله: أورد الضبي نصه العربي وأورد الرازي صورة إسبانية منه وترجمه ميخائيل الغزيري إلى اللاتينية، وأثبته في فهرسه المعروف للمخطوطات العربية في الإسكريال، وهذه هي الوثيقة نقلاً عن الضبي:

«نسخة كتاب الصلح الذي كتبه عبد العزيز بن موسى لتدمير بن غبدوش:

---

(١) الأخبار المجموعة ص ١٣ . ابن عذارى : البيان ، ص ١٣ .

(٢) انظر مثلاً : إيزيدور الباجي ، فقرة ١٣٨ أسطر ٩٧٠ ـ ٩٧٣ .

(٣) يُفهم هذا من قول بعض المؤرخين أن طارقاً بعث تدمير في جيشٍ ففتح استِجَّه .

بسم الله الرحمن الرحيم

من عبد العزيز إلى تدمير

أنه نزل على الصلح، وأنه له عهد الله وذمته أن لا ينزع عنه ملكه، ولا أحداً من النصارى عن أملاكه، وأنهم لا يقتلون ولا يُسبون، أولادهم ولا نساؤهم، ولا يُكرهون على دينهم، ولا تحترق كنائسهم ما تَعَبَّد (كذا وصحتها تقيد) وما نَصَح، وأن الذي اشتُرط عليه أنه صالح على سبع مدائن: أوريولة وبَلَنْتَلِةَ ولقنت ومُولَة وبَقْسَرَة وأَنَّهْ ولورقة[١]، وأنه لا يأوي لنا عدواً، ولا يخون لنا أمناً ولا يكتم خبراً علمه، وأنه عليه وعلى أصحابه دينار كل سنة، وأربعة أمداد قمح، وأربعة أمداد شعير، وأربعة أقساط طلا، وأربعة أقساط خل، وقسط عسل، وقسط زيت، وعلى العبد نصف ذلك.

كتب في رجب من سنة أربع وتسعين من الهجرة.

شهد على ذلك عثمان بن أبي عبدة القرشي، وحبيب بن عبيدة الفهري وعبدالله بن ميسرة الفهمي، وأبو قائم الهُذَلي»[٢].

---

(١) هذه المدن السبع التي عاهد عليها تدمير هي أوريولة وهي orihuela

بلنتلة، وقد وردت في الرازي Valencia وهو خطأ، وأوردها الغزيري Valentola، وقد أثبت ساقدرا أن قرية قديمة بهذا الاسم كانت توجد على مقربة من بليدة Alcantarilla الحالية على خمسة كيلومترات من مرسية، وأن النهير الذي بهذه البليدة الأخيرة كان يسمى في القديم وادي فالنتيلية وقد تحول مع الزمن إلى .Guadalentin

لقنت، وهي Alicante.

مولة، وهي Mula

بقسرة، وهي Begastro بليدة على مقربة من Cehegin

أنه، وهي Anaya على مقربة من دير San Gines القديم المتهدم في إقليم مرسية.

لورقة، هي .Lorca

راجع الملاحظات القيمة التي أوردها ساقدرا، ص ١٢٨- ١٢٩ والهوامش.

(٢) انظر: الضبي: بغية الملتمس، ص ٢٥٩.

الرازي: الترجمة الإسبانية، فقرة ١٢.

لو أخذنا بظاهر نص هذه الوثيقة لقلنا إن عبد العزيز اعترف لتدمير بالاستقلال في نواحيه، وإن موقف هذا الأخير من المسلمين كان موقف المعاهد الذي يدفع الجزية، فلم يكن للمسلمين حق دخول بلاده ولا التدخل في شؤون إدارتها. ولم تكن المنطقة التي عاهد عليها الرجل بالصغيرة ولا القليلة الأهمية، لأن المدائن السبع التي عاهد عليها ترسم صليباً يضم في محيطه كل جنوب شرقي شبه الجزيرة، فكيف يتفق أن يسلم المسلمون في هذا الجزء الهام من البلاد دون حرب، ولمجرد أن تدمير ضمن لهم الجزية وعاهدهم على الصدق والنصح معهم، مع أنهم كانوا مستطيعين أن يأخذوا الإقليم كله كما أخذوا بقية شبه الجزيرة؟

لا نستطيع أن نفهم ذلك الصلح إلا على تفسير واحد، وهو أن الأمان أنصب على المدائن السبع وحدها دون الإقليم، ولم تكن هذه المدائن كبيرة إذ ذاك بل كانت حصوناً، فأقر المسلمون تدمير على ملكيتها على أن يؤدي عن أهلها الجزية(1). ودليلنا على ذلك أن العرب سيتوغلون في جنوب شرقي الجزيرة وسيستقرون في بعضها دون حرج، ثم إن العهد لم ينص على أن هذه الشروط تسري على أولاد تدمير من بعده، أي أنها كانت له وحده طول حياته، فكأن عبد العزيز أقر هذا الرجل

---

(1) اختلف ساڤدرا وبروڤنسال حول المراد بعبارة: «وأن الذي اشتُرط عليه أنه صالح على سبع مدائن. . .» الواردة في ذلك العهد، فترجمها ساڤدرا:

"... y queda libre en las siete ciudades de..."

أي أن المسلمين تعهدوا له بأن يتركوه حراً في هذه المدائن السبع.

وأما بروڤنسال فقد ترجمها هكذا:

"La paix lui est accordée moyennant la remise des sept villes suivantes..."

والترجمتان فيما نرى غير دقيقتين: فإن المراد من أن الرجل صالح على هذه المدائن السبع هو أنه سلم بأنها دخلت في طاعة المسلمين دون حرب، ولكنهم لم يحتلوها بل اكتفوا بالعهد الذي أخذوه على صاحبها، وبما تعهد به من سداد ما على أهلها من الجزية، فهم لم يتركوه حراً كما يقول ساڤدرا ولم يتسلموا البلاد منه كما يقول بروڤنسال، وإنما اعترف الرجل بأن البلاد للمسلمين وأقام كالنائب عنهم فيها يحكمها باسمهم.

Cf: SAAVEDRA. *Op. cit.* p. 129.

LEVI- PROVENCAL.. *Histoire de l.Espagne Musulmane,* I, P. 28.

وترجمة ساڤدرا لهذه الوثيقة مليئة بالأخطاء، وفيها زيادات.

المصادق للمسلمين على بعض بلاده التي كان يملكها تأكيداً لوده وتسكيناً لخواطر من كان يعيش فيها من النصارى.

ولا محل إذن لما يزعمه بعض مؤرخي الإسبان من أن تدمير تصدى للعرب وأوقفهم خارج حدود إقليمه كله، وأنه أقام هناك كالأمير المحالف محالفة الند للند، ولم يخسر المسلمون بهذا شيئاً، لأن جنوب شرقي الأندلس لم يظل خارجاً عن سلطانهم بل دخل في طاعتهم أسوة بغيره من نواحي شبه الجزيرة، ولأن تدمير كان في «ذمة» المسلمين شأنه في ذلك شأن غيره من النصارى الذين دخلوا في طاعة المسلمين إذ ذاك. وكان موقفه منهم موقف مالك إقطاعي من صاحب البلاد كلها: له سلطان شبه مطلق فى النواحي التي يشملها إقطاعه، ويظل في هذا الإقطاع ما ظل على الطاعة والصدق وما أدى الواجبات الإقطاعية من مال ومساعدة وقت الحروب وغير ذلك(١).

بقيت ملاحظة صغيرة عن تاريخ هذه المعاهدة الوارد في نصها، فقد جعل بعض المؤرخين ذلك في سنة ٩١هـ وذهبوا إلى أنها تمت في عهد طارق بن زياد، وجعلها بعضهم سنة ٩٢هـ. وهذان فرضان غير معقولين، فإن الوثيقة صريحة بأنها عُقدت على يد عبد العزيز، وأنه عقدها بصفته عامل الأندلس، ولو كان عقدها في حكومة أبيه لأشير إلى ذلك في صلبها. فإذا صح ذلك كان من الميسور أن نشك في التاريخ الذي تورده الوثيقة في نصها. فهي تذكر رجباً سنة ٩٤هـ، ورجب هذا يقع في أبريل سنة ٧١٣م، فلو ذكرنا أن عبد العزيز فتح في هذه الغزوة ـ وقبل وصوله إلى بلاد تدمير ـ حصنين كبيرين هما غرناطة ومالقة، ولا بد كذلك أن شيئاً من الوقت قد ضاع في المحادثات مع تدمير حتى تم الاتفاق معه، إذا حسبنا لذلك كله ثلاثة أشهر

---

(١) هذا واضح من قول إيزودور الباجي:

Theudimer, qui in Hispaniae partibus non Modicas Arabum intulerat neces et diu exagitatis, pacem cum eis *foederat* habendam. C.f: no. 38.

وقد ورد النص في الضمائم التي ألحقها لافوينتي ألكانترا بترجمته للأخبار المجموعة، ص ١٤٩.

كان من الضروري أن يكون عبد العزيز قد خرج بهذه الغزوة في يناير أو أوائل فبراير على أكثر تقدير، وهذا وقت لم تجرِ العادة بالخروج للغزو فيه في تلك العصور، وأسلم الآراء في هذا الموضوع هو أن نضع تسليم تدمير ـ وهو آخر حلقة من حلقات فتح المسلمين للأندلس ـ في أوائل سنة ٩٦هـ (٧١٤م) لأن موسى لم يبرح البلاد إلا في ذي قعدة سنة ٩٥هـ.

* * *

هكذا تم فتح الأندلس بعد حرب عنيفة وجهدٍ متصل داما أربع سنوات إلا أشهراً، بدأ الفتح في رجب سنة٩٢هـ وانتهى في أوائل سنة ٩٦ هجرية، وقد فتح المسلمون خلال تلك السنوات القلائل هذه الجزيرة الضخمة من أقصى الجنوب إلى جبال ألبرت وشاطىء البحر في الشمال، ومن مالقة وطركونة في الشرق إلى قلمرية وأشبونة في الغرب، واستولوا فيها على سهول الجنوب وعلى مرتفعات قشتالة ونواحي الجوف (أسترامادورة) القاحلة، ولم يغادروا بلداً عظيماً أو حصناً هاماً إلا رفعوا عليه راية الإسلام وأدخلوه في حوزة الدولة الإسلامية الكبرى. ولو لم تكن البراهين ثابتة على تمام الفتح في هذه المدة القصيرة لما صدقه أحد، لأن شبه الجزيرة الأندلسية قطر عسير فسيح لا يسهل على أحد فتحه أو إخضاعه، وقد وفق العرب إلى ذلك في نظام وسياسة ينبغي أن نسجلها لمن قاموا به.

ومهما بلغ المؤرخ من الثناء على طارق فإنه لا يستطيع وفاءه حقه، ولو فكر الإنسان في الأمر لحظة لاستخرج من حياة طارق وأعماله سراً من أسرار قوة الإسلام وناحية من نواحي امتيازه. فطارق هذا رجل مغربي بربري لم يكن ليصبح ـ بغير الإسلام ـ إلا قائداً خاملاً لجماعة من البربر منسيين في ركنٍ من أركان الأطلسي، فجاء الإسلام فجعل منه قائداً فاتحاً وسياسياً محنكاً يقود الجيوش ويفتح الأمصار ويوقع المعاهدات في قدرة وكياسة جديرتين بالإعجاب ، فلو لم يكن للإسلام من أثرٍ إلا تكوين أمثال هذا الرجل واستنهاض قومه للعمل الجليل لكفاه ، فكيف وقد بث الإسلام هذه الروح في كل مكان أظلته رايته ، وكيف فعل هذا في أقصر وقت ، وحققه على أتم وجه !

الحق أن فتح المسلمين للأندلس معجزة في ذاته ، إذ لا يصدق المرء وهو

يتتبع أخبار هذا الفتح أن الذين كانوا يقومون به بهذا النظام وبهذا النظر البعيد إنما كانوا بربراً لم يسبق لهم عهد بالنظام ولا الجيوش ولا المعاهدات . الحق أن الإسلام قد خطا بمعتنقيه خلال القرن الأول بضعة قرون للأمام ، وهذا تاريخ الرومان في إفريقية ، لم يوفقوا إلى تحضيرها على نحوٍ يقارب ما فعله الإسلام ـ ولو من بعيد ـ بعد عدة قرون ، فما بالك وقد فعل الإسلام ذلك في نحو نصف قرن ؟

ولو ذكر الإنسان أن موسى أكمل عمل طارق ، وأن عبد العزيز أكمل عمل الاثنين ، لاستبان أن العرب ساروا في فتح هذه البلاد على خطة محكمة لم يكن من الميسور وضع أحسن منها ! فقد قضي على المقاومة واحتلت العاصمة في أول وثبة ، ثم اتجهت الهمة إلى إخضاع كبريات مدن الغرب ، ثم احتل المسلمون إقليم سرقسطة وتبعوا فلول المقاومة في معاقلها في الشمال والشمال الغربي ثم فتحوا أقصى الغرب ، وختم العمل بفتح الجنوب الشرقي . ولو أن مجلساً للحرب من كبار العسكريين اجتمع ليضع خطة لفتح البلاد لما وفق إلى خير من ذلك ، وتلك ناحية ينبغي أن لا تغيب عن ذهن الإنسان وهو يدرس هذا الفتح ، لأنها في الواقع تدل على نبوغ حربي عند هؤلاء المسلمين الأولين .

الفصل الرابع

عصر الولاة

٣١ - لم تتكلف الخلافة جهداً خاصاً في سبيل فتح الأندلس

فتح المسلمون خلال القرن الهجري الأول بلاد العرب كلها والعراق وفارس والشام وجزءاً من آسيا الصغرى ومصر والشمال الإفريقي وشبه الجزيرة الإيبيرية، ولكنهم لم يتكلفوا في فتح قطر من هذه الأقطار مؤونة هي أيسر مما تكلفوه في فتح هذا القطر الأخير. فقد سيرت الخلافة الجيوش نحو كل قطر من هذه الأقطار وألقت في ميادينها بآلاف العرب وأمدتهم بالمؤن والأعطيات، ولم يتم الفتح في معظم هذه النواحي من غير معارك دامية هلك فيها آلاف العرب وانكسرت فيها جيوشهم مراراً عديدة، ولقي فيها نفر من كبار القواد حتوفهم كما رأينا في فتح المغرب. فأما الأندلس فقد احتمل البربر صدمته الأولى. وهلك منهم في واقعة وادي البرباط وحدها ثلاثة آلاف، وأقبل العرب بعد ذلك مع موسى يسيرون في البلاد الهوينا لا يكادون يلقـون عند مـا يعترضهم من البلاد من المقاومة ما يتناسب مع أهمية هذه البلاد، ولا تكاد ناحية تعجب قوماً منهم حتى يحطوا رحالهم فيها ويستوطنوها دون حاجة إلى حاميات أو إقامة حصون، وما زالوا حتى انتشروا في شبه الجزيرة كله، واستقرت جماعات منهم في نواحي الشمال على مقربة من خليج بسكاية، وجماعات أخرى في أقصى الشمال شرقاً وغرباً[1] بل طمحت بهم الآمال إلى ما وراء إسبانيا من بلاد غالة فانساحوا في بطائحها يفتحون ويستقرون.

ولعلنا لاحظنا أن الخلافة لم تتكلف في سبيل ذلك جهداً خاصاً: لم يجيش الأمويون جيشاً واحداً لفتح الأندلس، ولم يخرجوا من خزائنهم درهماً لإعداد حملاته،

(١) الأخبار المجموعة، ص ٣٨.

إنما فتح الأندلسَ البربرُ وجندُ إفريقية وجندُ مصر[1]، وكانت الأعطيات تدفع من مال إفريقية، وهذه ظاهرة ينفرد بها الفتح الأندلسي بين غيره من فتوح المسلمين: لقد وقع للخلافة كالغنيمة الباردة من غير جهد أو مؤونة أصلاً.

٣٢ - لم تغنم الخلافة منه شيئاً مادياً

بيد أننا ينبغي أن نقرر أن الخلافة نفسها لم تغنم شيئاً مادياً من هذا الفتح، إنما غنمه للذين قاموا بفتحه وحدهم: ففي حين أننا نجد الخلافة تهتم - إذا ما تم فتح بلد - بإرسال عامل يقوم بشؤون الإدارة، وعامل آخر يشرف على الجبايات وتنظيم الأموال والسهر على حقوق الدولة المركزية، وترسل قاضياً ينظم القضاء ويقيم العدل باسم الخلفاء، وبينما نرى سيل الأموال ينثال على خزائن الخلفاء في دمشق من كل ناحية فتحها المسلمون: من فارس إلى حدود النوبة وسواحل المحيط الأطلسي، وبينما يحرص المؤرخون أشد الحرص على أن يذكروا لنا مقادير الجبايات ونظمها في كل ناحية، إذا بنا نجد الخلافة لا تكاد تولي هذا القطر العظيم ولو جانباً يسيراً من العناية التي يستحقها: فهي لم ترسل إليه من أول الأمر والياً خاصاً به بل تركته نحو تسع سنين تحت تصرف عامل إفريقية يتصرف في شؤونه كما يريد[2]، وهي لم ترسل إليه عاملاً على المال يحصي نواحيه وأهله ويخمس النواحي ويقرر مقادير الخراج والجزية

(١) لم يشر مرجع واحد إلى أن الوليد بن عبد الملك بعث إلى موسى بجيش أو بمدد، ويذكر الرازي - عن الواقدي عن موسى بن رباح عن أبيه - أن موسى خرج «في عشرة آلاف من إفريقية»، ويقول صاحب فتح الأندلس أن موسى «دخل الأندلس ومعه ثمانية عشر ألفاً من قريش والعرب ووجوه الناس».

انظر ابن عذارى: البيان المغرب، ج٢، ص ١٥. فتح الأندلس، ص ١٠.

(٢) ترك موسى بن نصير ابنه عبد العزيز والياً على الأندلس حينما عاد إلى المشرق في صفر سنة ٩٥ هـ (أكتوبر - نوفمبر ٧١٣م) وخلفه أيوب بن حبيب اللخمي، وقد أقامه جند الأندلس على أنفسهم، ثم الحر بن عبد الرحمن الثقفي وقد عينه محمد بن يزيد عامل إفريقية لسليمان بن عبد الملك. وكان أول والٍ أقامته الخلافة هو السمح بن مالك الخولاني، أقامه عمر بن عبد العزيز في رمضان سنة ١٠٠ (مارس - ابريل سنة ٧١٩م) ولم تزد ولايته عن عامين وبضعة أشهر، إذ خلفه عبد الرحمن بن عبدالله الغافقي في ذي الحجة سنة ١٠٢هـ.

والجبايـة ، ويقــرر مـا ينبغي أن ينفق في البــلاد ومـا ينبغي أن يحمــل إلى دار الخلافة ، وهي لم تعن كـذلك بتنظيم القضاء في الأنـدلس من أول الأمر ، بـل جعلت ذلــك من شؤون الــولاة ، يـعينــون القـضــاة أو لا يعـينــونهم كـــما يشتهون[1] . وإنه لمن الغـريب حقاً أن نـلاحظ أن المراجـع لا تذكـر ـ ولو مـرة واحدة ـ أن شيئاً من المـال قد أرسـل من الأندلس إلى المشـرق[2] ، بل إننـا لن نخـرج من بحثنـا إلا بنتيجـة واحـدة ينبغي أن نقــررهـا حتى يتكشف لنــا مـا ينقضهـا : وهي أن الأندلس لم يبعث إلى مـركز الخـلافـة شيئـاً من مـالـه أو من جبايته أصلاً .

وذلـك في ذاته وضـع غريب ، ويـزيد في غـرابته أن الأنـدلس كـان بلداً غنيـاً عظيم الجبـاية ، وأن الخلفـاء كانـوا يعلمون مقـدار غنـاه بسبب مـا يحمله إليهم غزاته من غنـائمه وطـرفه ، ولست أشـك في أننا سنـظل زمانـاً طويـلاً لا نفهـم السر الـذي جعل الخـلافة تمضي عـلى هـذا النحـو من التهـاون في شؤون الأنـدلس ، ولنــا نستـطيع أن نـرد ذلـك إلى بعـده عن مـركـز الخـلافـة ، لأن الخـلافة لم تحـاول ولا مرة واحـدة بسط سلطانها الموكـد عليه ، ولم تـطالب مرة ـ ولـو في شيء من اللين ـ بنصيبها من أمـواله وجبـاياتـه التي تحق لها وفقـاً للنـظم

---

(١) لم يعين خلفاء بني أمية على الأندلس إلا قاضياً واحداً هو يحيى بن زيد التجيبي، عينه عمر بن عبد العزيز. أما غير يحيى من قضاة الأندلس قبل قيام الدولة الأموية الأنـدلسية فكـان يعينهم ولاة الأندلس في الغالب وولاة إفريقية في النادر، وكانوا يسمون قضاة الجند.
انظر الخشني: قضاة، ص ٢٧.
النباهي: المرقبة العليا، ص ٤٢ـ ٤٣.
ومقدمة الترجمة الإسبانية لقضاة قرطبة للخشني.

(٢) يذكر ابن قتيبة في «الإمامة والسياسة» أن سليمان قرر على موسى ٣٠٠٠٠٠ ، ٤٠ دينار ذهباً غرامة، ولسنا نعلم إن كان هذا المبلغ هو ما استحق للخلافة من خراج الأندلس في الفترة التي تولاها موسى، أو هو خراج الأندلس وإفريقية معاً، أو هو نصيب الخلافة في مغانم موسى من الأموال. وهذه الإشارة ـ على اضطرابها وقلة جدواها ـ هي الوحيدة التي تتحدث عن مطالبة الخلفاء لأحد من ولاة الأندلس بمال.
ابن قتيبة: الإمامة والسياسة (طبعة القاهرة سنة ١٩٠٤) ج٢، ص ١٤٦ـ ١٤٧.

المالية والإدارية التي كانت تطبق في دقة في كل ناحية من نواحي الدولة الإسلامية الواسعة إذ ذاك .

ولسنا نستطيع كذلك أن نرد هذه الظاهرة إلى أن جند الأندلس كانوا يستنفدون أمواله كلها ، أو أن خراجه كان ينفق على الفتوح فيما وراءه من البلاد ، لأن الواقع أن جانباً عظيماً من عرب الأندلس لم يكونوا جنداً نظامياً تابعاً لديوان الجند في دمشق ، وأن عدد هؤلاء العرب لم يبلغ المبلغ الذي يستنفد أموال هذا القطر العظيم الغنى . وأما الحروب فيما وراء ألبرت فقد كان معظم القائمين بها من المتطوعة الذين لا تفرض لهم أعطيات ، وكان ما يقع بين أيديهم من الغنائم من الوفرة بحيث لم يفكروا في مطالبة الدولة بأعطيات[1] .

كل ذلك يلقي ضوءاً كاشفاً على حقيقة وضع القطر الأندلسي خلال الفترة التي تقع بين تمام الفتح وبين قيام الدولة الأموية على يد عبد الرحمن بن معاوية المعروف بالداخل سنة ١٣٨ هجرية (سنة ٧٥٦ م) فهو لم يكن ولاية تابعة تمام التبعية للخلافة المركزية كمصر أو كالشمال الإفريقي مثلاً ، ولم يكن كذلك قطراً مستقلاً تمام الاستقلال ، وإنما كان له وضع خاص بين بين : كان يكوّن جزءاً من الدولة الإسلامية مكملاً لإفريقية داخلاً في طاعة الخلفاء ، يخطب لهم على منابره ، ولم يزد سلطان الخلفاء فيه على هذا اللون الضعيف من ألوان التبعية إلا قليلاً كما سنرى ، وسنحاول فيما يلي من هذا الفصل أن نزيد هذا الأمر وضوحاً .

---

(١) يذهب بعض المؤرخين إلى أن جند المسلمين الذين كانوا يخرجون للحملات فيما وراء جبال ألبرت بلغوا ثمانين أو مائة ألف في مواقع مثل طولوشة وبلاط الشهداء، وتلك تقديرات مبالغ فيها، إذ الواقع أن جند المسلمين لم يزد في هذه المناسبات عن ستين أو سبعين ألفاً أكثر من ثلاثة أرباعهم من البربر، والربع ـ أي بين خمسة عشر وعشرين ألفاً ـ كانوا من العرب. هذا وقد كان العرب وحدهم هم أصحاب الحق في فروض الديوان، أما البربر فلم يكن يفرض لهم رزق، وسنرى أن ذلك سيكون من أسباب ثورة البربر على العرب.

٣٣ ـ هجرة العرب إلى الأندلس

وظاهرة أخرى لا تقل غرابة ولا أهمية عن هذه : هي هجرة العرب إلى الأندلس وسكناهم نواحيه ، ولسنا نقصد بذلك جماعات العرب الفاتحة ، وإنما جماعات المهاجرين المسالمين الذين أقبلوا إلى الأندلس بعد الفتح واستقروا في نواحيه دون أن تحدثنا المراجع عنهم بشيء ينقع الغلة ، فقد رأينا أن عدد العرب الذين أقبلوا مع موسى لم يزد على ثمانية عشر ألفاً ، وسنلاحظ أن بضعة آلاف أخرى ستقبل خلال العشرين سنة التالية شيئاً فشيئاً ، وسنرى أن موجة أخرى لا يزيد عددها على عشرة آلاف ستقبل مع بلج بن بشر ، فإذا أخرجنا من ذلك أعداد من لقي مصارعه في فتح البلاد وما وراءها من نواحي غالة ، وأعداد من عاد إلى المشرق أو إلى إفريقية بعد الفتح ، لم نستطع أن نقدر من استقر في الأندلس من العرب بأكثر من خمسة وعشرين ألفاً .

ولكننا لا نكاد نمضي في استقصاء أخبار الأندلس حتى نجده يموج بالعرب موجاً : نجد جماعات عربية ضخمة في نواحي قرطبة وإشبيلية والجزيرة الخضراء وتدمير وسرقسطة ، غير جاليات أخرى صغيرة في كل ناحية تقريباً ، وقد استعرض ابن غالب في « فرحة الأنفس » بعض هذه الجماعات العربية استعراضاً سريعاً مقتضباً يفهم منه أن عددهم كان يبلغ على الأقل أضعاف هذه الألاف التي ذكرها المؤرخون(١) .

فمن أين أتى هؤلاء العرب ؟ وكيف بلغ من كثرتهم أنهم احتلوا معظم سهول البلاد حتى لم يبق للبربر غير القليل منها ، وسهول الأندلس واسعة لا يملؤها إلا مئات الآلاف ، فكيف أقبل إلى البلاد هؤلاء العرب الذين فاضت بهم الأندلس من أقصاها إلى أقصاها ؟

لسنا نستطيع تفسير ذلك إلا إذا افترضنا أن تياراً من مهاجري العرب

---

(١) راجع البيانات التي يقدمها المقري نقلا عن «فرحة الأنفس» لابن غالب: نفح الطيب (القاهرة سنة ١٩٤٩) ج١، ص ٢٧١ وما يليها.

كان يتجه نحو الأندلس من أول الأمر ، ويؤيد ذلك قول الرازي بعد وصف معركة وادي لكة : « وتسامع الناس من أهل بر العدوة بالفتح على طارق بالأندلس وسعة المغانم فيها ، فأقبلوا نحوه من كل وجه ، وخرقوا البحر على كل ما قدروا عليه من مركب وقشر فلحقوا بطارق ، وارتفع أهل الأندلس عند ذلك إلى الحصون والقلاع ، وتهاربوا من السهل ولحقوا بالجبال »(١) . وهي عبارة هامة تدل على أن اندفاع الناس نحو الأندلس كان عظيماً لا يكاد يعدله اندفاعهم نحو أي بلد آخر مما فتح الله على المسلمين في ذلك الحين .

ولم يفسر لنا الرازي عبارته تلك حتى نعرف نسبة العرب إلى البربر في هذه الجماعات المهاجرة ، ولكننا نستطيع أن نقرر أن نسبة العرب وإن كانت قليلة إلا أن عددهم كان كثيراً ، وأن جانباً عظيماً من هؤلاء استقر في الأرياف من أول الأمر على صورة جماعات قليلة في كل ناحية ، وقد وضعت هذه الجماعات يدها على ما استطاعت من الأرض وأخذت تعمل على عمارته واستحيائه مستعينة بالزراع من الأهلين على نظام المزارعة الذي سنشرحه . وكانت الأحوال السياسية في المشرق سبباً من أسباب هجرة العرب إلى الأندلس : فقد هاجر الكثيرون جداً من أهل الحجاز من بلادهم إلى العراق

---

(١) الرازي برواية المقري : نفح الطيب، ج١، ص ١٦٣.

ويبدو أن هذه العبارة تنصب في الغالب على البربر، ولكن الذي لا شك فيه أن جماعات كثيرة من أهل المدينة كانت قد هاجرت بعد الحرة إلى إفريقية والأندلس. راجع الإشارات عن ذلك عند:

اليعقوبي: كتاب البلدان، ص ٣٢٧ـ ٣٢٨.

ابن خلدون: كتاب العبر، ج٣، ص٢١ وما بعدها.

السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص ٢٠٩ وما يليها.

ابن الأثير: الكامل، ج٣ ،ص ٥٧.

المسعودي: مروج الذهب، ج٥، ص ٢٠٠ وما بعدها. ابن الأبار: الحلة: ص ٤٧ـ ٤٩.

P.H. LAMMENS, *Le Califat de Yazid Ier,* VIII-IX pp. 114 sqq.

Weil,*Geschictheder Chalifen,* I, p. 326 sqq.

DOZY, *Musulmans d,Espagne.* I, pp. 119 sqq

وهذه المسألة رغم ذلك لا تزال غامضة جداً لقلة وضوح المراجع.

وخراسان والشمال الإفريقي والأندلس عقب هزيمة عبد الله بن الزبير ، وهاجر كثير من الكلبيين بعد انتصار مروان بن الحكم واعتلائه عرش الخلافة ، نتيجة للخطوة التي وصلوا إليها وهاجر عدد عظيم من مصر إلى الأندلس بسبب ما تلا ذلك من أحداث[1] .

وأما البربر فكانت أعداد مهاجريهم تزيد على أعداد العرب أضعافاً ، وتذهب بعض التواريخ الحديثة إلى أن العرب استأثروا دونهم بخير النواحي ولم يتركوا لهم غير الهضاب القاحلة في الشمال[2] ، وهذا غير صحيح على إطلاقه ، لأن البربر انتشروا واستقروا من أول الأمر في كل ناحية ، وكانت غالبية هذه الأفواج الأولى من البربر المهاجرين من زناتة ، لأن الزناتيين كانوا أول البربر إسلاماً وانضماماً للعرب ، وكان طارق بن زياد منهم[3] .

أخذت هذه الجماعات المسلمة ـ عربية وبربرية ـ تستقر في نواحي البلاد خلال فترة الولاة كلها ، وسنرى أثر ذلك في تطور الحوادث وفي تحول الأندلس إلى بلد إسلامي عربي الطابع في أقل من قرن .

* * *

---

(١) انظر الهامش السابق .

(٢) المسؤول عن إذاعة هذه الفكرة دوزي ، وقد اعتمد على عبارة قصيرة جداً وموجزة لإيزودور الباجي (فقرة ٤٤) ولكننا سنرى أن الحوادث لا تؤيد هذا الرأي . صحيح أن العرب أساؤوا معاملة البربر وآذوهم كثيراً ، ولكنهم لم يختصوا أنفسهم بأحسن الأرضين ، لأن أرض الأندلس كانت من الوفرة بحيث كانت تكفي جميع العرب عن سعة ، ويبقى للبربر بعد ذلك من الأرض ما فيه الكفاية في كل ناحية .

(٣) كان معظم البربر الذين أسلموا أول الأمر من زناتة . راجع :
ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢٠٠ ـ ٢٠١ .
البلاذري : فتوح البلدان ، ص ٢٢٤ .
ابن الأثير : أسد الغابة ، ج٣ ، ص١٨٤ .
ابن خلدون : كتاب العبر ، ج٦ ، ص ١٠٨ .
وفتح العرب للمغرب لصاحب هذا الكتاب ، ص ٢٨٢ وما بعدها .

٣٤ ـ ولاية عبد العزيز ابن موسى

أصبح عبد العزيز بن موسى بن نصير والياً على الأندلس منذ مبارحة أبيه موسى البلد في صفر سنة ٩٥ هـ (اكتوبر ـ نوفمبر سنة ٧١٣ م) ، ولسنا نعلم إن كان الخليفة سليمان بن عبد الملك قد بعث إليه كتاباً يثبته في هذه الولاية ، وإن كنا نعلم في شيء من الثقة أنه أقره في ولايته سياسةً منه أو رضى عنه . وكان الأندلس في ذلك الحين تابعاً لإفريقية ، وكانت ولاية إفريقية بيد عبد الله بن موسى ، أخي عبد العزيز ، فليس إلى الشك سبيل في أنه أيده على هذه الولاية .

وتكاد المراجع لا تذكر لعبد العزيز عملاً خلا ما ذكرناه من فتحه الجزء الجنوبي الشرقي من شبه الجزيرة ، ويبدو أن نفسه كانت طول الوقت مروعة ينتابها الخوف على مصير أبيه ومصير أسرته ، فمال إلى السكون والانتظار والترقب ، وبهذا وحده نعلل سكوته عن العمل وقد عرفناه إلى ذلك الحين رجلاً نشيطاً مقداماً .

٣٥ ـ مقتل عبد العزيز ابن موسى

ويبدو أن حاله مع الجند لم يكن على ما يرجى ، لا لأنهم كانوا ساخطين عليه بل لأن نفراً من بينهم كان شديد التطلع والطموح ، تذكر المراجع منهم حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة ابن نافع الفهري حفيد عقبة بن نافع ـ وقد كان شخصية قلقة لا تكف عن السعي والتدبير كما سنرى ـ وزياد بن عذرة البلوي ، وزياد بن نابغة التميمي ، وكانوا جميعاً من الظاهرين من جند موسى وكبار رجاله . وكان حبيب بن أبي عبيدة الفهري أكبرهم وأظهرهم ، وكان موسى قد ألحقه بابنه وجعله « وزيراً له ومعيناً »[1] كما يقول ابن عذارى ، ويبدو أن الخلاف بين هؤلاء القادة وعبد العزيز كان مستمراً « لأشياء نقموها عليه »[2] ، كما يقول الرازي .

فأما هذه الأشياء التي « نقموها عليه » فهي علاقته بزوجه النصرانية

---

(١) ابن عذارى: البيان، ج٢، ص ٢٢ .
(٢) نفس المصدر، ج٢، ص ٢٧ .

« أجيلونا » التي تسميها المراجع العربية أيلُه (= أيلونا) أو أم عاصم . وكانت أيلونا قبل ذلك زوجاً للذريق فيما تذهب المراجع ، « وكانت قد صالحت على نفسها في وقت الفتح وباءت بالجزية ، فأقامت على دينها فحظيت عنده وغلبت على نفسه »[1] ، فتزوجها وأقام معها في ناحية من كنيسة رُفِينَة في إشبيلية ، وكانت قد حولت إلى مسجد ، فكانت داره على هذا قريبة من موضع اجتماع المسلمين ومكان صلاتهم . ولو قد كان عبد العزيز ضعيفاً مترفاً كما يفهم من مراجعنا لاستطاع أن يسكن أحد قصور إشبيلية الحسان ، ولكنه كان في واقع الأمر رجلاً جاداً حريصاً على أن يكون على مقربة من رجاله . ويبدو أن أيلونا كانت على جانب عظيم من القوة والذكاء ، لأنها لم تلبث أن ملكت زمام زوجها فتابعها في كثير مما أرادت . وتذهب المراجع إلى أنها عملت له تاجاً من الذهب والجوهر وحملته على أن يلبسه ، لأن « الملوك إذا لم يتوجوا فلا ملك لهم » كما قالت ، وما زالت به حتى قبل أن يلبسه إذا خلا إليها ، « فبينما هو ذات يوم جالس معها والتاج على رأسه دخلت عليه امرأة كان قد تزوجها زياد ابن نابغة التميمي من بنات ملوكهم ، فعاينته والتاج على رأسه ، فقالت لزياد : ألا أعمل لك تاجاً ؟ فقال لها : ليس في ديننا استحلال لبسه ، فقالت : ودين المسيح إنه لعلى رأس ملككم وإمامكم ، فأعلم بذلك زيادُ حبيبَ بن أبي عبيدة ، ثم تحدثا بذلك حتى علمه خيار الجند ، فلم يكن لهم هم إلا كشف ذلك ، حتى رأوه عياناً ، فقالوا : قد تنصَّر ! ثم هجموا عليه فقتلوه »[2] .

ولسنا نعلم كيف فسر الجند لبسه التاج بأنه قد تنصر ، هذا إذا كان قد لبسه أصلاً ، ولا كيف قال عبد العزيز إن لبس التاج ليس من الدين ، مع أن أشراط الدين ليس فيها ما يفهم منه ذلك ، ثم إن الرجل لم يلبسه كشارة من شارات الملك ، بل لبسه في خلواته مع أهل بيته . ولسنا نفهم كذلك

(١) فتح الأندلس، ص ٢١.

(٢) ابن عذارى: البيان، ج٢، ص ٢٣.

كيف ثار الجند هذه الثورة لمثل هذا الأمر وهم لم يكونوا يثورون على من يعب الخمر ويقترف المحرمات منهم ، وقد كان جند الأندلس من أكثر الناس إسرافاً في هذه الأمور . ثم لماذا تكون زوجة زياد بن النابغة التميمي بالذات هي التي تكشف هذا الأمر ؟

إن سياق هذه القصة يدل على أنها ملفقة تلفيقاً ، وأنها وضعت لكي تستر الدوافع الحقيقية التي حفزت جند عبد العزيز على قتله .

وأما القول بأن الخليفة سليمان هو الذي أوعز بقتله فقول لا يجد ما يؤيده ، لأن الخليفة لم يكن عاجزاً عن عزله إن أراد ، ولم يكن ليخشى ثورته بالجند لأن الجند كان مختلفاً عليه ، وليس بمعقول أن يكون حقد سليمان على عبد العزيز أشد من حقده على أبيه موسى .

ومصداق ذلك ما يذكره صاحب الأخبار المجموعة من أن سليمان بن عبد الملك لما بلغه « مقتل عبد العزيز بن موسى شق ذلك عليه ، فولى إفريقية عبيد الله بن يزيد القرشي ، لا أدري لمن من قريش (يريد محمد بن يزيد مولى قريش والي إفريقية) ، وإلى إفريقية كان أمر الأندلس وطنجة وكل ما وراء إفريقية . وأمره سليمان فيما فعله حبيب بن أبي عبيدة وزياد بن النابغة من قتل عبد العزيز ، بأن يتشدد في ذلك ، وأن يقفلهما إليه ومن شركهما في قتله من وجوه الناس . ثم مات سليمان ، فسرح عبيد الله بن يزيد والي إفريقية على الأندلس الحرَّ بن عبد الرحمن الثقفي ، وأمره بالنظر في شأن قتل عبد العزيز »[1] . مما يفهم منه صراحة أن الأمر دبر بغير علم الخليفة ، وأن له أسباباً أخرى لا تفصح المراجع عنها . وتؤيدنا رواية الأخبار المجموعة تلك فيما ذهبنا إليه آنفاً من أن الأمر دبره حبيب بن أبي عبيدة ونفر ممن كان معه من الجند ، وسنرى أن حبيباً هذا سيظل طول حياته سبباً للمتاعب

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٢١ ـ ٢٢ .

والقلاقل ، وأن مصيره لن يكون خيراً من مصير عبد العزيز .

وأقرب التفاسير إلى الصحة هو القول بأن المسألة كانت نتيجة لتدبير محكم بين محمد بن يزيد عامل إفريقية لسليمان وبين حبيب بن أبي عبيدة ، ونفر من الجند ، وأن هؤلاء قرروا قتله دون الرجوع إلى سليمان في الأمر ، ومصداق ذلك ما يقوله صاحب فتح الأندلس : « ثم اجتمعوا على أيوب بن حبيب اللخمي الذي قُتل عبد العزيز بمشورته » مما يدل بوضوح على أن الأمر تم في الأندلس بعد أن اشتوَر فيه الجند .

وكان سليمان قد أوصى يزيد بأن « يأخذ آل موسى بن نصير وكل من انتسبوا إليه حتى يقوموا بما بقي عليه وهو ثلاثمائة ألف دينار ولا يرفع عنهم العذاب ، فقبض على عبد الله والي القيروان فحبسه في السجن ، ثم وصل البريد من قبل سليمان يأمره بضرب عنقه . . . وحكى الواقدي ، قال : لما بلغ عبد العزيز بن موسى ما نزل بأبيه وأخيه وأهل بيته خلع الطاعة وخالف ، فأرسل إليه سليمان رسولاً ، فلم يرجع ، فكتب سليمان إلى حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع ووجوه العرب سراً بقتله ، فلما خرج عبد العزيز إلى صلاة الصبح قرأ فاتحة الكتاب ، ثم قرأ سورة الواقعة ، فقال له حبيب : « حقت عليك يا ابن الفاعلة ! » وعلاه بالسيف فقتله »[1] .

فمن المعقول جداً أن يكون عبد العزيز قد تحدث بشيء من السخط على بني أمية بسبب ما أنزله سليمان بأبيه وأخيه وآله ، دون أن يصل به هذا السخط إلى حد الثورة وخلع الطاعة ، لأنه لو كان فعل هذا لأبعد حبيب بن أبي عبيدة عن معسكره ولاحتاط منه على الأقل ، فلم يكد خبر هذا الحديث يصل إلى محمد بن يزيد حتى أوعز إلى حبيب هذا ومن معه يغريهم به فغدروه على النحو الذي تصوره رواية الواقدي وتؤيده كل الروايات الأخرى فيه .

---

(١) انظر: ابن عذاري: البيان المغرب، ج٢، ص ٢٣ ـ ٢٤.
وفتح الأندلس، ص ٢٣.

وتجمع المراجع على الثناء على عبد العزيز ، فهو عند أكثرهم من خيار الولاة ، ويؤكد الرازي أنه « ضبط سلطانها وسد ثغورها وافتتح مداين كثيرة ، إلا أن مدته لم تطل . . . » . وإذا جاز أن نستنتج شيئاً من قصته مع أيلونا فهو أنه كان رجلاً تقياً لطيفاً حسن العشرة ، وأنه كان قادراً على تذوق الحياة .

٣٦ ـ أيوب بن حبيب اللخمي

يقول صاحب « فتح الأندلس » أن جند الأندلس اجتمعوا بعد قتل عبد العزيز « على أيوب بن حبيب اللخمي ابن أخت موسى الذي قُتل عبد العزيز بمشورته » ، وهي عبارة هامة تكشف لنا عن بعض أسباب مقتل عبد العزيز ، ولو أضفناها إلى رواية « الأخبار المجموعة » ـ التي ذكرناها آنفاً والتي تؤكد أن سليمان استاء حين بلغه خبر مقتل عبد العزيز وبعث يطلب إلى والي إفريقية فحص المسألة وإرسال من اشتركوا فيها إليه ـ تبيّنا أن القول بأن سليمان هو الذي حرض على مقتل عبد العزيز غير صحيح ، وأن الحادث كان من تدبير نفر من رجال العرب في الأندلس . فقد كان كبار الجند ـ وعلى رأسهم أيوب بن حبيب اللخمي هذا وحبيب بن أبي عبيدة وزياد بن عذرة البلوي وزياد بن نابغة التميمي ـ ناقمين على عبد العزيز ، فقتلوه ليتولى الأمر واحد منهم وهو أيوب . ويبدو أنهم كانوا يحسبون أن سليمان سيرضى عن فعلتهم هذه ويقرهم على ما فعلوا ، ولكن سليمان لم يلبث أن أرسل يطلب عقابهم ، ولم يلبث أن عزل واليهم هذا وأقام غيره .

٣٧ ـ نقل العاصمة من إشبيلية إلى قرطبة

لم تزد ولاية أيوب عن ستة أشهر لم يفعل فيها شيئاً يذكر إلا نقله العاصمة من إشبيلية إلى قرطبة ، ولا نزاع في أن قرطبة كانت أوفق من إشبيلية لحكم الأندلس ، لأن موقعها أوسط وأقرب إلى منازل جماعات العرب في الشرق والجنوب الشرقي والجنوب . ولو أنهم انتقلوا إلى طليطلة لكان أحسن ، لأنها في وسط شبه الجزيرة تماماً ، وهي على أبواب الهضاب الشمالية والشمالية الغربية ، وصاحبها لا يجد صعوبة في إخضاع هذه النواحي ، أما قرطبة فبعيدة عنها

جداً ولا تستطيع الحملات الصادرة منها الوصول إلى نواحي قشتالة وأشتريس إلا بعد سير طويل مجهد . وقد ظلت إشبيلية عاصمة الأندلس الإسلامي أربع سنوات إلا قليلاً ، ويبدو أن النية لم تتجه إلى الانتقال إلى قرطبة إلا في أواخر أيام عبد العزيز . وكانت جماعات كبيرة من العرب قد استقرت في إقليمها ، وظلت مقيمة فيه بعد انتقال العاصمة إلى قرطبة ، وكان معظم هؤلاء العرب الذين استقروا في إقليم إشبيلية وكبار مدنه مثل وادي آش وشريش وشَلْطِيش من هوازن وأسد وبكر بن وائل وإياد بن نزار ومراد وخولان ، وتكونت منهم مع الزمن جالية عربية قوية اختلطت بأهل البلاد ، وقامت لهم مع الزمن عصبية خطرة كان لها فيما بعد مع أمراء قرطبة المروانيين تاريخ طويل حافل بالحروب والمنازعات .

وكان قد سكن قرطبة وإقليمها عدد عظيم من العرب ، بل كان ما يحيط بها من الأرباض أحفل أقاليم الأندلس بالعرب من أول الأمر ، وكان هؤلاء العرب المستقرون هناك من أصول شتى لا يكاد يستقر فيما بينهم ، فكان انتقال الحكومة إليها سبباً في تورط العمال فيما عساه أن يشجر بين هذه القبائل من خلافات .

وكنا قد أشرنا إلى أن موسى بن نصير كان قد وهب مغيثاً الرومي القصر الذي كان حاكم قرطبة القوطي يعيش فيه في غرب المدينة ، فلما عاد موسى من فتوحه في الشمال ومر بقرطبة ورأى القصر استكثره على مغيث ، ورأى أنه أوفق ما يكون لعامل البلاد ، فصرف مغيثاً عنه وعوضه عنه داراً أخرى على مقربة من باب القنطرة مقابل الثلمة التي دخل منها أصحابه حين افتتح قرطبة ، وكانت داراً شريفة ذات سقي وزيتون وثمار ، ويقال لها « أَلْيُسَانَة » كانت للملك الذي أسره وكان له فيها بلاط منيف ، فهي تسمى بالأندلس « بلاط مغيث » . وقد أخلى مغيث هذه الدار لتصبح قصر عمال قرطبة وأمرائها ، ويبدو أن أيوب حينما دخل البلد لم يسكنه .

٣٨ - عامل إفريقية يولي الحر ابن عبد الرحمن الثقفي على الأندلس

وكانت ولاية الأندلس في ذلك الحين إلى عامل إفريقية ، وكان عاملها كما ذكرنا محمد بن يزيد (ذو الحجة سنة ٩٧ هـ / أغسطس سنة ٧١٦ م - رمضان سنة ١٠٠ / مارس سنة ٧١٩ م) فلم يقر الجند على ما فعلوا من تولية أيوب بن حبيب وسارع فبعث الحرَّ بن عبد الرحمن الثقفي والياً في ذي الحجة سنة ٩٧ هـ / ٧١٦ م . ويبدو أن سليمان بن عبد الملك هو الذي حفزه على ذلك ، رغبة منه في عقاب من شاركوا في قتل عبد العزيز بن موسى ، ويبدو أن الحر كان قد توقع مقاومة من أيوب وأصحابه من المؤتمرين فاصطحب معه قوة صغيرة من أربعمائة عربي من وجوه عرب إفريقية ، ويبدو أنهم كانوا نخبة مختارة ، فلم يستطع جند الأندلس لهم مقاومة ، وأسلموا لهم الأمر . وأصبح الحر والياً على البلاد .

أقام الحر حاكماً للأندلس سنتين وثمانية أشهر ، ولا تذكر المراجع له شيئاً غير سكناه قصر قرطبة الكبير واختطاطه إياه مقاماً للعمال من ذلك الحين .

توفي سليمان بن عبد الملك في العاشر من صفر سنة ٩٩ / ٢٢ سبتمبر سنة ٧١٧ م ، وخلفه عمر بن عبد العزيز ، فبدأ الأندلس في خلافته عهداً جديداً ، شأنه في ذلك شأن إفريقية وبعض الولايات الإسلامية الأخرى ، بسبب ما امتاز به من الإخلاص في أمور المسلمين والعناية بشؤون دولته والحرص على تخير العمال الصالحين القادرين على النهوض بالمسؤوليات .

٣٩ - ولاية السمح بن مالك الخولاني

وقع اختيار عمر على رجل من أفاضل عرب إفريقية ليلي شؤون الأندلس وهو السمح بن مالك الخولاني ، وكان قد ظهر قبل ذلك في مناسبة لا تخلو من معنى ، يذكرها معظم رواتنا ، فيقولون إن عادة خلفاء بني أمية كانت قد جرت بأن لا يدخلوا خزائنهم شيئاً مما يرسله الولاة من خراج ولاياتهم إلا إذا شهد عشرة من عدول الجند في الولاية بأن هذا المال هو المستصفى الحلال لبيت المال ، بعد دفع

أعطيات الولاية والإنفاق على مصالحها وشؤونها . فلما أقبلت أموال إفريقية في أحد أعوام خلافة سليمان ، أقبل معها عشرة من العدول تخيرهم الوالي ، وفيهم إسماعيل بن عبيد الله والسمح بن مالك ، فحلف الثمانية الآخرون على صحة هذا المال وحلاله ، وأما السمح وإسماعيل بن عبيد الله فأبيا أن يحلفا . وكان عمر بن عبد العزيز حاضراً إذ ذاك ، فأعجبه عمل الرجلين وضمهما إلى نفسه وادخرهما إلى وقت يحتاج إليهما فيه . وهي رواية تدل على صحة ما كان يتهم به ولاة إفريقية للأمويين من سوء التصرف في أموال البلاد ، وإرهاقهم أهلها بالمغارم والجبايات ، والمبالغة في مقادير ما يرسلونه إلى دمشق من الأموال والألطاف[1] .

فلما صارت الخلافة لعمر بن عبد العزيز في العاشر من صفر سنة ٩٩ هـ / ٢٢ سبتمبر سنة ٧١٧ م لم يقدم شيئاً على إصلاح ما أفسده من سبقه من الأمويين ، واشتغل بذلك عن أمور الأندلس عاماً وثمانية أشهر ، فلم تتح له الفرصة للنظر في شؤون المغرب والأندلس إلا في رمضان سنة ١٠٠ هـ (أبريل ـ مايو سنة ٧١٩ م) ، فأقام إسماعيل بن عبيد الله على إفريقية والسمح بن مالك على الأندلس .

٤٠ ـ عمر بن عبد العزيز يفكر في إخلاء الأندلس من العرب

تذهب المراجع إلى أن عمر بن عبد العزيز كان يفكر في إقفال المسلمين من الأندلس وإخلائها منهم ، إذ « خشي تغلب العدو عليهم » كما يقول ابن القوطية[2] ، أو « لانقطاعهم من وراء البحر عن المسلمين » كما يقول صاحب فتح الأندلس وصاحب الأخبار المجموعة[3] . ولسنا نجد تفسيراً معقولاً لهذه النزعة من خليفة عرف بالحرص على نشر الإسلام وتوسيع رقعته ، لأن حال المسلمين في

---

(١) الأخبار المجموعة، ص ٢٣ .
فتح الأندلس، ص ٢٤ـ ٢٥ .
(٢) ابن القوطية : افتتاح، ص ١٢ .
(٣) الأخبار المجموعة، ص ٢٣ . فتح الأندلس، ص ٢٤ .

الأنـدلس كان في إقبـال إلى ذلك الحـين ، ولم يكن الأعداء قـد نهضوا لهم عـلى الـوجه الخـطر الذي سنـراه فيـها بعـد ، ولم تكن فتن العصبيـة قـد عصفت بهم وفـرقتهم وأضعفتهم . وربما جـاز تعليله بأن عمـر لم يكن يعلم شيئاً عن عـظمة الأنـدلس واتساع مـداها ومـا كـسبه المسلمـون من فتحها ومـا يعود عـلى الدولـة الإسلامية من أسباب الخير والقـوة من بقائهـا في أيديهم ، ولهـذا تذكـر المراجـع أنه لما ولى السمح بن مالك طلب إليه « أن يكتب إليـه بصفة الأنـدلس وأنهارها وبحرها » ، ولا يستبعـد أن يكون أبـاح له إقفـال المسلمين منهـا إذا وجد أنها لا تستحق عنـاء حكمهـا والمحـافـظة عليهـا ، فكتب إليـه الـسمـح « يعـرفـه بقـوة الإسـلام وكثرة مـداينهم ، وشرف معـاقلهم »[1] ، فلما استوثق عمـر من أهميـة الأندلس وثبات أقدام المسلمين فيه أولاه من عنايته ما هو أهل له .

٤١ ـ ضبط المال وتنظيم البلاد

وكـان أول ما اهتم بـه عمر بن عبـد العزيـز هو ضبط أمـوالـه وتنظيم أمر خـراجه ، وهـو أمر لم يعن بـه واحد ممن سبقـه من الخلفاء ، فانتـدب مولى من ثقـاته يسمى جـابراً وبعثـه في هذه المهمة[2] . ولسنا نعلم الأساس الذي سار عليه جـابر هـذا في أداء مهمته تلك ، لأن النصوص تذكر أنه اهتم بتمييز أرض الصلح من أرض العنـوة وباستخـراج خمس العنوة لكي يضمـه إلى أرض الدولـة ، فلم يخـرج في الخمس إلا ربضـاً من أرباض قـرطبة جعله مقبـرة للمسلمـين وأقـر القـوى بيـد غنّامها . وهذه عبارة لا تفسر إلا بـأن جابـراً اعتبر قـرطبة هي النـاحية الـوحيدة التي فتحت عنوة ، فأخذ خمسها للدولـة ، وأما بقيـة الأندلس فـاعتبره قـد فتح صلحـاً . ولما كنـا نعلم أن معظم الأنـدلس قـد فتـح عنـوة : الجنـوب وأقـاليم قـرطبة وإشبيليـة وماردة عـلى الأقل ، فكيف لم يـزد خمس ذلـك كله عـلى ربض من أربـاض قرطبـة ؟ ثم ما معنى قـولهم إنه أقـر القرى في أيـدي غنامهـا ؟ على

(١) ابن القوطية : افتتاح، ص ١٢ـ ١٣.
الأخبار المجموعة، ص ٢٣.
(٢) ابن القوطية : افتتاح، ص ١٢.

أي أساس تركها في أيديهم ؟ إن لفظ « غنامها » هنا يسمح لنا بأن نفترض أن الحكومة المركزية اعتبرت ما فتح من بلاد الأندلس غنيمة لمن فتحوه ، فتركت كل ناحية بأيدي من فتحوها واستقروا فيها . إننا نفترض ذلك بمجرد افتراض ، ولا يمكننا إيراده على صورة مؤكدة ، لأن عبارات المراجع قليلة مبتسرة غامضة ، ولا تعيننا بأية صورة على تبين النظام الذي وضعه المسلمون للأندلس .

وإذا كان عمر بن عبد العزيز قد تخير السمح بن مالك لفضله وأمره أن « يحمل الناس على طريق الحق ولا يعدل بهم عن منهج الرفق ، وأن يخمس ما غلب عليه من أرضها وعقارها ، ويكتب إليه بصفة الأندلس وأنهارها . . »[1] فكيف لم يدون للبلاد ديواناً ؟ لقد رأينا حسان بن النعمان يسارع بذلك عقب تمام انتصاره على الكاهنة ، فكيف تنقضي إلى الآن أربع سنوات على تمام الفتح دون أن ينشأ للبلد ديوان ثابت يحصي كل شيء وينظم كل شيء ؟ الحق أن الأندلس ينفرد بهذا الوضع الغريب من بين ولايات الدولة الإسلامية جميعاً : لا نعرف إن كان قد أنشيء له ديوان ، ولا نعرف على أي أساس وزعت أرضه بين الفاتحين والدولة المركزية ، بل إننا لا نملك ولو فكرة يسيرة عابرة عن مقادير الجزية أو الخراج التي كانت تجبى منه ولو لسنة واحدة . الأندلس هو البلد الإسلامي الوحيد الذي ظل تابعاً لمركز الخلافة نيفاً وأربعين سنة دون أن يذكر المؤرخون ولو مرة واحدة مقدار جزية جبيت منه أو خراج أرسل منه في إحدى السنوات ، بل لم تسجل المراجع أن الأندلس أرسل إلى مركز الخلافة خراجاً ما ، أو جانباً من الجباية ، وهذا وضع غريب في ذاته ، وسنرى فيما يلي أن عدم ذكر هذه الشؤون المالية ليس مرده إلى إغفال المؤرخين أو سهوهم ، بل لأن وضع الأندلس في ذاته من أول الأمر كان غريباً لا يشبهه في ذلك بلد إسلامي آخر .

ويبدو أن السمح كان ماضياً في تنظيم البلد وإحصاء أمواله ، ولكن

---

(١) ابن عذارى: البيان، ج٢، ص٢٥.

الظروف لم تمهله ، لأن خلافة عمر بن عبد العزيز لم تطل ، وهو لم يولَّ إلا بعد أن انقضى منها نحو العام ، وكان عليه إلى جانب هذا العمل الإداري أن ينشط للغزوات في أحيانها ، وكان عظيم الرغبة في الجهاد ، فلم يلبث أن استشهد في طرسونة في يوم عرفة من سنة ١٠٢ هـ فلم تتح له فرصة استكمال العمل الإداري الذي بدأه .

ولعل هذا يأذن لنا في أن نفترض أن « البطحاء المعروفة بالربض » ، وهي التي خرجت في الخمس ، لا تعني إلا خمس إقليم قرطبة[1] ، لأنه ـ كما يقول ابن عذارى ـ لا يعقل أن يكون هذا الربض هو خمس الأندلس كله ، وأن الرجل كان على نية استقصاء الأمر في الأندلس كلها لو لم تدركه منيته ، وأنه إذا كان قد ترك القرى في أيدي أربابها فإنما فعل ذلك إلى أن يحين وقت ضبطها على أساس ثابت ؛ لأنه لا يعقل أن يكون قد تركها في أيديهم هكذا طعمة لا يكادون يحاسبون عنها .

لم يكد السمح يمضي في تنظيم شؤون البلاد من الناحية المالية حتى اجتمع له مبلغ كبير من المال ، وكانت قنطرة قرطبة الرومانية التي كانت مقامة على الوادي الكبير للاتصال بنواحي جنوبي الأندلس قد تهدمت ، ولم يعد الناس يستطيعون العبور إلا في السفن ، وكان العرب في أمس الحاجة إلى قنطرة متينة يستطيعون العبور عليها من الجنوب إلى عاصمتهم الجديدة ، فوجد السمح أن بناء هذه القنطرة هو أهم ما ينبغي أن ينفق فيه هذا المال المتجمع ، فكتب إلى الخليفة عمر بن عبد العزيز يستأذنه في ذلك فأذن له ، فقام السمح « ببنائها ، فصنعت على أتم وأعظم ما عقد عليه جسر في معمور الأرض من حجارة سور المدينة ، وكانت القنطرة القديمة موصولة الرقبة بباب المدينة القبلي بها ، وقد تصدعت هذه القنطرة في أيام الإمام عبد الرحمن

---

(١) انظر: فتح الأندلس، ص ٢٤ .
ابن عذارى: البيان، ج٢، ص٢٥ .

الداخل »[1] وسنرى للمسلمين عناية عظيمة بهذه القنطرة التي ستكون ذات أهمية كبرى في تاريخ البلاد السياسي والفكري ، لأنها كانت تصل العاصمة بجنوب الأندلس وبلاد الشرق جميعاً ، ولأنها كانت من الجمال والبهاء بحيث كانت منتزه أهل قرطبة ومدار خيال شعراء الأندلس أجمعين .

وفي ربيع سنة ١٠٢ هـ (سنة ٧٢١ م) خرج السمح بالصائفة ليغزو فيما وراء ألبرت فاستشهد في طرسونة في يوم عرفة من العام نفسه ، وسنتحدث عن ذلك في فصل خاص نجمل فيه أعمال المسلمين الحربية كلها فيما وراء ألبرت .

وفي أثناء السنوات القليلة التي ذكرناها كانت العلاقات بين البربر والعرب في إفريقية والأندلس تتطور على نحو سيكون له أثر حاسم في مجرى الأمور في البلدين خلال هذه الفترة وما تلاها ، وجدير بنا أن ندرس هذه الناحية بشيء من التفصيل .

---

(١) فتح الأندلس، ص٢٥ .

الفصل الخامس

صراع العرب والبربر

٤٢ ـ خلافات العصبية

انقضت أيام الخليفة التقي العادل عمر بن عبد العزيز وواليه المجتهدين إسماعيل بن عبيدالله والسمح بن مالك الخولاني، وعاد المغرب الإسلامي إلى ما كان عليه أيام الخليفة سليمان ومن سبقه: عاد حكام إفريقية يستبدون بالأندلس ويولون عليه من الحكام من يشاؤون، وعاد هؤلاء يصرفون أموره على الوجه الذي يحبونه. ولقد رأى الأندلس في الفترة بين سنتي ١٠٢ و١١٢ حكاماً لا نكاد نذكر لهم إلا اهتماماً ظاهراً بالحروب فيما وراء ألبرت، وانصرافاً ظاهراً إلى المنازعات العصبية العنيفة(١).

كانت ولاية إفريقية خلال هذه الفترة كلها إلى رجلين من كبار رجال بني أمية، هما يزيد بن أبي مسلم مولى الحجاج وكاتبه (١٠٢-١٠٣هـ/٧٢٠-٧٢١م)

---

(١) هم: عبد الرحمن بن عبدالله الغافقي (من ذي الحجة سنة ١٠٢ إلى صفر سنة ١٠٣/من يوليه إلى أغسطس ٧٢١) وعنبسة بن سُحَيم الكلبي (من صفر سنة ١٠٣ إلى شعبان سنة ١٠٧/ ٧٢١ ـ ٧٢٦)، وعذرة بن عبدالله الفهري (من شعبان سنة ١٠٧ إلى شوال سنة ١٠٧/ من يناير إلى مارس ٧٢٦)، ويحيى بن سلامة العاملي (من شوال سنة ١٠٧ إلى ربيع الأول سنة ١١٠/ من مارس ٧٢٦ إلى يوليه ٧٢٨)، وحذيفة بن الأحوص القيسي (من ربيع الأول سنة ١١٠ إلى شعبان سنة ١١٠/ من يوليه إلى ديسمبر ٧٢٨)، وعثمان بن أبي نسعة الخثعمي (من شعبان سنة ١١٠ إلى المحرم سنة ١١١/ من نوفمبر ٧٢٨ إلى أبريل ٧٢٩)، والهيثم بن عبيد الكلبي (من المحرم سنة ١١١ إلى ذي القعدة سنة ١١١/ من أبريل ٧٢٩ إلى فبراير ٧٣٠).

انظر ابن عذارى: البيان، ج٢، ص ٢٦ـ ٢٧.

والبحث الذي كتبه لافونتي إي ألكانترا وذيل به ترجمته للأخبار المجموعة وحقق فيه ولايات عمال الأندلس.

LAFUENTE Y ALCANTARA; *Cronologia de los gobernodores de Espana.* Apendice III de *Ajbar Machmua,* pp. 220- 242.

وبشر بن صفوان الكلبي (١٠٣-١٠٩هـ/ ٧٢١-٧٢٦م). وكانت خلافة المسلمين إلى اثنين من أشد الأمويين إغراقاً في العصبية القبلية، هما يزيد بن عبد الملك (١٠١-١٠٥هـ/٧٢٠-٧٢٤م) وهشام بن عبد الملك (١٠٥ -١٢٥هـ /٧٢٤-٧٤٣م)، وفي عهدهما ظهر في البيت الأموي الانقسام والتفرق اللذان انتهيا بإضعاف البيت كله وذهاب ريحه. فقد كان يزيد بن عبد الملك مضري الميول: أغضب يزيد بن المهلب وحاربه حتى قتله، وتعقب اليمنية بألوان الأذى حتى نفروا منه ومالوا إلى أعدائه، وامتلأت نفوسهم بالثورة عليه، وعاد إليهم أحقاد مرج راهط وتحركت في قلوبهم ثاراتها(١)، وأقام على إفريقية يزيد بن أبي مسلم هذا، وكان من كبار القيسية، فلما قتل أقام مكانه بشر بن صفوان، وقوي جانب القيسية في بلاد الدولة الإسلامية كلها. فلما أقبل أخوه هشام بدا له أن يخفف من غلواء القيسية المضرية بقبض يده عنهم، ومن ثم أقام نفراً من كبار اليمنية الكلبية من أمثال خالد بن عبدالله القسري وأخيه أسد على الولايات، فأخذوا يضطهدون المضرية اضطهاداً رضي عنه الخليفة وإن لم يفعل فعلهما. ولهذا ترك بشر بن صفوان في ولايته لأن ميوله كانت كلبية يمنية، وحينما توفي بشر بن صفوان سنة ١٠٩هـ/٧٢٦م كانت ميول الخليفة قد انحرفت بعض الشيء عن الكلبية اليمنية ومالت نفسه إلى إضعاف أمرها، ولهذا أخذ يولي بعض القيسية كبار المناصب، فولى يوسف بن عمر الثقفي العراق، ونصر بن سيار خراسان، وعبيدة بن عبد الرحمن السلمي إفريقية، وكانوا جميعاً من غلاة القيسية، فأخذوا يضطهدون اليمنية الكلبية، حتى ليذكر النويري أن عبيدة بن عبد الرحمن السلمي لم يكد يصل إفريقية حتى «أخذ عمال بشر بن صفوان فحبسهم وتحمل عليهم، وكان فيهم أبو الخطاب بن صفوان الكلبي»(٢).

---

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج٨، ص ١٣٦ وما بعدها، ابن الأثير: الكامل، ج٥، ص ٢٣ وما بعدها، المسعودي: مروج الذهب، ج٢، ص ١٣٥ - ١٣٦.

(٢) ابن عبد الحكم: فتوح، ص ٢١٣ - ٢١٦. النويري: نهاية الأرب، طبعة جسبار ريميرو، ص ٣٣.
وراجع تعليق فورنيل على هذه التغيرات العصبية في الفترة الأموية:
H. FOURNEL. *Les Berbères*. I. pp, 270- 271.

هكذا أخذت عواصف العصبية تعصف بالدولة في القلب وفي الولايات، ولم يقتصر الأمر على العمال ورجال الدولة بل تعداه إلى عامة الناس، لأن الجاليات العربية التي كانت قد هاجرت إلى الولايات واستقرت فيها لم تخرج عن أن تكون قيسية مضرية أو كلبية يمنية، فإذا كان العامل قيسياً حابى القيسية واضطهد الكلبية اليمنية وآذاها، واشتبكت بينه وبينها الحروب، وإذا كان كلبياً عسف القيسية وأنزل بها من البلاء شيئاً كثيراً . ومن هنا قامت الحروب بين العرب في الولايات، وتخضبت أراضي الدولة الإسلامية من خراسان إلى أقصى الأندلس بدماء العرب، وشغلتهم هذه الخلافات في كل ناحية عما هو أهم منها وأولى بالعناية من الأمور.

ولم يشقَ بلد من بلاد المسلمين بهذه الخصومات كما شقي بها المغرب والأندلس، لا لأنها كانت فيهما أقسى وأعنف، بل لأن المغرب والأندلس كانا إلى ذلك الحين بمثابة الثغر الكبير لبلاد المسلمين عامة وكان لا بد لمن يقوم فيهما من العرب أن يكونوا كتلة واحدة يقظة، وإلا نهض لهم العدو ـ الذي لم يُقضَ عليه القضاء المبرم ـ واستعاد قوته، وتحفز لقتالهم وهم في شغل عنه. وهذا هو الذي حدث بالفعل: شغل العرب بتصفية ثاراتهم القبلية العصبية عن بقايا القوط في الأندلس، وعن إتمام إخضاع البربر في إفريقية، فأصاب هؤلاء وأولئك فرصة كانوا في أشد الحاجة إليها، واستطاعوا أن يستعيدوا ثباتهم وأن يمكنوا أقدامهم في نواحيهم النائية، ثم أخذوا يتقدمون على مهل منتهزين الفرصة في هؤلاء العرب الذين شغلتهم قيس وكلب عن القوط والنصرانية والوثنية معاً.

وليس إلى الشك سبيل في أن هذه المنازعات العصبية وحدها هي السبب في نهضة فلول القوط وتقدمهم لمنازعة العرب هذه المنازعة الطويلة التي انتهت بخروج المسلمين من البلاد جملة، وأنها هي السبب في ثورة بربر المغرب جميعه على العرب، لأنها أتت في وقت حرج كان المسلمون أحق فيه بأن يبذلوا قصارى جهدهم في إتمام فتح البلدين، فعاقتهم عن ذلك واضطراب الأمر عليهم فيهما جميعاً .

٤٣ ـ فترة سيادة الكلبيين في المغرب والأندلس

كانت ولاية بشر بن صفوان في إفريقية كلبية يمنية صرفة ، وقد عرف الكلبيون اليمنيون بإسرافهم في العصبية على الموالي في كل ناحية ، وحسبنا من ذلك الإشارة إلى سياسة الحجاج وعسفه موالي فارس ، وكان يزيد بن أبي مسلم تلميذه وكاتبه[1]، فحسب أنه يستطيع أن يسير في البربر بسيرة الحجاج في أهل العراق وفارس[2] ، وأخذ يعسف البربر ويشتد في جمع أموالهم وسَبْي نسائهم . وكان شديد العناية بإلطاف الخلفاء وكسب قلوبهم بالهدايا ، فصار يتخير أحسن نساء البربر ليبعث بهن إلى الخليفة ، وكان يأخذ المائة من الغنم ويذبحها ليأخذ فراءها العسلي الصافي ويرسلها إلى دمشق ، فربما ذبح مائة شاة دون أن يستخلص منها جلداً واحداً سليماً ، فتغيرت نفوس البربر ، وبدأت قلوبهم تتحدث بالثورة عليه ، لأن البربر كالعرب قوم بدو لا يعرفون طاعة ولا ذلة[3] .

٤٤ ـ مسؤولية الخلفاء عن أعمال عمالهم في المغرب

وليس إلى الشك سبيل في أن خلفاء بني أمية لم يكونوا ليرضوا عن سياسة يزيد بن أبي مسلم وبشر بن صفوان في إفريقية ، وأنهم لم يكونوا يعلمون شيئاً عن الوسائل التي كانا يلجآن إليها في عسف البربر والاستبداد بهم . ومن دلائل ذلك أن يزيد بن عبد الملك لم يغضب حينما علم بقتل البربر واليه يزيد بن أبي مسلم ، وقال إنه لم يرض عن عمله ، ثم أقر محمد بن أوس الأنصاري الذي أقامه أهل إفريقية على أنفسهم[4] .

وربما تبادر إلى الذهن أن الخلفاء كانوا يكلفون العمال أن يكثروا من

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢١٣ ـ ٢١٤ .
أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج١ ، ص ٢٧٢ .
(٢) النويري : نهاية الأرب ، ج١ ، ص ٢١ .
(٣) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢١٣ وما يليها .
النويري : نهاية الأرب ، ص ٢١ وما يليها .
(٤) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢١٣ .

الهدايا والألطاف ، فكان العمال يضطرون لهذا إلى الإسراف في عسف الناس والاشتطاط معهم ، ولكن رواية لابن عذارى تدل على أن العمال يحملون أكبر جانب من المسؤولية في هذا ، وذلك حيث يقول : « وكان الخلفاء بالمشرق يستحبون طرائف المغرب ، ويبعثون فيها إلى عامل إفريقية ، فيبعثون لهم البربريات المسبيات ، فلما أفضى الأمر إلى ابن الحبحاب مناهم بالكثير وتكلف لهم ـ أو كلفوه ـ أكثر مما كان ، فاضطر إلى التعسف وسوء السيرة »[1] وهي رواية تدل على أن الخلفاء كانوا يستحبون طرائف إفريقية فقط ، وأن العمال كانوا يتكلفون الإسراف في عسف الناس طلباً في المزيد من رضى الخلفاء .

وكان الكلبيون بطبعهم على جانب قليل من السياسة والكياسة ، فأسرفوا في الأمر إسرافاً نفر البربر ودفعهم إلى الثورة . وشجعهم على المضي في هذا العسف ما كان قائماً إذ ذاك بين العرب أنفسهم من عداء .

٤٥ ـ توتر نفوس البتر ـ زناتة

وكان وضع العرب في بلاد المغرب بُعَيد الفتح وضعاً فريداً في ذاته ، فإن بربر المغرب ـ على ما نعرف ـ ينقسمون إلى بتر وبرانس ، أو إلى بدو وحضر . فأما البتر فقد تسارعوا إلى الانضمام للعرب من أول الأمر واشتركوا معهم في فتح البلاد ، ولولا مساعدة قبائل بترية مثل لواتة ونفوسة وهوارة وبرغُواطة[2] ، لما استطاع العرب الوصول في المغرب إلى هذه النتيجة الباهرة التي وصلوا إليها بعد جهد طويل متصل . فلما انتصر العرب واستقرت أقدامهم في البلاد توقع

---

(١) ابن عذارى: البيان المغرب ، ج١ ، ص ٣٢ ـ ٣٣ .

(٢) راجع النصوص الخاصة بانضمام هذه القبائل إلى المسلمين من أول الأمر في :

البلاذري : فتوح ، ص ٢٢٤ .

ابن عبد الحكم: فتوح ، ص ٢٠٠ ـ ٢٠١ .

ابن الأثير: أسد الغابة ، ج٣ ، ص ١٨٤ .

ابن خلدون: كتاب العبر ، ج٦ ، ص ١٠٨ .

وانظر لمؤلف هذا الكتاب : فتح العرب للمغرب ، ص ٢٨٢ ، وما يليها .

البتر أن يعتبروهم مساوين لهم ، وأن يميزوهم عن البرانس الذين قاوموهم مقاومة عنيفة ولم يلقوا بيد الطاعة إلا بعد أن يئسوا من كل عون من ناحية البيزنطيين ، ولكن العرب لم يفطنوا إلى ذلك ، ومضوا يعاملون البربر جميعاً معاملة واحدة ، واشتدوا عليهم جميعاً ، أصدقاء وغير أصدقاء ، أحلافاً وغير أحلاف ، فتغيرت نفوس البتر ـ وزناتة منهم خاصة ـ وبدأوا يفكرون في الثورة على العرب عامة . ثم إن البربر ـ والبتر منهم خاصة ـ حملوا معظم عبء فتح الأندلس ، وقتل منهم في هذا السبيل آلاف ، في حين لم يفقد العرب إلا بضع مئات ، وكان نفر من قادة الفتح بربراً زناتيين مثل أبي زرعة طريف بن مَلُّوك وطارق بن زياد ، فلم يحسن العرب جزاء هذين ، بل أصاب موسى طارقاً بشر كبير ، ولم ينظر عرب الأندلس إلى بربرها نظر الند للند ، فأنكر البربر ذلك وبدأت نفوسهم تتغير .

وربما كان دافع عرب الأندلس إلى إساءة معاملة البربر هو خوفهم منهم ، فقد كان البربر في الأندلس أضعاف العرب عدداً ، وكان العرب يشعرون أنهم أقلية ، وكان شعورهم بهذا يدفعهم إلى التحرز من البربر وإبعادهم عن الحكومة والسلطان ، فزاد ذلك في سخط هؤلاء . وكان البتر هم حرس الولاة المقربين إليهم ، وكان الولاة قبل يزيد بن أبي مسلم يميزونهم على البرانس ويتخذون منهم بطانتهم ، فلما جاء يزيد بن أبي مسلم أغفل هذه الناحية وأساء معاملة البتر وأراد امتهانهم وإذلالهم ، فنفرت نفوسهم منه ، وفقد العرب من ذلك الحين ولاء هذا الفريق القوي من بربر إفريقية ، وسيكون لذلك أثر كبير في تطور الحوادث فيما بعد[1] .

---

(١) لاحظ قول ابن عبد الحكم : «ويقال : بل كان حرس يزيد بن أبي مسلم حين قدم البربر ليس فيهم إلا بتري ، وكانوا هم حرس الولاة قبله ، البتر خاصة ليس فيهم من البرانس أحد ، فخطب يزيد بن أبي مسلم الناس فقال : إني إن أصبحت صالحاً وشمت حرسي في أيديهم كما تصنع الروم ، فأشم في يد الرجل اليمنى اسمه وفي اليسرى : حرسي ، فيعرفون بذلك عن غيرهم ، فأنفوا من ذلك ، ودب بعضهم إلى بعض في قتله» فتوح ، ص ٢١٤ .

٤٦ ـ الأفارقة

وكـان في إفريقيـة ـ إلى جـانب الـبربـر والـروم ـ نفـر كبـير من الأفارقة ، أي من الأجـانب المستوطنين الذين طـال مكثهم في البـلاد حتى أصبحوا إفـريقيين ، وكـان معظم هؤلاء يسكنـون المدن ومـواقـع الساحل ، وكانوا على علائق حسـنة مع الروم متأثرين بحضارتهم، وكان فيهم كثير من النصارى . ولما أقبل العرب وأنشأوا يحاربون الروم وقف هؤلاء الأفارقة على الحياد بل أقبل نفر منهم على الإسلام ، وكانوا ينتظرون ألا يعتبرهم العرب روماً وألا يعسفوهم ، ولكن العرب وضعوهم والروم في منزلة واحدة ، فاعتبروا الأفـارقة مـوالي ، وغنموا أراضيهم وأمـوالهم ، فانقلبـوا أعداء لهم ، واتصلوا بزناتة ، وتفاهم الحيان على الثورة[1] .

٤٧ ـ دعاة الخارجية في المغرب

وزاد الحـال حرجـاً أن اشتداد بني أميـة مع العلويـين والخوارج أرهبهم ونفرهم من الشام والعـراق وجزيـرة العرب ، فمضـوا يلتمسـون الأمان حيثما وجدوه، وفـر منهم نفر كبـير إلى المغرب حيث وجـدوا أهله حـانقـين عـلى الأمـويـين مستعـدين للثـورة عليهم ، فلم يكن أيسر عـلى هؤلاء العلويين والخوارج من كسب هؤلاء البربـر إلى صفوفهم ؛ ووجدت مذاهـب الخارجية ـ الصفريـة والأباضيـة خاصـة ـ قبولاً طيبـاً من البربـر ، وهكذا تهيـأت في بلاد المغـرب كلها الـظروف لثـورة عـامـة كبرى على الأمويين والعرب عامة .

ويُجمـع مؤرخو المغـرب عـلى أن معـظم من أقبـل إلى إفـريقيـة من هؤلاء الـدعاة كـانوا من الصفـرية والأبـاضية ، ولسنـا نعلم بالضبط لماذا كان معـظم دعـاة الثورة في المغـرب من هذين الفـريقين من الخـوارج ، ولا السبب في إقبال

---

(١) يفهم من روايتين لأبي المحاسن والسلاوي أن زعامة برابر طنجة في الثورة التي سنتحدث عنها كانت إلى ميسرة المطغري وعبد الأعلى بن جريج الإفريقي، وكان مع كل منها قومه، مما يدل على أن الطائفتين اتفقتا على الوثوب بالعرب.
انظر: أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج١، ص٢٨.
السلاوي: الاستقصاء، ج١، ص٤٩.

أهل المغرب عليهما خاصة ، لأن مبادىء الفريقين ليست مما يجتذب البربر ، فهما أكثر الخوارج ميلاً إلى المسالمة والتسامح مع المخالفين[1] ، بل الأباضية لا تحل قتال غير الخوارج من المسلمين ولا تستحل من الغنائم غير السلاح والخيل ، والصفرية تكاد تكون أكثر مذاهب الخارجية اعتدالاً ، والبربر على ما نعلم لا يميلون إلى الأعتدال في العقائد ، وسنرى من أحداث ثورتهم أنهم كانوا متطرفين لا يعرفون وسطاً . وربما كان الأحجى أن نشك في نسبة هذه الحركات إلى الصفرية والأباضية خاصة ، لأن أسبابها كانت سياسية قبل أن تكون دينية ، ولسنا نجد على أي الأحوال في أخبار هذه الثورة الكبيرة دليلاً واضحاً على صفرية القائمين بالحركة أو أباضيتهم ، والأسلم أن نسميهم خوارج فحسب ، خوارج سياسيين لا دينيين .

ولصاحب « الأخبار المجموعة » رواية يفهم منها أن البواعث البعيدة لهذه الحركة كانت موضع خلاف بين المؤرخين القدماء أنفسهم ، وذلك حيث يقول : « وقد يقول من يطعن على الأئمة إنهم إنما خرجوا ضيقاً من سير عمالهم ، وأن الخليفة وولده كانا يكتبان إلى عمال طنجة في جلود الخرفان العسلية ، فتذبح مائة شاة ، فربما لم يوجد فيها إلا جلد واحد . وهو قول البغض للأئمة ، فإن كانوا صدقوا ، فما بال التحكيم فشا فيهم ورفعُ المصاحف وحلقُ الرؤوس ، اقتداء بالأزارقة وأهل النهروان ، أصحاب عبد الملك بن وهب وزيد بن حصن ؟ . . . »[2] .

وظاهر أن صاحب هذا المجموع القيم من الأخبار يحاول الدفاع عن خلفاء بني أمية لأنهم أجداد أموية الأندلس ، وليس إلى الشك سبيل في أن عبارته هذه موجهة إلى نفر من معاصريه الذين كانوا يرمون خلفاء بني أمية بالظلم ويحملونهم مسؤولية هذه الحركة الخطيرة .

---

(١) الشهرستاني : الملل والنحل، ص ١٦٨ـ ١٦٩ .
البغدادي : الفرق بين الفرق، ص ٦١ـ ٦٢ .
(٢) الأخبار المجموعة، ص ٣١ـ ٣٢ .

ومهما يكن من الأمر فقد اجتهد دعاة الخارجية هؤلاء اجتهاداً عظيماً في إثارة البربر ودفعهم إلى الوثوب بالعرب . ومن دلائل ذلك قول المالكي : « وكانوا ـ أي أهل إفريقية ـ يقولون : لا تخالف الأئمة بما تجني العمال ، فقالوا ـ أي الدعاة الذين كانوا يحرضون البربر على الفتنة ـ لهم : إنما يعمل هؤلاء بأمر أولئك ، فقالوا : حتى نخبرهم ! » .

« فخرج ميسرة في بضعة وعشرين رجلاً ، فقدموا على هشام ، فلم يؤذن لهم ، فدخلوا على الأبرش فقالوا : أبلغ أمير المؤمنين أن أميرنا يغزو بنا وبجنده ، فإذا غنمنا نفلهم ولم ينفلنا ، ويقول : هذا أخلص لجهادكم ! . . . ، فقلنا : لم نجد هذا في كتاب ولا سنة ، ونحن مسلمون ! فأحببنا أن نعرف أعن رأي أمير المؤمنين هذا أم لا ؟ فطال عليهم المقام ونفدت نفقاتهم ، فكتبوا أسماءهم ودفعوها إلى وزرائه ، وقالوا : إن سأل عنا أمير المؤمنين فأخبروه ، ثم رجعوا إلى إفريقية . وبلغ الخبر هشاماً فسأل عن النفر ، فعرف أسماءهم ، فإذا هم الذين صنعوا ذلك »[1] مما يدل على أن أهل إفريقية أنكروا هذه المعاملة السيئة من عمال الأمويين ، وجعل هؤلاء الدعاة يدفعونهم إلى الثورة ويؤكدون لهم أن ذلك الظلم الذي ينزل بهم إنما مصدره الخلفاء أنفسهم ، فأحب ميسرة ـ زعيم البربر ـ أن يتأكد من الأمر قبل أن يقدم على شيء ، فمضى في وفد من أهل بلده إلى دمشق ليبسط ظلامته أمام الخليفة هشام ، فلم يستطيعوا مقابلته ، فعادوا ولا مندوحة لهم عن الثورة .

٤٨ ـ العصبية العربية في الأندلس

وكان الأندلس تابعاً لإفريقية في ذلك الحين ، فلا غرابة أن تظهر فيه أصداء ذلك كله ، ولا غرابة في أن يكون لها جميعاً أسوأ الأثر على مصائر الإسلام فيه للأسباب التي ذكرناها .

أقام يزيد بن أبي مسلم وبشرُ بن صفوان الكلبي

---

(١) ليس لدينا ما يؤيد ذهاب ميسرة إلى المشرق، ولكننا نستطيع أن نستخلص من هذه الرواية أن زعماء البربر حاولوا بسط شكايتهم أمام الخلفاء قبل أن يلجأوا إلى الثورة.

اليمني على الأندلس عاملين يمنيين كلبيين هما عنبسة بن سحيم الكلبي ويحيى ابن سلامة الكلبي ، وقد حكما حوالي سبع سنوات (صفر ١٠٣ ـ شعبان ١٠٧) (شوال ١٠٧ ـ ربيع الأول ١١٠) تعصبا خلالها لليمنية الكلبية وأوغرا صدور القيسية .

وكانت قيسية الأندلس موغرة الصدر بطبعها لا تحتاج إلى من يحرك نيران أحقادها ، لأن الكثيرين من أفرادها كانوا ممن حضر حروب الزبيريين والمروانيين في المشرق ، بل كان منهم من حضر مرج راهط ورأى بعينيه مصارع القيسية وأفول نجمها بهزيمة الزبيريين ، وكانوا ينتظرون الفرصة ليسووا حسابهم القديم مع اليمنيين الكلبيين . فلم يكد هذان الواليان يسيران في سياستهما اليمنية الكلبية حتى امتلأت قلوب القيسية ألماً وجاشت نفوسهم بالثورة ، وغدوا لا ينتظرون إلا الفرصة المواتية[1] .

وكان هؤلاء الكلبيون كغيرهم من اليمنيين ذوي شره إلى الأموال وعسف في جمعها ، وقد اشتد سحيم معهم شدة خاصة ، فألزم النصارى في الأندلس بدفع جزية مضاعفة ، فتغيرت نفوس أهل البلاد وبدأ القلق يسودها من كل وجه[2] .

---

(١) أخبار مجموعة : ص ٢٤ ـ ٢٥ . DOZY, *Musulmans, d'espagne*, I.PP. 15, 599.

(٢) إيزيدور الباجي (فقرة رقم ٥٢) واسمه الكامل ISIDORO PACENSE وهو مؤلف وهمي يُقال إنه كان أسقفاً لمدينة Pace أو Pax- Julia هي Beja الحالية من مدن البرتغال (باجة عند العرب) ينسب إليه تاريخ هام لإسبانيا اسمه :

Epitoma (epitome) Imperatorum vel Arabum Ephemerides atque Hispaniae Chronographiae sub uno Volumine Collecta.

وهو يشمل تاريخ إسبانيا من أواخر العصر القوطي ، من نهاية حكم سسبرت إلى نهاية حكم يوسف الفهري آخر عمال الأندلس الأمويين ، وهو يضم معلومات هامة عن الدولة البيزنطية والدولة الإسلامية في المشرق خلال هذه الفترة. ولم يستطع البحث التاريخي الاهتداء إلى حقيقة إيزيدور هذا أو إلى نسبة هذا الكتاب إليه ، ولهذا يفضل الكثيرون تسميته «بالتاريخ الطليطلي المجهول المؤلف *ElAnonimo Toledano* » لأن مخطوطته وجدت في طليطلة ، والذي لا شك فيه هو أن مؤلف هذا المجموع الفريد من الأخبار كان واحداً من رجال الدين الإسبان ، ولكنه يمتاز عن هؤلاء باعتدال في الرأي وبعد نسبي عن العصبية الدينية التي نجدها عند غيره من مؤرخي إسبانيا =

فلما تولى إفريقية عبيدة بن عبد الرحمن السُّلمي(1) وكان قيسياً ، انقلبت الآية وتوالت على الأندلس سنوات قيسية لقي الكلبيون اليمنيون خلالها بلاء

= من رجال الدين. وروايته تزودنا بمعلومات قيمة جداً عن خلفاء الأمويين بالمشرق وأعمال عمال بني أمية في إفريقية والأندلس ، ويفهم من نص روايته ، ومن كتب أخرى معاصرة أنه كتب كتباً أخرى ، هي :

1- Epitome Regum wisigothorum a tempori Recaredi principis.

2- Epitome Temporum.

(مختصر تاريخ العصور) - وفيه يتحدث بالتفصيل عن الحروب التي جرت بين البربر وكلثوم بن عياض عامل هشام بن عبد الملك على إفريقية.

3- Epitome.

يقص فيه أخبار الحروب بين بلج بن بشر ومن معه من الشامية وبقية عرب الأندلس.

4- Liber verborum dierum Saeculi.

وهو يكمل فيه ذكر الأحداث التي فاته ذكرها في كتبه السابقة. وكتابه الأول هو أهمها من غير شك، وهو المشار إليه في التواريخ الأندلسية، وهو الذي نقصده نحن في هذا البحث ، وظاهر أن مؤلفه أراد أن يجعل منه صلة لتاريخ إيزيدور الإشبيلي SAN ISIDORO DE SEVILLA تجد نصه الكامل عند:

THEODOR MOMMSEN *Auctorum Antiquissimorum* tomus XI, *Cronica Minora.* (Saec. IV, V, VI . VIII) II, Ip 334- 360. Berolini, 1873

وفي:

FLOREZ, *Espana Sagrada,* pp. 283- 307, *Isidori Pacencis Episcopi chronicon.*

ونشر أجزاء منه LAFUNETE Y ALCANTARA كملحق لترجمته الإسبانية للأخبار المجموعة ص ١٤٦ وما بعدها.

وانظر عنه :

RUDOLF SCHEVENKOW, *Kritiche Betrachtungen ueber die lateiniscugesch riebenen Quellen zur Geschichte der Eroberung Spaniens durch die Araber, 1894.*

FRANCISCO JAVIER SIMONET, *Historia de los Mozarabes de Espana,* (Madrid 1867-1903) pp. 234, 599.

CESAR DUBLER, *Sobre la Cronica Arabigo- Bizantina de 741y la Influencia Bizantina en la Peninsula Iberica (Al- Andalus, vol. XI fasc.* 2 Madrid - Grenada, 1956) pp. 283- 349.

(1) أثار وصول عبيدة بن عبد الرحمن إلى إفريقية اضطراباً كبيراً ، لأن الكلبيين كانوا قد إطمأنوا إلى السيادة في عهد سلفه بشر بن صفوان ، وكان معظم عرب إفريقية والأندلس كلبيين يمنيين كما ذكرنا ، وكان بشر قد ترك مكانه كلبياً ، فلم يكد يستقر في الولاية حتى فاجأه هشام بعبيدة بن عبد الرحمن ، ودخل عبيدة =

شديداً ، قام بالأمر خلالها ولاة أغلبهم قيسية مثل : حذيفة بن الأحوص ، والهيثم بن عبد الله الكناني . واستمرت حتى سنة ١١١ هـ ، وقد اشتد الهيثم مع اليمنيين شدة أثارتهم ودفعتهم إلى العصيان علانية ، وقد بلغ من شدته أن أنكر هشام عليه ذلك ـ رغم قيسيته . . . وعزله وعاقبه عقاباً صارماً[١] .

ومن عهد الهيثم هذا تبدأ في الأندلس خصومة القيسية واليمنية الصريحة الخطرة ، التي سيكون لها أسوأ الأثر على مصير الإسلام في الأندلس خاصة والمغرب عامة .

بيد أننا ينبغي أن نذكر أن المسلمين كانوا معنيين خلال ذلك كله بالحروب فيما وراء البرتات ، فقد استمرت جهودهم بعد مقتل السمح بن مالك الخولاني ، ووصلت جيوش المسلمين في أيامهم إلى قريب من أفينيون ، وكانت أربونة عاصمة الهيثم بن عبدالله الكناني يقيم فيها معظم وقته[٢] .

ولسنا نجد ما نسجله في عهود هؤلاء الحكام القصيرة إلا ثورة بلاية زعيم فلول القوط في نواحي أشتريس ، وهي ثورة خطيرة تعين بدء المقاومة الإسبانية ، وقد وقعت في عصر عنبسة بن سُحَيْم[٣] .

وفي صفر سنة ١١٢ هـ / ٧٣٠ م أقام عبيدة بن عبد الرحمن السلمي عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي أميراً على الأندلس ، وكان عبد الرحمن من

= القيروان فجاة ، كأنما كان يتوقع معارضة ومقاومة ، ولم يقدم شيئاً على عسف اليمنيين عسفاً جاوز الحد المألوف.

انظر: ابن عذاري : البيان ، ج١ ، ص ٣٦ .

ابن الآبار: الحلة السيراء: ص ٤٥٧ ـ ٤٩ .

ابن الأثير: الكامل ، ج٥ ، ص ١٠٨ ، ١٣٠ .

(١) إيزودور: فقرة ٥٧ . ابن الأثير: الكامل ، ج٥ ، ص ٦٨ ، ٧٤ .

(٢) ابن عذاري: البيان ٢ ، ص ٢٩ . وانظر الفصل التالي.

إيزودور: فقرة ٥٦ و٥٧ .

(٣) المقري: نفح الطيب، ج٢، ص ٩-١٠ .

LEVI PROVENÇAL, *Hist, de L'Espagne Musulmane,* I. p. 48.

كبار رجال جند الأندلس ، وقد قضى حياته حتى ذلك الحين يغازي الأعداء فيما يلي البرتات ، وكان الجند قد أقاموه والياً على الأندلس قبل ذلك مدة لم تزد على شهرين قبيل قدوم عنبسة بن سُحيم ، وكان عبد الرحمن شخصية أندلسية قضى معظم أيامه في نواحيها وفي الجهاد فيما يليها ، فكان لولايته طابع خاص لا نلمحه عند أحد ممن سبقوه ، فقد كان هؤلاء مشارقة يقبلون على البلاد وهم لا يكادون يعرفون من أمرها شيئاً ، ولا يكادون يحملون إليها إلا عصبيتهم اليمنية أو القيسية ويزيدون الحال سوءاً . فأما عبد الرحمن فأندلسي لا يكاد يلقي بالاً إلى هذه الجاهلية العصبية ، ولا يكاد يلتفت إلا لإقرار الأمن في البلاد وموالاة الفتح فيما يليها[1] .

تجمع الروايات الإسلامية على الثناء على عبد الرحمن ، بل يذهب بعضها إلى القول بأنه أعظم ولاة الأندلس أجمعين وأكثرهم فضيلة وأشدهم إخلاصاً في القيام بما تفرضه الأندلس على واليها من الواجبات ، والواقع أن المراجع لم تبالغ في ذلك كثيراً ، فقد كان عبد الرحمن في واقع الأمر منظماً قادراً وجندياً باسلاً ، وربما شاركه في إحدى هاتين الصفتين بعض من سبقه من ولاة الأندلس مثل السمح بن مالك أو عنبسة بن سحيم ، ولكنه يمتاز عن هذين وغيرهما بأنه كان سليماً من نزعة العصبية التي أفسدت على معظم هؤلاء الحكام أعمالهم . وقد كان الرجل من غافق إحدى بطون كهلان اليمنية ، ولسنا نعلل اختيار عبيدة بن عبد الرحمن السلمي القيسي المتشدد إياه إلا بأن شخصية عبد الرحمن كانت من الظهور بحيث صرفت عبيدة عن التفكير في قيسيته التي أفسدت عليه الأمور زماناً[1] ، ويبدو أن عبد الرحمن كان يتمتع

---

(١) عن عبد الرحمن الغافقي، انظر : ابن عبد الحكم : فتوح، ص ٢١٦ – ٢١٧ .
ابن حيان برواية المقري : نفح الطيب، ج ٢، ص ٥٩.
أخبار مجموعة ، ص ٢٥ .
ابن عذاري : البيان، ج٢ ، ص ٢٧ – ٢٨ . ابن الأثير: ج٥ ، ص ٩٤.
ISODORO PACENSE, *Cronicon*, cc,. 56- 63.

(١) وكان عبد الرحمن الغافقي في خلاف دائم مع عبيدة بن عبد الرحمن ، ومصداق ذلك رواية لابن عبد الحكم . =

بمركز عظيم بين عرب الأندلس ، لأن ولايته لقيت الرضى من طوائفهم كلها يمنية وقيسية .

ولم يوفق عبد الرحمن في غزوته الكبرى التي أراد أن يفتح فيها غالة رغم ما حشد من عدة وما بذل من جهد ، واستشهد هو ونفر عظيم ممن كانوا معه عند بلاط الشهداء على مقربة من بواتييه في رمضان سنة ١١٤ هـ . ولا نزاع في أن ابن حيان قد بالغ حينما زعم أن أحداً من جيش عبد الرحمن لم ينج من هذه الموقعة ، لأنه لا يعقل أن يقتل من المسلمين سبعون ألفاً ثم لا تضطرب الأندلس كلها . والواقع أن عدداً عظيماً من جنود عبد الرحمن عاد إلى الأندلس قبل الموقعة مستوحشاً من طول الشقة ، فلما فاجأه العدو ألفاه في قلة فاستشهد وبعض من بقي معه .

كان لهذه الهزيمة وقع شديد في نفس الخليفة هشام بن عبد الملك ، فقد أقبلت إليه أخبارها بعد فشل أخيه مسلمة بن عبد الملك في اقتحام أسوار القسطنطينية بأربع عشرة سنة ، فأحس هشام أن سيوف المسلمين قد عجّزت عن اقتحام معاقل المسيحية الكبرى في الشرق والغرب ، فساءه ذلك ، وأخذ يفكر تفكيراً في علاج هذا الموقف ، وفي تقوية جبهة الإسلام من ناحية الغرب ، ويبدو أنه تخوف خطر الفرنج على مسلمي الأندلس بعد أن استشعر قوتهم بعد هذه المعركة .

بدأ هشام فعزل عبيدة بن عبد الرحمن عن إفريقية في أواخر سنة ١١٤ هـ لأنه كان قيسياً مسرفاً في عصبيته حتى لقد أثار اليمنية وكاد يوقع المغرب الإسلامي كله في فتنة عصبية كبرى ، واستبدل به قيسياً آخر كان

= يقول فيها بعد تفصيل أعمال عبد الرحمن في إحدى غزواته في بلادالفرنجة : «وكان فيها أصاب رجل مفضضة بالدر والياقوت والزبرجد ، فأمر بها فكسرت ، ثم أخرج الخمس ، وقسم سائر ذلك في المسلمين الذين كانوا معه ، فبلغ ذلك عبيدة ، فغضب غضباً شديداً ، فكتب إليه كتاباً يتوعده فيه ، فكتب إليه عبد الرحمن : إن السماوات والأرض لو كانتا رتقاً ، لجعل الرحمن للمتقين منهما مخرجاً . ثم خرج إليهم أيضاً غازياً فاستشهد وعامة أصحابه . . . » .

ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢٤٧ .

يحسب أنه أهدأ منه نفساً وأقل عصبية ، ذلك هو عبيد الله بن الحبحاب .

٤٩ ـ مصاعب الحكم في المغرب بعد موسى بن نصير

بدأ عبيد الله بن الحبحاب ولايته في إفريقية بدءاً حسناً ، وقد كان وفق في مصر توفيقاً طيباً كعامل لخراجها[١] ولكنه لم يستطع أن يدرك في إفريقية ما أراد من الإصلاح وتهدئة النفوس ، ذلك أن المغرب الإسلامي كان يجوز إذ ذاك أزمة سياسية واجتماعية حادة . ولا بد أن نعود بتاريخ المغرب سنوات إلى الوراء لنتتبع هذه الأزمة منذ مبادئها .

ذلك أن حكومة موسى بن نصير وابنيه عبدالله وعبد الملك من بعده في المغرب أضاعت على المسلمين ثمرات حكومة حسان بن النعمان وإصلاحاته ، فقد اشتد موسى وبنوه على البربر شدة نفرتهم وبغضت العرب إليهم ، وزاد الأمر سوءاً أن آل موسى احتضنوا بعض القبائل واعتبروا أفرادها موالي لهم وفضلوهم على غيرهم ، فأثار ذلك نفوس بقية القبائل ، وأخذ كثير من البربر يشعرون بأن الحكم العربي الجديد ليس خيراً في كثير من الحكم البيزنطي المنقضي .

ولو استمر الأمر على ذلك بصورة مضطردة لانفجرت ثورة البربر في زمن مبكر جداً ، ولكن الأحوال هدأت بعد انقضاء أمر آل موسى فترة دامت أربع سنوات من ٩٧ ـ ١٠١ هـ / ٧١٥ ـ ٧٢٠ م بسبب اعتدال محمد بن يزيد القرشي[٢] وإسماعيل بن عبيد الله اللذين توليا حكومة المغرب بعد آل

(١) ابن الأبار : الحلية السيراء (طبعة دوزي) . ص ٣٢ .
ابن عذارى : البيان ، ج١ ، ص ٣٢ ، ٣٣ .
أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج١ ، ص ٢٦١ .

(٢) المقريزي : خطط (طبعة ڤييت) ج٢ ، ص ٦١ ـ ٦٣ .
المقريزي : البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب ، طبعة ڤستنفلد تحت عنوان :
WUESTENFELD, *Abhandlung ueber die in Agypten eingewanderten arabische Stamme,* Goettingen, 1847-pp. 39- 40.
وهي ترجمة لكتيب المقريزي «البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب» .

نصير على ما ذكرناه[1] .

وقد بلغ من توفيق إسماعيل في إقرار السلام في البلاد أنه « لم يبق في ولايته يومئذ من البربر أحد إلا أسلم »[2] كما يقول ابن عبد الحكم ، ولم يبالغ راويتنا الجليل كثيراً في ذلك ، فالواقع أن حسن سياسة إسماعيل وحرصه على نشر الإسلام قد كسبا للدين عدداً عظيماً جداً من البربر ، فلو قلنا إن ولايته ثبتت قدم الإسلام في إفريقية ما بالغنا ، لأن المغرب أصبح بعد ولايته بلداً إسلامياً يغلب على أهله الإسلام[3] .

وكان من سوء الحظ أن خليفته في ولاية المغرب لم يكن يقاربه في شيء من ذلك، بل كان رجلاً قيسياً جافياً شديد العصبية قليل الكياسة هو يزيد بن أبي مسلم كاتب الحجاج؛ ولاه يزيد بن عبد الملك سنة ١٠١هـ/٧٢٠ - ٧٢١م على ما ذكرنا. ومن غريب الأمر أن يزيد بن عبد الملك أصحبه عبدَالله بن موسى بن نصير، وكان عبدالله قد عُزل عن المغرب وانتقل إلى المشرق في سنة ٩٦هـ/ ٧١٤م[4]، ولسنا ندري السبب في ذلك التصرف من يزيد، وربما أراد منه أن يكون عبدالله - بما له من الخبرة بالبلاد والمعرفة بشؤونها - عوناً ليزيد بن أبي مسلم في شؤونه، ولكنه أخطأ التقدير، لأن عبدالله كان موغر الصدر من بني أمية ينتظر الفرصة للاقتصاص منهم بما فعلوا بآله وبه هو نفسه.

ثم إن أنصار بني نصير لم يكادوا يعلمون بمجيء عبدالله حتى خرجوا يتلقونه مرحبين، يحسبون أيام عزهم قد عادت، فساور الخوف نفس يزيد بن أبي مسلم

---

(١) ابن عبد الحكم: فتوح، ص ٢١٣.
ابن خلدون (طبعة نويل دي ڤرجير)، ص ٨.

(٢) نفس المصدر والصفحة.

(٣) ابن ناجي: معالم الإيمان، ج١، ص١٥٤- ١٥٦.
ابن عذاري؛ البيان المغرب، ج١، ص ٣٢- ٣٣.

(٤) ابن عبد الحكم: فتوح، ص ٢١٣، ولا يؤيد ابن عبد الحكم في القول بهذا مؤرخ آخر، ولكننا نقبل روايته لأنها أقدم ما لدينا، ولم يتحدث أحد من المؤرخين المغربيين عن هذه الناحية بتفصيل يعيننا على تعرف الواقع.

من هذه المكانة التي كانت لبني نصير، وأدركته الغيرة مما رآه من منزلة عبدالله بن موسى في نفوس أهل البلاد، فأحب أن يبغضه إلى نفوسهم، وأن يضعه في مركز حرج، فطلب إليه أن يقوم بإعداد العطاء اللازم للجند خمس سنين من ماله، ثم أمره أن يلزم داره[1]، وأعقب يزيد ذلك بالشدة البالغة مع موالي بني نصير من البربر، فوضع يده عليهم واعتبرهم جزءاً من الخمس يتبع لبيت المال ويؤول لعامل المغرب، وأحصى أموالهم وأولادهم، وجعل نفراً من هؤلاء الموالي حرسه وبطانته، وأراد أن يقضي على كل أثرٍ لجاه بني نصير في إفريقية.

ولو اقتصر الأمر على ذلك لهان البلاء، ولكنه لم يقصر هذا العسف على آل نصير ومواليهم، بل توسع فيه حتى شمل به البربر أجمعين، وأراد أن يسير في البربر بسيرة مولاه الحجاج في أهل العراق، وفاته أن معظم من اشتد عليهم من البربر كانوا من البتر وزناتة، أي من البربر الذين انضموا للعرب من أول الأمر وقدموا إليهم أخلص العون. ثم حفزه سوء الرأي إلى أن يتخذ قراراً كان فيه حتفه: قرر أن يَشِمَ حرسه البربر في أيديهم، فخطب الناس فقال: «إني إن أصبحت صالحاً وشمت حرسي في أيديهم كما تصنع الروم، فأشم في يد الرجل اليمنى اسمه وفي اليسرى «حرسي» فيعرفوا بذلك من غيرهم»[2] إسرافاً منه في الاستخفاف بالبربر وطلباً للون من الأبهة لم يعرفه العرب قبل ذلك. فثارت نفوس البربر لذلك ودبروا قتله، وكان عبدالله بن موسى بن نصير يؤلبهم عليه ويزيد نفوسهم ثورة واضطراباً، وبتحريضه قُتل يزيد بن أبي مسلم. اغتاله حرسه في سنة ١٠٢هـ/ ٧٢٠-٧٢١م.

وأقام أهل إفريقية قاضيهم المغيرة بن أبي بردة القرشي والياً حتى يأتيهم رأي

---

(١) ابن عبد الحكم: فتوح، ص ٢١٤؛ ولا يبعد أن يكون ذلك بإيعاز من يزيد بن عبد الملك، لأنه كان يعتقد - مثل أخيه سليمان - أن بني نصير اجتبوا أموالاً جسيمة وأخفوها عن الدولة حتى لا تتقاضاهم إياها.

(٢) ابن عبد الحكم: فتوح، ص ٢١٤. وراجع تعليق فورنل على ذلك:
Cf: FOURNEL, *Les Berbères*, I. p. 271, note 8.

خليفتهم يزيد بن عبد الملك(١)، فلما بلغ يزيدَ نبأ مقتل يزيد بن أبي مسلم أمر عامله على مصر بشر بن صفوان أن ينهض إلى إفريقية ويخلّف مكانه أخاه حنظلة(٢)، فدخل بشر إفريقية في نفس العام الذي قتل فيه يزيد، وكان أول ما فعله هو أن أخذ عبدالله بن موسى بن نصير فقتله(٣)، وتتبع أموال بني نصير بالاستقصاء وأنصارهم بالتعذيب، وعزل عن الأندلس الحر بن عبد الرحمن الثقفي وولى مكانه كلبياً يمنياً هو عنبسة بن سحيم(٤).

وظل بشر عاملاً على إفريقية بقية خلافة يزيد وجزءاً من ولاية هشام حتى توفي في شوال ١٠٩هـ/٧٢٧ـ٧٢٨م واستطاع أن يهدىء أمورها بسبب ما أسرف فيه من استعمال القسوة البالغة(٥)؛ ولم يسرف أحد من عمال بني أمية الكلبيين في العصبية لقومه كما فعل بشر، فقد اشتد في ذلك شدة ملأت نفوس القيسيين عليه حقداً، وغدوا يترقبون موته بنافذ الصبر، وكان هو نفسه يشعر بذلك، ومن دلائل هذا ما يذكره المالكي من أن جارية من جواري بشر قالت وهو يعاني سكرات الموت: «يا شماتة الأعداء! فقال لها: قولي للأعداء لا يموت!» حتى لا يستطيرهم الفرح. وكأن بشراً خشي أن يقيم هشام على البلد رجلاً قيسياً بعده، فترك عليها العباس بن باضعة الكلبي والياً ورجا أن يثبته هشام في الولاية. ولكن هشام بن عبد الملك انتهز فرصة وفاته ليولي مكانه قيسياً هو عبيدة ابن عبد الرحمن، وقد وقع دخوله إفريقية على نفوس الكلبية موقع الصاعقة، حتى

---

(١) ولم يستقر المغيرة في الولاية إلا قليلاً، لأن ابنه خوفه من أن يظن الخليفة أنه شارك في قتل يزيد بن أبي مسلم إذا وجده والياً مكانه، فاعتزل، وولى أهل إفريقية مكانه محمد بن أوس الأنصاري، وكان بتونس على غزو بحرها، فأرسلوا إليه فولوه أمرهم، ثم عزله يزيد ببشر بن صفوان.
ابن عبد الحكم: فتوح، ص ٢١٥.

(٢) F. WUSTENFELD, *Die Statthalter von Egyptenzur Zeit der Chalifen;* Goetingen 1875.

(٣) ابن عذاري: البيان، ج٢، ص ٢٦.

(٤) نفس المصدر والصفحة.

(٥) ابن عذارى: البيان، ج١، ص ٣٦.
ابن الابار: الحلة السيراء، ص ٤٧.

أن رأسهم العباس بن باضعة خارت قواه ولم تحمله رجلاه حينما بلغه النبأ[1] (١١٠هـ/ ٧٢٨ ـ ٧٢٩ م).

٥٠ ـ المغرب أثناء خلافة هشام ابن عبد الملك (١٠٥ ـ ١٢٥هـ/ ٧٢٤ ـ ٧٤٣م)

ولم يكن عبيدة بن عبد الرحمن على اقتداره وحسن رأيه بأحسن معاملة للبربر ممن سبقوه، فقد أسرف في مغازاة من بعُد من قبائلهم وسبى نسائهم حتى لُيقال إنه عندما بارح إفريقية يريد المشرق سنة ١١٤هـ/٧٣٢ ـ٧٣٣ م «كان فيما خرج به من العبيد والإماء ومن الجواري المتخيرة ٧٠٠ جارية، وغير ذلك من الخصيان والخيل والدواب والذهب والفضة والآنية»[2] مما يدل على عسفه للناس وشدته معهم[3]، وكان إلى ذلك شديد الوطأة على كل من انتمى إلى آل نصير من العرب اليمنية والبربر الزناتية، فآذى نفراً كبيراً منهم، وكانوا من كبار أهل البلاد وأصحاب السلطان على نواحيهم[4].

بيد أن عبيدة كان يشعر أن الحال في إفريقية لم يكن على ما يرام، وأن ريح الثورة كانت تهب على البلاد، بسبب سوء سياسته وسياسة من سبقه من ولاة إفريقية، ولهذا سأل هشاماً أن يعفيه من الإمارة لغير سبب ظاهر، فأعفاه، وبارح إفريقية إلى المشرق بعد أن غل من المغرب من المال شيئاً كثيراً، وبعد أن استبد بالبربر وباليمنية استبداداً بالغاً.

٥١ ـ عبيدالله ابن الحبحاب

وأقام هشام عامله على خراج مصر عبيدالله بن الحبحاب الذي ذكرناه والياً على إفريقية والأندلس في ربيع الآخر سنة ١١٦هـ /

---

(١) ابن عبد الحكم: فتوح، ص ٢١٧.

(٢) نفس المصدر، ص ٢١٧.

(٣) ابن الأبار: الحلة السيراء (طبعة دوزي)، ص ٤٨، ٤٩.

(٤) ابن عبد الحكم: فتوح، ص ٢١٧.
الأخبار المجموعة ص ٣١ ـ ٣٢.
ابن عذارى: البيان المغرب، ج١، ص ٣٩.
النويري: نهاية الأرب، ص ٣٣.
السيوطي: تاريخ الخلفاء (طبعة القاهرة) خلافة هشام بن عبد الملك: ص ٤٨ ـ ٤٩.

٧٣٤ م ، وبهذا أصبح هذا الرجل يحكم غرب الدولة الإسلامية كله من حدود مصر إلى جبال ألبرت ، وهي مساحة تزيد على نصف مساحة الدولة الإسلامية كلها . وكان بسط سلطان ابن الحبحاب على هذا النحو خطأً فادحاً ، لأن الرجل كان رغم ثقافته الواسعة قيسياً مبالغاً في قيسيته[١] ، ثم إنه كان إلى ذلك بعيداً عن الكياسة وبعد النظر اللازمين لرجل توكل إليه أمور مثل هذا الملك الشاسع يفعل به ما يريد .

كان أول ما فعله عبيدالله هو أن قسم ولايته على بنيه وأنصاره : جعل ابنه إسماعيل على السوس، وولى ابنه عبد الرحمن على مغازي السودان، وجعل على طنجة رجلاً من أتباعه يسمى عمر بن عبدالله المرادي، وجعل على الأندلس عقبة ابن الحجاج السلولي، واحتفظ لنفسه بإفريقية لكي يكون في مكان قريب من المشرق يستطيع أن يدير منه ولاياته جميعاً[٢].

وكان عبيدالله بن الحبحاب كغيره من القيسية شديد العصبية العربية لا يكاد يقيم لغير العرب وزناً ، فجعل يعسف البربر لا يكاد يحفل لمشاعرهم، وجعل كذلك يتتبع من وجد من اليمنية لا يكاد يعفيهم من عذاب شديد، وامتد أذاه إلى أتباعهم ومواليهم وفيهم أنصار بني نصير الغاضبون لما أصاب هذا البيت الكبير من الأذى على يد هؤلاء القيسيين، وكان من هؤلاء رجل يسمى عبد الأعلى بن جُرَيج الإفريقي وكان أصله رومياً، وكان مولى لابن نصير، وكان قد كون لنفسه عصبية بربرية كبيرة في نواحي طنجة[٣].

فإذا بلغ عسف القيسية ورئيسها في الغرب الإسلامي كله عبيدالله بن الحبحاب هذا المبلغ، فقد بدأت أنفس البربر تتطلع إلى الخلاص، ولو قد كان عبيدالله وعماله على شيء من بعد النظر لاستشعروا اضطراب النفوس في المغرب

---

(١) النويري : نهاية الأرب، ص ٣٣.

المقريزي : خطط (طبعة فييت)، ج٢، ص ٦١-٦٣.

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح، ص ٢١٧.

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح، ص ٢١٨.

جميعه، ولكنهم كانوا كما قلنا لا يكادون يحفلون لمشاعر هؤلاء البربر، حسباناً منهم أنهم لن يستطيعوا قِبَلَهم شيئاً. ويبدو أن قضاء ابن الحبحاب على ثورة أهل مصر قبل ذلك قد هون في نظره شأن غيرهم من الشعوب التي كانت خاضعة لحكمه.

وبلغ من استخفاف ابن الحبحاب بالبربر أن أراد اعتبارهم جميعاً فيئاً للمسلمين، من أسلم منهم ومن لم يسلم، وكان الولاة قبله يقصرون هذا اللون القاسي من المعاملة على من لم يسلم من البربر، من استأمن منهم ومن لم يستأمن، فأبى عبيدالله إلا أن يزيد الأمر سوءاً بوضع مسلمي البربر موضع العبيد الذين يملك المسلمون رقابهم ومضى في تنفيذ ذلك، فكتب إلى رجاله بحصر خمس البربر واعتبارهم رقيقاً[١]، ولم يكن عبيدالله ليستطيع أن ينفر البربر ويسيء إليهم بأكثر من هذا، فهؤلاء قوم أسلموا ومنهم من اشترك في جيوش المسلمين غازياً واندرج اسمه في الديوان، فكيف يُعتبر بعد ذلك عبداً رقيقاً؟

ولو اقتصرت المعاملة السيئة على البربر ونصارى الأندلس وحدهم لكان من الميسور تلافي الخطر إذا بقي العرب جميعاً يداً واحدة - وهم لم يكونوا قليلين في إفريقية والأندلس - ولكن ابن الحبحاب كان مسرفاً في قيسيته لا يكاد يعفي اليمنيين من شر، فتغيرت نفوسهم عليه، ولما كان أكثر عرب البلاد يمنيين، فقد وقف القيسيون بسبب سياسة رئيسهم ابن الحبحاب من أهل البلاد جميعاً - عرباً وغير عرب - موقف العدو، وغدا هؤلاء لا ينتظرون إلا الفرصة الملائمة لينقلبوا على ابن الحبحاب والقيسية بل على العرب جملة.

ولم يكن الدعاة الذين تحدثنا عنهم ينتهزون فرصة هي أعظم من هذه، فنفوس أهل البلاد تغلي والعرب منقسمون على أنفسهم، وليس أهون عليهم في مثل هذا الظرف من توجيه البربر وإرشادهم إلى طريق العمل، وسنرى من حوادث الثورة التالية أنها كانت مرتبة مقدرة، وأن أيدي محركيها من خوارج العرب كانت ظاهرة لا تحتاج إلى طويل بحث، وأغلب الظن أن هؤلاء الخوارج

(١) النويري: نهاية الأرب، ج١، ص ٢٤.

وفقوا في إقناع البربر بأن الله لم يقصر حق القيادة والإمامة على العرب وحدهم، بل جعله حقاً مطلقاً لكل مسلم صالح، وأن حكام العرب حادوا عن الطريق القويم. وأنهم - أي البربر - إذا وثبوا بالعرب لم يكونوا في ذلك إلا منفذين لتعاليم الإسلام كما وردت في القرآن، وسنرى ذلك بوضوح حينما يعلن رئيسهم ميسرة نفسه إماماً ويتسمى بالخلافة، وحينما يرفعون المصاحف على الأسنة كما كان خوارج المشرق يفعلون[1].

ويبدو أن أعداد هؤلاء الدعاة من الخوارج كانت عظيمة في المغرب، لأن الأمان عند قبائله وفي شعابه كان مضموناً لهم، ولأن البربر كانوا ساخطين تتأجج نفوسهم بالثورة على العرب، فكثر مجيء هؤلاء الخوارج إلى المغرب واختفاؤهم بين قبائل البربر، ولم يلبثوا أن قلبوا المغرب كله رأساً على عقب. ولما كان هؤلاء الدعاة لا يستطيعون أن يقيموا في إفريقية أو في المغرب الأوسط لقرب هذه النواحي من مقام عامل بني أمية في القيروان، فقد تخيروا لمقامهم ولدعوتهم نواحي المغرب الأقصى البعيدة: إقليم طنجة ونواحي السوس الأقصى بوجه خاص، إذ كانت هذه النواحي موطن أكبر القبائل الزناتية وأكثرها استعداداً للثورة وهي برغواطة ومكناسة، وانضمت إليهما كذلك أعداد قليلة في مصمودة.

٥٢ - ميسرة وبدء الثورة في إقليم طنجة

وكان في القيروان إذ ذاك رجل من قبيلة مطغرة، يسمى مَيْسرة، ويتفق معظم المراجع العربية على تسميته بالحقير أو بالحقور، وتذهب إلى أنه كان يبيع الماء في مساجد القيروان[2]، وليس ذلك بصحيح، لأن ابن خلدون يؤكد أنه كان رئيس مطغرة[3] أو لعله كان ينتسب إلى بيتٍ كبير من بيوت هذه القبيلة، ولأن ما سيلي من الأحداث يدل على أنه كان

---

(١) الأخبار المجموعة، ص ٣٢.

(٢) ابن عبد الحكم: فتوح، ص ٢١٨.
البكري: المسالك والممالك، ص ١٣٤.
النويري: نهاية، ج١، ص ٣٤.

(٣) ابن خلدون: العبر (طبعة دي سلين)، ج١ ص ١٥٠.

رجلاً ذا عصبية لها خطرها، والثابت أن ميسرة كان من رواد المجالس العلمية في مساجد القيروان، وأنه كان ذكياً بعيد المطامع شديد الميل للمغامرة، فوجدت مبادىء الخارجية الصفرية سبيلها إلى نفسه فاعتنقها، ووقر في نفسه أن ينشرها في بلاده، واتجه بصره إلى مواطن مطغرة في إقليم طنجة، فمضى إلى هذه الناحية واندس بين جماعات قومه مظغرة، وأخذ يكسب لنفسه الأنصار ويؤلبهم على العرب وحكامهم، فلم يلبث أن استمالهم إلى رأيه، فرفعوا راية العصيان، ولم تلبث الدعوة أن امتدت حتى شملت مكناسة، فأقبلت بجموعها وانضمت إلى ميسرة وقومه[1].

ولم تلبث برغواطة أن أعلنت الخروج يقودها داعية خارجي لا نكاد نعرف عنه شيئاً وهو طريف بن شمعون بن يعقوب بن إسحاق ومعه ابن له غلام يسمى صالحاً[2]. وانضمت القبائل الثائرة بعضها إلى بعض تترقب الفرصة لإعلان الثورة والخروج على بني أمية، وكان عامل طنجة لعبيد الله بن الحبحاب قيسياً شديد العصبية لقيس وللعرب هو عمر بن عبدالله المرادي، فمضى يعسف البربر لا يكاد يحسب لشعورهم حساباً، وكان ميسرة إذ ذاك نشيطاً في دعوته، فأعانه جهل عمر بن عبدالله المرادي وسوء سياسته على كسب قلوب الناس.

ثم سنحت الفرصة لميسرة وأصحابه للخروج على العرب علانية، ذلك أن عبيدالله بن الحبحاب أرسل قائده حبيب بن أبي عبيدة سنة ١٢٢هـ/٧٣٩م[3] في حملة إلى صقلية، وأصحبه خيرة جنده، فجعل ميسرة وأصحابه ينتهزون فرصة ابتعاد جند عبيدالله بن الحبحاب فيها وراء البحر، فجمعوا أنصارهم، وتسارعوا نحو طنجة وواليها عمر بن عبدالله المرادي، واستولى ميسرة عليها وقتل المرادي، وانضم إليه عبد الأعلى بن جريج الإفريقي ومن معه من الأفارقة وموالي بني

---

(١) ابن خلدون: العبر (طبعة دي سلين) ج١ ص ١٦٧.
(٢) البكري: المسالك والممالك، ص ١٣٥.
(٣) ابن خلدون: العبر (طبعة دي سلين)، ج١ ص ١٥١.
ابن عذاري: البيان المغرب، ج١ ص ٣٨.

نصير، فأقامه والياً على طنجة، ثم سار إلى نواحي السوس واستولى عليها وقتل واليها إسماعيل بن عبيدالله بن الحبحاب، وبهذا خرج المغرب الأقصى كله من يد الأمويين، وتحرج مركز عبيدالله بن الحبحاب في إفريقية وساء مركز المسلمين في الأندلس(١).

وجمع عبيد الله بن الحبحاب نفراً من خيرة جنده وقوَّد عليهم رجلاً من كبار عرب إفريقية هو خالد بن حبيب الفهري، وبعث إلى حبيب بن أبي عبيدة يتعجل عودته، فلم يكد يعود، حتى بعثه ومن معه من الجند ليشدوا أزر خالد، والتقى العرب بقوات ميسرة على مقربة من طنجة، فانهزموا وقُتل منهم نفر عظيم، وعاد ميسرة إلى مركزه في طنجة منصوراً، ثم ادعى الخلافة وتسمى بها، وبويع عليها(٢). ويبدو أن النصر ذهب بصوابه، فأساء السيرة في جماعته، فلم يلبثوا أن قتلوه وولوا مكانه واحداً من كبار رؤسائهم هو خالد ابن حميد الزناتي، وكان خيراً من ميسرة وأقدر(٣) (١٢٢ هـ / ٧٣٩ - ٧٤٠).

وتحرج مركز ابن الحبحاب في إفريقية، فبعث إلى عقبة بن الحجاج السلولي عامل الأندلس إليه الإسراع لعونه بمن يستطيع من الجند، فأسرع الرجل، وحاول مهاجمة مواقع البربر في طنجة فلم يستطع، وعاد أدراجه(٤).

---

(١) انظر عن ميسرة: ابن عبد الحكم: فتوح، ص ٢١٨- ٢١٩.
ابن القوطية: افتتاح، ص ١٤- ١٥.
ابن عذاري: البيان، ج١، ص ٣٩.
ابن الأثير: الكامل، ج٥، ص ١٤٢.
ابن خلدون: العبر (طبعة دي سلين)، ج١، ص ١٣٧ و١٥١.
(٢) النويري: نهاية الأرب، ص ٣٤- ٣٥.
(٣) ابن عبد الحكم: فتوح، ص ٢١٨.
هنا يحاول فورنيل الدفاع عن ميسرة، على عهده من امتداح كل ثائر على المسلمين، ويبدو في هذه المناسبة افتعاله وتكلفه بصورة واضحة جداً:

Cf; HENRI FOURNEL, *Les Berbères*, I. pp. 288- 289.

(٤) ISIDORI PACENCIS, *chronicon; Espana Sagrada, VIII.* Cap. 61. in p. 302

٥٣ ـ هزيمة الأشراف أوائل سنة ١٢٣هـ (٧٤٠/ ٧٤١م)

وجيّش ابن الحبحاب جيشاً آخر احتفل في تكوينه وجعل فيه نفراً عظيماً من أشراف عرب إفريقية والظاهرين منهم ، ورمى بهم قوات خالد بن حميد الزناتي ، فلم يكد هذا الجيش العربي ـ يقوده خالد بن حبيب الفهري ـ يقارب طنجة ويلقى البربر ويشتد القتال بينه وبينهم حتى فجأه خالد بن حميد من خلف بعسكرٍ عظيم ، فانهزم بعض أصحاب خالد بن حبيب وكره هو أن ينهزم ، فألقى بنفسه هو وأصحابه في أوار المعركة ، فقتل هو ومن كان معه ولم يسلم منهم أحد : « وقتل في هذه الموقعة حماة العرب وفرسانها ، فسميت وقعة الأشراف وانتقضت البلاد ومرج الناس ، واختلفت الأمور على عبيدالله ، فاجتمع الناس وعزلوه عن أنفسهم »[١] . ويلغ ذلك هشام بن عبد الملك فغضب غضبة « مضرية » لفظاً ومعنى ، وقرر إرسال جيش عربي عظيم إلى إفريقية ليؤدب البربر ويقضي على ثورتهم ، وعزل عبيدالله بن الحبحاب في جمادى الأولى سنة ١٢٣/ـ٧٤٠ . وقد أصاب بعزله إياه ، لأن الرجل كان قد تمادى في سوء التصرف بعد هذه الهزيمة ، وكان دافعه الأول إلى ذلك الرغبة في الانتقام لمقتل ابنه إسماعيل[٢] .

ويبدو أن ابن الحبحاب شك في أن لعرب إفريقية يداً في هذه الهزيمة ، فاتهم نفراً منهم بأنهم اتفقوا مع البربر الأفارقة على إيقاع الهزيمة بجيشه ، وكانت جماعة من هؤلاء العرب الإفريقيين تقيم في تلمسان يرأسها موسى بن أبي خالد ، أحد موالي معاوية بن حديج أحد كبار قادة العرب الذين ساهموا في فتح إفريقية بنصيب كبير ، وكان عامل تلمسان « وقد اجتمع عليه من تمسك بالطاعة ، فقبض عليه ابن الحبحاب وقطع رجله ويده »[٣] ثأراً لمقتل ابنه اسماعيل فأثار

---

(١) النويري : نهاية الأرب ، ج١ ص ٣٥.

(٢) «وبلغ ذلك هشام بن عبد الملك ، فقال : أقتل هؤلاء الرجال الذين كانوا يقدمون علينا من الغرب؟ قيل : نعم! فقال : والله لأغضبن لهم غضبة عربية» ـ نفس المصدر والصفحة.

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢١٨.

على نفسه بذلك العرب الإفريقيين أجمعين ، ودفعهم إلى الخروج عليه صراحة ، واضطربت أمور البلاد كلها . وكان هذا ـ في الغالب ـ هو ما حدا بهشام بن عبد الملك إلى الإسراع في عزل ابن الحبحاب واستبدال غيره به [1] ، وتم ذلك في جمادى الأولى سنة ١٢٣هـ / ٧٤٠ م .

٥٤ ـ كلثوم بن عياض القشيري (١٣هـ /٧٤١ م)

استقر رأي هشام بن عبد الملك على أن يعهد في ذلك إلى رجل من زعماء القَيسية توسم فيه القدرة وبُعد النظر وهو كلثوم بن عياض القشيري ، ولم يكن هشام بأحسن حظاً في هذا الاختيار منه يوم عهد في إفريقية والأندلس إلى ابن الحبحاب : كان كلثوم بن عياض قيسياً شديد الاعتداد بقيسيته ، وكان في نفسه إلى جانب ذلك غرور جعله يظن أن البربر قوم لا حيلة لهم في الحرب ، وأنهم إذا كانوا قد انتصروا على عبيدة بن عبد الرحمن وعلى عبيدالله بن الحبحاب ، فإنما يرجع ذلك إلى جهل هذين وقلة اقتدارهما . وكان الخليفة قد أوسع عليه في النفقة ، وأمر عمال مصر وطرابلس وإفريقية أن ينضموا إليه بكل ما يستطيعون من رجال وخيل وعدة ، فزاده ذلك غروراً . خرج كلثوم بعدد عظيم من دمشق ، ومرَّ بمصر فاستصحب عدداً من خيرة جندها وكذلك فعل بطرابلس وإفريقية . فاجتمع له جيش عظيم [2] جعل على مقدمته قائد خيله بلج بن بشر القشيري [3] وكان فارساً شهماً إلا أنه كان

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢١٨ .
النويري : نهاية الأرب ، ص ٣٥ .

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢١٨ .

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢١٩ ـ ٢٢٢ ، ويُقال أن بلجاً كان ابن أخيه ؛ النويري ، نهاية الأرب ، ج١ ، ص ٣٥ وراجع تعليق فورنل على هذا الجيش :

H. FOURNEL, *Lrs Berbères* · I, p. 292.

ويقتصر ابن عذارى في الجزء الأول من تاريخه على ذكر عدد الشاميين في هذا الجيش وهم ١٢ ألفاً من الفرسان كان يقودهم بلج بن بشر (البيان ، ج١ ، ص ٣٨) ، ثم يذكر في الجزء الثاني أن عدة الجيش كله كانت ٣٠ ألفاً (البيان ، ج٢ ، ص ٣٠) ويؤيده في ذلك ابن القوطية (افتتاح الأندلس ، ص ١٤) ، أما ابن حيان فيجعل عدة الجيش ٧٠،٠٠٠ (أورد تلك الرواية المقري في نفح الطيب ، ج٢ ، ص ١٢) .

أشد غروراً وعصبية من كلثوم ، وجعل على رجالته ثعلبة بن سلامة العاملي . وكان من غلاة الشاميين » .

ويبدو أن كلثوماً عول على القتال حتى الموت ، لأنه أوصى بأن يخلفه بلج في القيادة إذا أصابه شيء ، فإذا قتل بلج خلفه ثعلبة بن ثوابة .

٥٥ ـ العرب الإفريقيون

كان جند إفريقية إذ ذاك مواقفين للبربر بناحية طنجة في انتظار المدد من دمشق ، وكانت نواة هؤلاء الجند جماعة من العرب طال بهم المقام والعمل في إفريقية حتى أصبحوا يعتبرون أنفسهم أفارقة لا يطمئنون إلى أحد من القادمين من المشرق ، مثلهم في ذلك مثل عرب الأندلس إذ ذاك كانوا يعتبرون أنفسهم « أهل البلد » ويتسمون بالبلديين ؛ وقد تكونت جماعات العرب الأفارقة من جند العرب الأول الذين استقروا أثناء الفتح أو بعده فيما راقهم من نواحي المغرب ، وقد جرت عادة هؤلاء العرب أن يستقروا في النواحي بمن انضم إليهم أو صار في ولائهم من البربر ، فاعتبروا مواليهم واندمجوا فيهم مع الزمن ، وبهذا كثرت جموع هؤلاءالعرب الإفريقيين البلديين واصبحوا قوة سياسية لها خطرها . ولما كان هؤلاء العرب الأول هم الذين فتحوا البلاد ، فقد أصبحوا يعتبرون أنفسهم أصحابها وملاك نواحيها ، لا يكاد يجرؤ غيرهم من غير قبائلهم على الاستقرار معهم فيها . ووفد إليهم من بلاد العرب طوائف من أبناء عصبيتهم وانضموا إليهم فاشتدت بهم سواعدهم ، ولما كان معظم من شارك في فتح إفريقية من العرب يمنيين فقد كثر جمع اليمنيين في إفريقية ،كما كثروا في الأندلس، وانضمت إليهم جماعات من البربر الزناتية ، وأخذوا ينظرون للقيسيين خاصة نظرتهم إلى عدو دخيل .

ومن هنا نفهم السر في هذا النفور العنيف الذي أظهره عرب إفريقية البلديين عندما أخذ ولاة القيسيين يتعاقبون على إفريقية تصاحبهم جماعات قيسية قليلة تريد الاستقرار في البلاد . ولنضف إلى ذلك أن عدداً عظيماً من فاتحي إفريقية أنشأوا فيها أسراً من أهلهم وذريتهم ، فأصبحت هذه الأسر مع الزمن

ذوات جاه وسلطان بفضل من التف حولها من العرب الموالي والأتباع ، وأصبحت لها رياسة على جماعات العرب والبربر في النواحي التي استقرت فيها ، ومن بيوت هذه الأسر بني عقبة بن نافع وكان أقواها وأعظمها ، وبيت معاوية ابن حديج ، وبيت بني نصير . وكان لهذه البيوت الثلاثة النصيب الأوفى من السلطان في إفريقية خلال العصر الأموي ، بل صارت الأمور أخيراً إلى بيت عقبة بن نافع ممثلاً في شخص عبد الرحمن بن حبيب بن عقبة[1] .

وكان هؤلاء العرب الأفارقة « البلديون » مقيمين جماعات ، كل جماعة في ناحية عليهم رئيس منهم يقوم بشؤون الإقليم لحساب عامل إفريقية في القيروان . وقد سجل المؤرخون لنا منهم جماعات قوية في طرابلس وسَبَرت وقابس والقيرَوان ، ومن شخصيات هؤلاء العرب الإفريقيين في ذلك الحين : حبيب بن ميمون (سبرت) وعبد الرحمن بن عقبة الغفاري ، ومسلمة بن سوادة القرشي (القيروان) وصفوان بن أبي مالك (طرابلس) وسعيد بن بجرة الغساني (قابس) وحبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع ، ويبدو أنه كان رأس هؤلاء العرب الأفارقة جميعاً ، وكان مقيماً إذ ذاك بجموع من هؤلاء العرب عند طنجة مواقفاً لخالد بن حميد الزناتي زعيم البربر الثائرين وخليفة ميسرة[2] .

ولم تكن العلائق بين هؤلاء العرب الأفارقة النازلين مدائن إفريقية وأريافها وبين البربر من أهل البلاد على ما يرام ، لأن العرب جميعاً كانوا لا يطمئنون إلى البربر بعد هذه الحرب الطويلة التي كانت بين الجانبين أيام الفتح . ولأن العرب الأفارقة كانوا يعدون أنفسهم سادة البلاد وأهلها ، ولأنهم كانوا إلى ذلك عماد الحكام وولاتهم على النواحي ، فكرههم البربر لذلك وحمّلوهم تبعات مظالم

---

(١) راجع تراجم عقبة بن نافع ورويفع بن ثابت الأنصاري ومعاوية بن حديج وربيعة بن عباد الديلي وزياد بن الحارث الصدائي وأبي عبد الرحمن بن بسر بن أرطاة وأبي عبد الرحمن عبدالله بن زيد (الإفريقي) ومن بعده من التابعين في:
المالكي: رياض النفوس، ج١ ص ٤١ وما يليها.
الدباغ: معالم الإيمان، ج١، ص ٩٩ وما يليها.

(٢) ابن عبد الحكم: فتوح، ص ٢١٩ـ ٢٢٢.

هؤلاء الحكام ، وكان من هؤلاء العرب البلديين قدامى معظمهم من اليمنيين منذ أيام موسى بن نصير وبنيه وجُدَد غالبيتهم من القيسية ، وكان الفريقان متعاديين كما لاحظنا[1] .

لهذا كان طبيعياً أن تكون ثورة البربر في إقليم طنجة إيذاناً بثورة عامة جديدة من البربر جميعاً على من بين أظهرهم من العرب ، سواء أكانوا من رجال الدولة وجندها أو عرباً مستقرين مسالمين ، ومن هنا فإننا لا نستطيع القول بأن هذه الثورة كانت في صميمها ثورة بربر على عرب ، بل كانت فتنة عامة بين جماعات متنافرة ، ولم يكن معظم المشتركين فيها يميلون إلى بني أمية ، ولهذا فقد كانت الحركة في جملتها فتنة إفريقية عامة وثورة على بني أمية .

٥٦ ـ ثورة البربر على العرب في طرابلس

وصل كلثوم بن عياض إفريقية ، ولم يشأ أن يريح بالقيروان ، بل أراح ببليدة سبيبة على مقربة منها (شوال ١٢٣ / أغسطس ٧٤١ م) . ثم إنصرف بجموعه إلى ناحية طنجة مخلفاً على إفريقية عبدالرحمن بن عقبة الغفاري ومسلمة بن سوادة القرشي . فلم يكد يبتعد عنها حتى نهض زعيم من زعماء زناتة يسمى عكاشة بن أيوب الفزاري ـ وكان من الخارجية الصفرية ـ فجمع جموعه بناحية قابس ، وأرسل أخاً له في نفر من البربر ، فحصروا حبيب بن ميمون ومن معه من العرب في سبرت ، وأقام محاصراً لهم حتى خف لنجدتهم صفوان بن مالك رأس عرب طرابلس ، فانهزم البربر إلى

(١) تذكر المراجع في أخبار ولاية عبيدالله بن الحبحاب قصة تصور لنا هذا العداء بصورة واضحة، ملخصها أن عبيدالله لم يكد يلي إفريقية حتى قدم عليه عقبة بن الحجاج السلولي، وكان الحجاج ـ أبو عقبة ـ قد أعتق الحارث جد عبيدالله ، أي أن بني الحارث ـ وهم بنو الحبحاب وغيرهم ـ كانوا موالي الحجاج السلولي وبني سلول، فقام ابن الحبحاب لعقبة وشرفه، فأنكر أولاده ذلك، وخشوا أن يحط من قدرهم في نظر عرب إفريقية، ولاموا أباهم في ذلك. فانتظر ابن الحبحاب حتى اليوم التالي، فلما اجتمع الناس وعمّر المجلس استقدم عقبة وأعلن إليه أمام الناس أنه وليه وخاطب أولاده مؤنباً إياهم على عقوقهم نحو الحجاج وبنيه، فخجل الأولاد من أنفسهم. وهذا يدل على أن أولاد عبيدالله كانوا يعتبرون أنفسهم عرباً أفارقة، أي من أصحاب البلاد، فكرهوا أن يسودهم هذا المشرقي المقبل ويحط من قدرهم، وهم في هذا يعبرون عن شعور العرب الأفارقة عامة نحو من كان يقبل من العرب، انظر: الأخبار المجموعة، ص ٢٦ـ ٢٧.

قـابس ، وكان عـرب القيروان قـد علموا بـالأمر وخفـوا مع أميـرهـم مسـلمة بن سوادة إلى قابس لنجدة عرب هـذه الناحيـة والقضاء عـلى ثورة البـربر ، والتقى الجمعان بأحواز قابس ، فانهزم العرب وعادوا مفلولين إلى القيـروان حيث أقبل البربر يحاصرونهم بها[1] .

بهـذا زاد مـركـز عـرب إفـريقيـة حـرجـاً : انهزمـت قـواتهم عنـد قـابس وحاصرهم البربر في القيـروان ، وانهزمـت قواتهم عنـد طنجة قبـل ذلك ، وأقـام خالد بن حميد الزناتي مواقفاً لمن بقي منهم على نهر سبو ، وأخذ يؤلب بقية البربر عليهم ويستعد لمعركة فاصلة جديدة بينه وبينهم .

٥٧ ـ الخلاف بين العرب الأفارقة وكلثوم بن عياض ومن معه من القيسية

في هـذه الـظروف العصيبـة كـان كلثـوم بن عيـاض ومن معـه يقتـربون من طنجـة ليلقوا البـربر ، ولـو قد كـان كلثوم حسـن السيـاسـة لتـودد إلى عـرب إفـريقيـة وكسب قلوبهم حتى يقف العـرب جميعاً جبهـة واحدة أمـام الخطر الـداهم ، ولكنـه لقي هؤلاء العرب بمعاملة نفـرتهم منـه وصـرفتهم عن عونـه ، وكان كما قلنا قيسيـاً جافيـاً شديـد الاعتزاز بنفسـه : أنف أن ينزل القيـروان وأراح في سبيبة ، ثم تقدم نحو طنجة وبعث يأمر حبيب بن أبي عبيدة رأس عرب إفـريقية بأن يقيم مكانه لا يصنع شيئاً حتى يقدم عليـه . وكان بلج بن بشر عـلى مقدمـة كلثـوم كما قلنـا ، ولم يكن أقل عصبيـة ولا كبريـاء من كلثـوم ، فلم يكـد يلقى عبيـدة حتى أهانه وحقره ، وأعلن إليه أن الشآمية قد عولت على المقام في إفريقيـة واتخاذها داراً ، فحز هذا في نفس الأفارقة وأخـافهم على مـا كان لهم من المكـانة في البلاد[2] . وزادهم نفوراً من بني أُميـة والشاميين عموماً .

وبعث حبيب بن أبي عبيدة إلى كلثوم يشكو إليه ابن أخيه ، فلم يلق عنده إنصافاً كافياً ، فامتلأت نفس أبي عبيـدة بن عقبة بن نـافع ونفـوس من معه من

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح، ص ٢١٩ .
(٢) ابن عذارى : البيان، ج ١، ص ٤١ .

العرب البلديين سخطاً على الشآمية وخوفاً منهم . ثم وصل كلثوم إلى نواحي طنجة ولقي حبيباً ، فعامله نفس المعاملة التي عامله بها بلج قبل ذلك ، وتقدم أبو عبيدة بن عقبة (أبو حبيب) يريد نصح كلثوم فرفض نصيحته وأهانه ، وبهذا انقسم المعسكر العربي قبل المعركة إلى فريقين ينطوي أحدهما على اللدد نحو الآخر : فريق العرب الأفارقة وعلى رأسهم أبو عبيدة بن عقبة وابنه حبيب ابن أبي عبيدة وحفيده عبد الرحمن بن حبيب ، وفريق الشآمية المقبلين وعلى رأسهم كلثوم بن عياض وبلج بن بشر ، فكان لهذا الانقسام أسوأ الأثر في مجرى الحوادث[1] .

وكأنما أراد هشام بن عبد الملك أن يزيد الموقف تعقيداً ، فأمر كلثوم أن يسير وفق التوجيهات التي يرسمها له هارون القرني مولى معاوية بن هشام ومغيث الرومي مولى الوليد ، وقد أمره الخليفة بهذا بحجة أنهما أعرف ببلاد إفريقية[2] ، وكان أولى به أن يأمره بالاتفاق مع العرب الأفارقة ، لا بطاعة هذين الموليين اللذين سيزيدان الأمر تعقيداً وحرجاً . ويبدو أن هشاماً أراد أن يكونا رقيبين على كلثوم ، لأن الجيش الذي كان معه كان عظيماً جداً ، كانت عدته تبلغ السبعين ألفاً على قول بعض المؤرخين .

وليس أدل على ما كان بين الحيين من النفور من أن العرب البلديين كانوا يغلقون أبواب مدنهم إذا سمعوا بمقدم الشآمية ، ويبدو أن بلجاً لم يدخر وسعاً في زيادة نفورهم ، فجعل يقول إنه إنما أتى ليستقر بمن معه في إفريقية كما

---

(١) يقول ابن عبد الحكم في وصف هذه الحالة النفسية التي سادت الجانبين : «وكان كلثوم حين خرج إلى البربر قد قدم بلج بن بشر القيسي على مقدمته في الخيل، فلما قدم على حبيب رفضه وأهان منزلته، ثم قدم كلثوم فتلقاه حبيب فتهاون به أيضاً، ثم خطب كلثوم الناس على ديدبان له فطعن في حبيب وشتمه وأهل بيته . . .» ـ ابن عبد الحكم : فتوح، ص ٢١٩ ـ بل بلغ من اضطراب النفوس أن دار القتال بين الجانبين قبل أن يلقوا البربر، ولم يستطع كلثوم إقرار السلام إلا بعد جهد. وكان بلج بن بشر من أكثر الناس عصبية لقيسيته، وهو المسؤول عن كثير مما نزل بالعرب في إفريقية والأندلس من البلاء في ذلك الحين. ابن عذارى: البيان، ج١، ص٤١ـ ٤٢ .

(٢) الأخبار المجموعة، ص ٢١ .

ذكرنا ، ولم يكن ليستطيع أن يثير نفوس الأفارقة بأكثر من هـذا ، لأن معظم من كان قد استقر في إفريقية إلى الآن كانوا يمنية كلبية ، وكان مجرد التفكير في إقـرار بضعة آلاف من القيسية الشامية معهم في نواحيهم كافيـاً لإثارة نفـوسهم وإذكاء نار العداوة فيهـا ، هذا إلى أن القيسيـة كانت فيهم جفـوة وقلة كياسـة وشدة في العصبية ، فكانـوا لا ينزلـون بلداً إلا أثاروا أهله ـ عـرباً أو غـير عرب ـ هكـذا فعلوا في خراسان وفي شمال إفريقية وفي الأندلس .

٥٨ ـ هزيمة العرب عند بقدورة

على هذه الحال التقى الجيش العربي مع البربر يقودهم خالد بن حميد الزناتي عند بليدة تسمى بقدورة أو نقدورة على مقـربة من تاهرت قـرب مصب نهر مَلَوِيَّة[1] ، وقـد رأى هارون القـرني ومغيث الرومي أن أعداد البربر عظيمة جداً ، وخافا على العرب منها ، فنصحا كلثوماً بـأن يضرب حول معسكره خندقاً ، ولكن الغرور ملأ نفس بلج ، وظن أنه إذا جال بخيله لم يلبث البربر أن يتفرقوا ، وغاب عنه أن البربر قـوم ذوو جلد على الحـرب وحيلة في الميدان ، فصنعوا أكياساً من الجلد ملأوها بـالحجارة ، وأخـذوا يقذفـونها على رؤوس الخيـل فنفرت وروعت ، ولم يستـطع الفرسـان القتال عليهـا ، فـأمـرهم كلثوم أن يترجلوا ، ولم يكن البربر يرجون خيراً من ذلك ، فانقضوا على العرب وأحاطوا بهم ، وأعملوا فيهم السيف ، وتبدت طلائع الهزيمة لكلثوم ، فخـاطب حبيب بن أبي عبيدة وعرض عليه قيادة الجيش ، فقـال حبيب : قد فـات الأمر ! ثم اشتد القتال وأحاط البربر بالعرب حتى كادوا يأتون عليهم أجمعين ، فلما رأى

---

(١) بين المؤرخين خلاف حول مكان هذه الموقعة ، فيذهب الرازي إلى أنها كانت على نهر ملوية (روى ذلك ابن خلدون : العبر، ج١ ، ص ١٥٢)، ويذهب ابن عذارى وابن خلدون إلى أنها كانت على نهر سبو (ابن عذارى: البيان، ج١ ، ص ٤٧ وابن خلدون: العبر، ج١ ، ص ١٣٧)؛ أما صاحب الأخبار المجموعة فيذهب إلى أن الموقعة كانت عند بليدة تسمى نقدورة أو بقدورة (الأخبار، ص ٣١)، وجعلها ابن القوطية بفدورة (بالفاء) ـ انظر الافتتاح، ص ١٥ ، ولم نجد بليدة بهذا الاسم في هذه الناحية من إفريقية، وربما كانت صحة الاسم بقدورة بالباء، فقد ذكر ابن خلدون بليدة بهذا الاسم دون أن يحدد موقعها. وقد رجحنا رأي الرازي وابن خلدون. راجع : العبر (طبعة دي سلين)، وانظر أيضاً : FOURNEL, *Les Berbères*, I. P. 294 n. 1.

حبيب ذلك عزم على الاستشهاد وأوصى ابنه عبد الرحمن أن يلزم بلجاً ، وقاتل حتى قُتل ، وهكذا أبدى هذا العربي الفهري من الشهامة والبسالة ما يملك النفس ، وراح ضحية شدة القيسيين وعصبيتهم .

وكان بلج قد رفض أن ينزل عن جواده وبقي معه نحو عشرة آلاف ، فحملوا على البربر في عنف حتى اخترقوا صفوفهم ووصلوا خلفهم ، ثم استدار لهم البربر وكاثروهم حتى اضطروهم إلى الفرار ، ففروا ـ يتقدمهم بلج ـ في اتجاه طنجة ، وأما بقية العرب فقد أحاط بهم البربر واشتدوا في قتلهم حتى قتل هارون ومغيث وحبيب بن أبي عبيدة وكلثوم نفسه ، وانتهت المعركة بهزيمة كبرى للعرب ، حتى ليؤكد المؤرخون أن ثلث هذا الجيش العربي الكبير قد قُتل وأن ثلثه الآخر راح أسيراً ، وأما الباقون فقد تفرقوا فلولاً مهزومة لا تكاد تلوي على شيء بعد السلامة[1] (١٢٤ هـ) .

انهزم بلج وأصحابه من الشآمية إلى الغرب « واتبعهم أبو يوسف الهواري ، وكان طاغية من طواغيت البربر ، فأدركهم فقاتلهم ، فقُتل أبو يوسف وانهزم أصحابه »[2] واستطاعوا آخر الأمر أن يدخلوا سبتة ويتحصنوا بها ، وأقبل البربر يحاصرونهم ويهاجمونهم المرة بعد المرة ويحاولون الاستيلاء على هذا البلد منهم ، فلم يستطيعوا ، فلما يئسوا قطعوا الزروع حول الحصن ، وأقاموا مشددين الحصار حوله حتى عدم بلج وأصحابه الأقوات وساءت حالهم كثيراً .

وزادت ثورة البربر والخوارج في إفريقية عنفاً ، وقام من البربر في كل

(١) ابن عبد الحكم : افتتاح ، ص ٢٢٥ .

ISIDORI PACENCIS *Cronicon*, cap. 68- 69.

الأخبار المجموعة ، ص ٣٢ . ابن القوطية : افتتاح ، ص ١٥ .

النويري : نهاية الأرب ، ج١ ، ص ٣٦ .

أبو المحاسن : النجوم الزاهرة ، ج١ ، ص ٣١٩ .

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢٢٥ـ ٢٢٦ .

ناحية زعيم يقود مواطنيه في هذا الكفاح : قام أبو يوسف الهواري يقود بربر إقليم طنجة ويقاتل بلجاً ومن معه ، وتجمعت جموع عظيمة منهم في ناحية الزاب يقودها قائدان بربريان هما : عكّاشة بن أيوب الفزاري الصفري الخارجي وعبد الواحد بن يزيد الهواري ، وأخذا يستعدان للسير نحو القيروان ، فلما أتما العدة سار عكاشة على طريق مجّانة واقترب من القيروان وعسكر عند «القرَن » ، وأما عبد الواحد فسار على طريق الجبال واقترب من القيروان وعسكر عند طُبْنة ، وكان على مقدمة جيشه أبو قرة المغيلي[1] . وكان أبو قرة من كبار زعماء الخوارج . وكان قد نادى بنفسه إماماً ، وكان بربرياً مستعرباً من قبيلة مغيلة .

٥٩ ـ جيوش الخلافة تتدخل وكانت هزيمة « الأشراف » قد روعت هشاماً وملأت نفسه خوفاً من ناحية البربر ، كما رأينا ، ثم وقعت هذه الهزيمة عند بقدورة فكانت ضغثاً على ابالة ، وأحس أن المسألة ليست باليسر الذي تصوره ، وأن الثورة إذا استمرت على هذا النحو فربما كانت نتيجتها خروج المغرب والأندلس جملة عن طاعة الخلافة ، فعجل بتخير نحو ثلاثين ألفاً من خيرة جنده بعثها إلى حنظلة بن صفوان عامله على مصر ، وأمره بالإسراع إلى إفريقية ، فوصل حنظلة القيروان بجنوده في ربيع الأول سنة ١٢٤ هـ /٧٤١ م ، وأخذ يرسم الخطة للقضاء على هذه الثورة الخطرة . وكان هشام ـ رغم مرضه ـ دائم الاتصال بحنظلة وجيشه لتوجيههم والاطمئنان على مصيرهم ، وتحدثنا المراجع أنه هو الذي رسم لحنظلة خطة العمل ، فنصحه بأن لا ينتظر حتى يجتمع الجيشان البربريان عليه ، وأن يعجل بحرب كل منهما على حدة[2] .

وقد فعل حنظلة ذلك : خرج للقاء عكاشة ومن معه عند القرن ، فالتقى بهم وانتصر عليهم انتصاراً حاسماً ، وقتلهم قتلاً ذريعاً . ويبدو أنه خسر عدداً عظيماً من جنده في هذه الوقعة ، لأنه عاد إلى القيروان بعدها ليستعد للسير إلى

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح، ص ٢٢٠ .
النويري : نهاية الأرب، ص ٢٧ . وراجع : FOURNEL, *Les Berbères*, I. p. 299 n.2.
(٢) الأخبار المجموعة، ص ٣٧ .

جمع البربر الثاني المعسكر على مقربة من طُبْنة يقوده عبد الواحد بن يزيد الهواري وأبو قرة المغيلي .

يذكر النويري أن عبد الواحد كان في ثلاثمائة ألف[1]، وظاهر أن تقديره هذا مبالغ فيه، لأنه لو كان في هذا العدد العظيم حقاً لما استطاع حنظلة الانتصار عليه بالعدد القليل الذي كان معه، ولكن الثابت أن حنظلة بذل أقصى جهده في الاستعداد لهذه المعركة الخطيرة الحاسمة، وأنه تناسى قيسيته في هذه اللحظة الحاسمة، وجمع العرب جميعاً، أفارقة وغير أفارقة، على لواء واحد للدفاع عن مصير العرب ومذهب السنّة والجماعة في إفريقية «فأخرج ما في الخزائن من السلاح، ونادى في الناس فكان يعطي لكل منهم درعاً وخمسين ديناراً، فلم يزل يفعل ذلك حتى كثر عليه الناس، فرد العطاء إلى أربعين ثم إلى ثلاثين، ولم يقدم إلا شاباً قوياً. فعبأ الناس طول ليلته، والشمع حوله وبين يديه، فعبأ في تلك الليلة خمسة آلاف دارع وخمسة آلاف نابل، وأصبح وقدم للقتال، وكسرت العرب جفون سيوفها، والتقوا، ولزم الرجال الأرض، وجثوا على الركب، وكان ذلك بمكان يسمى «الأصنام» على وادي نهر شلف جنوب غربي مدينة الجزائر الحالية، واشتد القتال وصبر العرب صبر الفناء»[2]. وكان عكاشة قد أسر في القرن، فأمر به حنظلة فقتل صبراً[3]، وانتهت المعركة بانتصار العرب، وقتل فيها عبد الواحد، وانقصم ظهر الثورة وأخذت البلاد تهدأ، وكان ذلك في سنة ١٢٥هـ ـ ٧٤٣م. ومات هشام قبل أن تصله أخبار هذا النصر، وخلفه الوليد بن يزيد، فأقر

---

(١) النويري: نهاية الأرب، ج١ ص ٣٧.

(٢) وبعث حنظلة أبا الخطار والياً على الأندلس. وأمره أن يبعث إليه مدداً من جندها، ويبدو أنه لم يوفق إلى شيء، لأن حال العرب في الأندلس لم يكن حسناً كما سنرى. عن معركتي القرن والأصنام انظر: ابن عبد الحكم، فتوح، ص ٢٢١ ـ ابن القوطية: افتتاح، ص ١٥ ـ ابن عذارى: البيان، ج١، ص ٤١ ـ الأخبار المجموعة، ص ٣٦ـ ٣٧ـ النويري: نهاية الأرب، ج١، ص ٣٧؛ والنص الوارد هنا عن النويري. هذا والأصنام موضع كانت فيه آثار رومانية قديمة في ذلك الحين، وقد اختلف المؤرخون في تحديد مكانه، وأقرب آرائهم إلى الصحة هو ما يذهب إلى أن الأصنام تقع على ثلاثة أميال شمال القيروان على مقربة من جلولاء. راجع: FOURNEL, *Les Berbères*, I. p. 300 n.4.

(٣) ابن عذارى: البيان، ج١، ص ٤١.

حنظلة على ولاية إفريقية، وساد السلام ربوعها أثناء خلافته القصيرة، لأن حنظلة كان معتدلاً في عصبيته، فأخذ عرب البلاد يطمئنون إلى مصيرهم، ولزم البربر السكون بعد هذه الهزائم القاسية. وكان انتصار حنظلة انتصاراً لمذهب السنّة والجماعة، فمن ذلك الحين رجحت كفة السنة على الخارجية ولهذا يعتبر أهل السنّة من المغاربة هذه المعركة معادلة لمعركة بدر الكبرى.

ولكن الأخبار لم تلبث أن وردت بمقتل الوليد بن يزيد في السابع والعشرين من جمادى الآخرة سنة ١٢٦هـ - ابريل ٧٤٤م، وكان الوليد شديد العصبية للقيسيين دائم الانتصار لهم، وكان مقتله إيذاناً بانتصار أعدائهم اليمنيين وعودتهم إلى السلطان. ولهذا ريع القيسيون في إفريقية عندما بلغهم النبأ، وخافوا أن ينقلب عليهم اليمنيون والبربر الزناتيون يؤازرهم الخليفة الجديد وأنصاره. فخرج إلى الشام نفر من كبارهم وجندهم، وبقي حنظلة في نفرٍ قليل من الموالين للدولة[1].

٦٠ - ظهور أمر عبد الرحمن ابن حبيب

ويبدو أن القيسيين كانوا على الحق فيما تخوفوا من انقلاب اليمنيين عليهم، لأن رأس هؤلاء العرب الأفارقة البلديين، عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع لم يلبث أن بادر إلى العمل.

كان عبد الرحمن مع بلج بن بشر في الطائفة التي انهزمت إلى سبتة عقب هزيمة الأشراف، إذ كان أبو حبيب بن أبي عبيدة قد أمره بأن يلزم بلجاً، فلما انهزم بلج ولجأ إلى سبتة، تركه عبد الرحمن ومضى إلى الأندلس ليلقى أميرها إذ ذاك عبد الملك بن قطن الفهري، وجعل يثيره على بلج وأصحابه ويخوفه منهم، فلما تسامع بموت الوليد وخروج معظم القيسية إلى الشام عاد إلى إفريقية معجلاً. وجمع أصحابه الأفارقة وعسكر بهم في مكان يُعرف بسبخة سَجُوم في اوائل سنة ١٢٧م - ٧٤٥م[2]، وقرر أن ينتهز الفرصة ويخلص إفريقية من القيسية جملة، فكتب إلى حنظلة ومن معه يطلب إليهم ترك القيروان وإخلاء البلاد، وأمهلهم ثلاثة أيام. وشاء حنظلة أن يقاوم، ولكنه رأى قلة من معه، وبلغته أنباء اضطراب الأمر على

---

(١) ابن عبد الحكم: فتوح، ج١، ص ٢٢٣.

(٢) النويري: نهاية الأرب، ج١، ص ٣٩.

الأموية في الشرق، فقرر ترك إفريقية والعودة إلى المشرق.

ويبدو أن حنظلة لم يقرر ذلك مختاراً بل مضطراً، فقد بدا له من اختلاف عرب إفريقية عليه وتواطئهم مع عبد الرحمن بن حبيب ما أخافه وزهده في المقام بهذه البلاد، فقد حدث بعد انتصاره في موقعتي القرن والأصنام أن أمر قائده على طرابلس معاوية بن صفوان أن يخرج لحرب نفر من الصفرية من نفزاوة ، فخرج إليهم وحاربهم وانتصر عليهم ولكنه قتل في المعركة، وأرسل بعد ذلك بقليل نفراً من وجوه العرب إلى عبد الرحمن ليصالحوه وليردوه إلى الطاعة، فاستمالهم هذا بالأموال فانقلبوا على صاحبهم الذي أرسلهم[1] وضاقت الأمور بحنظلة، واستبان أن أمر بني أمية كله إلى زوال، وطمع فيه عبد الرحمن بن حبيب، فجمع أصحابه ومضى بهم إلى القيروان.

٦١ـ عبد الرحمن ابن حبيب يحتل القيروان

واحتل عبد الرحمن بن حبيب القيروان ولما استقر بها أميراً، وصار الأمر في المغرب بعد هذا الكفاح الطويل للعرب الأفارقة البلديين بعد نزاع طويل مع البربر حيناً والعرب المشارقة القيسية حيناً آخر، وكان ذلك في جمادى الآخرة سنة ١٢٧هـ ـ ابريل٧٤٥[2].

٦٢ـ ختام النزاع بين القيسية واليمنية في إفريقية

كان انتصار عبد الرحمن بن حبيب وسيادته على إفريقية ختاماً للنزاع بين القيسية واليمنية في إفريقية، لا لأن الفريقين انتهيا إلى التفاهم والسلام بعد هذه المنازعات الخطرة، بل لأن توالي الحروب مع البربر حيناً وبينهم وبين أنفسهم حيناً كان قد انتهى بإضعاف العرب جميعاً في المغرب، فلم يعد لديهم من القوة ما يمكنهم من طلب السيادة على هذه البلاد الواسعة. ثم إن زمان سيادة العنصر العربي في الدولة الإسلامية كان قد

---

(١) ابن عبد الحكم: فتوح، ص ٢٢٣.

(٢) ابن عبد الحكم: فتوح، ص ٢٢٠.
الأخبار المجموع، ص ٢٣ـ ٣٥.
ابن عذارى: البيان المغرب، ج١، ص ٤١ـ ٤٣.
ابن الأثير: الكامل، ج٥، ص ٤٣.
ابن الأبار: الحلة السيراء، ص ٥١.

ولى بزوال الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية مكانها بعد ذلك بسنوات (١٣٢هـ ـ ٧٤٩ ـ ٧٥٠)، فلم يعد لعرب إفريقية ـ قيسية ويمنية ـ أي رجاء في أن تقف الدولة إلى جانبهم وتؤيد هذا الفريق منهم أو ذلك على هذا النحو الذي جرى عليه خلفاء بني أمية.

ولم يكن انتصار عبد الرحمن بن حبيب انتصاراً للعنصر العربي في الواقع، وإنما كان انتصاراً لهذه الطائفة الإفريقية من العرب التي كانت زناتة تؤيدها وتشد أزرها وهي طائفة العرب البلديين، ولهذا نستطيع القول إن انتصاره كان انتصاراً لزناتة من بعض الوجوه، ومصداق ذلك أن الأمر لم يَصْفُ لعبد الرحمن بن حبيب شهراً واحداً بعد ولايته تلك، فقد بايع لمروان بن محمد، فلما قتل بايع لأبي جعفر المنصور ثم اختلف معه وخلع طاعته، واستقل بأمره، ولم يلبث النزاع أن دب بينه وبين من كان معه من العرب، وانتهى الأمر بقتله على يد أخيه الياس بن حبيب سنة ١٣٨هـ ـ ٧٥٥ ـ ٧٥٦ م، ولم يكن الياس بأحسن حظاً من أخيه، لأن الحرب استمرت بينه وبين ابن أخيه حبيب، وقتل بعد ستة أشهر، وخلفه ابن أخيه حبيب ابن عبد الرحمن الذي لجأ إلى بربر ورفجومة وكانوا خوارج وسار رئيسهم عاصم بن جميل وهو ابن أخت طارق بن زياد ودخل القيروان وقضى على بقية بني حبيب. ولم تدم ولايته أكثر من ثمانية عشر شهراً كلها حروب ومنازعات، وانتهى أمره وأمر بيت حبيب كله في المحرم سنة ١٤٠ هـ ـ ٧٥٧ م.

وسنحت الفرصة لورفجومة إحدى قبائل البربر الزناتيين، بعد أن دخل رجالها القيروان وسيطروا على إفريقية فترة قتلوا من العرب خلالها نفراً كثيراً، ولم ينته أمرهم إلا بعد أن أرسل أبو جعفر المنصور واليه على مصر محمد بن الأشعث في أربعين ألفاً: «ثلاثين ألفاً من أهل خراسان وعشرة آلاف من أهل الشام» كان فيهم الأغلب بن سالم بن عقال بن خفاجة التميمي الذي صارت إليه الأمور كلها في المغرب في جمادى الآخرة سنة ١٤٨هـ ـ ٧٦٥ ـ ٧٦٦ م بفضل من كان معه في جيشه من الخراسانيين، وبفضل من انضم إليه من البربر(١).

---

(١) انظر التفاصيل في: النويري: نهاية الأرب، ج١، ص ٤٠ـ ٤٦.

بيد أننا ينبغي أن نقرر أن ما ذكرناه من انتصار محمد بن الأشعث ومن آزره من العرب الأفارقة والبربر لم يكن ختاماً للفتنة الإفريقية والثورة على الشاميين، لأن حركات الخوارج الصفرية والأباضية استمرت بعد ذلك أشد ما تكون استعاراً وقوة. ولكي نفهم هذا حق الفهم نعود إلى تفصيل ما أجملنا من تاريخ عبد الرحمن ابن حبيب وآله في إفريقية .

٦٣ - البربر يستقلون بنواحيهم

ذلك أن الأمر لم يكد يستقر في القيروان حتى ظنت قبائل البربر أن أمر العرب قد ولى مع أمس الدابر جملة ، وأنهم الآن في حلٍ من أن يستقلوا بما يسيطرون عليه من النواحي ، فقام في كل ناحية زعيم بربري وأعلن نفسه أميراً : قام عروة بن الوليد الصدفي واستولى بجماعات من البربر على تونس ، وأعلن أبو العطاف الأزدي استقلاله بطبيناس ، واقتطع ثابت الصنهاجي وقومه باجة لأنفسهم وانضم إليه عبدالله بن سقرديد ، وقامت جماعات من أباضية هوارة يقودها عبد الجبار والحارث الهواريان واستولت على ناحية طرابلس وقتلوا عاملها بكر بن عبس القيسي[1] ، وخاض عبد الرحمن بن حبيب وأخوه إلياس من بعده مع هؤلاء الثائرين حروباً طويلة عنيفة استمرت سنوات .

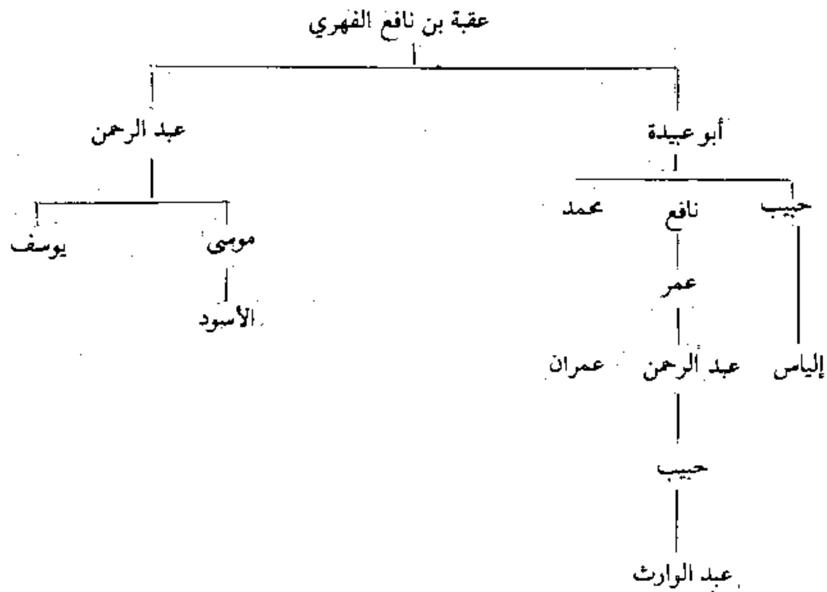
ثم وقع الخلاف بين أفراد بيت بني حبيب أنفسهم ، فتحارب بنو عبد الرحمن وبنو أخيه الياس ، وتعصب لكل نفر منهم فريق من العرب الإفريقيين حتى اضطربت أحوال البلاد واشتعلت ناراً من جديد ، وانتهى الأمر بأحدهم وهو عبد الوارث قائد جند الياس وتمكن الياس من قتل أخيه عبد الرحمن بن حبيب ، فهرب ابنه حبيب إلى ورفجومة إحدى بطون نفزة

(١) ابن عذارى: البيان، ج١، ص ٤٨ وما يليها.
ابن خلدون: العبر، ج١، ص ١٣٨ .
النويري: نهاية الأرب، ص ٣٨ وما يليها.

والاستعانة بها على إدراك ثأر عم أبيه عبد الرحمن بن حبيب[1] ، فنصرته ورفجومة وشيخها عاصم بن جميل ثم وقع الخلاف بين عاصم بن جميل وحبيب وانتهى الأمر بموت هذا الأخير ، وأصبحت هذه القبيلة الزناتية سيدة

---

(١) إليك شجرة بيت عقبة بن نافع في إفريقية:



انظر :

ابن عبد الحكم : فتوح، ص ٢٠٣ـ ٢٠٤ .
ابن خلدون : العبر، ج١، ص ١٠٩ وما يليها وص ١٣٠ وما يليها.
ابن عذارى : البيان المغرب، ج١ ، ص ٥٠ وما يليها.
النويري : نهاية الأرب : ج١ ، ص ٤٠ـ ٤٣ .

إقليم إفريقية . فعجل شيخها عاصم بن جميل وكان خارجياً صفرياً بالمسير إلى القيروان ، وخرج أبو كريب جميل بن كريب قاضيها للقاء ورفجومة يقودها عاصم وأخوه مكرّم ، فثبت لها ثباتاً كريماً بظاهر القيروان ، ثم انهزم وهلك هو ومن بقي معه .

ودخلت ورفجومة القيروان في ذي الحجة سنة ١٤٠ هـ / ٧٥٧ - ٧٥٨ م ، وهكذا سقطت عاصمة المغرب الإسلامي في يد البربر الخوارج الزناتيين ، فكان هذا الحادث إيذاناً بزوال سلطان العرب عن المغرب جملة ، وبدا بوضوح أن دولة الخلافة لا بد متخلية عن هذا القطر الفسيح راضية أو كارهة في القريب أو في البعيد : فقد اشتدت الخصومة السياسية بين أهل السنة والخوارج ولم يعد هناك سبيل لإصلاح النفوس ، واختلف العرب على أنفسهم فضعف أمرهم وهانوا في نظر رعاياهم .

ولم يلعب بيت عربي في هذا الدور من تاريخ المغرب الإسلامي دوراً يقرب من الدور الخطير الذي لعبه عبد الرحمن بن حبيب ، فقد كان طموح هذا العربي الفهري وتعصبه للعرب الإفريقيين البلديين سبباً مشجعاً للخوارج على موالاة جهودهم ، ولم يكن في نفسه بالرجل الثابت ولا القدير ، وكان فيه ميل إلى الظلم ، فلم يلبث أن نفروا منه ، ونهض له أخوه الياس فقتله واستبد بالأمر كما قلنا ، فكان شراً من عبد الرحمن وأعتى ، واختلط الأمر عليه ووثب به أبناء بيته ، فلم يلبث أمر بني حبيب كلهم أن تفرق وضاع ، وضاع معه سلطان العرب البلديين على البلاد ، ولو لم يتداركها الله بعد ذلك بسنوات قلائل بمحمد بن الأشعث ثم بالأغلب بن سالم بن عقال لما عاد السلام إليها .

ثم إن دخول ورفجومة القيروان واستبدادها بشؤون إفريقية لم يكونا إلا مظهراً لقوة الخوارج الصفرية وانتشار أمرهم انتشاراً هيأ لهم السيطرة على البلاد ، وكانت سيادة هذه القبيلة شراً خالصاً على إفريقية وأهلها ، لأن كراهتهم للعرب بلغت مبلغاً جعلهم يستبيحون كل محرم ، وكانت دعوة

الصفرية قد أتتهم ولما يتمكن الإسلام من نفوسهم بعد ، فأضلتهم وأخرجتهم عن الإسلام جملة ، ومن ثم لا غرابة في أنهم حينما دخلوا القيروان قتلوا من بها من قريش وساموهم سوء العذاب ، وربطوا دوابهم في المسجد ١٤٠ هـ / ٧٥٧ ـ ٧٥٨ م(١) ، فأثار عملهم هذا إخوانهم بربر نفوسة ، وكانوا أباضية ، فساروا يقودهم شيخهم أبو الخطاب ، فأخرجوا ورفجومة من القيروان ، وأنزلوا برجالها مذبحة مروعة وقضوا على سيطرتهم على إفريقية .

ومن طريف ما يُلاحظ أن أبا الخطاب بدأ عمله بخلع طاعة العباسيين على القيروان ، ولم يتخير عربياً ليقيمه في الإمارة ، وإنما تخير رجلاً من أصل فارسي هو عبد الرحمن بن رستم ، وكان خارجياً أباضياً شديد العصبية لمبادىء الخارجية (١٤١ هـ /٧٥٨ ـ ٨٥٩ م) ولم يستطع محمد بن الأشعث قائد المنصور دخول القيروان وإعادة المغرب إلى طاعة المشرق إلا بعد حرب عنيفة وموقعة فاصلة مع نفوسة على مقربة من تورغة إحدى قرى طرابلس (جمادى الأولى ١٤٤ هـ /يونيو ٧٦١ م)(٢) ، وقد هرب على أثرها عبد الرحمن بن رستم إلى أقصى المغرب الأوسط وتحصن بناحية جبل جزول عند تاهرت ، وكانت هناك إذ ذاك بقايا حصن روماني فعمرها واستقر فيها يؤيده البربر الأباضية ، وأعلن نفسه إماماً ، وأنشأ بذلك الدولة الرستمية ، ولم يلبث أن سيطر على المغرب الأوسط كله(٣) .

وحذا حذوه بربري خارجي آخر هو أبو قرة المغيلي شيخ قبيلة بني يفرن وكان صفرياً، فأعلن نفسه إماماً في نواحي تلمسان. وهكذا استقلت كل جماعة من البربر في ناحية، ولم يبق للعرب إلا سلطان ضئيل بقي لبعض المضرية في

---

(١) النويري : نهاية الأرب، ج١، ص ٤٤.

(٢) ابن عذارى: البيان، ج١، ص ٦١.

النويري : نهاية الأرب، ج١، ص ٤٤ـ ٤٦.

(٣) البيان المغرب: ج٢، ص ٦١ وما يليها.

النويري : نهاية الأرب، ج١، ص ٤٤ـ ٤٦.

ظواهر القيروان ، وظلّ من السيطرة بقي لجالية عربية صغيرة أخرى كانت تقيم على الطاعة في نواحي طبنة وهدنة ، ولم يهدأ أمر البلاد إلا على يدي محمد بن الأشعث قائد العباسيين وبعد محمد بن الأشعث ولى أبو جعفر المنصور على إفريقية الأغلب بن سالم بن عقال . وعندما قتل هذا في حربه مع الخوارج تولى أمر إفريقية أبو حفص عمر بن قبيضة المهلبي ويبدأ بذلك حكم المهالبة في إفريقية . وقد استمر حكم المهالبة إلى سنة ١٨٠ هـ ثم تولاها هرثمة بن أعين ثم تولى أمر إفريقية إبراهيم بن الأغلب بن سالم بن عقال الذي أقام دولته بسواعد بعض رجال العرب المشارقة تؤيدهم فرق من الجند الخراسانية وبعض القبائل الصنهاجية المنافسة للزناتية الخارجية سنة ١٨٤هـ / ٨٠٠ م ، وعلى يديه خرج المغرب عن طاعة الخلافة العباسية جملة .

كانت ثورات البربر على العرب إذاً ختاماً لتبعية إفريقية المطلقة على المغرب . فإن دولة بني الأغلب تعتبر بداية لعصور استقلال إفريقية عن الخلافة . ووقفت حدود إفريقية الأغلبية السنية عند مجرى نهر شلف . أما غربي هذا النهر فقد قامت فيه دولة الخوارج الأباضية الرستمية التي سادت المغرب الأوسط .

٦٤ ـ دولة بني مدرار في سجلماسة

وانتهزت جماعات من برابر مكناسة ـ إحدى بطون ضريسة ـ فرصة ابتعادها عن القيروان وانشغال العرب بمنازعاتهم مع البربر ومع أنفسهم ليستقلوا بناحيتهم وليقيموا لأنفسهم دولة . كانت هذه البطون من نفوسة تسكن على منابع نهر ملوية عند الموقع الذي ستقوم فيه بلدة سجلماسة فيما بعد ، وكانت هذه القبائل تسيطر على قريتي تازا وتسول ، وكانتا إذ ذاك من منازل الرعاة ، فأقبل عليها في مراعيها رجل بربري ممن حج إلى بيت الله الحرام وأخذ أصول الدين على فقهاء المدينة ، واسمه أبو القاسم سمكو بن وسول بن مَسلان بن أبي أزول ، ويبدو أنه كان قد مال إلى ناحية الخارجية ، فدعا النفوسيين إلى مبدئه فانضموا إليه وتعصبوا له ، ولم يلبثوا أن نقضوا طاعة الخلافة في سنة ١٤٠ هـ / ٧٥٧ ـ ٧٥٨ م يقودهم شيخهم عيسى بن يزيد الأسود ، ثم اتخذوا سلجماسة عاصمة لهم فاتسعت وتمدنت ،

ومات عيسى فخلفه ابنه اليسع وخلف هذ ابنه مدرار ،وفي عهده قوي أمر هذه الدولة البربرية التي عرفت في التاريخ بدولة بني مدرار . وإنما فصلت أمر نشوء هذه الدولة لأن ذلك يلقي ضوءاً على التطور الباطني الذي كان يجري في المغرب الإسلامي إذ ذاك ، وواضح جداً أن دعاة الصفرية والخارجية أصحاب فضل كبير في نشر الإسلام في نواحي المغرب الأقصى والسوس، كما رأينا في حالة هذا الداعية أبي القاسم سمكو ، وكما سيحدث في حركات المرابطين والموحدين فيما بعد(١).

٦٥ - راي جوتييه في ثورات البربر

وقد حاول أ . ف . جوتييه جغرافيُّ المغرب ومفلسف تاريخه على مذهب الفرنسيين أن يدرس هذه الحركات الثورية ويلتمس لها أصولها البعيدة في تاريخ المغرب القديم وتكوينه الجنسي . فانتهى إلى آراء لا بد من إيرادها في ختام هذا البحث(٢). يرى جوتييه أن هذه الثورات هي أخطر حادث في تاريخ المغرب الإسلامي قبل الحركة الفاطمية . فلنعرض آراءه في تحليل أسباب هذه الحركات لأنها تكشف لنا في الواقع عن خصائص هامة ينفرد بها هذا التاريخ المغربي ، وتلقي على الثورات الخارجية البربرية نفسها ضوءاً كاشفاً(٣).

---

(١) راجع عن هذه الأحداث:

ابن عذاري : البيان، ج١، ص ٦٠ وما يليها. النويري : نهاية الأرب، ص ٤٤ وما يليها.
ابن خلدون: العبر، ج١، ص ١٣٩ وما يليها.

(٢) E.F. GAUTIER, *Le Passe de l'Afrique du Nord*, pp. 260 Sqq.

(٣) لم يبحث أحد هذه الحركة بمثل ما بحثها به جوتييه من العمق والشمول، وقد انتهى من بحثه إلى نظرية خاصة فسر على أساسها تاريخ المغرب الإسلامي كله، وقد أخذها عنه جميع مؤرخي المغرب الفرنسيين، ولهذا رأيت أن أعرض لها في شيء من الإسهاب. وإليك مراجعه التي استند إليها في هذا البحث إتماماً للفائدة وتسهيلاً للمراجعة:

أبو زكريا: تاريخ أبي زكريا، ترجمه وعلق عليه EMILLE MASQUERAY (الجزائر ١٨٧٨)، ص ٦٧ وما يليها من المقدمة.

ابن خلدون: العبر، (ترجمة دي سلين) ج١، ص ٢١٦ و٢١٨، ج٢ ص ١٢٥ وما بعدها.
ابن عذاري: البيان، ج١، ص ٥١ وما يليها.

ابن الأثير: حوادث المغرب التي جمعها فانيان Fagnan، وترجمها إلى الفرنسية في كتاب *Annales Du Magreb et de l'Espagne* ص ٦٣.

يرى جوتييه أن هذه الثورات الخارجية في المغرب إن هي في الواقع إلا الدوناتية التي روعت أمن المغرب النصراني من قبل . وتفصيل هذه الحركة الدوناتية في إجمال هو أن «دونات» أسقف كازْنوار إحدى بلاد المغرب الأوسط أبى أن يعترف بصقليان (Cicilianus) بطريقاً لقرطاجنة ، لأن من انتخبوه كانوا قسساً مشكوكاً في صلاح عقيدتهم ، فغضب عليه صقليان ، وثارت بينهما الخصومة ، وتعصب لكل منهما فريق ، وانقسم نصارى إفريقية شيعتين : شيعة صقلّيان ، وشيعة الدوناتيين المنشقين أو الخارجين عليه .

والخارجية المغربية في نظر جوتييه ، ليست في الواقع إلا شيئاً شبيهاً بالخارجية الدوناتية النصرانية ، فالخوارج المسلمون لا يخالفون غيرهم من المسلمين في أمرٍ من أمور العقيدة ـ كما تخالف البروتستنتية الكاثوليكية مثلاً ـ وإنما يخالفونهم في عدم الاعتراف بخلافة معاوية ، ويقولون بأحقية علي وأولاده في الخلافة (كذا !) ، بالضبط كما كان الخلاف بين دونات وصقليان خلافاً حول شخص صقليان وحقه في البطريقية ، والحركات الدينية الخطيرة ـ سواء في المغرب النصراني أو في المغرب الإسلامي ـ لم تنشأ عن آراء أو عقائد خاصة بل عن تعصب وانتصار لأشخاص ، لأن أهل المغرب ـ كما يقول ـ لا يكادون يحفلون للعقائد في ذاتها ، ومدار الأمر كله عندهم هم الأشخاص.

وإيمان البربر في رأي جوتييه يمتاز إلى ذلك بتطرف بالغ وتمسك بالظواهر يجعلهم يعلقون أمر العقيدة كلها على فرع من فروعها ، ويصرون على ذلك إصراراً لا يكاد يقبل تنازلاً . وهذه كلها أمور نلاحظها في الدوناتية كما نلمسها في الخارجية : فقد كان الدوناتيون متعصبين لمبادئهم تعصباً أعمى لا يكاد يصدَّق ، وكانوا ينتحرون جماعات في سهولة لا يكاد يتصورها العقل، أملاً في أن يغتنموا الشهادة ويرقوا إلى السماء، بل بلغ بهم الأمر أن كان القلق يساورهم في بعض الأحيان حينما يعلمون أن لهم الحق في قتل أنفسهم واغتنام الشهادة على هذا السبيل « الهين » ، فكانوا يسألون أحد المارة أن يقتلهم بيده ! وويل له إذا أبى ! فأما عند خوارج المغرب المسلمين ، فلم يصل الأمر إلى حد اغتنام الشهادة

بالانتحار ، وإنما هم كانوا يتهافتون على العقيدة تهافت من لا يعنيه أمر حياته ، نجد هذا واضحاً عنيفاً عند غلاتهم كالصفريين ومعتدلاً بعض الشيء عند معتدليهم كالأباضيين . هذا مع العلم بأن تفاني هؤلاء الأخيرين في العقيدة كان يذهب بهم إلى حد إلغاء شخص الإنسان إلغاءً تاماً أمام الخالق .

٦٦ ـ الدوناتية والخارجية

ثم يقول: ولقد أحسن ماسكراي حينما قال إن الخارجية هي الدوناتية نُقلت من إطار مسيحي إلى إطار إسلامي . ولا يهمنا الإطار ولا الحادث الذي أثار الحركة في المسيحية أو في الإسلام بقدر ما تهمنا الظاهرة ومغزاها الذي يتلخص في الحقيقة التالية: وهي أننا نجد عند المغاربة أنفسهم أسلوباً واحداً عميقاً في الإحساس بالله وقوته ، وأننا نجد هذا الإحساس ظاهراً في صور مختلفة متتابعة ، فذلك غريزي عند هذا الجنس.

وهو ـ أي جوتييه ـ لا يهتم لذلك بالناحية الدينية للموضوع ـ فهي في نظره حادث عارض ـ والمهم عنده هي الغايات والنزعات المادية التي تبتتر دائماً خلف ستار العقيدة ، ولقد طالما حاول الناس أن يصلوا إلى المعنى السياسي والاجتماعي للحركة الدوناتية ، وقد وفقوا ، وليس بالعسير كذلك الوصول إلى النزعات السياسية والاجتماعية التي أدت إلى الخارجية.

ثم يقول : إن ابن خلدون نفسه قد كشف عن هذه النزعات ببعد نظره وزكانته ، وذلك حيث قال: إن الخارجية انتشرت على عجلٍ في البلاد وأصبحت سلاحاً في يد أهل الفتنة يحاربون به الدولة ، وهو يقصد بالدولة هنا دولة الخلفاء التي يمثلها العمال ، فهؤلاء الخارجيون كانوا يلتمسون الأنصار بين الطبقات الدنيا من البربر .

ويقول: ولم تكن الدوناتية في الواقع إلا حركة بربرية سياسية إجتماعية أساسها ديموقراطي ، إذ كانت في الواقع ثورة شعبية قام بها فقراء الناس المستضعفون . وطبيعي أن الشعب الذي قام بحركة الخارجية لم يكن هو نفسه الشعب الذي قام بالدوناتية ، فقد تغيرت الأحوال بتغير الأزمنة وإنما كان عماد

الحركتين هؤلاء الناس الذين كان تصوفهم صورة نظرية لحرمانهم من الخيرات الدنيوية ، وكان هذا التصوف يخفي خلفه ـ بطبيعة الحال ـ انفجاراً هائلاً لمطامع لم تسعفها الظروف بالتحقق.

وكانت الخارجية كذلك ثورة من البربر أهل البلاد على السادة الأجانب ممثلين هذه المرة في صورة الخلفاء المشارقة .

٦٧ ـ أي فريق من البربر نهض بعبء الحركة ؟

ثم يمضي جوتييه يحلل عناصر الحركة الخارجية ، لأنه لا يريد أن يكتفي بتسميتهم بربراً وكفى ، بل يريد أن يعرف أي فريق من البربر نهض بعبء الحركة ، ويقرر بوضوح أن الذين قاموا بالحركة كانوا في الغالب بربراً زناتيين ، فقد انفجرت الثورة أول الأمر في طنجة خلف ظهور الجيوش الإسلامية الغازية في إسبانيا ، ثم لم يلبث لهبها أن وصل إلى القيروان ، وقد وقعت موقعة الأشراف على مجرى «شلف» ، ووقعت المعركة الثانية التي هلك فيها كلثوم بن عياض على نهر «سبو» ووقعت الثالثة التي انتصف فيها العرب لأنفسهم عند القرن على مقربة من القيروان سنة ٧٤٢ ، وأما الرابعة فقد كانت إلى الشرق مما يلي ذلك ، وفيها استولى الخارجيون على طرابلس ، ثم نشهد بعد ذلك رد فعل عربي عنيف يقوم به عبد الرحمن بن حبيب . أي أن الحوادث البارزة في الحركة كلها دارت حول طرابلس وتونس وتلمسان (بين سنتي ٧٤٣ ـ ٧٥٢) وفيما بين سنتي ٧٥٧ ـ ٧٥٨ ينتقل مركز الحركة إلى القيروان ، فيستولي عليها برابر ورفجومة الخارجيون ويعيثون فيها فساداً ، ثم يطردهم عنها برابر آخرون ، ويستولون عليها .

ثم ينهض العرب لحرب الخارجيين من جديد يقودهم محمد بن الأشعث ويحرز النصر في صُرت من نواحي طرابلس ، ثم يسير إلى القيروان فيحتلها، ولكنه لا يوفق إلى النصر عند تلمسان التي ينتقل إليها مركز الحركة بفضل أبي قرة اليفرني (سنة ٧٦٥) ، ثم يعود الخارجيون فيستولون على طرابلس ، ويحاصرون القيروان ، ويطيل المؤرخون الحديث عن حصار الخارجيين لطبنة في

إقليم هدنة ، ويذكرون أن عاملها عمر بن حفص ظل زمناً طويلاً محاصراً (سنة ٧٧٠) حتى لقي حتفه على أسوار القيروان (سنة ٧٧١) ، ثم يستمر الأمر بين أخذ ورد بين العرب والخارجيين حتى ينتهي الأمر إلى يد بني الأغلب في سنة ٨٠١ ، فتهدأ أحوال البلد ويسودها السلام قدراً من الزمان . فمراكز الثورة هي طنجة ووادي سبو وإقليم تلمسان ووادي شلف وهدنة وجنوبي تونس وطرابلس ، أي أنها تقع جميعاً في نطاق السهول والهضاب العالية ، أي في مواطن زناتة ، لقد وقعت الثورة كلها في أوطان زناتة على وجه التقريب .

ثم يمضي جوتييه مؤيداً رأيه ، فيذكر أن ابن خلدون وابن عذاري يؤكدون أن عبء الحركة الأولى حملته برغواطة (ويشير إلى أن برغواطة هذه قد كفرت بالقرآن فيما بعد ، وأقام رجالها في إقليم الشاوية ديناً جديداً يُخالف الإسلام) ، ومغيلة وهوارة وبني يفرن ، ويناقش النصوص مناقشة يخرج منها بأن قليلاً جداً من صنهاجة قد شاركوا في هذه الحركة ، وأنها لهذا ينبغي أن تعتبر حركة زناتية صرفة .

ثم يستطرد جوتييه استطراداً بعيداً يحلل فيه الحركة من الناحية الاجتماعية ، ولكننا نكتفي بهذا القدر الذي أوردناه لأنه يلقي ضوءاً كاشفاً على بعض العناصر النفسية في هذه الحركة البربرية الخطيرة ، ويهمنا من كلامه قوله أنها كانت حركة زناتية ، وهذا معقول وطبيعي ، فقد كانت زناتة قد أعانت المسلمين وانضمت إليهم من أول الأمر أملاً في أن تنتصف بهم على الروم والنصارى والأفارقة وصنهاجة ، وأن تستعيد في ظلالهم بعض ما فاتها في عهود هؤلاء ، ففاجأ العرب رجالها بهذا العسف الذي رأيناه ، فجنحت نفوسهم إلى الثورة . ويهمنا كذلك قوله إن هذه الحركة طبيعة مركبة في النفس البربرية : فهي طبيعة تفانٍ وتصوف واستخفاف بالحياة . ويهمنا كذلك إشارته إلى ناحيتها القومية ، فالواقع أن الذين قاموا بها كانوا ينكرون على العرب هذا التصرف المطلق في شؤون البلد . ويهمنا أخيراً ربطه هذه الحركة بأمثالها في عهود الروم وسيره بالحركة إلى مطالع العهد الأغلبي .

٦٨ - الأحوال في الأندلس

ونعود الآن إلى الأندلس . لم تكن الأحوال في الأندلس إذذاك بأحسن مما كانت عليه في المغرب . كانت هزيمة المسلمين في بلاط الشهداء ومقتل عبد الرحمن الغافقي وخيرة رجاله في رمضان سنة ١١٤ هـ/٧٣٢ م قد أوقعت البلد في أزمة كبرى ، ذلك أن اليمنيين وأحلافهم من المدنيين انتهزوا فرصة موت الغافقي واشتغال عامل إفريقية عنهم فأقاموا كبيرهم عبد الملك بن قطن بن نُفيلة بن عبدالله الفهري في أول شوال سنة ١١٤ هـ ، ويبدو أن عبيدة بن عبد الرحمن عامل إفريقية أقر عبد الملك في ولايته لأن العلائق لم تكن طيبة بينه وبين أنصار عبد الرحمن الغافقي[١] .

٦٩ - عبد الملك ابن قطن الفهري

لا تمدنا المراجع العربية بمعلومات وافية عن أعمال عبد الملك في ولايته الأولى ، ولكن إيزيدور الباجي يذكر أنه أساء السيرة وآذى المسلمين والنصارى معاً ، وأن من معه من اليمنية عاثوا في البلاد فساداً وأكثروا من الشغب والثورة عليه ، وأنهم شرهوا إلى الأموال شرهاً اضطر معه عبد الملك إلى عسف الناس عسفاً أثار النفوس وأسخطها[٢] . فلما تولى عبيدالله بن الحبحاب أمر إفريقية بعث على الأندلس مولاه عقبة بن الحجاج السلولي ، وكان رجلاً قيسياً صالحاً محباً للجهاد ، فوصلها وبدأ ولايته عليها في شوال سنة ١١٦هـ / ٧٣٤ م[٣].

ويذكر إيزيدور الباجي أن عبد الملك بن قطن الفهري ومن معه من المدنيين حاولوا أن يعارضوا عقبة ويحدثوا عليه الشغب ، فاضطر إلى القبض على عبد الملك وإلقائه في السجن ، ثم نقل عدداً عظيماً من المدنيين إلى إفريقية لكي يهدأ البلد ويستريح من نزوعهم الدائم إلى السلطان والفوضى[٤] .

---

(١) انظر: ابن عبد الحكم: فتوح، آخر ص ٢١٦ وأول ٢١٧ .

(٢) إيزيدور، فقرة ٦٠ .

(٣) الأخبار المجموعة، ص ٢٧ـ ٢٨ .

(٤) إيزيدور فقرة ٦١ ، ويراد بالمدنيين هنا جماعات من أهل المدينة المنورة من الأنصار هاجروا إلى الأندلس واستقروا فيها، وأنشأوا لأنفسهم شيعة سياسية قوية، وكانوا يؤازرون اليمنيين ويحتمون بهم.

ويبدو أن الأحوال استقرت لعقبة في الأندلس بعد ذلك فاستطاع أن يقوم بأمر البلاد «بأحسن سيرة وأجملها وأعظم طريقة وأعدلها»(١). واستطاع كذلك أن ينصرف إلى الفتوح في صقلية وفيها وراء جبال ألبرت بقية أيام حكمه الذي طال سبع سنين(٢).

في ذلك الحين كانت ثورة البربر في إفريقية على أشدها ، وكان عبيد الله بن الحبحاب قد انصرف عنها وتولاها كلثوم بن عياض ، وشغل القيسية في إفريقية عمومتهم في الأندلس ، فضعف أمر عقبة ومن معه ، وبدأ اليمنيون ومن معهم من المدنيين وفيهم بعض الأنصار يتطلعون إلى السلطان من جديد ، وقد أمكنتهم الفرصة في أوائل سنة ١٢٣ هـ إذ مرض عقبة وطال مرضه حتى أشفى على الموت ، والغالب أن اليمنيين ضغطوا عليه وأرغموه على إقامة عبد الملك بن قطن خليفة له إذا توفاه الله ؛ وقد كان ، وعاد السلطان إلى ابن قطن ومن معه من اليمنيين والمدنيين(٣) .

٧٠ ـ انتقال الثورة من إفريقية إلى الأندلس

والظاهر أن نفراً من دعاة الثورة البربرية الإفريقية خف إلى الأندلس ليثير بربرها على عربها ، ولم يكن البربر في الجزيرة الأندلسية مطمئنين إلى العرب ، لأن هؤلاء الأخيرين استبدوا دونهم بالسلطان ، مع أن معظم فضل الفتح يعود إلى البربر .

ويذهب نفر من المؤرخين كذلك إلى أن العرب اختصوا أنفسهم بخير بقاع الأندلس ، ولم يتركوا للبربر غير الفيافي والجبال القاحلة في الشمال والشمال الغربي(٤) .

---

(١) ابن عذارى: البيان، ج٢، ص ٢٩.

(٢) الأخبار المجموعة: ص ٢٨.

(٣) إيزيدور الباجي، فقرات ٦١ ـ ٦٣. ويذكر ابن عذارى أن عقبة استخلفه (البيان، ج٢، ص ٢٩). ويذهب ابن عبد الحكم إلى أن عبيدة بن عبد الرحمن هو الذي رد عبد الملك إلى ولاية الأندلس (فتوح، ص ٢١٧). أما ابن القوطية فيؤكد أن عبد الملك ومن معه من اليمنية اجتمعوا على عقبة وخلعوه، فهو يتفق مع إيزيدور في ذلك، وقد أخذنا بروايتها.

(٤) DOZY, *Hist. des Musulmans d'Espagne* I, p. 161 _ *Recherches;* I, PP. 118- 119.

وليس ذلـك صحيحاً عـلى إطلاقـه ، لأن جماعـات بربـرية كثـيرة كانت مستقرة في أخصب نواحي الأندلس في الجنوب والشرق والغـرب ، بل كـادت ناحية الجـزيرة الخضراء أن تكـون مقصورة عليهم لكـثرة من نزلهـا من بطونهم وعشائرهـم ، ثم إن العرب لم يكونوا من الكثرة بحيث يستطيعون الانفراد بكل سهول بلدٍ عظيم واسع كالأنـدلـس ، ثم إن الكثيرين منهم (أي من العـرب) كانوا أهل جهاد مقيمين دواماً في منطقة ألبرت وما وراءهـا عند أربـونة ، فلم تكن بقيـة العرب لـذلك من الكـثرة بحيث تستطيـع احتلال سهـول الأندلـس الواسعة في الشرق والجنوب والوسط والغرب.

٧١ ـ مقدمات ثورة بربر الأندلس

ثم إن المراجع تتحدث كذلك أن جماعات كبيرة منهم كـانت قد استقرت في أقصى الشمال عند لاردة وأسترقة و«المداين التي خلف الدروب» كما يقول صاحب الأخبار المجموعة[١] أي في نواحي الهضاب الشمالية المجاورة لمواطن الإسبان النصارى في الشمال، فتعليل ثورة البربر على العرب في الأندلس بأن هؤلاء استبدوا دونهم بخيرات البلد وحرموهم منها جميعاً مبالغة لا تؤيدها المراجع ، فأما غضب البربر فسببه استبداد العرب بأمر الحكم واعتبارهم الـبربر شعبـاً محكـومـاً لا ينبغي أن يـترك لـه أي نصيب في الحكم أو في إدارة الأمور ، ولم يكن البربر يعتبرون أنفسهم بـأقل من العـرب ديناً ولا كفـاءة ولا فضلاً ، فقد كـانوا هم الـذين حملوا معظم عبء الفتـح ، وكان منهم طـريف وطارق وهما صاحبا الفضل الأول فيما كسب الإسلام في الأندلـس من نصر . ولم يقف الأمر عند مجرد الاستبداد بالأمر بل تعداه إلى سوء المعاملة والإهانة ، فكان العرب يوقعون بهم أقسى العقوبات لأتفه الأسباب ، فإذا جرؤوا على الشكوى كان عقابهم أشد وأقسى[٢].

---

(١) الأخبار المجموعة، ص ٣٨ وراجع ذلك المقال القيم الذي كتبه سيزار دوبلر عن منازل البربر في الجزيرة الأندلسية.

CESAR DUBLER, *Ueber berbersiedlungen auf der Iberischen Halbinsel, in Festchrits F. Fud Zurich 1943.*

(٢) إيزيدور، فقرة ٤٤.

DOZY, *Recherches*, I. p. 119.

ثم إن استبداد القيسية بالأمر كان حرياً أن ينفر البربر ، إذ كان القيسيون قوماً ذوي عصبية شديدة ، لا يكادون ينظرون لغيرهم نظرتهم إلى ناسٍ مثلهم ، وقد رأينا موقفهم من اليمنية ومن البربر في إفريقية ، وليس لدينا وثائق تدلنا على معاملتهم للبربر في الأندلس ، ولكن الأدلة كلها تدل على أنهم أساؤوا معاملتهم ونفروا نفوسهم ، وكان اليمنيون أقرب إلى نفوس البربر منهم ، لأنهم كانوا معظم الوقت مضطهدين مثلهم[1] . وهذا لا يمنعنا من أن نقرر أن هؤلاء اليمنيين كانوا إذا وصلوا إلى السلطان أفسدوا من أمره أشد مما كان القيسيون يفعلون ، لأن عيب القيسيين كان كبرياء وصلفاً ، في حين كانت عيوب الكلبية اليمنية الظاهرة جشعاً إلى المال وميلاً إلى الفوضى وعجزاً عن التنظيم وحسن الإدارة .

٧٢ - ثورة البربر طبيعي إذن أن يبادر بربر الأندلس إلى الثورة حينما تبلغهم أنباء ثورة أبناء عمومتهم واشتباكهم مع العرب في الحرب في إفريقية . فيقول صاحب الأخبار المجموعة - وروايته على قصرها أكثر ما بين أيدينا تفصيلاً - : «فقُضي أن بربر الأندلس لما بلغهم ظهور بربر العدوة على عربها وأهل الطاعة ، وثبوا في أقطار الأندلس ، فأخرجوا عرب جليقية وقتلوهم ، وأخرجوا عرب أستُرقة والمداين التي خلف الدروب ، فلم يرع ابن قطن إلا فلُّهم قد قدم عليه ، وانضم عرب الأطراف إلى وسط الأندلس إلا ما كان من عرب سرقسطة وثغرهم ، فإنهم كانوا أكثر من البربر ، فلم يهج عليهم البربر»[2] . . . ويزيدنا صاحب فتح الأندلس وضوحاً فيقول: «وتطاولت البربر أيضاً بالأندلس على العرب الساكنين بجليقية وأسترقة والمداين التي خلف الدروب ، وقاتلوهم وطردوهم لكثرتهم هناك وقلة العرب»[3] ولا يزيدنا إيزودور على ذلك كثيراً ، وإن كان يشير إلى أن العرب استبدوا بالبربر وآذوهم وعاملوهم

(١) يفهم هذا من قول ابن القوطية مثلاً: «وبقي عرب الأندلس وبربرها يحاربون الأمويين الشاميين ويتعصبون لعبد الملك بن قطن الفهري، ويقولون لأهل الشام: بلدنا يضيق بنا فاخرجوا عنا!» - ابن القوطية، افتتاح، ص ١٧.

(٢) الأخبار المجموعة، ص ٣٨.

(٣) فتح الأندلس، ص ٣١.

معاملة قاسية ، فأسخطهم ذلك ودفع بهم إلى الثورة»[1] .

ولكن دوزي يضيف من عنده كثيراً ، فيزعم أن العرب اختصوا أنفسهم بأحسن الأرض ، ولم يتركوا للبربر غير النواحي القاحلة في الشمال ، ويمضي في المبالغة ـ على عهده ـ فيذكر أن بربر الأندلس تلقوا أخبار ثورة أبناء عمومتهم في العدوة الإفريقية بقبول عظيم ، وأن دعاة خارجيين ذهبوا إلى الأندلس ليحضوا البربر على القيام على العرب واستئصالهم جملة ، فلم تلبث أن انفجرت ثورة دينية سياسية في إقليم جليقية امتدت إلى شمال الأندلس جميعه عدا إقليم سرقسطة ، ولسنا نعلم من أين استقى هذا كله ، وليس بين أيدينا إلا ما أوردناه من النصوص[2].

ومهما يكن من الأمر فقد ثار بربر شمال الأندلس على عربها المقيمين في نواحي جليقية وأسترقة والنواحي القاسية من أشتُرِس وبعض مناطق الغرب مثل ماردة وقورية وطلبيرة ، فأما إقليم سرقسطة فلم يجرؤ البربر فيه على الوثوب بالعرب ، لأن العرب هناك كانوا أكثر عدداً منهم ، وأسرع من بقي من العرب في هذه النواحي بالهروب إلى وسط الأندلس[3]، فإذا انتصر البربر هذا النصر الأول فقد انتظمت قواهم في ثلاثة جيوش كبيرة : وجهة الأول طليطلة والثاني قرطبة والثالث الجزيرة الخضراء ليتصل بالبربر عبر المجاز . ومثل هذا الترتيب لا يمكن أن يصدر إلا عن قيادة واحدة نظمت صفوف الثائرين ورسمت لهم وجهة واضحة معينة ، لأن الاتجاه إلى الجزيرة الخضراء معناه محاولة قطع مواصلات العرب مع المشرق لحصرهم حصراً لا مخلص لهم منهم ، وهذا أمر لا يصدر إلا عن رأس مفكر مدبر ، ويذهب دوزي إلى أن الثائرين اجتمعوا وانتخبوا من بينهم إماماً دون أن يذكر مرجعه في هذا القول[4] . ولكننا وجدنا في «فتح

(١) إيزيدور، فقرة ٧٦.

(٢) DOZY, *Mus. d,Esp.*I, p. 161

(٣) الأخبار المجموعة، ص ٣٩ .

(٤) يقول صاحب الأخبار المجموعة في ص ٣٩ : « وكانت قد رأست البربر بالأندلس على أنفسهم ابن هدين » . ولم نستطع قراءة هذا الاسم ، وظاهر أن المؤلف يريد أن يقول إن البربر اختارته رئيساً فقط لا إماماً ، فالفرق بين الأمرين ظاهر ، إذ إن نص ابن القوطية يُفهم منه أن الحركة =

الأندلس» إشارة موجزة إلى وجود زعيم بربري يسميه «زقطرتق» كان يرأس جماعة البربر التي كانت متوجهة إلى الجزيرة الخضراء والتي تجمعت في شذونة ، فلا يستبعد أن يكون هذا في الواقع رسماً محرفاً لاسم هذا البربري الذي قاد بربر الأندلس في الثورة كما قاد ميسرة بربر إفريقية[1].

تحرج مركز عرب الأندلس إذاً ، ووجد عبد الملك بن قطن ومن معه من الكلبية اليمنية أنهم لن يستطيعوا الثبات للبربر إلا إذا وصلتهم من المشرق إمدادات . ولم يكن ذلك ميسوراً لأن ثورة البربر في إفريقية كانت على أشدها ، ثم إنهم كلبيون يمنيون وكان اليوم يوم القيسية المضرية .

٧٣ - بلج بن بشر ومن معه محاصرون في سبتة

وكان بلج ومن معه من الشامية القيسية محصورين في سبتة منذ عام ، وقد أجهدهم الحصار حتى أكلوا الدواب والجلود وأشرفوا على الهلاك[2] وكانوا لا يكفون عن الكتابة إلى عبد الملك يستصرخونه ويستغيثون به ، فلم يسمع إلى استغاثتهم ، لأنه كان يخشاهم على نفسه ، فهم قيسية شامية متعصبون وهو ومن معه كلبيون يمنيون في مشاعرهم ، فتركهم لكي يهلكوا حيث هم[3] وكان عبد الرحمن بن حبيب - كبير عرب إفريقية الذي تحدثنا عنه - قد نجا من معركة الأشراف - وانهزم مع بلج وأصحابه إلى سبتة ، ومن هناك عبر إلى عبد الملك بن قطن الفهري مثله ، وجعل يحرضه على بلج وأصحابه ويخوفه منهم ، فزاده ذلك إصراراً على تركهم لمصيرهم[4]. وبلغ من إسرافه في ذلك أن عربياً أندلسياً من لخم يُقال له عبد الرحمن بن زياد الأحرم أشفق عليهم من التلف ، فبعث إليهم مركبين وشحنهما بالشعير

= سياسية ، أما كلام دوزي فيُفهم منه أن الثورة كانت دينية أيضاً ، وانظر أيضاً : ابن حيان ، برواية المقري ، نفح الطيب ، ج٢ ، ص١١ .

(١) فتح الأندلس ، ص٣١ ، وهذه هي قراءة ناشر الكتاب ، ولم أستطع تحقيقها .
(٢) الأخبار المجموعة ص ٣٧ .
(٣) نفس المصدر والصفحة وفتح الأندلس ، ص٣١ .
(٤) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢٢٠ .

والأدام ، فبلغ ذلك عبد الملك فغضب عليه وعاقبه أشد العقاب[1] وساءت حال بلج وأصحابه . ولو لم يكن الربيع قد أقبل وأنبتت الأرض بعض الخضرة والبقل لهلكوا[2]، ولكنهم اقتاتوا بذلك واستعانوا به على البقاء حتى واتتهم الظروف بالفرج من حيث لم يحتسبوا.

وزاد مركز عبد الملك بن قطن وعرب الأندلس حرجاً مع الأيام ، ولم يجد لنفسه مخرجاً إلا أن يأذن لهؤلاء القيسيين المحصورين في سبتة في العبور إلى الأندلس ، فأجابهم إلى طلبهم بعد طول عناد ، واشترط عليهم أن يبارحوا الأندلس بعد القضاء على ثورة البربر مباشرة ، واشترطوا عليه بدورهم أن لا يفرقهم وأن يعيدهم إلى إفريقية جماعة واحدة ، وينزلهم في مكان يستطيعون منه العودة إلى المشرق . وتم الاتفاق على ذلك ، وأرسل إليهم عبد الملك سفناً عبروا بها إلى الأندلس سنة ١٢٣هـ / ٧٤١ م بعد أن أعطت كل فرقة منهم عشرة من رجالها رهائن احتفظ بهم عبد الملك في جزيرة أم حكيم في مدخل الوادي الكبير[3].

٧٤ ـ طالعة بلج

هكذا عبر بلج بن بشر القيسي ومن معه من القيسية الشامية إلى الأندلس ، ولم يكن عددهم ليزيد على عشرة آلاف ولكنهم كانوا من غير شك نخبة من خيرة فرسان الشامية القيسية . لقد أساء رئيساهم كلثوم وبلج استعمالهم حتى هذه اللحظة وسيرتكبون من الأخطاء فيما بعد شيئاً جسيماً ، ولكنهم امتازوا بشجاعة عظيمة وذكاء بعيد ، وسينتهي بهم الأمر بالاستقرار في البلاد ، وسيكون لهم في تطور الأندلس الإسلامي أحسن الأثر حينما تستقر الأمور وتقوم الدولة الأموية .

ترك بلج وأصحابه سبتة في حال من الجوع لا مزيد عليها ، وكانت

---

(١) الأخبار المجموعة ، ص٣٨ . ابن خلدون عند المقري : نفح الطيب ، ج٢ ، ص١١ .
(٢) نفسه ، ص ٣٨ ـ ٣٩ .
(٣) نفسه ، ص ٣٩ .

ملابسهم قد بليت حتى كانوا يستترون بالدروع ، ونزلوا الجزيرة الخضراء ، «فوجدوا بها جلوداً مدبوغة كثيرة ، فقطعوا منها المدارع ، ثم أقبلوا إلى قرطبة ، فكسا ابن قطن خيارهم وأعطاهم كلهم عطاء ، فلم يكن فيه ما يغنيهم ، واستقبلهم عرب بلد الأندلس وهم ملوك ، فكسا كل رجل منهم ن خيارهم خيار عشيرته ، وأفضل عليهم الناس حتى لبسوا وشبعوا »(1). وهكذا آوى عرب الأندلس رجال هذه الطائفة القليلة من القيسية بعد أن تقاذفتهم البلاد والنوب منذ مبارحتهم مواطنهم الأولى في الشام منذ قرابة العامين . ولا نزاع في أن القيسية الأندلسية قد أحسنت استقبالهم واكرامهم على النحو الذي يصفه صاحب الأخبار المجموعة طمعاً في أن تقوم بهم قلوبها . ومن ثم ليس بغريب أن نرى قيسية الأندلس تنهض لمنازلة الكلبية اليمنية من جديد .

٧٥ ـ طالعة بلج تقضي على ثورة البربر في الأندلس

ولم يكد بلج وأصحابه يريحون بقرطبة حتى نهضوا للعمل الذي أتوا من أجله وهو لقاء البربر والقضاء على ثورتهم . كان أول ما ينبغي عمله هو القضاء على الجيش البربري الذي كان متجهاً نحو الجزيرة الخضراء ليتصل بالثائرين في ناحية طنجة وسبتة ويقطع كل أمل لعرب الأندلس في أي عون يأتيهم من المشرق ، ويبدو أن هذا الجيش البربري كان أقوى جيوشهم الثلاثة وأكثرها نظاماً ، وكان قد وصل كما رأينا إذ ذاك إلى شذونة وعسكر عندها .

نهض بلج وأصحابه للقاء هؤلاء ، وانضم إليه نفرٌ من عرب الأندلس البلديين ما بين قيسية ويمنية ، والتقى الجمعان على مقربة من شذونة « فلم يكن للعرب فيهم إلا نهضة حتى أبادوهم وأصابوا أمتعتهم ودوابهم فاكتسى أصحاب بلج وانتعشوا وأصابوا المغانم »(2). ولا نزاع في أن هؤلاء العرب كانوا مدفوعين في هذه المعركة بالرغبة في طلب الثأر من هؤلاء البربر الذين أذاقوهم الويل في إفريقية والأندلس طوال الحقبة الماضية . ثم نهض بلج وعبد الملك بن قطن ومن

---

(1) الأخبار المجموعة ، ص ٣٩ .

معهما للقاء الجيش البربري الذي كان متجهاً نحو قرطبة ، ولم يجدوا عناء كبيراً في هزيمته والقضاء عليه .

فأما الكتلة البربرية الثالثة التي كانت تحاصر طليطلة فيبدو أن أمرها كان أخطر من الكتلتين الأخريين بسبب الأعداد العظيمة التي تجمعت فيها . كانت جماعات بربرية غفيرة من بربر جليقية وأسترقة ومباردة وقورية وطلبيرة قد انجفلت من بلادها وانضمت إليها ، وأقبلت فحاصرت طليطلة ، وأقامت على الحصار أشهراً حتى اشتد الأمر بطليطلة وأهلها ، وكان بعض هذه الجماعات البربرية قد عبر التاجة وانحدر نحو الجنوب وحاول عبد الملك بن قطن أن يناجزها الحرب فلم يفلح ، فلما تم له القضاء على الجيشين البربريين الآخرين على يد الشآمية جمع رجاله وسار مع الشآميين للقاء البربر على مقربة من طليطلة ، فلما تسامع هؤلاء بمسيره إليهم حلقوا رؤوسهم اقتداء بميسرة ، « ولكي لا يخفي أمرهم وليضربوا ولا يختلطوا »[1] ، مما يدل على شدة حماستهم ورغبتهم في النصر .

٧٦ - معركة وادي سليط دارت المعركة الحاسمة بين الجانبين عند وادي سليط (Guazalete) وحمي أوارها ، لأن قلوب الجانبين كانت تفيض سخطاً ، وأظهر الشآميون من الشجاعة والقدرة ما استطاعوا به القضاء على هذه الجموع البربرية والانتصار عليها ، « فلم ينج منهم إلا الشريد ، فركب أهل الشام ولبسوا السلاح ، ثم فرقوا الجيش في الأندلس فقتلوا البربر حتى اطفأوا جمرتهم »[2] (أوائل ١٢٣ م / منتصف ٧٤١ م) .

ويُفهم من هذه العبارة الأخيرة أن العرب بعد أن انتصروا على البربر هذا الانتصار الحاسم عند وادي سليط تعقبوهم في نواحي الجزيرة واشتدوا في ذلك شدة بالغة حتى ساء حالهم .

---

(١) المرجع السابق ، ص ٤٠ ، ووادي سليط نهر يصب في التاجة من اليسار جنوبي طليطلة بقليل . وقد أشار الرازي في قطعة باقية من الترجمة الإسبانية لتاريخه إلى هذه الموقعة بقوله : «et esta batzlla fue en el ter- mino de Toledo sobre el rio Calican انظر الفقرة ٢٤ ص ٨٨ في نهاية عمود ٢ من طبعة جايانجوس . ولم يستطع الناشر تحقيق نهر كاليكان هذا .

٧٧ ـ المجاعة وهجرة البربر إلى إفريقية

شغل العرب والبربر بهذه الحروب عن عمارة الأندلس ، وكانت جموع كثيرة من هؤلاء البربر وأعداد قليلة من العرب قد اشتغل بفلاحة الأرض واستقرت فيها منذ سنوات الفتح الأولى ، وكان نفر آخر من العرب قد استقروا في عواصم الأرياف والقرى التي غنموها واشتغلوا بالإشراف على المزارعين من أهل البلاد ، فكان إشرافهم هذا من العوامل التي أسرعت بعمارة الأرض بعد انتهاء فترة الفتح وما دار خلالها من حروب . فلما اشتغل العرب بالحروب فيما بينهم ، وغادروا مواقعهم ، واشتبكت الحرب العنيفة بينهم وبين البربر وانتصروا عليهم واشتدوا في الانتقام منهم ، خاف من بقي من البربر واضطربوا في مساكنهم ،وبدأت الرغبة تساورهم في ترك هذه البلاد التي كانوا يقيمون فيها على الخطر، إلى بلادهم الأولى حيث يكونون أكثر اطمئناناً ، فانصرف معظم هؤلاء البربر عن الزراعة وأخذوا يهجرون الأرض ، وكان العرب قد فعلوا ذلك قبلهم ، وهكذا أخذت المزارع والقرى تخلو من سكانها من العرب والبربر ، وأخذ الخير يقل في البلاد ، وتوالى ذلك سنوات فازدادت الحال سوءاً .

ولم ينتبه العرب إلى ذلك لاشتغالهم بحروبهم مع البربر ومنازعاتهم بين أنفسهم، فانتهى الأمر بعد سنوات قلائل إلى مجاعة كبيرة لقلة المحاصيل، وانضاف شر هذا البلاء الجديد إلى شر الحرب القائمة والفوضى السائدة وقلة الأمان، فانعدمت الزروع وندرت المحاصيل ولاح شبح مجاعة خطرة ظهرت بشكلٍ حاد بعد أن انهزم البربر هزيمتهم النهائية عند وادي سليط. فلم تكد عشرة أعوام تنقضي على ذلك حتى قحطت البلاد وانتابتها مجاعة عامة شديدة يتحدث عنها صاحب الأخبار المجموعة بقوله: «حتى كانت فتنة أبي الخطار وثوابة، فلما كانت سنة ثلاث وثلاثين (٧٤٨م) هزمهم (أي بلاي زعيم الإسبان) وأخرج (يريد أخرجهم أي العرب) عن جليقية كلها، وتنصر كل مذبذب في دينه وضعف عن الخراج، وقُتل من قتل، وصار فلهم إلى خلف الجبل إلى أستورقة، حتى استحكم الجوع فأخرجوا أيضاً المسلمين على أستورقة وغيرها، وانضم الناس إلى ما وراء

الدرب الآخر وإلى قورية وماردة في سنة ست وثلاثين، واشتد الجوع، فخرج أهل الأندلس إلى طنجة وآصيلا وريف البربر مجتازين ومرتحلين، وكانت إجازتهم من واد بكورة شذونة يُقال له وادي برباط، فتلك السنون تسمى «سني برباط»، فخفف سكان الأندلس، وكاد يغلب عليهم العدو، إلا أن الجوع شملهم»[1].

واشتدت المحنة وأصابت نواحي الأندلس كلها عدا إقليم سرقسطة الذي نجا منها بفضل مياهه وأنهاره وبفضل الجماعة العربية الكبيرة التي استقرت فيه. ويبدو أن المحنة كانت شديدة جداً، لأن الكثيرين من العرب انجفلوا ـ كما رأينا ـ إلى النواحي التي توقعوا أن يجدوا فيها خيراً، وكان البربر أسوأ حالاً، لأن الهزائم فلت غربهم، ولأن العرب تتبعوهم بالأذى في كل ناحية حتى ضاقت البلاد بهم، وأحسوا العداوة والشر في الأندلس فأخذت جموع منهم تعود إلى إفريقية ليطمئنوا بين أهليهم وعشائرهم، فهاجروا إلى إفريقية أرسالاً كبيرة.

٧٨ ـ زحف نصارى الإسبان نحو الجنوب

لا نزاع في أن عدد من هاجر من البربر كان عظيماً جداً، لأن المؤرخين يحدثوننا أن نواحي شمال الأندلس وغربه كادت تخلو من أهلها المسلمين، فإذا أضفنا إلى ذلك أعداد من هلك من السكان ـ عرباً وبربراً ـ بسبب المجاعة، ومن انجفل منهم إلى الجنوب وإلى الغرب وإلى إقليم سرقسطة، استطعنا أن نعرف السبب فيما حدث من اتساع دولة النصارى الإسبان في جليقية وأشتريس اتساعاً مفاجئاً بلغت به ضعف حجمها الأول بين سنتي ٧٥١ و٧٥٣ (١٣٤ ـ ١٣٦هـ): ذلك أن الإقليم الواسع الواقع بين نهري المنهو والدويرو خلا من سكانه المسلمين في ذلك الحين، فاستطاع النصارى أن يتقدموا ويحتلوا ما استطاعوا من هذه المساحة من غير جهد، وكان يقودهم ملكهم ألفونسو الأول، فاسترجع النصارى أفراغة وأبورتو وڤزيو[2]، وبذلك سيطروا على شمال الأندلس

---

(١) الأخبار المجموعة، ص ٦٢.

(٢) ظن بعض المؤرخين أن الصيغة العربية لڤزيو Viseu هي بازو الواردة في المقري ولكن ساڤدرا أثبت خطأ ذلك (أنظر المقري: نفح الطيب، ج١، ص ١٧٤).

SAAVEDRA, *Estudio sobre la invasion de los Arabes en Espana* (Madrid, 1882) p. 182.

حتى الدويرو، ثم تقدموا بعد ذلك في حذرٍ فاستولوا على أشترقة وليون وسمورة وِلِدسما وسلمنقة وقورية. بل تذهب المراجع النصرانية إلى أنهم استرجعوا ماردة نفسها، وتوسعوا نحو المشرق فاحتلوا سلدانيا وسيمانقاس وشقوبية وأفيلة وأوكـا وأوسما وميراندا على نهر أبْرة وسنيسيرو وأليسانكو عـلى نهير ريوخـة. وانحدرت حدود الأندلس الإسلامي إلى الخط الممتد من قلمرية عـلى المنديجـو إلى قوريـة وطلبيرة وطليطلة على التاجة إلى وادي الحجارة وتطيلة وبنبلونة في الشمال الشرقي.

٧٩ ـ العرب يخسرون ربع الجزيرة

وبهذا خسر المسلمون نحو ربع ما فتحوه من الأندلس بسبب هذه الخصومات القبلية من ناحية وبسبب المنازعات بين العرب والبربر من ناحية أخرى، وكان لهذا أسوأ الأثر على مستقبل الإسلام في الأندلس[١].

٨٠ ـ الخصومة بين العرب والبربر

ولم تقف نتائج هذه الثورة المشؤومة عند ذلك الحد، بل إنها خلقت في نفوس العرب والبربر من الكراهة للحكم الأمـوي في دمشق سيظل قائماً قروناً متوالية لا تكاد الأيام تمحوه. كانت هذه الحرب الضروس حرب فناء بين الجانبين، فلما انهزم الخوارج في إفريقية والأندلس ظل بقايا خوارج البربر طوال القرون التالية يحسون الخوف من دولة الخلافة والكراهة لرجالها، وقد انتهى الأمر بعد قرابة ثلاثة قرون بانـدماج العـرب والبربـر وقيام الشعب العربي المغربي. وأما في الأندلس فلم يقهر أحد من الجانبين الآخر، لأن عودة الهجرة البربرية إلى الأندلس بعد قيام الإمارة الأمويـة قوّى جـانب البربـر الخوارج من جديد وأعادهم إلى المقاومة، فتقوت مراكزهم وأخذوا يناوئون العرب والأندلسيين مرة أخرى، وسنرى ذلك بصورة واضحة أثناء الأزمة الكبرى التي دامت طوال إمارات محمد والمنذر وعبدالله، وسنرى أثر هذه الخصـومة واضحـاً بشكل خطر حاسم بعد سقوط الخلافة الأموية.

يقول الرازي تعقيباً على هذه الحوادث التي ذكرناها: «ومن هذا وأشبـاهه

---

(١) انظر: BALLESTEROS: *Historia de Espana y su influencia en la historia universal,* II, pp/ 325 sqq. DOZY, *Recherches*, I, pp. 116 sqq.

قدمت العداوة بين بربر الوسط وعرب الأندلس، وتوارثها الأبناء إلى يوم البعث، فبالعرب غزوا في بلادهم وببأسهم سبيت ذراريهم وغُنمت أموالهم حتى أدخلوا في الإسلام واضطروا إليه قهراً. قال: فلما رجع العرب إلى بلادهم [في] المشرق، واستقر منهم الأقل [في] الأندلس ممن أراد الجهاد ورغب فيه، وكان البربر يومئذٍ أكثر منهم فيها لمجاورتهم بلادهم، لم تزل عداوة الأديان والغلبة تتجدد بينهم»[1]. وفي هذا الكلام مبالغة.

ولقد قامت الثورة البربرية[2] التي أشرنا إليها مراراً في هذا البحث في سنة ١٢٢ / ٧٤٠ وكانت بدايتها في المغرب الأوسط فهناك قام بها أبو قرة المغيلي وصاحبه أبو يوسف الهواري، وهما ممن رأس في هذه النواحي على الأساس الذي ذكرناه، وقد درست هذه الثورة في كتاب فجر الأندلس وقلت إنها كانت ثورة بربر على عرب وتتبعت أحداثها على هذا الأساس، ويبدو لي الآن أنه لا بد من تعديل تلك النقطة على أساس الحقائق التي تكشفت لي وعرضت بعضها في هذا البحث، وأهم تعديل لا بد من إدخاله على النظرة العامة لتلك الثورة وأحداثها هو أنها لم تكن ثورة بربر على عرب بقدر ما كانت ثورة نفر من أهل المغرب الإسلامي العربي الوليد على أوضاع لم تعجبهم مما كان سائداً في عصر بني أُمية، فقد كان بين الثائرين عرب وبربر مستعربة وكان بين مكافحي الثورة عرب وبربر مستعربة أيضاً، أي أنها كانت ثورة عامة داخل نطاق الدولة الإسلامية العامة، وهذا تغيير جوهري في نظريتنا العامة لتطور التاريخ المغربي.

ولا يتسع المجال هنا لرواية أحداث هذه الثورة على الضوء الجديد، ولكننا سنأخذ من تفاصيلها ما يمكن أن يعيننا على تبين خطوط النظام الإداري والمالي الذي سار عليه العرب في حكم إفريقية والمغرب في عصر الولاة.

---

(١) روى ذلك صاحب فتح الأندلس، ص ٣٢.

(٢) هذا الرأي الجديد في ثورة البربر مأخوذ من بحث للمؤلف نشر في المجلد الأول من مجلة كلية الآداب بجامعة الكويت.

شواهد أخرى على صحة هذا الرأي

من ميزات الثورات أنها تهز المجتمعات هزاً عنيفاً يقلب الأوضاع فيها ويجعل أسافلها أعاليها فينكشف للعين الكثير مما كان خافياً من أحوال المجتمع ونظمه التي يصعب التعرف عليها في عصور الاستقرار وثبات الأحوال ، ومن هنا كانت الدراسة العميقة لعصور الثورات عظيمة القيمة في تعرف أحوال المجتمعات قبل وقوعها وفي أثنائها .

وهذا يصدق تماماً على هذه الثورة المغربية التي هزت كيان المغرب في عصر الولاة ، وكانت كأنها إعصار عنيف إجتاح المغرب كله فقلب أوضاعه قلباً تاماً ، وأطلعنا على بعض ما كان خافياً من تلك الأوضاع وأتانا بشواهد على ما قلناه .

فقد قلنا إن العمالات الأربع التي انقسمت إليها ولاية إفريقية والمغرب إنقسمت إلى وحدات إدارية أصغر في إفريقية التي كانت تتكون من طرابلس وإفريقية والزاب . وهذه الأقسام الأصغر تنقسم بدورها إلى عمالات مراكزها المدن مثل قابس وطرابلس وقفصة والقيروان وتونس وتوزر والمسيلة وطبنة وباغاية وما إلى ذلك .

ولكننا لا نملك شواهد تدل على أن أعمال المغرب الأوسط أي تلمسان والمغرب الأقصى والسوس قد إنقسمت بدورها إلى أقسام إدارية أصغر في المدن والنواحي ، ولكننا دللنا على أن هذه العمالات الثلاث انقسمت إلى أقسام إدارية محلية تولت الرياسة والحكم فيها أسر عربية أو مستعربة قامت بأمورها لحساب العمال أو مستقلة بنفسها . وقلنا أن هذه الأسر سادت في هذه النواحي وانفردت بها على أساس قريب من الإقطاع ، فهي تحوز الناحية وتحكمها وتتعهد بإقامة شعائر الإسلام فيها وتقديم عون عسكري ، وربما شيء من المال مما تجبيه في الناحية . ورأينا أنه في بعض الأحيان كان رأس الأسرة صاحبة الإقطاع يعمل على الحصول على تأكيد لإقطاعه من الخليفة في دمشق .

ولا تستعمل مراجعنا لفظ « إقطاع » لأن هذا المصطلح بمفهومه الذي ساد في بلاد الإسلام في العصور المتأخرة لم يكن قد أصبح بعد نظاماً معمولاً به له قواعده السياسية والمالية المقررة ، ولكن النظام الذي سارت عليه هذه الأسر وعلاقتها بالحكومة المركزية كانت إقطاعية الطابع في مجموعها .

والنموذج المعروف لهذه البيوت هو بيت صالح بن منصور اليمني الملقب بالعبد الصالح الذي كان رأس جماعة من الحميريين منحه موسى بن نصير ناحية النكور إقطاعاً له ، ثم ثبّت له الإقطاع الخليفة الوليد بن عبد الملك ، وقد اتخذ الرجل لنفسه لقب الأمير وحكم نحو ثلاثين سنة (٩١ - ١٢٣ / ٧١٠ - ٧٤٠) ، « وعلى يديه أسلم بربرها وهم صنهاجة وغمارة ، ثم ارتد أكثرهم لما ثقلت عليهم شرائع الإسلام ، وقدموا على أنفسهم رجلاً يسمى داوود ويعرف بالرندي ، وكان من نفرة وأخرجوا صالحاً ، ثم تلافاهم الله بهداه وتابوا من شركهم وقتلوا الرندي واستردوا صالحاً ، فبقي هناك إلى أن مات بتمسامان[1] » وخلفه بنوه ، وقد استمرت هذه الأسرة تحكم هذه الناحية الصغيرة حتى سنة ٤٧٣ / ١٠٨٠ - ١٠٨١ عندما استولى يوسف بن تاشفين على النكور وخلع آخر بني صالح .

وفي أثناء تصاريف الثورة وتقلباتها نجد أسماء عرب آخرين استقروا في نواح أخرى من المغرب وحكموها على هذا الأساس وإن لم تطل أيامهم كما طالت أيام بني صالح في نكور ، فهناك مثلاً حبيب بن مسعود شيخ عرب سبرت والقائم بأمرها عندما قامت الثورة ، ومثله صفوان بن أبي مالك صاحب طرابلس ويوصف أحياناً بأنه أميرها[2] ، وسعيد بن بجرة الغساني صاحب قابس ، وعامر بن نافع بن الأزرق صاحب سيبيه (في الزاب) ، بل هناك رجل يسمى عبد الله بن مسعود التجيبي يوصف بأنه كان إمام بربر طرابلس حتى قتله عبد الرحمن بن حبيب ، وعروة بن الوليد الصدفي الذي رأس في

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح إفريقية والأندلس ، ص ٩٥ - ٩٦ .
(٢) نفس المصدر ص ٩٦ .

تونس ، وأبو عطاف عمران بن عطاف الأزدي الذي رأس في الساحل ، وعبد الله بن حيان الأباضي زعيم أباضية زويلة ، ونصير بن حاتم الأباضي شيخ باجة ، وإسماعيل بن زياد الأباضي الذي يذكر أنه ثار على عبد الرحمن بن حبيب فيمن معه من بربر نفوسة واستولى على قابس .

ومن أمثلة هؤلاء الرؤساء في أثناء تلك الثورة عكاشة بن أيوب الفزاري[1] (من ناحية قابس) ، وهو فزاري بالولاء ، وعبد الواحد بن يزيد الهواري وأبو يوسف الهواري ، « وكان طاغية من طواغي البربر » كما يقول ابن عبد الحكم[2] ، وهناك أيضاً ثابت الصنهاجي وصاحبه عبد الله بن سكرديد ، وقد ثارا في ناحية باجة واستقلا بها . ومن طرائف هذه الشخصيات البربرية المستعربة التي رأست في نواحيها عقب لفتح عبد الجبار ب قيس المرادي والحارث بن تليد الحضرمي من رؤساء جماعات البربر في إقليم طرابلس ، وكلاهما يُلقب بالهواري ، أي أنهما بربريان هواريان أصلاً ثم دخلا في ولاء العرب فأصبح واحد منهما مرادياً والثاني حضرمياً (وكلا النسبين يمانيان) ، ورأس كل منهما ناحيته ، فلما قامت الثورة أخذا بمبادىء الأباضية ، وقد حدث أن حبيب بن عبد الرحمن بن حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع تولى طرابلس لأبيه عبد الرحمن فقبض على شيخ عربي ممن رأسوا في نواحي طرابلس واعتنقوا الأباضية فقتله ، فثار له عبد الجبار بن قيس والحارث بن تليد الهواريان المستعربان « واستولى عبد الجبار على زناتة وأرضها » كما يقول ابن عبد الحكم[3] ، وقد بلغ من تداخل العرب والبربر المستعربة في هذه الفتنة أن عبد الرحمن بن حبيب أراد أن يتقي شر عبد الجبار والحارث الهواريين فأقام على طرابلس عربياً هو يزيد بن صفوان المعافري ، فندب هذا هوارياً مستعرباً هو مجاهد بن مسلم الهواري « وليستألف الناس ويقطع عن عبد الجبار هوارة

---

(١) ابن عبد الحكم ، فتوح ص ٩٦ .
(٢) نفس المصدر ، ص ٩٧ .
(٣) ابن عبد الحكم ، فتوح ص ١٠٦ .

وغيرهم ، وبعد نزاع طويل انتصر عبد الجبار والحارث واستوليا على طرابلس كلها[1] حيناً من الزمن ، ثم وقع الخلاف بينهما وتقاتلا ، فولى البربر على أنفسهم إسماعيل بن زياد النفوسي » ، فعظم شأنه وكثر تبعه ، فخرج إليه عبد الرحمن بن حبيب حتى إذا كان بقابس قدم عمه شعيب بن عثمان فلقي إسماعيل ، فقتل إسماعيل وأصحابه ، وأسر من البربر أسارى كثيرة[2] ، وهؤلاء البربر المستعربة كلهم كانوا رؤساء في نواحي إقليم طرابلس على الأساس الذي ذكرناه ، وعندما قام عبد الرحمن بن حبيب وطمح إلى الاستبداد بأمر المغرب كله استعان برؤساء وزعماء من العرب البلديين ممن رأسوا بدورهم في بعض نواحي المغرب للقضاء على رؤساء البربر المستعربة الذين ناوأوه ، وجدير بنا أن نلاحظ أن اعتناق أولئك الرؤساء من البربر للأباضية والصفرية كان وسيلة لجأوا إليها في تأييد حقهم في الرياسة ، لأن مبادىء الخارجية تقرر أن الرياسة حق لأصلح المسلمين سواء أكان عربياً أو غير عربي .

وقد استمر أولئك الرؤساء من البربر المستعربين يتمسكون بحقوقهم في رياسة قبائلهم وحكم نواحيهم بعد أن تم النصر لعبد الرحمن بن حبيب وأقبل هو وآله الفهريون ينزعون أولئك الرؤساء من نواحيهم فطال النزاع ولم يوفق بنو حبيب الفهريون فيما طلبوا ، بل كانت نهايتهم على يد زعيم من زعماء أولئك البربر المستعربين وهو عاصم بن جميل شيخ قبيلة ورفجومة الزناتية ، وكان بيته قد رأس في ناحية سدراتة بإقرار العرب أثناء الفتح .

واستمر النزاع بين الحكومة المركزية وهؤلاء الرؤساء من البربر طوال أيام المهالبة أيضاً ، ومن أمثلتهم في ذلك العصر أبو يحيى بن فرباس الهواري الذي امتنع على يزيد بن حاتم ورفض أن يتنازل له عن حقه في ناحيته مما أدى إلى حرب طويلة بينهما .

---

(١) نفس المصدر ص ١٠٦ .

(٢) نفس المصدر ص ١٠٨ .

ومن هؤلاء الرؤساء من البربر المستعربة أبو القاسم سمغون بن واسول المكناسي جد بني واسول الذين انشأوا دولة بني مدرار في سجلماسة ، فقد أسلم جدهم أبو القاسم أيام الفتح ، وكان اسمه سمكو أو سمغون (الذي حرفه بعض النساخ إلى شمعون وزعموا تبعاً لذلك أنه كان يهودياً) بن مصلان ، ثم عاد إلى بلده ورأس في ناحيته ، فلما دخل مذهب الصفرية ناحية سجلماسة قام أولاد سمغون بتأييد عيسى بن يزيد في قيادة الجماعة ، عاد الأمر إلى بيت القاسم بن سمغون وتولى الرياسة منهم إلياس بن أبي القاسم ثم أخوه أليسع وهو المؤسس الحقيقي لهذا البيت[1] ، ولابن خلدون في أولية هذا البيت عبارة غزيرة المعنى التاريخي قال : « كان أهل مواطن سجلماسة من مكناسة يدينون لأول الإسلام بدين الصفرية من الخوارج ، لقنوه عن أئمتهم ورؤوسهم من العرب لما لحقوا المغرب وانتزوا على الأصقاع ، وماجت أقطار المغرب بفتنة ميسرة ، فلما اجتمع على هذا المذهب زهاء أربعين من رجالاتهم نقضوا طاعة الخلفاء وولوا عليهم عيسى بن يزيد الأسود من موالي العرب ورؤوسهم الخوارج واختطوا مدينة سجلماسة لأربعين ومائة من الهجرة ، ودخل سائر مكناسة من أهل تلك الناحية في دينهم . . »[2] ومن هذه العبارة نفهم الحقائق التالية :

١ - إن نفراً من رؤوس العرب وأئمتهم لحقوا بالمغرب لأول الفتح وانتزوا على الأصقاع ، أي استقلوا بها ، أي « تقاسموها » ، كما قال ابن خلدون في عبارة أخرى ذكرناها .

٢ - فلما انتشرت بينهم مذاهب الخارجية نقضوا طاعة الخلفاء . ومعنى هذا أنهم كانوا قبل ذلك في طاعة الخلفاء أي أن تقاسمهم الأصقاع والنواحي كان برضى من دولة الخلافة وإقرارها .

---

(١) ابن خلدون ، تاريخ ٢٦٨/٦ .

(٢) نفس المصدر ٢٦٧/٦ .

٣ ـ وعقب دخول أولئك المكناسيين في الأباضية وخروجهم على طاعة الخلفاء ولوا على أنفسهم أميراً من موالي العرب ورؤوس الخوارج هو عيسى بن يزيد الأسود .

٤ ـ ثم غضبوا على عيسى بن يزيد وعزلوه وقتلوه وأقاموا على أنفسهم أبا القاسم سمغون أميراً مستقلاً سنة ١٥٥/٧٧٢ فكان هذا نهاية عصر الولاة بالنسبة لناحية سجلماسة الواسعة التي تشمل منطقة منابع نهر درعة في جنوبي المغرب .

وهذه كلها حقائق تؤيد ما نقوله . ومعنى هذا أننا نجد شواهد واضحة على هذا القول في الناحيتين من المغرب اللتين نملك عن تاريخهما في هذه العصور بعض التفصيل .

بل لدينا أخبار عن عرب تبربروا بطول المقام في المغرب واتصال رياستهم على القبائل البربرية في النواحي التي استقروا بها ، وليست هذه الظاهرة بالجديدة على تاريخ الإسلام ، فهناك أيضاً عرب استعجموا بطول مقامهم في إيران واختلاطهم بالإيرانيين حتى صاروا منهم ، ومن أمثلة هؤلاء في المغرب عبد الملك بن أبي الجعد الورفجومي صاحب عاصم بن جميل شيخ قبيلة ورفجومة الذي ذكرناه ، فهذا الرجل الذي يوصف بأنه ورفجومي لا بد أن يكون عربي الأصل ، فإن البربري مهما استعرب لا يتسمى بابن أبي الجعد ، فهذا الاسم عربي قح ، ومثله في ذلك كليب بن جميع الكلبي الذي ينسب إلى هوارة ، وصاحبه عياض بن وهب الهواري أيضاً ، وربما كان هؤلاء ممن يسميهم البكري ، بالمولدين ، أي مولدي المغرب ، أي الذين ينحدرون من آباء عرب وأمهات بربريات من بنات القبائل البربرية التي عاشوا في منازلها ، فقد ذكر أبو عبيد البكري في كلامه على قرية صغيرة قرب تهودة (جنوبي بسكرة الحالية) تسمى بنطيوس طالقة وقال : « وهي ثلاث مدن ، إحداها يسكنها المولدون ، والثانية يسكنها اليمن ، والثالثة يسكنها قيس » ولا بد أن

إنقسام هذا البلد الصغير إلى تلك الأقسام الثلاثة يرجع إلى عصر الولاة ، لأن الكلام على القيسية واليمنية بدأ في التلاشي بقيام الدولة العباسية ، ولم يعد له وجود فعلي يذكر في أواخر القرن الهجري الثاني .

ونخرج من هذا التفصيل بالقول بأن الفاتحين العرب وأوائل الولاة تركوا بالفعل البيوت العربية أو البربرية المستعربة ممن اتصل بهم وأسلم وعمل معهم تنزل بالنواحي وترأس فيها وتقوم بحكمها ، والمفروض بطبيعة الحال أنه حدث هنا ما حدث بالنسبة لمعظم القبائل العربية ومنازلها في شبه الجزيرة العربية : أسلمت القبائل وأصبحت مواطنة في دولة الإسلام وأرسلت رجالاً منها للإشتراك في الفتوح ، وفي مقابل ذلك احتفظت بالسيادة في نواحيها ، وحصل رؤساؤها على تثبيت لرياستهم ولحقوق قبائلهم في أراضيها وهذا واضح في الكتب التي كان رسول الله ﷺ يكتبها لوفود القبائل التي جاءت تعلن إسلامها في عام الوفود خاصة ، وقد جرت عادة الرسول على أن يرسل إلى القبيلة نفراً من المسلمين يعلمون الناس شرائع الإسلام ، وقد يكون فيهم مصدق أي مشرف على عملية إخراج الصدقات وتَسَلُّم نصيب الجماعة الإسلامية منها . ونفترض فيما يتصل بالمغرب أن مثل هذا حدث فيه وقد أتينا بشواهد كثيرة على أن العرب الذين كانوا يرسلون إلى القبائل البربرية ليعلموهم الإسلام كانوا يصبحون رؤساء في نفس الوقت ، وقد رأينا هذا في حالتين محددتين هما حالتا بني صالح في نكور وبني أبي القاسم سمغون في سجلماسة ، والأولون عرب والآخرون بربر مستعربة ، وجدير بالملاحظة أن اعتبار مُعَلِّم الإسلام والإمام رئيساً فعلياً للجماعة ظل سارياً كأنه تقليد استقر في المغرب ، ففي القرن الخامس الهجري ذهب عبد الله بن ياسين إلى منازل قبيلة جدالة ثم لمتونة معلماً وإماماً لشؤون الدين ، ولكنه رأس الناس وقادهم لأول نزوله ، فكان ذلك ميلاداً لدولة المرابطين .

وإذن فقد شملت ولاية إفريقة والمغرب الشمال الإفريقي كله من حدود صرت إلى ساحل المحيط ، وانقسمت بعد ذلك إلى أربع عمالات كبرى هي

إفريقية والمغرب الأوسط أو تلمسان والمغرب الأقصى أو طنجة ثم السوس أو سجلماسة . وكانت كبرى هذه الولايات وأكثرها نظاماً إفريقية وقد ذكرنا حدودها وانقسمت إلى عمالات مراكزها المدن ، ودون ذلك كانت ولايات القبائل في منازلها ترأسها بيوت عربية أو بربرية مستعربة ، وفي ولايات المغرب الأوسط والمغرب الأقصى والسوس لم نسمع بعمالات في المدن ، وإنما انقسمت الناحية إلى ولايات القبائل ورؤسائها من عرب أو بربر مستعربة ، وتحولت هذه الولايات القبلية إلى وحدات سياسية ، خاصة عندما اهتم الرؤساء بإنشاء المدن لتكون مراكز لسلطانهم، والكثير جداً من مدن المغرب التي طفرت في العصور الإسلامية أنشأتها رياسات القبائل التي ذكرناها ، ولهذا فإن أسماءها في الغالب أسماء قبائل مثل مكناسة وتامزغران ووهران وتافللت وحصن مرنيسة وتاونت أو أسماء جماعة مثل الأنصاريين وبني مروان وبني مغراوت وبني وارث وعقبة الأفارق وقرية الصقالبة وقد تنسب إلى مؤسسها من رؤساء القبائل وهو كثير .

لقد كان نظاماً بسيطاً ولكنه كان طبيعياً ونابعاً من ظروف المغرب نفسها ومعتمداً في نفس الوقت على سوابق جرت عليها دولة الخلافة في الشرق ، ولهذا كان ناجحاً ، فإن هذه البيوت ربطت الجماعات البربرية بجماعة الإسلام ربطاً محكماً وإن لم تربطها بدولته ربطاً بهذا الإحكام ، ولكن الإسلام دين ونظام وحضارة قبل أن يكون دولة ، ثم إن الربط بالدولة المركزية مهما كان متيناً فقد كان مصيره إلى الضعف والتلاشي لتظهر الوحدات المحلية في صورتها الإسلامية العربية ، وهذا هو الذي حدث في المغرب . كان هذا التنظيم بداية لعملية « ميتامور فوزيس » عربية إسلامية مغربية أحدثت في تاريخ المغرب أشمل وأعمق تغيير تعرفه . ثم جاءت الغزوة الهلالية فأكملت في عنف كثير عملية تعريب المغرب التي كانت تسير في طريقها في بطء ، ولكنها كانت تسير .

ولقد كانت الثورة التي اندلعت في نواحي المغرب ابتداء من

سنة ١٢٢/٧٤٠ في ولاية ابن الحبحاب واستمرت إلى نهاية العصر الأموي تقريباً ثورة مخربة أصاب البلاد منها أذى شديد ، وفرقت قلوب الناس وسفكت دماء كثيرة وأضاعت جهوداً كان يمكن أن توجه إلى البناء والتعمير ، وفتحت الباب على مصراعيه لمبادىء الخارجية ، بل إلى مذاهب خارجة عن الإسلام تماماً مثل زندقة برغواطة التي طال أمدها ولم يتم القضاء على ذيولها إلا على أيدي المرابطين في القرن الخامس الهجري ، ولكنها فيما يبدو لنا كانت ثورة طبيعية أو لم يكن منها مفر ، فإن الإسلام حشر العرب والبربر حشراً في طريق واحد على النحو الذي رأينا وفرض عليهم أن يعيشوا معاً . فلم يكن من التنافر والتنازع مفر ، وكان لا بد من الصراع حتى ينتهي الجانبان إلى نوع من التآلف أو التعايش كما تقول : استعرب البربر من جانبهم شيئاً وتبربر العرب من جانبهم شيئاً وتلاقى الحيان في نقطة ما من الطريق وسارا معاً وأصبحا شعباً واحداً في ظل الإسلام والعروبة في نهاية الأمر .

كانت فتنة لا مفر منها إذن ، وقد دأت شديدة قاسية ، ولكنها انتهت نهاية طيبة ، إذ أخرجت ـ بعد ولادة عسيرة ـ شعباً من أكبر ما تعتز به أسرة الإسلام والعروبة هو شعب المغرب ، وأدخلته في رحاب التاريخ ليقوم بنفسه بتجاربه في الحكم والحياة .

هكذا أُسدل الستار على هذه الفتنة الإفريقية الكبرى بعد حروب طويلة ودماء غزيرة. ولكن الأيام تكفلت بمحو آثار هذه العداوة، وبعد أن قامت الدولة الأموية الأندلسية بقليل لن نجد في الأندلس إلا الأندلسيين ولكن أسوأ آثارها أنها قللت من قوة المسلمين في مواصلة الفتوح في غالة وهي فرنسا. فقد كان من الممكن قبل هذه الثورة أن يستمر المسلمون في مغازاة ما لم يغزوه بعد من أنحاء الأندلس حتى يستولوا على شبه الجزيرة كلها، بفضل جموع البربر المهاجرة. أما الآن، وقد عادت هذه الجموع البربرية إلى بلادها، وبعد أن هلك منها في الفتنة من هلك، فلم يعد من الميسور تعمير شبه الجزيرة كله بالمسلمين. وانفسح أمام الإسبان النصارى مجال النمو، وتجددت آمالهم في غزو بلاد المسلمين وليس يخفى

على أحد أن الأندلس الإسلامي إنما أُتِيَ من الشمال والغرب ـ حيث هاجر البربر ـ ولم يؤت من الشمال الشرقي حيث ظلت جماعات العرب والبربر مقيمة في إقليم سرقسطة.

الفصل السادس

القيسية واليمنية

٨١ ـ مؤرخو الأندلس والعداء بين القيسية واليمنية

عندما نشر راينهارت پيتر ـ آن دوزي كتابه المشهور في تاريخ الأندلس ـ المعروف بـ «تاريخ مسلمي إسبانيا» أدار ثلثه الأول على الحروب القبلية التي وقعت بين عرب الأندلس خلال عصر الولاة، وبالغ في تصوير هذه الحروب حتى جعل العرب الذين استقروا في شبه الجزيرة شراذم من أهل العصبيات لا هم لها إلا الاقتتال فيما بين بعضها وبعض، كأنهم كانوا منقسمين إلى شعبين متعاديين لا تربط أحدهما بالآخر رابطة، هما شعب عدنان وشعب قحطان، لا يبالي أحدهما بشيء في سبيل القضاء على الآخر، ومضى يصف في إسهاب الوقائع والأيام التي دارت بين الفريقين في نواحي الدولة الإسلامية عامة وفي الأندلس خاصة دون التفات إلى شيء آخر، كأن تاريخ العصر الأموي لم يكن إلا تاريخ الصراع بين عرب الشمال وعرب الجنوب[1].

ومن هنا جاءت الصورة التي رسمها لعصر الولاة في الأندلس صورة مشوهة لا تمثل الحقيقة التاريخية في شيء. ولكن ذلك التشويه لا يخلو من دلالة لها قيمتها. فقد كان دوزي أول من كتب تاريخاً للأندلس على منهج علمي صحيح، وكان أول مؤرخ محدث التمس هذا التاريخ في مصادره الأولى واقتدر على قراءة هذه المصادر، فوفق فيما فشل فيه مؤرخون لم يتأهلوا لهذا المطلب بأدواته اللازمة[2]، ووضع يده

(١) REINHARDT PETER - ANNE DOZY, *Histoire des Musulmans d'espagne* (Leiden, 1861)

وقد لقي الكتاب لأول ظهوره رواجاً عظيماً، فأعيد طبعه وترجم إلى الإنكليزية والفرنسية والألمانية والإسبانية. ثم أشرف ليفاريست ليفي ـ بروفنسال على طبعه طبعة جديدة معدلة منقحة ظهرت في ثلاثة مجلدات سنة ١٩٣٢.

(٢) مثال ذلك: MASDEU, *Historia Critica de Espana.* (Madrid,1805) =

على الأصول التي ينبغي أن يؤخذ منها ذلك التاريخ، ففتح بذلك الباب لمن جاء بعده.

وقد نقض آراء دوزي مستشرقون لا يقلون عنه تبحراً، مثل يوليوس ڤلهاوزن وأجناتس جولدتسيهر، فأما الأول فلم يقره على ما ذهب إليه من المبالغة في تصوير ما كان بين العدنانية والقحطانية(1)، وأما جولدتسيهر فتعمق الأمر وبحث موضوع العدنانية والقحطانية عامة، وانتهى إلى أن البحاثة الغربيين أسرفوا وأكثروا في ذلك الموضوع دون سندٍ كافٍ من الأصول، فإن العرب في الجاهلية وصدر الإسلام لم يقولوا إنهم ينقسمون إلى عرب شمال وعرب جنوب، وإنما نشأ ذلك التقسيم البيِّن للعرب إلى شعبين متعاديين خلال العصر الأموي ونتيجة لسياسة بني أمية في الاستعانة بجماعة من العرب على جماعة وتقريب قوم دون قوم. فإذا قرب الخليفة الأموي قيسياً حظيت قبيلته وحاول أبناء عمومتها أن يفيدوا من ذلك، وإذا قرب الخليفة شيخاً كلبياً (أي يمنياً) سخطت القيسية صاحبة الحظوة أولاً. وأخذ كل فريق يتعصب لأصحابه ويحمل على منافسيه، فظهر هذا العداء بين العدنانية (أو المعدية) والقحطانية، وهو عداء أخذ أسماء شتى، فهو في الشام خصومة الشام واليمن، وفي خراسان عداء مضر وأزد اليمن، وفي الأندلس صراع بين قيس وكلب. وفي أثناء ذلك مضى كل فريق يعتز على صاحبه بأعمال أجداده في

= وقد تحدث في الجزء العشرين منه عن العرب في الأندلس.

JOSE ANTONIO CONDE, *Historia delos Arabes en Espana,* Madrid, 1820

وانظر نقد دوزي لهذين المؤلفين في أبحاثه:

Recherches sur l'Histoire et la Litterature de l'Espagne pendant le Moyen-Age (3e. ´ed Leiden, 1881) vol. I. pp. 30 sqq.

وانظر نقد رامون مننذ پيدال لمعظم ما كتب في أوروبا في تاريخ إسبانيا الإسلامية في:

RAMON MENENDEZ PIDAL, *La Espana del Cid* /(i era ed. Madrid, 1929) tomo i.pp. 3 sqq.

(1) أنظر الترجمة العربية لكتاب:

JULIUS WELLHAUSEN, *Das Arabische Reich und Sein Sturtz.*

بعنوان: تاريخ الدولة العربية إلى نهاية العصر الأموي، ترجمة الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريدة، القاهرة ١٩٥٧.

الجاهلية، ونسبوا لهؤلاء الأجداد من الوقائع ما لم يكن، وهكذا رجع الناس بخصومة العدنانية والقحطانية إلى الوراء وتصوروا أن هذه الخصومة قديمة قدم الجاهلية، وردد المؤرخون ذلك كأنه حقيقة واقعة[1].

ويعنينا الآن أن نقول أن ما يحكيه مؤرخو الأندلس عن عداء قيس ويمن في الأندلس مبالغ فيه، أو على الأقل مبالغ في تصويره بحيث يبدو وكأنه هو كل تاريخ الأندلس في عصر الولاة، وهذا هو ما نخرج به من كتابي الأخبار المجموعة وافتتاح الأندلس مثلاً، وهما أكثر المراجع إسهاباً في الكلام على عصر الولاة.

والحقيقة أنه كانت هناك بالفعل عداوة بين قيس ويمن في الأندلس، وأصولها ترجع إلى ما كان بين هذين الحيين من صراع على السلطان في قلب الدولة الأموية، وكان أحدهما إذا انتصر في مرحلة من مراحل النزاع اشتد على الآخر، فهاجرت جماعات منه إلى الولايات ونفوس أفراده تفيض بالحقد واللدد، وهناك تنضم إلى من تجده من أبناء عشيرتها، فتتجمع كِسَرُ القبائل، وتتكون الجماعات القيسية والمضرية، ويتجدد النزاع القبلي بصورة أعنف مما كان في قلب الدولة. حدث ذلك في خراسان والمغرب والأندلس وغيرها من الولايات.

ولكن العصبية لم تكن وحدها سبب النزاع القبلي في الأقاليم، فقد كان هناك التنازع على المغانم والسلطان في الولايات، وكانت هناك مصالح جديدة تختلف من ولاية لولاية، ومن هنا كانت بعض القبائل تتناسى عصبيتها في سبيل كسب مادي وتنضم إلى قبيلٍ غير قبيلها، وكانت هناك قبائل محايدة، لا هي من قيس ولا من مضر، وكانت تنضم إلى هذا الفريق أو ذاك بحسب ما تمليه عليها مصالحها. ومن ثم فقد كانت الأحزاب التي اصطرعت في الأندلس خليطاً من هذين الحيين في أغلب الأحيان، ولكن كانت تغلب عليها صفة الأكثرية من جماعتها.

---

(١) انظر تعليقنا على هذا الموضوع على هامش الطبعة الجديدة التي قدمنا بها لكتاب جرجي زيدان: العرب قبل الإسلام، القاهرة سنة ١٩٥٧.

وقد رأينا فيما مر من الكلام طلائع الصراع بين القيسية واليمنية في الأندلس، وكيف بدأ الحيان يتنازعان على السلطان، ثم شغلتهما عنه الثورة البربرية أو الفتنة المغربية.

فلما انتهت هذه الثورة خلا الجو لهما فعادا إلى النزاع، وأسرفا فيه إسرافاً جاوز كل حد، حتى ضعف أمر العرب والإسلام في الأندلس وكاد أمرهما يتلاشى فيه جملة، لو لم تتداركه العناية بعبد الرحمن الداخل.

* * *

٨٢ـ القيسية تستبد بأمور الأندلس

خرج عبد الملك بن قطن ومن معه من اليمنية مظفرين من المعركة العنيفة مع البربر، كما خرج منها عبد الرحمن بن حبيب في إفريقية، ولكنه لم يطمئن على أمره ما دام بلج وأصحابه إلى جانبه، وقد كان هؤلاء قيسية لا يقنعون بغير الصدارة والقيادة، ثم إن هذا النصر لم يتأت إلا بسيوفهم، فأقام عبد الملك خائفاً منهم يترقب، ولم تكد الحرب تضع أوزارها حتى أسرع يطالب حلفاءه بمبارحة الأندلس وفاء بالعهد الذي قطعوه على أنفسهم، فتلكأ هؤلاء حيناً، فما كانوا ليتركوا هذا البلد الذي أقبلت عليهم النعمة فيه إلا إذا أخرجتهم منه قوة. ثم إن عبد الملك لم يكن خالص النية نحوهم، إذ اعتذر عن إعادتهم إلى إفريقية جماعة واحدة، متعللاً بأنه لا يملك سفناً كافية لنقلهم وما جمعوا من خيرات وغنائم. وطلب بلج وأصحابه أن يبحروا من الجنوب الشرقي من ناحية تدمير (مرسية) حتى يستطيعوا العبور إلى ناحية أخرى من إفريقية يستطيعون الذهاب منها إلى القيروان، ولكن عبد الملك أصر على أن يبحروا من الجزيرة الخضراء، وتعلل بأنه لا يستطيع نقل سفنه من هذه الناحية خوفاً من انتهاز البربر الفرصة والعبور إلى الأندلس[1].

---

(١) الأخبار المجموعة، ص ٤٠ـ ٤١.
ابن عذارى: البيان المغرب، ج٢، ص٣١.
ابن الأثير: الكامل، ج٥، ص ١٨٩.
المقري: نفح الطيب، ج٢، ص ١٣.

٨٣ - بلج بن بشر يلي أمور الأندلس

وليس إلى الشك سبيل في أن عبد الملك لو وفى لهم بعهده لبحثوا عن تعلة أخرى للبقاء في الأندلس، فقد أصابوا فيه من الخير ما لم يكونوا يحلمون به، فأما وقد بدأ هو بالعدوان - لسوء رأيه وقلة سياسته - فلم يعودوا يرون حرجاً في مناصبته العداء ومهاجمته، ووثبوا به في أوائل ذي القعدة ١٢٣هـ (٢٠ سبتمبر سنة ٧٤١ م) وخلعوه وأخرجوه من القصر وأقاموا أميرهم بلجاً والياً على الأندلس. وأقام عبد الملك شبه سجين في دارٍ له بقرطبة تسمى دار ابن أيوب، وأفلت ابناه قطن وأُمية، فلحق أولهما بأربونة حيث كان يقود جند المسلمين عبد الرحمن بن علقمة اللخمي وكان من أنصار عبد الملك بن قطن، وجعلا ينظران معاً فيما عسى أن يصنعاه إزاء هؤلاء القيسيين الذين لم يطمئن لهم جنب حتى أنزلوا اليمنية عن الإمارة جملة. وأما أُمية بن قطن فلحق بماردة حيث اجتمع عليه نفرٌ من عرب الأندلس وبربرها وأخذوا يتحفزون للأخذ بثأرهم من بلج وأصحابه[1].

أثار انتصار الشآمية هذا ثائرة أهل البلد جميعاً: عرباً وبربراً وإسباناً، إذ اعتبرهم الجميع أجانب ينبغي إخراجهم على أية صورة. لم يقف العرب منهم موقف عربي من عربي بل موقف صاحب البلد من غازٍ أجنبي، ولهذا نجد قدماء عرب الأندلس - يمنية وقيسية - يثورون على هؤلاء الشآمية يداً واحدة ويحاولون إخراجهم. وتلك هي الفترة التي ظهر فيها التمييز بين ما يسمى بالبلديين والشآميين، فأما البلديون فهم عرب طالعة موسى ومن أتى بعدهم من أرسال العرب، وقد استقروا في البلد ورسخت جذورهم في نواحيها قرابة ثلاثين سنة، وتوشجت بينهم وبين أهلها الأواصر، وكان معظمهم يمنية، واليمنية ذات ميل إلى التعمير والاستقرار والهدوء، فقويت الصلات بينهم وبين الأرض وأهلها. وأما الشآميون فهم هذه الجماعة التي أقبلت مع بلج، ومعظمهم قيسية، وقد نظر أهل

---

(١) الأخبار المجموعة، ص ٤٣.

ابن عذاري: البيان المغرب، ص ٣٢.

المقري: نفح الطيب، ج٢، ص ١٣، ١٧.

البلاد إليهم على أنهم أجانب كما قلنا، واجتمعت كلمتهم على حربهم[1]، ولو لم يكونوا على جانبٍ عظيم من الشجاعة والمهارة الحربية لذهبت ريحهم أو لاندمجوا في الآخرين. وكان من سوء حظ الأندلس أن يكونوا من خيرة العرب شجاعة وقدرة، فطال البلاء بهم واستمرت الحرب بينهم وبين البلديين سجالاً.

ويبدو أن عبد الرحمن بن علقمة اللخمي لم يجزم أمره على السير لحرب بلج وأصحابه إلا حينما بلغه نبأ مقتل عبد الملك بن قطن الفهري، فجاشت نفسه ونفس حليفه قطن بن عبد الملك ومن معهما من البلديين ومن التف حولهما من البربر وأهل البلد لطلب الثأر، وساروا لحرب بلج ومن معه من القيسية. وأما مقتل عبد الملك فقد وقع بعد ولاية بلج بقليل: ذلك أن عامل عبد الملك على الجزيرة الخضراء أهمل في أمر رهائن القيسية الشآمية الذين كانوا في جزيرة أم حكيم، ولم يرسل إليهم الماء بانتظام، وكان الماء يحمل إلى هذه الجزيرة إذ لم يكن فيها ماء. فلما تولى بلج أسرع فأرسل يفك أسر هؤلاء الرهائن، فوجدهم على أسوأ حال من الإجهاد والعطش، ووجد أن أحدهم ـ وهو غساني من أهل دمشق ـ قد مات عطشاً، فنهض اليمنيون من أهل قرطبة يطالبون بلجاً برأس عبد الملك فداء لابن عشيرتهم الغساني، وتلكأ بلج إذ نفرت نفسه من قتل عبد الملك وهو شيخ قد عدا التسعين، ثم إن مسؤوليته عن موت الغساني لم تثبت، فشك اليمنيون في نوايا بلج وظنوه لا يهتم لثأرهم أويعطف على عبد الملك لأنه من مضر مثله، وكادت الفتنة تقع بينهم وبينه، فلما لم يجد من الأمر بدآ أباح لهم دمه، فأخرجوه «وهو شيخ كأنه فرخ نعامة، وهو ابن تسعين سنة أو أكثر، حضر الحرة مع أهل المدينة، ومنها فَلَّ إلى إفريقية، فأخرجوه، وهم ينادونه: «يا فالُّ! فللت من سيوفنا يوم الحرة ثم عرضتنا (لـ) أكل الكلاب والجلود طلباً بثأر الحرة، ثم بِعثَ جند أمير المؤمنين!». ثم قتلوه وصلبوا رفاته وعن يمينه خنزير وعن يساره كلب، إمعاناً في الزراية والنكاية»[2].

---

(١) ابن القوطية: افتتاح، ص ١٧.

(٢) الأخبار المجموعة، ص ٤٢. ابن عذارى: البيان المغرب، ج٢ ص ٣٢.

فلما بلغ ذلك عبد الرحمن بن علقمة اللخمي وقطن بن عبد الملك ومن معهما من العرب في إقليم أربونة، ثارت في نفوسهم الحمية لطلب الثأر، وساروا بجمعهم نحو قرطبة للقآء الشآميين وحربهم، وثارت العصبية مرة أخرى في نواحي الأندلس كلها، وتسارع اليمنيون للانضمام إلى عبد الرحمن بن علقمة، وجمع بلج من استطاع جمعه من قيس ومن انضم إليهم من مواليهم من البربر ومن أهل البلد الإسبان، وطبيعي أن يكون جمع اليمنية أضخم لأن معظم البلديين انضموا إليهم، فيُقال أن عددهم بلغ أربعين ألفاً، ومائة ألف على قول آخر، في حين لم يزد من مع بلج عن اثني عشر ألفاً، وعسكر بلج وأصحابه في موضع يُقال له أقوة بُرطوَرة على بريدين من قرطبة[1].

٨٤ ـ موقعة أقوة برطورة

ولم يلبث عبد الرحمن ومن معه أن أقبلوا بجموعهم، ووقع اللقاء بينهم وبين خصومهم، ولم يعرف عرب الأندلس وقعة بينهم وبين أنفسهم أعنف ولا أحمى ولا أبعد أثراً من هذه، لقد تفانى الجانبان في القتال وتساقط الآلاف منهم جرحى، وحسب عبد الرحمن بن علقمة أنه يضع حداً لهذه المذبحة إذا قتل بلجاً، وكان عبد الرحمن أعظم مقاتلي الأندلس وأرماهم بالنبل، فسأل عن بلج فدلوه عليه، ففوق نحوه سهامه ومضى نحوه على عجل وضربه بالسيف ضربتين أصابتا منه مقتلاً. ويبدو أن هجومه زعزع الشآمية عن مواضعها حتى خشي رجالها الهزيمة، فتصدى له واحد منهم هو الحصين بن الدجن العقيلي قائد خيل جند قنسرين وثبت له وجعل يبعده ومن معه عن الميدان حتى انفرد به وشغله عن المعركة الدائرة، وانتهز البلجيون الفرصة فهجموا على بقية البلديين هجمة قصموا بها ظهورهم وألحقوا بهم مقتلة شديدة، واستمر القتال أياماً، ومات بلج بعد يومين متأثراً بجراحه، فتولى قيادة الشآميين ثعلبة بن سلامة العاملي، ورجحت كفة البلديين حيناً وانهزموا إلى ماردة حيث أقبلت جموع

(١) ابن القوطية: افتتاح، ص ١٦.
الأخبار المجموعة، ص ٤٣.
وانظر عن أقوة برطورة: المعجم الجغرافي الملحق بترجمة لافوينتي ألكانترا للأخبار المجموعة، ص ٢٤٣.

البلديين ومن معهم من البربر تحاصرهم، وخاف ثعلبة الهزيمة، فكتب إلى خليفته بقرطبة أن يخرج لمناجزة أهل البلد. وطال القتال، وحضر عيد الأضحى، فشغل به البلديون عن قتال الشآميين، فانتهز هؤلاء غرتهم، ونهضوا فيهم نهضة أزالتهم عن مواضعهم وأنزلت بهم مذبحة وهزيمة عظمى، وبهذا انتهى هذا الصراع العنيف بهزيمة ساحقة لليمنية والبلديين. وقد كانت الهزيمة ساحقة إلى درجة فلت غربهم وأضعفتهم وأخرجتهم من ميدان السياسة ومن القيادة، ومن ذلك الحين أخذ معظمهم يتفرقون في نواحي البلاد، ويشتغلون بالزراعة والتجارة وما إليهما من أمور المعاش وشؤون النشاط السلمي. ومن هنا أهمية هذه الموقعة في تاريخ البلاد الاجتماعي[1]. ولم يستطع من بقي منهم في الميدان النهوض من جديد، إلا حينما أقبل عبد الرحمن الداخل على ما سيأتي ذكره.

واقترب ثعلبة بن سلامة العاملي بمن معه من قرطبة يجر في ركابه من وقع في قبضته من كبار اليمنية وذراريهم أسرى، ونزل عند المصارة[2] من ظواهر قرطبة وعقد سوقاً لبيع هؤلاء الأسرى، وقد أراد له لدد العداوة أن يبيعهم لمن ينقص لا لمن يزيد! فجعل الناس ينقصون حتى بيع واحد من كبارهم بكلب وثانٍ بعود، واستمرت هذه المهزلة المبكية أياماً[3].

---

(١) الأخبار المجموعة، ص ٤٥.
ابن عذاري: البيان، ج٢، ص ٣٣ـ ٣٤.
وانظر عن ثعلبة بن سلامة:
الضبي: بغية الملتمس، ص ٢٣٨ـ ٢٣٩ رقم ٦٠٦.
المقري: نفح الطيب، ج٢، ص ١٣ـ ١٤.

(٢) تقع إلى شمال قرطبة، ويذكر لافوينتي ألكانترا في قاموسه الجغرافي الذي ذيل به ترجمته للأخبار المجموعة أن موضعها كان موضع طاحونة زيت (المصارة ـ المعصرة ـ Almazara بالإسبانية).
انظر الترجمة الإسبانية، ص ٢٤ هامش.

(٣) الأخبار المجموعة، ص ٤٦.
ابن عذارى: البيان، ج٢، ص٣٣ـ ٣٤.

٨٥ ـ مجيء أبو الخطار بن الحسام الكلبي

فبينما ثعلبة في ذلك إذا ضجة تتعالى من بعيد، وإذا موكب يقترب، ونظر الجمع فإذا والٍ جديد للأندلس يقبل ومعه وثيقة التعيين من حنظلة بن صفوان عامل إفريقية، وهو أبو الخطار الحسام بن ضرار الكلبي، بعثته العناية في هذه اللحظة لينقذ أسرى البلديين من هذا البلاء المهين الذي كان ثعلبة ومن معه من الشآميين يصرون على إنزاله بهم. وكان أبو الخطار «رجلاً من خيار أهل الشام من أهل دمشق، فرضي بـه الشآميـون والبلديون، وأطلق الأسرى والسبي، فسمي ذلك العسكر «عسكر العافية»، وأفلت ثعلبة بن سلامة وعثمان بن أبي نسعة وعشرة من قواد الشام، وأمن ابني عبـد الملك بن قطن، فاستقامت حال الناس بالأندلس، وأنزل أهل الشام بالكور»[1].

وبدأ أبو الخطار ولايته على الأندلس في ذلك اليوم من رجب سنة ١٢٥هـ (مايو سنة ٧٤٣ م). وصادف بـدء ولايته ميـلاً عامـاً من مسلمي الأندلس إلى المهادنة والسكينة بعدما كان من شرور العصبيـة، وكانت الحـروب قد أنهكتهم وكادت تفنيهم حتى خشوا على أنفسهم غائلة نصارى الشمال، وكانوا قد بعثوا إلى

(١) الأخبار المجموعة، ص ٤٦. الضبي: بغية الملتمس، ص ٢٦١ـ ٢٦٣ رقم ٦٨٦.
وقد أمدنا ابن القوطية بملاحظات طيبة عن ولاية أبي الخطار، فقال إن هشاماً حينما بلغه ما فيه عرب الأندلس من افتراق وحروب شاور ابن أخيه العباس بن الوليد (يذكر ابن القوطية خطأ أنه أخوه) فنصحه بأن يعدل عن عدائه لليمنية القحطانية لكي يجتذب قلوبهم، فاستمع لنصيحته وولى حنظلة بن صفوان الكلبي إفريقية وأمره بأن يولي ابن عمه أبا الخطار الأندلس فمضى أبو الخطار في نحو ثلاثين رجلاً من الشآميين (من عرب إفريقية، ويسميهم ابن القوطية **الطالعة الثانية** من الشآميين. وأراد أن يفاجيء عرب الأندلس، فسار مستتراً وأخفى لواء الولاية الذي أعطاه إياه حنظلة في عيبة كانت معه، فلما نزل بوادي شَوْش واقترب من المكان الذي كان الفريقان يتحاربان فيه بقبلي قرطبة، رفع اللواء وأعلن نفسه للفريقين، فتسارعا إليه كل يشكو من الآخر. فاشترط عليهم السمع والطاعة، فأجابوا. وذكر له اليمنيون أنهم لا يحتملون الشآميين ولا بد من إخراجهم عنهم، فطلب إليهم أن يمهلوه حتى يدخل قرطبة ويستريح، ثم يفصل في أمرهم بالعدل، فأجابوا. وقد بدأ امره بإخراج ثعلبة بن سلامة العاملي والوقاص بن عبد العزيز الكناني وعثمان بن أبي نسعة الخثعمي من الأندلس إلى طنجة بإفريقية، ثم ثنى بتفريق الشآميين في نواحي الأندلس على ما سيأتي بيانه.
أنظر: افتتاح الأندلس، ص ١٩ـ ٢٠.

حنظلة وفداً منهم يبسط له سوء حال الأندلس ويرجوه أن يغيثها برجل فاضل يكف القتال ويقر السلام بين الجماعات المتعادية، فتخير لهم أبا الخطار هذا وبعثه في اللحظة المناسبة على ما رأينا، وقد بدأ أبو الخطار ولايته بدءاً حسناً فأمن أُمية وقطن ابني عبد الملك بن قطن ومن معهما من اليمنيين والبلديين المروعين بعد هزيمتهم، وأخرج من الأندلس نفراً من المسرفين في عصبيتهم من الشآميين وأعادهم إلى إفريقية وفيهم ثعلبة بن سلامة، وانتهى بعد تفكير إلى ضرورة إبعاد الشآمية القيسية عن قرطبة لكي يخلص من متاعبهم.

٨٦ - إخراج الشآميين من قرطبة إلى الكور

اقترح عليهم أبو الخطار أن ينتقلوا إلى الأرياف في الكور، على أن يجعل لهم ثلث ما يجبى من أهل الذمة في النواحي التي يختارون الإقامة فيها. ولم تفصل لنا المراجع هذا الاتفاق بأكثر من ذلك، فلسنا نعلم إن كان استقرارهم في هذه النواحي معناه قيامهم بجباية أموالها واحتجاز الثلث لأنفسهم وإرسال الثلثين إلى قرطبة، أو أن عمال والي الأندلس كانوا يجبون الخراج على العادة ويعطون ثلثه لهؤلاء العرب الشآميين. فإن كان النظام الأول فمعناه أن أبا الخطار أقطعهم هذه النواحي مقابل أن يؤدوا ثلثي خراجها دون أن تتدخل الإدارة المحلية في شؤونهم أو شؤون الإقليم، وإن كان الثاني فمعناه أن هذا الثلث الذي كان يُعطى لهم كان معتبراً «عطاء» عن الخدمة العسكرية التي كانوا ملزمين بأدائها بصفتهم جنداً رسمياً مقيداً في الديوان. ولكن الغالب أنهم استقروا في هذه النواحي على النظام الأول، أي «مقطعين»، لأن شواهد الحوادث بعد ذلك تدل عليه صراحة، ثم إنه كان - كما سنرى - النظام السائد المتبع في الأندلس إلى ذلك الحين[١].

---

(١) الأخبار المجموعة، ص ٤٦.
إيزيدور الباجي، الجزء المنشور ذيلاً للأخبار المجموعة، الفقرات من ٦٤ إلى ٦٧.
ابن عذاري: البيان المغرب، ج٢، ص ٣٤.
المقري: نفح الطيب، ج٢، ص١١- ١٤.
ابن الأثير: الكامل، ج٥، ص ٢٠٤.

حرص أبو الخطار، وهو يقوم بذلك، على ألا يمس حقوق البلديين، وكان هؤلاء قد توزعوا فيما بينهم بعض نواحي الأندلس الخصبة على مثل هذا النظام من المقاطعة: كان كثيرون منهم قد استقروا في أقاليم سرقسطة وأربونة وباجة وأشبيلية، فلم يشأ أبو الخطار أن ينزل هؤلاء الشآميين إلى جوارهم، وقد أشار عليه بذلك أرطباس بن غيطشة شيخ نصارى الذمة، وكان مقيماً إذ ذاك في قرطبة متمتعاً بمقامٍ كريم بين العرب وأهل جنسه وعند الولاة، ويبدو أنه كان مشيراً لهؤلاء، يسألونه الرأي فيما يحزبهم من شؤون البلاد، وهو بها أعرف، وقد أشار على أبي الخطار بذلك، وكان رأياً حسناً، قبله الشآميون، فبادر أبو الخطار إلى إنفاذه[1].

أقر أبو الخطار كلّ جماعة من الشآمية آتية من جند بلد واحد في ناحية، وكان جند مصر أكثرهم عدداً فأنزلهم في ثلاث نواحٍ هي أوكشونبة وباجة وتدمير (مرسية)، وأنزل جند حمص في أشبيلية، وجند فلسطين في شذونة، وجند الأردن في ريُّه (ناحية مالقة)، وجند دمشق في البيرة، وجند قنسرين قي إقليم جَيَّان، وبهذا تفرق هذا الجند المشاغب في نواح شتى متباعدة فهدأ أمرهم إلى حين، وكان إنزالهم بعيداً عن مواقع البلديين الأول سبباً في سكون هؤلاء واطمئنانهم لعدل أبي الخطار، فأقاموا «على ما بأيديهم من أموالهم لم يتعرض لهم في شيء منها». فلما وجد الشآميون أنفسهم في بلادٍ «تشبه بلادهم، و[في] توسعة، سكنوا واغتبطوا وتمولوا»[2]. فاستقر الكثير منهم في الأرض وأخذ يعمل فيها، وشغلوا بذلك عن

= ابن الخطيب: الإحاطة، ج١، ص ١٨- ١٩.

DOZY, *Musulmans d'Espagne,* I. pp. 168- 169.

E. LEVI- PROVENÇAL, *Histoire de l'Espagne Musulmane,* I. PP. 34- 35.

(١) ابن الخطيب: الإحاطة (طبعة محمد عبدالله عنان، القاهرة ١٩٥٥)، ج١، ص ١٠٩ البيان المغرب، (طبعة كولان وبروفنسال، ليدن ١٩٥١) ج٢، ص ٣٣.

DOZY, *Recherches,*I. pp. 79- 80.

SIMONET, *Historia de los Nozarabes de Espana.* pp. III, 197- 198.

E. LEVI- PROVENÇAL, *Hist. de l'Espagne Musulmane,* p. 35. note I.

(٢) فتح الأندلس، ص ٣٧.

منازعات السياسة والعصبية، ولم يلبثوا أن كثرت أموالهم، وكان في ذلك خير كثير للأندلس وأهله.

ولو قد استمر أبو الخطار على هذه السياسة العادلة لصلحت الأحوال وانتهت هذه العصبية البغيضة التي مزقت عرب الأندلس إلى ذلك الحين شر ممزق، ولكنه لم يلبث أن انحرف عن الجادة ومال إلى عصبيته الكلبية اليمنية، وكان سبب ذلك مقتل صديق له عزيز عليه هو سعد بن جوَّاس، فاتهم الشآمية القيسية بقتله، وأخذ يتخيفهم وينزل بهم ما يستطيع من الأذى[1]، فاستعرت نيران عصبيتهم من جديد، وبدا بوضوح أن الأندلس مشتعل مرة أخرى بنيران هذه العصبية على صورة أشد مما رأى في سابق الأيام. وحدث أن معدياً كنانياً من الشآمية اختلف مع كلبي فشكاه الكلبي إلى أبي الخطار، فجار هذا في حكمه على المعدي (العدناني)، فذهب إلى شيخ من كبار الشآمية يسمى الصميل بن حاتم بن شمر - ويلقب بذي جوشن - يشكو له ما أصابه، فمضى هذا إلى أبي الخطار وكان أبو الخطار يتخوف الصميل، لأن أمر القيسية كان قد انتهى إليه وفاقهم بالنجدة والسخاء، وتوجس منه أبو الخطار شراً.

٨٧ ـ ظهور الصميل بن حاتم

فلما أقبل الصميل إلى أبي الخطار في شأن العدناني انتهز أبو الخطار الفرصة وأحب أن يشفي بعض لدد نفسه منه، فلكزه وشتمه وأمر جنده أن يضربوه، فضربوه حتى مالت عمامته من على رأسه، فخرج وقلبه يتلظى بنيران الثأر، وعاد إلى داره بقبلي قرطبة فجمع كبار قومه وأخذ يشاورهم في السبيل التي يستطيعون بها أن يغسلوا هذه الإهانة ويدركوا ثأرهم من أبي الخطار واليمنية[2].

وكان الصميل في ذاته شخصية غريبة جداً، تكاد تعتبر في ذاتها نموذجاً لهذا الطراز من العرب الذين دخلوا الإسلام بخيرهم وشرهم، وظلوا فيه على حالهم لم يكد الإيمان يمس قلوبهم أو يغير منها شيئاً، وقد وصفه دوزي وصفاً لطيفاً لا بأس

---

(١) الضبي: بغية الملتمس، ص ٢٦١.

(٢) الأخبار المجموعة، ص ٥٦. فتح الأندلس، ص ٣٧.

من إيراده لدقته: «لم يكن الصميل رجلاً عادياً لا في الخير ولا في الشر، وكانت نفسه بطبيعتها خيرة كريمة ولكنها كانت خاضعة لقوتين متكافئتين من الخير والشر، متعالية جياشة عنيفة لا تنسى ثأرها. كانت نفسه مهيأة تهيئة قوية، ولكنها كانت جاهلة نشيطة خاضعة للغريزة يقودها الحظ كيف شاء، كانت خليطاً غريباً من الملكات المتعارضة أشد التعارض. كان يبدو نشطاً مثابراً إذا ما استثيرت عواطفه، فإذا هدأت ثورة نفسه بدا كسولاً قليل الاكتراث. وكانت هاتان الخصلتان الأخيرتان أقرب إلى طبعه. وكان كريماً واسع العطاء، وكانت تلك صفة يقدرها أصحابها أكثر مما قدروا غيرها، وقد بلغ من كرمه أن شاعره كان يحرص ألا يزوره إلا مرتين في العام، مرة في كل عيد، حتى لا يستنفد الصميل ماله، إذ كان أقسم أن يهبه كل ما عنده مهما رآه. وكان لكل سيد عربي شاعره، كما كان الحال عند سادة العشائر الإسكتلندية، ولم يكن الصميل مع ذلك رجلاً متعلماً، إذ كان أُمياً لا يقرأ ولا يكتب[1]، على الرغم من غرامه بالشعر، وبالشعر الذي يدور حول مديحه بوجه خاص، وعلى الرغم من أنه كان ينظم الأبيات منه بين الحين والحين، وكان أصحابه يرون أنه أتى بعد زمانه»[2]. بيد أنه كان خبيراً بالحياة لا يكاد يفوته من وجوهها شيء، حتى أن أعداءه أنفسهم كانوا يقررون أنه نموذج كامل للأدب. وشخصية الصميل كانت استمراراً لهذا الطراز من أشراف العرب القدماء المسرفين في حبهم للحياة، والذين لم يكونوا مسلمين إلا بالإسم، فقد كانت أخلاقه منحلة، وكان لا يكاد يحفل لشيء من أشراط الدين: فكان يشرب الخمر على الرغم من نهي الدين عنها، فكان يسرف في الشراب حتى لينام كل ليلة سكراناً[3]. فأما القرآن فقد كان لا يعرف منه شيئاً، ولم يكن ليهتم بتعرف هذا

---

(١) ابن القوطية: افتتاح، ص ٤٠.

(٢) إشارة إلى قول أرطباس للصميل في حديث له معه: «يا أبا جوشن، إن أهل ديانتك يخبروننا أن أدبهم لم يأخذك، ولو أخذك لم تنكر عليَّ برٌّ من بررت»، أي أن الإسلام لم يؤثر في نفسه، وظل جاهلي الطبع والخلق والنزعات.

DOZY, *Musulmans d'Espagne* (2ème éd, Layde, 1932) I p. 173- 174

ابن القوطية: افتتاح، ص ٤٠.

(٣) الأخبار المجموعة، ص ٧١.

الكتاب، إذ إن مبادئه التي تدعو إلى المساواة كانت تمس كبرياءه. ولقد خطر يوماً بمؤدب يؤدب الصبيان وهو يقرأ «وتلك الأيام نداولها بين الناس» فقال الصميل: «نداولها بين العرب» فقال له المؤدب: «بين الناس» قال الصميل: «وهكذا نزلت الآية؟»، قال له: «نعم!»، قال الصميل: «والله إني أرى هذا الأمر سيشاركنا فيه العبيد والسفال والأراذل!»[1] ولا نزاع في أن الكثيرين جداً ممن شارك في فتح الأندلس وساهم في هذه الحروب القبلية بضلع عظيم كان من هذا الطراز، وهذا ما يفسر إسرافهم في حروبهم العصبية التي نحن بصددها.

٨٨ـ هزيمة أبي الخطار وولاية ثوابة بن سلامة العاملي

فلما انتهى الصميل إلى داره في عقدة الزيتون قبلي قرطبة، جمع من لقي من الشآمية ومضى يستشيرهم فيما هو فاعل. وكان يحس قلة الشآمية القيسية أمام الكثرة اليمنية الكلبية التي كان أبو الخطار يرأسها، فثاب له رأي في التقرب إلى اللخميين والجذاميين من اليمنيين وعرض الرياسة عليهم مقابل معاونته في حربه مع أبي الخطار، وكان يوسف الفهري شيخ المضريين حانقاً على أبي الخطار متلهفاً على فرصة يشفي فيها لدد نفسه فاستصوب الشآمية رأيه. ولم تكن القيسية إذ ذاك على اتفاق تام، إذ كانت غطفان منحرفة في استجة، لأن شيخها أبا العطاء كان يحسد الصميل على رياسته للقيسية دونه، لهذا بادر الصميل بالتوجه إلى استجة واسترضى أبا العطاء وكسبه إلى جانبه، ثم مضى إلى مورور حيث كانت منازل جذام وشيخها ثوابة بن سلامة اللخمي. وبهذا جمع الصميل بنشاطه وذكائه عصبة قوية من قيس ولخم وجذام وغطفان، واجتمع رجال هذه القبائل في شذونة وعولوا على السير إلى قرطبة وعزل أبي الخطار[2].

وعجل أبو الخطار بالخروج للقاء الشآمية وهو لا يشك في الظفر، ولم يكن

---

(١) ابن القوطية: افتتاح، ص ٤٠.

(٢) DOZY, *Musulmans d'Espagne,* I. pp. 173- 174.

الأخبار المجموعة، ص ٥٦.

ابن عذاري: البيان المغرب، ج٢، ص ٣٥.

المقري: نفح الطيب، ج٢، ص ١٧.

ابن الأثير: الكامل، ج٥، ص ٢٥٧.

يدري بما دبره الصميل من استمالة لخم وجذام وإضعاف جبهة اليمنية، وكان اللقاء عند وادي لكة الذي شهد إلى اليوم من حروب المسلمين شيئاً كثيراً. وقد تقاعس معظم الكلبية عن قتال بني عمومتهم جذام ولخم، ثم تركوا أبا الخطار في قلة وولوا مدبرين، فلبث بعض الوقت حتى اضطر إلى الفرار، فإذا هو جاد في فراره يريد قرطبة وقع أسيراً في يد أعدائه، فكبلوه بالحديد، وتولى ثوابة بن سلامة اللخمي أمر الأندلس بحسب ما تم بين الصميل رأس القيسية الشآمية وأبي العطاء رأس غطفان. وثوابة هذا سيد لخم وجذام (رجب سنة ١٢٧هـ/أبريل سنة ٧٤٥ م)[(١)].

لم تدم ولاية ثوابة إلا عاماً وبعض عام، ولم يحدث فيها من جليل الأمور إلا محاولة أبي الخطار استعادة الولاية وجمعه نفراً من اليمنية وسيره إلى قرطبة، وقد اندحر أبو الخطار وتبدد كل أمل له في الولاية، واختفى من صفحات التاريخ الأندلسي بحيلة ماهرة دبرها هذا الرجل الماهر الصميل بن حاتم: حينما عسكر الجيشان وجهاً لوجه وأخذا يستعدان للحرب، انتهز الصميل فرصة هبوط الليل وبعث رجلاً من معد وقف بمعسكر اليمنية وناداهم مؤكداً لهم أنه إنما يقول ما يقول حقناً للدماء لا خوفاً من القتال، وجعل يسفه أحلامهم في السير لنصرة أبي الخطار وحرب بني عمومتهم من لخم وجذام، ويذكرهم بأن القيسية لو كانت تريد قتل أبي الخطار لقتلته وقد كان بيدها بالأمس أسيراً، وأنهم لا ينبغي أن يخشوا شيئاً من ثوابة لأنه جذامي وجذام يمنية، ففعلت هذه الكلمات فعلها في نفوس اليمنية الكلبية وانفض معسكرهم وعادوا إلى مواطنهم، وهكذا فسد أمر أبي الخطار وضاع أمره، واستطاع الصميل أن يكسب الموقف بذكائه وقدرته[(٢)].

وصفا الأمر لثوابة حيناً، ولكن ولايته لم تدم طويلاً كما ذكرنا، فقد عاجله الموت بعد عام من انتصاره الأخير على أبي الخطار. ولم يكد يختفي من الميدان حتى هب ابنه عمر يطالب بأن يخلفه في السيادة. ونهض لمنافسته يحيى بن حريث رأس

---

(١) الأخبار المجموعة، ص ٥٧.

(٢) ابن الأثير: الكامل، ج٥ ، ص ٢٥٨.

جذام وأحد كبار العرب الذين كونوا هذ الحلف.

٨٩ ـ الصميل يمهد الطريق ليوسف الفهري

وكان الصميل يستطيع أن ينادي بنفسه أميراً على الأندلس في ذلك الحين، لأنه كان بالفعل رأس العصبة القائمة بالأمر ومصرِّف شؤون البلاد، ولكنه كان أذكى من أن ينفر أحلافه من اليمنية بمثل هذا العمل، وكان لا يرضى كذلك أن يترك الأمر لأحد من المتنافسين مخافة أن يستبد به وبجماعته، فمضى يبحث عن شخص يرضاه اليمنيون ويأمن جانبه القيسيون ثم يكون إلى ذلك ضعيفاً سهل القياد حتى يملك زمامه. وهداه البحث إلى يوسف الفهري سيد الفهريين في الأندلس، وكان للفهريين مقام ممتاز عند العرب أجمعين إذ ذاك، لأنهم ذؤابة قريش وكانت قريش في هذه المنازعات كلها حياداً لا تسرف في الميل إلى فريقٍ دون فريق، وقد عجل الصميل بتثبيت أمر يوسف حتى يفسد على يحيى بن حريث سيد جذام مطامعه في الإمارة. وكان يحيى شديد الكراهية للشآمية، وكان يقول: «لو أن دماء أهل الشام جمعت لي في قدح لشربتها»[1]، فكره الصميل ـ وهو شآمي قيسي ـ أن تصير الإمارة إليه فيصيب قومه منه شر، فلما تم أمر يوسف الفهري سعى الصميل حتى أقام يحيى ابن حريث عاملاً على ريه ترضية لنفسه ولقومه[2].

من ذلك اليوم أصبح أمر الأندلس في واقع الأمر بيد الصميل بن حاتم، فقد كان يوسف الفهري رجلاً سهل القياد عالي السن، فمضى الصميل يصرف الأمر كما يشاء، وكان كما لاحظنا رجلاً كيّساً واسع الحيلة، فلم يعسر عليه قياد بقية الزعماء. وقد استطاع هذ الرجل أن يكسب ود من تحالف مع القيسية الشآمية من معدٍ، فقوي أمره وأمر صاحبه الفهري.

فإذا استقر الأمر للصميل على هذا النحو فقد بدأ يفكر في التخلص من يحيى

(١) الأخبار المجموعة، ص ٦٠.

ابن عذاري: البيان، ج٢، ص ٣٧ـ ٣٨.

(٢) يذكر صاحب الأخبار المجموعة أن النزاع على الولاية كان شديداً بين يوسف الفهري ويحيى بن حريث وعمرو بن ثوابة (يكتبه ثوابة بن عمرو خطأ).

الأخبار المجموعة، ص ٥٧.

ابن حريث جملة، وكان يحيى كما عرفنا شديد الكراهية للشآمية وكان لا ينفك منازعاً للصميل مهدداً أمره. فبادر الصميل بعزله عن ولاية رِيَّه قبل أن تثبت قدمه ويشتد ساعده فيها. فلم يكد العزل يبلغه حتى نفر وقومه للحرب. وسعى حتى وضع يده في يد أبي الخطار سيد الكلبية اليمنية الذي كان يعيش في قومه ببعض نواحي أشبيلية مهملاً ضعيفاً بعد هزيمته[1]، وهكذا اتفقت كلب كلها على محاربة الصميل ومن معه من قيس، وشعر الصميل بالخطر وعرف أن يحيى فاعلٌ به وبقومه الأفاعيل إذا قدر له النصر، ولهذا عجل فاستنفر المعدية القيسية كافة، فتسارعوا إليه. وكان من لطف المقادير أن الدعوة إلى الحرب لم تمس إلا عرب جنوب الأندلس وحدهم، فبقي أهل الشرق والشمال الشرقي والغربي في مواطنهم لم تحرك الدعوة منهم ساكناً، ولهذا سينحصر الصراع المقبل في حدود ضيقة، ولن يكون له من النتائج السيئة ما كان لما سبقه من الحروب التي أتينا عليها.

٩٠ ـ موقعة شقندة سنة ١٣٠هـ (٧٤٧م) وكان القتال بين الجانبين هذه المرة فريداً في بابه، يصفه صاحب الأخبار المجموعة بقوله[2]: «فلما رأت قضاعة ما يدعو إليه ابن حريث أحبوا جمع كلمة اليمن كلها، فأجابوا ابن حريث وقدموه. فأصفقت يمن الأندلس حميرها وكندتها ومذحجها وقضاعتها. واحتازت مضر وربيعة إلى يوسف، وربيعة بالأندلس قليل. فلحق خيار اليمن بابن حريث من كل جند، وتجرع أهل البلد بتجرع أهل الشام، ولحق خيار مضر بيوسف والصميل، لا يعرض أحد لأحد: يخرج الجوار فيودع بعضهم بعضاً حتى يلحق كل رجل بقومه(!) وهي أول حرب كانت في الإسلام بهذه الدعوة. . . فزحف ابن حريث وأبو الخطار إلى يوسف والصميل بقرطبة، فأقبلا حتى نزلا على نهر قرطبة

---

(١) كانت قضاعة قبل إجماع عرب الأندلس على يوسف الفهري، قد تعصبت لأبي الخطار وقام شيخها عبد الرحمن بن نعيم الكلبي فجمع مائتي رجل وأربعين فارساً وهاجم قرطبة واستنفذ أبا الخطار ومضى به إلى كلب وأقره في ناحية إشبيلية.
الأخبار المجموعة، ص ٥٨.

(٢) وصف ابن القوطية هذه الوقعة وصفاً موجزاً.
انظر: الافتتاح، ص ٢٠.
ذكرها ابن عذاري ببعض التفصيل: البيان، ج٢، ص ٣٧.

(الوادي الكبير) بقبليها بقرية شَقُنْدَة. وعبر يوسف والصميل النهر إليهما بمن معهما. فالتقوا حين صلوا الصبح، فتطاعنوا على الخيل حتى تقصفت الرماح. وثبتت الخيل وحميت الشمس. ثم تداعوا إلى البراز، فتنازلوا وتضاربوا بالسيوف حتى تقطعت (هكذا في النص والأصح تقصفت) ثم تقابضوا بالأيدي والشعور (!) لم يكن في الإسلام صبر مثله، إلا ما يذكر من صِفّين. ولم يكن القوم بكثير لا هؤلاء ولا هؤلاء، وإنما كانوا خياراً من الفريقين وكانوا متقاربين، إلا أن اليمن كانوا أكثر قليلاً. فلما أعيى بعضهم بعضاً تواقفوا يضرب بعضهم وجوه بعض بالقسي والجعاب، ويحثي (هكذا وصحتها يحثو) بعضهم التراب على بعض... إذ قال الصميل ليوسف: ما وُفقنا إذ خلفنا جنداً نحن عنهم في غفلة! قال: ومن هم؟ قال: أصحاب السوق بقرطبة! فرد إليهم يوسف مولاه خالد بن يزيد وصاحب [...] فأخرجا منهم نحواً من أربعمائة راجل معهم الخشب والعصي ومع قليلٍ منهم السيف والمزراق، فخرج الجزارون بسكاكينهم، فجاؤوا إلى قوم موتى، وقد مضى الظهر والعصر لم يصلوها لا صلاة خوف ولا أمن، وقتلوا وأسروا بشراً كثيراً خياراً، وأسروا أبا الخطار وابن حريث وكانا الأميرين. وكان ابن حريث لما رأى أهل سوق قرطبة يقتلون أصحابه تغيب ودخل تحت سرير الرحى التي بموضع بيع الخشب، فلما أسروا أبا الخطار وهموا بقتله قال: ليس عليَّ فوت، ولكن عندهم ابن السوداء بن حريث! فدل عليه، فأخرج وقُتلا جميعاً، وكان ابن حريث يقول: لو أن دماء أهل الشام جمع لي في قدح لشربتها! فلما استُخرج قال له أبو الخطار: يا ابن السوداء! هل بقي في قدحك شيء لم تشربه؟ »[1].

تلك كانت خاتمة أبي الخطار الذي أتى ليصلح الأمور فزادها سوءاً، وأراد أن يستنقذ اليمنية من استبداد القيسية ففقد حياته وحياة من ساروا معه، ودفع اليمنية إلى وهدة من الهزيمة لن تنهض منها إلا في ظلال عبد الرحمن الداخل وإمارة قرطبة، وأصبحت الأندلس من تاريخ تلك الواقعة تحت سلطان يوسف الفهري في الظاهر وسلطان الصميل بن حاتم في واقع الأمر.

---

(١) الأخبار المجموعة، ص ٥٩- ٦٠.

٩١ ـ مأساة أسرى شقندة

وأحب الصميل أن يشفي أحقاد نفسه، فسار بالأسرى مصفدين وقعد لهم على باب جامع قرطبة، وكان من قبل كنيسة القديس بِجِنْتُ (ڤِينتو ـ ڤنسنت)، وجعل يقضي في أمرهم بالموت واحداً واحداً في لذة ووحشية واستخفاف يثير النفس، فلما ضرب أوساط السبعين منهم ثارت نفس حليفه أبي العطاء شيخ غطفان، فقام ينهاه، ولكن الرجل رده وقال له في نشوة الانتقام: «اقعد أبا عطاء، فهذا عزك وعز قومك»، ومضى في هذه المذبحة البشعة حتى لم يطق أبو عطاء الصبر، وخشي أن يكون الصميل القيسي يسرف هذا الإسراف في التشفي من اليمنية رغبة منه في القضاء عليها، وتحركت في أبي عطاء شاميته، فقام إلى الصميل يقول: «يا أعرابي! والله إن تقتلنا إلا بعداوة صِفِّين، لتكُفَّن أو لأدعون بدعوة شآمية»، وبهذا التهديد وحده خاف الصميل وكف عن هذا العمل البشع[1].

٩٢ ـ المجاعة تجتاح الأندلس

واستقامت الأمور ليوسف الفهري والصميل بن حاتم بعد هذا النصر الحاسم على من كانوا يناوئونهما من اليمنيين، وكان الصميل كما رأينا شخصية قوية بعيدة الطموح في حين كان يوسف الفهري رجلاً مسناً في نفسه خمول، فجعل الصميل يصرف الأمر من دونه. ويستبد به حتى سئم الرجل وفكر في الخلاص من هذه الوصاية التي يفرضها عليه هذا القيسي القوي. فعرض عليه أن يقيمه حاكماً على إقليم سرقسطة، وقبل الصميل ذلك، وكان إقليم سرقسطة موطن معظم اليمنيين، فأراد يوسف أن يذهم بهذ القيسي الوقح[2]. وكانت البلاد تعاني من إذ ذاك مجاعة حادة لم يسلم من شرها إلا إقليم سرقسطة بفضل مياهه وخيراته، فكان ذلك مما مال بالصميل إلى إطاعة أمر يوسف.

وأما أسباب هذه المجاعة فترجع إلى هذه الحروب العنيفة التي وقعت بين العرب: شامية ويمنية، وبين العرب والبربر. وقد رأينا أن هذه الحروب لم تكن قصيرة الأمد ولا محصورة الميدان، وإنما امتد شرها حتى شمل سكان البلاد جميعاً

---

(١) نفس المصدر، ص ٦١.

(٢) الأخبار المجموعة: ص ٦٣.

وأقاليمها كلها، وقد رأينا أن العرب انجفلوا من المواضع التي كانوا قد استقروا فيها في الوسط والشمال والغرب وخلفوها لا يكاد يشرف على عمارتها أحد، وأقبل البربر في أعقابهم وهجروا مواقعهم البعيدة وساروا هم الآخرون إلى الجنوب، ثم انهزموا أمام العرب هذه الهزائم المتلاحقة، وتبعهم هؤلاء بالأذى في كل ناحية حتى ضاقت بهم البلاد، وأخذوا يهجرون الأندلس ويعودون إلى مواطنهم الأولى في إفريقية جماعات[1]. وهكذا فقدت النواحي أعداداً عظيمة ممن كان قد سكنها من العرب والبربر الذين كانوا يقومون على زراعتها وعمارها، فلا غرابة أن تقل المحاصيل وتتعرض البلاد لخطر المجاعة. ثم إن هذه الحروب المتوالية بين العرب حيناً وبين العرب والبربر حيناً آخر قد دارت رحاها في الأقاليم الخصبة المزروعة في الجنوب والجنوب الشرقي، فخرب كثير من المزارع واضطرب أمر زراعها، وزادت المحاصيل قلة تبعاً لذلك. وانتهز النصارى الإسبان الفرصة وأخذوا ينحدرون إلى الجنوب واحتلوا المنطقة الواسعة الواقعة بين نهري دويره وتاجه وأخذوا يغازون المسلمين، فانضاف إلى الأندلس الإسلامي بلاء آخر جديد كانوا قد ظنوا أنهم استراحوا منه[2]، واجتمعت العوامل كلها فزادت الأمر حدة، واشتد الجوع وعظمت البلوى وانعدم الأمن حتى تقطعت الصلات بين النواحي، وبلغ من الأمر أن صاحب الأخبار المجموعة يذكر أن يوسف الفهري احتاج مرة إلى رسول يبعثه إلى الصميل في سرقسطة فلم يجده، إذ كان الرسل القادرون جميعاً قد هلكوا، وانقطعت المواصلات أو كادت بين قرطبة وسرقسطة[3].

دامت هذه الحال خمس سنوات من سنة ١٣١هـ إلى سنة ١٣٦هـ/٧٤٩ - ٧٥٥م، وكانت هذه السنة الأخيرة هي أقساها وأشدها، مما أدى إلى زيادة هجرة الناس إلى إفريقية. . «وانضم الناس إلى ما وراء الدرب الآخر وإلى قورية وماردة في سنة ست وثلاثين، واشتد الجوع فخرج أهل الأندلس إلى طنجة وأصيلا وريف البربر مجتازين ومرتحلين، وكانت إجازتهم من واد بكورة شذونة، يُقال له وادي

(١) الأخبار المجموعة: ص ٦٢.

(٢) dozy, *Recherches*, I. pp. 116 sqq.

(٣) الأخبار المجموعة، ص ٧٨ .

برباط، فخف سكان الأندلس، وكاد أن يغلب عليهم العدو، إلا أن الجوع شملهم»[1]. إلى هذا الحال انتهى بمسلمي الأندلس تناحرهم بسبب العصبية وبسبب الرغبة في إذلال البربر والاستبداد بالأمر كله دونهم، وسنتحدث عن ذلك بتفصيل أوفى حينما نتحدث عن مبادىء حركة الإسبان النصارى.

وقد سلم من هذه المجاعة الشديدة إقليم سرقسطة على ما قلناه، لأن عربه أقاموا في مواضعهم لم يشتركوا في هذه الحروب الدامية إلا بنصيبٍ قليل، ولأن من كان يساكنهم من البربر في هذا الإقليم أقعدته كثرتهم عن أن يثب بهم، فلم تمتد نيران الحروب بين العرب والبربر إلى إقليم سرقسطة، وبقي الإقليم كله على حالة من الرخاء ووفرة الخير، فلما وصله الصميل وجد قومه في سعة، ووجد جماعات العرب الذين مستهم المجاعة في أقاليم أخرى يتوافدون إليه انتجاعاً للخير، وفطن الصميل إلى أن يوسف إنما بعثه إلى هذه الناحية لكي يذل أهلها من اليمنيين، ولكي تقع البغضاء بينه وبينهم، فيشتغل بهم ويشتغلوا به ويخلص الأمر ليوسف، فعول على كسب قلوب أعدائه، ففتح خزائنه ومضى يعطي بكلتا يديه متناسياً عصبيته القيسية لكي يفوت على يوسف غرضه. وكان الصميل داهية واسع الذكاء، ماخراً من كل شيء، لا يكاد يفعل أمراً عن إيمان، قال صاحب الأخبار المجموعة: «فلم يأته صديق أو عدو فحرمه، فازداد سؤدداً، وأقام بها أعوام الشدائد التي تتابعت»[2].

٩٣ - اليمنيون يثورون على الصميل في سرقسطة

وأقام يوسف يدبر الأمر وحده في قرطبة بما عرفناه فيه من الضعف وقلة الرأي، وكان لا يحزبه أمر إلا بعث يسأل الصميل فيه، فلما اشتدت المجاعة وعدم الرسل ساء أمره وبدأ الناس يتجهمون له. وكان في قرطبة إذ ذاك فتى من بني عدي بن عبد الدار يسمى عامر بن هاشم، وكان فارساً نجداً يلي الصوائف قبل ولاية يوسف والصميل، فجعل يوسف يكيد له خوفاً منه وغيرة مما كان الفتى يتمتع به من عظيم المكانة، وأحس هذا بما يدبر له

---

(١) الأخبار المجموعة، ص ٦٢.

(٢) الأخبار المجموعة، ص ٦٣.

الصميل فسارع إلى الكتابة إلى المنصور خليفة العباسيين يسأله توليته الأندلس وبعث سجل الولاية وكان عامر قرشياً من بني عبد الدار، يمنياً في مشاعره، ساءه ما صنع يوسف والصميل باليمنية، وخاف أن يفعل الصميل مثل ذلك بيمن سرقسطة، فأخذ يستعد للوثوب بيوسف وابتنى لنفسه حصناً كبيراً في منية بغربي قرطبة «فأغلق غلقة عظيمة كاد أن يجعلها مدينة، وأراد أن يبتني بها بنياناً ينضم إليه ويغاور يوسف حتى يأتيه إمداد اليمن، وضعف سلطان يوسف حتى كان لا يركب معه خمسون رجلاً من حشمه»[1]. ووقعت الوحشة بين الرجلين، ولولا أن يوسف كان بطبعه جباناً متردداً لوقعت الحرب، ولكنه فضل أن يبدأ بسؤال الصميل رأيه، فنصحه هذا بالتدبير عليه وقتله، فلم يكد عامر يعلم بذلك حتى شعر بأن حياته أصبحت في خطر، واتجه همه إلى أن يقوم بعمل حاسم ازاء يوسف الفهري وصاحبه الصميل[2].

كان الرجل يمنياً في مشاعره كما قلنا، ففكر في الالتجاء إلى ناحية تكون لليمن فيها عزوة وكثرة، ولم يكن في الأندلس أكثر يمناً من إقليم سرقسطة، حيث أقام الصميل محاولاً جهده استئلاف الناس والتحبب إليهم، فكتب عامر إلى زعيم من زعماء سرقسطة يسمى الحباب (أو الحبحاب) بن رواحة بن عبدالله الزهري الكلابي ـ وكان سيد بني زهرة من كلاب يمت إليه بالقرابة ـ يعلمه بأن لديه سجل أبي جعفر المنصور ويدعوه إلى معاونته للخلاص من سيادة القيسيين، واستخفت الدعوة الزهري فنهض مع عامر بنفرٍ من قومه، واجتمع إليهما كذلك أعداد من اليمنية، وسار جمعهم وحاصروا الصميل في سرقسطة[3].

ويبدو أن الخطر على الصميل كان شديداً لأنه بعث يستنجد بمن أمكنه الاستنجاد به من القيسية، كتب إلى جند قنسرين ودمشق، ويبدو كذلك أنهم تقاعسوا عنه، لأنه ألح عليهم، وجعل يقول إنه يجتزىء منهم بالقليل، فنهض لعونه سيد من كلاب يسمى عبيدالله بن علي وجمع له عدداً من قبائل كلاب

(١) الأخبار المجموعة، ص ٦٣ـ ٦٤.
(٢) نفس المصدر والصفحة.
(٣) الأخبار المجموعة، ص ٦٥.

ومحارب وسليم وهوازن، وتقاعس من القيسية سيد جند قنسرين الحصين بن الدِّجن العقيلي وسيد جند دمشق سليمان بن شهاب، ولم ينهض للعون إلا بنو عامر ابن كلاب وشيخهم عبيدالله وبنو نمير وسعد وجميع قبائل هوازن وسُلَيم بن منصور ثم تابعتهم غطفان. فلما اجتمعت معظم قيس على هذا النحو لعون الصميل شعر الحصين بن الدجن وسليمان بن شهاب أن قعودهما عن عونه ليس بضائره فنهضا بمن معهما. واجتذبت الدعوة كذلك أتباع بني أُمية ومواليهم في الأندلس، وكان معظمهم مقيماً في جند دمشق بناحية البيرة. فنهض زعماؤهم أبو عثمان عبيدالله ابن عثمان وعبدالله بن خالد ويوسف بن بخت، وكانوا من أنصار يوسف والصميل، وبهذا تحركت قيس جميعها لغياث هذا الصميل الذي فعل بالأندلس الأفاعيل. بيد أننا لا ينبغي أن نبالغ في تقدير أعداد من نهض لعون الصميل، فإن كل طائفة لم تنهض إليه إلا ببضع مئات، مما يدل على أن عرب الأندلس كانوا قد قلوا إذ ذاك قلة ظاهرة.

٩٤- الحرب بين القيسية والكلبية في سرقسطة

سارت هذه القوات لحرب اليمنيين ومن معهم من البربر الذين كانوا مقيمين على حصار سرقسطة ومن فيها من القيسية. وكان معظم هذه القوات من القيسيين لا تفكر إلا في القضاء على اليمنية، وكان فيهم نفرٌ من موالي بني أُمية كما قلنا، ولم يكن هؤلاء الأمويون يفكرون في أمر الصميل بقدر ما كانوا يفكرون في أمر فتى من بني أُمية كان إذ ذاك مقيماً في العدوة الأخرى بشاطىء إفريقية عند برابر نفزة، وكان قد أرسل مولاه بدراً إلى الأندلس ليلقى هؤلاء الموالي الأمويين ويدعوهم إلى أمره.

وصلت جموع القيسيين إلى طليطلة، ويبدو أنها استغرقت وقتاً طويلاً في التجمع والسير، فأمكنت اليمنيين الفرصة لتشديد الحصار على الصميل ومن معه حتى ساءت حالهم. وأقبلت رسلهم إلى طليطلة تستحث القيسيين في سرعة السير، فعجلوا بإرسال فارس منهم برسالة إلى الصميل تؤكد له إسراعهم إليه بالعون، وتسلل الرجل بها بين فرسان عامر وزهرة المحاصرين للصميل، وربط الرسالة بحجر ثم ألقى بها إلى المحصورين، ولم يكن فيها إلا البيتان الآتيان:

تبشَّر بالسلامة يا جدارُ أتاك الغيوث وانقطع الحصار
أتتك بنات أعوجَ ملجَمات عليها الأكرمون وهم نزار

فناولها الصميل لمن قرأها له ـ فقد كان الرجل لا يقرأ ـ فلم يكد يسمع الأبيات حتى استبشر ونادى في قومه يعلمهم بالخبر. وسرى في نفوس المحصورين الفرح والحماسة، ونهضت همتهم بعد أن كانوا قد أشرفوا على التسليم . وتسامع اليمنيون المحاصرون للصميل بذلك فخافوا أن تنزل بهم الهزيمة إذا انتظروا حتى تقبل هذه الأمداد القيسية ، فتفرقوا ، وخلص الصميل من هذا الحصار دون مشقة أو قتال . وأقبل القيسيون ومن معهم من الأمويين فاستقبلهم الصميل استقبال الخير والسلامة ، « وأعطاهم العطاء الجزيل : أعطى خيارهم خمسين ديناراً ، وأعطى غيرهم من الناس عشرة عشرة وشقة شقة خز ، ثم أقبل معهم إلى قرطبة . فلما فرغ الصميل وأصحابه من الاحتفال بالنصر انتهز الأمويون الثلاثة الفرصة ليكلموا الصميل في أمر صاحبهم عبد الرحمن بن معاوية »[1] .

وسنقف هنا بأخبار هذه الفتن القبلية ريثما نلقي نظرة على وجوه أخرى من نشاط مسلمي الأندلس في ذلك العصر ، ولنلم بظواهر أخرى لا تقل عنها أهمية بالنسبة لمستقبل الإسلام في الأندلس . سنتحدث عن الأعمال العسكرية التي قام بها المسلمون فيما يلي شبه الجزيرة الإيبيرية إلى الشمال من أرض أوروبا ، وسندرس ميلاد حركة المقاومة النصرانية في شمال شبه الجزيرة وشمالها الغربي .

---

(١) عن هذه الحوادث انظر :
الأخبار المجموعة، ص ٦٧ـ ٦٩ .
ابن عذاري : البيان المغرب، ج٢، ص ٤٣ـ ٤٥ .
فتح الأندلس، ص ٤٧ وما يليها،
ابن الأبار: الحلة السيراء، ص ٤٥ـ ٥٠ .

الفصل السابع

فتوح المسلمين في غالة

وقفنا بالفتوح الإسلامية عند نهاية الأعمال العسكرية التي قام بها موسى ابن نصير في نواحي سرقسطة وما يلي طليطلة إلى الشمال الغربي وما يلي وادي الحجارة إلى الشمال ، ولكننا لم نفصل أعماله في شمال سرقسطة لأنها أدخلت في باب فتوح المسلمين في منطقة ألبرت[1] وما وراءها .

يذهب بعض المؤرخين إلى أن موسى وطارقاً استوليا على برشلونة ثم عبرا جبال ألبرت وفتحا أربونة وأبنيون وواصلا التقدم حتى بلغا ليون في فرنسا[2] ، وهي الحد الأقصى لفتوحات موسى وطارق بحسب ما يذكره هؤلاء المؤرخون . وليس من الممكن أن يكون موسى وطارق قد عبرا ألبرت وصعدا مع نهر رُدانُه[3] ، حتى بلغا ليون ، وليس بين أيدينا دليل واحد يؤكد مثل هذا الزعم . وأما فتوحهما في نواحي برشلونة والركن الشمالي الشرقي لشبه الجزيرة فتحتاج إلى شيء من الدرس حتى يتضح مداها على وجه قريب من الصحة .

يذهب مؤرخنا إلى أن موسى حينما أتاه رسول الخليفة الوليد بن عبد الملك ـ على ما ذكرنا ـ لم يتعجل العودة وإنما دفعه ذلك إلى الإسراع ومضاعفة الهمة في الغزو حتى يستكمل فتوح شبه الجزيرة قبل أن تأخذ عليه الظروف سبيل إدراك هذه الغاية . فعبر نهر أبْره ومضى نحو الشمال الغربي دون أن يمر ببَنْبَلُونة وغزا بلاد البشْكُنس فيها حتى أتى قوماً كالبهائم ـ كما يقول ابن

(١) جبال البرت أو البرتات هي المعروفة عندنا خطأ بالبرانس . وألبرت هو اللفظ اللاتيني Porta أي الباب أو الممر في الجبال ، ولهذا تسمى في العربية أيضاً بجبال الأبواب .

(٢) المقري : نفح الطيب ، جـ ١ ، ص ١٧٢ ـ ١٧٣ .

(٣) رُدَانة هي الصيغة العربية لاسم نهر الرون ، وهي مأخوذة عن اسمه اللاتيني Rhodanus .

عذارى[1] ـ ثم اتجه نحو الشمال فأطاعه رؤساء جليقية وأساقفتها ، حتى إذا بلغ لكْ (Lugo - Lucus Asturum) أدركه رسول ثان من قبل الوليد يأمره بالعودة إلى دمشق ، فلم يستطع مخالفة الأمر هذه المرة . فكر راجعاً وانضم إليه طارق واتجها جميعاً نحو قرطبة ومنها إلى المشرق[2] وانتهى دوره في الفتوح الاسلامية بعد أن قام بدور يضعه في الصف الأول من الفاتحين المسلمين .

ولم يجد ابنه عبد العزيز بن موسى أثناء ولايته القصيرة التي لم تزد على سنتين وأشهر فراغاً يمكنه من القيام بالغزو والفتح فيها خلا سيره إلى ناحية تدمير ، وعقده المعاهدة التي ذكرناها مع صاحبها تدمير ، مدة ولايته ، وقد ذكر بعض المؤرخين أنه افتتح مدناً وحصوناً كثيرة ، ولكنهم لم يذكروا شيئاً على وجه التحديد مما يدل على أن جهده في الفتوح أثناء ولايته كان قليلاً جداً[3] .

ويبدو أن خليفته أيوب بن حبيب كان أكثر منه انصرافاً إلى الغزو على الرغم من قصر ولايته ، ولم يحدد لنا المؤرخون النواحي التي صرف إليها

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ٢ ، ص ١٨ .

(٢) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٤ ، ص ٤٤٨ .
ابن عذارى : البيان ، جـ ٢ ص ١٨ . المقري : نفح الطيب ، جـ ١ ، ص ١٧٢ ـ ١٧٣ .
وقد ذهب إيزيدور الباجي إلى ان موسى لم يفتتح سرقسطة إلا بحد السيف ، فأنزل بأهلها من الويلات شيئاً كثيراً : ذبحهم بالسيف وأشعل النار في البلد ، وقتل الشبان والأطفال الرضع بالحراب ، وأنه نشر الخراب والجوع في المنطقة كلها . ولم تشر المراجع العربية الى ذلك .
cf : ISIDORO PACENSE : *Chronicon*, c. 38.
CODERA, *Estudios*, VIII. p. 204
وذهب فياردو وكوندي إلى ان موسى انزل بنواحي قطلونية (Cataluna) ونبرة (Navarra)وأرغون مساءات كثيرة لأن أهلها قاوموه مقاومة شديدة ، ولم يذكر المؤلفان من أين أخذا هذه المعلومات ، وقد شك فيها كوديرا واعتبرها مبالغة مصدرها كوندي .
VIARDOT, *Hist. des Arabes et des Maures d'Espagne*, I, p. 82.
CODERA *Estudios* Criticos de historia arabe esqanola (Segunda serie, Madrid, 1917)

(٣) ابن الأثير : جـ ٥ ، ص ١٤ .
المقري : نفح الطيب ، جـ ١ ، ص ١٤٥ .

نشاطه ، ولكن الغالب أن جهوده وجهت نحو شمال شبه الجزيرة وشمالها الشرقي ، ويذكر الأسقف رودريجو الطليطلي أن أيوب هذا هو الذي ابتنى البلد المعروف بقلعة أيوب (Calatayud) إلى الشمال الشرقي من طليطلة ، وكان في موقعها حصن روماني قديم يسمى (Bilbilis)(١) .

٩٥ - بدء الغزوات فيما وراء جبال ألبرت

وتتفق المراجع على أن الحر بن مالك - خليفة أيوب - كان رجلاً ذا نشاط ملحوظ في الغزوات في غالة وما وراء البرتات ، ولم يذكر شيئاً مفصلاً عنها إلا إيزيدور الباجي ، فقد أفرد فقرة خاصة للحر وأعماله ، فذكر أنه غزا جنوبي غالة حتى أربونة عاصمة غالة النربونية (Gallia Narbonensis) وظل يغاور أهل هذه النواحي حتى اضطروا إلى طلب الصلح فمنحهم إياه ، ولكن أحداً من مؤرخي العرب أو الفرنجة لا يؤيد ايزيدور في ذلك ، ولهذا لا يمكننا التعويل على هذه التفاصيل الواردة في روايته تلك(٢) .

٩٦ - السمح يصل إلى طرسونة . استشهاده عند طولوشة

فلما أقام عمر بن عبد العزيز السمح بن مالك الخولاني والياً على الأندلس (سنة ١٠٠ هـ / ٧٤٠ م) نشطت حركة الفتوح فيما وراء البرتات نشاطاً عظيماً ، لأن السمح كان رجلاً وثيق الإيمان جم النشاط ، فلم يكد يستقر في الولاية حتى بادر بالنهوض لحرب النصرانية فيما وراء البرتات ، فتوغل في غالة حتى أدرك طرسونة (Tarascon)

(١) CODERA, *Op. cit.* pp. 111 .

(٢) يقول إيزيدور الباجي عن غزوات الحر في غالة ، فقرة ٤٣ ، ص ١٥١ :
Hujus tempore Alahor per Hispaniam lacertos judicum mittit, atque debellando etpacificando pené per tres annos Galliam Narbonensem petit, ed penlatim Hispaniam ulteriorem vectigalia censendo, ad Hiberiam citeriorem se subrigit, regnans, annos supra scriptos.

وقد أخذ CENAT MONCAUT بقول إيزيدور وقرر أن الحر فتح أربونة ، وجعل هذا الحادث سنة ١٠٦ هـ وهي أولى سنوات حكم السمح بن مالك . وقد نقل عنه ذلك مؤرخون محدثون كثيرون دون أن يفطنوا إلى ذلك الخطأ .

CENAT MONCAUT, *Histoire des peuples et des etats pérénéens* (3 e. éd. - 1873) I, 477.

واستمر في التقدم حتى وقف بأبواب طولوشة (Tolosa) . ويبدو أن نشاطه هذا روع أهل أقطانية (أكويتانيا) ، فنهض له دوقها وسار بجيشه حتى لقي السمح في موقعة عنيفة على مقربة من طولوشة . واشتد القتال بين الجانبين وصبر المسلمون صبراً كريماً حتى قتلوا عن آخرهم كما يقول ابن حيان ، وقد استشهد السمح مع من استشهد في هذه الوقعة في يوم عرفة من سنة ١٠٢ هـ (١٠ يونيو سنة ٧٢١ م) ، ولم تستطع فلول الجيش الاسلامي العودة إلا بفضل ما أبداه أحد كبار الجند ـ وهو عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي ـ من الجهد ، فقد أقامه العسكر رئيساً عليهم ، فبذل الهمة في جمع شتاتهم والتقهقر بهم حتى عاد إلى الأندلس . وكانت تلك هي ولاية عبد الرحمن الغافقي الأولى ، ولم تدم إلا أشهراً لأن عامل إفريقية استبدل به عنبسة بن سحيم الكلبي بعد هذه الكارثة بأشهر قلائل[1] .

٩٧ ـ عنبسة وحملته الكبرى

وقد قضى عنبسة السنوات الأربع الأولى من ولايته في تنظيم أمور الأندلس وتهدئتها ، بعد الاضطراب الذي وقعت فيه بسبب خلافات العصبية التي ذكرناها وبسبب هذه الكارثة التي أصابت السمح ورجاله ، ولكنه كان ذا حماسة للفتوح ، فلم تكد الأمور تستقر شيئاً حتى عجل بالنهوض للغزو في غالة فصعد مع نهر ردانة حتى أدرك قرقشونة (Carcassona) فحاصرها وشدد الحصار حتى نزل المدافعون عن البلد على

---

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٣٤ .

المقري ، جـ ١ ، ص ١٤٩ ـ جـ ٢ ، ص ٩ .

ابن عذارى : البيان ، جـ ٢ ، ص ٢٥ ـ ٢٦ .

وتذكر المراجع العربية ان هذه الهزيمة وقعت عند طرسونة ، والأصح أن يقال إنها كانت عند طرسكونة (Tarascon) على مقربة من طولوشة عند مصب الرون ، وقد ذهب إلى هذا الرأي ساقدرا معتمداً على ما ذكره ايزيدور الباجي من ان السمح استشهد عند طولوشة في موقعة حامية بينه وبين دوق أكويتانية . وقد ذهب ايزيدور إلى ان هزيمة المسلمين كانت قاصمة .

ISIDORO PACENSE, *Chronicon*, c. 44.

يقرر صاحب مدونة مواسياك كذلك أن هزيمة السمح ومقتله كانت عند طولوشة

Chronicon Moissiacense. app. 4. p. 165.

شـروطه ، فنـزلوا لـه عن البلد ونصف الإقليم المحيط به وتعهـدوا بـرد أسـرى المسلمين الذين كانوا في الحصن وبأن يدفعوا الجزية وأن يشتركوا مع المسلمين في حربٌ أعدائهم جنباً إلى جنب ، ويضيف صاحب « مدونة مواسياك » أن عنبسة استولى بعد ذلك على نيمة (Nimes - Noemansum) وأخذ رهائن أهلها وأرسلهم إلى برشلونة ، مما يفهم منه ضمناً أن برشلونة كانت إذ ذاك في يد المسلمين وأنهم اتخذوها حصناً ومركزاً يصدرون منه للغزو فيما وراء البرتات .

ثم واصل عنبسة سيره حتى أدرك مجرى نهر ردانة. ويبدو أنه وجد الطريق أمامه خالية ، فسار مسرعاً ، دون أن يلقى مقاومة ، وصعد مع النهر حتى أدرك نهر الساءون ، ودخل إقليم بورجونيا واستولى على أوتون (Autun - Ausgustodunum) ونهبها وأحرقها .

ويذهب بعض المؤرخين إلى أن حملة عنبسة لم تقف عند هذا الحد « بل نهبت مدينة أوزه (Uzès) وفيين وعاثت في نواحي فالانس ، ووصلت الموجة حتى ليون وماكون وشالون . وهناك تفرعت فرعين ، سار الأول نحو ديجون وبيز (Bèze) ولانجر (Langre) ، واتجه الثاني صوب أوتون مرة أخرى . ولم يقف تيار هذه الحملة إلا قرب بلدة سانس (Sens) على بعد ثلاثين كيلو متراً جنوبي باريس ، لأن إيبون (Ebbon) أسقف سانس تصدى للمسلمين وأوقف تقدمهم .

وعاد عنبسة بمن معه من الجند محملين بالغنائم بعد أن وصلوا إلى قلب غالة ، وغزوا حوض الرون كله وتخطوا نهر اللوار وأصبحوا على مسافة قصيرة من السين نفسه . وقد تم ذلك كله خلال سنتي ١٠٦ ـ و ١٠٧هـ/ ٧٢٥ ـ ٧٢٦م[١]

وطبيعي أن تثير هذه الغارة العنيفة المخاوف في نواحي غالة كلها : ارتاعت معظم الدوقيات الجنوبية والوسطى ، وشعرت مملكة الفرنجة أنها أمام خطر

(١) DOM VAISSETTE, *Histoire de Languedoc*.I, 781 - 784.

داهم حقيقي . وبدا بوضوح أن الحملة المقبلة ستكون حملة حاسمة من كل وجه ، فإما أتم العرب فتح مملكة الفرنجة أو ارتدوا عنها . ولو كانت أحوال مسلمي الأندلس على غير ما علمنا من الاضطراب ، بسبب خلافات العصبية ومنازعات العرب والبربر ، لما اضطر عنبسة إلى الانصراف عن فتوحه الموفقة في غالة بعد أن أدرك هذا النصر العظيم .

بيد أننا ينبغي أن نلاحظ أن حملة عنبسة لم تكن في الحقيقة غير غارة بعيدة المدى ، ولو كان عنبسة على نية الفتح الثابت لأتم الاستيلاء على ما غلب عليه من المدائن ، ولأقام الحاميات في بعضها على عادة العرب في فتوحهم . وربما كانت نيته من أول الأمر أن يقوم بحملة تشبه حملة عقبة الكبرى : غارة بعيدة المدى تشق البلاد شقاً وتطلع المسلمين على أحوالها وتمهد لما بعدها . ولو استقر عنبسة في ليون مثلاً أو في أحد مراكز غالة الوسطى لكان في إمكاننا أن نقرر أنه فتح جنوبي غالة ووسطها ، أما وقد عاد أدراجه بعد أن سار نحو ألف ميل شمالي قرطبة فلا نستطيع القول إلا أن حملته الرائعة تلك لم تكن أكثر من غارة سريعة طويلة أتت بمغانم وفيرة ونشرت في نواحي غالة كلها رعباً شاملاً . ومهما يكن من الأمر فإن عنبسة بن سحيم الكلبي ينفرد بين الفاتحين المسلمين بهذا الفخر ، فخر الوصول برايات الإسلام إلى قلب أوروبا الغربية ، ولم يدرك هذا الشأو بعد ذلك فاتح مسلم آخر(١) .

* * *

٩٨ ـ لماذا اتجه عنبسة نحو حوض الرون

رأينا كيف استولى عنبسة بن سحيم على قرقشونة ، ثم كيف انحرف بعد ذلك شمالاً بشرق في اتجاه نهر الرون ، واستولى على نيمة (Nimes - Noemansum) ، ولا يعلل اتجاهه هذه

---

(١) *Chronicon Moissiacense*, p. 165.
ISIDORO PACENSE, C. 52.
CODERA *Op. cit.* p. 114.
LEVI - PROVENÇAL , *Op. cit. pp. 41 - 42.*
ويذهب بروفنسال الى ان عنبسة لا بد أن يكون قد قتل أثناء اشتباكه مع نصارى طرسونة .

الوجهة إلا بأن طولوشة كانت ما تزال إذ ذاك في أيدي المسلمين ، ولو كانت في أيدي النصارى لما تركها ـ وهي أقرب البلاد إليه ـ واتجه نحو بلاد الرون .

ولو كنا نملك نصوصاً أوضح من المدونات اللاتينية الشديدة الايجاز لاستطعنا أن نفسر السبب في اتجاه عنبسة نحو حوض الرون بدلاً من متابعة الغزو في الاتجاه الأول ، أي في اتجاه دوقية أقطانية . وربما اتضح الأمر بعض الشيء إذا درسنا الوضع العام في جنوبي غالة في ذلك الحين .

لاحظنا أن المسلمين لم يجدوا عناء في غزو اقليم سبتمانية ، فاستولوا على عاصمته أربونة واستقروا فيها واتخذوها مركزاً لأعمالهم . والسبب في ذلك أن سبتمانية لم تكن داخلة في دولة الفرنجة ، بل كانت من أملاك القوط الشرقيين أصحاب الأمر في إيطاليا . ثم تراخى سلطانهم عليها ، وطمع فيها الأمراء الاقطاعيون المتنازعون على السيادة على جنوبي غالة مثل كُنْد (كونت) طولوشة (تولوز) ودوق أقطانية (أكويتين) وكند بواتييه ، ولكنهم لم يجرؤوا على غزوها تحاشياً للاشتباك مع القوط الشرقيين[1] . وكانت سبتمانية ولاية ساحلية تمتد من شمالي جبال ألبرت بحذاء ساحل غالة (فرنسا) الجنوبي وتتصل بما يعرف اليوم بالرفييرا الإيطالية . وكانت تتألف من سبعة أقسام إدارية صغيرة ، ولهذا سميت بِسِبْتمانية (Septemania) .

فلما خرج المسلمون من سبتمانية وبدأوا يجوسون خلال دوقية أقطانية واستولوا على عاصمتها طولوشة تغير الأمر ، ونهض لردهم دوقها أودو (Eude - Odon) وأوقع بهم الهزيمة التي ذكرناها عند طولوشة والتي استشهد فيها السمح ابن مالك الخولاني (ذي الحجة سنة ١٠٢ هـ/ يونيو سنة ٧٢١ م) . وقد أخذ عنبسة بثأر السمح واستولى على قرقشونة . وبدلاً من أن يتجه نحو طولوشة ، وكانت لا تزال في أيدي المسلمين ، نجده يرتد إلى سبتمانية ثم يغادرها ليصعد

(١) LAVISSE, *Histoire de France,* II, p. 45.

مع الرون ويدرك نيمه (Nimes - Noe mansum)[1] فما العلة في ذلك ؟

ربما استطعنا تفسير ذلك إذا نحن درسنا علاقات الدوق أودو بالعرب من ناحية ، وبمملكة الفرنجة من ناحية أخرى .

* * *

٩٩ ـ الدوق أودو وعلاقته مع المسلمين

تبدأ الروايات التي تحدثنا عن صلات أودو بالعرب بالكلام عن صلته بثورة مونوسة . وقد عرضنا من قبل لهذه الثورة وذكرنا كيف أوردت المراجع العربية هذا الاسم بصورة مبهمة لا يفهم منها إن كان اسم شخص بربري أو اسم إقليم ، وكيف أن هذا الابهام قد أوقع المؤرخين جميعاً في خلاف حول الموضوع كله : فأما الغالبية ـ وهم كوند ورينو ودوزي وبروفنسال وجبريلي وكالْمِت ـ فقد ذهبوا الى أن مونوسة زعيم بربري ثار على المسلمين في نواحي بنبلونة ، وعارض هذا الرأي جماعة من الإسبان على رأسهم كوديرا ، فقد ذهب إلى أن مونوسة إن هو إلا تحريف لاسم مكان هو منريسا (Manresa) معتمداً في رأيه هذا على أن لفظ مونوسة ورد في النصوص العربية مبهماً دون تحديد . ولكننا لا نستطيع أن نقبل هذا الرأي لأن رواية إيزيدور الباجي أبين من أن تُدحض جملة ، ثم إن سياق الحوادث يدل على أن شخصاً بربرياً اسمه مونوسة وجد فعلاً ، وأنه لعب دوراً خطيراً في العلاقات بين المسلمين والنصارى في هذه الأيام[2] .

وإليك موجزاً لرواية إيزيدور عن مونوسة :

إن رجلاً من الجنس البربري اسمه مونوس (Munuz) ترامت إليه من حدود ليبية (إفريقية) أخبار الظلم القاسي الذي كان يعانيه أبناء جنسه في هذه البلاد ، فصالح الفرنجة وصاهر أودو دوق أقطانية وأخذ يعمل على إيذاء العرب

---

(١) ابن الأثير : الكامل ، جـ ٥ ، ص ٣٥٣ .

(٢) ISIDORO PACENSE : *Chronicon,* C. 58.
CODERA, *Estudios arabes,* VII PP. 141 Sqq. VIII pp. 115 - 118

أعداء إسبانيا ، ووثب بهم بالفعل وأصبح في حرب دائمة معهم . ولكن أنصاره كانوا في خلاف متصل معه . ولم ينهض عبد الرحمن (الغافقي) لحربه إلا بعد أن أرسلت نحوه حوالى عشر حملات . فنهض عبد الرحمن لمونوسة وتتبعه ففر إلى خوانق الجبال . وتحرج مركزه وضيق المسلمون عليه الخناق وقتلوه وقبضوا على زوجته وأرسلوها إلى بلاط الخليفة .

وتفيض رواية إيزيدور بعد ذلك في ذكر أعمال العنف والاضطهاد التي أنزلها عبد الرحمن بحلفاء مونوسة من النصارى ، وخاصة أهل شرطانية (Cer- dana - Cerritania) ، وكيف أنه أحرق أناباديوس (Anabadius) أسقفها بعد ذلك[1] .

وتهمنا من هذه الرواية مسألتان : الأولى هذا التفصيل الذي تورده عن أعمال عبد الرحمن واضطهاده للنصارى ، والثانية هي علاقة أودو بالمسلمين ، وكيف أنه زوج ابنته لزعيم بربري منهم لكي يأمنهم على بلاده .

فأما المسألة الأولى فسنناقشها عند عرضنا لأحاديث المدونات اللاتينية عن عبد الرحمن جملة ، وأما المسألة الثانية فذات أهمية خاصة لنا هنا ، لأنها تلقي بعض الضوء على علاقات أودو بالمسلمين .

ونقطة الضعف في هذه الرواية هي زعمها أن مونوسة قام بثورته تلك حين بلغته أخبار ما كان البربر في إفريقية يقاسونه من مظالم العرب ، أي في نفس الوقت الذي حدثت فيه الثورة البربرية التي فصلنا أمرها ، ولم تقع هذه الثورة إلا بعد حركة مونوسة بعشر سنوات . ومن هنا لا يستقيم كلام إيزيدور ، وربما استطعنا القول بأن مونوسة إنما وثب بالعرب لما كان من سوء معاملتهم البربر جملة في الأندلس .

كان أودو دوق أقطانية ، بناء على هذه الرواية ، حليفاً لمونوسة البربري وحمياً له قبل أيام عبد الرحمن الغافقي ، أي في أيام عنبسة وربما في أيام

(1) ISIDORO PACENSE : *Chronicon*, C. 58.

السمح ، وربما كان هذا من أسباب هزيمة السمح عند طولوشة . ومما يؤيدنا في هذا الظن أن عنبسة ، حينما نهض بحملته التي نحن بصددها ، اتجه نحو بلاد الدوق رأساً واستولى على قرقشونة ، ثم انحرف إلى سبتمانية من جديد وسار نحو نيمه على ما رويناه .

ولسنا نعلم - على أي الأحوال - إن كان مونوسة قد خرج مع عنبسة وساهم في هذه الحملة أو لم يخرج ، وإن كان انحراف الحملة عن بلاد الدوق يؤيد خروجه مع المسلمين . وليس ببعيد أن يكون وجود مونوسة في جيش عنبسة هو السبب في انصراف المسلمين عن بلاده ، وقد كانوا مستطيعين التوغل فيها والاستيلاء على كبار معاقلها .

ثم إن الدوق لم يسر لحرب المسلمين كما فعل يوم ساروا إليه يقودهم السمح بن مالك ، ولم يحاول أن يهاجمهم من خلف بعد أن تركوا بلاده خلفهم وساروا مع نهر ردانة صعداً حتى قاربوا السين ، ولا يعلل ذلك إلا بأنه كان في ذلك الحين صديقاً موالياً لهم . وربما كانت هذه الصداقة هي مصدر الرواية الفرنجية التي تتهم الدوق بأنه استدعى العرب لغزو غالة لأنه كان في خصومة مع قارله (شارل مارتل) صاحب الأمر في الدولة الفرنجية إذ ذاك(١) .

والواقع أن أودو لم يكن إذ ذاك على وئام مع دولة الفرنجة ، وكان قارله ينفس عليه مكانته ويود لو أزاله عن ولاية أقطانية (أكويتين) الغنية الواسعة ، وقد أوردت لنا الروايات اللاتينية أخباراً متفرقة عن عداء الرجلين وما كان بينهما من خصومة . وليست هذه العداوة بالأمر الغريب ، فقد كان معظم الأشراف الاقطاعيين في غالة يخافون قارله ويكرهونه ، وكان الكثيرون منهم - وفيهم أودو - في حالة حرب معه ، وهذا هو السبب المعقول الذي دفع بأودو إلى مصادقة

---

(١) يقول إيزيدور :

Eudo Sarracenos in auxilium sui adscivit, qui venientes cum rege suo Abdirama transeunt Garonnam, Burdigalem usque perveniunt cuncta vastantes, acclesias igne crematis, Pictavis basilicam Sancti Hilarii incendunt. كوديرا ، ص ٢٠٦ .

المسلمين ومصاهرة واحد منهم هو مونوسة .

لم يقع انصراف عنبسة عن أراضي الدوق إذاً مصادفة ، وإنما كان أمراً طبيعياً أملته الظروف العامة ، فقد انصرف العرب عن أراضيه لأنه كان حليفهم ، وربما كان هذا الحلف هو السبب فيما وفق إليه المسلمون من انتصارات فاقت كل ما كان منتظراً في حملة عنبسة .

١٠٠ ـ وفاة عنبسة

ولم يستطع عنبسة إدراك الأندلس بعد هذه الغزوة الكبرى فقد داهمته في طريق العودة جموع كبيرة من الفرنج التحمت معه في موقعة أصيب أثناءها بجراح بالغة توفي على أثرها في شعبان سنة ١٠٧ هـ / ديسمبر سنة ٧٢٥ م وقام بقيادة الجند الاسلامي والعودة به إلى الأندلس قائد تسميه المراجع النصرانية Hodra أو Hodeyra وهما صيغتان محرفتان لعذرة(١) .

١٠١ ـ عذرة بن عبد الله الفهري يواصل الغزو

وعذرة هذا هو عذرة بن عبد الله الفهري الذي خلف عنبسة في ولاية الأندلس بدون تعيين من عامل إفريقية أو من مركز الخلافة ، وقد ظل في الولاية سنتين وثلاثة أشهر (شوال ١٠٧ هـ ـ ربيع الأول ١١٠ هـ / فبراير ـ مارس سنة ٧٢٦ م ـ

---

(١) يذكر ابن عذارى (البيان المغرب ، جـ ٢ ، ص ٢٦) وابن الأثير (جـ ٥ ص ٣٧٣) أن عنبسة مات حتف أنفه ولم يستشهد . وقد أورد المقري روايات مضطربة كثيرة نقلها عن ابن حيان والرازي يفهم منها أنه توفي مستشهداً (المقري : نفح ، جـ ٢ ص ٩) ورواية إيزيدور الباجي غير واضحة ، لأنه يذكر ان عنبسة توفي ، فقام أحد قواده وهو Hodera (عذرة) بقيادة الجند والعودة بهم إلى وطنهم (الأندلس) ، وأن عنبسة أوصى له بذلك قبل وفاته :

... Qui dum rabidus pervolat, morte propria vitae terminum parat : atque Hodera (عذرة) consulem patriae sibi commisae vel principem exercitus repedantis, vel quasi refraenantis, in extremo vitae positus ordinat (c. 53).

بيد أن الكثيرين من مؤرخي غالة يشيرون إلى هذه الموقعة التي استشهد فيها عنبسة وقيام عذرة (الذي يسمونه في بعض الأحيان Hodeyra) بجمع شتات الجنود والعودة بهم إلى الأندلس ، وقد أخذنا بروايتهم لأنهم أدرى بحوادث تاريخ بلادهم ، ولم يكن لنا عن ذلك مفر أمام صمت الرواية العربية .

يونيو - يوليو سنة ٧٢٨ م)[١] .

ولا تنسب الرواية الاسلامية إلى عذرة أي عمل حربي في غالة ، ولكن الرواية النصرانية تذكر أعمالاً حربية خطيرة قام بها المسلمون بعد مقتل عنبسة مباشرة ، وحيث إن ولاية عذرة دامت سنتين وأشهراً فلا بد أن هذه الأعمال وقعت خلالها ، ويجمل رينو أخبار هذه الأعمال في قوله : « . . وقد قتل (عنبسة) في إحدى غزواته سنة ٧٢٥ م . واضطر خليفته عذرة إلى قيادة الجيش في طريق العودة إلى الحدود . ولم تلبث الحرب أن استعرت من جديد في عنف ، ولما كانت أمداد كثيرة قد أقبلت من الأندلس ، فقد نهض قادة المسلمين ، وقد شجعتهم المقاومة القليلة التي صادفوها ، وأخذوا يرسلون الحملات في كل وجه . ويقول مؤرخ عربي إن رياح الاسلام أخذت تهب على النصرانية من كل ناحية ، فاقتحم المسلمون سبتمانية مرة أخرى وعادوا إلى حوض الرون وغزوا بلاد الألبيين (Les Albegeois) وإقليم رويرج (Le Rouergue) وجيڤودان (Gévaudan) وليڤليه (Levelay) ونهبوها نهباً ذريعاً ، وأتت النيران على ما أغفلته سيوف العرب ، حتى لقد استنكر الكثيرون من الفاتحين أنفسهم هذا الإسراف في أعمال العنف »[٢] .

ولسنا نستطيع تحقيق ذلك على وجهه الصحيح ، وإن كنا نقبل ما تذكره الروايات اللاتينية عن الأعمال التي وقعت أثناء ولاية عذرة لأن عبد الرحمن الغافقي حينما تولى وجد المسلمين في حالة طيبة في غالة ، ولو كان أمرهم وقف عندما انتهت إليه أعمال عنبسة وهو الرجوع إلى الأندلس ، لما استطاع عبد الرحمن الغافقي أن يقوم بالعمل الكبير الذي قام به .

وتضيف الروايات النصرانية أخباراً كثيرة عن أعمال العرب في غالة خلال هذه الفترة التي نتحدث عنها وهي التي انقضت بين موت عنبسة وقدوم عبد الرحمن

---

(١) ابن عذارى : **البيان المغرب** ، جـ٢ ، ص ٢٦ .
(٢) **REINAUD**, *Invasions*... 23. ولم يشر رينو إلى مراجعه التي استند إليها في ذلك .

الغافقي ، وهذه الأخبار ملأى بالمبالغات عما تسميه مساءات العرب أو مظالمهم التي أنزلوها بأهل هذه النواحي ، ونحن نورد طرفاً منها على سبيل استكمال الأخبار عن أعمال المسلمين الحربية في غالة .

تذكر هذه الروايات أن المسلمين خربوا كنيسة رودس (Rhodès) الكبيرة وعاثوا فيها أي عيث ، واستقروا في حصن قريب من موضع وركپريف الحالي (Ropueprive)(١) . وانضم إليهم نفر من أهل هذه النواحي وساروا معهم يغزون في كل وجه ، ويحكي المؤرخون في هذه المناسبة قصة شاب يسمى داتوس أو دادون أظهر بطولة كبيرة في محاربة العرب وردهم عن ناحيته(٢) .

ويغلب على الظن أنه في خلال هذه الفترة - أي بين سنتي ٧٢٥ و ٧٣٠ م (١٠٧ - ١١٢ هـ) - قام المسلمون بالغزوات التي تنسبها إليهم الروايات

---

(١) ويجعلها بعضهم في موقع بالاجييه (Balaguier) REINAUD, *Op. cit.* p. 23. والمراجع المعطاة .

(٢) أورد هذه الحكاية الشائعة ERMOLDUS NIGELLUS في نص قصيدة لاتينية نشرها برتس M. PERTZ : *Monumenta Germaniae Historiae*, II, p. 466 Sqq.

وتبدأ قصة دادون في البيت السابع بعد المائتين من أبياتها ، ووردت إشارة إليها في كتاب « غالة المسيحية » *Gallia Christiana* ج١ ، ص ٢٣٦ ، وقد لخصها رينو في كتابه عن غزوات العرب في غالة كما يلي :

كان دادون شاباً صغيراً من قرية كونك (Conques) في إقليم رويرج (Rouergue) عندما اقتحم المسلمون هذه الناحية ، فحمل السلاح وخرج لقتالهم مع غيره من رجال ناحيته ، فبينما هو في بعض مطارداته للغزاة بعيداً عن قريته ، دهمها المسلمون ونهبوا بيته وأخذوا أمه أسيرة وأدخلوها في حصنهم . فلما عاد دادون وسمع الخبر حمل سلاحه ومضى إلى الحصن يريد اقتحامه ، وسخر منه المسلمون خلف أسوارهم ، وقال له بعضهم : « إذا أردت أن نرد لك أمك فأعطنا الحصان الذي تمتطيه وإلا ذبحنا أمك أمام عينيك » ، فرفض دادون أن يجيبهم إلى ما طلبوا . فذبحوا أمه ورموا إليه برأسها ، فبلغ من رعب الفتى وحزنه أن ذهب فترهب في ناحية على ضفاف نهر الدوردون (Dourdon) وقد أنشىء فيما بعد في مكان ترهبه دير كونك (Conques) .

وقد أوردنا هذه الحكاية كنموذج لما كتبه مؤرخو غالة النصارى عن المسلمين في هذه الفترة .

وقد أورد رينو قصة أخرى من هذا الطراز يذهب رواة النصارى إلى أنها حدثت في هذه المناسبة .

cf : REINAUD : *Invasions...* pp. 26 - 29.

Gallia Christiana : II, p. 468.

النصرانية في أقاليم دوفينيه (Dauphiné) وليون وبورجونيا (Bourgogne) . ولا تذكر مراجعنا العربية عن ذلك شيئاً على الإطلاق في حين تختلف المراجع النصرانية فيما بينها اختلافاً بيناً بشأنها . فأما المقري فيذكر : « إن الله ألقى الرعب في قلوب النصارى ، ولم يعد أحد منهم ليظهر إلا ليستأمن . فاستولى العرب على البلاد ومنحوا الأمان لمن أراد ، وساروا مصعدين حتى وصلوا حوض الردانة ، وهناك ابتعدوا عن الشاطىء وتوغلوا داخل البلاد » .

ولم يذكر لنا المقري البلاد التي وصلوا إليها حينما توغلوا في غالة هذه المرة ، ويقول رينو في تفسير عبارة المقري تلك : « ولا نستطيع تعرف المواقع التي وصل إليها العرب إلا بما خلفوه وراءهم من التخريب في النواحي التي وصلوا إليها ، ففيما يحيط بڤيين (Vienne) وعلى ضفاف الرون تحولت الكنائس والأديرة كلها إلى خرائب ، وكذلك تخربت كنائس لودون (Lyon) ونهبت ماكون وسالون على الساءون ، وتعرضت بون (Beaune) لتخريب ذريع ، وأشعلت النيران في كنيستي سان نازير (Saint Nazaire) وسان چان في أوتون، وهدم دير سان مارتان (Saint - Martin) خارج البلدة ، ونهبت كنيسة سان أندوش (Saint — Andoche) في سوليو (Saulieu) وعلى مقربة من ديجون هدم العرب كنيسة بيز (Béze) »(١) .

ولم تشر المراجع التي أشار إليها رينو إلى أن العرب هم الذين خربوا النواحي التي ذكرها كلها ، وإنما هو الذي جعل دأبه ـ كلما وجد ديراً قد احترق أو كنيسة تخربت في هذه المدة ـ نسبة ذلك إلى المسلمين ، مع علمه بأن العصر كله كان عصر اضطراب وحروب بين النصارى فيما بين بعضهم وبعض في هذه الجهات من غالة على وجه الخصوص ، ومع علمه بأن كلوڤس نفسه أنزل بالكنائس والأديرة في جنوبي غالة وفي بورجونيا وفي أقطانية من التخريب

---

(١) REINAUD, *Op. cit. pp. 29 - 30.* ومراجعه هي :
Gallia Christiana IV. pp. 51. 450 - 860 - 1042.
Chronicon Moissiacense dans Hist. des Gaules, II, 655.
DOM PLANCHER : *Histoire de Bourgogne,* I. p. VII.

والأضرار ما فاق كل وصف . وليس من المعقول أن المسلمين لم يكن لهم هم في غاراتهم في غالة إلا تخريب الكنائس والأديرة وإشعال النار في المدن ، فقد فتحوا قبل ذلك مصر وإفريقية والأندلس وهي كلها غاصة بالكنائس والأديرة وما إليها من المؤسسات النصرانية فلم يحرقوا ولم يخربوا ، فمن عجب أن ينقلب حالهم إذا عبروا إلى غالة فيتحولوا إلى برابرة مخربين لا يكادون يبقون على شيء !

الواقع أن هذا الكلام لا يقوله مؤرخ جاد يقدر معنى ما يقول . فليس من الجد في شيء أن يقال إن العرب لم يفعلوا في غالة غير تخريب الكنائس وحرق الأديرة ، والثابت المعروف عنهم أنهم لم يخربوا كنيسة أو يحرقوا ديراً . وإذا نحن قارنا المسلمين بالشعوب التي كانت تسود غالة في ذلك الحين ، من فرنجة وقوط غربيين وقوط شرقيين وبرغنديين ومن إليهم ، لتبينا أن المسلمين كانوا أعظمهم حضارة وأبعدهم عن النهب والتخريب . ومهما بحثنا في حوليات ذلك العصر فلن نجد بين من ظهروا على مسرح الحوادث في غالة خلال النصف الأول من القرن الثامن الميلادي رجالاً نستطيع أن نقارنهم بالسمح بن مالك أو عنبسة بن سحيم أو عبد الرحمن الغافقي .

ويلاحظ رينو الملاحظة التالية : « . . إن غارات العرب هذه التي يجمع الناس على أنها لا بد أن تكون قد امتدت إلى أبعد مما ذكرنا[1] ـ تمت جميعها

---

(١) يقول رينو : يذهب بعضهم أن العرب أرسلوا سرايا بلغت اللوار عند نيفير (Nevers) من ناحية ، وبلغت فرانش كونتيه (Franche Comté) من ناحية أخرى . فإذا صدق هذا ، فلا بد أن يكونوا خربوا دير القديس كولومبان (Saint Colomban) في نيفير ، ويذهب بعضهم كذلك أنهم قتلوا معظم رجال الدين والرهبان في بيزانسون (Besançòn) . وهذه المزاعم ليست بعيدة عن التصديق ، خصوصاً فيما يتصل بفرانس كونتيه حيث لا زال كثير من المواضع يحمل اسم سارازان (Sarrazin) . ويقال كذلك إن كنيسة لوكسيل (Luxeuil) هدمت وهي في سفح الفوج (Vosges) وذبح رجالها وعلى رأسهم القديس ملان (Mellin) .

cf : P. LECOINTE, *Annales Ecclesiastici Francorum.* IV pp. 728 Sqq. 795 Sqq.

MABILLON, *Annales Benedictini,* II. p. 88.

MABILLON, *Acta Sanctorum Benedicti* II, Ière partie pp. 527 Sqq.

وتذهب هذه المراجع إلى ان العرب لم يجدوا مقاومة جدية إلا عند بلدة صانص (Sens) إذ إن

دون خطة مقررة من قبل ، ومع هذا فلم تلق إلا مقاومة ضئيلة جداً ، مما يدلنا على الحالة السيئة التي كانت تسود فرنسا في ذلك الحين وعلى عدم وجود أية حكومة ترعى شؤونها. ولكننا إذا قارناها بما حدث في إسبانيا قبل ذلك بسنوات ، لتبين لنا أنه لم يحدث في أي موضع أن وجد الفاتح إقبالاً من أهل البلاد ، إذا استثنينا بضعة أشخاص بلا دين أو وطن ، ولم يحدث أبداً في أي مكان أن اتفقت معهم جماعة لها قيمتها من السكان ، وحتى في المدن مثل أربونة وقرقشونة ـ حيث استقر العرب بصورة ثابتة ـ ظلت جماعة على اخلاصها للنصرانية[1] .

وهذا أيضاً كلام لا قيمة له من الناحية التاريخية ، فأي سند استند إليه هذا الباحث الفرنسي ليقول ذلك ؟ وما معنى القول بأن أحداً من سكان البلاد لم ينضم إلى المسلمين ؟ ومن الثابت أن منطقة جبال ألبرت كلها ونواحي بسكاية وسبتمانية كانت تسكنها جماعات بدائية لم تستقر بعد على دين ولم تفهم بعد معنى الوطن ، بل لم يكن الفرنجة أنفسهم ، أصحاب الأمر في غالة ، ليأخذوا الدين مأخذ الجد أو يشعروا بشعور « وطني » نحو غالة . وأنى يكون ذلك وغالة كلها كانت في دور التكون ، لم تصبح بعد « وطناً » يتعصب له أحد ؟ وأيسر دليل على مغالطة رينو وأمثاله هو أن أولئك الذين يزعم أنهم لم ينضموا إلى المسلمين

أسقفها (Ebbes) أو (Ebbon) تصدى لهم ، وجمع نفراً من أهل البلدة وهجم بهم على المسلمين، وألقى ناراً على آلات حصارهم فتفرقوا . وكان هذا الرجل قبل ذلك فارساً وكونداً لبلدة تونير (Touner) ثم ترهب ورسمته الكنيسة قديساً فيما بعد .

ولا تذكر هذه النصوص المسلمين ولا تشير إلى أنهم هم الذين قاموا بهذه الأعمال ، ولكنها تقول إن الوند (Vandes) والوندال (Vandali) والجندال (Gandali) هم الذين كانوا يخربون ، فجاء مؤرخو الكنيسة فقالوا إن المراد بهذه الألفاظ هم المسلمون ، وتابعهم رينو وغيرهم من المؤرخين المحدثين في ذلك ، وهو تعسف لا معنى له وخاصة إن هذه التسميات أطلقت فيما بعد على المجريين الذين أغاروا على هذه النواحي وخربوها على أيام قارله وببين وشرلمان . وقد عاد رينو فتشكك في أن المسلمين هم الذين قاموا بذلك .

انظر كتابه الآنف الذكر ، ص ٣١ ـ ٣٢ .

(١) رينو : نفس المرجع ، ص ٣٢ .

ولم يؤيدوهم هم الذين أنزلوا بمؤخرة جيش شرلمان الفرنجي المسيحي مذبحة رنشفالة ومأساة رولان بعد ذلك بأكثر من قرن .

* * *

وكان كبار رجال غالة في حالة لا تمكنهم من النهوض لحرب المسلمين فأما أودو فقد ركن إلى السكون ولم يجرؤ على الخروج لملاقاتهم بعد الذي رأى من قوتهم ، ولم يجرؤ كذلك على طلب المعاونة من قارله لأن العلاقات بينهما لم تكن على ما يرام ، وأما قارله فكان مشغولاً بحرب الفريزيين سكان إقليم فريزيا الذي يعرف اليوم بالنورمندي والباڤاريين والسكسون غربي نهر الرين ، وكانوا يهددون نوستراسيا ـ قلب بلاد غربي الرين ـ بخطر داهم إذا ما عبروا الرين ، ولهذا لم ينهض قارله لملاقاة المسلمين حينما غزوا بورجونيا ، وكانت إذ ذاك داخلة في طاعته .

لم تكن هذه الأحداث التي ذكرناها في ولاية عذرة بن عبد الله الفهري أعمالاً عسكرية منظمة يمكن إدراجها في سلسلة الغزوات المنظمة التي قام بها ولاة الأندلس في غالة ، وإنما كانت نشاطاً عاماً قام به المسلمون الذين استقروا في سبتمانية وقاعدتها أربونة ، وبعض قواعد جنوبي غالة مثل طولوشة وطرسونة .

أما سلسلة الفتوح فتتصل من جديد عندما يتولى الأمر عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي سنة ١١٢ هـ / ٧٣٠ م .

١٠٢ ـ الغافقي لا نزاع في أن عبد الرحمن الغافقي كان أقدر قائد عسكري عرفته الأندلس في عصر الولاة . ومن المؤسف أن أخباره لدينا قليلة جداً لا تتناسب مع الدور الكبير الذي قام به في تاريخ الإسلام . ويبدو أن كارثة بلاط الشهداء التي ختمت حياة الغافقي كانت أليمة الوقع عند مؤرخينا ، فأوجزوا الكلام عنها قدر الطاقة ، وأصاب الإيجاز سيرة عبد الرحمن ، فتعمدوا الاكتفاء بمجرد الإشارة إليه مع عظيم تقديرهم له .

كان عبد الرحمن جندياً أندلسياً ، قضى أحسن أيامه عاملاً في جيوش المسلمين المغاربة فيما وراء البرتات . ويفهم من إجماع عرب الأندلس على تقديره أنه كان سليماً من نزعة العصبية التي ابتلى بها غيره ، ومن دلائل ذلك أن عبيدة ابن عبد الرحمن القيسي عامل إفريقية المتعصب لقيسيته أقامه على الأندلس وهو يمني من غافق . وقد أورد ابن عبد الحكم رواية يفهم منها أن الرجل كان مسلماً سليم الإيمان حريصاً على أصول الشريعة لا يحفل في سبيل ذلك بغضب من بيدهم الأمر. يقول ابن عبد الحكم، بعد الكلام عن إحدى غزوات عبد الرحمن: « . . وكان فيها أصاب رجل مفضضة بالدر والياقوت والزبرجد ، فأمر بها فكسرت ، ثم أخرج الخمس ، وقسم ذلك في المسلمين الذين كانوا معه ، فبلغ ذلك عبيدة (بن عبد الرحمن القيسي عامل إفْريقية) فغضب غضباً شديداً ، وكتب إليه كتاباً يتوعده فيه ، فكتب إليه عبد الرحمن : « إن السموات والأرض لو كانتا رتقاً لجعل الرحمن للمتقين منها مخرجاً . ثم خرج إليهم أيضاً غازياً ، فاستشهد وعامة أصحابه »[1] .

وهذه هي الإشارة العربية الوحيدة التي تدل على ناحية من خلق عبد الرحمن. ويصفه إيزيدور الباجي بأنه كان رجلاً نشيطاً عنيفاً قاسياً ، لا يبالي أن ينزل بالنصارى أقسى المظالم وأشد ألوان الاضطهاد والتخريب والقسوة[2] . ولا تضيف النصوص اللاتينية الأخرى إلى أوصافه هذه شيئاً ، وإن كانت جميعها تتحدث عن شجاعته النادرة ومقدرته الحربية العظيمة . ولو أمدتنا المراجع العربية بأخبار مفصلة لاستطعنا تعرف مكان هذه الروايات النصرانية من الصحة ، ولكنها أقدم ما بين أيدينا وأكثره تفصيلاً ، ولا مندوحة لنا عن الاعتماد عليها إلى حد كبير .

وكان عبد الرحمن جندياً من طراز آخر غير طراز عنبسة ، وإذا كنا قد قلنا

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ١١٧ .

(٢) إيزيدور الباجي : فقرات ٥٨ ـ ٥٩ ـ ٦٠ .
وانظر أيضاً ، ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس ، رقم ٥٨٤ .

أن هذا الأخير كان من طراز عقبة، أي من الذين تستهويهم الغارات البعيدة المدى والضربات المدوية ، فلنقل عن عبد الرحمن الغافقي إنه كان من طراز حسان بن النعمان ، من طراز الفاتحين الذين يرسمون خطة الفتح الثابت المستقر ، فيعمدون إلى مراكز المقاومة الفعلية ويهاجمونها لكي يتم الفتح وتدخل البلاد في حوزة الاسلام .

١٠٣ - خروج عبد الرحمن للغزو ، أوائل سنة ١١٤ هـ / ربيع سنة ٧٣٢ م

عبر عبد الرحمن البرتات في أوائل سنة ١١٤ هـ / سنة ٧٣٢ م ، ولسنا نعلم على وجه التحقيق عدة الجيش الذي كان معه ، فأما المراجع النصرانية فتزعم أنه كان يقود عدة الجيش بعدد يتراوح بين سبعين ألف ومائة ألف . وليس لدينا ما يُوضح هذا الأمر ، لأننا لا نستطيع قبول الرقمين ، وكل ما نستطيع أن نقول هو إن عدة الجيش لم تكن لتزيد عن سبعين ألفاً على أي حال ، وأن جل هؤلاء كان من البربر ، لأن الكثيرين من عرب إفريقية والأندلس كانوا إذ ذاك في شغل بما نصرفوا إليه من المنازعات العصبية من ناحية ، ومن الاستقرار في القرى والاشتغال بالزرع من ناحية أخرى ، ونستطيع أن نقول كذلك إن معظم هؤلاء كانوا يمنيين ، لأن عبد الرحمن الغافقي كان يمنياً ، ولأن غالبية سكان نواحي إقليم سرقسطة كانوا يمنية ، ومنهم كانت غالبية العرب المحاربين في ناحية ألبرتات وما يليها .

وكانت مصلحة المسلمين تقتضي الاستمرار على صداقة أودو لكي يكون لهم عوناً على حرب الفرنجة والخلاص منهم ، ولم يكن ذلك بالعسير لو كان عبد الرحمن الغافقي سياسياً كما كان قائداً ممتازاً ، فقد وصل المسلمون إلى قرب السين ، وكان على خليفة عنبسة أن يكمل عمله ، فيمضي بالمسلمين إلى قلب الدولة الفرنجية . ولكن حركة مونوسة[1] أفسدت الأمر كله، وقد رأينا أنه من

---

(١) راجع عنه :

ISIDORO PACENSE. C. 61.
RODRIGO XIMENEZ DE RADA, p. 12.

العسير أن تتعرف أسباب الجفوة التي طرأت بينه وبين عبد الرحمن ، وإن كان من الممكن ردها إلى ما كان بين العرب والبربر عامة إذ ذاك من التحاسد والتباغض ، وبما كان في خلق عبد الرحمن نفسه من الصلابة والاستقامة ، مما لا يستبعد معه أن يكون قد كره هذه الصداقة المتصلة وذلك العهد المتين بين مونوسة وأودو .

وعلى أي الأحوال ، كانت ثورة مونوسة ونهوض عبد الرحمن للقضاء عليها من أسباب فشل عبد الرحمن في حملته الكبرى على غالة ، فقد غضب الدوق لما أصاب صهره وتوقع الشر من ناحية العرب وبدأ يظهر الجفوة نحوهم ، فلم تعد لهم مندوحة من حربه أولاً ، ولهذا اتجه عبد الرحمن بقواته إلى عواصم أقطانية ففتحها كما سنرى ، وفر من بقي من جند الدوقية إلى الشمال وأخذوا يستنجدون ملك الفرنجة ، وانضمت قواتهم إلى قواته فكثر جمع النصارى أمام المسلمين . هذا إلى أن الحرب بين مونوسة وعبد الرحمن كانت حرباً بين البربر والعرب في حقيقة الأمر ، وسنرى أن نفوس العرب والبربر لم تكن متفقة في هذه الحملة كما كانت فيما سبقها ، وسيكون لهذا أثره البليغ في هزيمة « بلاط الشهداء » التي سنفصل أمرها .

جمع عبد الرحمن جنده في بنبلونة ، واحتفل في إعداد حملته هذه احتفالاً عظيماً ، لأنه كان يرجو أن يكون فتح غالة على يديه . ثم اخترق بجنده جبال البرت في أوائل صيف سنة ٧٣٢ م من ممرات رونشفالة التي ستشهد مأساة رولان بعد ذلك بسنوات ، أي إنه لم يسلك الطريق المألوف الذي سار فيه العرب إلى ذلك الحين : طريق ساحل البحر الأبيض الذي يفضي إلى سبتمانية وحوض الرون ، بل طريقاً في وسط الجبال يفضي إلى قلب دوقية أقطانية مباشرة . فلما أفضى إلى غالة اتجه أول الأمر نحو وادي الردانة لكي يمهد أمره ويحمي ظهره قبل أن يتجه إلى دوقية أقطانية في الغرب ، ويقال إن سبب اتجاهه إلى وادي الردانة خروج مدينة آرل (Arelatum) عن الطاعة وتوقف أهلها عن

١٠٤ - فتح آرل

دفع الجزية ، فهاجمها واستولى عليها بعد معركة عنيفة[1] . فلما تم له ذلك وأمن ظهره توجه بجموعه نحو الغرب ليهاجم دوقية أقطانية (أكويتين) . وكانت هذه تتكون من عدد من الكونتيات أكبرها غسقونية وتمتد من جبال البرتات إلى حدود اللوار في الشمال ، ومن نهير الأليية في الشرق إلى خليج بسكاية في الغرب ، وكانت تعد أعظم إمارات غالة بعد المملكة الفرنجية التي كانت تصاقبها على حدودها الشمالية .

١٠٥ - الاستيلاء على بُرْدال (بوردو)

توجه عبد الرحمن بقواته نحو بردال (بوردو) ، فخف الدوق بقواته لكي يوقف تقدمه ، ولقيه على ضفاف الدوردوني (Dordonia) على مقربة من ملتقاه بالجارون (Garona) فانهزم هزيمة قاصمة فقد فيها عدداً عظيماً من فرسانه وفر هارباً[2] ، وتقهقر أمام المسلمين نحو الشمال تاركاً لهم عاصمة بردال ، فدخلوها ونهبوها نهباً ذريعاً[3] ، فلما فرغوا منها انساحوا في البسائط هناك يفتحون كل ما صادفهم ، فلما امتلأت أيديهم من الغنائم تقدموا نحو اللوار ، وكانت وجهتهم هذه المرة مدينة تور ثانية مدائن الدوقية على نهر اللوار وفيها كنيسة سان مارتان ، وكانت لها إذ ذاك شهرة ذائعة في الآفاق ، فاقتحموا البلدة وخربوا كنيستها[4] .

---

(١) عنان : دولة الإسلام في الأندلس ، ص ٨٦ . DOM VAISSETTE, *Op. cit.* I. p. 795.

(٢) ISIDORO PACENSE. *Chronicon* C.95.

ويبدو أن عدد القتلى من جيش اودو كان عظيماً ، لأن إيزيدور يقول :

Deus numerum morientiun vel pereuntium recognoscat .

(٣) DOM VAISSETTE, *Op. cit.* I. p. 795.

(٤) Tunc Abderraman suprafatum Eudonem Ducem insequens, dum Turonensem ecclesiam, palatia diruendo et ecclesias ustulando depraedari desiderat

ISIDORO PACENSE, *Op. cit.* c. 59.

ولم يذكر إيزيدور اسم كنيسة القديس مارتين (سانكتوس مارتينوس) التي ذكرناها في النص ، ولكن رودريجيث خيمنيث ذكر أن العرب خربوا كنيسة البلدة الرئيسية .

١٠٦ ـ أودو يستنجد بشارل مارتل

هنالك أسرع أودو إلى قارله (شارل مارتل) يستنجد به ، إذ وجد نفسه مضطراً إلى مصالحته ، وبهذا توحدت قوى النصرانية في غالة للوقوف في وجه المسلمين . ورحب قارله بالفرصة ، لأنه كان تواقاً إلى بسط نفوذه على أكويتين وأراضيها الواسعة ، ولأنه كان قد استشعر الخطر الاسلامي منذ حين ، فقد غزا المسلمون منذ عام فقط بورجونيا وهي داخلة في بلاده وصعدوا حتى قاربوا اللوار . وقد عرف قارله كيف يأخذ للأمر عدته ، فجعل يجمع الجند والفرسان من كل ناحية ، ولم يدخر جهداً في ذلك ، فقد كان الخطر في هذه المرة واضحاً جلياً ، ويبدو أنه لم يكتف بمن كان عنده من الجند في غالة ، فبعث يستقدم جنداً من حدود الرين من نواحي أوستراسيا ، فأتته نجدات من جنود أجلاف أقوياء يحاربون شبه عراة في مثل هذا الجو البارد ، ويصفهم إيزيدور بأن أيديهم كانت حديدية ترسل ضرباتها القاصمة في سرعة وقوة ، وبهذا اجتمع لقارله جيش قوي قدير على الثبات للعرب ومنازلتهم[١] .

وينبغي أن نضيف هنا أن الفرنجة الساليين أنفسهم ـ ومنهم كان معظم جند قارله ـ كانوا قوماً بدويين أشداء لا يقلون عن العرب صلابة ولا شجاعة ، فقد مهدوا بحرابهم وصدورهم غالة كلها وغلبوا البرغنديين والقوط الغربيين وبقايا الرومان في غالة وغلبوا السكسون عدة مرات وما زالوا بهم حتى كسروا

Turonis civitatem, ecclesiam et palatia vastatione et incendio simili diruit et consumpsit. =
cf : RODERIGUEZ JIMENEZ, 12 - 13.

أما صاحب ذيل التاريخ فريجيداريوس فيقول :

... Ad domum beatissimi Martini evertendam destinant

أي إنه يقول إن العرب أرادوا فقط تخريب الكنيسة ولم يفعلوا :

Scelastici Fregedarii Continuatio II.

(١) Ubi dum pene per septem dies utrique de pagnae conflictu excruciant, sese postre-mo in aciem parant, atque dum acriter dimicant gentes septentrionales in ictu oculi ut paries immoviles permanentes, sicut et Zona rigoris glacialiter manent adtrictae, Arabes glodio enecant .
ISID. PAC. *Op. cit.* c. 59.

شرتهم ، وانصاعت لهم جماعات كثيرة من المتبربرين كالسويف والألآن ، وكان ملُكهم في ذلك الحين في صعود ، إذ كان قارله حاجب الملوك الميروفنجيين ، وكان أبوه بيبين قد استولى على السلطان منهم ، وخلفه قارله واعياً لهذا المطلب البعيد وهو إزالة الميروفنجيين عن الملك والحلول محلهم . وكان سياسياً قادراً ومحارباً ماهراً ، استطاع أن يجمع الناس حوله بالقوة تارة وبالسياسة تارة أخرى ، واجتمعت له قوات ظل يرقب بها الحوادث ، فلما بلغته أنباء الغزو العربي شعر ألا مندوحة له عن اتخاذ الأهبة ، ثم أقبل خصمه أودو يستغيث به فلبى النداء وأسرع للقاء المسلمين بنفس مشرئبة للظفر وجنود متطلعة للقتال[١] .

١٠٧ ـ المعسكر الإسلامي قبيل المعركة

وكان المعسكر العربي في مثل هذه الحال من التوفز وعلو الحالة المعنوية : لم يكن ينقص المقاتلين الإيمان ولم تكن الخبرة لتعوز القيادة ، ولكن أموراً أخرى كانت تفل من عزيمة الجيش وتقلل من أمله في الظفر .

أول هذه الأمور أن العرب بعدوا مسافات شاسعة جداً عن مركز الدولة الإسلامية [٢] . ويكفي أن يتصور الإنسان المسافة بين دمشق وجبل طارق ، وبين جبل طارق ونهر اللوار ليعلم أن الجيوش الإسلامية المحاربة في نواحي غالة كانت تقوم في الواقع بمغامرة أقرب إلى قصص الأساطير منها إلى حوادث التاريخ ، لأنها كانت في وضع لا تستطيع معه أن تحصل على إمدادات من الجند أو العتاد من مركز الخلافة . ولم يكن في استطاعة هؤلاء المحاربين أن يحصلوا على إمداد من عامل الأندلس في قرطبة ، لأن عدداً عظيماً من عرب الأندلس لم يستقروا في العاصمة بل تفرقوا في نواحي شبه الجزيرة وشغلوا بها إلى حد كبير عن الحكومة المركزية . وقد رأينا فيما مر من الحديث أن عرب الأندلس هؤلاء

---

(١) GIBBON, *Decline and fall.* II. p. 803.

(٢) أشار جيبون الى هذا البعد الشاسع إشارة لطيفة جداً .
انظر : اضمحلال الدولة الرومانية وسقوطها ، جـ ٢ ، ص ٨٠٢ .

كانوا في واقع الأمر جماعات متفرقة في النواحي لا يستطيع العامل استقدام أجناد منهم على عجل ، وكانت العصبيات قد توزعتهم وفرقت بينهم ، فلم يعد من الميسور لعامل الأندلس أن يجمع قوات محترمة إلا من بني عصبيته . وربما لم يكن لهذه النقطة الأخيرة أثر كبير في تكوين جيش عبد الرحمن ، لأنه كان في الواقع بعيداً عن نزعة العصبية ، فاجتمعت إليه أعداد كبيرة من عرب الأندلس جميعاً ، إلا أن أثرها ظهر بعد مقتله ، فقد تفرق العرب واختلفوا فيما بينهم اختلافاً شديداً أدى إلى انسحابهم جملة ، ولو كانوا يداً واحدة لارتدوا بعد الهزيمة إلى أقرب مركز لهم ليستجمعوا قواتهم من جديد كما فعلوا بعد الهزائم المتكررة التي جرت عليهم في إفريقية .

ولنضف إلى هذا ما كان بين العرب والبربر إذ ذاك من أسباب الخصومة ، وهي ظاهرة تاريخية ينبغي ألا يهمل حسابها في كل ما يتصل بتاريخ المغرب والأندلس حتى نهاية القرن الهجري الثاني ، وقد رأينا مثلاً ثورة مونوسة وما جرته من وخيم العواقب ، وسنرى أثرها واضحاً كذلك فيما أعقب موقعة البلاط . وكانت غالبية الجيش الاسلامي المقاتل في غالة من البربر ، وليست لدينا أية تفاصيل عن أعدادهم أو طوائفهم ، مما يحول بيننا وبين استجلاء حقيقة الموقف في المعسكر الإسلامي قبل المعركة الحاسمة .

ومسألة أخرى كانت تضعف الجيش الإسلامي وتقلل من أمله في الظفر ، هي الغنائم التي جمعها الغزاة المسلمون من النواحي التي مروا بها قبل لقاء الفرنجة في الموقعة الفاصلة . وتتفق المراجع جميعاً على أن الجيش الاسلامي كان يجر وراءه قطاراً عظيماً محملاً بالغنائم والأسلاب من كل صنف ، وربما بالغت المراجع النصرانية في وصف أعمال السلب والنهب التي قام بها المسلمون في نواحي غالة ، ولكن أكثر الأحكام اعتدالاً في هذه الناحية يقرر أن المسلمين اجتمع لهم شيء عظيم جداً من أسلاب المدن وتحف الكنائس والقصور والحصون . ويبدو أن استمساك الجند بهذه المغانم كان عظيماً ، لأنهم حملوها معهم حتى نهر اللوار ، ولو أحسنوا لبعثوا نفراً ليودعها أربونة أو برشلونة حتى

يطمئنوا عليها وتخلو أيديهم للعمل المقبل ، ولكنهم كانوا أحرص عليها من أن يفارقوها ، بل سنرى أنهم كانوا أحرص عليها منهم على النصر والظفر ، فكان هذا الحرص في ذاته من أشد أسباب هزيمتهم ، لأن عدوهم استشعر هذا الحرص منهم وعرف كيف يستغله لصالحه .

١٠٨ ـ مكان المعركة

ولسنا نعلم مكان الموقعة الفاصلة بين المسلمين والفرنجة على وجه التحقيق : أغفلته الرواية الإسلامية فيما أغفلت ، وتركته الرواية النصرانية مبهماً فذكرت أنها كانت إلى شمال بواتييه Pictavens في اتجاه تور ، أي على الطريق الروماني القديم بين البلدين ، ونقول على « الطريق الروماني » لأن اسم المكان كما تحدده الرواية العربية باسم « بلاط » الشهداء يفهم منه أنها وقعت على مقربة من قصر كبير « بلاط»[١] وربما كان أقرب الآراء إلى الصحة في هذا الموضوع ما ذكره بروفنسال من أن الموقعة كانت « على مقربة من طريق روماني يصل شاتلرو (Chatellerault) ببواتييه ، على مسافة نحو عشرين كيلو متراً من المدينة الأخيرة ، وربما كانت عند الموضع الذي يسمى اليوم (Moussais - la Bataille)[٢] .

* * *

١٠٩ ـ معركة بلاط الشهداء

لم تقدم لنا هذه الرواية الإسلامية إلا إشارات عابرة مبتسرة عن هذه الموقعة الفاصلة . ولا يعلل هذا الإغفال الغريب بمجرد رغبة الرواة المسلمين في إخفاء معالم هذا الحادث المحزن ، لأن هؤلاء المؤرخين قدموا لنا تفاصيل طيبة عن هزائم أخرى نزلت بالاسلام على يد النصرانية ، كهزيمة الخندق ومأساة « العقاب » ، وكانت هذه الأخيرة أخطر من

(١) LEVI - PROVENCAL : *Hist. de l'Esp. Musulmane*, I. p. 44.

(٢) ظن الكثيرون ان المراد بلفظ « بلاط » طريق مبلط ، وترجمها النصارى إلى Pavé ، ولكن المراد بلفظ بلاط في الأندلس قصر أو حصن حوله حدائق تابعة له ، فيقولون « بلاط مغيث » و « بلاط الحر » و « بلاط يوسف » ويقصدون بذلك قصور أولئك الرجال ، واللفظ مشتق من Palatum اللاتينية . وعلى هذا فبلاط الشهداء معناها في الواقع « قصر الشهداء » ، مما يفهم منه أن مكان الموقعة كان إلى جوار قصر أو حصن كبير ربما كانت له علاقة كبيرة بحوادث المعركة .

« بلاط الشهداء » وكانت مصيبة الإسلام فيها أعظم ، فكان إخفاء معالمها أولى ، فكيف اتفق أن كل ما تقدمه الرواية العربية عن هذه الموقعة لا يزيد في مجموعه على عشرين سطراً موزعة في نحو سبعة مراجع أو ثمانية ؟ بل كيف نجد نصوص هذه الروايات من الاضطراب بحيث يذهب ابن عذارى على دقة روايته إلى أن الموقعة حدثت سنة ١١٥ هـ لا سنة ١١٤ ؟[١] بل كيف يذهب ابن خلدون إلى أن قائد المسلمين الذي استشهد في هذه الوقعة لم يكن عبد الرحمن الغافقي وإنما محمد بن عبيد الله بن الحبحاب ، وهي شخصية لم نسمع بها إلى الآن في حوادث الأندلس ؟[٢] وكيف يذكر المقري في إحدى رواياته أن الواقعة حدثت أيام السمح بن مالك ؟[٣] كيف يقع هذا التناقض كله وذلك الإهمال كله في وقعة مشهورة فريدة في بابها كوقعة البلاط مع أن نفس هذه المراجع أوردت لنا تفاصيل هزائم إسلامية أخرى حدثت في نفس الفترة على درجة كبيرة من الدقة والعناية ، كما رأينا في هزيمة « تهودة » و « الأشراف » اللتين مررنا بهما ؟ ثم كيف نجد الرواية النصرانية لا تخطىء مرة واحدة في ذكر اسم القائد الإسلامي الذي خلط رواتنا الثقات فيه هذا الخلط ؟

الواقع أن المسألة لا تعلل إلا بشيء واحد : هو أن هزيمة المسلمين كانت من الشدة بحيث كان أوائل الرواة ينفرون حتى من مجرد ذكرها من فرط الألم والتشاؤم ، فاندرجت أخبارها في مدارج النسيان وتعاقبت عليها الأعصر فلم يبق في ذاكرة الرواة منها إلا أن أهل الإسلام قد هزموا في هذه الناحية هزيمة مروعة بين سنتي ١١٤ و ١١٥ هجرية .

والدلائل كلها تنطق بأن الهزيمة كانت مروعة حقاً : أولها تسمية الموقعة ببلاط « الشهداء » ، وهي تسمية يفهم منها أن عدد من استشهد فيها من المسلمين كان عظيماً جداً . وثانيها أن المسلمين لم يحاولوا الاقتراب من اللوار بعد

---

(١) ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ٢ ، ص ٢٧ .
(٢) ابن خلدون : تاريخ ، جـ ٤ ، ص ١١٩ .
(٣) ابن حيان في المقري : نفح ، جـ ٢ ، ص ٥٦ .

ذلك أبداً ، ولو كانت هزيمتهم هناك يسيرة لعادوا إلى المحاولة ، ولو بقيت منهم بقية صالحة ما ترددت في العودة . وثالثها هذا الصمت الغريب الذي تسدله الرواية الإسلامية على الموقعة . ورابعها هذا الإجماع على فداحة خسارة المسلمين الذي نجده عند المؤرخين النصارى في هذا الموقف ، فضلاً عن مؤرخنا الأول ابن حيان الذي لا تدع روايته مجالاً إلى الشك في مصاب المسلمين في هذه الموقعة [١] .

ولا مندوحة لنا عن الاعتماد على المراجع النصرانية في وصف هذه المعركة الخطيرة ، وينبغي أن ننبه إلى أن أقدم هذه المراجع ـ وهما المدونتان المنسوبة أولاهما إلى إيزيدور الباجي وثانيتهما المنسوبة إلى بلده مواسياك (Moissiac) ـ قد كتبت أولاهما بعد الحادث بنيف وعشرين عاماً وثانيتهما بعده بنحو قرن ، ولم يزد ما كتبتاه معاً عن الموقعة على بضعة أسطر ، أما التفاصيل الكثيرة فترجع إلى مدونات متأخرة جداً تشوبها روح القصص والأساطير .

ونكتفي في وصف تطورات هذه الموقعة بما أورده عنها إيزيدور الباجي وصاحب مدونة مواسياك وباولوس دياكونوس وصاحب ذيل فريجيداريوس الأول والثاني [٢] .

---

(١) « . . . وذكر انه ـ أي عبد الرحمن الغافقي (ويذكر ابن حيان السمح بن مالك خطأ) ـ قتل في الواقعة المشهورة عند اهل الأندلس بوقعة البلاط ، وكان جنود الإفرنجة قد تكاثرت عليه ، فاحاطت بالمسلمين ، فلم ينج من المسلمين أحد . قال ابن حيان : فيقال إن الأذان يسمع بذلك الموضع إلى الآن » .

ابن حيان برواية المقري في نفح الطيب ، جـ ١ ، ص ١٠٩ .

(٢) ISIDORO PACENSE : *Chronicon*. cc. 58 - 59. 60.
Chronicon Moissiacense. p. 166.
PAULUS DIACONUS, *Ex Lib*. VI.
Scolastici Fregedarii. Continuatio. II, III, apud *Ajbar Machmua*. p. 168.
CODERA, *Op. cit. pp. 118 Sqq.*
REINAUD : *Op. cit:* p. 34 Sqq.

١١٠ ـ المعركة وقع اللقاء بين قارله وعبد الرحمن في الثاني عشر أو الثالث عشر من أكتوبر سنة ٧٣٢ م / أواخر شعبان سنة ١١٤ هـ . وتدل التفاصيل التي لدينا على أن كلاً من الفريقين كان يحس خطورة هذا الصراع الحاسم ، فلم يشتبك الجيشان في المعركة الحامية إلا بعد بضعة أيام ظلا خلالها يتناوشان في اشتباكات محلية ، ثم اشتبكا بعد ذلك في قتال عنيف ، واجتهد الفرنجة ومن معهم من الألمان والسويف والسكسون في اختراق خطوط العرب يومين متتاليين دون نتيجة ، وقد بذلوا أقصى ما استطاعوا من جهد وهجم مشاتهم وفرسانهم على المسلمين هجوماً عنيفاً بالحراب ، ولكن هؤلاء ثبتوا ثباتاً فريداً ، بل بدا في بعض الأحيان ـ قرب مساء اليوم الثاني على الخصوص ـ أن المسلمين أخذوا يتفوقون على أعدائهم . ثم حدث بعد ذلك أن اندفعت فرقة من فرسان الفرنجة فاخترقت صفوف المسلمين في موضع ، وأفضت إلى خلف الصفوف حيث كان المسلمون قد أودعوا غنائمهم وكانت شيئاً عظيماً جداً ، فريع الجند الإسلامي المحارب وخشي الكثيرون من أفراده أن يستولي عليها هؤلاء الفرنجة ، فالتفت بعضهم وعادوا إلى الخلف ليبعدوا الأعداء عنها . وهنا اضطربت صفوف المسلمين واتسعت الثغرة التي نفذ منها الفرنجة ، فاندفعوا فيها في عنف وقوة زلزلت نظام القوات الإسلامية ، وحاول عبد الرحمن جهده أن يثبت جنده ويعيد نظامه أو يصرفه عن الهلع على الغنائم فلم يوفق ، بل أصابه سهم أودى بحياته ، وكان ذلك نذير الشؤم على جيوش المسلمين ، إذ انهال عليهم الفرنجة من كل جانب وحصدوهم حصداً . وصبر المسلمون حتى أقبل الليل ، فانتهزوا فرصة الظلام وتسللوا متراجعين إلى الجنوب على عجل ، وكان ذلك في العشرين من أكتوبر سنة ٧٣٢ م (أوائل رمضان سنة ١١٤ هـ) .

وحينما أسفر الصبح نهض الفرنجة لمواصلة القتال ، فلم يجدوا من المسلمين أحداً ، وتقدموا على حذر من مضارب المسلمين ، فإذا هي خالية منهم وقد فاضت بالغنائم والأسلاب والخيرات ، فظنوا أن في الأمر خدعة ، وتريثوا قبل أن يجتاحوا المعسكر وينتهبوا ما فيه ، ولم يفكر أحد منهم في تتبع المسلمين ، أما لأنهم خافوا أن يكون العرب قد نصبوا لهم بهذا الانسحاب شركاً ، أو لأن

قارله تبين ما نزل بالمسلمين ورأى أنه يستطيع العودة إلى الشمال مطمئناً إلى أنهم انصرفوا عنه وعن بلاده .

١١١ ـ بعد المعركة

وسندع التعليق على هذه الموقعة وأهميتها إلى أن نفرغ من تتبع الجيش الاسلامي في أعقابها ، وليس لدينا مرجع عربي واحد نستطيع الاعتماد عليه في هذا الصدد . ولا مفر لنا ـ هنا أيضاً ـ من الاعتماد على الروايات النصرانية وحدها : اندفع المسلمون في تقهقرهم نحو الجنوب مسرعين ، واتجهت جموعهم نحو أربونة فمروا على مقربة من جيريه (Guéret) وغزوا في طريقهم بلدة ليموزين وخربوا كنيسة سولنياك (Solignac) ، وحينما أحسوا أن أحداً من النصارى لا يتتبعهم تمهلوا في سيرهم ليستجمعوا صفوفهم من جديد . ويبدو أن فرقاً منهم شردت عن الجيش فوقعت في أيدي النصارى ، ولدينا تفاصيل كثيرة من هذا النوع ، ولكنها جميعها غير ثابتة ولا محققة ، ولا نستطيع لهذا أن نتحدث عنها بأكثر من هذه الإشارة(١) .

وتزعم الروايات النصرانية أن خبر الهزيمة الإسلامية تردد في نواحي غالة الجنوبية وإسبانيا الشمالية فتواثب أهلها بالمسلمين من كل ناحية ، وتخطفوا فلول قواتهم المتراجعة . وليس لدينا على ذلك دليل ، وإن كان المعقول أن يطمع أهل هذه النواحي في المسلمين ، لا لأنهم مسلمون بل لأن قواتهم في غالة قد تفرقت بعد هذه المعركة ، فأسرع هؤلاء يفيدون من هذه الفرصة ، كما سيفعلون حينما ينقضون على مؤخرة جيش شرلمان النصراني بعد ذلك بسنوات(٢) .

وكانت هزيمة « البلاط » سبباً في تعجيل عبيدة بن عبد الرحمن بتولية عبد الملك بن قطن الفهري ، ولسنا نعلم على وجه التحقيق إن كان عبد الملك قد

---

(١) *Gallia Christiana,* II. p. 566.
REINAUD. *Op. cit.* p. 49.

(٢) GREGOIRE DE TOURS dans RUINART, *De Gloria Confessorum.* p. 934 et 1402.
REINAUD, *Op. cit.* p. 50.

قدم الأندلس من إفريقية أو كان من عربها المقيمين فيها ، ويغلب على الظن أنه كان من جند العرب في الأندلس ، واختاره عبيدة للولاية من بينهم ، لأننا نجده من أول الأمر في عصبة من الرجال يؤازرونه ويتعصبون له . وهو أمر لم يكن ليحدث لو أنه أتى من إفريقية ، خصوصاً وأن المراجع لا تذكر أن جماعة من العرب انتقلت الى الأندلس في ذلك الحين .

١١٢ ـ عبد الملك ابن قطن الفهري يسير إلى غالة

وكان أول ما اهتم به عبد الملك هو المسير إلى غالة لإقرار أمر المسلمين فيها بعد موقعة البلاط وما تلاها ، وقد توجه بنشاطه أول الأمر إلى نواحي شمالي الأندلس ، فهاجم نواحي أرغون ونبره ، ثم عبر البرتات وأفضى إلى لانجدوك واهتم بتحصين المعاقل التي كانت ما تزال في أيدي المسلمين . وكانت نواحي سبتمانية إذ ذاك في فوضى شاملة بسبب الحروب المتوالية وبسبب الاضطراب الذي نجم عن هزيمة البلاط وتقهقر جيوش المسلمين ، وكان الظاهرون من أهلها قد انتهزوا فرصة تلاشي أمر الدوق لكي يتوزعوا النواحي فيما بينهم ويعلنوا أنفسهم أكناداً أو أدواقاً بها ، واحتربوا فيما بينهم . وكانوا جميعاً يكرهون أودو وقارله معاً ، وخشوا أن تؤدي هزيمة المسلمين إلى وقوعهم تحت سلطان أحدهما ، فجعلوا يستعينون بالعرب المتحصنين في أربونة ، وتذكر المراجع منهم دوقاً يسمى ماورنت (Maurontes) اتخذ لقب دوق مرسيلية وحالف جند المسلمين وطمع في السيادة على بروڤانس كلها[١] .

وكان قارله مشغولاً إذ ذاك بتقرير سلطانه في ولايتي بورجونيا وليون اللتين تم له فتحها ، وكان المسلمون قد فتحوهما ثم تخلوا عنها بعد الهزيمة وخلفوهما في فوضى شاملة ، فأقام قارله فيهما نفراً من المخلصين له يسمون Laudes (أي الخلصاء) وفرض طاعته على أشرافهما . ثم اشتغل بعد ذلك بأمر أهل فريزيا (Frisii) ومضى لإخضاعهم وأنفق في ذلك وقتاً ليس بالقصير . وأحب أن يضمن ولاء جنده فأطلق أيديهم في ذخائر الكنائس وأملاكها ، فأغضب

(١) REINAUD, *Op. cit.* p. 52.

بذلك القساوسة وعامة الناس . وكان جنده الفرنجة يعتبرون أنفسهم سادة البلاد المفتوحة ، وكان قارله يميز جنده على أهل غالة الأصليين ويحرم عليهم الزواج منهم ويلزمهم بالعيش بعيداً عنهم ، فبغضه أهل جنوبي غالة ، وفتر حماسهم نحوه ، وهكذا خسر ولاءهم[1] ، وأعان ذلك العرب على الثبات في هذه النواحي ، بعد أن كان أمرهم قد تحرج وتواتر عليهم تواثب الناس ، حتى غدوا كالمحصورين في أربونة وغيرها مما كان بيدهم من المعاقل .

١١٣ - المسلمون يستعيدون آرل

وكان قائد جند المسلمين في أربونة وغالة رجلاً تسميه المراجع النصرانية بيوسف (Jussef) ، والغالب أنه يوسف الفهري الذي ستصير إليه ولاية الأندلس فيما بعد ، فاتحد مع ماورنت دوق مرسيلية (Massilia) ، وسار فعبر الردانة واستولى على آرل (Arelatum) وخربها وأطلق يد جنده فيها حولها حتى صارت قفراً خراباً بعد ذلك أربع سنين ، وتوغل بعد ذلك في بروڤانس واستولى بعد حصار طويل على بلدة فرتا (Feretta) التي تسمى اليوم (Saint - Remi) .

١١٤ - الاستيلاء على أبنيون

ثم توجه نحو أبنيون (Avenionum) واقتحمها على أهلها بعد أن دافعوا عنها دفاعاً عنيفاً ، وأفضت جيوش المسلمين إلى نهر الديورانس (Durance) ووقفوا عند ذلك الحد بعد أن استعادوا بقيادة يوسف هذا جزءاً عظيماً مما كانوا قد فقدوه بعد وقعة البلاط ، وقد ثبتت قدم المسلمين في هذا الجزء أربع سنين لم يجرؤ خلالها أحد على منازعتهم السلطان فيه[2] .

---

(١) *Gallia Christiana,* I, p. 537. 544, 600, 620.
REINAUD, *Op. cit.* pp. 53 - 54.

(٢) *Chronicon Moissiacense,* p. 166.
Recueil des Historiens de France, II, p. 655.
Fregedarii Scolastici Continuatio, dans Recueil des Historiens de France, Op. cit. II p. 456.
ويسمى العرب في ذلك النص الاسماعيليين :
Denuo rebellante gente validissima Lsmahelitarum, irrumpenteque Rhodanum Flu- = vium...

وقد لبث قارله ساكناً أثناء ذلك كله ، ولم يفكر في المسير للقاء المسلمين مع نهمه إلى الأرض وطمعه في توسيع سلطانه بأي سبيل ، وبدلاً من ذلك أسرع إلى أقطانية حينما بلغه موت أودو سنة ٧٣٥ م وأرغم ابنه على حلف يمين الولاء له . ولا يعلل انصرافه عن العرب وتجنبه لقاءهم إلا بأنه قد ذاق مرارة الحرب معهم وعرف جلدهم وقدرتهم فصار يتجنبهم ، وقد رأيناه يتخوف تتبعهم بعد موقعة البلاط مما يدل على أن تجربة « البلاط » لم تكن عسيرة على العرب وحدهم ، بل على قارله أيضاً . وكان هو أعرف الناس بأنه لولا تفطنه إلى حيلة مهاجمته معسكر الغنائم لما استطاع كسب معركة البلاط ، وقد كان يقود المسلمين فيها بطل من أبطالهم هو عبد الرحمن الغافقي ، وهو جيش وحده .

١١٥ - إخضاع إمارات البرت

وكان عبد الملك بن قطن قد اطمأن إلى جهد قائده في أربونة ، فلم يتجشم عناء المسير نحو الردانة ، فوجه همه نحو إمارات جبال البرت[1] ليكسر شرة أهلها ، وكانوا كما رأينا قوماً جبليين شديدي المراس قد ضروا على حروب الجبال والعصابات ولم يكن قد أخضعهم إلى ذلك الحين أحد ، وقد لقي عبد الملك في الحروب معهم بلاءً شديداً وهزموه في معركة كبيرة لا تذكر المراجع زمانها أو مكانها ، وكان بطبعه رجلاً سيء السياسة عنيفاً ظلوماً ، فلم تلبث الشكوى منه أن وصلت إلى افريقية واتصلت الى دمشق ، وانضافت إلى ذلك هزيمته فعجلت بعزله . وكانت ولاية إفريقية قد صارت إلى عبيد الله بن الحبحاب ، فعجل بعزل عبد الملك وبعث على الأندلس مولاه عقبة

=

PAPON : *Hist. de Provence,* I, p. 85.

M. DE LAGOY : *Description de Quelques médailles inédites de Massilia* (Aix, 1834) p. 23.

REINAUD, *Op. cit. pp. 54 - 55.*

(١) لم تكن جبال ألبرت إذ ذاك فاصلاً بين غالة وإيبيريا كما هي اليوم فاصل بين فرنسا وإسبانيا ، وإنما قامت فيها إمارات تمتد على جانبي الجبال في غالة وإيبيريا ، وهذه الإمارات هي النويات التي نشأت حولها فيما بعد ممالك نبرة وأرجون .

ابن الحجاج السلولي ، وكان أفضل من عبد الملك من كل وجه[1] .

كان عقبة بطبعه رجلاً مجاهداً ، مثله في ذلك عبد الرحمن الغافقي ، وكان قد اختار ولاية الأندلس لأنها « موضع جهاد » كما قال[2] ، وكان مسلماً صلباً عادلاً متفانياً في القيام بأعباء منصبه الجديد ، وكان عبد الملك قد أفسد الأمور ونفر أهل الأندلس ، عرباً وغير عرب ، مسلمين وغير مسلمين ، فصرف عقبة همه إلى اقرار الأمور وإشاعة العدل في الناس ، ثم تجرد للغزو في شمالي الجزيرة ، وصرف همه أول الأمر نحو الثائرين في أشتريس ، فلما أوفى على غايته في هذه الناحية انحدر إلى الشرق ، فنزل سرقسطة وتوجه منها نحو البرتات وغالة .

١١٦ ـ عقبة السلولي يجدد نشاط الفتوح في غالة

كان المسلمون بعد أن ثبتوا أقدامهم في پروڤانس تحصنوا في المدائن الكبرى وحولوها إلى رباطات ثم جعلوا يرقبون الحوادث . فلما أقبل إليهم عقبة بحماسه ورغبته في الجهاد نهضوا معه نحو ناحية الدوفينية (Dauphiné) واستولى عقبة على سان ـ پول ـ تروا (Saint-Paul-Trois-Chateaux) ودونزير (Donzaire) وخربوهما . ثم اتجه نحو الشمال في جرأة وحزم فاستولى على ڤالانس وخرب جميع الكنائس المحيطة بڤيين (Vienne) ، وكان من معه من الجند ينتظرون هذه الفرصة بفارغ الصبر ليدركوا ثأر معركة « البلاط » ، فمضوا معه يشتدون لا يكادون يقابلون شيئاً عامراً إلا خربوه .

---

(١) REINAUD : *Op. cit.* p. 55.

ويذكر رينو في نفس الموضع أن الخليفة أبقى لعبد الملك ولاية الثغور الشمالية في الأندلس ومنطقة البرتات ، ولا نعرف المصدر الذي استقى منه هذا الكلام ، وكل ما نعرفه هو أن عبد الملك بقي في الأندلس بعد عزله وأنه كان يتمتع بمركز ممتاز بين اليمنيين في الأندلس ، وقد ظل يدبر على عقبه حتى وثب به في أخريات أيام ولايته واسترد ولاية الأندلس من جديد كما نعلم .
الأخبار المجموعة ، ص ٢٧ ـ ٢٨ .

(٢) Gallia Christiana : I, 703 - 737.
REINAUD : *Op. cit.* p. 57.

١١٧ ـ إعادة فتح بورجونيا

وصعد بهم عقبة مع ردانة حتى أعاد فتح إقليم بورجونيا كله ، واستولى على ليون من جديد ، وامتد جناح المسلمين الشرقي في إقليم دوفينيه حتى وصل إلى بيدمنت في شمالي إيطاليا ، وبدا أن المسلمين مستعيدون مراكزهم كلها في غالة عن قريب[١] .

هنا تحرك قارله للعمل من جديد ، وكانت حروبه مع أعدائه في شمال أوستراسيا وشرقها قد انتهت إلى هدنة مؤقتة سنة ٧٣٧ م واستطاع التفرغ للسير نحو الجنوب ، فعجل بإرسال أخيه شلدبراند (Childebrand) ـ ساعده الأيمن في كل حروبه ـ في جيش كثيف نحو أبنيون ، وكتب إلى لويتبراند (Luitbrand) ملك اللومبارد في شمال إيطاليا يسأله المسير لمهاجمة جناح المسلمين الشرقي المتحصن في جبل بيدمنت . وانحدر شلدبراند مع الرون حتى وصل أبنيون وبدأ حصارها ، وكان المسلمون قد أحكموا تحصينها فعجز الجيش الفرنجي عن اقتحامها ، واضطر قارله إلى المسير بنفسه في جيش جديد ، وشدد الأخوان الحصار واستعانا بآلاته ، وتقدم لويتبراند في نفس الوقت وهاجم المسلمين عند بيدمنت ، وأمام هذا الضغط الشديد لم يستطع المسلمون الاستمرار في الدفاع عن أبنيون ، ولكنهم لم يسلموا البلد واستماتوا في الدفاع عنها حتى اقتحمها الفرنجة عليهم . ويصف صاحب ذيل مدونة فريجداريوس استيلاء قارله على البلد بقوله :

« . . . وأحاط كارولوس (قارله) بالبلد وحاصر أسوارها حصاراً حديدياً (in modum Hierico) بجيش ضخم وأبواق ذات أصوات عالية وآلات حرب وأدوات مفزعة مركبة على الأسوار ، وحفرت حول الأسوار خنادق ، وتواترت على البلد جيوش جرارة فلم يلبث البلد أن سلم »[٢] .

---

(١) Callia Christiana: I, 703-737 REINAUD; OP. Cit. P. 57

(٢) PAULUS DIACONUS, Lib. VI *apud Achbar* Machmua., p. 167.

ونصه :

... Cum machines et restium funibus super muros et aedium moenia irrunt, urbem succedunt, hostes capitiunt interficientes trucidant...

وخلف لويتبراند لوحة عند بافيا أشار في بضعة أبيات نقشها عليها إلى ما صنعه مع العرب في شمال =

ثم تقدم الجيش الفرنجي نحو أربونة معقل العرب الرئيسي في غالة ، وتذكر المراجع النصرانية أن قائده كان يسمى أثيمة (Athima) وربما كانت صحته « هرثمة » . وتذكر المدونات اللاتينية أن أمم ألبرت وثبت بالمسلمين من جديد وقطعت مواصلاتهم مع الأندلس ، فلم يبق للقوات الاسلامية في غالة إلا أن تتصل بمراكزها الرئيسية في إسبانيا عن طريق البحر ، فعجل عقبة بن الحجاج بإرسال مدد عن طريق البحر يقوده قائد عربي يسميه إيزيدور الباجي (Amor) وصحته عمرو أو عمر على الغالب ، فنزل المدد على شاطىء غالة في موقع قريب من أربونة ، فأسرع قارله للقائه ، والتقى به يوم أحد على شاطىء نهير البر (Berre - Birra) على بضعة فراسخ من أربونة ، ويذكر صاحب مؤرخة مواسياك أن القائد العربي كان قد تحصن على ربوة عالية واعتمد على كثرة جنده ولم يتخذ الحيطة ، ففاجأه قارله على غرة وأنزل به هزيمة قبيحة استشهد فيها عمر نفسه ، ولم ينج ممن معه إلا عدد قليل استطاع بعضهم الوصول إلى أربونة ودخولها ، وحاول الباقون الهرب في المراكب فتعقبهم الفرنجة في مراكب صغيرة وأصابوا كثيرين منهم[1] .

١١٨ ـ قارله يفشل في الاستيلاء على أربونة

وعاد قارله يشدد الحصار على أربونة ، واستبسلت حاميتها الاسلامية فلم يدرك الفرنجة منها على طول الحصار منالاً ، فاضطر قارله إلى رفع الحصار والتقهقر إلى الشمال . ويبدو أن أهل غالة الجنوبية وقفوا منه موقف العدو ولم يعينوه على ما طلب من

= إيطاليا بقوله :

Deinceps termuere feroces
Usque Saraceni, quos dispulit impiger, ipso,
Cum dremerent Gallos, Carolo poscente juvari
cf : **SIGONIUS**, *de Regno Italiae*, anno 743.

(1) وأما تفصيل حصار قارله لأبنيون فقد ورد في :

Fregedarii Continuatio III, *apud Achbar Machmua* pp, 168 - 169.
Recueil des Historiens des Gaules, II. p. 486.
REINAUD, *Op. cit.* pp. 57 - 59.
Continuatio Scolastici Fregedarii III, Loc. cit.
Chronicon Moissiacense apud Achbar Machmua pp. 165 - 166.

إخراج المسلمين ، مما يدلنا على أن ما تذكره الروايات النصرانية عن مساءاتهم في النواحي التي دخلوها إن هي إلا مبالغات قساوسة ومزاعم رهبان نصارى . فأراد قارله الإنتقام من أهل غالة ليعزي نفسه عن فشله أمام حصون أربونة ، فعسفهم عسفاً شديداً ، وخرب حصون بيزييه وأجدة ونيمة . وقد لقيت هذه البلدة النصرانية الأخيرة من الويلات على يد قارله شيئاً كثيراً ، فهدمت أسوارها وأطلقت فيها النيران ، وفعل قارله مثل ذلك بمجلونة (Magallona) وكانت إذ ذاك من المدن الزاهرة في هذه الناحية . وعاد إلى الشمال ومعه كثير من أسرى المسلمين وعدد من كبار الغاليين ، أخذهم معه كرهائن ليضمن بهم إرغام أهل نواحيهم على التخلي عن عون العرب ، مما يدلنا على أن أهل غالة الجنوبية كانوا يفضلون المسلمين على الفرنجة ، وذلك طبيعي ، لأن الفرنجة كانوا إذ ذاك أجلافاً قساة بعيدين عن كل تمدن ، لا مقارنة بينهم وبين المسلمين أصلاً في مسائل الحكم والتنظيم .

ويؤيد المؤرخ رينو ذلك بقوله : « ومن المؤكد أن سلطان قارله كان مبغضاً إلى أهل غالة الجنوبية ، لأنهم كانوا يفخرون بأنهم احتفظوا بجزء من النظم الرومانية وحضارتها ، فكانوا ينظرون إلى أهل الشمال نظرتهم إلى متبربرين همج لم تزايلهم طوابع الجلافة الجرمانية . ولم يستطع رجال الدين على الخصوص أن يغفروا لقارله استبداده بممتلكات الكنائس . وكان العرب في تقدمهم قد استولوا على معظم الكنائس والأديرة ووضعوا أيديهم على ممتلكات هذه المؤسسات ، فلما أقبل قارله وأخرج العرب لم يعد إلى رجال الدين ممتلكاتهم ، وإنما فرق الأراضي والمنازل على جنوده ، فأثار ذلك استنكار الأتقياء وظل معظم الأسقفيات والأديرة خراباً لقلة تعهدها بالعناية . ويذكر التاريخ ڤيليكاريوس (Vilicarius) أسقف ڤيين الذي حاول ، بعد خروج العرب من المدينة ، أن يسترجع ممتلكات أسقفيته ، فلما وجد أنها تفرقت في أيدي غير رجال الدين غادر بلده ومضى إلى دير القديس ماوريكيوس (سان موريتز الآن) . ولم تصلح هذه الأخطاء إلا

خلال الأعوام التالية شيئاً فشيئاً ، في حكم بيبين وشارلمان »[1] .

١١٩ - العرب وأهل غالة

وعبارة رينو تفسر لنا سر كراهية أهل غالة الجنوبية للفرنجة ، ولكنها لا تفسر لنا سر ميلهم إلى المسلمين ومؤازرتهم إياهم ، وليس لذلك إلا تفسير واحد لم يشأ المؤرخ أن يذكره ، وهو أن المسلمين كانوا يحترمون الدين وأصحابه ، ولم تمتد يدهم بالأذى إلى أموال الناس فيما دخلوه من البلاد إلا بقدر ما اضطرتهم إليه الضرورات العسكرية . وقد رأينا المسلمين ينصفون الناس في الأندلس ولا يكادون يؤذون رجال الدين أو المؤسسات الدينية، فمن عجب أن تتغير خطتهم دفعة واحدة بعد دخولهم غالة! وقد كان قائدهم اذ ذاك رجلاً اشتهر بالعدل وإيثار الحق هو عقبة بن الحجاج السلولي الذي تجمع المراجع النصرانية نفسها على الثناء عليه، ومن أسف أن مراجعنا العربية تضن علينا بسطر واحد ينير أمامنا الطريق في هذا الموطن المبهم ، إلا عبارة يسيرة عن سلوك عقبة تؤيد ما قلناه ، تقول إن الرجل كان إذا أسر الأسير لم يقتله حتى يدعوه إلى الاسلام ويبين له فضائله ، فأسلم على يديه ألفا رجل بذلك[2] ، مما يأذن لنا في القول إن عقبة ومن عمل تحت إمرته من المسلمين كانوا يؤثرون الرفق حتى مع الأسرى (وكان مصيرهم القتل في قواعد الحرب في تلك الأيام) فكيف بأهل المدن والأرياف الذين يستسلمون ويؤدون الجزية دون حرب ؟ وكيف ولدينا البرهان الساطع على حسن تصرف المسلمين مع أهل هذه النواحي من انضمامهم إلى المسلمين ومؤازرتهم إياهم على ملك الفرنجة وأودو وغيرهما من طواغيت الجرمان ؟ وحتى كتابات الرهبان ـ على تعصبها الشديد ـ تفيض بالشكوى من مساءات الفرنجة وملكهم قارله ، وقد كتب معظمها بعد هذه الحوادث بسنوات ، أي في ظلال أمبراطورية شرلمان ، فلا بد أن كتابها خففوا كثيراً من مساءات قارله ، وأما ما فيها من الأقوال عن

---

(١) انظر عن هذه التفاصيل مدونة مواسياك والذيل الثالث لمؤرخة فريجيداريوس في المواضع المشار إليها
cf : CHARVET : *Hist de la Sainte Eglise de Vienne,* p. 147.
REINAUD : *Op. cit.* pp. 59 - 61.

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ٢ ص ٢٩ .

أفاعيل المسلمين فمبالغات تقرب من الأساطير ، ولا يستطيع التاريخ المنصف أن يقبل إلا القليل منها [١].

وكان الدوق ماورنت قد عاد إلى پروڤانس بعد انصراف قارله ، وعقد الخناصر مع المسلمين من جديد ، فتخوف قارله من عواقب ذلك وقرر المسير إلى الجنوب مرة أخرى لمحاولة القضاء على هذا الخصم العنيد . فانحدر سنة ٧٣٩ م مع أخيه شلدبراند ووجهتها ماورنت وبلاده ، واستوليا على ماسيليا (مرسيليا) قاعدة دوقيته وطرداه من البلاد ، وأقاما المحارس على الشاطىء المقابل لشواطىء اسبانيا وحالا بذلك بين العرب وبين الاسترسال إلى شرقي ردانة من جديد [٢].

بيد أن المسلمين لم يقفوا مكتوفي الأيدي أمام هذا التحدي ، وجعلوا همهم بعد ذلك نزول پروڤانس ودوفينيه من ناحية البحر . وأعانهم الحظ بموت قارله (٧٤١ م / ١٢٣ هـ) واضطراب الأمر من بعده حيناً حتى استقراره لابنه ببين الثاني ، ولكن ظروفهم لم تعنهم على الاستفادة من هذه الفرصة استفادة كاملة ، لأن فتنة البربر في الأندلس وإفريقية كانت إذ ذاك على أشدها ، فتوقفوا عن مدد حامياتهم في غالة(٣) .

وكان عقبة بن الحجاج قد توفي (صفر سنة ١٢٣ هـ / يناير ٧٤١ م) على ما رأينا ، وصار الأمر مرة أخرى إلى عبد الملك بن قطن : وثب عليه هو ومن معه من اليمنية واستبدوا بالبلاد وأشعلوا الأندلس ناراً ، ثم أقبل بلج

---

(١) راجع ما يقوله رينو في هامش ص ٦٣ :

« يبدو أن التفاصيل الواردة في تاريخ حياة القديس بوركاريوس Porcarius بخصوص أعمال التخريب التي أحدثها العرب في داخل إقليم پروڤانس تنصب على ما فعله المتبربرون في هذه النواحي حينما نزلوها بعد سنة ٨٨٩ م » .

وهي ملاحظة قيمة تؤيد ما قلناه ، وهو أن الرهبان نسبوا كل ما أحدثه المتبربرون الجرمان من التخريب في شمالي إيطاليا وجنوبي غالة إلى العرب . ويشير المؤلف إلى كتابات البولانديست (Bollandistes) بتاريخ ١٢ أغسطس ٧٣٧ م .

(٢) *Continuatio Fregedarii,* III, Loc. cit. REINAUD : *Op. cit.* p. 63.

(٣) REINAUD. *Op. cit.* p. 72.

والقيسيون ونازعوه الأمر وانتزعوا الإمارة وقتلوه ، فثارت اليمنية على كلمة واحدة .

١٢٠ ـ عبد الرحمن ابن علقمة اللخمي ينصرف عن غالة بجنده

وكانت قيادة المسلمين في غالة قد صارت إلى عبد الرحمن بن علقمة اللخمي على أوائل أيام عبد الملك بن قطن ، وكان عبد الرحمن يمنياً متعصباً فلم يكد يترامى إليه خبر مقتل عبد الملك حتى قرر المسير إلى قرطبة للانضمام إلى قطن وأمية ابني عبد الملك بن قطن، وأخذ معه معظم من معه من أنجاد الجند، حتى لتزعم المراجع العربية أن عدة من سار معه إلى قرطبة كانت مائة الف [1] . وهي مبالغة ظاهرة ولكنها تدل على أن غالة خلت من أنجاد مقاتليها من المسلمين ، فتضعضع مركزهم فيها نتيجة لهذا ، وكان ذلك من أقوى الأسباب في زوال أمر الإسلام من غالة جملة . وكان عبد الرحمن نفسه من خيرة قادة المسلمين وفرسانهم حتى لكان يلقب بـ « فارس الأندلس » وكان قيامه بقيادة جند الإسلام في غالة خير ضمان لثبات أمر الاسلام فيها ، فأما وقد انصرف بمن معه ، وألقى بنفسه في معمعة « المصارة » وفقد الآلاف من خيرة جنده فيها ، فلم يعد للمسلمين أمل كبير في الثبات فيها وراء ألبرتات ، خصوصاً وقد انتظم أمر الدولة الفرنجية واستتب الأمر لببين في أوستراسيا ودان له إبنا أودو صاحبا أقطانية بالطاعة ، وتمهد أمامه الطريق للتجرد لحرب المسلمين .

ولا غرابة والحالة هذه أن نقرأ في المدونات النصرانية أن كبريات مدائن سبتمانية مثل بزييه ونيمة ومجلونة تخلصت من الحكم الاسلامي ، وقامت فيها حكومات محلية من أهلها ، وكذلك حدث في إمارات ألبرتات مثل كنتبريه ونبرة ، خلعت طاعة المسلمين وصار أمر أهلها بأيدي أنفسهم [2] .

ولم يكد الأمر يستقر ليوسف الفهري والصميل (من ربيع الثاني سنة

---

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٤٣ .
وانظر أيضاً : ابن القوطية : افتتاح ، ص ١٦ .

(٢) REINAUD *Op. cit.* p. 77.

١٢٩ هـ / ديسمبر سنة ٧٤٦ م) حتى عجل يوسف بإرسال ابنه عبد الرحمن في بعث إلى نواحي ألبرتات لإقرار أمر الإسلام فيها من جديد ، فلقي مقاومة عنيفة ولم يوفق إلى شيء يذكر . وكانت المواصلات بين جند المسلمين في أربونة وأجنادهم في شمالي الأندلس قد تقطعت ، فطمع فيهم ڤايفر (Vaifre) ولد أودو الذي صارت إليه أمور أقطانية بعد نزاع طويل مع أخيه في سنة ٧٥١ م / سنة ١٣٣ هـ . وكان عبد الرحمن بن علقمة اللخمي قد عاد إلى أربونة بعد هزيمته مع اليمنيين في وقعة المصارة فتولى الدفاع عن أربونة ، ولكن أمره كان قد ضعف بسبب ما فقده من الجند في حروب العصبيات في الأندلس(١) .

١٢١ - بيبين الثاني يهاجم أربونة

وكان مركز بيبين قد قوي في غالة كلها بعد أن انحاز إليه البابا ونقل إليه التاج من آخر الميروفنجيين (سنة ١٣٣ هـ / سنة ٧٥١ م) فبادر بالمسير في جيش كبير نحو أربونة عام ١٣٣ - ١٣٤ هـ / ٧٥٢ م . وأعانه الحظ بوجود حليف قوي من قوط جنوبي غالة يسمى أنسموندوس (Ansemundus) كان سلطانه يشمل بلدان نيمة وأجْدة ومَجَلُّونة وبزييه فسلمها إليه ، وبهذا لم يبق أمام بيبين إلا أن يوجه قواته كلها نحو أربونة ، فتقدم وحاصرها فترة من الوقت ، ولم يلبث أن استبان مناعتها وصعوبة الاستيلاء عليها ، فتركها وخلف أنسموندوس ليمضي في الحصار . ودارت الحرب بين أنسموندوس والمسلمين ، فلم يلبثوا أن أوقعوا به : فاجأه كمين منهم وقتله ، وحلت مجاعة شديدة بجنوب غالة كله ، فلم يستطع جند الفرنجة الاستمرار في حصار أربونة ، فاضطروا الى الانسحاب منها ونجا البلد من خطر الحصار هذه المرة أيضاً(٢) .

ولم يجد جديد في أمر أربونة خلال السنوات السبع التالية ، لأن أهل الأندلس شغلوا بأمر عبد الرحمن الداخل وتأسيس دولته ، فظلت حامية البلد قائمة بالدفاع عنها معتمدة على نفسها دون أن يعمر قلوبها أمل في وصول

---

(١) REINAUD, *Op. cit.* pp. 76 - 77.

(٢) *Cronicon Moissiacense.* Loc. cit. REINAUD, *Op. cit.* p. 78.

نجدات من المسلمين ، ولكن الحظ أعانهم باشتغال بيين عنهم بما دهاه من الثورات في بلاده ، فظلت أربونة وبعض نواحي سبتمانية ثغراً إسلامياً يقوم للأندلس الإسلامي كالدرع الحصين دون أن يفطن أهل الأندلس إلى هذا الدور الخطير الذي لعبه هؤلاء المسلمون المنعزلون في هذه الناحية القاصية يحيط بهم الاعداء من كل ناحية .

ولم تغب عن عبد الرحمن الداخل أهمية هذا الثغر ، فلم يكد الأمر يستقر له حتى أسرع في سنة ١٤٠ هـ / سنة ٧٥٨ م بإرسال بعث قوي يقوده قائد تسميه المراجع النصرانية سليمان[1] ، ولكن التوفيق أخطأ هذا البعث ، إذ دهمه رجال العصابات في ممرات جبال ألبرت الخطرة ومزقوه إرباً[2] . وكانت هذه آخر محاولة قام بها الأندلس لإنقاذ آخر معاقل الاسلام في غالة ، إذ روعت هذه الكارثة عبد الرحمن فلم يعد يفكر في أمر حامية غالة ، وشغلته الثورات الكثيرة التي تواترت عليه ولما يستتب سلطانه .

١٢٢ ـ سقوط أربونة (سنة ١٤١ هـ / سنة ٧٥٩ م)

فإذا كانت أربونة قد تركت لشأنها على هذا النحو المحزن ، ولم يعد أحد يفكر في نجدة أهلها أو استغلال موقعها الذي بذل المسلمون تضحيات كبرى للتمكن منه ، ودافعت عنه جماعات منهم بعد جماعات ثبتت كلها للهجمات المتوالية من جيوش الفرنجة ومن انضم إليهم من جماعات الجرمان قرابة الثلاثين عاماً ، إذا كان هذا حالها الذي صارت إليه ، فقد كان من الطبيعي أن يضعف أمر حاميتها

---

(١) ذكر ابن الأبار في الحلة السيراء رجلين من رجال دولة عبد الرحمن الداخل يسمى كل منهما أبا سليمان : الاول أبو سلمان حبيب بن عبد الملك بن عمر بن الوليد بن عبد الملك بن مروان ، والثاني قطيس بن سليمان بن عبد الملك بن زيان أبو سليمان الكاتب . والراجح أن المراد هنا هو الاول ، لأن ابن الأبار يذكر أن عبد الرحمن ولاه طليطلة واعمالها ، وقد توفي أبو سليمان هذا في عهد عبد الرحمن في حين توفي الثاني في عهد الحكم الربضي . انظر :

ابن الأبار : الحلة السيراء ، ص ٤٥ وما بعدها وص ٦٠ .

(٢) REINAUD, *Op. cit.* p. 81.

الى حد لا تستطيع معه الثبات . والواقع أن انتصار رجال العصابات على البعث الإسلامي الذي أرسل لنجدتها سنة ١٤٠ هـ / سنة ٧٥٨ م وتبيّن نصارى جنوبي غالة أن حامية أربونة وحاميات غيرها من المعاقل الإسلامية في سبتمانية باتت وحيدة منعزلة لا يزداد أمرها مع الأيام إلا ضعفاً ، فزاد طمعهم فيها وأخذوا يتربصون بها . فلما كانت سنة ٧٥٩ هـ شعر أهل أربونة من النصارى أن في استطاعتهم الوثوب بمن بينهم من المسلمين وإخراجهم منها ، وكان الفرنجة قد أرسلوا بعثاً حاصرها ، فتشجع أهل أربونة وانقلبوا على الحامية الإسلامية على حين غرة ، فقتلوا من أفرادها نفراً عظيماً وأسرعوا ففتحوا أبواب البلد للفرنجة ، وعجل بيبين بإرسال بعث قوي أكمل ما بدأ به أهل البلد ، وقضى على ما بقي للمسلمين من الجند في أربونة ، وبهذا ضاع هذا المعقل الإسلامي الفريد ، بعد أن ظل في يد المسلمين قرابة الثلاثين سنة يؤيد سلطانهم على سبتمانية ومعظم نواحي جنوبي غالة[1] .

١٢٣ ـ بقايا المسلمين في غالة

وبقيت من المسلمين بعد ذلك جماعات صغيرة تسيطر على بعض نواحي دوقية الدوفينيه وكونتية نيس ، واعتصمت جماعات منهم في شعاب الألب الغربية ، وظلت هذه الجماعات تقيم في هذه النواحي طوال عصر شرلمان ، وتذهب بعض نصوص ـ غير موثوق في صحتها ـ إلى أن تلك الجماعات الإسلامية استولت على جرينوبل في تاريخ غير محدد بالضبط . وقد ظلت هذه الجماعات الإسلامية مقيمة في هذه النواحي حتى نزل المسلمون شاطىء فرنسا الجنوبي مقبلين من صقلية وقرصفة بعد مائة

---

(١) وردت تفاصيل كثيرة عن هذا الحادث في قصة فيلومين PHILOMENE التي نشرها M. CIAMPI في فلورنسة سنة ١٨٢٣ تحت عنوان :

Cesta Caroli Magni ab Carcassonam et Narnonam

ويبدو ان هذا المرجع لا يمكن الاعتماد عليه ، لأن رينو يقول إن المؤلف يزعم انه كتبه بأمر شرلمان ، ولكن هذا الكتاب الذي كتب أول الأمر بالبروفنسالية الذي يضع المؤلف فيه في عصر شرلمان حوادث وقعت على أيام أبيه بيبين وجده قارله ، قد كتب في القرن الثاني عشر على الاغلب ولا يستحق اية ثقة :
REINAUD, op. cit. p. 81 et not I.

وثلاثين عاماً على ما فصلناه في دراسة أخرى[1] . ولكننا نستطيع القول إن تاريخ سيادة المسلمين في جنوبي غالة ينتهي بسقوط أربونة سنة ٧٥٩ ميلادية[2] .

١٢٤ ـ نتائج سقوط أربونة

وبعد أن سقطت أربونة تغير الوضع في شمال الأندلس الغربي تغيراً تاماً ، إذ رفعت الولايات النصرانية الواقعة في منطقة ألبرت رأسها وانتعشت بقيام الدولة الشرلمانية ، فقوي أمرها واستمدت العون من غالة ، وهنا يبدأ تاريخ « الثغر الإسباني » الذي نشأت عنه إمارة قطلونية (كتلونيا) فيما بعد ، وسنرى شرلمان بعد سنوات يعبر ألبرت ويحاول الاستيلاء على سرقسطة[3] .

وقبل أن نترك غالة وتاريخ المسلمين فيها ، لا بد من أن نتعرف أحوال المسلمين أثناء إقامتهم فيها ، والنظم التي ساروا عليها في تنظيم ما كان تحت سلطانهم من نواحيها .

١٢٥ ـ أحوال جنوبي غالة تحت الحكم الاسلامي

لا نملك عن ذلك الموضوع إلا معلومات عامة وأمثلة قليلة لا يؤمن القياس عليها . والثابت على أي حال أن مقام العرب في غالة لم يدم على هيئة مستقرة إلا نحو ثلاثين سنة ، وأن المسلمين لم يسيطروا فيها على مساحات واسعة يستطيعون أن يطبقوا عليها نظاماً ثابتاً كما كان الحال في الأندلس مثلاً ، ولو قد انتصر المسلمون في وقعة البلاط وتلاشت المقاومة الفعلية أمامهم لأخذت الأمور مجرى

---

(١) انظر : حسين مؤنس : المسلمون في حوض البحر الأبيض المتوسط إلى بدء الحروب الصليبية . مجلة الجمعية المصرية التاريخية سنة ١٩٥٤ .

(٢) REINAUD. *Op. cit.* p. 81 et note I.

ومراجعه :

Gallia Christiana, III, p. 1275.

M. DE COURCELLES : *Hist. généalogique des Pères de France.*

المواد الخاصة بـ Clermont - Tonnère, Agoult ، ولا يوافق رينو على كثير مما ورد في هذه المراجع .

(٣) REINAUD. *Op. cit.* pp. 81 - 82.

آخر : إذاً لنشأت ولاية جديدة في غالة ، ولأرسل عامل الأندلس إليها العمال والرجال . فأما وقد انهزم المسلمون في محاولتهم الكبرى فقد وقفت ممتلكاتهم في غالة عند وضعها الأول ، وظلت معتبرة ثغراً للأندلس فيما وراء ألبرتات ، يقيمون فيها ويحافظون عليها ليحموا ما وراءها ، ولينهضوا فيها للغزو إذا ما أمكنتهم الفرصة . والمعروف أن الولايات الإسلامية كانت تولد عقب الانتصارات العسكرية الكبيرة ، هكذا نشأت ولايات العراق والشام ومصر والمغرب والأندلس ، وقد كان يحدث أن يملك المسلمون أرضاً واسعة دون نصر حاسم ، كما ملكوا جزءاً من آسيا الصغرى ، فلم تنشأ ولاية إسلامية في آسيا الصغرى على الرغم من أن ما كانوا يملكونه من أرضها أيام الأمويين يزيد مرات كثيرة عن مساحة ولاية البصرة مثلاً .

ظلت فتوح المسلمين فيما وراء ألبرتات.معتبرة إذن ثغراً تابعاً للأندلس من الوجهة الادارية ، والأدلة كثيرة على أن عمال الأندلس اعتبروا سبتمانية ثغراً عسكرياً لا كورة إدارية ، وقد نشأ هذا الثغر في أيام السمح بن مالك ، فهو الذي افتتح اربونة ونيمة وأجدة ومجلونة ووصل بالفتح إلى ليون ، ولو لم ينهزم عند طولوشة لما اقتصر ثغر غالة على سبتمانية وبعض الأراضي الساحلية الواقعة شرقي الردانة ، ولجعل المسلمون عاصمة ثغرهم في أبنيون أو طولوشة أو غيرهما من كبار المراكز التي تسيطر على جنوبي غالة كلها ، فجاءت هذه الهزيمة قاضية على الآمال ، واضطر المسلمون إلى الارتداد إلى الجنوب والتحصن بناحية سبتمانية . وقد حاول عنبسة بن سحيم أن ينتصف لمقتل سلفه فقام بغارته الكبرى التي لم تزد على أن تكون مظاهرة عسكرية رائعة ولكنها قليلة الأثر ، ثم جاء عبد الرحمن الغافقي وأراد أن يفتح غالة فتحاً دائماً ، وأعد عدته لملاقاة النصرانية في معركة حاسمة فانهزم هو الآخر وقتل ، ثم جاء عقبة بن الحجاج وحاول أن يصل إلى ما فشل فيه عنبسة وعبد الرحمن فكان أحسن حظاً وإن لم يصل إلى نتيجة ، ومضى عن الولاية وأملاك المسلمين شمال ألبرتات لا تزيد عن إقليم سبتمانية .

١٢٦ - لماذا لم يوفق المسلمون إلى البقاء في غالة ؟

ومن الواضح أن ضعف مركز المسلمين في غالة إنما أتى من اقتصار معظم محاولاتهم على العبور إلى غالة من الأبواب والممرات الشرقية ، فانصرفت جهودهم كلها على الجنوب الشرقي لغالة وحوض ردانة ، ولو نفذوا من الغرب أيضاً من أول الأمر لسيطروا على أقطانية وأزالوا هذه الشوكة من جنبهم وثبتوا أقدامهم في جنوب غالة كله ، ولاستطاعوا أن يكونوا أثبت أقداماً في المعارك التي هزموا فيها على حدود هذه الدوقية عند طولوشة مرة وعند تور مرة أخرى . وربما كان سبب ذلك هو أن سلطان المسلمين لم يتمكن تماماً في الركن الغربي من جبال ألبرتات ، وظلت أقصى فتوحهم في هذه الناحية عند بنبلونة جنوبي ألبرتات ، وبقيت مساحات أخرى واسعة يسكنها أقوام جبليون ذوو مهارة حربية وجلد لم يخضعوا لسلطان المسلمين ، بل ظلوا يتربصون بهم الفرص ، لا يكاد يمر بهم بعث إسلامي إلا هاجموه وتخطفوا رجاله ، ولا أمكنتهم غرة في المسلمين إلا انتهزوها . وقد كان ترك المسلمين للسيطرة على هذه الناحية من آكد الأسباب في زوال سلطانهم عن منطقة ألبرتات وما صاقبها من الشمال والجنوب ، وستكون هذه النواحي مهداً تولد فيه الكثير من الولايات الإسبانية النصرانية التي ستناوىء المسلمين مثل أرغون ونبرة وشرطانية ورِيباجورثا وغيرها .. ولو قد اهتم المسلمون بإكمال إخضاع منطقة ألبرتات وتثبيت أقدامهم فيها لتمكنوا من القضاء على كل قوة مناوئة لهم فيها ، ولكان هذا أجدى عليهم من الاسترسال في مغازاة غالة لأن غزواتهم في غالة لم تؤتهم اي ثمر على الاطلاق ، في حين كان تمهيد الأمر في نواحي ألبرتات تمهيداً تاماً يؤمن الأندلس الإسلامي ، ويقطع كل سبيل لنصارى الأندلس في الاتصال بالجماعات النصرانية الكبرى في غالة وإيطاليا .

ولنلاحظ إلى ذلك أن المسلمين خانهم الحظ في الوقت الذي دخلوا فيه غالة ، فقد دخلوها في إبان قيام الدولة الكارولنجية وكانت أسرة فتية في طور التأسيس ، وكان رجالها يجتهدون في اخمال البيت الميروفنجي للاستحواذ على العرش من دونه ، وكانوا قد أنشأوا لأنفسهم جيشاً قوياً جمعوه من خيرة الفرنجة

ومن انضم إليهم من المتبربرين ، ومضوا يحاولون إخضاع غالة كلها وشمالي إيطاليا ، فأثارهم دخول العرب البلاد وتوغلهم فيها وغلابهم لكل من فكر في مناوأتهم من أهل الجنوب ، ولو قد فطن العرب للوضع السياسي في غالة وحالفوا أودو وغيره من أكناد الجنوب وأدواقه لكان حظهم أحسن ، ولكنهم كانوا يجهلون كل شيء عن الحال في غالة . ولهم في ذلك عذر : فقد بعدت بهم الشقة ، ولم يعد هناك سبيل لاتصالهم المباشر بقلب الدولة في دمشق ، وكان كل عماد المجاهدين في غالة على الأندلس وأهله ، ولم تكن أحوالهم قد استقرت بعد ، بل لم تكن أعدادهم كافية لسيادة الأندلس نفسه ، فكيف بقطر جديد تفصله عن الأندلس جبال وعرة مثل ألبرتات وتقوم فيه شعوب جديدة فتية ، يعمر نفوس أهلها من الآمال مثل ما كان يعمر قلوب المسلمين أنفسهم ؟

ولا ينبغي أن نظن أن المسلمين لم يفكروا في غزو غالة غزواً مستمراً والاستقرار فيها ، لأن الواقع أن نفوسهم تطلعت إلى فتحها فتحاً ثابتاً من أول الأمر ، ولا يسعنا ونحن نتأمل جهود الحر بن يوسف والسمح بن مالك وعنبسة ابن سحيم وعبد الرحمن الغافقي وعبد الملك بن قطن إلا أن نقرر أن هؤلاء القواد المقتدرين كانوا يشعرون أنهم يقومون بفتح منظم غايته إدخال البلاد في رحاب الدولة الاسلامية ، لا مجرد القيام بغارات سريعة لا هدف لها بعد الغنيمة كما يفهم من كلام بعض المؤرخين المحدثين . بل لعلنا لو قارنا السمح والغافقي وعقبة بن الحجاج بغيرهم من رجال الفتوح الإسلامية الأخرى لتبينا أن فتوح غالة كانت من أمجد الجهود الإسلامية الحربية ، وأن تضحياتهم في سبيلها من أغلى ما ضحوا به في فتوحهم . وقد رأينا تفانيهم في إتمام فتحها ، وتبينا أن تضحياتهم في سبيلها لا تقل روعة عن تضحياتهم لفتح الأندلس نفسه ، ولا نزاع في أن السمح والغافقي وعقبة يعدون جميعاً في طليعة قادة المسلمين العظام ، ولا نزاع كذلك في أن المسلمين ضحوا في سبيل غالة أكثر مما ضحوا في سبيل مصر مثلاً ، وأن من استشهد من المسلمين في نواحي غالة كانوا جديرين بفتحها ، لو لم يكن الأندلس نفسه مضطرباً هذا الاضطراب .

وربما بدا غريباً أن نرد معظم السبب في فشل المسلمين في فتح غالة إلى

اضـطراب الأحوال في الأنـدلس وبعد غـالة عن مـركز الـدولة الاسـلامية لا إلى الجشع في الغنائم كما يزعم بعض مؤرخي النصارى ، أو إلى قوة الدولة الفرنجية كـما يزعم بعضهم الآخـر . ولكن هذه هي الحقيقـة : فأمـا البعـد السحيق عن مركز الدولة فقـد حرم فـاتحي غالـة من توجيـه الدولـة وعون رجـالها الـسريع ، وحرمهم من إمداد العنصر العـربي الذي كـان قوام الفتـوح وعمودهـا الفقري ، ويكفي أن نذكر أن من دخل الأندلس من العرب كان قليلاً لا يكاد يكفي لسيادة الأندلس نفسـه ، وأن جزءاً عـظيـماً من هؤلاء استقـر في نـواحي الأنـدلس ولم يشتـرك في أعمال الغزو فيـما بعدهـا من البلاد ، يكفي أن نـذكر ذلـك لكي نتبين أن عـدد العرب في الجيوش الإسلامية الغازية في غالة كان قليلاً جداً . فأما غالبيـة الجند الإسلامي المحارب في غـالة فكـانت من البربـر ، وتدل الـدلائل كلهـا على أن أعداد هؤلاء البربـر كـانت عـظيمـة وإن لم تبلغ مئـات الآلاف كـما يـزعـم رواة أصحاب المدونات اللاتينية(١) ، والغالب أن معـظم من كان يهجـر إلى الاندلس من البربر كان يهجر إليها طمعاً في فضل الجهاد ومغانمه ، ولهـذا كانت جمـوعهم في الجيوش الغازية عظيمة ، وكان طمعهم في الغنـائم كبيراً كـذلك ، وقـد كان لهذا وذاك أثرهما البعيد في تطور أحداث الغزوات في غالة كما رأينا .

فإذا كانت نوايا المسلمـين الغازين في غـالة قـد انعقدت عـلى الاستقرار ، وطال مقامهم في سبتمانية نيفاً وثلاثين عامـاً ، فلا بـد أنهم وضعوا نـظاماً لإدارة النواحي التي خضعت لهم ، وليس لدينـا إلا إشارات عـابرة تعيننا على تكـوين فكرة عن هذا النظام . ويكفي أن ننبه إلى أن كـلامنا هنـا مقصور عـلى ما سـار عليه العرب في حـكـم سبتمانية فقط من النـظم خلال السـنوات الثلاثـين التي سيطروا فيها عليها واتخذوا أربونة عاصمة لهم .

١٢٧ ـ طبيعة الحكم الإسلامي في غالة

وطبيعي ألا يكون العرب قـد مضوا في حكم هـذه الناحيـة كما حكموا مصر مثلاً ، لأن مصر كانت ولاية مدنية في حين كانت سبتمانية ولايـة عسكريـة ثغريـة ، وكان المسلمـون ينظرون إلى

(١) انظر الفصل الرابع من كتاب رينو الآنف الذكر ، من ص ٢٢٩ فصاعداً .

هـذه الولايـة الثغـريـة نظرة تخـالف نـظرتهـم إلى الـولايـات المـدنيـة ، فكانوا أميل إلى التساهل مع السكـان في النواحي الثغـرية طمعـاً في كسبهـم إلى جانب المسلمين ، وكانوا كذلك أكثر كرماً على الجنود المقيمين في الثغـر منهم على المقيمين في الولايات المدنيـة ، فقد وزع عمـر بن الخطاب أراضي أقصى شـرقي فارس على فاتحيها من المسلمين وسماها الثغور الهندية ، وقد فعل ذلك استئلافـاً لقلوب هؤلاء الجنـود ولتقـويـة نفـوسهم عـلى سـداد ثغـرهـا . واعتبـر عمـر بن عبد العزيز الأندلس ولاية ثغرية، فأقر الإقطاعات فيها، وتسـامح المسلمـون مع أهل النواحي من النصارى فيه ، فمنحوا كل ناحية عهـداً بحريتهـا في كل شيء مـع اشتـراط أداء جـزية معينـة ، والخضـوع للحـاكم الاسـلامي الـذي يقيم في الناحية في بعض المسـائل الكبرى[1] .

١٢٨ ـ المسلمـون يعتبرون غـالة إقليماً ثغرياً

وقـد ذهـب رينو إلى أن المسلمـين عـاملوا سبتمـانيـة عـلى هـذا الأساس ، وقال إن العرب ساروا في حكمها على نفس الأسس التي قـرروها في صلحهم مـع قلمـريـة (Coimbra) في أقصى غربي الأندلس ، وإنما تخير قلمرية بالذات لأنها كانت أشبه بالثغر هي الأخرى ، ولأننا عثرنا على نص معاهدتها مع المسلمين كاملاً . وأهم ما في هذه المعاهدة هو أن يكـون لأهل قلمـريـة الحق في أن يحكمـوا أنفسهم بقـوانينهم التي تعـودوا أن

(١) موضوع حكومات المسلمين في الولايات الثغرية في حاجة إلى الدرس ، فقد كانت لها نظم خاصة تختلف كل الاختلاف عن النظم التي أقرها المسلمون في الأراضي المفتوحة . أما فيما يختص بثغرنا هذا ـ غالة . فيقول محمد بن مزين ، ونصه في غاية الأهمية لدراسة الموضوع كله ، والكـلام هنا منصب على الأندلـس : « . . . فبعث إليها السمح بن مالك عاملاً ، فوردها في جند سوى جندها الأول ، فأرادا النزول معهم في اموالهم ومشـاركتهم فيها بأيديهم ، فوفد لهم وفد على أمير المؤمنين عمر (ابن عبد العزيز) وشكوا إليه ذلك ، ورغبوا إليه في الرجوع إلى بلادهم ، وإدالتهم بمن ورد مع السمح ، فمنعهم من ذلك وأنسهم وعقد لهم واشهد في عقدهم على إقرارهم في اموالهم ، واقطع الواردين مع السمح إقطاعات غيرها ، وقال : هذه الثغور الهندية . لولا إقطاعات عمر بن الخطاب (رضه) الجند فيها لم يسـدوها ، فكيف بتلك الناحية ؟ فإنا نستخير الله في إجلاء المسلمين عنها . ثم إنه لم ينفذ ذلك ليبلغ الكتاب أجله . . . » .

انظر النص في :

DOZY : *Recherches*, I, app. I.p. V.

ينظموا بها أمورهم قبل مجيء المسلمين ، وأن يكون لهم حاكم منهم يقوم بالقضاء بينهم وينفذ الأحكام فيما عدا أحكام الإعدام إذ كان لا بد من عرضها على الحاكم الإسلامي المقيم . وكان هذا العامل المسلم يقيم في قلمرية ممثلاً لسلطان المسلمين ، ومعه حامية تؤيده وتحميه وتمنع النصارى من الانتقاض عليه ، فإذا وقعت خصومة بين مسلم وواحد من أهل البلاد كان لا بد من عرضها على الحاكم المسلم الذي يقضي في الأمر بمقتضى الشريعة الإسلامية ، وإذا اعتدى نصراني على مسلمة ألزم باعتناق الإسلام والزواج منها ، فإذا كانت متزوجة لم يكن له من الموت مفر[1] .

فإذا طبقنا أشراط هذه المعاهدة على سبتمانية استطعنا أن نقول إن الحامية الرئيسية كانت تقيم في أربونة ، وإن حامية إسلامية صغيرة كانت تقيم في كل بلد كبير من بلاد سبتمانية ودوفينيه وما خضع للمسلمين من دوقية أقطانية وحوض ردانة ، وهذه الحاميات تقوم بحماية المكان وإقرار السلام بين أهله وجمع أمواله . وكان للمسلمين إلى جانب ذلك جند غاز كبير يخرج للغزو مع العامل المقيم أو مع عامل الأندلس نفسه إذا أقبل .

١٢٩ ـ نظام الحكم في جنوب غالة

ولا نزاع في أن العرب خففوا عن أهالي هذه النواحي أعباء حكمهم إلى أقصى حد مستطاع ، وليس لدينا دليل مادي على ذلك ولكننا نستند في القول به إلى أمرين : الأول هو تعلق أهل هذه النواحي بهم ووقوفهم إلى جانبهم أمام الفرنجة ، وهذا أمر لم يكن ليحدث لو لم يكن المسلمون قد اجتذبوا أهل هذه النواحي بالتخفيف عنهم في كل شيء ، والثاني هو أن المسلمين كانوا أحلافاً لنفرٍ من أدواق هذه النواحي مثل ماورنت دون مسيلية (مرسيليا) الذي ذكرناه ، ولم يكن هؤلاء الأشراف ليثبتوا على الولاء للمسلمين إلا إذا كان هؤلاء قد أبقوا لهم على ما كان لهم من سيادة في بلادهم . ولنلاحظ أن أراضي هؤلاء الأدواق المعاهدين لم تكن منفصلة

---

(1) *cf* : REINAUD. *Op. cit.* pp. 272 Sqq.

والمراجع الواردة في الهوامش .

عـن أراضي المسلمـين ، أي أنهم لم يستقلوا بنـواحيـهـم عـن الـسـلطان الإسلامي ، بل اعترفوا به وأقامـوا معه : فقـد كان مـاورنت يحكم مسيلية ومـا حولها من أراضي دوفينية ، وقد أخضع المسلمون هذه النواحي ولكنهم لم يمسوا ماورنت ، فظل يحكم أهلها ويؤدي للمسلمين ما حق لهم من أموالها ، أي أنه كان شيئاً يشبه « زعيم عجم الذمة » و« قومس النصـارى » في الأندلـس ، مـع فرق ظاهر وهو أن زعيم عجم الذمة كان رجلاً مدنياً صرفاً تقتصر مهمته عـلى معاونة المسلمين على حكم البلاد ، وكان خاضعاً لعامل الأندلس خضوعاً تاماً ، ولم تكن له سيادة فعلية إلا في حدود ضيقة ، في حين كان « دوق عجم الذمة » في ناحية سبتمانية سيداً قوياً ذا جندٍ وسلطان ، وكان حليفاً للمسلمين لا خاضعاً لهم ، وكـان يتعـاون مـع المسلمـين في مهمتـين رئيسيتـين : إقـرار السـلام في الناحية ، ثم حمايتها من الفرنجة وحلفائهم .

١٣٠ ـ موقف المسلمين من المسيحية في غـالة

وقـد زعـم رينو أن المـسلمـين اضطهـدوا النصارى في سبتمـانيـة واستـولوا عـلى كنائسهم ، ولم يستنـد في ذلك إلى دليـل واحـد مباشر أو غير مبـاشر . ولسنا نـدري لماذا أصر عـلى الكلام عن هذه الناحية بهذا الأسلوب مع عدم وجود الدليـل ، وربما كـان الأصدق أن يقال إن المسلمين تركوا لأهل هذه النواحي حريتهم الدينية كـاملة كما فعلوا مع أهل الأندلس ، بل ربما كان الأقرب إلى المنطق هو أن مـوقفهم من النصرانية ورجالها في ناحية سبتمـانية كـان أكثر رفقـاً ، فقد كـان لهم حلفاء من النصارى ، وكانوا يحاولون كسب رجال الدين في جنوبي غالة لأن قـارله كـان قد أساء إليهم إساءات بالغة وانتزع أموال الكنائس وفـرقهـا عـلى جنـده ، وشـرد الكثيـرين من القساوسـة والأحبار ، ولا نـزاع في أن حال الكنـائس في النـواحي التي كانت خاضعة للفرنجة في جنوبي غالة كانت أسوأ من حالها في النواحي التي كانت خاضعة للمسلمين .

ساروا في ذلك على نفس الأسس التي ساروا عليها في الأندلس : أي أنهم تركوا الأرض التي فتحت عنوة في أيدي أصحابها وأطلقوا فيها الأسرى وفرضوا عليها مالاً يتراوح بين ثلث وربع المحصول، وأما ما فتح صلحاً فقد تقرر عليه العشر. ويستبعد أن يكون المسلمون قد ملكوا الأرضين واشتغلوا بالفلاحة في هذه النواحي لاضطراب الأحوال وعدم استقرار الأراضي في أيديهم أزماناً طويلة . وهذا فيما نظن كان من أقوى الأسباب في زوال أمر المسلمين من هناك ، لأن من كان فيها من المسلمين ظلوا مجرد جند قلق يقيم في المدن أو يخرج للغزو ، ولم تتح لهم الفرصة للانتشار في الأرض وامتلاكها والاختلاط بأهلها ونشر الإسلام فيهم وتعريبهم .

ولم يكن سقوط أربونة وما تلاه من الأحداث التي ذكرناها هو ختام تاريخ المسلمين فيما وراء ألبرتات ، بل استمرت بقاياهم وآثارهم هناك زمناً طويلاً وتجدد لهم تاريخ في جنوبي حوض ردانة بعد قرنٍ ونصف ، إذ نزلوا هذه الناحية من البحر ، ولكننا نقف عند هذا الحد الآن ونحيل القارىء على ما كتبناه في هذا الموضوع في بحثنا عن « المسلمين في حوض البحر الأبيض » .

وقد رأينا أن جهود المسلمين في هذه النواحي لم تكن بالقليلة ولا بالعابرة ، وإنما كانت جهوداً مضنية جادة قصد من ورائها إلى فتح غالة ومد رواق الإسلام على غرب أوروبا ، ولم يوفق المسلمون في ذلك للأسباب التي ذكرناها . ولا يقلل ذلك من قيمتها في ذاتها ولا من أهميتها التاريخية . وأبسط نتيجة نخرج بها من هذا العرض السريع هو أن المسلمين لم يدخلوا غالة غزاة نهابين لا ينظرون إلى شيء بعد الغنيمة . بل دخلوها فاتحين منظمين يريدون إدخالها في رحاب دولتهم وتحويلها إلى الإسلام ، ولو قد استقر لهم الأمر في غالة الجنوبية لاتجه نظرهم إلى ما وراءها ، ومن هنا كانت أهمية « بلاط الشهداء » في تاريخ النصرانية في غرب أوروبا ، فقد حالت بينها وبين الزوال فعلاً . ولا يمكن القول بأن المسلمين لو كانوا انتصروا في «بلاط الشهداء » وأقاموا حكم الإسلام هنالك لما منع ذلك النصرانية من أن تعود كما عادت في الأندلس ، لأن الذي

أعاد النصرانية في الأندلس هو عجز المسلمين عن فتح غالة ، وكانت نصرانية غالة هي نواة النصرانية في غرب أوروبا إذ ذاك ، ولم يكن يليها إلا شعوب وثنية ، أما البابوية في روما فلم تكن لتستطيع شيئاً ، لأنها هي نفسها كانت في حماية اللمبارد ، وكان أمرها إذ ذاك ضعيفاً لم يتقرر على النحو الثابت الذي نراها عليه خلال القرنين التاسع والعاشر الميلاديين(١) .

* * *

١٣١ - مقارنة بين المسلمين والفرنجة في غالة

ولقد أسرف الغربيون في تقدير أهمية « بلاط الشهداء » وقالوا إنها أنقذت حضارة غرب أوروبا أو المسيحية ووضعت حداً لسيادة الشرق على الغرب ، وما إلى ذلك مما يحلو الكلام فيه لمؤرخي أوروبا وفرنسا خاصة . والواقع أن هذه كلها مبالغات لا يقبلها الحكم التاريخي الصحيح فلم يكن الفرنجة الذين تصدوا لرد المسلمين عن غالة بأصحاب البلاد ، بل كانوا غزاة أغاروا عليها وتملكوها بحد السيف . فإذا كان المسلمون أغراباً عن غالة فقد كان الفرنجة أغراباً أيضاً ، ولم يكن لهم من الحق فيها أكثر مما لغيرهم . وقد كانوا يحكمون البلاد بالعنف والقسوة حكماً أجنبياً خالصاً، وكانوا يترفعون عن أهل غالة الأصليين (الغاليين الرومان) ويعتبرونهم مجرد رعية عليها الخضوع . بل لم يكن هؤلاء الفرنجة الساليون مسيحيين مخلصين ، وإنما كانوا ما يزالون أجلافاً متبربرين أقرب إلى الوثنيين منهم إلى أهل الكتاب ، وكانت وطأتهم على الكنائس شديدة وظلمهم للرهبان ورجال الدين عظيماً ، ولا شك أن المسلمين كانوا أقرب إلى روح المسيحية من أولئك المتمسحين . ولم يغلب الطابع المسيحي على الفرنجة إلا من أيام بيبين الثاني بن قارله بسبب تصديه لحماية البابوية من اللمبارديين حماية سياسية لا دينية ، وقد زاد ارتباط الفرنجة بالمسيحية على أيام شرلمان ، وهو أول ملك فرنجي مسيحي صادق . وقد كتب في أيامه الكثيرون من أصحاب المدونات النصرانية التي نقلت إلينا أخبار الصراع بين العرب والفرنجة على غالة ، وصوروا حروب قارله مع المسلمين على أنها حروب شارلمانية مسيحية ،

(١) *cf* : REINAUD. *Op. cit.* pp. 282 Sqq.

أي أنهم كتبوا عن عصر بروح عصر آخر ، ونسبوا إلى قارله ومعاصريه ما لم يكن يعرفه هو . فلم يكن الرجل يفكر في مصير المسيحية بقدر ما كان يفكر في مصير مملكته ، وقد رأينا أن موقفه من الكنائس والقسيسين لم يكن موقف الصديق ولا موقف الراعي المسيحي وإنما موقف الطاغية العسكري الذي لا يفكر إلا في ملكه وأمواله ومغانمه . وليس إلى الشك سبيل في أن السمح بن مالك وعبد الرحمن الغافقي وأمثالهما كانوا يعرفون عن المسيح والمسيحية أكثر مما كان قارله ورجال مملكته يعرفون . ثم إن المسلمين كانوا أهل دولة ذات نظم وقوانين وقواعد مقررة ، في حين كانت نظم الدولة الفرنجية في طور التكوين ، كانت أصول الحكم فيها تعتمد على قوانين الجرمان الأولى ، وهي شبيهة بقوانين العرب الجاهليين ، فلم تكن الحرب إذاً حرباً بين إسلام ونصرانية بقدر ما كانت صراعاً بين حضارة وجاهلية ، بين نظام وفوضى .

بل لم يكن الفرنجة الذين حاربهم المسلمون بأنصار الثقافة اللاتينية كما زعم مؤرخو الغرب ، فلم يكن الفرنجة يعرفون من اللاتينية شيئاً ، بل كان قارله نفسه لا يكتب اسمه ، لا باللاتينية ولا بغيرها (وكذلك كان شرلمان) وكان رجاله محاربين أجلافاً لا يفقهون من اللاتينية شيئاً ، بل لعلهم لم يكونوا قد سمعوا بعد بحضارة الرومان . ومن الثابت على أي حال أن الفرنجة والقوط الغربيين وأضرابهم من المتبربرين هم الذين أزالوا بقايا الحضارة اللاتينية من البلاد التي سيطروا عليها . وكان عليهم فيما بعد أن يتعلموا اللاتينية على أيدي رهبان ومعلمين أقبلوا من إيرلندة وبلاد الشمال . وقد بيّن هنري بيرين هذه الحقيقة بما لا يحتاج إلى مزيد من البيان ، وقد أوجزنا نحن آراءه في بحثنا الذي أشرنا إليه عن « المسلمين في حوض البحر الأبيض » .

وإذاً فلم تكن موقعة البلاط إنقاذاً للمسيحية والحضارة اللاتينية كما يذهب معظم مؤرخي الغرب ، فقد كانت المسيحية في حرج في غالة عندما دخلها المسلمون ، وكانت اللاتينية قد تلاشت منها . وهذا كله يلقي ضوءاً جديداً على مكان موقعة البلاط من التاريخ ، نعم إن المسلمين لو انتصروا فيها

لسادوا غالة وغرب أوروبا ولكان القرآن الكريم يدرس الآن في جامعة أكسفورد كما قال إدوارد جيبون ، ولكن انهزام المسلمين فيها لم يكن هو الذي أوقف تقدمهم ، لأنهم كانوا إذ ذاك قوماً مجاهدين « الموت أحب إليهم من الحياة » كما قال رسل هرقل عندما سألهم عن المسلمين ، وكانت الهزائم لا تعني في حسابهم شيئاً ، وقد رأيناهم ينهزمون المرة تلو المرة في إفريقية ، فلم يمنعهم ذلك من العودة والإصرار على الفتح . إنما الذي أوقف تقدم العرب هم العرب أنفسهم ، بما شجر بينهم من فتن العصبية وما صرفهم عن مواصلة الفتوح من أحقاد النفوذ وتفاهة النظرة الجاهلية إلى الحياة .

الفصل الثامن

قيام حركة المقاومة النصرانية

حينما وصلت جيوش الإسلام الفاتحة إلى لُكْ (Lugo = Lucus) وأوغلت في الجبال الصخرية المفضية الى سواحل كنتبرية القاحلة ، (Asturum) وأشرفت عند خيخون على خليج بسكاية[1] ، اعتقد قادة المسلمين أنهم فرغوا من افتتاح هذه الناحية ، وتحولوا بجهودهم إلى الركن الشمالي الشرقي من شبه الجزيرة فيما يلي الخط الممتد من برشلونة إلى (أمايَه) ماراً بلاردة وسرقسطة وتطيلة وقلهرة ونخرة وما يلي ذلك من منطقة ألبرتات وما إلى شمالها من أراضي غالة[2] . ولم يكن يخطر على بال موسى وطارق ـ ومن جاء بعدهما ـ أن الركن الشمالي الغربي القصي المسمى « جليقية » الذي خلفوه وراءهم دون فتح ـ استصغاراً لشأنه ـ إنما كان في الواقع حصناً لجأت إليه أعداد قليلة من بقايا القوط ، واطمأنت إلى الحياة في هضابه ووديانه ، وأخذت تنتظر الفرصة المواتية لتخرج منه وتنساح فيما يليه من الأرض رويداً رويداً ، لتكوّن لنفسها دويلة لا تزال تتسع بجهود أمرائها ومواتاة الظروف إياها حتى تصبح كتلة صلبة لن يستطيع العرب القضاء عليها ، ولا تزال أحداث الزمان تجري بها إلى سعود حيناً والى نحوس حيناً ، حتى تضعف دولة الإسلام في شبه الجزيرة ، فيتنفس أهل جليقية الصعداء وينقلبون من الدفاع إلى الهجوم ، ويتيح لهم المسلمون

---

(١) كان خليج بسكاية يعرف في العصر الروماني بالبحر الغالي الكنتبري الأكويتاني *Mare Gallicum Cantabricum Aquitanicum* انظر
FRANCISCO CONDEMINAS Y LUIS VISINTIN : *Atlas Historico de Espana*
الخريطة رقم ٤ من هذا الاطلس .

(٢) ابن عذارى : البيان ، جـ ٢ ، ص ١٨ .

الفرص بما أسرفوا فيه من الخصومات فيما بين أنفسهم ، حتى إذا هدموا دولتهم بأيديهم وانفرد كل فريق منهم بقطعة منها ، أقبل هؤلاء المتحصنون في الشمال يستعيدون من المسلمين البلاد بلداً بعد بلد ، حتى استخلصوا شبه الجزيرة كله من أيديهم ، بعد قرابة ثمانية قرون من الجهد والكفاح .

١٣٢ ـ انصراف العرب الى المنازعات عن صيانة دولتهم

وليس من الصواب في شيء أن يذهب الإنسان إلى أن العرب أخطأوا إذ تركوا هذا الركن القصي دون فتح ، فقد كان على أيام موسى هضبة مقفرة موحشة باردة لا أهمية لها من أية وجهة حربية أو عمرانية ، تحيط بها غابات كثيفة . وكان طبيعياً أن يخلفها العرب دون فتح . ولم تأتِ العلة ـ فيما بعد ـ من تركه ، بل من انقسام العرب أنفسهم وانصرافهم إلى منازعات الجنس والعصبية : فقد قضت هذه المنازعات على أعداد كبيرة منهم ، وصرفت جهودهم عن مراقبة الجزيرة والاستمرار في اليقظة على سلامة دولتهم فيها، بل أدت حروب العرب والبربر إلى مبارحة معظم البربر للنواحي التي كانوا قد استقروا فيها في الشمال الغربي الأقصى ، وانحدارهم إلى الجنوب ، بل إلى عودة أعداد عظيمة منهم إلى إفريقية على ما فصلناه ، فتخلفت وراءهم مساحات فسيحة من الأرض كان من الطبيعي أن يتقدم القوط والايبيريون الرومان للسكنى فيها دون خوف ، فاستعادوا بهذا الشكل نحو خمس شبه الجزيرة دون أن يفطن العرب إلى ذلك ، فإذا استوثقوا من أنفسهم في هذا الخمس فقد كثرت أعدادعم وتنسموا شيئاً من الرخاء أعانهم على الثبات للمسلمين وعلى ردِّهم عن بلادهم أولاً ، ثم شجعهم على التقدم نحوهم والإستيلاء على الأرض والبلاد من أيديهم فيما بعد .

١٣٣ ـ الريكونكيستا

وتسمى هذه الحركة في تاريخ إسبانيا بحركة «الاسترداد» la Reconquista ، والإسبان يعتبرون تطوراتها الحلقات الرئيسية لسلسلة تاريخهم القومي الذي يبدأ بضعة قرون قبل المسيح ، حينما هبط الفينيقيون شبه الجزيرة الإيبيرية ، ويتصل أثناء العصور الإغريقية والرومانية والقوطية النصرانية ، ويستمر خلال الفترة الإسلامية متمثلاً في هذه الدويلات

التي نشأت في الشمال ، وأخذت تتسع حتى قضت على دولة االإسلام في البلاد وأعادتها نصرانية كما كانت .

ولا شك في أن إطلاق تسمية « الريكونكيستا » على حركة المقاومة النصرانية منذ ميلادها في أوائل القرن الهجري الثاني (النصف الأول من القرن الثامن المسيحي) وربطها بحركة الاسترداد الحقيقي التي بدأت بصورة جدية محسوسة بعد زوال خلافة قرطبة وانتشار دولة الإسلام في شبه الجزيرة في أوائل المائة الخامسة للهجرة ، لا يخلو من خطأ ، لأن أشتريس إنما ولدت في ناحية لم يفتحها العرب قط ، فميلادها لا يعد بدءاً لحركة الاسترداد ، وإنما يعد ميلاداً لحركة المقاومة للسيادة الإسلامية . وقد بدأت حركة المقاومة هذه فعلاً في أواخر أيام « پلاي » على ما سيجيء ، ونشطت على أيام أذفونش الأول ، ولكنها وقفت بعد ذلك زماناً طويلاً ، ولم يتجدد نشاطها إلا بعد أيام المنصور بن أبي عامر . ومن هنا يجوز لنا أن نعترض على ما تجمع عليه التواريخ الإسبانية من أن حركة الاسترداد إنما كانت معركة دامت ثماني قرون la batalla de ocho siglos ، وقد اعترض على هذه التسمية نفر من معتدلي المؤرخين الإسبان .

وقد كان مؤرخو الإسبان ومن شايعهم من الأوروبيين ينظرون إلى الفتح الإسلامي على أنه حادث طارىء، طال زمنه ثم انتهى أمره دون أن يخلف في البلاد اثراً يذكر ، ولهذا كان هؤلاء المؤرخون يمرون بالفترة الإسلامية مروراً عابراً لا تظفر معه إلا ببضع صفحات من مؤلفاتهم . ولم يتبين الإسبان أهمية هذه العصور الإسلامية إلا من أواخر القرن الماضي ، ولم يعتبروها جزءاً هاماً مجيداً من تاريخهم إلا من أوائل القرن الحالي ، نتيجة لجهود طائفة من المستشرقين الإسبان ، لم يدخروا جهداً في كشف النقاب عن جمال هذه العصور الإسلامية وما قام خلالها من حضارات ، وما خلفته للإسبان وللحضارة البشرية من تراث مجيد .

فإذا كان هذا هو مكان حركة الاسترداد هذه من التاريخ الإسباني العام ، فلا بد لدارس التاريخ الأندلسي من الوقوف عندها بين الحين والحين ليرقب تطوراتها ، لأن العلاقات الحربية وغير الحربية بين المسلمين والنصارى في إسبانيا

تكوّن جزءاً هاماً من تاريخ العصور الاسلامية نفسها . بل ستكون هي الناحية الهامة الخطيرة من تاريخ هذه العصور ابتداء من القرن الخامس الهجري (الحادي عشر الميلادي) .

وطبيعي ألا نجد من مراجعنا العربية أي اهتمام كبير بمبادىء هذه الحركة ، لأنها كانت في أول الأمر خافية أو كالخافية ، لا يكاد يحفل لها مؤرخ يتتبع الحوادث الهامة ، وطبيعي كذلكَ أن تهتم بها المراجع النصرانية اللاتينية الإسبانية اهتماماً عظيماً ، لأن مصنفيها كانوا قساوسة ورهباناً عاشوا في مدائن الدول النصرانية الشمالية أو في العواصم الإسلامية ، ولكن اهتمامهم بها لم ينفعنا كثيراً لأن أسلوبهم في كتابة التاريخ في هذه الأعصر كان يقتصر على تسجيل قوائم من التاريخ والأحداث موجزة إيجازاً شديداً ومضطربة اضطراباً بالغاً ، ولهذا فإننا لا نستطيع الانتفاع بها إلا إلى حد محدود جداً .

لهذا كله كادت الحقائق الخاصة بتطورات هذه الحركة تضيع بين إهمال المراجع العربية واضطراب المراجع النصرانية ، وظلت مبادئها وتطوراتها في أدوارها الأولى نهباً مقسماً بين الغموض والأساطير ، وأصبح من العسير جداً أن نكتب في شيء من الثقة عن أول أبطالها المسمى بلاي[1] بن فافيلا وعن أول حوادثها الجسام التي تسميها المراجع بواقعة « كوفا دونجا » .

١٣٤ ـ الإيبيريون الرومان — وكذلك يحيط الغموض في مراجعنا العربية بحقيقة الأجناس التي كانت تسكن أشتريس وكنتبريه على أول أيام الفتح الإسلامي ، لأن أصحاب المدونات الإسبانية في العصور الوسطى يسمونهم « القوط » في حين يجعلهم العرب قوطاً أوجلالقة ، وهم يريدون بالجلالقة أهل الركن الشمالي الغربي لشبه الجزيرة الإسبانية ، والواقع أن هذه الناحية كانت تسكنها جماعات من الإيبيريين ، وهم جنس قديم أقبل إلى شبه الجزيرة من إفريقية واستقر فيها من أقدم العصور ، يمتاز بالنشاط والذكاء ويعتبر أساس

(١) Pelayo ، هذه هي الصورة الإسبانية لاسمه ، أما صيغته في اللاتينية فهي Polagius وقد آثرت استعمال الصورة الإسبانية لأنها اشيع ، ولأن هناك من المؤرخين من يقول بأنها الاصل كما سنرى .

سكـان شبه الجـزيرة كلهم ، وأمـا من أتوا بعـد ذلك فمهـاجرون اختلطوا بهـذا العنصر الإفـريقي الأصيل وأول من هـاجر إلى شبـه الجـزيـرة واختلط بـه جنس اوروبي قديم ـ جرماني في الغالب ـ هاجر إلى شبه الجزيـرة من الشمال في أعداد قليلة اختلطت بـالعنصر الإفريقي وتكـون منها العنصر المسمى بـالإيبيـري Los Iberos .

وتوالت الهجرات بعد ذلك على شبه الجـزيرة ، أهمهـا هجرة الكلت وقـد اختلط معظمهم بالإيبيريين ، وبقيت بعض جماعاتهم صافية في نواحي جليقية ، ثم نزلت البلاد جماعات من الفنيقيـين واليونـان ، ثم أعقبت ذلك مـوجة الفتح الروماني الذي شمل البلاد كلها ونظمها للمـرة الأولى تنظيـماً إدارياً ، وإلى هـذا الأثر العمراني تـرجع القيمـة العظيمـة لهذه المـوجة الـرومانيـة التي طبعت البلاد بالطابع الروماني ، حتى أصبح أهلها يعرفون بالإيبيريين الرومان من ذلـك الحين Ibero - Romanos ، فلما أقبل القوط لم يختلطوا بأهل البلاد ، فبقي سـكان شبه الجزيرة إيبيريين روماناً في حين كانت الطبقة الحاكمة من القوط[١] .

١٣٥ ـ صخرة بـلاي

تتفق المراجع العربية وغير العربية على أن فلولاً من القوط فرت أمـام الفاتحـين المسلمين ، ولا زالت تتقهقـر نحو الشمـال حتى اعتصمت منهم بـركن قصي من « جليقية » تسميـه المـراجـع العـربيـة « صخـرة بلاي » والإسبانية (Picos de Europa) في ناحية كنتبريـة القاحلة[٢] . وهنـاك

---

(١) *cf* : F. OLORIZ : *Distribucion geografico del indice refalico en Espana* (Boletin de la Royal Sociedad Geografica, Vol. XXXDI, 1894, primer semestre) pp. 294 - 299.

(٢) تسميها المراجع العربية في الغالب « الصخرة » اختصاراً ، وقد ترجمها لافوينتي إي ألكانترا أ مجاراة للمسلمين في تسميتهم .وهم يجعلونها في جليقية Galicia خطأ ، اذ انها في كنتبرية ، وهي أعلى قمم كنتبرية ارتفاعاً وابعدها إلى الشمال ، وهي الناحية التي تحصن بها بلاي ومن معه . وثـابت من المراجع الإسبانية ان « بلاي » وأصحابه احتموا من المسلمين في مغارة أونجا (Cova de onga) الواقعة في جبال « بيكوس دي ايروبا » ، وقد وصفها الكونت سان سو بقوله : « كتلة هائلة من صخر الجبل يتبين الإنسـان فيها ثلاث قمم : قمة إلى الشرق تسمى « أندارا » وثانية وسطى تسمى *Bulnes* وثالثة غربية تسمى قمة كوفا دونجا . ويبلغ متوسط ارتفاع الصخرة ٢٦٠٠ متراً .

cf : LE CONTE SAINT - SAUD : *Monographie des Picos de Europa, Etudes et Voyages,* Paris 1923.

اطمأن بها المقام ، لأن العرب عجزوا عن الوصول إليها واستصغروا شأنها ، ولم يجدوا على أنفسهم بأساً في تركها حيث هي . وتبالغ المراجع العربية في استصغار شأن هذه الأعداد ، فيقول عيسى بن أحمد الرازي مثلاً : « . . ولم يبق إلا الصخرة ، فإنه لاذ بها ملك يقال له بلاي ، فدخلها في ثلاثمائة رجل ، ولم يزل المسلمون يقاتلونه حتى مات أصحابه جوعاً ، وبقي في ثلاثين رجلاً وعشر نسوة ، ولا طعام لهم إلا العسل يشتارونه من خروق بالصخرة فيتقوتون به ، حتى أعيى المسلمين أمرهم واحتقروهم وقالوا : ثلاثون علجاً ، ما عسى أن يجيء منهم ! »[١] . ويقول ابن عذارى : « فما زال المسلمون يضيقون عليهم حتى صاروا ثلاثين رجلاً ، وحتى فنيت أزودتهم ولم يتقوتوا إلا بعسل يجدونه في خروق الصخرة ، وأعيى المسلمين أمرهم فتركوهم »[٢] . وانصرف المسلمون عن بلاي وأصحابه ، فاطمأن المقام بهم واختلطوا بأهل هذه الناحية من الإيبيريين الرومان ، فأخذت أعدادهم تتزايد ، وازداد أمرهم ثباتاً .

ومن الثابت أنه كان على رأس هؤلاء القوط الهاربين إلى « الصخرة » نفر من أهل بيت لذريق ونفر من كبار القوط وعدد آخر من القساوسة ورجال الدين الذين فضلوا الهجرة والعيش في هذه النواحي القاصية على العيش في البلاد التي فتحها المسلمون . ويذهب بعض المؤرخين إلى أن نفراً من هؤلاء الهاربين أخذ يفارق صخور كنتبرية ويعود إلى مواطنه الأولى بعد أن اطمأن إلى عدل المسلمين[٣] ، بل إن بعضهم تبع غيره من أهل البلاد ودخل في الدين الجديد ، ولم تحدد لنا الروايات تاريخاً لذلك وإن كنا نظن أنه حدث خلال ولاية عقبة بن الحجاج السلولي (أي بين سنتي ١١٦ و ١٢١ هـ) .

١٣٦ ـ مونوسة — ولا نعلم على وجه التحقيق كيف حكم المسلمون ما فتحوه من نواحي كنتبرية وجليقية مما يلي هذه الصخرة ، ولكن إشارات

---

(١) عيسى بن أحمد الرازي ، في نفح الطيب للمقري : جـ ٢ ، ص ٦٧١ ـ ٦٧٢ .

(٢) ابن عذارى : البيان ، جـ ٢ ، ص ٢٩ .

(٣) LEVI - PROVENÇAL: *Histoire de L'Espagne Musulmane*, I, p. 47.

متناثرة هنا وهناك تدل على أنهم أنـزلوا بهـا جماعـات من المسلمين معـظمهم من البربر ، أقاموا هناك مرابطين ومستقرين ، وكان يرأس هذه الجماعـات البربـرية رؤساء من بني جلدتها تتفق المراجع على ذكر واحد منهم هو مونوسة .

وقد سبق أن أشرنا إلى هذا الزعيم البربري عند كلاسنا عن حملة عبد الرحمن الغـافقي عـلى غـالـة ، وبقي أن نستكمـل الكـلام عنـه هنـا إذ إنـه كـان أكبـر قواد المسلمين في الركن الشمالي الغربي لشبه الجزيرة إذ ذاك .

وأقـرب الآراء إلى الصحة في أمـر مونـوسة أنـه كان من رؤسـاء الجنـد في جيش طارق بن زياد[١] ، والغالب أن موسى وطارقاً تـركاه حـاكماً عـلى أشتريس وما يصاقبها من نواحي جليقية ، ثم امتدت منطقة نفوذه بعد ذلـك حتى شملت شمـال شبه الجـزيرة كله[٢] ، فقـد رأينا صـلاته الـوثيقة بـالدوق أودو صـاحب أقـطانية وصهـره معه ، ومـا كان لـذلك الصهـر من أثر عـلى سير الأحـداث في غالة .

ويستوقف نظرنا أن المراجـع النصرانيـة الإسبانيـة تذهب إلى أن مـونوسـة تعلق بابنة بلاي وتزوجها ، كما أحب ابنة أودو وتزوجهـا[٣] ، كأنـه كان ذا ولـع

---

(١) SAAVEDRA, *Estudio*... p. 70.

(٢) ESTANSILAO RENDUELES LLANOS : Historia de la Villa de Gijon desde los tiempos mas remotos hasta nuestros dias (Gijon, 1867) p. 93.

(٣) عن علاقة مونوسة بابنة أودو انظر :

RODERIGO XIMENEZ DE RADA, *Historia arabum*. p. 12.

وعن علاقته بابنة بلاي انظر :

BARRAU DIHIGO : *Royaume Asturien*, pp. 117 - 118.

وورد في بعض الروايات أن ابنة أودو كانت تُسمى لامبيجيا ، ويبدو أن هذه التسمية من ابتكار القصاص .

وأورد كوند عن هذه الحوادث رواية أكثر تفصيلاً زعم أنه استقاها من مراجع عربية ، ولم نستطع تحقيق روايته هذه لأننا لم نجدها في أي من مراجعنا العربية ، وربما كانت من ابتكاره ،وتاريخه مليء بأمثال هذه الابتكارات . وفيها إلى ذلك خلط ظاهر ، فهو يزعم أن تحقيقه هداه إلى ان مونوسة إن هو إلا عنبسة (بن سحيم الكلبي والي الأندلس) وأنه نازع عبد الرحمن الغافقي على الولاية لأنه كان=

خاص بالوقوع في هوى بنات الأشراف والزواج منهن ! وقد علل بعض المؤرخين ذلك بافتراض وجود شخصين بنفس الاسم في هذه الناحية في ذلك الحين[1] ، وهو أمر مستبعد . والأصح أن يقال إن علاقات مونوسة مع أودو وزواجه بابنته اختلط أمرها على بعض الرواة والقصاص ، فجعلوها مع بلاي ، وأطلق القصاص لخيالهم العنان فقالوا إن مونوسة رأى ابنة بلاي وأعجب بها فاختطفها

= يعتقد أنه حق بها منه . ويقول إنه بينما كان مونوسة في إحدى غاراته إذ وقعت عينه على لامبيجيا فأخذ بجمالها وسعى حتى تزوجها ، وحالف أباها أودو . فلما أراد عبد الرحمن غزو غالة عارضه مونوسة في ذلك وأخذ جانب حميه أودو ، وأبى عبد الرحمن ان يقر المحالفة التي عقدها مونوسة وقال له ان لا حلف بين المسلمين والنصارى وان السيف وحده هو الحكم بينهم ، فسارع مونوسة وأبلغ أودو بعزم عبد الرحمن حتى يستعد له ويحمي بلاده منه . وقرر عبد الرحمن محاربة مونوسة عقاباً له على ما أخطأ في حقه وحق إخوانه المسلمين . وهاجمه على غرة ، ففر مونوسة أمامه وتحصن منه بالجبال مستصحباً معه زوجته لامبيجيا ، وما زال المسلمون يطاردونه من صخرة إلى صخرة حتى أثقلوه بالجراح ، اشتد به الجوع والإجهاد وتقاعس النصارى عن نصره بسبب أفاعيله معهم في أول أمره ، وانتهى أمره بأن سقط من شاهق واندقت عنقه فقطع المسلمون رأسه وبعثوا به إلى دمشق ، وأسروا لامبيجيا وأرسلوها إلى دمشق كذلك فضمها الخليفة إلى حريمه . وقد وقع ذلك لمونوسة في مكان يسمى بويكريدا Buycreda . وهي رواية مليئة بالخطأ لا نجد ما يؤيدها ، وإنما أوردناها لأنها تذكر ان مونوسة رأى ابنه أودو في إحدى غزواته فهام بها بالضبط كما حدث عندما رأى ابنة بلاي (على ما تزعم الأقاصيص) مما يدل على الوضع والاختراع فيما يتصل بعلاقة مونوسة ببلاي .

cf : CONDE : *Historia*. I, 83.

(1) LEVI - PROVENÇAL, *Histoire de l'Espagne Musulmane*. I, p. 42.

وقد انكر الأستاذ كوديرا وجود مونوسة إنكاراً تاماً ، وذهب إلى ان هذا اللفظ (Munuza) إن هو إلا تحريف للفظ ماسون (ويصححها كوديرا إلى Manresa) بليدة بجنوبي غالة غزاها الهيثم بن عبيد الكلابي كما يقول ابن عذارى (البيان المغرب ، جـ ٢ ، ص ٢٧) وقال ان القصاص ابتكروا القصة كلها ، فزعموا أن مونوسة كان زعيماً بربرياً وبنوا على زعمهم ذلك القصص كله ، وهو رأي ضعيف لم يقره عليهم الا بعض المؤرخين الإسبان مثل باليستروس ، وغالبيتهم اليوم لا تقره .

cf : F. CODERA : *Manuza y el duque Eudon en Estudios historicos de historia arabe espanola, Zaragoza* 1903. p. 135. Sqq.

BALLESTEROS : *Historia*..., II. pp. 9 - 10.

JUAN JAURGAIN : *La Vasconie*..., p. 34.

REINAUD : *Invasions*..., pp. 36 Sqq.

LEVI - PROVENÇAL : *Histoire*..., I. pp. 42 - 43 et notes.

وتزوجها . ولا يبعد على أي حال أن يكون مونوسة قد تزوج بعض نساء ناحيته أو تسراهن فكان هذا أصل أسطورته مع ابنة بلاي[1] .

وكل ما يمكننا استخلاصه من تلك الروايات هو أن مونوسة كان زعيم المسلمين المستقرين في أقصى شمال شبه الجزيرة ، وأنه كان ذا نشاط وهمة ، فاتصلت الأسباب بينه وبين أودو من ناحية وبلاي من ناحية أخرى، ونتيجة لطول الجوار نشأت بينه وبينهما ، وأودو على الخصوص ، علاقات صداقة زادت أواصرها عندما وقع النفور بين العرب والبربر .

١٣٧ - بلاي. وهنا ينبغي أن نسأل : من هو بلاي هذا الذي تذكره النصوص وتنسب إليه أعمالاً كثيرة جعلته في الطليعة من شخصيات التاريخ الإسباني ؟ نبدأ بروايات المراجع النصرانية عنه لأنها أوثق صلة بهذا الموضوع : يذكر أقدمها - وهي رواية مدونة البلدة (chronicon Albeldense) - أن بلاي كان ابن أمير قوطي يسمى برمودو (Vermudo) وابن أخي لذريق ، وأنه - أي بلاي - اختلف مع لذريق فنفاه هذا عن طليطلة قبيل دخول العرب البلاد ، فذهب إلى أشتريس وأقام نفسه أميراً عليها ، وأقام بلاطه في بليدة (Canicas = Cangas) تسعة عشر عاماً . ومات فيها سنة ٧٣٧ [2] . ورواية سبستيان السلمنقي أكثر تفصيلاً ، فهي تذهب إلى أنه عندما غزا العرب الاندلس هلك معظم القوط بالسيف أو بسبب الجوع ، وأن من نجا

---

(١) وقد تحدث إيزيدور الباجي عن مونوسة في شيء من التفصيل فقال إنه رجل من الجنس البربري uno ex Maurorum gente اشترك في فتح الأندلس وسار مع قوات المسلمين حتى اقصى الشمال وساهم في إخضاع ناحية شرطانية (Cerritania في اللاتينية و Cerdana في الإسبانية) وأظهر قسوة بالغة حتى لقد حرق الأمبادي أسقف شرطانية حياً ، واجتهد في نصرة الإسلام ، حتى إذا ترامت إليه أخبار ثورة إخوانه البربر في إفريقية انقلب على العرب وحالف أودو دوق أقطانية ، فرحب به أودو وزوجه إحدى بناته ليضمن عونه وعون من معه من البربر :

Et quia filiam suam dux francorum nomine Eudo Causa foederis ei in conjugio, ob persecutionem arabum differendam jam olim tradida.

(٢) HUICI : *Cronicas Latinas de la Reconquista. Chronicon Albeldense,* I p. 157.

من افراد بيتهم المالك فر بعضهم إلى غالة ، ولجأ معظمهم إلى أشتريس ، حيث أقاموا على أنفسهم بلايو ابن الدوق فافيلا اميراً ، وقد حكم بلاي تسعة عشر عاماً وتوفي سنة ٧٣٧ ، وألحد مع زوجته « جاوْدْ يوسا » في كنيسة سانتا اويلالياد فيلابينو[١] . وتضيف مدونة سيلوس (Chronicon Silense) أن بلاي كان حامل سيف لذريق (Spatarius regis Roderici) ، وأنه هرب إلى أشتريس حينما غزا العرب البلاد وتشرد في نواح غير معروفة منها (Vagabatur incertis Iocis) يجمع الناس لحرب المسلمين ، فلما اكتملت له العدة نازلهم وانتصر عليهم ، فأكبره القوط لهذا وأقاموه عليهم أميراً[٢] .

وأما تاريخ إسبانيا العام (Cronica general de Espana) الذي صنفه ألفونسو العاشر المعروف بالعالم ، فيذهب إلى أن بلاي كان ابناً « لفافيلا » دوق كنتبرية الذي كان الملك أجيكا قد نفاه من طليطلة ، فمضى إلى تودة Tuy واستقر فيها حيناً ، وهناك مات بسبب ضربة عصا كانت قد أصابته من يد غيطشة ، الذي كان يطمع في زوجته (أي زوج فافيلا) ، فلما صعد غيطشة إلى العرش نفى بلاي من طليطلة ، وأراد أن يفقأ عينيه ، ففر إلى كنتبرية ، وهناك تزعم أهل هذه الناحية ، ودعاهم إلى الوثوب بالعرب ، واستطاع الانتصار عليهم في معركة عند مغارة أونجا (la Cueva de Onga) سنة ٧١٨ م[٣] ويضيف لوقا التُّودي (Lucas Tudense) في تاريخ العالم (Chronicon Mundi) قصة تعلق « مونوسة » - الأمير المسلم على هذه النواحي ، وكان مقيماً في خيخون - بإحدى بنات بلاي مما أدى إلى الخصومة بين الرجلين ، ووقعت الحرب بينه وبين المسلمين ، فأقامه القوط ملكاً عليهم قبل لقائه إياهم وانتصاره عليهم في « معركة مغارة أونجا » ، وتوفي في كانجاس سنة ٧٣١ م بعد أن حكم ثمانية عشر عاماً ، ويذهب لوقا التودي كذلك الى أن فافيلا أبا بلاي كان ابناً

(١) HUICI, *Op. cit.* I, p. 206.

(٢) HUICI, *Op. cit.* II. p. 44.

(٣) *Primera Cronica General de Espana* (Madrid, 1906) pp. 303 - 499.

لشندسفنتو ، وربما زعم لوقا هذا رغبة منه في أن يجعل بلاي سليلاً للبيت القوطي[١] .

وأما الروايات العربية عن أصل « بلاي » فأكثرها تفصيلاً رواية « ابن حيان » التي يقول فيها : « قال غير واحد من المؤرخين : أول من جمع فل النصارى بالأندلس - بعد غلبة العرب لهم - علج يقال له بلاي من أهل أشتريس من جليقية ، كان رهينة عن طاعة أهل بلده ، فهرب من قرطبة أيام الحر بن عبد الرحمن الثقفي ، الثاني من أمراء العرب بالأندلس ، وذلك في السنة السادسة من افتتاحها سنة ٩٨ من الهجرة ، وثار النصارى معه على نائب الحر بن عبد الرحمن ، فطردوه وملكوا البلاد ، وبقي الملك فيهم الى الآن »[٢] .

ويذهب صاحب « الأخبار المجموعة » إلى أنه كان جليقياً من أهل أشتريس[٣] ، ويؤيده ابن خلدون في رأيه هذا ، ويقول : « إن أمم النصرانية أجفلت أمام المسلمين إلى سيف البحر من جانب الجوف ، وتجاوزوا الدروب وراء قشتالة واجتمعوا بجليقية ، وملكوا عليهم بلايه بن فافلة ، فأقام ملكاً فيهم تسع عشرة سنة ، وهلك سنة ١٣٣ ، وولي ابنه فافلة سنتين ، ثم هلك فولوا عليهم بعدهما أذفونش بن بيطرة الذي اتصل الملك في عقبه إلى اليوم ، ونسبهم في الجلالقة من العجم كما تقدم ، ويزعم ابن حيان أنهم من أعقاب القوط ،

---

(١) LUCAS TUDENSE. *Chrocrion Mundi, apud :*
SCHOTT *Hispaniae ilustratae Scripiores varii :* 17 n. 2 - 220, 695 n. I.

(٢) ابن حيان برواية المقري ، نفح الطيب : جـ ٢ ص ٦٧١ .

(٣) الأخبار المجموعة ، ص ٦١ .

ونص عبارتها : « . . . فثار أهل جليقية على المسلمين ، وغلظ أمر علج يقال له « بلاي » قد ذكرناه في أول كتابنا ، فخرج من « الصخرة » وغلب على كورة (هنا كلمة أسقطها الناسخ ولم يلحظ ذلك الناشر) وأشتريس . . . » وقد جعل تاريخ هذا الحادث سنة ١٣٣ هـ / ٧٤٠ م - ٧٤١ م) ولما كان من الثابت ان بلايه توفي سنة ٧٣٧ م (حوالي ١٣٠ هـ) فإن لافوينتي إي ألكانترا في تعليقاته على الترجمة الإسبانية للأخبار المجموعة يذهب إلى أن مؤلف « الأخبار » يخلط في هذه الفقرة بين أعمال بلاي وأعمال أذفونش بن بيطرة . . . وهو رأي معقول .

انظر الترجمة الإسبانية للأخبار المجموعة ، ص ٦٦ هامش ٥ .

وعندي أن ذلك ليس بصحيح ، فإن أمة القوط قد دثرت وغبرت وهلكت ، وقل أن يرجع أمر بعد اندثاره وإنما هو ملك مستجد في أمة أخرى والله أعلم »[1] . أي أنه يقرر مع المقري وصاحب الأخبار المجموعة إن بلاي جليقي من أهل الشمال ، وليس قوطياً ، ونلاحظ أن ابن خلدون لا يؤيد رأيه إلا بدليل استخرجه من فلسفته ، فلا يمكن ـ في رأيه ـ أن يكون الرجل قوطياً ، لأن ملك القوط قد اندثر ، ولا يمكن أن يقوم أمر أمة اندثرت ، وسنرى أن قانونه لم يصدق هذه المرة .

١٣٨ - كوفادونجا

ولم يكن أحد من المؤرخين لينتبه إلى « بلاي » هذا لو لم يقترن اسمه بصراع قصير مع العرب أعانه الحظ على التوفيق فيه ، فانتصر عليهم وأبعدهم عن النواحي التي كان يبسط عليها سلطانه . وقد بالغت المراجع النصرانية في تصوير هذا النصر ، وجعلته شيئاً أشبه بالفتح العظيم ، وزاده مؤرخو الإسبان تقديراً وإجلالاً مع الزمن ، فجعلوه بدءاً لصراعهم لإخراج المسلمين من بلادهم ، وإيذاناً بميلاد إسبانيا النصرانية من جديد . ومن هنا أهميته التي تحدونا إلى أن نقف عنده وقفة تتفق مع قدره في التاريخ الإسباني عامة .

تكاد المدونات اللاتينية الإسبانية كلها تجمع على ذكر هذا الانتصار ، وإن اختلفت فيما بينها في التفاصيل وتحديد التواريخ اختلافاً بيناً .

ومصدر هذه الروايات النصرانية كلها قصة طويلة أوردها « سبستيان السلمنقي » في تاريخه يقول فيها : « إن بلاي حينما انتهى به المطاف إلى ناحية « الصخرة » أعلن نفسه أميراً على ما يجاورها من النواحي واتخذ قرية كانجاس (Canicas = Cangas) مركزاً لأعماله ، وهناك أعلن الثورة على العرب وصارحهم بالعداء ، فأرسل إليه المسلمون جيشاً كبيراً يقوده قائد من كبار

---

(١) أورد « دوزي » نص ابن خلدون في ملاحق أبحاثه :
cf. DOZY : *Recherches* (3e éd.. 1881) I, appendice III, pp. X, XI.

قوادهم يسمى علقمة[١] ، فغزا أشتريس وتوغل في أرضها ، فلما سمع بلاي بذلك تحصن في جبل أوسبة Auseva في مغارة القديسة مارية Cova Sanctae Mariae التي تسمى كذلك « مغارة أونجا » فحاصره المسلمون وضيقوا عليه ، وكان معهم أبه (Oppas)[٢] أخو غيطشة الذي انضم إلى المسلمين لأشياء نقمها عليه ، فمضى أبه إلى بلاي ، وحاوره محاولاً إقناعه بالتسليم للمسلمين ، وأورد لنا سباستيان نص هذه المحاورة مفصلاً ، فلم يفلح في إقناعه ، فإذا فشلت هذه المحاولة فقد قام المسلمون بهجوم عنيف على الجبل والمغارة بالمعاول (Fundibala) والسهام ، وهنا حدثت معجزة : إذ كانت السهام ترتد نحو المسلمين أنفسهم ! وانتهت المعركة بهزيمة المسلمين وقتل ١٢٤ ألفاً منهم ، فيهم القائد علقمة نفسه ، وأخذ « أبه » أسيراً ونجا من المسلمين ثلاثة وستون ألفاً فروا هاربين ، فتسلقوا جبل أوسبة وانحدروا من الناحية الأخرى ، وساروا في خانق في الجبل يسمى خانق أنكورا (El Tajo de Ancora) وانحدروا إلى إقليم ليبانا (Liebana) ، وهنا حدثت معجزة أخرى : إذ إن الجبل انهار من الناحية المشرفة على مصب نهر الديفا (Deva) فطمر بقية المسلمين[٣] .

وتلي رواية سباستيان في الأهمية والطول رواية « مدونة البلدة » التي تذهب

---

(١) لم يرد ذكر علقمة اللخمي هذا على صورة صريحة في مراجعنا الإسلامية . ولكن وجود ابنيه عبد الرحمن وتمام يؤيد وجوده في الأندلس اوائل أيام الفتح ، فقد كان أولهما قائداً لقوات المسلمين في جنوبي غالة وكان من كبار اليمنية ، وقد قام بدور كبير في الحروب بين الشآميين والبلديين . وهو الذي قتل بلج بن بشر في معركة « أقوة برطورة » ، ويصفه صاحب « الأخبار المجموعة » بأنه كان : « يعد فارس أهل الأندلس » وأنه « كان فارس نجدة مع جودة الاتّقاء ، وعليه سلاح كريم لا يحيك فيه سيفٌ خُصَين (بن الدجن العقيلي) ، ـ انظر الاخبار المجموعة ص ٤٣ ـ ٤٤ . وكان الثاني من كبار موالي بني أمية في الأندلس ، وكان من الأعمدة التي أقامت ملك عبد الرحمن الداخل ، راجع نفس المصدر : ص ٧٥ وما بعدها .

وابن الأبار : الحلة السيراء ، ص ٣٣ وما بعدها .

(٢) هذه هي الصورة العربية لاسم Oppas كما أوردها صاحب الأخبار المجموعة (انظر ص ٨) وهو احد ابني غيطشة Witiza ملك القوط الذي غصبه لذريق العرش . وقد سماه ابن القوطية « عباس » .

(٣) AMBROSIO HUICI : *Las Cronistas Latinas de la Reconquista*, I, (Valencia 1913). *Sebastiani Chronicon. Pelagius* P. 206.

إلى أن ثورة بلاي حدثت في أيام يوسف الفهري ، وكان مونوسة حاكماً على أشتريس في ذلك الحين ومقيماً في ليون ، فسار نحو بلاي جيش إسلامي يقوده رجل تسميه المدونة ألقمان أو ألوامان (Aloaman =Alcaman = علقمان = علقمة ؟) وكان معه « أبه » فانهزم المسلمون وأسر « أبه » ، ومات مونوسة بعد ذلك بزمن . وأما الذين نجوا من القتل فقد هلكوا بناحية ليانا (Liebana) إذ انهار عليهم الجبل بإرادة الله[١] .

وورد ذكر الواقعة كذلك في « مدونة سيلوس » ، ولكن ما فيها إن هو إلا تكرار لما قاله سبستيان السلمنقي و « راهب البلدة » مع إضافات يسيرة . منها أن ثورة بلاي حدثت في بليدة (Cangas) ، وهو يسمى علقمة (Alchaman) ويقدر العرب بمائة وسبعة وثمانين ألفاً ، ويذكر أن معجزة انهيار الجبل حدثت على مقربة من نهر الديفا بناحية ليانا ، وأن مونوسة كان مقيماً ببلدة خيخون فهرب عندما سمع بخبر الهزيمة ، وقتله أهل هذه النواحي في قرية أولاليس (Olalies)[٢] .

وتكتفي مدونة كمبستيلة (Compostela) بالقول بأن بلاي طرد المسلمين من هذه الناحية واحتلها[٣] ، في حين لا تزيد مدونة « شرطانية » على أن المسلمين سادوا شبه الجزيرة كله إلا « مغارة مارية المقدسة »[٤] .

أما مراجعنا الإسلامية فقد أشارت إلى وثوب بلاي بالمسلمين في ناحية « الصخرة » ومحاولتهم القضاء عليه وهزيمته إياهم . وإشاراتها كلها موجزة غير دقيقة التحديد ، ولكنها تدل على فهم أصحابها لأهمية الدور الذي لعبه بلاي في تاريخ دول إسبانيا النصرانية والإسلامية أيضاً ، وما ترتب على نهوضه في وجه المسلمين وحربه معهم من النتائج البعيدة في تاريخ شبه الجزيرة كله : فعيسى بن

(١) A. HUICI : *op. cit. Chronicon Albedense*.I. p. 159.

(٢) A. HUICI : *op. cit. Monachi Silensis Chronicon*, II, p. 50.

(٣) A. HUICI : *op. cit. Chronicon ex Historiae Compostellanae Codice* I, p. 80.

(٤) A. HUICI : *op. cit. Chronicon Cerratensis*, I, p. 90.

أحمد الرازي يقول : « وفي أيام عنبسة بن سحيم الكلبي قام بأرض جليقية علج خبيث يقال له « بلاي » من وقعة أخذ النصارى بالأندلس ، وجدَّ الفرنج في مدافعة المسلمين عما بقي بأيديهم ، وقد كانوا لا يطمعون في ذلك»[1] مما يفهم منه أن الرازي كان يعتبر « بلاي » منشىء حركة المقاومة النصرانية ومجدد دولة النصرانية في الأندلس من جديد بعد تفرق أمرها على أول أيام الفتح ، وأن نهوضه بأمرها كان الحجر الأول في بنائها الجديد ، فقد قوي شأنها بعد ذلك ، ونهض أهلها إلى مدافعة المسلمين عما استولوا عليه ، بعد أن كانوا لا يطمعون في ذلك قبل ظهور « بلاي » . ولابن حيان ـ عميد المؤرخين الأندلسيين ـ رواية أخرى أدل على شخصية بلاي وقدره يقول فيها : « أنه في أيامه ـ أي أيام عنبسة بن سحيم الكلبي ـ قام بجليقية علج خبيث يدعى « بلاي » ، فعاب على العلوج طول الفرار ، وأذكى قرائحهم حتى سما بهم إلى طلب الثأر ، ودافع عن أرضه ، ومن وقته أخذ نصارى الأندلس في مدافعة المسلمين عما بقي بأيديهم من أرضهم والحماية عن حريمهم ، وقد كانوا لا يطمعون في ذلك . وقيل إنه لم يبق بأرض جليقية قرية فما فوقها لم تفتح إلا « الصخرة » التي لاذ بها هذا العلج ، ومات أصحابه جوعاً ، الى أن بقي في مقدار ثلاثين رجلاً ونحو عشر نسوة ، وما لهم عيش إلا من عسل النحل يجمعونه في جباخ معهم ، في خروق الصخرة . وما زالوا ممتنعين بوعرها إلى أن أعيى المسلمين أمرهم واحتقروهم وقالوا : ثلاثون علجاً ما عسى أن يجيء منهم : »[2] مما يفهم منه أن « بلاي » كان شهماً شجاعاً ، فهاله تراجع قومه المستمر أمام المسلمين ، فنهض يستنهض هممهم « ويزكي قرائحهم حتى سما بهم إلى طلب الثأر » وهي عبارة عظيمة المعنى والدلالة ، بل إن أحداً من مؤرخي إسبانيا النصرانية القدماء لم يقل مثل هذا القول الذي يحدد دور « بلاي » كواضع أساس حركة « الاسترداد » وصاحب الفضل الأول فيها .

وربما كان مؤرخانا الأندلسيان الكبيران ـ الرازي وابن حيان ـ أصدق نظراً

---

(١) عيسى بن أحمد الرازي برواية المقري : نفح الطيب ، جـ ٢ ، ص ٦٧١ .

(٢) رواه المقري في نفح الطيب ، جـ ٢ ، ص ٩ ـ ١٠ .

وأصح تقديراً لبلاي من عامة من تناول الحديث عنه من أصحاب المدونات النصرانية ، الذين لا تخرج رواياتهم عن مبالغات وتفاصيل بعيدة التصديق عن انتصار بلاي على المسلمين عند مغارة أونجا عند سفح جبل أوسبة (Auseva) ، وهو انتصار محقق لا تنكره الرواية الإسلامية ، ولكن مبالغات الروايات النصرانية تلقي عليه ظلاً من الشك ربما قلل من قيمته .

يقول صاحب « الأخبار المجموعة » بعد أن يشير إلى ظهور بلاي في ناحية الصخرة : « . . وغزاه أهل أستورقة زماناً طويلاً ، حتى كانت فتنة أبي الخطار وثوابة ؛ فلما كان في سنة ثلاث وثلاثين ومائة هزمهم وأخرج (يريد : أخرجهم) عن جليقية كلها ، وتنصر كل مذبذب في دينه وضعف عن الخراج[1] . وقُتل من قتل ، وصار فَلُّهم إلى خلف الجبل إلى أستورقة ، حتى استحكم الجوع فأخرجوا أيضاً المسلمين عن أستورقة وغيرها ، وانضم المسلمون إلى ما وراء الدرب الآخر ، وإلى قورية وماردة في سنة ست وثلاثين » . ويقول بعد قليل : « وكاد أن يغلب عليهم ـ أي على المسلمين ـ العدو ، إلا أن الجوع شملهم »[2] ونستخلص من روايته هذه الحقائق الآتية :

أولاً ـ إن « بلاي » خرج على المسلمين في ناحية أشتريس واستقل بها في ولاية عنبسة بن سحيم الكلبي .

ثانياً ـ إن جند المسلمين القائم في أستورقة حاولوا إخضاعه « زماناً طويلاً » دون أن يوفقوا .

ثالثاً ـ إن حركة الرجل أخذت في النمو ، حتى إذا وقعت فتنة أبي الخطار ، واشتغل المسلمون بحربه مع يوسف الفهري والصميل بن حاتم ، انتهز الرجل الفرصة وضاع جهده ، فهزم المسلمين هزيمة أخرجتهم عن جليقية جملة .

---

(١) هكذا في الأصل ، ولا يستقيم المعنى إلا إذا استغنينا عن حرف الجر « عن » .

(٢) الأخبار المجموعة ، ص ٦٢ .

رابعاً ـ إن صدى هذه الهزيمة تردد في نواحي جليقية كلها ، فعاد بعض من كان أسلم من أهلها إلى النصرانية ، وضعف الخراج تبعاً لذلك .

خامساً ـ إن أهل هذه الناحية انقلبوا على المسلمين فقتلوا منهم من استطاعوا قتله ، وفر الباقي إلى أستورقة ، ليحتموا بالعسكر الإسلامي المقيم هناك .

سادساً ـ ولم يضع بلاي الفرصة ، فتقدم وأخرج المسلمين من أستورقة واستولى عليها .

سابعاً ـ وانسحب مسلمو هذه النواحي عن طريقين : طريق الغرب إلى إقليم سرقسطة وطريق الجنوب إلى ماردة وقورية .

وسنرى بعد قليل أن صاحب « الأخبار المجموعة » خلط بين أعمال « بلاي » وأعمال « أذفونش الأول » ، وأن عمل بلاي لم يتعد الحقائق الأربع الأولى .

ويقول صاحب فتح الأندلس : « وقام علج خبيث من أعيانهم في أيام عنبسة هذا بأرض جليقية اسمه بلايه بن فافلة على من كان يملك أطراف جهته من العرب ، فنفاهم عنها . فملك سنتين ، ثم ملك ابنه فافلة بعده إلى سنة ثلاث وثلاثين ومائة ، ثم هلك فاستولى على أهل جليقية بعده أذفنش بن بيطرة جد بني أذفنش هؤلاء الذي اتصل أمرهم إلى اليوم »[1] . وهي رواية مختصرة فيها خطأ كثير في نسب بلايه وفي تحديد التواريخ ، ولكنها تقرر أن بلاي كان مستقلاً بناحيته عن المسلمين ثم ثار على من بأطراف هذه الناحية من العرب ، فهزمهم وطردهم عنها .

وللمقري رواية لا تقل عن هذه أهمية ، وإن لم يسندها إلى أحد ، وذلك حيث يقول : « قال غير واحد من المؤرخين : أول من جمع فل النصارى

---

(١) فتح الأندلس ، ص ٢٩ .

بـالأندلس بعـد غلبة العـرب لهم علج يقال لـه « بلاي » من أهـل أشتريس من جليقيـة ، كان رهينـة عن طاعـة أهل بلده ، فهـرب من قـرطبـة أيـام الحـر بن عبد الرحمن الثقفي ، الثاني من أمراء الغرب بالأندلس ، وذلك في السنة السادسة من افتتـاحها ، وهي سنـة ثمان وتسعـين من الهجرة ، وثـار النصارى معـه على نـائب الحـر بن عبـد الـرحمن فـطردوه ، وملكـوا البـلاد ، وبقي الملك فيهم إلى الآن »[1] .

وهي إشارة هامة تعيننا عـلى تكوين فكـرة عن حياة بـلاي قبل لجـوئه إلى الصخـرة وقيامـه بالثـورة على المسلمـين ، وهي تحـدد هـروب بـلاي من أيـدي المسلمـين بسنة ٩٨ هـ / ٧١٨ م وهـو تحديـد سيعيننا عـلى ربط أحداث حيـاتـه بعضها ببعض .

وقبـل أن نستخلص من هـذه الـروايـات كلهـا سلسلة واحـدة متـرابـطة الحلقات عن حياة « بلاي » وحركاته ، يجدر بنا أن نناقش التواريخ التي تقدمهـا لنا هذه الروايات .

ليس من اليسير مناقشة التواريخ المتضاربة التي يقدمها إلينا المؤرخـون عن هذه الحوادث ، لأن المؤرخين النصارى الذين يتحدثـون عنها يختلفـون فيما بينهم إختلافاً عظيماً ، فيجعلها « سبستيان » في أوائل أيام الفتح ، لأنه يـذكر أن قـائد البعث الاسلامي المنهزم كان « علقمة » وهو من قواد طـارق بن زياد ، في حـين يجعلها صاحب « مدونة البلدة » في ولاية يوسف الفهري ، أي بين سنتي ١٢٩ - ١٣٨ هـ / ٧٤٦ و ٧٥٦ م . أما مؤرخونـا الإسلاميون فلا يكـادون يتفقون هم الآخـرون فيما بينهم ، فـابن حيان والـرازي يجعلان ثـورة « بلاي » أثنـاء ولايـة عنبسـة بن سحيـم (١٠٣ - ١٠٧ هـ / ٧٢١ - ٧٢٥ م) ، في حـين يجعـلهـا صـاحب « الأخبـار المجمـوعـة » في بـدء ولايـة عقبـة بن الحجـاج السلولي (١٢٢ هـ / ٧٤٣ م) ويكتفي المقري بالقـول بأن بـلاي هرب من قـرطبة سنـة ٩٩ هـ / ٧١٧ م ، وأنـه كـان في أشتـريس في العـام التـالي (١٠٠ هـ /

(١) المقري : نفح الطيب ، جـ ٢ ، ص ٦٧١ .

٧١٨ م)، دون أن يـزيد عـلى ذلك شيئـاً . أما هـزيمة بلاي للعـرب فيجعلهـا صاحب الأخبار المجموعة وصاحب فتح الأندلس في أثناء ثورة البربر على العرب أي في أوائـل فتنـة أبي الخــطار والصميـل ، أي بعــد سنة ١٣٣ هـ / ٧٥٠ - ٧٥١ م .

وقد حاول أدواردو ساڤدرا أن يستخلص من هذه التواريـخ المتناقضـة رأياً لا بـأس من إيراده ، لأنـه يمثل الـرأي المتبع بـين عامـة المشتغلين بتـاريـخ هـذه الأحداث من الإسبان المحدثين .

يقول « ساڤدرا » : إن رواية المقري صريحة في أن بلاي هرب إلى صخرته (Picos de Europa) في سنة ٧١٧ م ، وأنه كان هناك فعـلاً في سنة ٧١٨ م في ولاية الحر بن يوسف ، ويعود ابن حيان والرازي فيؤكـدان أن بلاي قـام بثورتـه في ولايـة عنبسة ، أي بـين سنتي ٧٢١ - ٧٢٥ م ، وهذا تـاريـخ معقـول ، لأن بـلاي لا بد أن يكـون قد أنفق هـذه السنوات في جمـع الأنصار والقيـام بغارات صغيرة ومناوشـات مع المسلمـين أقلقت بالهم ، ففكـروا في إرسال بعث لتـأديبه والقضاء على حركته . وحيث أن سبستيان يذكر أن وقعة « كـوڤادونجا » كان في أوائل أيام الفتح ، لأنه يذكر اسم القائد علقمـة - الذي تؤيـد المراجـع العربيـة وجوده في هذه الأيام - فإن أقرب الفروض إلى الصحة أن علقمة هذا سار لحرب بلاي في ولاية عنبســة ، وهناك حـدثت الوقعـة ، وانهزم هذا البعث الإسلامي واستشرى أمر بلاي بعد ذلـك ، ولكن ظروف المسلمـين لم تسمح بـإرسال قـوة لتأديبه إلا بعد ذلك بنحو اثنتي عشر سنة ، أي في ولاية عقبة ، وهذا ما أشارت اليه المراجـع الإسـلاميـة من قيام عقبـة بن الحجاج بحملة تـأديبية تتبعت بـلاي ورجاله بالحرب حتى كادت تفنيهم ، ورجعت وهي تظن أن الرجل وأنصـاره لن تقوم لهم بعد ذلك قائمة ، ولهذا اختفى اسم بلاي حتى من المراجع النصرانية ، فلم نجـد لـه ذكـراً إلا سنـة ٧٣٧ م وهـو عـام وفـاتـه الـذي تحـدده المـراجـع النصرانية[١] .

---

(١) EDUARDO SAAVEDRA : *Pelayo, Conferencia historica.* Madrid 1906.

ولنا على هذا الرأي استدراك :

ذلك أن سبستيان السلمنقي لم يحدد تاريخاً لواقعة «كوڤادونجا» وإنما ذكر أنها كانت في أوائل أيام الفتح . فليس هناك ما يدعو إلى القول بأنها حدثت أثناء ولاية عقبة بن الحجاج بالذات . وربما كانت أيام عقبة هي أبعد الأيام احتمالاً لوقوع هزيمة إسلامية على يد النصارى في الأندلس ، لأن الرجل كان محارباً لا يمل القتال ، وقد استنفد أيامه في الحروب مع النصارى ، وظل يتتبع الثائرين في جليقية حتى خيل إليه أنه قضى على كل أمل لهم في القيام على المسلمين من جديد ، ثم انصرف بعد ذلك إلى الناحية الشمالية الشرقية ودخل بنبلونة[1] وما يليها من البلاد شمالاً ، ولو قد هزم له بعث على يد بلاي لما انصرف عنه ولواصل قتاله . والثابت من الروايات النصرانية والإسلامية أن بلاي تتبع المسلمين بعد انتصاره عليهم حتى أخرجهم من بلاده ، ولا يمكن أن يكون ذلك قد وقع على أيام عقبة . والمراجع الإسلامية صريحة كذلك في أن بلاي طارد المسلمين وأخرجهم من بلاده أثناء فتنة أبي الخطار والصميل أي بعد سنة ١٣٣ هـ / ٧٥٠ ـ ٧٥١ ميلادية .

بيد أن هذا لا يتفق وما تجمع عليه الروايات النصرانية من أن « بلاي » توفي سنة ٧٣٧ ميلادية ، وهي في مجموعها لا تستند على دليل واحد يؤيدها في هذا التحديد . بل إن ألفونس العاشر يجعل وفاته قبل ذلك بست سنوات أي سنة (١٢١ هـ / ٧٣١ م) أي أثناء ولاية عقبة بن الحجاج السلولي ، مما يدلنا على أن تحديد تاريخ وفاة بلاي بهذه السنة لم يخل من أن يناقضه مؤرخ مطلع

---

(١) يقول ابن عذارى عن أعمال عقبة الحربية : « وهو الذي فتح مدينة أربونة ، وافتتح جليقية وبنبلونة وأسكنها المسلمين . وعمت فتوحاته جليقية كلها غير « الصخرة » . فإنه لجأ إليها ملك جليقية وكان بها ثلاثمائة راجل فما زال المسلمون يضيقون عليهم حتى صاروا ثلاثين رجلاً وحتى فنيت أزودتهم ، ولم يتقوتوا إلا بعسل يجدونه في خروق الصخرة ، وأعيى المسلمين أمرهم فتركوهم ، وأقام عقبة بالأندلس بأحسن سيرة وأجملها وأجمل طريقة وأعدلها إلى أن غزا أرض إفرنجة . . . » ـ البيان المغرب ، جـ ٢ ، ص ٢٩ ، وليس في هذا كله إشارة إلى هزيمة ، ولا احتمال انكسار اي بعث إسلامي .

كهـذا الملك العالم ، الـذي قرأ كـل التواريـخ التي كتبت قبله ولم يقر مـا أجمعت عليه .

ثم إن ابن خلدون ـ وقـد اعتمد عـلى الـرازي وابن حيـان فيـما كتب من تاريخ ملوك الجـلالقة ـ يجعـل وفاة بـلاي سنة ١٣٣ هـ / ٧٥٠ ـ ٧٥١ م أي في نفس السنـة التي يؤكد صـاحب الأخبار المجمـوعة أن بـلاي هزم المسلمـين فيها وأخرجهم من جليقية . ولما كان الرازي وابن حيان وصـاحب الأخبار المجمـوعة هم أقدم من حفظ لنا أخبار هذه الفترة البعيدة ، فإننا أميل إلى الأخذ بـرأيهم ، ومتابعتهم في القول بأن واقعة كوڤادونجا وقعت سنة ١٣٣ هـ / ٧٥٠ ـ ٧٥١ م أثناء فتنة أبي الخطار والصميل ، وأن « بلاي » لا بد أن يكون قد توفي بعد ذلك بقليل ، في أواخر ٧٥١ م على الأرجح(١) .

وقـد لاحظ دوزي أن التواريـخ التي تحددهـا المدونـات اللاتينيـة لأحداث هـذه الفترة لا يمكن تـأييدهـا ، وفضل عليهـا روايتي الـرازي وابن حيـان ، ولم يرض كذلـك عن التواريـخ التي قدمهـا ابن خلدون وختم كلامـه عن موضـوع تاريخ حوادث هذه الفترة بقوله : « إنه لمن العسير جداً ـ إن لم يكن من المحال ـ أن نحل إشكالاً من هذا النوع ، إذ ينقصنا الخيط الذي يدلنا على طريق الخروج من هذه المتاهة »(٢) .

وهو على حق ، فليس لدينا ما يقنعنا بقبول ما تجمع عليه غـالبية المـراجع النصرانية من جعل وقعة كوڤادونجا سنة ٧١٨ م وجعـل وفاة بـلاي سنة ٧٣٧ م ولا يذكر لنا مؤرخونا الإسلاميون هذه الواقعة محددة باسم أو بتاريخ ولو تقريبيين لها . ثم إن منطق الحـوادث لا يستقيم إذا نحن فرضنـا أن بلاي هـزم المسلمين على أيام عنبســة أو على أيـام عقبة : فلو قلنـا إن الهزيمـة وقعت في أيـام عنبســة لضاعت قيمتها كنصر حاسم رد المسلمين عن بلاد أشتريس ، لأن عقبة أتى بعد

(١) تذهب « مدونة البلدة » إلى أن كوڤادونجا وقعت سنة ٧٥٦ م أي أثناء الصراع بين عبد الرحمن الداخل ويوسف الفهري ، وقد أخذ بروايتها ماسديو ، فذهب إلى أن الـوقعة حـدثت في تلك السـنة .

cf : J. F. MASDEU : *Historia Critica* , *I. pp. 55 Sqq.*

(٢) DOZY, *Recherches,* I, p. 96.

ذلك وغزاها حتى ألجأ بلاي إلى « الصخرة » ، ولم يبق له إلا عدد قليل من الأنصار ، أي أن «كوڤادونجا» لم تكن الوقعة الفاصلة التي ردت المسلمين عن تعقب النصارى ، بل عادوا إليها وأوغلوا أكثر مما فعلوا من قبل ، وانصرفوا عنها بعد ذلك بسنوات من تلقاء أنفسهم ، لأن عقبة اضطر إلى مغادرة الأندلس إلى إفريقية ، كما يقول باليستروس(1) ، فلا يكون والحالة هذه لكوڤادونجا ولا لبلاي فضل في ارتدادهم أو في ميلاد أشتريس ، ولا تكون « كوڤادونجا » والحالة هذه إلا مناوشة خسرها المسلمون وعادوا بعدها إلى الظفر .

ولما كانت الروايات النصرانية وما بين أيدينا من الروايات الإسلامية تجمع على أن انتصار بلاي على المسلمين كان حاسماً ، وأنه اعقبه إخراجهم من جليقية ، فلا مفر لنا من القول بأن هذا الانتصار حدث بعد أيام عقبة ، وفي أوائل فتنة أبي الخطار وثوابة بن سلامة العاملي أي في سنة ١٣٣ هـ / ٧٥٠ ـ ٧٥١ م أو فيما بعدها ، ولا محيص لنا في هذه الحالة من جعل وفاة بلاي بعد ذلك بقليل في نفس السنة ، تمشياً مع تحديد ابن خلدون لسنة وفاته .

فإذا انتهينا من تقرير أحداث حياة « بلاي » وتحديد تواريخها ، فلنعرض حياته وما قام به من الأعمال المستخلصة من مجموعة ما لدينا من المراجع الاسلامية والنصرانية .

نستطيع أن نقبل ما يذكره ألفونس العاشر ـ الملك العالم ـ من أن « بلاي » كان ابناً لفافيلا دوق كنتبرية ، وأن فافيلا (Fafila) هذا كان قد استقر في تودة (Tuy = Tude) ـ عاصمة كنتبرية في ذلك الحين ـ بعيداً عن البلاط القوطي في طليطلة ، لأن نزاعاً قام بينه وبين الملك « أجيكا » (Egica) فلما مات هذا الأخير وخلفه غيطشة ، تجدد النزاع بينه وبين « فافلة » ، إما لأن غيطشة طمع

---

(1) BALLESTEROS, *Historia...*, II, p. 181.

وهو خطأ : لأن عقبة أقام بالأندلس حتى انتهت ولايته نهاية غير واضحة ، وقد تتبعت مرجعه الذي أشار إليه ، وهو الأخبار المجموعة ، فلم أجد فيه ذكراً لهذا ، لا في الأصل ولا في الترجمة الإسبانية ولا في التعليقات عليها : الأصل العربي : ص ٢٨ ، الترجمة الإسبانية : ص ٣٨ ـ ٣٩ .

في زوج فـافلة (أم بـلاي) أو لسبب آخـر ، والمهم هـو أن النـزاع ثـار بـين الـرجلين ، وفر فـافلة مـرة أخـرى إلى كنتبـريـة حيث مـات هنـاك مخلفـاً ابنـه « بلاي » .

فلما وثب لذريق بغيطشـة وآله ، انضم إليـه « بلاي » وأعـانه عـلى إدراك العـرش ، فكافـأه على ذلـك بأن جعله « حـامل سيفـه » (Spatarius) واستمر « بـلاي » على هـذا حتى فتح العـرب الأنـدلس ، فكـان ممن وقعـوا في أيـديهم أسرى ، فاحتفظوا به لديهم في قرطبة رهينة .

ولما كانت أيام الحر بن عبـد الرحمن بن يـوسف الثقفي ، عامـل الأندلس بـين سنتي ٩٧ و ١٠٠ هـ / ٧١٧ ـ ٧١٩ م . أمكنت بلاي الفـرصة ، ففـر من قرطبة ، وتشرد في نواحي شمالي الأندلس فتـرة من الزمن ، وتنقـل في أشتريس حتى استقر به المقام في بليدة « كانجا دي أونيس » ، وهنـاك التف حولـه نفر من القـوط الهاربـين من المسلمـين ونفـر من الإيبيريين الـرومـان المقيمـين في هـذه الناحية ، فأخذ يحرضهم على الوثوب بالعرب ، ويعيب عليهم طـول الاستسلام والتراجع أمام المسلمين حتى استنهض هممهم ، وجمعهم على الوثوب بهم .

وكان عامل المسلمين على نواحي أشتريس القائـد البربـري « مونـوسة » ، فوقعت بينه وبين بلاي مناوشات ، وظل مونوسة يحـاربه ويـطارده حتى ألجأه إلى التحصن « بالصخرة » في عدد قليل جداً من أنصاره ، ولو ظل مـونوسـة مكانـه لقضى عـلى بلاي في ذلـك الحين ، ولكن نـزاعاً وقـع بينه ـ أي بـين مونـوسـة ـ وعبد الرحمن الغافقي ، فحاربه وما زال به حتى قتله على يد قائده البربـري «ابن زيان » سنة ١١٣ هـ ٧٣١ م .

وخلا الجو أمام « بلاي » بذلك ، فتشجـع وخرج من « الصخـرة » وأخذ في التـوسع حتى استـولى على خيخـون التي كان « مـونوسـة » يقيم فيها ، وبسط سلطانه على إقليمي أشتريس وكنتبرية ، واتسع ملكـه ، وأخذ ينـازع من جاوره من الأدواق ، حتى شـمل سلطانه جزءاً من جليقية وناحيتي أشتريس وكنتبرية .

فلما ولي الأنـدلس عقبة بن الحجـاج السلولي (١١٦ ـ ١٢٣ هـ / ٧٣٤ ـ

٧٤١ م) تجرد للقضاء على هذه الدويلة التي قامت في وجه المسلمين في شمالي الأندلس وأخذت تنتقص من سلطانهم على شبه الجزيرة ، فما زال يحارب بلاي ويقتطع أراضيه جزءاً جزءاً حتى رده إلى « الصخرة » كما كان ، وأدخل الكثيرين من أهالي اشتريس في الإسلام ، وكادت الدويلة الناشئة أن تنهار وينتهي أمرها .

ثم ساعفتها المقادير بما وقع من الخلاف بين اليمنيين والقيسيين في الأندلس عقب وثوب عبد الملك بن قطن ومن معه من اليمنية بعقبة وانتزاعهم الأمر من يده ، فتنفس بلاي ومن معه الصعداء ، وأخذوا يغادرون الصخرة وينتشرون فيما والاها من نواحي أشتريس .

ووقعت في أثناء ذلك الفتنة البربرية ، واشتد الصراع بين العرب والبربر في نواحي شبه الجزيرة كلها ، وكان عقبة قد خلف على أشتريس علقمة اللخمي ومعه قوة من الجند تقيم في أستورقة (Asturicum = Astorga) أو في ليون (Legio = Leon) فهال علقمة ومن معه ما رأوا من تقدم بلاي وأصحابه في أرض المسلمين ، فنهضوا إليهم في قوة يسيرة ، وتوغلوا في بلادهم حتى أدركوا الصخرة ، وتحصن بلاي منهم في جبل أوسبة (Auseva) واحتمى نفر من أنجاد جنده في مغارة كبيرة تسمى « مغارة أونجة » (Cova de = Covadunga Onga) أو « مغارة مارية المقدسة » ، فلما أراد العرب اقتحام الجبل والصعود إلى المغارة هبط عليهم بلاي وأصحابه فهزموهم ، وقتلوا علقمة ، وارتد المسلمون مسرعين نحو أستورقة وشردت جماعة منهم ، ومضت تضرب في نواحي أشتريس القاحلة حتى نزلت ناحية ليبانا Liebana حيث هلكوا ، إما على يد الجلالقة أو لسبب آخر . وتشجع بلاي وأصحابه فتقدموا واستعادوا ما كانوا فقدوه ، وعاد أمرهم كما كان ، وأتاح المسلمون لهم هذه الفرصة بما انشغلوا فيه بعد ذلك من فتنة أبي الخطار والصميل ، فاطمأن بلاي وأصحابه ، وقوي مركزهم وثبتت أقدام الدولة الجديدة .

١٣٩ – أهمية كوفادونجا

هذه هي خلاصة ما بين أيدينا من النصوص عن « بلاي » ومعركة « اكوڤادونجا » . وواضح جداً أن هذه المعركة لم تكن

في واقع الأمر أكثر من مناوشة انهزم فيها المسلمون لأسباب أخرى غير ما تزعمه الروايات النصرانية من تفوق بلاي وأصحابه في الشجاعة والنجدة أو من تدخل قوى علوية خفت لنجدة النصارى في اللحظة الحاسمة . ولم يعد المسلمون إلى مهاجمة هذه النواحي الشمالية القاصية إلا في أيام المنصور بن أبي عامر ، فظلت منذ يوم «كوڤادونجا» مهداً لدولة أشتريس الناشئة ، فثبتت قواعدها ورست أصولها على نحو لم يستطع المسلمون معه إزالتها بعد ذلك أبداً ، أي أن هذه الوقعة كانت إيذاناً بميلاد أشتريس وبدءاً حاسماً لحركة المقاومة النصرانية في شبه الجزيرة . وهي على هذا الاعتبار حادث فاصل من حوادث التاريخ الإسباني .

وربما بدا لنا أن التواريخ الإسبانية تبالغ في تعظيم هذه الموقعة ، وربما كان مرد هذه المبالغة إلى « بلاي » وأصحابه ومعاصريهم من القصاص . بيد أنه لا حرج على بلاي وأصحابه ، ولا حرج كذلك على الروايات النصرانية في مثل هذه المبالغة ، لأن هذه المناوشات ، التي وقعت بين المسلمين والنصارى في نواحي أشتريس وانتهت بانتصار هذه الجماعات النصرانية التي اختارت العيش في هذه الناحية القاصية القاحلة ـ مستقلة عن سلطان المسلمين ـ على العيش في ظلالهم ، قد وضعت أساس الدولة الإسبانية النصرانية التي سيتاح لها أن تناوىء المسلمين قرناً بعد قرن حتى تتيح الظروف لها فرصة إخراجهم من البلاد .

والتاريخ الصحيح يعتبر « كوڤادونجا » ميلاداً لهذه الحركة التي ستصل حلقات تاريخ إسبانيا النصرانية وتعيد البلاد إلى النصرانية وإلى ميدان الحضارة الغربية من جديد . وليس إلى الشك سبيل في أن حركة بلاي تعد حادثاً رئيسياً في تاريخ إسبانيا كله ، لأن العبرة في أمثال هذا الحادث ليست بالتفاصيل الدقيقة ولا بالأرقام الصغيرة أو الكبيرة ، بل العبرة فيها بالمعنى التاريخي الذي يستتر خلف الحادث نفسه . « ونحن ـ كما يقول المؤرخ باليستروس ـ بعيدون جداً عن الحادث بدرجة لا تسمح لنا بأن نزعم أننا نستطيع أن نقدر أعداد المقاتلين أو أن نصف الحركات الحربية على وجه الدقة ، ثم إن هذا ليس هو الأساسي ولا المهم ، فسواء أوجد في هذه المعركة هذا العدد أو ذاك من المقاتلين ، وسواء أكانت وقعت في هذا المكان بعينه أو في مواقع أخرى ، فإن

الأمر المهم هو أن بعثاً إسلامياً ـ ربما كان صغيراً ـ أراد أن يقضي على مركز حركة ثورية ، وحاول الوصول إلى الموضع الذي اعتقد رجاله أنه وكر رجال العصابات والثائرين ، ففشل في إدراكِ ما طلب بسبب النخوة والشجاعة التي أبدتها حفنة من الرجال كانوا يقاتلون قتال اليائس منافحين عما بأيديهم ، وأنقذوا بهذا الكفاح ما هو أغلى مما كانوا يملكون في ذلك الحين ، وهو الاستقلال عن السيادة الأجنبية . وقد أقاموا بعد ذلك محافظين على كرامتهم وممتلكاتهم محتملين ما كلفتهم هذه المحافظة من باهظ التكاليف » .

« ثم إن ازدياد الإجلال لكوڤادونجا مع مرور الزمن ، واتجاه الأنظار خلال الأعصر إلى هذه البقعة من الجبل التي أشرنا إليها بالذات ، ليدلان على أنه قد وقع فيها يحيط بها ويقاربها حادث باقي الأثر من حوادث الصراع الذي أراد خلفاء من حضروه وشهدوه أن يخلدوا ذكره . فكيف وبين يدينا وثائق تؤيد وقوع هذا الحادث بالفعل ؟ ولسنا نريد بهذه التأكيدات كلها أن نقول ـ بأي حال ـ إن الموقعة كانت من الكبر بما يتفق مع هذه المعاني التي ذكرناها ، وليس معناه كذلك أن الكارثة التي نزلت بالعدو كانت بالشدة التي يصفها بها الرواة الذين استرسلوا مع خيالهم وحماسهم أكثر مما ينبغي ، وإنما معناه أن النقد السليم يقرر الصفة الرمزية للواقعة ، فقد كانت بدءاً لعمل مجيد ، وكانت أول حجر في بناء ضخم . وكانت هذه الهزيمة الصغيرة وذلك الفشل اللذان أصابا القوة الحربية الإسلامية عوامل أفهمت النصارى أن أعداءهم لم يكونوا معصومين من الهزيمة ، وذلك وحده يوضح لنا كيف أن الحادث الصغير أصبح منذ هذا التاريخ معتبراً في نظرهم رمزاً وهدفاً وغاية بعيدة عالية ، أي أنه إنما كان في الواقع الملموس بدء استقلالهم وبدء التحرر من السلطان الإسلامي . وهذا أمر ذو قيمة لا تقدر »[١] .

وأما من وجهة النظر الإسلامية فهذه الحادثة في ذاتها لم تكن تعني شيئاً لو لم يعقبها من الأحداث ما زاد في قيمتها وأهميتها : فلو لم يختلف المسلمون على

---

(١) BALLESTEROS : *Historia...*, II, pp. 180 - 181.

أنفسهم وينقسموا شيعاً لما كان لكوڤادونجا ولا لبلاي نفسه أهمية كبرى ، فإن انهزام الجيوش الإسلامية لم يكن بالأمر النادر ولا الحاسم ، وقد انهزمت هذه الجيوش في إفريقية مثلاً عشرات المرات ، وكانت الهزائم في بعض هذه الحالات قاسية بل قاصمة ، ولكنها لم تكن حاسمة ، لأن المسلمين استطاعوا أن يجمعوا صفوفهم بعد كل هزيمة ويعودوا للقتال حتى يقضوا على الحركة ويستعيدوا ما يكون قد ضاع منهم . فأما في هذه المرة فقد عجز المسلمون عن إخضاع هذه الناحية ، وقامت فيها الدولة النصرانية ولم تختف من التاريخ بعد ذلك أبداً ، فأصبحت لهذا حادثاً حاسماً له خطره في تاريخ إسبانيا الإسلامية . والثابت على أي حال أن المسلمين لم يتركوا هذا الركن القصي من جليقية دون فتح لأنهم هزموا أمام بلاي أو غيره ، أو لأنهم احتقروا هذه البقية الباقية من الثائرين ، بل لأنهم انصرفوا عنها إلى التافه من منازعات الجنس والعصبية ، فأضعفوا أنفسهم من جهة ، واعطوا رجال الحركة فرصة كانوا في أشد الحاجة إليها ليثبتوا أقدامهم وليتحولوا من جماعة من الثائرين المطاردين إلى دولة مستقرة لها كيان ولها سيادة على ما تملكه من الأرض من جهة أخرى ، ومن الواضح جداً أن هذه الحركة وانصراف العرب عن القضاء عليها قد أنشأ في شبه الجزيرة وضعاً جديداً سيكون محوراً من محاور التاريخ الأندلسي كله وهو : أن إسبانيا لن تكون من ذلك التاريخ قطراً إسلامياً خالصاً ، وإنما ستكون قسمة بين الدولة الإسلامية والدولة النصرانية ، وأن كلاً من هاتين الدولتين ستسير في طريقها ، وأن النزاع بينهما سيستمر ، وأن هذا النزاع سينتهي بعد قرون طويلة برجحان الكفة النصرانية وزوال أمر المسلمين والإسلام من البلاد .

ولم يخف هذا المعنى على مؤرخينا الإسلاميين ، فهذا ابن حيان يقول عن جماعة بلاي : « . . . وما زالوا ممتنعين بوعرها - أي بوعر الصخرة - إلى أن أعيى المسلمين أمرهم واحتقروهم ، وقالوا ثلاثون علجاً ! ما عسى أن يجيء منهم ؟ فبلغ أمرهم بعد ذلك من القوة والكثرة والاستيلاء إلى ما لا خفاء به . وملك بعده - أي بعد بلاي - أذفونش جد عظماء الملوك المشهورين بهذه

السمة . . . »[1] . وهذا ابن سعيد يقول : « فآل احتقار تلك الصخرة ومن احتوت عليه إلى أن ملك عقب من كان فيها المدن العظيمة ، حتى أن حضرة قرطبة في يدهم الآن ، جبرها الله ، وهي كانت سرير السلطنة لعنبسة »[2] .

وينبغي كذلك أن نقرر أن هذه الحادثة أخذت جانباً عظيماً من قيمتها من طبيعة هذه الطوائف القوطية والإيبيرية الرومانية التي اعتصمت بهذا الركن ، فقد كانت طبيعة صلبة مثابرة لا تكف عن القتال ولا تخشاه ، وهي لم تقنع بالسلامة من أيدي المسلمين ، وإنما عولت على الاستمرار في مناجزتهم ، ومضت في ذلك بصبر وجلد يستوقفان النظر . وأحسن رجالها الاستفادة من هذا الوضع الذي كانوا فيه على بساطة شأنه ، وما زالوا يحاربون ويجالدون ، لا يتركون غرة من العرب إلا انتهزوها ، حتى أصبحوا مع الزمن قوة يخشى بأسها .

فإذا صح هذا استبانت لنا القيمة الحقيقية لشخصية بلاي في التاريخ الإسلامي عامة ، فهو واضع أساس الدول النصرانية الشمالية الغربية التي ستحمل لواء المقاومة على الجبهة الشمالية الغربية « وهو أبو بني أذفنش هؤلاء » كما يقول مؤرخونا الأندلسيون ، وقد رأينا أن معظم أحداث حياته لا زال نهباً موزعاً بين القصاص وأصحاب الملاحم الشعرية الأسطورية ، ولكن المهم أن التاريخ الصحيح يعترف له بجمع شمل النصارى المتفرقين وقيادتهم في حرب المسلمين قيادة موفقة ، وفي هذا كفاية ، فلا معنى إذن لإنكار وجوده كما فعل بعض المسرفين في الشك من المؤرخين[3] ولا معنى للإصرار على أنه ينحدر عن صلب البيت الحاكم القوطي القديم ، لأن الواقع أن الرجل سما إلى أوج الملوك بما قام به من دور كبير : « وربما كان بلايو هذا ، منشىء الأسرة الأشتورية رجلاً عادياً من العوام ، رجلاً بسيط الأصل رقيق الحال ، ولكنه امتاز على أي حال

(١) المقري : نفح الطيب ، جـ ٢ ، ص ١٠ .

(٢) نفس المصدر والصفحة .

(٣) مثل MAYANS و MASDEU (يقرر وجوده ولكنه يشك في نسبة الكثير من أعماله إليه) و SARMIENTO و PELLICER و CASIRI و NOGUERA .
cf : BALLESTEROS : *op. cit.* p. 194.

بخصـال ممتازة أهلتـه للرئاسة . وسواء أكـان قوطيـاً أم إيبيرياً رومانيـاً ، فقـد استـطاع أن يضع نفسـه على رأس المغلوبـين في لحـظات الخـطر المحيق ، وحـاز لنفسه القيادة عن جدارة » كما يقول باليـسترّوس[١] ، فذلـك لا يغير من الـواقع شيئـاً ، لانه يبقي لبـلاي بعد ذلـك فضل إقـامـة دولـة للنصـرانيـة في الشـمـال وتعزيزها أمام الفتح الإسلامي الجارف ، وفضل تكوين هذه النـواة التي تكونت حولها فيما بعد دول استطاعت أن تسير بالتاريـخ الإسباني إلى الأمـام حينما عجـز المسلمون عن الاستمرار في القيـادة بعد انهيـار دولة الخـلافة الأمـوية وفشـل كل المحاولات الجليلة التي قام المسلمون بها لجمع الكلمة وإعادة سيادة الإسـلام على شبه الجزيرة .

هذا ، وليس بين مؤرخي الإسبان المحدثين إجماع على إقرار ما تذهب إليه الروايات النصرانية من انحـدار بلاي عن صلب قـوطي ـ ملكي أو غير ملكي ـ بـل منهم من يذهب إلى أنـه من أهل أشتريـس الأصـلاء ، أي كلتي أو إيبيـري روماني ، وأن اسمه الأصـلي ليس بلاجيـوس (Pelagius) كما تـورده المدونـات النصرانية بـل بلايـو (Pelayo) بدليـل وجود ألفـاظ كثيرة في اللغـة الأشتوريـة تنتهي بالياء والواو (yo) منها أسـماء أعلام مثـل (Volcayo) و (Payayo) و (Olayo) و (Ubayo) وألـفـاظ مـثـل (orvayo) و (carbayo) و (borgayo) و (argayo)[٢] .

بـل من علماء الإسبـان من يقـرر أن أصـل بـلاي من نـاحيـة ليبـانـا بـالذات[٣] ، ومـراجعنا العـربية تؤيـد هـذا الـرأي ، وهي أقـدم من المـراجـع النصرانية ، فهي تسميه بلاي وهي تسمية أقرب إلى بلايو منها إلى بلاجيـوس ، ثم إن أوثق مؤرخينـا الإسلاميـين يؤكدون أن الـرجل كـان جليقياً عـلى ما سبق ذكره .

---

(١) BALLESTEROS : *op. cit.* p. II, 174.

(٢) RICARDO BURGUETE : *Recteficaciones historicas*, p. 284.

(٣) BALLESTEROS : *op. cit.* p. 182.

وقد كانت عاصمته طول حياته بليدة كانيكاس اللاتينية (Canicas) (Cangas de Onis) الإسبانية ، وأغلب الظن أنه دفن بها مع زوجته جاوديوسا (Gaudiosa) ، وخلفه ابنه فافلة (Fafila) على ما تجمع عليه المراجع النصرانية (يؤيدها في ذلك ابن خلدون) ، ولم يكن على شيء من خصال أبيه ، وإنما كان مولعاً بالصيد ، وقتله دب أثناء الطرد بعد أن حكم سنتين لم يكد يفعل خلالها شيئاً ذا بال كما يقول سباستيان السلمنقي[1] ، ويجعل المؤرخون وفاته في سنة ٧٣٩ م وذلك لا يتفق مع ما ذكرناه ، والأصح أن يكون قد توفي سنة ٧٥٢ م أي قبل قيام الدولة الأموية بأربع سنوات ، ودفن مع زوجته فروليبا (Froleba) أو (Froiliuba) في كنيسة سانتا كروث في كانجاس .

وقد انتهت ولاية عقبة بن الحجاج الذي كان يرجى أن يتم القضاء على حركة بلاي على يديه نهاية غير واضحة ، فمن قائل إنه مات حتف أنفه أثر مرض ألم به ، وأنه أوصى لعبد الملك بن قطن بالولاية من بعده[2] ومن قائل أن اليمنيين انتهزوا فرصة ثورة بربر إفريقية على العرب أثناء ولاية عبيدة بن عبد الرحمن ، فعزلوه وولوا شيخهم عبد الملك بن قطن مكانه[3] ، وهكذا اختفت هذه الشخصية العربية المجاهدة في « ليل الزمان » كما يقولون ، ولو قد أتيحت له فرصة أطول لترك أثراً بعيداً في تاريخ الغرب الإسلامي .

وكان من سوء طالع الدولة الإسلامية الأندلسية الناشئة أن الأمور صارت إلى عبد الملك بن قطن من بعده ، إذ إن عبد الملك كان يمنياً شديد العصبية قليل السياسة ، فلم تلبث الأمور أن ساءت بين يديه ، واشتعلت نيران الثورة البربرية في الأندلس ، وأعقبها قدوم طالعة بلج من الشاميين إلى الأندلس واحتدام الخصومة بين هؤلاء الشاميين ومن كان في الأندلس من قدماء الفاتحين والمهاجرين من العرب والبربر الذين يطلق عليهم لفظ « البلديين » ، مما جعل

---

(١) *cf:* JIOS AMQZA GARCIA SALA : *Gijon en la Historia general de Asturias.* II pp. 445 - 499.

(٢) ابن القطان ، في البيان المغرب لابن عذارى ، جـ ٢ ص ٢٩ .

(٣) الرازي في نفح الطيب للمقري ، ج٢ ص١١ ، وابن عذارى : البيان المغرب ، ج٢ ص ٢٩ .

الأندلس الإسلامي شعلة نار ، فهلكت من العرب أعداد كبيرة ، وفنيت من البربر جماعات ، وعادت جماعات أخرى منهم إلى مواطنها الأولى في إفريقية ، فلم يقف تراجع المسلمين عند حدود أشتريس كما رأينا ، بل خلت المساحة الواسعة الواقعة بين نهري المنهو ودويرة من سكانها المسلمين ، وأصبحت أرض فضاء حاجزة بين الدويلة النصرانية في أقصى الشمال والدولة الإسلامية التي أصبحت تحد من الشمال بخط يبدأ من أفراغة على ساحل المحيط الأطلسي ويمتد إلى قورية فطليطلة ، ثم يصعد حتى لاردة في ناحية الشرق . ولم يوقف هذا التقلص إلا قدوم عبد الرحمن الداخل وإقامته صرح الدولة الأموية في سنة ١٣٨هـ / ٧٥٦ م .

١٤٠ ـ أذفونش ابن بطرة (ألفونسو الأول)

وكان من حظ الإمارة النصرانية الناشئة في نواحي جليقية أن صارت قيادتها بعد فافيلا إلى زعيم قوي نشيط هو أذفونش (ألفونسو) الملقب بالأول . ولم يكن من بيت بلاي ، وإنما كان ابناً لبطرة (Pedro) دوق كنتبرية ، وكان أذفونش قد تزوج بنتاً لبلايو تسمى أرمنسندا Ermensinda ، وارتقى العرش بعد موت فافلة ، مما يفهم منه أن فافلة بن بلاي مضى صغيراً دون أن يخلف عقباً[1] .

تولى أذفونش بن بطرة دوق كنتبرية شؤون إمارة بلاية الصغيرة فأضاف إليها دوقية كنتبرية ، فاتسعت حدودها اتساعاً طيباً مكنها من الخروج من صخرتها القاحلة التي كانت حروب عقبة بن الحجاج السلولي قد ألجأتها إليها .

ويجمع المؤرخون على أن أذفونش الأول كان زعيماً واسع النشاط بعيد المطامع : تولى وقد انزاح عن الامارة النصرانية خطر المسلمين إلى حين ، وشغلتهم عنها حروبهم سنوات طوالاً ، فعجل أذفونش بانتهاز الفرصة ، واستغلها أحسن استغلال لصالحه ، فلم يخلف العرش إلا وهذه الإمارة النصرانية الصغيرة دويلة ذات حدود ومعالم وأسباب من القوة تمكنها من الحياة

(١) BALLESTEROS : *op. cit. II . p . 184*

والاستمرار في التقدم ، ولم يستطع المسلمون بعد ذلك القضاء عليها ، فلا غرابة أن يعتبر الإسبان حكومة أذفونش الأول الميلاد الحقيقي لإسبانيا النصرانية .

وقد اختلفت آراء المؤرخين في أعمال بطرة كما اختلفت في بلاي وأعماله ، فذهب هركولانو إلى أنه لم يكن أكثر من زعيم جماعة من رجال العصابات[١] ، وذهب ساموذا إلى انه كان مجرد نهاب يباغت المواضع العامرة لينهب ما فيها ، دون أن يجد حرجاً في ذلك[٢] ، فقد كان أمثاله من القادة يعيشون على السلب في هذه الأعصر ، وربما حركته إلى القيام ببعض غاراته عوامل دينية . ومهما يكن من أمر فقد كان الرجل صاحب فتوح وحروب ، وقد اقترن عصره باتساع مفاجىء لدولة أشتريس الناشئة أصبحت بعده تسيطر على نحو خمس شبه الجزيرة كله ، وقد ذهبت المدونات النصرانية ومن تابعها من المؤرخين مذاهب شتى في تفصيل حروبه وفتوحه التي قام بها حتى بلغ بدولته الصغيرة هذا المبلغ[٣] .

١٤١ ـ المسلمون يخلون الركن الشمالي الغربي لشبه الجزيرة

لم يكد أذفونش يستقر في الإمارة ويوطد أمورها بعد اتساعها الجديد حتى وجد البربر الذين كانوا يحتلون نواحي أشتريس وكنتبرية وجليقية وعامة النواحي التي يسميها صاحب الأخبار المجموعة « خلف الدروب »[٤] يهجرون مساكنهم وأوطانهم وينحدرون إلى الجنوب ، ووجد أن الهجرة لا تقتصر على البربر

---

(١) ALEJANDRO HERCULANO : *Historia de Portugal* (Lisboa, 1863 IV.

(٢) SAMOZA, *op. cit.* p. 431 - 504.

(٣) MASDEU, *op. cit.* XII pp. 60 sqq.

(٤) الدروب هي الطرق التي كان المسلمون يسلكونها في طريقهم من سهول الجنوب والوسط إلى النواحي الساحلية العامرة في أقصى شمال الأندلس ، ومعظمها طرق رومانية قديمة بين الهضاب والجبال وأهمها دربان : درب شرقي من طليطلة إلى وادي الحجارة إلى حوض إبرة ، ثم يسير بمحاذاته ماراً بقلهرة ونخرة حتى بنبلونة Pampelona ومن ثم يفضي إلى إلبة Alava القلاع Castilla وأشتريس Asturias . ودرب غربي يبدأ من الجوف EL Algarve ويسير إلى ماردة Merida وقورية Coria ثم طلبيرة Talavera فطليطلة Toledo ومنها إلى سلمنقة Salamanca وسمورة Zamora فجليقية .

بـل تشمل العـرب كذلـك ، فقد انجفـل الـذين كـانـوا يقيمـون منهم في هـذه النواحي القاصية إلى نواحي وسط الأندلس وجنوبها ، وأن الكثيرين منهم هلكوا في الفتنة التي وقعت بينهم . وقد كان انجفال المسلمـين ـ ما بـين عرب وبـربر ـ من هذه النواحي حادثاً خطيراً يصفه صاحب الأخبار المجموعة بقولـه : « فقضى أن برير الأندلس لما بلغهم ظهور بربر العدوة على عربها وأهل الطاعة ، وثبـوا في أقطار الأندلس فأخرجوا عرب جليقية وقتلوهم ، وأخرجوا عرب أسترقة والمداين التي خلف الدروب ، فلم يرع ابن قطن إلا فلّهم قد قدم عليه ، وانضم عـرب الأطراف كلها إلى وسط الأنـدلس ، إلا ما كـان من عرب سـرقـسطة وثغـرهم ، فإنهم كانوا أكثر من البربر ، فلم يهـج عليهم البربـر ، فأخـرج إليهم عبد الملك (ابن قطن) جيوشاً فهزموها وقتلوا العرب في الآفاق »[1] . وبهذا لم تبق منهم في هـذه النـاحيـة بقيـة ، ولم يعـد العـرب إلى الاستقــرار في « المـداين التي خلف الـدروب » بعد ذلـك ، وكان ذلـك آخر عهـدهـم بها : زالت آثـارهم منها عـلى الرغم مما بذلوا من جهد في فتحها والاستقرار فيها ، زالوا منها لا على يد القـوط او الايبيريين الرومانيين بل على يد البربر شـركائهم في الـدين وحلفائهم في هـذا الفتح الكبير .

١٤٢ ـ هجرة أعداد كبيرة من البربر إلى إفريقية

وليت البربر حينما فعلوا ذلك استقروا في مواضع العرب وأقاموا يعمـرون هـذه النـواحي ، بـل اتجهت همتهم إلى التجمـع في جيوش والسير إلى الجنوب للقضاء عـلى العرب جملة ، فتحـرج مركز العرب ، ولم يجد عبد الملك بن قطن شيخ اليمنيين وسيـد الأندلس إذ ذاك بداً من الاستعانة ببلج بن بشر ومن معه من الشاميين الذين كانـوا محصورين في سبتـة لكي يخلصوهم من البـربر (١٢٣ هـ / ٧٤١ م) فعبـروا ونازلـوا البـربـر وانتصروا عليهم في مواقع حاسمة عند شذونة وعلى مقربة من قرطبـة وعلى وادي سليط El Rio Salado (أوائل ١٢٤ هـ / منتصف ٧٤١ م) وقتلوا منهم أعداداً عـظيمة . ولم يقتصر الأمـر على ذلـك بـل تعقبـوهم بـالأذى والقتـل في نـواحي

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٣٨ .

الأندلس كلها « فلم ينج منهم إلا الشريد ، فركب أهل الشام ولبسوا السلاح ، ثم فرقوا الجيش في الأندلس ، فقتلوا البربر حتى أطفأوا جمرتهم »[1] .

١٤٣ - المجاعة تجتاح شبه الجزيرة

ولما كان البربر هم غالبية من استقر في نواحي الشمال الغربي للأندلس وريفها من المسلمين ، فقد بدأت هذه الأرياف والمزارع تخلو من العنصر الإسلامي ، وكانت الحروب بينهم وبين العرب ، وبين العرب وأنفسهم قد خربت الزرع وحالت بين المزارعين من أهل البلاد ، وبين مواصلة عملهم الآمن في الحقول ، فأخذت المحاصيل تقل من منتصف سنة ١٢٤ هـ (٧٤١ م) ، وتوالى ذلك خلال السنوات التالية ، فلم تحل سنة ١٣٣ هـ / ٧٥١ م حتى شملت الأندلس جميعه المجاعة الكبرى التي أشرنا إليها ، انضافت مساءاتها إلى مساءات الحروب والمنازعات فقل العمار في النواحي وضربت المجاعة بجرانها ، حتى تقطعت أوصال البلاد ، « وكانت البرد قد قطعها الجوع فلا بريد » كما يقول صاحب الأخبار المجموعة[2] . وهبطت البلاد كلها خلال السنوات التي أعقبت هذه الثورة البربرية هبوطاً بالغاً خيف منه على مصير الإسلام في البلاد جملة .

١٤٤ - إخراج المسلمين من جليقية وما يجاورها

لم يكن أذفونش وأصحابه يترقبون بخصومهم المسلمين فرصة هي أحسن من ذلك ، فعجلوا بانتهازها ، وتشجع من كان في طاعة المسلمين من أهل النواحي الشمالية من الإيبيريين الرومان فوثبوا بالعرب في نواحي جليقية وما يصاقبها ، ويشير إلى ذلك صاحب الأخبار المجموعة إشارة فيها خطأ في تحديد التواريخ ولكنها تصور الحال تصويراً حسناً بقوله : « وغلظ أمر علج يقال له بلاي قد ذكرناه في أول كتابنا ، فخرج من الصخرة ، وغلب على كورة (كلمة ناقصة) وأسترس (خطأ من الناشر وصحتها أشتريس) ثم غزاه المسلمون من جليقية وغزاه أهل أستورقة حتى كانت فتنة أبي الخطار وثوابة ، فلما كان في سنة ثلاث وثلاثين

---

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٤٠ .

(٢) الأخبار المجموعة ، ص ٧٨ .

(ومائة) هزمهم وأخرجهم عن جليقية كلها ، وتنصر كل مذبذب في دينه وضعف عن الخراج ، وقتل من قتل ، وصار فلهم إلى خلف الجبل إلى أستورقة حتى استحكم الجوع ، فأخرجوا أيضاً المسلمين عن أستورقة ، وغيرها ، وانضم الناس إلى ما وراء الدرب الآخر وإلى قورية وماردة في سنة ست وثلاثين (٧٥٤ م) . واشتد الجوع ، فخرج أهل الأندلس إلى طنجة وأصيلا وريف البربر مجتازين ومرتحلين ، وكانت إجازتهم مَن واد بكورة شذونة يقال له وادي برباط ، فخف سكان الأندلس وكاد أن يغلب عليهم العدو إلا أن الجوع شملهم »[1] . مما يفهم منه أن نصارى الأندلس استغلوا الفرصة استغلالاً كاملاً ، فلم يدعوا وسيلة يمكنهم أن ينالوا فيها من المسلمين إلا ابتدروها ، ولو لم تشملهم هم الآخرين المجاعة لكان بلاؤهم في المسلمين أشد وأبعد مدى .

١٤٥ ـ حدود دولة الإسلام تتراجع إلى نهر دويره

وتؤيد المراجع النصرانية ذلك بما تذكره من الفتوحات التي تنسبها إلى أذفونش بن بطرة ! وهي لا تذكر أنه وجد هذه النواحي خالية أو شبه خالية فدخلها ، وإنما تذكر أنه فتحها على المسلمين بحد السيف وانتزعها من أيديهم، وهذا خطأ كما رأينا . وفي نصوص هذه المدونات النصرانية تفصيل لما أوجزه صاحب الأخبار المجموعة من قوله « فأخرجوا أيضاً المسلمين عن أستورقة وغيرها » ، لأن « غيرها » هذه كانت مدائن كثيرة لا تقل أهمية عن أستورقة مثل أفراغه Praga وپورتو Oporto وڤيزيو Visiu والنواحي المحيطة بهذه البلاد حتى نهر دويرة Duero[2] . أما قول صاحب الأخبار المجموعة : « وانسحب المسلمون الى ما وراء الدرب الآخر » فمعناه انسحابهم عن طريق الدروب الشرقية المفضية إلى حوض إبرة وإقليم سرقسطة الذي لم تنله المجاعة لخصبه ، وقد استطاع المسلمون الثبات أخيراً عند قورية وماردة في الغرب مخلفين وراءهم مراكز هامة مثل ليون Leon وسمورة Zamora ولدسما Ledesma وشلمنقة Salamanca وسلدانيا Saldana وسيمانقاس Simancas وشقوبية Segovia وأبلة Avila وأوكا

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٦١ ـ ٦٢ .

(٢) DOZY, *Recherches*..., 121, BALLESTEROS: *Historia*..., II. p. 185

Oca وأوسما Osma وميراندا [1] ، وكلها مراكز هامة فتحتها الجيوش الإسلامية بعد العناء والنصب وفقدها هؤلاء العرب والبربر بسبب منازعات قبلية عنصرية عمياء لا معنى لها . وأصبحت حدود الأندلس الإسلامي قبيل مجيء عبد الرحمن الداخل تبدأ من ناحية الشرق عند بنبلونة في أقصى الشمال الشرقي ثم تنحدر إلى تطيلة على الإبرة ومنها إلى وادي الحجارة إلى الشمال من طليطلة بين حوض الإبرة والتاجة ، ثم طليطلة وطلبيرة في حوض التاجة ، ثم قورية وتنتهي الحدود عند قلمرية على ساحل المحيط الأخضر . أي ان الأندلس الإسلامي فقد ربع شبه الجزيرة على وجه التقريب قبيل مقدم عبد الرحمن الداخل (١٣٨ هـ.

وقد لاحظنا أن مؤرخينا الإسلاميين لا يؤيدون دوزي في هذا الرأي الذي انتهى إليه من أن أذفونش أخذ هذه النواحي دون قتال مع المسلمين وأن هؤلاء انسحبوا منها قبل اقترابه منها ، وهم يستعملون عبارة « أخرجهم منها » وهي واضحة الدلالة . وتفسير ذلك يسير ، وهو أن الذين هجروا النواحي بسبب المجاعة وحروب العرب والبربر كانوا جند المسلمين ورجال حامياتهم وغالبية المستقرين منهم في هذه النواحي ، وقد بقيت خلف هؤلاء جماعات من المسلمين معظمهم من البربر لم يستطيعوا الرحيل وأقاموا في منازلهم خلف الدروب على رغم الخطر المحيط ، فاستقوى عليهم أذفونش حينما وجدهم دون حماية وأخرجهم مما كانوا قد استقروا فيه ، وقد بقيت من البربر رغم ذلك كله بقية في بعض النواحي القاصية ، وتكاثرت فيها وتركت أسماءها على بعض المواضع في أقصى نواحي جليقية وأشتريس .

---

(١) DOZY : *op. cit.* p. 123.

وقد جعل المقري فتح بعض هذه النواحي في أوائل أيام عبد الرحمن الداخل وفي عهد فرويلة الثاني ابن أذفونش بن بطرة ، وقال : « وعندما شغل المسلمون بعبد الرحمن وتمهيد أمره ، قوي أمر الجلالقة واستفحل سلطانهم ، وعمد فرويلة بن أذفونش ملكهم إلى ثغور البلاد فأخرج المسلمين منها وملكها من أيديهم ، فملك مدينة لكة وبرتقال وسمورة وشلمنقة وقشتالة وشقوبية ، وصارت للجلالقة حتى افتتحها المنصور بن أبي عامر آخر الدولة . . . » (نفح الطيب ، جـ ٢ ، ص ٢١٧) . ولكن إجماع المؤرخين منعقد على أن هذه المدائن سقطت في أيدي النصارى في أيام أذفونش . انظر : BALLESTEROS : *op. cit.* II. p. 185.

١٤٦ ـ ما بين نهري المنهو والدويره منطقة فراغ

وليس معنى ذلك أن مملكة أشتريس الناشئة اتسعت حتى شملت ذلك كله ، لأن الواقع أن أذفونش الأول لم يستول بالفعل إلا على النواحي المحيطة بأشتريس أي ناحية ليبَانا وبردوليا Vardulia وساحل جليقية ، وليس من المؤكد أنه احتل ليون . وأما الباقي وهو المساحة الواسعة الممتدة بين حوضي المنهو والتاجة فكانت في ذلك الحين أرض فضاء فاصلة بين إسبانيا الإسلامية في الوسط والشرق والجنوب والغرب ودولة أشتريس النصرانية في أقصى الشمال(١) .

وتؤيدنا المراجع النصرانية في هذا القول لأنها لا تقول أن أذفونش استقر في هذه البلاد الكثيرة التي تعددها ، وإنما تكتفي بالقول بأنه خربها وأفقر أريافها (Eremavit campos)(٢) .

تذهب التواريخ الإسبانية إلى أن أذفونش الأول حكم عشرين سنة امتدت من ٧٣٩ م إلى ٧٥٧ م(٣) ، ويقرر ابن خلدون أنه لم يحكم إلا ثماني عشرة سنة ويجعلها من ١٣٥ هـ إلى ١٤٢ هـ / ٧٥٢ ـ ٧٦٠ م وهو خطأ ظاهر في الحساب ، والغالب انه أراد أن يقول ثماني سنوات فقط ، ونظن أن حكومة أذفونش لم تزد على هذه السنوات الثمان تبعاً للحساب الذي قدمناه ، وتوفي في أوائل حكم عبد الرحمن الداخل ، فكأنما أرادت المقادير أن تتدارك المسلمين في هذا القطر الواسع برجل يعيد إليهم ما فقدوا على يد أذفونش الأول(٤) .

---

(١) BALLESTEROS : *op. cit.* p. 185.

(٢) MANUEL RISCO : *Espana Sagrada,* XXXVII. p. 93.

(٣) DOZY : *Recherches...*, I, p. 95.

(٤) انظر نص ابن خلدون الذي أورده دوزي ذيلاً لأبحاثه DOZY, *op. cit.* appendice III p. XII.
وإليك قائمة ملوك أشتريس الأول وتواريخ حكمهم كما أوردتها المدونات اللاتينية مقارنة بما أورده، ابن خلدون (ص ٩٥ من الأبحاث) :

المدونات اللاتينية	ابن خلدون
بلاي Pelayo . . . . ٧١٨ ـ ٧٣٧ م	١١٤ ـ ١٣٣ هـ / ٧٣١ ـ ٧٥١ م
فافلة Fafila . . . . ٧٣٧ ـ ٧٣٩ م	١٣٣ ـ ١٣٥ هـ / ٧٥١ ـ ٧٥٣ م
أذفونش بن بطرة Alfonso I ٧٣٩ ـ ٧٥٧ م	١٣٥ ـ ١٤٢ هـ / ٧٥٣ ـ ٧٦٠ م

١٤٧ ـ آراء المؤرخين في أذفونش

وقـد اختلفت أحكام المؤرخـين الإسبـان عـلى أذفـونش الأول ، فمن قـائل إنه لم يكن إلا رئيس عصابـات يفجأ بهـا الأمـاكن الآمنة العامـرة ويخربهـا ، ومن قائـل إنه لم يكن يـرمي من وراء هـذا الجهد كله إلا إلى السلب والنهب ، ومن قـائـل إنه كـان يسعى واعيـاً إلى استرجاع إسبانيا من المسلمين . وربما كان أصح الآراء فيه أنه كان يغاور كل من جـاوره طمعاً في الغنـائم التي لم يكن ليستطيـع تسيـير أمـوره في دولتـه بـدونها ، وطمعاً في توسيع رقعة مملكته الصغيرة . أمـا القول بـأنه كـان يسعى لاسترجـاع البلاد من المسلمين فمبالغة في التقدير لا يؤيدها الواقع ، لأن الرجل كـان يغاور جيرانه النصارى وينزل بهم من البـلاء أشد ممـا أنزل بـالمسلمين ، ثم إنـه ـ آخر الأمر ـ لم يلق المسلمين في موقعة واحـدة ولم يفكر في السـير إلى نواحيهم ، وانما اقتصرت جهوده على النواحي الخالية التي لم يكن ليتوقع فيها مقاومـة . ثم إنه لم يحتل من البلاد التي خلت من أهلها المسلمين إلا ما ذكرنـا من نواحي أشتـريس وليبانا وبردوليا ، أما الباقي فقد قام بـإخراج بقيـة المسلمين منـه أهل البـلاد من الإيبيريين الرومان ، بعد ان أخرج المسلمون أنفسـهم بأنفسهم منها .

ومهما يكن من الأمر فقد انتقلت دولة النصـارى في الشمال في عصـره من طـور الى طـور : اتسعت حـدودهـا واطمـأنت أمـورهـا وابتعـد عنهـا الخـطر الإسـلامي ، فأتيحت لهـا الفرصـة للتكون والسـير نحو القـوة ، وأصبحت نواة صلبة لن يستطيع المسلمون القضاء عليها بعد ذلك ، بعـد أن كانت قـد قاربت الزوال خلال ولاية عقبة بن الحجاج السلولي ، قبيل الثورة البربرية المشؤومة .

إلى هنا نقف بهذه القطعة من تاريخ الولايات النصـرانية الشمـالية خـلال عصر الولاة ، بعد أن حددنا الوضع السياسي العام في شبه الجزيـرة الايبيريـة في مطالع الامارة الأموية الأندلسية على يد صقر قريش .

= فرويلة بن أذفونش Froila ٧٥٧ ـ ٧٦٨ م ١٤٢ ـ ١٥٢ هـ / ٧٦٠ ـ ٧٦٩ م
أورال بن فرويلة Aurelio ٧٦٨ ـ ٧٧٤ م ١٥٢ ـ ١٥٨ هـ / ٧٦٩ ـ ٧٧٥ م
شيلون Silon . . . . ٧٧٤ ـ ٧٨٣ م ١٥٨ ـ ١٦٨ هـ / ٧٧٥ ـ ٧٨٥ م
مورقاط Mauregatos . . . . ٧٨٣ ـ ٧٨٩ م ١٦٨ ـ ١٧٥ هـ / ٧٨٥ ـ ٧٩٢ م

الفصل التاسع

المجتمع الأندلسي - ١

العرب والبربر والموالي

دامت فترة الولاة ستة وأربعين عاماً هجرياً ، تبدأ من رجب سنة ٩٢ هـ (ابريل - مايو ٧١١ م) وتنتهي في العاشر من ذي الحجة سنة ١٣٨ هـ (١٠ مايو سنة ٧٥٦ م) وهو اليوم الذي أعلنت فيه إمارة عبد الرحمن بن معاوية الداخل على الأندلس جميعه وولدت فيه الدولة الأموية الأندلسية . وقد جرت العادة بأن ينظر المؤرخون إلى هذه الفترة على أنها فترة تمهيد قصيرة لا أهمية لها في تاريخ الأندلس الإسلامي ، بل نظر إليها بعض المؤرخين على أنها فترة عابرة انفقها العرب في منازعات قبلية وعبث لا طائل تحته . ولعلنا رأينا فيما مر بنا من أحداثها أنها أهم من أن ينظر إليها هذا النظر السطحي ، لأن ما عبر بها من الأحداث كان له من النتائج البعيدة ما سنلاحظ أثره في كل دور من أدوار تاريخ المسلمين في شبه الجزيرة الأندلسية بعد ذلك ، فقد قام المسلمون خلال هذه الفترة بأعظم جهود حربية قاموا بها فيما وراء ألبرتات خلال تاريخهم الطويل ، ووضعت في أثنائها أسس النظم الإدارية والمالية التي ستجري الأمور بمقتضاها حتى قيام الخلافة الأموية على يد عبد الرحمن الناصر في أواخر سنة ٣١٦ هـ (أوائل سنة ٩٢٩ م) ، وفي خلالها أيضاً ولدت الولايات النصرانية الإسبانية في شمالي غربي الجزيرة وشمالها ، ونشأت كذلك عداوة العرب والبربر ، وكلها ظواهر تاريخية ذات آثار ومضاعفات تاريخية دائمة . وقد عرضنا لهذه الظاهرات كلاً على حدة بحسب ما اقتضاه المقام ، وبقي أن نلقي نظرة عامة على الفترة كلها ، لنكون لأنفسنا فكرة صحيحة عن الأندلس الإسلامي في فجر تاريخه .

١ ـ العرب

١٤٨ ـ طالعة موسى دخل العرب الأندلس على هيئة تيار متصل لم تسجل المراجع من موجاته إلا عدداً قليلاً تسميه « الطوالع » جمع طالعة ، وهي الجماعة من العرب الذين دخلوا الأندلس . وأول هذه الطوالع طالعة موسى[1] ، لأن الجيش الذي أقبل مع طارق لم يكن يضم إلا طائفة قليلة من العرب ، ورجاله على هذا لا يسمون بطالعة طارق . كانت طالعة موسى تضم نحو اثني عشر ألفاً من العرب ، معظمهم من القيسية واليمنية وموالي بني أمية ومن لحق بهذه الطوائف الثلاث من البربر المنتمين إلى موسى بن نصير ، وقد كانوا في حكم العرب رغم أصلهم البربري .

وقد استقرت هذه الطوائف في كل ناحية على طول الطريق الذي سار فيه موسى ، أي في نواحي الجزيرة الخضراء وأشبيلية وسرقسطة وبعض نواح متفرقة في أقصى الشمال والشمال الغربي ، فيما تسميه المراجع « ما وراء الدروب » . والأدلة كثيرة عن أن معظم اليمنيين استقروا في ناحية سرقسطة ، وتناثرت جماعات منهم في قرطبة وحواليها وفي إقليم أشبيلية ومرسية ، وكان القيسيون قلة في هذه الطالعة استقر معظمهم في نواحي الجنوب .

وحينما أقبل الحر بن يوسف الثقفي إلى الأندلس في ذي الحجة سنة ٩٧ هـ (أغسطس سنة ٧١٦ م) استصحب معه أربعمائة من « وجوه أهل إفريقية » ، ويبدو أنهم كانوا نخبة عربية ممتازة لأن صاحب فتح الأندلس يصفهم بأنهم كانوا « أول طوالع الأندلس المعدودين » ، ولما كان معظم عرب إفريقية من اليمنيين ، فإننا نستطيع أن نقول إن معظم هذه الطالعة كانوا من اليمنيين ، ولما كان الحر قد قدم بهم ليشدوا أزره فقد أقاموا في قرطبة وما حواليها[2] .

١٤٩ ـ طالعة بلج وأهم هذه الطوالع ـ بعد طالعة موسى ـ هي طالعة بلج بن بشر القيسي في ذي القعدة سنة ١٢٣هـ (يناير سنة ٧٤١ م) الذين

---

(١) المقري : نفح ، جـ ٢ ، ص ١٤١ ـ ١٤٤ .

(٢) فتح الأندلس ، ص ٢٣ .

نجوا من مذبحة العرب في موقعة بقدورة ، ولجأوا إلى سبتة وتحصنوا بها حتى عبروا إلى الأندلس في ولاية عبد الملك بن قطن الفهري الثانية على ما فصلناه ، وكان عدد هذه الطالعة يقارب العشرة آلاف غالبيتهم العظمى من القيسيين .

١٥٠ ـ البلديون ولما كان أهل الطوالع السابقة على طالعة بلج قد استقروا في البلاد وتقسموا خير نواحيها فقد كانوا يعتبرون أنفسهم أهل البلد وأصحابها ، وتسموا بالبلديين وكرهوا أن يقبل إليهم مثل هذا العدد العظيم من الشآميين ويقاسمهم خيرات البلد بل يحاول أن يغلبهم عليها ، فنفروا من هجرتهم وانبروا ينازعونهم السيادة على البلاد .

١٥١ ـ الشآميون ومن تاريخ نزول بلج وجماعته القيسية بدأ النزاع بين اليمنية والقيسية في الأندلس ، لأن الأقلية القيسية التي كانت هناك لم تلبث أن انضمت إلى القيسية المقبلة بنازعة العصبية القبلية ، وقد أظهرت هذه الجماعة القيسية من الشجاعة والنجدة ما مكنها من القضاء على ثورة البربر في زمن قليل ، فارتفعت بمقدمهم أسهم القيسيين وبدأ الصراع المحزن بين جذمي العرب الكبيرين ، واحتدمت نيران هذا الصراع بينهما خلال ولايتي بلج وثعلبة ابن سلامة العاملي (ذو القعدة ١٢٣ هـ / يناير ٧٤١ م إلى رجب ١٢٥ هـ / مايو ٧٤٣ م) لأن بلجا وثعلبة كانا من أعنف الشاميين .

انتزع بلج ومن معه من الشامية الولاية من اليمنيين ، وما زالوا بشيخ الأندلس إذ ذاك ـ عبد الملك بن قطن ـ حتى تخلصوا منه . ولم يكن عبد الملك يمنياً صرفاً بل كان فهرياً ينتسب إلى مضر ، ولكنه كان يمثل البلديين ، فما زال الشاميون برئيسهم حتى قتله . ولما كان عبد الملك يمثل زعامة البلديين ـ ومعظمهم يمنيون ـ فقد ثارت اليمن على كلمة واحدة في كل ناحية يقودهم عبد الرحمن بن علقمة اللخمي «صاحب أربونة» أي حاكم الثغر الأعلى (إقليم سرقسطة وما يليه شمالاً حتى أربونة) وأمية وقطن ابنا عبد الملك بن قطن في ناحية ماردة .

« . . وحشدوا من أقصى أربونة وراجعوا أهل البلد والبربر وسيوفهم تقطر

من دماء البربر ، فرضيت البربر أن تنال ثأرها من أهل الشام ، فإذا فرغوا كـان لهم في أهل البلد رأي »(١) ، وانضمت إليهم جماعة قليلة من اليمنيين كـانت في جيش بلج يتزعمها عبد الرحمن بن حبيب رأس العرب البلديين في إفريقية فيـما بعـد ، ونهضت هذه الجمـاعة كلهـا لتحارب القيسـيين الدخـلاء لتستعيـد منهم الزعامة ولتخرجهم من البلاد جملة .

١٥٢ ـ النزاع بين البلديين والشـآميين

وقد احتدم الصـراع بين العـرب في شبه الجـزيرة ، وينبغي أن ننبه إلى أمر هـام ، هو أن مـا تلا ذلـك من أدوار الصراع بـين العرب لم يكن في حقيقة الأمر صراعـاً خالصـاً بين كلب وقيس بقدر ما كان صراعاً بين عرب الأندلس القـدماء (البلديـين) والعرب الـدخلاء الذين أخذوا يعرفون من ذلك الحين بـالشآميـين ، وهي تسمية دقيقـة تدلنـا على أنهم لم يكونوا قيسيين خالصين بل كانت فيهم قلة يمنية ، بل سيتطور وجه النزاع بعد قليل ، ولن يصبح مجرد صراع بين البلديين والشآميين بل صراعاً بين حزبين كبيرين غالبية الأول من القيسية وغالبية الثـاني من الكلبية ، وتنضم إلى كـل من الحزبين جماعات من طوائف متفرقة من العرب تميل بها مصالحها الخاصة إلى هذا الحزب أو ذاك .

وقد بلغ هذا الصراع بين هـذين الحزبـين الكبيرين أقصـاه في شوال سنـة ١٢٤ هـ / أغسطس سنة ٧٤٢ م ، حينـما التقى رجالهـا في موقعـة أقوة بـرطورة التي انتصر الشآميون فيها انتصاراً حاسماً وصارت إليهم قيادة الأنـدلس من ذلك الحين إلى قيام الدولة الأموية ، ولم يـرفع البلديـون رأسهم من جديـد إلا بفضل عبد الرحمن الداخل وقيام دولته بعد ذلك بأربع عشـرة سنة . ولما كانت غـالبية الشآميين قيسية ، فإن هذه الفترة كلها تعتبر فترة سيادة القيسية على الأندلس .

١٥٣ ـ سيـادة الشآميين على الأنـدلس وأثرها

ولم ير الأندلس فترة هي أسوأ من هذه قبل وقوع الأزمة الكبرى التي تعرض أمر الإسلام خلالهـا للضياع مـدى إمارات محمـد والمنذر وعبد الله ، لأن الشآميين أوقـدوا البلد ناراً ونشـروا بين أهلها روحاً من التقلقل والاضطراب لا سبب لها في الواقـع إلا

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٤٣ .

ما جبل عليه القيسيون من ميل إلى الفوضى واستهانة بالدماء وإسراف في الخصومة .

وقد بدأت هذه الفترة المظلمة بولاية ثعلبة بن سلامة العاملي (شوال ١٢٤ هـ / أغسطس ٧٤٢ م) ، فقد كان قيسياً جافياً غليظاً لا تكاد تخالط خلقه رحمة أو رفق ، ومما رواه المؤرخون من أفاعيله هذه السوق التي أقامها عند « المصارة » لبيع أعدائه من العَرب المغلوبين في موقعة أقوة برطورة ، فيقول صاحب الأخبار المجموعة : « ولقد بلغنا أنه باع أشياخهم لمن ينقص بهم ، لقد قيل إنه صاح على ابن الحسن - رجل كان بالأندلس من أهل المدينة - وعلى الحرث بن أسد - من جهينة من أهل المدينة - فقال : من يخسر على هذين الشيخين ؟! فقال قائل : أحدهما عندي بعشرة دنانير ! فقال الصائح : من ينقص ؟ فلم يزل يصيح : من ينقص ؟ حتى باع أحدهما بكلب والآخر بعود . . »[1] .

ولم ينقذ البلديين - واليمنيين خاصة - إلا قدوم أبي الخطار الحسام بن ضرار الكلبي والياً من قبل حنظلة بن صفوان عامل إفريقية ، وكان الناس قد استغاثوا به وكتبوا إليه يقولون : « أعنا بوال يجمعنا ويأخذ بيعتنا له ولأمير المؤمنين ، حتى يصير الشام والبلدان على دعوة واحدة ، فقد أفنانا القتل وخفنا العدو على ذرارينا » . فوصل أبو الخطار في اللحظة المناسبة ، وأنقذ اليمنيين من الذل والفناء ، ورضيه عرب الأندلس جميعاً ، ولهذا يسمى عسكره عسكر العافية[2] .

١٥٤ - تفريق الشآمية في النواحي

وقد بدأ أبو الخطار بدءاً طيباً ، وأراد أن يستعين بآراء قوم ليسوا من اليمنية ولا من القيسية ، فاستشار أرطباس شيخ أهل الذمة ، وكان رجلاً عاقلاً مجرباً كما سيجيء ، فأشار عليه بتفريق الشآميين في النواحي ، لأن بقاءهم إلى جواره في العاصمة وضواحيها خطر على الحاكم والمحكومين ، فعمل على تفريقهم في الكور التي لم يكن فيها

(١ و ٢) الأخبار المجموعة ، ص ٤٥ .

من البلديين أحد ، وأنزلهم في هذه النواحي مع أصحابها من أهل الذمة ، على أن يكون لهم ثلث الخراج وللدولة الثلثان . ويبدو أنه وجد صعوبة في إقناعهم بقبول ذلك ، لأنه اضطر إلى إخراج ثلاثة من زعمائهم من البلاد هم : ثعلبة بن سلامة العاملي والوقاص بن عبد العزيز الكناني وعثمان بن أبي نسعة الخثعمي ، لأنهم كانوا سبب فساد الأندلس ، ووكل بهم من أخرجهم من البلاد[1] . وأبى الباقون منهم بعد ذلك إطاعة أمره ، فلم يزل أبو الخطار يلاطفهم حتى استأمنوا إليه وأقاموا معه ، وتوسع لهم في البلاد ، فأنزل كل قوم على قدر منازلهم في الشرق[2] .

وقد فرقهم أبو الخطار على الكور على أساس لطيف : تخير لكل قوم ناحية تشبه من حيث المناظر المحيطة بها الناحية التي أتوا منها من الشرق على النظام التالي :

جند مصر : في كورة أكشونبة وباجة وبعض نواحي كورة تدمير .

جند الأردن : في كورة ريه .

جند دمشق : في كورة البيرة .

جند قنسرين : في كورة جيان .

١٥٥ ـ خصومة القيسية واليمنية تعود

ولو قد استمر أبو الخطار على هذه السيرة لدام السلام وعاد إلى البلاد هدوءها ، ولكن أبا الخطار لم يلبث أن نبض فيه عرق اليمنية ، فمال إلى قومه وحاباهم وأخذ يعسف القيسيين ، وكان من سوء حظه أن كان بين هؤلاء القيسيين رجل من طراز الصميل بن حاتم الذي أشرنا إليه ، وكان بدوياً جلفاً من جند قنسرين ، وكانت إليه زعامة القيسية بعد إخراج زعمائهم الآخرين ، وبلغ من سلطانه على قومه أنهم كانوا يطيعونه في كل ما يريد دون أن يسألوه السبب ودون أن تكون

---

(١) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٢٠ .

(٢) فتح الأندلس ، ص ٣٦ .

هناك حاجة ظاهرة إلى ذلك . فلم يلبث أن تصدى لأبي الخطار ، وذهب إليه مرة يشكو إليه أمراً لحق بيمني ، فتعمد أبو الخطار الإسراف في إهانته فلكز وشُتم ، فخرج عنه ، فأتى داره ، وبعث إلى خيار قومه ، فشكا إليهم ما لقي ، فقالوا له : نحن لك تبع . .»[1] .

هكذا ثارت نيران العصبية مرة أخرى : أثارها أبو الخطار بسوء سياسته والصميل بعنفه وبداوته وجهله ، وانقسمت البلاد حزبين من جديد ، وثارت بينهما حرب مخربة لم ينقذ مصير الإسلام في الأندلس منها إلا قدوم عبد الرحمن ابن معاوية .

١٥٦ ـ تحول الصراع من القبلية الى الحزبية

لم يكن هذان الحزبان الجديدان هما المضريين والقيسيين كما كان الحال قبل قدوم طالعة بلج ، ولم يكونا كذلك البلديين والشآميين كما كان الحال منذ دخول بلج إلى مجيء أبي الخطار ، بل تكونا من جماعتين من القبائل ألفت بين عناصر كل منهما عوامل المصلحة وحب البقاء : ذلك أن أبا الخطار لم يعسف القيسيين كلهم ، فبقيت منهم جماعة إلى جانبه تؤيده ، ولم ينصف اليمنيين كلهم فانضمت جماعة إلى الصميل ، ولا نستطيع أن نسمي هذين الحزبين إلا بحزب أبي الخطار وحزب الصميل ، وإن كانت اليمنية أغلب على الأول ، والقيسية أغلب على الثاني . وإليك التكوين القبلي لكل من الحزبين ـ على قدر ما تعيننا المراجع على تصوره :

حزب أبي الخطار	حزب الصميل
طوائف من : جذام (يمن)	معظم قبائل : لخم (يمن)
فهر (عدنان)	جذام (يمن)
قضاعة	قيس (عدنان)
جند حمص (خليط)	غطفان (قيس)[2]

(١) أخبار مجموعة ، ص ٥٦ .

(٢) جاء في الأخبار المجموعة أن الصميل بن حاتم عندما قرر مخاصمة أبي الخطار قال لقومه : « والله ما أحب أن أعرضهم للقضاعية واليمانية ، ولكن اللطف ندعو بالله مرج راهط ، وندعو لخماً =

إي أن الأمر لم يعد عصبية قبلية بل عصبية حزبية ، وربما عصبية موطن . فسنرى عند بياننا لمنازل القبائل العربية في شبه الجزيرة أن هذه الجماعات التي تآلفت كانت متجاورة المواضع ، ولا يعزى انضواء بعض جند حمص إلى حزب أبي الخطار إلا الى أن إقليم حمص الذي كانوا فيه ، وهو إقليم أشبيلية ، كان يضم مواطن القبائل التي انضموا إليها .

وقد رشح الصميل بن حاتم ، وهو قيسي ، لرئاسة حزبه رجلاً من جذام ، أي من اليمن ، هو ثوابة بن سلامة الجذامي ، وهو ما كان ليفعل ذلك إلا وقد تبين أن معظم المنضوين تحت رايته كانوا من اليمن . ثم إننا نستنتج من قبول القيسية الذين كانوا مع الصميل لذلك الوضع أن العصبية القبلية لم تعد المحرك الرئيسي لجماعات العرب ، بل عصبية المصلحة والموطن ، أي العصبية السياسية . وقد كان الصميل نفسه رجل سياسة ودهاء قبل أن يكون رجل قبائل : كان رجلاً واقعياً لا يؤمن إلا بما ينفعه ، وربما كان خلقه هذا هو الذي أخرج الصراع من الميدان القبلي الصرف إلى ميدان السياسة والمصالح .

وتولى حزب الصميل الحكم ، وقام ثوابة بن سلمة بالأمر ، ولم تطل مدة ولايته أكثر من عام ، وكاد الانشقاق يقع في صفوف الحزب ، إذ تنازع الرئاسة عمرو بن ثوابة ويحيى بن حريث ، ولكن الصميل تدارك الأمر بذكائه واختار رجلاً من محارب بن فهر ، أي من قريش الظواهر ، وكانت بطون قريش الظواهر كلها أشبه بالمحايدة بين عرب الشمال وعرب الجنوب ، فكان اختيار الصميل لهذا المحاربي ـ وهو يوسف الفهري ـ حسماً للنزاع وإرضاء للفريقين ، ودليلاً على مهارته السياسية .

ومن دلائل غلبة الروح السياسية على عرب الأندلس خلال هذه الفترة

= وجذاماً ، وندخل منهم رجلاً نقدمه يكون له الاسم ولنا الخط . قال : فكتبوا إلى ثوابة بن سلمة الجذامي وكان من أهل فلسطين ، ثم ساروا حتى وفدوا عليه فأجابهم ، وأجابتهم لخم وجذام . . . » (ص ٥٦ ـ ٥٧) . وانظر تعليق دوزي على هذا الوضع :

DOZY, *Musulmans d'Espagne,* I pp. 175 - 177.

الأخيرة من عصر الولاة أن الذين تحركوا لاستنقاذ أبي الخطار من سجنه لم يكونوا أهله من اليمن ، بـل كانـوا من قضاعـة ، وقضاعـة على مـا نعرف مشكـوك في موضعها من عدنان وقحطان ، فبعضهم يجعلهم من العدنانيـة وبعضهم يجعلها من القحطانية ، وإن كان الأخيرون أكـثر : قامت جمـاعة من القضـاعية قـوامها مائتا راجل وأربعون فارساً واختطفوا أبا الخطار وفروا به إلى منازل بعض القبائل اليمنيـة بناحيـة أشبيلية ، وكـان يقود أولئـك القضاعيـين عبـد الـرحمن بن نعيم الكلبي (يمن) فبدأ حزب أبي الخطار ينهض من جديـد ، وأشتد سـاعده عنـدما أخطأ الصميل فعـزل يحيى بن حريث شيـخ لخم عن كورة ريـة . فنفر يحيى بن حريث ومن تابعه من لخم وانضموا إلى حزب أبي الخطار . وشيئاً فشيئاً انفصلت بقية القبائل اليمنية التي كانت في حزب الصميل وانضمت إلى أبي الخطار ، فلم يبق مـع الصميل إلا قيس . وهكـذا وقف قيس وكلب مرة أخـرى وجهاً لـوجه وهـوى عـرب الأنـدلس إلى درك النـزاع القبـلي الخـالص من جـديـد ، وانضم البلديون ـ ومعظمهم من يمن ـ إلى الكلبيـة حزب أبي الخـطار ، ووقف اليمنيون في جانب والقيسيون في جانب على النحو التالي :

اليمنيون يرأسهم ابن حريث

حمير + كندة + مذحج + قضاعة

القيسيون يرأسـهم يوسـف الفهري والصميـل

مضر + ربيعة

ومن غريب ما وقـع أن أهل بعض القبـائل المتجـاورين الذين عـاشوا إلى ذلك الحين في سلام ووئام ، جعل بعضهم يودع بعضاً ثم يخرج كل منهم ليأخذ مكانه في صفوف الجبهة التي سيقاتل فيها دون أن تكون لديه أي دوافـع خاصـة لهذا الخروج . وليس أنصع من هذا دليـلاً على أن العـرب ظلوا ، رغم الإسلام ورغم ما نالـوا من خبرة ، بـدواً جاهليـين في أعماق نفـوسهم لا يكاد اختـلاف

الأحوال والظروف يغير من طبعهم الأصيل شيئاً[1] .

وقد سدر العرب في هذا الصراع وكأنهم كانوا يعيشون وحدهم في ذلك القطر ، أو كأن جماعاتهم فيه بلغت من الكثرة بحيث غطت على ما عداها . ولكن الواقع ـ وهذا أغرب ما في الموضوع ـ أنهم لم يكونوا إلا قلة بالنسبة لبقية سكان الجزيرة . وعلينا أن ندرس الآن توزيع القبائل العربية في شبه الجزيرة في هذه الفترة ، فلعل ذلك يعيننا على تفهم ذلك الوضع الذي يبدو من الغرابة بمكان .

١٥٧ ـ تكاثر العرب في الأندلس

وإذا أخذنا بالمعلومات القليلة التي لدينا عن أعداد العرب الذين نزلوا الجزيرة لم نستطع أن نقدرهم إلا ببضعة آلاف : فقد كانت طالعة موسى تضم ١٢ ألف وطالعة بلج ١٠ آلاف واصطحب الحر بن عبد الرحمن الثقفي معه أربعمائة ومجموع هؤلاء ٢٢٤٠٠ ، فإذا افترضنا أن بضعة آلاف آخرين دخلوا الجزيرة فرادى أو جماعات لم نستطع تقدير أعداد من دخلوا الجزيرة من صرحاء العرب بأكثر من ثلاثين ألفاً . فإذا حسبنا من قتلوا في حروب العصبيات ومن استشهدوا في الفتوح وراء ألبرت تبينا أن بقية هذا العدد القليل لا يمكن أن تغمر شبه الجزيرة الواسع على هذه الصورة التي رأيناها .

بيد أننا ينبغي أن نلاحظ أن جميع العرب الذين دخلوا الجزيرة دخلوها رجالاً بدون نساء ، ثم اتخذوا النساء من أهل البلاد ، وقد توسعوا في ذلك ، فكثرت نساؤهم وكثر عيالهم أيضاً . ولكي نعطي القارىء فكرة عن خصوبة أولئك الداخلين نذكر جانباً من نسل عبد الرحمن الداخل وبنيه ، وقد أحصاهم ابن حزم في جمهرة أنساب العرب . وقد اخترناهم لأنهم الوحيدون الذين لدينا إحصاء بالأرقام عنهم وعن أولادهم وأعقابهم ، وينبغي أن نلاحظ أن ابن حزم لم يذكر إلا الظاهرين من بني أمية ، أي أنه ترك الخاملين ، والخاملون في العادة أكثر أولاداً ، وقد ترك كذلك ذكر الخلف من الإناث في الغالب .

---

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٥٨ ـ ٥٩ .

أعقب عبد الرحمن بن معاوية سبعة ذكور ، وهشام ابنه ستة ، والحكم الربضي ثمانية عشر ، وعبد الرحمن الأوسط مائة ولد ، منهم خمسون ذكراً وخمسون أنثى ، والأمير محمد نيفاً وثلاثين ذكراً ، والأمير عبد الله أحد عشر ذكراً ، وعبد الرحمن الناصر أحد عشر ذكراً . . . الى آخره[1] .

فإذا نحن أحصينا الذكور فقط تبينا أن ستة من رجال البيت الأموي أنجبوا ١٤٤ ولداً ذكراً ، أي بمتوسط ١٩ ولداً للواحد ، وذلك غير البنات . وإذا اعتبرنا هذا العدد أعلى من الطبيعي ، لأن عبد الرحمن الأوسط أخل بالتوازن الطبيعي وجاوز الحد المألوف ، أمكننا الاجتزاء من ذلك العدد بعشرة لكل شخص ، وأمكننا أيضاً أن نطبق نسبة التكاثر هذه على بقية العرب ، فقد كانوا جميعاً في سعة من النساء والعيش في ذلك البلد الطيب الرخي .

ومعنى ذلك أن أولئك الثلاثين ألفاً من العرب أصبحوا بعد عشرين سنة من دخول العرب الجزيرة ٣٠٠ ألف ، غير من انضم أو انتسب إليهم من مواليهم ممن أتى معهم من المشرق أو المغرب أو انضم إليهم من أهل البلاد .

وهذا التقدير لا يحل تلك المعضلة التاريخية حلاً تاماً ، ولكنه يجعلها أقرب إلى المعقول والممكن . وربما زادت وضوحاً إذا ذكرنا أن العرب انتشروا في شبه الجزيرة انتشاراً واسعاً بحيث لم تخل منهم ناحية من نواحي الشرق (من شماله إلى جنوبه) والجنوب والوسط والغرب حتى نواحي قلمرية وشنترين وأشبونة . وقد كان العرب ، رغم ما رأيناه فيهم من العنف في خصوماتهم بين بعضهم البعض ورغم اعتزازهم بعصبهم العربي قوماً يحسنون العشرة ، بعيدين ، كأفراد أو جماعات صغيرة ، عن نزعات السيادة والتعالي التي تمسك بها من سبقهم من الرومان والقوط . ثم إن مطامعهم في أموال أهل البلاد المفتوحة كانت قليلة ، وسنرى عند دراستنا للناحية المالية ، أن الإدارة العربية لم تكلف أهل البلاد شيئاً ثقيلاً . ومن ثم فقد كان العرب لا يحلون في ناحية من نواحي الأندلس حتى تتصل العلاقات بينهم وبين من حولهم من أهل البلاد ، خاصة وأن العرب كانوا

(١) ابن حزم : جمهرة أنساب العرب (طبعة بروفنسال ، القاهرة ١٩٤٨) ، ص ٨٦ ـ ٩٣ .

يعاهدونهم ويرتبطون معهم بأواصر القربى ، أي أنهم لم يكونوا سادة أو حكاماً بقدر ما كانوا مساكنين أو معايشين ، فأمن إليهم الناس وأقبلوا عليهم ، واختلط الحيان ، وبدا وكأن العرب أكثر من عددهم الحقيقي .

١٥٨ ـ مراجعنا عن منازل العرب بالأندلس

ولدينا عن منازل العرب في شبه الجزيرة معلومات طيبة في معظم ما لدينا من المراجع ، وقد أورد المقري في نفح الطيب صفحات من « فرحة الأنفس » لمحمد بن أيوب بن غالب الغرناطي من أهل القرن السادس الهجري ، وأورد أبو محمد علي بن حزم في تضاعيف « جمهرة أنساب العرب » معلومات وبيانات مستفيضة عن منازل العرب في الأندلس ، نستطيع إذا نحن جمعناها وأضفنا إليها ما لدينا من بيانات ابن غالب وغيره أن نحدد منازل العرب في شيء كثير من الدقة ، بل نستطيع أن نرسم خريطة ديموجرافية لعرب الأندلس .

ومن الواضح أن معلومات ابن حزم وابن غالب لا تنصب فقط على الفترة التي ندرسها ، وأن بعض من ذكر من العرب دخلوا الجزيرة فيما بعد ، وخاصة أيام عبد الرحمن الداخل وابنه هشام الرضي ، ولكننا نستطيع الأخذ بها دون التعرض لخطأ كثير ، لأن الذين دخلوا الأندلس بعد فترة الولاة لا يمكن أن يكونوا إلا شيئاً ضئيلاً بالنسبة لمن دخلوها في تلك الفترة . ثم إن الداخلين أيام الإمارة الأموية كانوا يفدون فرادى أو في جماعات صغيرة ، وكانوا في الغالب ينزلون قرطبة أو يقصدون أهل قبائلهم في النواحي ، أي أن دخولهم لم يغير الوضع العام ، وفي إمكاننا أن نعتمد على تفصيلات ابن حزم وابن غالب في شيء كثير من الاطمئنان .

وواضح مما بين أيدينا من النصوص أن جماعات العرب التي دخلت الأندلس كانت تضم أعداداً طيبة من فحول العرب ممن يمثلون الخصال الرئيسية الأصيلة لهذا الجنس خير تمثيل . وسواء نظرنا إلى الأعمال الإيجابية كعملية الفتح نفسها ومواصلة الفتوح فيما وراء الأندلس ، أو إلى النشاط السلبي كحروب العصبية ومنافسات الرئاسة ، فإننا نتبين هذه الفحولة العربية بصورة لا نجدها

فيما يشبه الأندلس من حيث الوضع العام مما فتحه المسلمون من البلاد . وقد أشار إلى ذلك المقري بقوله : « فاعلم أنه لما استقر قدم أهل الإسلام بالأندلس وتام فتحها صرف أهل الشام وغيرهم من العرب هممهم إلى الحلول بها ، فنزل بها من « جراثيم » العرب وساداتهم جماعة أورثوها أعقابهم ، إلى أن كان من أمرهم ما كان »[١] . . . ، والمراد بـ « الجراثيم » هنا الأصول .

ويتفق ابن حزم وابن غالب وابن سعيد على أن هؤلاء الأعقاب الذين يشير إليهم المقري كانوا كثيرين ، وأن هذه الكثرة لم تقتصر على فريق دون فريق : ففي الحديث عن المنتسبين إلى محارب بن فهر (من قريش الظواهر) يقول ابن حزم ـ برواية المقري ـ : « ولهم بالأندلس عدد وثروة ، وأما المنتسبون إلى عموم كنانة فكثير ، وجلهم في طليطلة وأعمالها »[٢] . وفي الحديث عن تميم (مضر) يقول ابن غالب : « إنهم خلق كثير بالأندلس »[٣] ، وهكذا الأمر مع معظم القبائل التي يذكرها أولئك المؤرخون .

١٥٩ ـ القحطانيون وقد كانت جماعات اليمنية تفوق العدنانية كثرة عدد وسعة أقاليم ، قال المقري في الكلام عن القحطانية : « وهم الأكثر في الأندلس ، والملك فيهم أرسخ إلا ما كان من خلفاء بني أمية ، فإن القرشية قدمتهم على الفرقتين . . . »[٤] . ويقول ابن غالب : « ومن الأزد من ينتسب إلى الأنصار على العموم ، وهم الجم الغفير بالأندلس . قال ابن سعيد : والعجيب أنك تعدم هذا النسب بالمدينة ، وتجد منه بالأندلس ما يشذ عن العدد كثرة . ولقد أخبرني من سأل عن هذا النسب بالمدينة فلم يجد إلا شيخاً من الخزرج وعجوزاً من الأزد »[٥] ، وهي مبالغة من ذلك الداعية الأندلسي البارع ، يخفف من غلوائها ما يصرح به ابن غالب أن من الأزد ـ أزد الأندلس ـ

---

(١) المقري : نفح الطيب ، جـ ٢ ، ص ٢٧١ .

(٢) نفس المصدر والجزء ، ص ٢٧٢ .

(٣) نفس الموضع .

(٤) المقري : نفح الطيب ، جـ ٢ ، ص ٢٧٤ .

(٥) نفس المصدر ، ج١ ، ص ٢٧٥ .

من يفضل الانتساب إلى الأنصار ، لأن هذا الانتساب كانت له قيمته الاجتماعية في الأندلس ، ولهذا كان يلجأ إليه « الجم الغفير » من الأزد فيما نظن .

غير أننا عندما ننظر فيما لدينا من البيانات نلاحظ أن القبائل اليمنية التي نزلت الأندلس لم تكن تزيد على العدنانية هذه الزيادة التي تتحدث عنها النصوص ، فقد أحصينا مجموع ما ذكره ابن حزم وابن غالب وابن سعيد من هذه وتلك فكانت العدنانية ٤٢ قبيلة واليمن ٥٢ ، ولا تفسر الغالبية اليمنية إلا على أحد وجهين : فإما أن تكون أعداد من دخلوا الأندلس من القبائل اليمنية أكثر بكثير من أعداد من دخلوا من القبائل العدنانية ، أو أن يكون « الجم الغفير » من العرب الداخلين قد زعموا لأنفسهم أنساباً أنصارية ـ ما بين أوس وخزرج ـ إلتماساً للمكانة والمنزلة ، وقد يكون الأمران قد حدثا معاً .

وإذا نحن أمعنا النظر فيما لدينا من البيانات عن منازل العرب في الأندلس لاحظنا ما يلي :

١٦٠ ـ ملاحظات على منازل العرب في الأندلس

١ ـ إن ما يقال من أن العرب اختصوا أنفسهم بأغنى نواحي الأندلس وتركوا للبربر النواحي القاحلة التي لا خير فيها غير صحيح ، فقد ترك العرب لغيرهم نواحي من أخصب ما في الأندلس ، فقد تركوا مثلاً أحواض الواديانة والتاجة ونهر شقورة (نهر مرسية) ونهر شقر (نهر بلنسية) والوادي الأبيض ووادي لكة وغيرها كثير ، ولم تكثر منازلهم بشكل واضح إلا في حوضي الوادي الكبير ووادي إبرة الأوسط وفروعهما الكثيرة . بل هم لم يعمروا من وادي إبرة إلا النهر الرئيسي والفروع الجنوبية ، أما الشمالية فتركوها دون سكنى ، ونزل البربر فيما عدا ذلك كله . ولو أننا وازنا بين ما احتله العرب وما احتله البربر ، لوجدنا الكفتين متعادلتين تقريباً .

١٦١ - استقرار العرب على طول خطوط الفتح

٢ - ونستطيع أن نقول بصفة عامة إن العرب استقروا على طول خطوط الفتح الأول ، فنرى منازلهم تنتشر ابتداء من الجزيرة الخضراء ، وتملأ معظم المنطقة الواقعة جنوب نهر شنيل وحوض الوادي الكبير ، ثم تكثر بصورة ظاهرة في إقليم أشبيلية ، وتستمر على طول الوادي الكبير وفروعه . وعند إقليم أشبيلية تنتشر منازل العرب في نفس الاتجاه الذي سار فيه موسى ، وتكثر في نواحي أونبة ولبلة وباجة ، وتتصل حتى بطليوس ثم نواحي طلبيرة وطليطلة فوادي الحجارة وقلعة أيوب ودروقة وحوض إبرة الأوسط حول سرقسطة في منطقة واسعة تشمل حوض نهير جَلّق Gallego ونهير الحَمّه Rio Alhama .

ومن أحواز قرطبة يمتد خط عربي آخر ، على طول طريق طارق بن زياد حتى طليطلة ماراً بقلعة رباح .

ومن حوض الوادي الكبير انساح العرب شرقاً ، فملأوا نواحي ما يعرف عادة بشرق الأندلس ، وهي نواحي بلنسية وتدمير (مرسية) ولقنت والمرية ومالقة . ويبدو أن هذا الامتداد متأخر قليلاً عن عصر الولاة ، ولكنه لا يتعدى أيام هشام بن معاوية ، لأننا سنجد الجماعات العربية التي استقرت بشرق الأندلس قد تأصلت فيه على أيام الحكم الربضي . وقد زحف العرب مع السهل الساحلي الشرقي حتى وصلت بعض جماعاتهم إلى برشلونة ، فاستقرت فيها بطون من تجيب (كندة) .

٣ - إن واحداً من جذمي العرب الكبيرين (عدنان وقحطان) لم ينفرد بالسكنى في ناحية بعينها إلا في قليل من المواضع ، بل الأغلب أن نجد قبائلهما متجاورة في كل ناحية تقريباً .

١٦٢ - منازل العرب في الأندلس

ويمكن إجمال توزيع قبائل عدنان وقحطان فيما يلي :

أ ـ مواضع سكنتها مجموعات متساوية تقريباً من قحطان وعدنان

عدنان	قحطان
أشبيلية ونواحيها	
مرة بن ذبيان ـ غطفان ـ عك ـ هوازن بن عكرمة	هوازن ـ جذام ـ الأشعر ـ جزيلة ـ ثوابة ـ بلى ـ لخم ـ مراد ـ ليص ـ الخيار بن مالك ـ الأنصار[1] .
البيرة وغرناطة	
خزيمة ـ أسد ـ مرة بن ذبيان نمير بن مضر	طيء ـ همدان ـ غسان ـ الحضارمة[2]
وادي آش	
خويلد	سعد العشيرة
بطليوس	
زهرة	حضارمة

ب ـ مواضع غالبية من نزلها من قحطان (اليمنيون)

عدنان	قحطان
سرقسطة و نواحيها	
	خزرج ـ عذرة ـ قضاعة ـ تجيب كندة ـ جذام

---

(١) كانت كتلة اليمنيين في ناحية إشبيلية وغرب الأندلس أقوى مجموعاتهم وأكثرهم نظاماً ، وكان لها شيخ يرأسها هو « أبو الصباح » شيخ اليمانية في غرب الأندلس ، ومسكنه قرية مورة من شرق إشبيلية (ابن القوطية ، ص ٢٠) .

(٢) يؤيد كثرة اليمنيين في إقليمي إلبيرة وجيان ابن القوطية بقوله : « ثم خاطبوا القحطانيين بإلبيرة وجيان مثل جد بني اضحى بالهمدانيين (يغلب أن هذا اسم قرية) وجد [بني] حسان وبني عمر أصحاب وادي آش الغسانيين وميسرة وقحطبة الطائيين بجيان » ـ ص ٢٢ .

عدنان		قحطان
	تدمير	
ربيعة		جذام ـ دوس ـ غافق ـ حضارمة
	رية	
نهد		جزيلة ـ خزرج ـ ذورعين
	مالقة	
خزيمة		حضارمة
	شذونة	
كنانة		جزيلة ـ عرمرم ـ جذام
	استجه ومورور	
غافق		لخم ـ خثعم
	الجزيرة الخضراء	
كنانة		خولان ـ بنو عذرة ـ لخم ـ جذام

جـ ـ مواضع غالبية من نزلها من عدنان :

عدنان		قحطان
	جيان	
ملكان ـ مزينة ـ ربيعة ـ غنم ـ أفصى		بنو منخل ـ جذام ـ مرة عنس[1]
	باجة ولبلة	
		عوف ـ زهرة [2]

(١) انظر الهامش السابق .

(٢) جاء في افتتاح الأندلس لابن القوطية : « وكانت الرئاسة بلبلة لعبد الغفار ابن عم أبي الصباح ، وبباجة لابن عمه أيضاً عمرو بن طالوت وكلثم بن يحصب » (وكلهم يمن) .

أونبة

خشين سلول ـ الطماح ـ مطروح

طليطلة

الزبارقة (تميم) ـ باهلة ـ كنانة الأنصار

د ـ مواضع لم يسكنها إلا قحطانيون :

عدنان		قحطان
	قلعة رباح	
		خزرج ـ جذام
	دلاية	
		عذرة ـ قضاعة
	قرية صالحة (قرب مالقة)	
		غسان
	قلعة خولان	
		خولان
	برشلونة	
		تجيب
	داربلىّ (شمالي قرطبة)	
		بلىّ

هـ ـ مواضع لم يسكنها إلا عدنانيون :

عدنان		قحطان
	مدينة مرسية	
ملكان ـ أفصى بن مضر		
		طلبيزة
عوف		
		بلنسية
هوازن		

وينبغي أن ننبه إلى أن هذا الإحصاء تقريبي ، فقد اعتمدنا فيه على ابن حزم وابن غالب وابن سعيد وبعض مؤرخين آخرين وردت في ثنايا كلامهم إشاراتٍ لمنازل العرب في الأندلس . وقد أدخلنا قضاعة في جملة اليمن ، مع اختلاف النسابة في جعلها من عدنان أو قحطان ، لأن الرأي الأغلب هو أنهم قحطانيون(١). وينبغي أن نلاحظ أن معظم ملاحظات ابن غالب لا تشير إلى المواضع ، فهو يقول مثلاً : « ومن أهل الأندلس من ينتسب إلى الأوس أخي الخزرج ، ومنهم من ينتسب إلى غافق بن عك بن عُدثان بن أزان بن الأزد . . . »(٢).

٤ ـ إن هناك نواحي معينة حببت إلى العرب سكناها ، فتكاثروا فيها . ونستطيع أن نعتبر هذه المواضع مراكز العروبة في الأندلس ، فقد كانت هي المهاد التي تكاثروا فيها وانتشروا منها إلى غيرها من النواحي . وقد ظل العنصر العربي غالباً على هذه النواحي حتى نهاية تاريخ المسلمين في الأندلس ، وكانت إلى نهاية القرن الخامس الهجري نقط ارتكاز للإسلام الأندلسي ، ومن هذه المواضع قرطبة مثلاً ـ ولم نذكرها في الإحصاء السالف الذكر لأن العرب من كل قبيلة نزلوها ، بحيث لا تجد قبيلاً عربياً إلا كان منه في قرطبة ـ وأشبيلية ونواحيها . وأستجة ورية وقبرة والجزيرة الخضراء وألبيرة وجيان ومالقة وتدمير وسرقسطة وشذونة وقرمونة ولبلة وباجة وأونبة .

٥ ـ ويقول المقري : « وكان عرب الأندلس يتميزون بالعمائر والقبائل والبطون والأفخاذ ، إلى أن قطع ذلك المنصور بن أبي عامر ، الداهية الذي ملك سلطنة الأندلس ، وقصد بذلك تشتيتهم ، وقطع التحامهم وتعصبهم في الاعتزاء »(٣) ، ومعنى ذلك أن كل قطعة من العرب نزلت بناحية ظلت محتفظة

---

(١) وقد كان القضاعيون في الأندلس يعتبرون أنفسهم من اليمن ، جاء في الأخبار المجموعة : « فاصفقت يمن الأندلس ، حميرها وكندتها ومذحجها وقضاعتها ، واحتازت مضر وربيعة إلى يوسف ، وربيعة بالأندلس قليل » (ص ٥٨) .

(٢) المقري : نفح الطيب ، جـ ٢ ، ص ١٧٦ .

(٣) المقري : نفح ، جـ ٢ ، ص ١٧٤ .

بكيانها القبلي ، رغم تزاوجهم مع أهل البلاد . وقد حافظت الدولة على هذا الكيان القبلي إلى أيام المنصور ، لأن هذه القبائل كانت ـ كما سنرى عند كلامنا على التنظيم الإداري ـ أساساً من أسس تكوين الجيش الأندلسي ونظام الضرائب .

٦ ـ ويبدو أن الكثير من القبائل التي نزلت مواضع في الريف بعيدة عن المدن اتخذت لأنفسها حصوناً تعتصم بها ، وقد ظهرت أهمية هذه الحصون أثناء الفتنة التي شملت عهود الأمراء محمد والمنذر وعبد الله ، فقد تحولت الحصون والقلاع أثناءها إلى مدن ظلت تحمل أسماء أصحابها ، وشال ذلك حصن مراد (بين أشبيلية وقرطبة) وقلعة بني سعيد (أو قلعة يحصب) في إقليم غرناطة ، وقلعة خولان (بين الجزيرة الخضراء وأشبيلية) .

ومنهم من أنشأ قرى كاملة ظلت تحمل أسماء أصحابها ، مثل منزل همدان (على ستة أميال من غرناطة) ومنزل طيىء (جنوبي مرسية) ودار بليّ (شمال قرطبة) وغيرها .

وكانت هذه المواطن العربية كلها في دور التكوين خلال الفترة التي نتحدث عنها : كانت كِسَرُ القبائل الوافدة من المشرق تتجمع إلى ذوي قرباها وتكون العصبيات التي لعبت الدور الخطير الذي فصلنا تاريخه . وسنرى فيما بعد أن قبائل العرب لم تغير مواضعها إلا في النادر ، وإن كان كل مركز قد مد له فروعاً فيما بعد وأنشأ مراكز أخرى تنتمي إلى نفس الأصل .

وقد ذكرنا أن العرب كانوا يدخلون الأندلس رجالاً فقط ، ثم يتخذون النساء من أهل البلاد ، وعلى هذا فالأجيال الثانية من هؤلاء العرب جميعاً لا يمكن أن يكونوا عرباً من ناحية الدم ، بل ربما جاز اعتبارهم مولدين ، حتى البيت الأموي نفسه كان بيتاً مولداً ، إنما كانوا عرباً بالإحساس والاتجاه واللغة إلى حد كبير .

وبديهي أن أولئك جميعاً لم يعودوا يتكلمون العربية في حياتهم العادية بعد الجيل الثاني ، فقد غلبت عليهم في المخاطبة والمعاملات لغة أهل البلاد ،

اختلطت بها لغة العرب ونشأت عن ذلك « عجمية أهل الأنـدلس » أو « اللطينية » كما يسميها ابن حزم ، وقد بلغ من غلبة هذه « العجمية » أن ابن حزم يذكر جماعة من العرب بالذات فيقول : « دار بليّ بشمال قرطبة ، وهم هناك إلى اليوم على أنسابهم لا يحسنون الكلام باللطينية ، نساؤهم ورجالهم ، ويقرون الضيف ، ولا يأكلون إلية الشاة إلى اليوم ، ولهم دار أخرى بمورور »(١) ، مما يفهم منه أن كلام عرب الأندلس « باللطينية » كان أمراً عاماً شذت عنه هذه القبيلة . وبطبيعة الحال لم يكن لسان عرب الأندلس قد استعجم بعد في فترة الولاة ، ولكن العملية كانت قد بدأت على أي حال(٢) .

ب ـ البربر

١٦٣ - تيار الهجرة البربرية إلى الأندلس

من الواضح أن أعداد من اشترك من البربر في فتح الأندلس وفي فتوح غالة كانت تزيد على أعداد العرب أضعافاً ، وأن هذه الأعداد لم تقتصر على من اشترك في الجيوش الغازية ، إذ إن تياراً من الهجرة البربرية اتصل واستمر عقب الفتح

---

(١) ابن حزم : جمهرة أنساب العرب ، ص ٤١٥ .

(٢) اعتمدنا في هذه المعلومات ، كما أشرنا آنفاً على :

جمهرة أنساب العرب لابن حزم (نشر ليفي بروفنسال) ، القاهرة سنة ١٩٤٨ .

ابن غالب : فرحة الأنفس ، مقتطفات أوردها المقري في نفح الطيب (القاهرة ١٩٤٩) جـ ١ ، ص ٢٧١ ـ ٢٧٩ .

ابن سعيد : مقتطفات من المغرب في الأغلب ، أوردها المقري في نفح الطيب ، نفس الجزء والصفحات السابقة .

المقري : نفح الطيب ، ملاحظات للمؤلف في نفس الصفحات .

الأخبار المجموعة : طبعة لافوينتي إي ألكنترا ، مدريد ١٨٦٧ .

ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ، طبعة جايانجوس وسافيدرا وكوديرا ، مدريد ١٩٢٦ م . ابن عذارى : البيان المغرب ، طبعة ليفي بروفنسال وكولان ، لايدن ١٩٤٧ .

LEVI - PROVENÇAL, *Histoire de l'Espagne Musulmane* (2e. éd. vol. I, Paris 1951) pp. 71 Sqq.

ELIAS TERES : *Linajes Arabes en Al - Andalus,* Segun la "Jamhara" de Ibn Hasm, AL - Andalus vol. XXII fasc. I pp. 55 - 113.

مباشرة ، وأن شبه الجزيرة لم يلبث أن امتلأ بهؤلاء المهاجرين . قال المقري في نفح الطيب : « وتسامع الناس من أهل بر العدوة بالفتح على طارق ، وسعة المغانم فيها ، فأقبلوا نحوه من كل وجه ، وخرقوا البحر على كل ما قدروا عليه من مركب وقشر ، فلحقوا بطارق »[1] .

وبين أيدينا نص يؤيد غلبة البربر على العرب أول الأمر ، لا من حيث العدد فقط ، بل من حيث القوة أيضاً ، قال ابن القوطية بعد فراغه من أخبار عبد العزيز بن موسى : « ومكثوا سنين لا يجمعهم وال ، إلا أن البربر قدموا على أنفسهم أيوب بن حبيب اللخمي ابن أخت موسى بن نصير » مما يدل على أن البربر هم الذين اختاروا ثاني ولاة الأندلس ، وقد رضي به بقية مسلمي الجزيرة وظل في الولاية حتى ولي الحر بن عبد الرحمن الثقفي . ولو لم يكن البربر غالبين على الأمر في الأندلس حينذاك لما استطاعوا تولية وال يرضاه جميع المسلمين[2] .

وقد أمدنا ابن حزم في الجمهرة بمعلومات غاية في الأهمية تلقي ضوءاً على الهجرة البربرية إلى الأندلس . ومن الواضح أن كلام ابن حزم يتعلق بمنازل البربر في الأندلس على أيامه ، ولكننا نستطيع بمقارنة هذه المعلومات بما لدينا من أخبار فترة الولاة أن نتبين مَن من أولئك البربر نزل الأندلس في ذلك الزمن المتقدم .

وينبغي أن نلاحظ أن التحديد فيما يتصل بالبربر أعسر منه فيما يتصل بالعرب ، لأن الهجرات العربية الكبيرة انتهت بنهاية عصر الولاة ، فلم يفد منهم على الأندلس بعد ذلك إلا أفراد أو بيوت أو جماعات قليلة ، أما البربر فقد كان تيار هجرتهم متصلاً ، بحكم الجوار أولاً ، وبحكم الجاذبية الخاصة التي كانت لشبه الجزيرة الأندلسية على بربر الشمال الإفريقي ثانياً ، ولأسباب سياسية ثالثاً . ومن ثم فإن القطع بشيء في هذه الناحية لا يخلو من مجازفة ،

---

(١) المقري : نفح الطيب ، جـ ٢ ، ص ١٦٣ .
(٢) ابن القوطية : افتتاح ، ص ١٣ ـ ١٤ .

وكـل ما سنـذكره فيها يتصل بمنازل البربـر خلال عصر الـولاة ينبغي أن يؤخـذ بحذر .

١٦٤ ـ جماعات البربر الأولى يـذهب ابن خلدون إلى أن جموع البـربر التي دخلت الأنـدلس مع الفتح وبعده بقليل كانت من قبائل مطغرة ومديونة ومكناسة وهوارة[1] ، وهذه القبائل كلهـا من زناتـة أو من البربـر البتر ، وكل منها أشبه بالشعب الكبير الذي تتفرع عنه القبائل الصغيرة ، وكانت بطونها متفرقة في نواحي المغرب ، ولكن كتلة هوارة ونفوسة كانت منتشرة على سـواحل البحـر الأبيض من حدود مصر إلى طـرابلس ، أما مـديونـة فكانت منـازلها عـلى ساحل البحر من نواحي المغـرب الأوسط إلى سبتة ، ومـطغرة كـانت تحتل إقليم طنجة وتمتد على ساحل المحيط الأطلسي . ومن هذه الأصول الأربعة كان جيش طـارق بن زياد ، وكـانت الأمداد البـربريـة التي أتت عقيب الفتح وشـاركت في إتمامه وفي فتوح غالة . ويضيف ابن حزم إليها نفزة ، وهـم أولاد نفزاو أكبر أبناء لاوي الأكبر جد اللواتيين جميعاً . ونفزة قبيل ضخم لا يقـل عن مطغـرة وهوارة ونفوسة ومديونة ، ويذكر أيضاً مغيلة وملزوزة وهما بطنان صغيران من بطون البتر ينتسبان إلى ضري بن مادغيس أخي لاوي الكبير ، ومعنى ذلك أن أولئك البربر الذين دخلوا الأندلس أول الأمـر كانـوا جميعاً بتـراً ، وفيهم زناتيـة مثل مكنـاسة والباقي من بطون بترية أخرى .

ولم يكن البـربـر إذ ذاك يقسمـون أنفسهم هـذا التقسيم الحـاد إلى بـتر وبرانس ، لأن ذلك ظهـر فيها بعـد ، عندمـا سرت عـدوى العصبية القبليـة من العرب إلى البربر ، وعندما بدأ البربر يستقلون بأنفسهم ويقيمون الدول معتزين بـالعصبيات والأصـول : بدأت ذلـك صنهاجـة من البرانس ثم تلتهـا زناتـة من البـتر . أما في الفتـرة التي نحن فيها ، فلم يكـونـوا جميعـاً إلا بـربـراً إلى جـوار العـرب . وتدل الـدلائل عـلى أنه كـانت فيهم جماعـات مصموديـة ، فيحـدثـنـا صاحب « فتح الأندلس » أنه كان يرأس جماعة البربر بتـاكُرنـا « في جبال رنـدة »

(١) ابن خلدون ، طبعة بولاق ، جـ ٢ ، ص ١٠٦ وما يليها .

زعيم يسمى عبد الرحمن بن عوسجة[1] ، وهو جد بني عوسجة المصموديين (من البتر أي البرانس) الذين كثروا فيها بعد في الأندلس وعمروا نواحي جنوب شنتبرية الغرب ، حتى صارت تسمى « بلاد عوسجة » ، وإليه أيضاً ينسب دانس بن عوسجة الذي أنشأ قصر أبي دانس Alcocer de Sal على مقربة من قلنبيرة Colenbeira [2] في البرتغال الحالية . ويذكر ابن القوطية أن رئيس برابر ناحية موررور أثناء دخول عبد الرحمن بن معاوية كان إبراهيم بن شجرة[3] ، وهو من المصامدة . ويذكر ابن القوطية أيضاً أن جماعة من الهواريين نزلت خلال عصر الولاة على مقربة من جيان ، والهواريون مختلف في نسبهم ، فهم من البتر حيناً ومن البرانس حيناً ، كما يختلف العرب في نسبة قضاعة[4] .

وقد ذهب سيزار دوبلر في بحث قيم عن « منازل البربر في الأندلس » يبحث عن أسماء المواضع الإسبانية التي يمكن ردها إلى أصل بربري ، واستنتج من هذه الأسماء أن البربر لا بد أن يكونوا قد سكنوها وأعطوها أسماءهم . واستطاع بذلك اكتشاف الكثير من منازل البربر مما لم يسجله المؤرخون ، ولا نستطيع القطع بأن هذه المنازل ترجع إلى عصر الولاة ، لأن تيار البربر لم ينقطع عن الأندلس طوال العصور الإسلامية ، ولكننا نستطيع القول بأن المواضع التي ذكرها دوبلر في أقصى الشرق أو في الشمال أو قاصية الغرب يمكن اعتبارها منازل قديمة ترجع إلى عصر الفتح الأول ، لأن البربر الذين نزلوا الأندلس ابتداء من عصر الناصر كانوا يستقرون في الجنوب والوسط والشرق ، دون أن يستقروا في أماكن متطرفة كانت في ذلك الحين ميدان حرب . واعتماداً على ذلك يمكن القول بأن مواضع مثل التالية يمكن اعتبارها من منازل البربر الأول في الأندلس :

Villa Nova de Ourem في البرتغال الحالية نسبة إلى بربر وهران .

---

(١) فتح الأندلس ، ص ٥٣ .

(٢) ابن حزم : الجمهرة ، ص ٤٦٥ .

(٣) ابن القوطية : افتتاح الأندلس ، ص ٥٣ .

(٤) نفس المصدر ، ص ٣٢ .

Tunis في البرتغال الحالية نسبة إلى بربر تونس .

Alquerubim في البرتغال الحالية نسبة إلى بربر القيروان .

Arzila في البرتغال الحالية نسبة الى بربر أرزيلا ، وهي أصيلا .

Adzenata في الشرق على مقربة من قسطليون Castellon نسبة إلى زناتة Sanet أو Senet قرب لاردة نسبة إلى زناتة .

Benisanet قرب طركونة نسبة إلى زناتة .

Butsenit قرب لاردة نسبة إلى زناتة .

Barasal قرب جواردا في البرتغال نسبة إلى بني برزال (زناتة) .

Mequinenza في الثغر الأعلى عند ملتقى الأبرة بنهيرة الأشقر (Segre) نسبة إلى مكناسة .

Ceneja قرب قسطليون نسبة إلى صنهاجة .

Cenija ضاحية من ضواحي سرقسطة نسبة إلى صنهاجة .

Azinhaga في البرتغال نسبة إلى صنهاجة .

Cotanes قرب بلد الوليد نسبة إلى كتامة .

Cotanillos حي من أحياء شقوبية نسبة إلى كتامة .

Cotimos و Alcoutim في البرتغال نسبة إلى كتامة .

Benigomar بناحية أنكا نسبة إلى غمارة .

Gomara بناحية صورية Soria نسبة إلى غمارة .

Gomeriz و Gomeris في جليقية نسبة إلى غمارة .

Albornos بناحية أبلة نسبة إلى البرانس .

وغير ذلك كثير(١) .

وقد ذكرنا هذه المواضع على سبيل المثال لا على سبيل الحصر لنستنتج أن البربر انتشروا منذ العصر الأول في نواحي شبه الجزيرة كلها . وقد اكتفينا بذكر المواضع المتطرفة في أقصى الشمال الشرقي والشمال والغرب وتركنا غير ذلك من مواضع الوسط والجنوب والجنوب الشرقي والجنوب الغربي ، إذ لا تكاد تخلو ناحية من هذه النواحي أو مدينة من مدنها من منازل بربرية . ثم إننا ـ كما قلنا ـ لا نستطيع القطع بأن البربر نزلوا مواضع الجنوب والوسط والجنوب الشرقي والجنوب الغربي من أول الأمر(٢) .

بيد أننا نستطيع القول بأن المواضع التي قامت فيها إمارات بربرية فيما بعد أو التي ولي عليها أمراء بني أمية وخلفاؤهم ولاة من البربر كانت منازل بربرية من قديم الزمان ، لأن الأمراء لا يولون أميراً بربرياً على ناحية معظم سكانها عرب أو من أهل البلاد . ومن غير الممكن كذلك أن تقوم إمارة بربرية في ناحية لا يغلب على سكانها العنصر البربري ، لأن حكم هذه النواحي كان لا يقوم إلا على عزوة وعصب متأصلين .

---

(١) انظر :

CESAR E. DUBLER : *Ueber Bernersiedlungent auf der Iberishen Halbinsel* وقد نشره في SACHE und ORT, *FESTSCHRIFT Jarob Jud* ، وهو عدد من *Romanica Helvetica* Band 20, pp. 183 - 203. Zuerich. Genf. 1942 والنقد الذي كتبه J.Oliver Asin في مجلة الأندلس . العدد الأول سنة ١٩٤٣ ، ص ٢٦٢ ـ ٢٦٧ .

(٢) ودليل ذلك ما يذكره صاحب الأخبار المجموعة حيث يقول في كلامه عن الصراع بين العرب والبربر في الأندلس : « وكانت قد رأست البربر على أنفسها ابن [بياض الأصل] وحشدوا من جليقية وأستورقة وماردة وقورية وطلبيرة ، فاقبلوا في شيء لا يحصيه عدد حتى أجازوا نهراً يقال له تاجة » (ص ٤٠) وهي عبارة تدل على أن جماعات البربر في النواحي التي ذكرها كانت كثيرة قبل هذه الفتنة حتى استطاعوا أن يحشدوا منها أعداداً لا تحصى . وقد هجر الكثير من أولئك البربر مواضعهم بعد ذلك على ما فصلناه ، ولكن بقيت منهم في كل من هذه النواحي جماعات قليلة . أما في نواحي طلبيرة وماردة وقورية فقد ظلت جماعات كثيرة منها على طول العصور الإسلامية .

١٦٥ ـ البربر في الثغور

وعلى هذا الأساس نستطيع أن نفسر البيانات التي يقدمها ابن حزم في كلامه على « بيوتات البربر في الأندلس » في جمهرة أنساب العرب عن أصول البربر ومنازلهم ، مثل قوله :

أمراء الثغر[١] :

بنو هذيل	من مديونة	
بنو عبدوس	من سُرِتَّة	من ناحية صَدِّينة
بنو غزلون	من تيروال	
بنو عميرة	من ألهاصة من نفزة	من ناحية شاطبة
بنو رزين	من مديونة	السهلة
بنو ذي النون	من هوارة	وبذة
بنو فَرْفَرِن	من هوارة	ماردة ومِدلِّين
بنو نبيه وبنو الأخطل		شذونة
بنو الفرج	من مصمودة	وادي الحجارة
بنو مضي	من مصمودة	قصر مضي
بنو رسين	من مصمودة	
بنو زروال	من مغيلة	المُتَنَانِية
بنو الياس	من مغيلة	شذونة
بنو عزون	من زناتة	شنتبرية

فهؤلاء جميعاً كانوا أمراء على نواحيهم مما يدل على كثرة بربرية فيها ، ثم إن وصفه لهم بأنهم « أمراء الثغر » يدل على أن معظم أمراء الثغر كانوا من البربر ، أي أن معظمْ النواحي الشمالية كانت منازل للبربر . وعندما نذكر ما قلناه عن مونوسة الذي كان والي الثغر كله من حدود ألبرت إلى المحيط ، تتأكد لدينا هذه الحقيقة . أضف إلى ذلك أن مجموعة منازل البربر التي ذكرها ابن حزم تكون خطاً واحداً يبدأ من نواحي جبال ألبرت عند لاردة ووشقة ثم ينحدر إلى ناحية مدينة سالم (قاعدة الثغر الأوسط فيها بعد) فقد نزلها بنو سالم من

(١) يلاحظ أن الكثير من المواضع التي سيذكرها ليس من الثغر

البرانس وأعطوها اسمهم ، وسكن إلى جوارهم بنو الفرج وبنو عوسجة . وفي الدائرة الواسعة التي تحيط بمدينة سالم والتي تضم شنتبرية والسهلة ووادي الحجارة نجد كتلة بربرية ضخمة تعمر هذه النواحي كلها إلى أحواز طليطلة ، وهذه الكتلة تتكون من بني الفرج وبني سالم وبني عوسجة وبني صبرون بن شبيب وآل وهب بن عامر الهواريين ، وكل هؤلاء من البرانس ، ثم بني عزون وبني بلال وبني نعمان وكلهم من البتر . وتمتد هذه الكتلة البربرية شرقاً فتشمل تيروال حيث نزل بنو غزلون وناحية البوت حيث نزل بنو قاسم ، ثم تتصل هذه السلسلة البربرية ، بناء على البيانات التي يقدمها صاحب الأخبار المجموعة ، فتشمل مناطق طلبيرة (جنوبي طليطلة) وماردة وقورية بين التاجة والدويرة ثم تصل إلى ساحل المحيط عند قلنبيرة حيث نجد فرعاً من بني عوسجة وبني دانس عند قصر أبي دانس . ويذكر ابن حزم فرعاً من بني الفرج استقروا في طرسونة أي فيما يلي جبال ألبرت من نواحي غالة ، وهذه الجماعة إن هي إلا بقية من البربر الذين كانوا يعمرون النواحي القصية من الأندلس والذين كانوا يمتدون بحذاء خليج بسكاية ويعمرون حوض نهر المنيو ويتوغلون في جليقية ، وقد اكتشف سيزار دوبلر ـ كما رأينا ـ مواضع ذات أسماء بربرية كثيرة في هذه النواحي القاصية .

وقد رأينا في كلامنا عن البربر والعرب كيف انسحب معظم البربر الذين كانوا يعمرون « ما وراء الدروب » أي شمالي نهر الدويرة إلى الجنوب وعاد بعضهم إلى إفريقية ، ورأينا كيف أن جموعهم أزعجت العرب واضطر عبد الملك ابن قطن إلى السماح لجند بلج بدخول الأندلس لينقذوا من فيه من العرب ، ولولا أن أعداد أولئك البربر كانت كثيرة جداً لما أفزعت العرب إلى هذا الحد . ومعنى هذا أن ما يلي نهر دويرة شمالاً والحوض الأعلى لنهر إبرة ثم ما بين نهر الدويرة وتاجة ، هذه النواحي الفسيحة كلها كانت عامرة بالبربر وكانت لهذا دار اسلام في ذلك الوقت المبكر ولم يخرجها من بلاد الإسلام ويجعلها بلاداً نصرانية أو بلاداً خلاء مفتوحة للامتداد النصراني من الشمال ، إلا هذه الفتنة العمياء التي وقعت بين شعبي الإسلام الكبيرين اللذين فتحا هذا البلد وأدخلاه في

نطاق الدولة الإسلامية الواسعة[1] .

والأدلة كثيرة على أن البربر الذين دخلوا الجزيرة أول الأمر اختلطوا بعرب الطالعة الأولى المسمين بالبلديين وأصبحوا معهم حزباً واحداً لا فرق فيه بين عربي أو بربري ، بل كان الجانبان إلباً واحداً على الشآميين أو عرب الطالعة الثانية . قال ابن القوطية في « افتتاح الأندلس » : « وتولى أمر قرطبة والشآميين والأمويين ثعلبة بن سلامة العاملي ، وانصرف عبد الرحمن بن علقمة إلى الثغر ، وبقي عرب الأندلس وبربرها يحاربون الأمويين والشآميين ويتعصبون لعبد الملك ابن قطن الفهري ويقولون لأهل الشام : بلدنا يضيق بنا فاخرجوا عنا »[2] . وقال في خبر ولاية أبي الخطار : « فلما أشرف من فج المائدة والحرب قائمة بين الشآميين والأمويين وبين البلديين والبربر ونظر الفريقان إلى اللواء خلوا الحرب . . »[3] . وقال بعد ذلك : « فقال أهل البلد والبربر : سمعنا وأطعنا ، ولكن لا محل فينا لهؤلاء الشآميين فيخرجوا عنا »[4] . وقال بعد خبر تفريق الشآميين في الكور : « وبقي البلديون والبربر على غنائمهم لم ينتقصهم شيء »[5] . وقد ظل هذا الحلف بين البلديين والبربر قائماً حتى نهاية عصر الولاة ، بل إن « الموالي » أنفسهم ـ وستتحدث عنهم ـ كانوا ينقسمون قسمين : البلديين والبربر في ناحية والشآميين في ناحية أخرى ، وكانت الصدارة بين الموالي للشآميين منهم .

ويؤيد صاحب الأخبار المجموعة ما قلناه عن اتحاد العرب البلديين مع البربر بقوله في سياق الحديث عن الصراع بين بلج وأصحابه والعرب البلديين : « فبيناه محصوراً قد نزل أهل البلد من البربر والعرب وجلهم البربر على ماردة إذ

---

(١) هذه البيانات مستقاة من « جمهرة » ابن حزم ، ص ٤٦١ ـ ٤٦٧ . وعبارة « الأخبار المجموعة » التي أشرنا إليها واردة في ص ٤٠ وقد أوردناها بنصها فيما سبق .

(٢) ابن القوطية : افتتاح ، ص ١٧ .

(٣) نفس المصدر ، ص ١٩ .

(٤) نفس المصدر والصفحة .

(٥) نفس المصدر ، ص ٢٠ .

حضرهم عيد فطر أو أضحى . . »[1] ثم يقول بعد ذلك : « فجمع له أهل البلد ـ العرب والبربر ـ جمعاً »[2] .

١٦٦ ـ هل اختص العرب أنفسهم بأحسن نواحي الأندلس ؟

وقد كثر كلام المؤرخين في أن العرب اختصوا أنفسهم بأحسن نواحي الأندلس ، فلم يتركوا للبربر إلا النواحي الجبلية أو القاحلة أو القصية في الشمال ، وأن ذلك كان من أكبر أسباب الثورة البربرية . ولكننا رأينا في كلامنا على هذه الثورة أن الذي أغضب البربر لم يكن احتجان العرب لأحسن المواضع ، وإنما لسوء سياسة العرب جملة ، فقد تخاصم العرب فيما بين بعضهم وبعض بسبب سوء هذه السياسة لا بسبب انفراد فريق منهم دون آخر بخيرات البلاد . ذلك أن شبه الجزيرة الإيبيرية فسيح يتسع لأضعاف من نزل هناك من العرب والبربر معاً . ثم إن العرب لم يختاروا مواضعهم ، ولكنهم استقروا حيث شاءت لهم المقادير على طول خطوط الفتح ، أي في النواحي التي عرفوها لأول دخولهم البلاد . وقد فرق أبو الخطار عدداً عظيماً من الشآميين في الكور ، التي عرفت فيما بعد بالكور المجندة ، واختار لهم هذه الكور بنفسه ، أي أن الذين نزلوا لم يختاروها هم بأنفسهم ، أي أن العرب لم يكونوا يتخيرون بل كان استقرارهم في الغالب نتيجة مصادفات ، فقد رأينا مثلاً كثرة العرب وتزاحمهم في منطقة جيان ، والسبب في ذلك واضح يفسره قول ابن الخطيب في كلامه عن فتح جيان والبيرة ومالقة أن طارقاً « سار في معظم الناس إلى كورة جيان يريد طليطلة »[3] . فلو لم يكن « معظم الناس » قد مروا بهذه الناحية لما كثر العرب فيها ، ولو أن العرب مروا أول الأمر بناحية قطلونية ورأوا خصب أراضيها

---

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٤٤ .

(٢) نفس المصدر والصفحة .

(٣) ابن الخطيب : الإحاطة (طبعة محمد عبد الله عنان ، القاهرة ١٩٥٥) ، جـ ١ ، ص ١٠٧ . وقد نسب ابن الخطيب فتح هذه الناحية أول الأمر إلى طارق ثم عاد فصحح ذلك في نفس الصفحة فقال إن هناك من يقول إن ذلك الفتح تم في أيام موسى بن نصير سنة ٩٣ على يد ابنه عبد العزيز بن موسى أثناء ولايته على ما قلناه .

لتزاحموا فيها ، ولكن لم يعرفها منهم إلا القليل في زمن متأخر فظلت شبه خلاء منهم ، لم يسكنها إلا جماعة من تجيب ، وقد أشرنا إلى ذلك .

ولدينا دليل واضح على أن العرب الأول لم يختصوا أنفسهم دون البربر بأحسن الأرضين ، وهو أن عرب الطالعة الأولى ، طالعة موسى ، كانوا دائماً أحلافاً للبربر على الشآميين لأنهم تقاسموا معهم ما نزلوا به من البلاد ، وساءهم جميعاً ـ عرباً وبربراً ـ أن يحاول الشآميون مشاركتهم في هذه الأراضي فنفروا يدافعونهم عنها ، واشتدت الخصومة بين الجانبين .

وحقيقة الأمر أن المسلمين الأول الذين دخلوا البلاد ، عرباً وبربراً ، استقروا حيث نزلوا أو ساروا ، ولجأ كل فريق منهم إلى ما يناسب مزاجه من النواحي : فأما العرب فكانوا يفضلون دائماً البسائط والمنخفضات والنواحي الدافئة والقليلة المطر في الجنوب والشرق والغرب وناحية سرقسطة ، وأما البربر فكانوا في بلادهم يعيشون في بلاد جبلية عالية ، فألفوا مثل هذه البلاد في الأندلس ، فاستقروا فيها باختيارهم . ففي الجنوب مثلاً استقر العرب في شذونة واستجة ، واختار البربر منطقة رندة الجبلية فسكنوها ، وسميت تاكُرنّا باسم بعض قبائلهم ، وأعجبتهم نواحي قبرة ومورور وأشونة فنزلوها واختلطوا مع العرب في بقية نواحي الجنوب . ثم إن جماعات من البربر أحبت الانفراد بنواح يكونون فيها مستقلين ، على مثل أحوالهم في بلادهم الأولى في إفريقية ، فاستقروا فيما بين نهري دويرة وتاجة ، وهي نواحي هضاب مرتفعة تناسبهم من كل وجه .

١٦٧ ـ تحول البربر الى بلديين وأثره

استقر البربر إذاً إلى جانب العرب في بعض النواحي ، ومنفردين بأنفسهم في نواح أخرى ، واختلطوا في كل ناحية بالأهلين وارتبطوا معهم بروابط الزواج وتحولوا مع الزمن إلى « بلديين » أي أندلسيين . وقد كان لهؤلاء البربر أثر عظيم جداً في انتشار الإسلام في الأندلس ، فإن البربري قريب جداً من حيث المزاج والطبع ـ والأصل أيضاً ـ من أهل البلاد الأصليين ، وخاصة أولئك الذين كانوا يعمرون الأرياف منهم ، فامتزجوا بهم دون تكلف . ثم إن البربر لم يعرفوا

عصبيـة الجنس التي أفسدت عـلى العرب الكثـير من أمورهم ، وكـانوا شـديدي الحماس للإسلام ، فقد كان الإسلام بالنسبة إليهم رمز سيادة ، فأظهروا العصبية له ، واجتهدوا في نشره ، وأعانهم على ذلك أنهم بطبعهم جنـس متدين شديـد التعلق بعقيدته ، فلا غرابة والحالة هذه أن تكون هذه الجمـاعات البربريـة التي انبثت في نواحي البلاد من أكبر العوامل في تحول أهلها إلى الإسلام . ولو درسنا طبيعة الإسلام الأندلسي حتى نهاية القرن الرابع الهجري على الأقل ، لتبينا أنها تشبه طبيعة الإسلام المغربي عامة من حيث التمسك الحرفي بأهداب العقيـدة والـتزام مذهب واحـد والتعصب له ، والحـرص عـلى تبجيـل رجـال الـدين ، والمتصوفين منهم بصفة خاصة ، والميل إلى تقديس الأولياء وحب الجهاد في سبيل الدين وما إلى ذلك . وقد أشار ليڤي بروڤنسال إلى غلبة الطابع الـبربري عـلى الأندلس بقوله : « وفي هذا الصدد ، ربما كان « الطابع البربري » أظهر وأوضح اليـوم في إسبانيـا وجنوبي الـبرتغال من « الـطابع العـربي » بالمعنى الـدقيق لهذا اللفظ ، وذلك في كثير من ظواهر الحياة الريفية ، والنشـاط الزراعي »[١] .

١٦٨ ـ غلبة الزناتيين على البربر الأول في الأندلس

وكان معظم من أقبل إلى الأندلس خلال هذه الفتـرة الأولى من الزناتيين ، وكان زعماؤهم كذلك زناتيين ، فقد كان أبو زرعـة طـريف وطارق بن زيـاد زناتيـين وكان زعيم البـربر في ثـورتهم الكبرى التي أشرنا إليها زناتياً ، وكان بنو الخليع وبنو وانسـوس الذين أعانوا عبد الرحمن الداخل على إقامة إمارته زناتيين ، وقـد رأينا أن معـظم أسماء الأماكن البربرية في نواحي أشتريس وجليقية زناتية . ثم إن البـتر (ومنهم زناتة) كانوا أول أهل افريقية إسلامـاً ، وقد انضم جمـاعات منهم إلى المسلمـين منذ أيام عقبة بن نافع وأسلمت واشتركت في فتـح المغربـين الأوسط والأقصى ، وكان ولاة إفريقية يتخذون منهم حرسهم وخاصة جندهم[٢] . وكـان منهم زعماء

---

(١) LEVI - PROVENÇAL, *Hist. de l'Espagne Musulmane* 2e. éd. Paris, 1950 Vol I p. 88.

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح ، ص ٢١٤ .

الثورة في إفريقية ، مثل ميسرة المطغري وخالد بن حميد الزناتي . وذلك كله يؤيد غلبة العنصر الزناتي على من دخل الأندلس من البربر خلال هذه الفترة الأولى .

ومن المعروف أن الزناتيين كانوا أقرب إلى العرب وأشبه بهم من الصنهاجيين ، فقد كانوا بدواً مثلهم ، ثم إنهم كانوا على الوثنية حتى دخول المسلمين البلاد ، ففتح لهم الدين الجديد أبواب التحضر والانتظام فساروا جنباً إلى جنب مع العرب الأول ، وخاصة البلديين منهم .

وكان هؤلاء البربر في مجموعهم أبسط طبعاً وأكثر سذاجة من العرب ، وأقرب إلى تذوق بساطة الإسلام من كثيرين من العرب الذين أقبلوا إلى الأندلس بعد تقلب طويل في الفتن في المشرق ، ولهذا كان أولئك البربر يصرون على التمسك بمبادىء العقيدة ، وكانوا يحاجون العرب وينتقدون تصرفاتهم معهم مستندين إلى أصول الشريعة ، كما كان يلقنها لهم دعاة إسلاميون انبثوا بين صفوفهم . ولهذا أيضاً سهل اجتذاب الكثيرين من أولئك البربر إلى مبادىء الخارجية ، الأباضية والصفرية بصفة خاصة ، لأن دعاتها بين البربر كانوا كثيرين ولأن ظاهر هذه المبادىء ، كما كان أولئك الدعاة يشرحونها ، أقرب إلى مبادىء الاسلام الصحيح .

١٦٩ ـ البربر والفتوح في غالة

وإلى هذه الجماعات البربرية يرجع جانب كبير من دافع العرب إلى الاسترسال في الفتوح في غالة ، كانت جماعات البربر تجوز إلى الأندلس وقلوبها معلقة بالفتح والجهاد وما يتعلق بهما من مغانم وأسلاب ومكاسب ، وكانوا يتجمعون في الأندلس فلا يستطيع العمال تركهم دون عمل يتسكعون في العاصمة وحولها ، فكانوا ينهضون معهم للغزو . ولا شك أن حملات واسعة المدى ، كتلك التي قام بها السمح بن مالك أو عنبسة بن سحيم ، ما كانت لتتم لولا وجود هذه الجماعات البربرية المتوفزة المتعطشة للفتح ومغانمه . وكلما زاد نشاط الفتح زاد هؤلاء البربر ضراوة على الحرب وطمعاً في المغانم ، وربما اشتد طمع بعضهم في الأسلاب فكان ذلك من أسباب فشل بعض الحملات .

كـان في هؤلاء البربـر إذاً قوة تـدفعهم الى الاسترسـال في الفتـوح ، كـما كانت شعوب المتبربرين يدفع بعضها بعضاً نحو أراضي الدولة الرومانية .

هكـذا يمكننا تعليـل جانب من هـذا النشاط الحـربي العظيم الـذي أبـداه المسلمون في فتوح الأندلس وغالة .

ومن العسير جداً أن نقدر أعداد العرب والبربـر الذين اشتـركوا في هـذه الأعمـال الحـربيـة ، لأن أعداد من اشتـرك منهم في الجيـوش الـرسميـة ـ وهي الأعداد التي رواها المؤرخون ـ لا تكون إلا نسبة ضئيلة من العرب والبربر الذين هاجروا إلى الأندلس على هيئة تيار متصل : فقد كانت الاضطرابات السياسية في المشـرق ، وميل خلفـاء بني أمية إلى القيسيـة حيناً وإلى اليمنيـة حينـاً ، سببـاً في هجرة جماعات من العرب معظمهم من اليمنيين والمدنيين إلى الـولايات وخـاصة المغرب والأندلس ، وقـد استقر نفـر قليل من هؤلاء العـرب في إفريقية واستمر الأكثرون في طريقهم حتى حـطوا رحالهم بـالأندلس ، أمـا البربـر فكان تيـارهم أقوى وأعدادهم أكبر ، ولا يمكننا تصـور تحول بلد كـالأندلس إلى الإسـلام هذا التحـول السـريـع إلا بـافتـراض أن أعـداد المهـاجـرين المسلمـين كـانت كبيـرة فعلاً[1] .

ومن الطريف أن نلاحظ أن البربر ـ على حداثة عهدهم بـالإسلام ـ كـانوا أكـثر تمسكاً بـالإسلام وحمـاساً للفتـح من العرب ، لأن الإسـلام كـان وسيلتهم الأولى في النهـوض بأنفسهم والاحتفـاظ بحقهم كأنـداد للعرب وسـادة في البلاد المفتوحة وأصحـاب حق في الغنائم والأرضـين ، ولهذا نـراهم يحتجون دائماً على العرب ويتهمونهم بمخالفة الدين ويطالبونهم بتنفيذ أشراطه . وكانوا إذا استقـروا في الأرياف استمسكوا بـالاسلام حتى يميـزوا أنفسهم عن أهل البـلاد ، ولهذا لا

(١) ويؤيد ذلك بوضوح قول الرازي : « إن الذي أزعج موسى من الأندلس أبو نصر رسول الوليد ، فقبض على عنانه وثناه قافلاً ، وقفل معه من أحب إلى المشرق ، وكان أكثر الناس قـطنوا بـبلاد الأنـدلس لطيبهـا فأقـاموا فيهـا » مما يـدل على أن عـدداً قليلاً جـداً ممن ورد البلاد من الفـاتحين المسلمين قد غادرها وعاد إلى افريقية أو إلى المشرق . وسنلاحظ أن معظم من يقبـل إلى الأندلس يستقر فيه ولا يعود يفارقه أبداً (المقري : نفح الطيب ، جـ ١ ، ص ١٧٧) .

نبالغ إذا قلنا أن جانباً عظيماً من الفضل في إسلام أهل الأندلس يرجع الى هؤلاء البربر الذين آمنوا بالدين الجديد في سذاجة وقوة ، واحتفظوا بهذا الإيمان لأنه يكسبهم حقوقاً معنوية ومادية لا يبلغونها بدونه .

وقد أساء العرب معاملة هؤلاء البربر من أول الأمر كما رأينا ، فنما في نفوسهم شعور من الخوف من العرب ، حتى إذا قامت الثورة البربرية في إفريقية وانتقلت إلى الأندلس وقعت القطيعة بين الحيين وصار الأمر بينهما إلى عداء سافر خطر . وقد انتهى الدور الأول من الصراع بانتصار العرب ، فهاجر من البربر من هاجر ، وأقام على خوف من أقام ، حتى بدأت بشائر الدولة الأموية فانضموا إلى عبد الرحمن ، وهم لا يكادون يثقون في حسن نواياه ، وكان لا بد له من أن يخوض صراعاً طويلاً معهم ـ كما فعل مع غيرهم ـ حتى يخضعهم للدولة الجديدة ، وانتهى الأمر بهم إلى الطاعة والاستقرار .

١٧٠ ـ البربر والعرب البلديون

ولا نزاع في أن البربر انضموا إلى البلديين وكونوا حزباً واحداً منذ بدء الصراع بين هؤلاء وبين الشآميين كما قلنا ، ولكن انضمامهم هذا لم يكن خالصاً ولا صادقاً ، لأنهم عرفوا من ويلات البلديين إلى ذلك الحين ما نفرهم من العرب جملة ، ولصاحب الأخبار المجموعة عبارة عظيمة الدلالة ذكرها أثناء روايته للنزاع بين بلج بن بشر والبلديين ، قال : « فلما بلغ ابنيه (ابني عبد الملك بن قطن وهما أمية وقطن) ما كان ، حشدا من أقصى أربونة ، وراجعا أهل البلد والبربر **وسيوفهم تقطر من دماء البربر** ، فرضيت البربر أن تنال ثأرها من أهل الشآم ، **فإذا فرغوا كان لهم في أهل البلد رأي** »[1] مما يدل على ما كان يخامر نفوس البربر جميعاً نحو العرب ـ بلديين وشآميين ـ من الكراهية والخوف .

وقد أشرنا إلى ما خلفه القيسيون من الأحقاد في قلوب البربر بسبب أفاعيلهم فيهم عندما نزلوا البلاد بقيادة بلج ، ورأينا أن البلديين انضموا الى الشآميين أثناء هذه المحنة ، فلما انتهت بالقضاء على البربر وتقتيلهم في كل ناحية

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٤١ ـ ٤٢ .

زاد نفور من بقي منهم ، وأخذوا ينظرون إلى العرب نظرهم إلى عدو ، فكانوا لا يسيرون معهم إلا على خوف ، ومن دلائل ذلك ما يرويه ابن القوطية في أخبار عبد الرحمن بن معاوية الداخل وإنشائه دولته ، قال : « فلما كان بالعشي ركب مع ثقات من مواليه ورجاله ونفر من العسكر ، فسمع البربر يتكلمون في العسكر بالبربرية ، فدعا بمواليه من البربر مثل بني الخليع وبني وانسوس وغيرهم وقال لهم : **خاطبوا بني عمكم وعظوهم وأعلموهم أنه إن تغلب العرب وقطعوا دولتنا فلا بقاء لهم معهم** ، فلما أظلم الليل دنوا من العسكر ، وخاطبوهم بالبربرية فأجابوهم الى ما أحبوه ووعدوهم ، إلى أن انحرفوا عن عسكرهم ، لما أصبح لهم (كذا) قالوا للعرب : إنا لا نحسن الحرب إلا فرساناً فاحملوا من بقي منا على الخيل ، فأرجلوا العرب وحملوا البربر على خيلهم . ودخلوا رجالة فخرقوا إلى عبد الرحمن ، ووقعت الهزيمة على عبد الغفار »[1] مما يدل على أن بعض البربر الذين كانوا في صفوف عبد الرحمن كانوا متخوفين مترددين يفكرون في الانقلاب عليه ، وأنه استعان على كسبهم بتخويفهم مما سيصيبهم على أيدي العرب إذا هو انهزم ، وكان هذا التخويف كافياً لتغيير رأيهم فأخلصوا في القتال في صفوفه ونصروه .

١٧١ ـ جماعات السودان في الأندلس

وينبغي أن نذكر أنه كانت هناك إلى جانب البربر الذين هاجروا إلى الأندلس واشتركوا في الفتوح جماعات من السودان أو السود ، فقد قال صاحب « فتح الأندلس » مثلاً في كلامه عن غزوات موسى : « وقدم السودان بين يديه للفتح والغارة »[2] ، ويبدو أن أعدادهم كانت قليلة ، ولهذا كان أثرهم قليلاً . والغالب أنهم ظلوا مجرد جنود يحاربون إلى جانب هؤلاء وأولئك ، ثم اندرجوا في جيوش الدولة الأموية بعد ذلك ولم نعد نسمع عنهم .

---

(١) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٣٢ .
(٢) فتح الأندلس ، ص ٥ .

١٧٢ ـ تأثر البربر بالبيئة المحلية

تأثرت جماعات البربر المستقرة في الأندلس بالبيئة الجديدة تـأثراً عـظيماً ، فكـان الجيل الأول منهم لا يكـاد ينقضي حتى يـطلع الجيل الجديـد أندلسيـاً قد أنسي أصله واتخـذ الأندلس وطنـاً ، فأما من الناحية العقلية المعنوية فكانـوا يجتهدون في التعـرب : يتعلمون العـربية ويقبـل من له ميـل منهم على دراسـة الإسلام والتفقـه فيـه ، وأمـا من النـاحيـة المعاشية فنجد البربر قد ارتبطوا بمن يجاورونهم من أهل البلاد بالصهر والقرابة ، وأخذوا عن أمهاتهم الإسبانيات لغتهن في الحديث ، أي أن شأن أولئـك البربـر كـان شأن غيـرهم من مهاجـرة العرب ، طـوتهم البيئـة الأنـدلسيـة الغـلابـة في ثـناياهـا ، فأصبحـوا أندلسيـين ، ومنهم من اتخذ لنفسـه اسـماً عـربيـاً زيـادة في التعـرب ، ومن هنا كـانت أسماء جمـاعـاتهم ذات الأسـماء العـربيـة التي ذكـرنـا بعضهـا . ومن الواضـح أن البربـر كانـوا أسرع انـدماجـاً من العـرب في البيئـة الجديدة ، فقد حالت بين العرب وبين الاندماج السريع الكامل عصبيتهم ولغتهم العربيتان ، أما البربر فلم يكن هناك ما يحول بينهم وبـين الاندمـاج ، لا عصبية ولا لغـة مكتـوبـة . ثم عمـل الإسلام عمله فيهم ، فـانتـظمـوا وتحضـروا ، وأصبحت غـالبيتهم مع الـزمن في جملة العـرب الأنـدلسيـين . وقـد كـان لهؤلاء الأندلسيين الذين رجعوا إلى أصل بربري أعظم الأثر في بناء الأندلس الاسلامي من كل ناحية .

وقد أشار ليفي بروڤنسال إلى أن الـزواج بينهم وبين العـرب كان قليـلاً أو منعـدماً ، وليس لـدينا مـا يؤيد ذلـك ، لأن العرب مهـما قيـل في اعتـزازهـم في أنفسهـم لم يكـونوا يعتبـرون أنفسهـم جنساً متميـزاً بدمـه عن غـيرهم ، كـما كـان الحال مع الـرومان أو القـوط ، بل كـانوا من أكـثر الشعوب امتـزاجاً بغيـرهـم . وللإسلام في ذلك أثر واضح .

جـ ـ الموالي

ولا يكتمـل الكلام عـلى العرب والبـربر بـدون الإشارة إلى المـوالي ، فقد كانوا خلال هذه الفترة كلها عاملاً من أكبر العوامل في توجيه تيار الحوادث ، ثم

كانت لهم بعد ذلك اليد الطولى في إقامة دولة عبد الرحمن الداخل .

١٧٣ ـ موالي بني أمية

نجد الموالي ـ مذكورين باسم « موالي بني أمية » ـ لأول مرة في حديث ابن القوطية عن بلج بن بشر وفراره إلى ناحية طنجة بمن نجا من العرب من « معركة الأشراف » ، وذلك حيث يقول : « وانخذل بلج بن بشر في عشرة آلاف حتى نزل بمدينة طنجة : منهم ألفا مولى وثمانية آلاف عربي »[1] . ولسنا نجد لهؤلاء الموالي قبل ذلك ذكراً ككتلة « متماسكة » ، وإنما نجد أفراداً منهم مذكورين هنا وهناك مما يسمح لنا بالقول بأن قيام « موالي بني أمية » كحزب أو كقوة سياسية في الأندلس يرجع إلى تاريخ بلج بن بشر الأندلسي، وقد انضم إليهم بعد ذلك من كان في الأندلس من موالي بني أمية ومن دخلها بعدهم ، ثم من دخل في ولاء البيت الأموي من أهل البلاد .

١٧٤ ـ تكوين كتلة الموالي في الأندلس

ولا يتضح من إشارة ابن القوطية هذه ما إذا كان أولئك الموالي من موالي بني أمية في المشرق أو ممن دخل في ولائهم من أهل المغرب ، ولكن ما لدينا من أخبارهم بعد ذلك يدل على أن عدداً قليلاً منهم كان من موالي المشرق وأن أكثرهم كانوا من أهل المغرب الذين دخلوا في ولاء بني أمية أو عمالهم . ومن الجدير بالملاحظة أننا نجد فيهم قبيلتين بربريتين كاملتين ، هما بنو الخليع وبنو وانسوس[2] .

ولا نزاع في أن إفريقية كانت تضم عدداً عظيماً من موالي البيت الأموي الذين كان الخلفاء يبعثونهم مع الجيوش ، فحينما خرج كلثوم بن عياض من

---

(١) وهؤلاء الموالي جزء من عدد عظيم من الموالي كان هشام بن عبد الملك قد بعث بهم إلى إفريقية . وقال ابن القوطية : « فقدم كلثوم [بن عياض] إفريقية ومعه ثلاثون [ألفاً من موالي] بني أمية وعشرون ألفاً من بيوتات العرب » ، وقد انهزم هذا الجيش أمام البربر في موقعة بقدورة (أو نقدورة) ولم ينج من الجيش العربي إلا بلج وأصحابه ، ثم « انخذل بلج بن بشر في عشرة آلاف حتى نزل مدينة طنجة، وهي المعروفة بـ«الخضراء»،منهم ألفا مولى وثمانية آلاف عربي»، ص١٥ .

(٢) كان بنو وانسوس موالي عبد العزيز بن مروان . (ابن القوطية : افتتاح ، ص ٢١) .

المشـرق لقتال البـربر مثـلاً كـان جيشـه يتكـون من « عشـرة آلاف من بني أميـة وعشرين ألفاً من بيوت العرب »[1] ، والمـراد ببني أمية هؤلاء مـواليهم من أهل الشام أو العراق وفارس ، ومن البديهي أن الكثيرين من هؤلاء الموالي المشـارقة قد شاركوه في فتح الأنـدلس واستقروا فيـه ، وتكونت منهم ، وممن انضم إليهم ممن دخل في ولاء بني أمية من أهل المغرب والأندلس ، هذه العصبة القويـة التي سيكون لها أعظم الأثر في مجرى الحوادث فيما بعد . وقـد دخل في ولاء بني أميـة نفـر كبير من أهـل المغرب ودخـل في ولاء عمالهم ، وخـاصة مـوسى بن نصير ، عدد عظيم كذلك، وقد ارتبط هؤلاء جميعاً برابطة الولاء نحو البيت الأموي حتى البربر الذين دخلوا في ولاء بني أمية كـانوا أقـرب إلى أخوتهم في الـولاء منهم إلى بني عمومتهم من البربر ، مما يدل على أنهم كانوا يعتبرون رابطة الـولاء الجديـدة أقوى من رابطة العصبية الأولى[2] .

ويبدو أن التفرقة بين الموالي وغيرهم كانت واضحة في ذلـك العصر ، وأن الموالي كانوا معتبرين في مـركز اجتمـاعي ومعنوي لا يقـل عن العرب ، بـل إننا نـلاحظ أن العرب كـانوا يميلون إلى أن يعتبـروا أنفسهم مـوالي ، فقـد ذكـر ابن القوطية في أخبار أرطباس أنه « دخل عليـه عشرة من الشـآميين فيهم أبـو عثمان وعبد الله بن خالد وأبو عبـدة ويوسف بن بخت والصميـل بن حاتم ، فسلمـوا وجلسوا على الكـراسي المحيطة بكـرسيه ، فلما أخـذوا مقاعدهم وحيى بعضهم بعضـاً دخـل ميمـون العـابـد ، جـد بني حـزم البـوابـين ، وهـو أحـد الموالى الشآميين . . فقال الصميـل : يا أرطباس ، ما يعجزك من سلطان أبيـك إلا نفاد الطيبة : أدخل عليك ، وأنا سيد العـرب بالأنـدلس ، ويدخـل أصحابي هؤلاء معي ، وهم سادات الموالي بالأندلس ، فلا تزيدنا من الكرامة عـلى القعود عـلى العيـدان . . » (ص ٣٨ ـ ٣٩) . أي أن الصميـل وصف العشـرة الذين كـانوا

---

(١) ابن القوطية : افتتاح الأندلس ، ص ١٤ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٣٢ .

وقد كان بنو وانسوس موالي عبد العزيز بن مروان . نفس المصدر ، ص ٢١ .

معه بأنهم من الموالي ، وابن القوطية يقول إنهم كانوا عشرة من الشآميين فقط ، مما يفهم منه أن الشآميين جميعاً كانوا يعتبرون وصفهم بالموالي شرفاً لهم ، ويؤيد ذلك أن الصميل قال لهم بعد ذلك : « أنتم ملوك » ولم يكن ليصفهم هذا الوصف لو لم يكونوا من سادات العرب جملة ، لا من الموالي فحسب .

وظاهر أن أعداد هؤلاء الموالي زادت في الأندلس زيادة عظيمة ، بدليل أن بلج بن بشر عندما سار للقاء اليمنية الذين كان يقودهم عبد الرحمن بن علقمة وأمية وقطن ابنا عبد الملك بن قطن خرج في « عشرة آلاف من الأمويين والشآميين »[١] . ثم تزايدت أعدادهم بعد اضطراب الأمر على الأمويين في المشرق ، ومصداق ذلك ما يذكره صاحب الأخبار المجموعة من أن « الطلب حينما اشتد على بني أمية هربوا إلى الآفاق ، وكانوا يسمعون في الرؤية أن مستراحهم بالمغرب ، فنزع أكثرهم إلى إفريقية »[٢] ، ولا بد أن الكثيرين منهم عبروا إلى الأندلس ، وسنرى براهين ذلك فيما يلي من الأحداث .

١٧٥ ـ الموقف السياسي للموالي: وكان هؤلاء الموالي يعتبرون أنفسهم تابعين للبيت الأموي أو لمن عهد إليه الأمويون بالولاية ، وهم لهذا لم ينضموا إلى عبد الملك بن قطن لأنه انتزع الأمر من الوالي الرسمي الذي سلفه وهو عقبة بن الحجاج ، وحينما أقبل بلج بعهد خاله كلثوم بن عياض عامل هشام انضموا إليه ، فلما قتل بلج انضموا إلى خليفته ثعلبة بن ثوابة ، وكانوا لهذا يحاربون البلديين لأنهم كانوا يعتبرونهم ثائرين على بني أمية ، ومصداق ذلك ما يقوله ابن القوطية : « وانصرف عبد الرحمن بن علقمة إلى الثغر ، وبقي عرب الأندلس وبربرها يحاربون الأمويين والشآميين ، ويتعصبون لعبد الملك بن قطن الفهري ، ويقولون لعرب الشام : بلدنا يضيق بنا فاخرجوا عنا . . »[٣] .

وبقي هؤلاء الموالي إلى جانب الشآميين حتى أقبل أبو الخطار ، ولا نسمع

---

(١) ابن القوطية : افتتاح الأندلس ، ص ١٥ .

(٢) الأخبار المجموعة ، ص ٥٠ .

(٣) الأخبار المجموعة ، ص ٥٠ .

لهم ذكراً في عهده ، والظاهر أنه فرقهم في النواحي فيمن فرق من الشآميين ، لأننا سنجد جماعات منهم عند مجيء عبد الرحمن متفرقة في نواحي رية وشذونة وتاكرنا ، ولكن غالبيتهم العظمى بقيت في قرطبة وفيها زعماؤهم من أمثال يوسف بن بخت وأمية بن يزيد وتمام بن علقمة وأبو فُرَيْعة .

وحينما انتصر يوسف الفهري على أبي الخطار وتخلص منه ، بمعاونة الصميل بن حاتم ، اعتبر نفسه الوالي الشرعي وحاول لهذا أن يضع يده على موالي بني أمية ، فجعل يسميهم « موالينا ويظهر الميل إليهم »[1] على اعتبار أنه الوالي الشرعي للأندلس والنائب عن خلفاء بني أمية وصاحب حق الولاء على مواليهم . ولو قد كان يوسف صاحب رأي وسياسة لأفاد منهم ولقوي مركزه بهم في صراعه المقبل مع عبد الرحمن بن معاوية ، ولكنه كان ضعيف الرأي بعيداً عن السياسة ، وكان أمره كله بيد وزيره الصميل بن حاتم ، فاستطاع هذا أن يكسبهم إليه ، فكانوا إلى جانبه إلى أن ظهر عبد الرحمن الداخل .

ولم يعلُ أمر موالي بني أمية في فترة كما علا خلال الفترة التي سبقت قدوم عبد الرحمن ، فقد كانوا كتلة طيبة متناسقة من الرجال الأشداء . وقد أيدوا يوسف الفهري والصميل لتحاملهما على القحطانية[2] ، لأنهم كانوا يكرهون هؤلاء القحطانيين (اليمنيين) ورؤساءهم ، فكانوا خير نصير ليوسف والصميل في صراعهما مع أبي الصباح وغيره من كبار اليمنيين . قال صاحب الأخبار المجموعة : « وكان لبني أمية يومئذ بلاء عظيم معروف وصبر محمود ، فكانوا من يوسف بأشرف المنازل ومن الصميل وجميع قيس ومضر ، فخرجوا مع قيس فيمن قوي من بني أمية »[3] .

١٧٦ ـ الموالي وقيام الدولة الأموية

فلما أقبل بدر مولى عبد الرحمن واتصل بهم بدأ موقفهم من المضرية يتغير ، لأن بدراً خاطبهم بأحب لغة إلى نفوسهم ، وأفهمهم أن انضمامهم للأمر الجديد إنما هو إنقاذ لهم من

(١) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٢١ .
(٢) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٢١ .
(٣) الأخبار المجموعة ، ص ٦٦ .

فوضى العصبيات في الأندلس . والمراجع في خلاف على ما اتفق معهم عليه : هل طلب منهم العمل على « إجارة » عبد الرحمن وإيوائه لإنقاذه من البربر فقط ، أو تحدث إليهم في تحويل السلطان إلى عبد الرحمن وإقامة دولة جديدة . والرأي الثاني أصح ، لأن تطور الحوادث يؤيده ويدل على أنهم كانوا يسعون لتمهيد السلطان لعبد الرحمن لا لمجرد إيوائه وتأمينه .

ولم يخف ذلك على الصميل ، رغم محاولة موالي بني أمية خداعه ، وكان الرجل رغم إسرافه في الشراب وتشعث ذهنه ذكياً يفهم بواطن الكلام ، ولهذا لم يكد يوافق على إيواء عبد الرحمن ويعد موالي بني أمية بإرغام يوسف على إجارته وتزويجه ابنته ، حتى روّى الأمر على نفسه وتبين خطورته ، فبعث من استوقف رسوليهم في منتصف الطريق ، وأسرع بنفسه على فرسه الأبيض « الكوكب » وقال لهما : « إني منذ أتيتموني برسول ابن معاوية وكتابه لم أزل في إدارة ، فاستحسنت ما دعوتما إليه ، ثم كان مني إليكما ما كان . فلما فارقتكما روّيت فيه ، فوجدته من قوم لو بال أحدهم في هذه الجزيرة غرقنا نحن وأنتم في بوله . وهذا رجل قد حكمنا عليه ، مع ما له في أعناقنا (يريد يوسف الفهري) . . . وأنا أعلمكما أن أول سيف يسل عليه (أي على عبد الرحمن) فسيفي ، فبارك الله لكما في رأيكما . . »[1] .

وهي عبارة خطيرة الدلالة ، لأن الصميل كشف بها عن أعمق ما كان يدور بنفوس الموالي ، وأعلن إليهم عداءه الصريح لما يريدون ، ومن هذه اللحظة فهم هؤلاء الموالي ألا خير هناك يرجونه من يوسف والصميل والمضرية جملة ، وبدأت أفكارهم تتجه وجهة أخرى . اتجهوا نحو اليمنيين الذين كانوا يكرهونهم ويحاربونهم حتى هذه اللحظة ، وقد جاء هذا التغير الحاسم دليلاً على ما كان يمتاز به هؤلاء الموالي من تمام المعرفة بأحوال البلد وسلامة حسهم السياسي ، فقد سارت قضية مولاهم عبد الرحمن من ذلك الحين صعداً ، وقد قال أبو عثمان عبيد الله بن عثمان أحد كبار هؤلاء الموالي يصف هذا التحول :

---

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٧٣ .

« فانقطع رجاؤنا من مضر وربيعة بأسرها ، ورجع رأينا إلى أطباء اليمن وإدخالهم في رأينا ، ففعلنا ذلك من فورنا : لم نمر بيماني له بال وثقنا به إلا عرضنا عليه أمر ابن معاوية ودعوناه إليه ، فألفينا قوماً قد وغرت صدورهم يتمنون شيئاً يجدون به سبيلاً إلى طلب ثأرهم ، ورغبوا في عقد بني أمية بالأندلس ، ثم رجعنا إلى جندنا وقد يئسنا من مضر فابتعنا مركباً »[1] .

ولصاحب « فتح الأندلس » عبارة على جانب عظيم من الأهمية تبين موقف هؤلاء الموالي وعلاقتهم بعبد الرحمن وبني أمية ، وذلك حيث يقول : « وشاور (عبد الرحمن) كل من معه من الأمويين فقالوا : إنما يرضى لك هذا الفهري ببعض أعماله التي هي أعمالك وأعمال جدك ، وإنما هو عامل لعامل ابن عمك ، فيخرج عهده الذي يحاجنا به ، فإنما هو من عمال جدك أمير المؤمنين هشام ، فلا والله لا نرضى لك بهذا حتى نكافحه دونك ويعود إلى حالته الأولى ويترك الأمر لك »[2] . أي أن قدوم عبد الرحمن قد حل رابطة الولاء التي تربطهم إلى هذا الفهري الذي هو في الواقع عامل لعامل إفريقية ، وعامل إفريقية من عمال بني أمية، فما معنى الولاء له وعبد الرحمن حفيد هشام مقيم بينهم ؟

والواقع أن موالي بني أمية قاموا بدور خطير جداً في إقامة أمر عبد الرحمن وتحويل تاريخ الأندلس كله وجهة جديدة ، ولولا مؤازرتهم له والتفافهم حوله لما قام أمره ، ولولا إخلاصهم له ولبنيه لما استطاعت الإمارة الأموية أن تسير على هذا النحو الموفق الذي سارت عليه .

١٧٧ ـ موال من أصول إسبانية

وقد دخل الكثيرون من أهل الأندلس في ولاء بني أمية بعد الفتح ، فقد قال ابن حزم مثلاً في « الجمهرة » في سياق الكلام عن بني قسيٍّ : « كان قسي قومس الثغر في أيام القوط ، فلما افتتح المسلمون الأندلس لحق بالشام وأسلم على يدي الوليد بن عبد الملك ،

---

(١) نفس المصدر ، ص ٧٤ .

(٢) فتح الأندلس ، ص ٥٢ .

فكان ينتمي إلى ولائه ، ولذلك كان بني قسي في أول أمرهم ، إذا وقعت الفتنة بين المضرية واليمانية يكونون في جملة المضرية ، فولد قسي : فُرْتُون وأبو ثور وأبو سلامة ويونس ويحيى »[1] وتحدثنا الحوليات الأندلسية عن عدد كبير من هؤلاء الموالي الأندلسيين وبيوتهم : بنو بارون ، بنو غومس ، بنو غرسية ، بنو قارله ، بنو مرتين ، وغيرهم . فقد دخل آباء هذه البيوت أول الأمر في ولاء بني أمية في المشرق ، ثم انتقل ولاؤهم إلى بني أمية الأندلسيين ، وظل بعضهم محتفظاً بهذا الولاء واندرج بعضهم الآخر في عداد المولدين . ولا شك أن هذا الولاء سار على نفس الأسس التي جرى عليها نظام الولاء في المشرق ، مع فرق واضح : هو أن الموالي في الأندلس كانوا موالي البيت الأموي لا موالي قبائل عربية ، كما كان الحال مع الكثير من الموالي الفرس ، فلم تذكر الحوليات الأندلسية ولاء قوم لقبيلة إلا نادراً ، فقد ذكر ابن حزم مثلاً في « الجمهرة » من بيوت البربر بني سالم وبني الفرج وقال إنهم موالي بني مخزوم[2] .

١٧٨ ـ طبيعة ولاء الأندلسيين

وليس لدينا نص يثبت أن هؤلاء الموالي الأندلسيين أو بعضهم كانوا موالي عتاقة إلا في حالات قليلة ، فقد ذكر المؤرخون أهل ناحية من نواحي ماردة باسم « موالي موسى » وهم موالي موسى بن نصير ، ويغلب على الظن أنهم دخلوا في ولاء موسى بعد فتح الناحية عنوة فأعتقهم وصاروا مواليه . وذكر ابن الفرضي في حديثه عن بعض علماء الأندلس مثل سعدان بن إبراهيم . . بن زياد وابنه قاسم أن الأب كان مولى الإمام عبد الرحمن ابن معاوية ولاء عتاقة[3] . ولو قد كان سعدان هذا وأمثاله من موالي بني أمية الذين أتوا من المشرق لاكتفى ابن الفرضي بالقول بأنه مولى بني أمية ، كما هي عادته ، أما وقد ذكر أنه مولى عتاقة فلا يفسر إلا بأنه كان ممن صاروا إلى ملكية الأمويين من أهل البلاد أو البربر ثم أعتقوهم فصاروا مواليهم بالعتاقة .

---

(١) ابن حزم : الجمهرة ، ص ٤٦٧ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٤٦٥ .

(٣) ابن الفرضي : علماء ، ترجمة رقم ٥٤١ ، ١٠٧٠ .

ويؤيد هذا ما يذكره ابن الفرضي عن عالم آخر هو إسماعيل بن بدر بن إسماعيل بن زياد إذ يقول إنه « مولى نعمة لبني أمية من أهل قرطبة »[1] ، وموالي النعمة هم موالي العتاقة مع اختلاف يسير ، هو أن مولى النعمة لا ينبغي أن يكون رقيقاً ثم أعتق ، بل قد ينعم عليه بالولاء كشارة من شارات الإعزاز والتقدير . وهم في الأندلس يختلفون عن الموالي إطلاقاً ، لأن ابن الفرضي يذكر الكثير من الموالي محدداً ولاءهم الأول أو مكتفياً بالقول بأنهم موالي بني أمية ، مثال ذلك : إسماعيل بن خلف المعروف بابن الخبازة من أهل سرقسطة « وينسب إلى ولاء بني أمية »[2] ، وإسماعيل بن القاسم بن عبدون « مولى أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان من أهل قاليقلا »[3] ، وأسلم بن عبد العزيز بن هاشم « مولى عثمان بن عفان رحمه الله »[4] ، وحرث بن أبي سعد « مولى الأمير عبد الرحمن بن معاوية »[5] ، وحسن بن عبيد الله بن محمد . . بن رافع « مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم »[6] ، وزكريا بن يحيى بن عايذ بن كيسان « مولى هشام »[7] ، وسليمان بن عبد الرحمن بن يزيد « مولى معاوية بن أبي سفيان »[8] ، وهكذا . وقد يكتفي المؤرخون بقولهم : « من الموالي »[9] ، كما هي الحال مع سعيد بن حميد بن عبد الرحمن ، أو بقولهم : « مولى لهم »[10] كما هي الحال مع سعيد بن عثمان بن سليمان التجيبي . وقد يذكر الولاء محدداً في دقة كقول ابن الفرضي في ترجمة شمر بن نمير : « مولى بني أمية ثم لآل سعيد

(١) ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس (طبعة كوديرا ، مدريد ١٨٩٢) ترجمة رقم ٢١٤ .
(٢) نفس المرجع ، رقم ٢٢٠ .
(٣) نفس المرجع ، رقم ٢٢١ .
(٤) نفس المرجع ، رقم ٢٧٨ .
(٥) نفس المرجع ، رقم ٣٢٤ .
(٦) نفس المرجع ، رقم ٣٤١ .
(٧) نفس المرجع ، رقم ٤٤٣ .
(٨) نفس المرجع ، رقم ٥٥٧ .
(٩) نفس المرجع ، رقم ٤٨٢ .
(١٠) نفس المرجع ، رقم ٤٨٤ .

ابن العاص »[1] : وقد يرد ذكر الولاء في صورة غير واضحة ، كقول ابن الفرضي في ترجمة سهل بن إبراهيم بن نوح : « نسبه في البربر ويوالي بني أمية » ، وقد أشرنا فيما سبق إلى دخول أعداد من البربر في ولاء الأمويين ، فقد رأينا أن بني وانسوس يعتبرون أنفسهم موالي عبد العزيز بن مروان .

١٧٩ ـ موالي الاصطناع

وإذاً فقد عرف الأندلس في هذا الوقت المبكر نظام الولاء ، وكان الموالي إما مشارقة أقبلوا إلى الأندلس مرتبطين بروابط ولاء قديمة للبيت الأموي أو لأفراد منه ، أو مغربيين دخلوا في ولاء بني أمية أو قوادهم أو بعض قبائل العرب ، وانتقلوا إلى الأندلس محتفظين بهذا الولاء ، أو إسبانا دخلوا في ولاء بني أمية أو قوادهم وظلوا محتفظين ، هم وأبناؤهم ، بهذه العلاقة .

والنصوص التي بين أيدينا لا تسمح لنا بالحكم على طبيعة ولاء الإسبان ، ولكن الأحداث لا تدل على أنهم كانوا موالي عتاقة ، بل موالي اصطناع ، دخلوا في ذلك الولاء التماساً للحماية أو شرف المنزلة ، كما رأينا في حالة بني قسي .

ومما يؤيد ما ذهبنا إليه من أن معظم أولئك الموالي كانوا موالي اصطناع ، أن عبد الرحمن الداخل عندما أراد أن يكسب يوسف الفهري بعث إليه وفداً من مواليه ، « وبعث معهم بكسا وفرسين وبغلين وصيفين وألف دينار ، وكتب إليه يذكر له اصطناع آبائه لجد يوسف (أي اصطناع بني أمية لعقبة بن نافع جد يوسف الفهري) ولأهله ، ويدعوه إلى الصهر والتوسعة »[2] مما يدل على أن الاصطلاح المستعمل في الأندلس للولاء هو الاصطناع .

وكان أهل الأندلس يرعون حرمة الولاء ، ويحافظ الخلف منهم على ما ارتبط به السلف منهم ، فقد ذكر ابن القوطية كيف أن محمد بن موسى ـ وكان من بيت من العرب يقال لهم بني موسى ، « وكان بنو عبد الرحمن الغافقي عامل

---

(١) نفس المرجع ، رقم ٤٩٥ .

(٢) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٧٥ ـ ٧٦ .

الأنـدلس المتقدم ذكـره يدعـون أنهم مواليـه » ـ عندمـا تولى الـوزارة أيام الأمـير محمد ، « بعث في بني عبد الرحمن بن عبد الله الغـافقي ، وكان لهم عـدد وثروة بمرنانة الغافقيين من شرف أشبيلية ، فقال لهم : إنكم تدعون أمـراً لو كـان حقاً وعلمناه لم يَحِلّ لنا الانتفاء عنه ، فهلم إلى أن تخلطونا بأنفسكم وتدعـون أهلاً ، فـإن كنـا مـواليكم كـما تقـولـون فنحن منكم ، وإن كنـا من العـرب فنحن بنـو عمكم ، فـأجابـه القوم وشكـروا على ذلـك ، وصـاروا أهـلاً وصـاهـر بعضهم بعضاً ، وانقطعت تلك الدعويات من يومئذ »[1] .

١٨٠ ـ أهمية الموالي في تاريخ الأندلس

وعلى أي الأحوال لم يكن الموالي في الأندلس في هـذه الفترة ومـا بعدها ، في نفس الوضع الذي كان فيه موالي المشـرق ، فهناك كان المولى في وضع اجتماعي أقل من وضع الحر ، أما هنا فقد كان الولاء شارة امتياز ، ولم يحدث إلا نادراً أن تـرفع العـرب على المـوالي ، فقد ذكر ابن القوطيـة أن العرب احتجـوا عندمـا عين عمـرو بن عبد الله بن الليث ـ وكان مولى ـ قاضياً للجماعة في قرطبة[2] ، وفيما عدا ذلـك كان المـوالي في مركـز اجتماعي لا يقل في شيء عن مركز الأحـرار . وعندما أتى عبد الـرحمن وأعانـوه على إقامة الدولة أصبحوا في مركز أعلى من مركز العرب الأحرار ، فقد أصبحت الوظائف الكبرى مقصورة عليهم ، وحرص أمراء بني أمية على الاحتفـاظ ببيوت المـوالي وإعطائهم مكـاناً ممتـازاً في الإدارة والمجتمع ، فلم يكـونـوا يعتمـدون إلا عليهم . وقد أخلصت بعض بيوت أولئك الموالي للبيت الأمـوي إخلاصاً عميقاً مستمراً ، وحملت عن البيت الأموي جانباً كبيـراً من المسـؤولية ، بحيث لا يمكن التأريخ للبيت الأموي بدون التأريخ لهذه البيوت إلى جانبه ، ومن أكبرها بنو أبي عبـدة وبنو حُـدَير وبنـو شهيد وبنـو عبد الرؤوف وبنـو فُـطَيس وبنـو مغيث[3] ـ

---

(١) ابن القوطية ، افتتاح ، ص ٧٦ .

(٢) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٧٣ .

(٣) هم أولاد مغيث الرومي مولى الوليد بن عبـد الملك (أخبار مجمـوعة ، ص ١٠) وأول من امتـاز منهم في الأندلس عبد الكريم بن مغيث . وقد قتـل مغيث في معركـة القرن بإفريقية (أخبار ، ص ٣٤) .

وأصلهم كلهم من موالي بني أمية ، بعضهم موالي البيت الأموي نفسه ، وبعضهم موالي قوادهم ؛ وقد كان موالي البيت الأموي يسمون بموالي قريش ، وكانت لهم الصدارة على غيرهم من الموالي . وفي عهد عبد الرحمن الناصر زاد مركزهم ارتفاعاً حتى صاروا يسمون بالأبناء[1] .

فأما بنو أبي عبدة فهم أبناء حسان بن أبي عبدة مولى مروان بن الحكم ، وقد دخل جدهم الأندلس سنة ١١٣ هـ / ٧٣١ م مع ابنه عبد الغافر الذي أصبح فيها بعد وزيراً لعبد الرحمن الداخل . وقد ظل أبناء هذا البيت يتولون كبار المناصب إلى أيام المنصور بن أبي عامر ، وقد تفرع عن هذا البيت بعد ذلك بيت أبي الحزم بن جهور أصحاب قرطبة في عصر الطوائف[2] .

وبنو حدير هم أبناء مولى من موالي عبد الرحمن الداخل ، ولا شك أن أصلهم من موالي بني أمية في الأندلس ، لأن المراجع لا تذكر أن عبد الرحمن أتى بمولاه هذا من المشرق . وقد ظهر أمر بني حدير عندما نبغ منهم موسى بن محمد ابن حدير الذي تولى أمر قرطبة أيام الأمير محمد ، وقد ظل بنو حدير يتقلبون في كبار الوظائف حتى أيام الناصر[3] . أما بنو شهيد فهم أبناء مولى من موالي عبد الرحمن الداخل، وقد ظلوا في الوظائف إلى أيام الدولة العامرية. وكذلك كان الأمر مع بقية البيوت التي ذكرناها[4] . ومن الطريف أن بعض مؤسسي هذه البيوت دخلوا الأندلس عرباً أحراراً ثم دخلوا هناك في ولاء بني أمية المشارقة ، ثم انتقلوا إلى ولاء بني أمية الأندلسيين ، ومثال ذلك بنو شهيد وبنو عبد الرؤوف.

---

(١) LEVI - PROVENÇAL : *L'Espagne Musulmane au Xe. Siècle* (Paris, 1932) p. 106.
LEVI - PROVENÇAL : *Histoire de l'Espagne Musulmane.* 2e. éd. II, p. 126, III, p. 194.

(٢) ابن الأبار : الحلة السيراء ، ص ١٣٢ ـ ١٣٣ .
LEVI - PROVENÇAL, *L'Espagne Musulmane.* II, p. 101.

(٣) الحلة السيراء ، ص ١٢٣ ـ ١٢٤ .

(٤) LEVI - PROVENÇAL, *Op. cit.* pp. 99 Sqq.

وفي عداد هذه البيوت من موالي بني أمية ذوات الأصول المشرقية تدخل بيوت الموالي ذوات الأصول البربرية ، مثل بيت الزجالي ، وذات الأصول الإسبانية كبيت بني قسيٍّ ، وإن كان وضع هذه البيوت الأخيرة يختلف عن وضع الموالي المشارقة والمغاربة من حيث الوظائف ، فقد قصرها أمراء بني أمية على الموالي البلديين والشآميين ؛ ولكن مركز الموالي الإسبان الاجتماعي كان عظيماً ، فقد كانوا سادة في نواحيهم[1] .

وقد بلغ من اختصاص أمراء بني أمية هذه البيوت بالوظائف أن كان أفرادها يتنافسون على الوظائف حتى يتحير الأمراء ، ومع ذلك كانوا لا يفكرون في إخراجها عنهم ، كما حدث أيام الأمير عبد الرحمن الأوسط ، فقد « تنافس الوزراء كلهم في خطة الحجابة ، واضطره كل واحد منهم إلى ألا يولي غيره ، فأخذته ضجرة ، فأقسم ألا يولي واحداً منهم ، وأمر بالإقراع بين الخُزّان (خزان الأموال) وكان الخزان يومئذ موسى بن حدير شيخ الخزان ، وابن بسيل الملقب بالغماز وطاهر بن أبي هارون (وكلهم من أهل بيوت الموالي هذه) ومهران بن عبد ربه **لا قديم له** ، وكان له به اتصال وهو ولد فخرجت إليه القرعة فولي الحجابة أعواماً . . ثم مات . . » . وقد وضعت خطاً تحت « لا قديم له » لأن ابن القوطية أراد بها أن مهران لم يكن من أهل هذه البيوت القديمة ، وقد كانت توليته الحجابة مصادفة ، ثم عادت بعد ذلك إلى آل غانم ثم إلى آل شهيد وهم من موالي البيت الأموي .

١٨١ ـ آراء حول أصل ولاء الاصطناع

وقد لاحظ بعض الباحثين شيئاً من التشابه بين « الاصطناع » الذي شاع في الأندلس الإسلامي ونظام الانتفاع Benefactoria أو Behetoria الذي عرفته الدولة الليونية الأشتورية الإسبانية ، و « البنفاكتوريا » أقرب إلى نظام « الإلجاء » الذي عرفته الدولة الإسلامية في المشرق ابتداء من القرن الرابع الهجري ، ومعناه أن

---

(١) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٦٢ .

يلتجيء مالك صغير إلى مالك كبير و « يلجيء » إليه أرضه ويصبح من أتباعه في نظير قيام المالك الكبير أو الإقطاعي القوي بحمايته ؛ فكان الرجل يعتبر «لاجئاً » والأرض « ملجأه » ، وهذا بالضبط هو ما يعنيه المصطلح الروماني Beneficium الذي أصبح فيما بعد لونا من ألوان الإقطاع الأوروبي . وقد لاحظ ليڤي‌بروڤنسال أن صاحب القاموس اللاتيني العربي المعروف بالڤوكابيولستا Vocabulista يترجم كلمة Benefacere بلفظ « اصطنع » بل إن لفظ «مولى» انتقل كما هو إلى المصطلح القانوني في تلك المملكة النصرانية ، فكانوا يقولون Maultatus . وقد ذهب الذين يرجعون نظم الدولة الليونية الأشتورية كلها إلى أصول رومانية ، إلى أن مسلمي الأندلس أخذوا نظام الاصطناع عن نظام الولاء الروماني Patrocinium وهو رأي معقول إذا نحن اعتبرنا الظروف الخاصة التي أحاطت بتكوين النظم الإسلامية في الأندلس، فقد يكون أوسك الأندلسيون الذين دخلوا في ولاء بني أمية من الداخلين في ولاء البيت القوطي ، فلما صار الأمر للمسلمين انتقلوا بولائهم إلى بني أمية ليحتفظوا بما كان لهم من ميزات اجتماعية واقتصادية. وهذا هو التفسير المعقول لما فعله قسي عندما ذهب الى المشرق ليدخل في ولاء الخليفة الأموي مباشرة[١] .

١٨٢ ـ ملاحظات أخيرة على الموالي في الأندلس

ومهما يكن من أمر فقد عرف الأندلس الإسلامي في ذلك العصر نظام الموالي ، وكان هؤلاء أنواعاً وطبقات : منهم موالي رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وموالي عثمان بن عفان ، وموالي خلفاء بني أمية ، ثم موالي بعض موالي البيت الأموي مثل مغيث الرومي وموسى بن نصير ، ثم موالي بعض القبائل العربية ؛ وقد كان عددهم جميعاً قليلاً بالنسبة لعدد السكان ، ولكن عددهم كان محترماً بالنسبة لعدد العرب . وقد كان من الممكن أن يظل الموالي في نفس الوضع الذي كانوا فيه في المشرق ، ولكن الظروف المضطربة التي أحاطت بالعرب خلال فترة الولاة ، وانصرافهم إلى التحارب فيما بين بعضهم وبعض أعطت هؤلاء الموالي

(١) LEVI - PROVENÇAL, *Hist. de l'Esp. Mus.* III. p. 210 - 213.

مركزاً ممتازاً ، إذ ظلوا كتلة واحدة يسعى اليمنيون والشآميون إلى كسب تأييدها ، ثم سنحت لهم الفرصة بدخول عبد الرحمن بن معاوية فاجتهدوا في إقامة دولته ووضعوا أنفسهم تحت تصرفه ، ومن ذلك الحين أصبحوا أهل الدولة وأصحاب اليد العليا ، فارتفع بارتفاعهم معنى الولاء في الأندلس ، وأصبح وسيلة من وسائل علو المنزلة في المجتمع وعلو المرتبة في الإدارة ، وأصبح أقرب إلى « الإصطناع » منه إلى الولاء الصرف . وأفاد من ذلك الإسبان الذين نقلوا ولاءهم من البيت القوطي إلى البيت الأموي ، أو الذين دخلوا منهم في ولاء الأمويين على أساس الباتروسينيوم الروماني ، فاحتفظوا بمكانتهم وثرواتهم وزاد مركزهم قوة كلما طالت بالبيت الأموي الأيام في الأندلس(١) .

وسيجري على اصطناع الموالي كل أمراء البيت الأموي وخلفائهم ، فقد اتخذ كل منهم لنفسه موالي انضموا إلى طبقة الموالي ، حتى المنصور بن أبي عامر اتخذ لبيته موالي عرفوا بالموالي العامريين .

وأساس هذا الاختلاف بين وضع الموالي في المشرق ووضعهم في الأندلس يرجع إلى الظروف الخاصة التي أحاطت بهذا البلد خلال الفترة التي نتحدث عنها . ولو لم تكن هذه الظروف لظل موالي الأندلس في نفس وضع أشباههم في المشرق ، بل ربما تلاشوا كقوة سياسية ، كما كان الحال في مصر الإسلامية مثلاً . وهذه الناحية تبين الأهمية الخاصة لعصر الولاة ، فلولا ظروفه الخاصة لما كانت نظم الأندلس على النحو الفريد الذي نعرفه ، وسنرى مصاديق ذلك عند دراستنا لنواح أخرى من النظم الأندلسية التي وضعت أسسها في عصر الولاة .

---

(١) ويؤيد ذلك أن أولئك الموالي أصبحوا يسمون « بالأبناء » أي أبناء بيت الإمارة أو « أبناء نعم الخلفاء » كما يقول ابن القوطية (ص ٨٣) ، بل كان كبارهم يسمون خلفاء الأمراء ، وقد كان الواحد منهم يسمى « خليفة » (انظر : ابن القوطية ، ص ٦٩) .

الفصل العاشر

المجتمع الأندلسي - ٢

المولّدون والمستعربون

تحدثنا في الفصل السابق عن عناصر السكان التي دخلت الأندلس بالإسلام أو مع الإسلام ، ووضعت أساس إسلام الأندلس وعروبته ، وبدأت في تاريخ شبه الجزيرة الإيبيرية صفحة « الأندلس » ذات الحضارة الزاهرة والشخصية الفريدة في بابها بين صفحات التاريخ . تحدثنا عن العرب والبربر والموالي ، وقصرنا الكلام عنهم على فترة التأسيس التي تعنينا في هذا الكتاب . وبقي الآن أن نتكلم عن الجزء الأكبر من عناصر سكان الأندلس : المولدين وأهل الذمة من نصارى ويهود .

١٨٣ - اسبانيا في النطاق الغربي قبل دخول العرب

وسنرى في سياق كلامنا على هذين العنصرين أن الإسلام والعروبة قد أثرا فيهما تأثيراً لا نكاد نجد له مثيلاً في غير الأندلس مما دخل في رحاب الإسلام ، فهذا الشعب الإيبيري الذي دخل عليه المسلمون كان قبل دخولهم شعباً أوروبياً نصرانياً في غالبيته العظمى ، يضم مجموعات قليلة من اليهود ، وكان داخلاً في نطاق الغرب الأوروبي الذي نشرت فيه روما حضارتها ولغتها ، وكان متجهاً بإيمانه نحو روما عاصمة المسيحية الغربية ، وكان يدين بالولاء للكنيسة الكاثوليكية[1] ، ويتحدث لغة رومانية إيبيرية يغلب عليها الطابع الروماني ،

(١) انظر :

MANUEL TORRES y RAMON PRIETO BANCES : *La Iglesia en la Espana Visigoda* (*en Histoiria de Espana dirigida por* RAMON MENENDEZ PIDAL) tomo III. pp. *265*. sqq.

سماها العرب لأول سماعهم إياها بالعجمية أو عجمية أهل الأندلس ، وعندما زادت معرفتهم بها سموها اللطينية[1] . وكان هذا الشعب ـ نتيجة لذلك كله ـ يدور في فلك الحضارة الغالبة على غرب أوروبا إذ ذاك ، وهي حضارة لاتينية متأثرة بما حملته جماعات المتبربرين الى غرب أوروبا من ثروة لغوية جرمانية تختلف من قبيل لقبيل ، ونظم سياسية جرمانية بدائية كان لها أبعد الأثر في تكوين النظم السياسية وقواعد القانون التي جرت عليها ممالك الجرمان جميعاً في غرب أوروبا فيما بعد[2] .

١٨٤ ـ طبيعة حركة الامتداد الإسلامي

ثم دخل المسلمون هذه البلاد : لم يدخلوها كما دخل القوط سادة حكاماً يباعدون بين أنفسهم وبين عامة الناس حفاظاً على سلامة عنصرهم أو صيانة لهيبة سلطانهم ، بل دخلوها أثناء حركة الامتداد الديني الفكري البشري التي بعثها الإسلام في عالم القرن السابع الميلادي . وإنه لمن مخالفة الواقع مخالفة مقصودة أن يقال إن امتداد الإسلام كان حركة فتوح أو غزوات ، أو إنه كان إنشاء لأمبراطورية سياسية يسودها جنس بعينه ، وإنما كان في الواقع حركة استيقاظ تمتد من شعب لشعب كأنها أمواج يدفع بعضها بعضاً ، فلا يكاد الإسلام يقبل على بلد حتى يستيقظ أهله ويهبوا ليحملوا رايته بأيديهم . فقد فتح عرب الجزيرة الشام والعراق ومصر ، ثم انتقلت الراية ـ فيما يتصل بنا هنا ـ إلى الشام ، ففتح الشام المغرب ، ثم فتح المغرب الأندلس . وكان العرب يقومون في تلك الحركة كلها

(١) انظر : RAMON MENENDEZ PIDAL : *Origenes del Espagnol* (3a. éd. Madrid, 1950).

مقدمة الكتاب ، حيث يقول إن اللغة التي كان يتكلمها أهل إيبيريا قبل القرن الحادي عشر الميلادي لا يمكن تعرفها إلا على وجه التقريب ، نظراً لقلة الأصول التي يعتمد عليها ، وكل ما يمكن قوله إنها كانت تضم ألفاظاً قليلة من لغة القوط ، أما بقيتها فكانت لهجات مختلفة من اللاتينية العامة Latin Vulgar . ولا زالت الدراسات مستمرة لتعرف هذه اللغة . انظر :

ISIDIRO DE LAS CAGIGAS, *Los Mozarabes* (Madrid, 1947) p. 58 - 59 y nota 42 p. 73.

(٢) سندرس هذه الناحية فيما بعد .

بدور الدافع الأول أو المحرك الأول ، فلا تزال هذه الشعوب تنظر إليهم وتلتفت بقلوبها نحوهم ، لا على اعتبار أنهم شعب بعينه ، بل على اعتبار أنهم رمز الحركة كلها ، فصاحب الدعوى ورسولها عربي ، وكتاب الدعوة ودستورها ـ وهو القرآن ـ عربي ، والمثل الأخلاقية التي أدت الى النصر عربية .

ومهما كان حكمنا اليوم على المثل الأخلاقية الجاهلية ، فلا نزاع في أنها بدت لأهل هذه الأعصر شيئاً عظيماً شديد الجاذبية ، ولا نزاع كذلك في أن العربي الذي حمل عبء الفتح الأول ، وشارك في بقية الفتوح ، وهاجر إلى البلاد المفتوحة ، كان ـ مهما حكمنا على تصرفاته الشخصية في تلك البلاد ـ شخصاً ممتازاً جديراً بأن يقلد ، فقد كان على الجملة شجاعاً لا يهاب شيئاً ، دؤوباً لا يمل السعي ، كريماً لا يضن بذات يده ، عنيفاً ـ إذا استثيرت عواطفه ـ عنفاً جاهلياً كان أهل تلك الأيام يرون فيه صورة جميلة من صور الرجولة . وكان إلى جانب ذلك رقيقاً تهفو نفسه إلى كل ما هو رقيق جميل ، حتى لقد يحركه بيت من الشعر إلى ما لا يحركه إليه الخطر الداهم(١) ، وكان ألوفاً بسيطاً لا يستقر إلى جانب قوم حتى يأخذ منهم ويعطي ، ويصاهرهم ، وتمتزج دماؤهم بدمائه ويشركهم في أصله وحسبه . وكان رغم أصله البدوي القاسي يحب اللين والترف ويستطرف الجمال في شتى صوره ، ويستطيب الحياة الناعمة ، ومن ثم

---

(١) مثال ذلك أن أبا الخطار كتب إلى هشام بن عبد الملك بأبيات جعلته يغير سياسته نحو اليمنية ، مما كان له أبعد الأثر في تاريخ الأندلس في هذه الفترة ، وهذه الأبيات هي :

أفاتم بني مروان قيساً دماءنا ... وفي الله ـ إن لم تنصفوا ـ حكم عدلُ
كأنكم لم تشهدوا مرج راهط ... ولم تعلموا من كان ثم له الفضل
وقيناكم حر الوغى بصدورنا ... وليست لكم خيل تعد ولا رجْل
فلما رأيتم واقد الحرب قد خبا ... وطاب لكم منها المشارب والأكل
تغافلتم عنا كان لم يكن لنا ... بلاء ؛ وأنتم ـ ما علمتُ ـ لها غُفلُ

. . . . . . الى آخره .

قال ابن القوطية : « ولما وردت الأبيات منه ولي حنظلة بن صفوان الكلبي على إفريقية ، وأمره أن يولي ابن عمه أبا الخطار الأندلس . . . . . » .

ابن القوطية : افتتاح ، ص ١٨ ـ ١٩ .

فإننا نجد هذا العربي الذي أشعل الأندلس ناراً ، كما رأينا ، لم يخرب ما نزل به من مدائن ، وما مر به من منشآت ، فعلى الرغم مما رأينا ، من احتراب عرب الأندلس بعضهم مع بعض ، وإسرافهم في الخصومة على هذا النحو الذي رأيناه ، ظلت المدن التي نزلوها قائمة عامرة تدور الحرب بظواهرها أو بعيداً عنها وهي آمنة ، بل هم اعتبروا هذا الصراع أمراً خاصاً بهم لا شأن لأهل البلاد به ، فلم يؤذوهم أو يسيئوا إليهم .

ومن أعجب ما يقرأ الانسان في حوليات هذه الأيام أن الصميل بن حاتم ، هذا البدوي الجافي ، على ما رأينا من عنفه وجاهليته وقسوته على خصومه من العرب ، ذهب إلى أرطباس كبير عجم الأندلس على أيامه في رفقة عشرة من رؤساء عرب الأندلس ومواليهم ليطلب إليه أن يمنحهم شيئاً من الأرض ولقد حاوره أرطباس محاورة ند لند ، بل أخذ يقرعه ويقول له : « يا أبا جوشن ، إن أهل ديانتك يخبروننا أن أدبهم لم يأخذك ، ولو أخذك لم تنكر عليَّ بر من بررت ! » ثم مضى يلقي عليه درساً في الإيمان فقال : « إنكم بإكرامكم [من أكرم] الله ، إنما تكرمونه عز وجل . وقد روينا عن المسيح صلى الله عليه وسلم أنه قال : « من أكرم الله من عباده ، وجبت كرامته على جميع خلقه » . ثم يعلق ابن القوطية على ذلك بقوله : فكأنما ألقمه حجراً ! ثم « وهبهم » مائة ضيعة ، صار لكل واحد منهم عشر ضياع »[1] .

فهذه صورة من المعاملات بين العرب « الفاتحين » وأهل البلاد ، وإذا كان هذا هو موقف الصميل ، على عتوه وجبروته ، فمن باب أولى يكون التعامل بين عامة العرب وعامة الناس أبسط وأقرب إلى التعامل بين ناس لا يختلف أحد منهم عن أحد بشيء . وبرهاننا على ذلك أن نفس الخبر يقص أن واحداً من كبار صالحي العرب ، وهو ميمون العابد ، أتى ليطلب من أرطباس أن يعطيه ضيعة من ضياعه يعتمرها بيده ويؤدي إليه الحق عنها ويأخذ الحق ، فقال له أرطباس : « لا والله ما أرضى أن أعطيك ضيعة مناصفة » ودعا بوكيل له فقال

(١) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٤٠ .

له : « إدفع إليه المجشر الذي على وادي شوش وما فيه من الغنم والبقر والعبيد وادفع اليه القلعة بجيان ، وهي المعروفة بقلعة حزم ، فملكها . . . »[1] .

١٨٥ ـ العرب وأهل البلاد وإذاً فلم يستقر العرب في الأندلس سادة مترفعين ، وإنما نزلوها ناساً يطلبون العيش في سلام إلى جانب أهل البلاد .

وربما كان هذا السلوك العربي أثراً من آثار البيئة الأندلسية فيمن نزلها من العرب والبربر ، فقد كان الإيبيريون الرومان شعباً مسالماً مجداً حسن العشرة ، لم يلبث أن أنس إلى العرب وأنسوا إليه . ولدينا صورة طريفة جداً عن الحياة العائلية في بيوت العرب بعد أن اتخذوا النساء من أهل البلاد، قال صاحب « الأخبار المجموعة » في أخبار عبد العزيز بن موسى : « ثم إن ابنه عبد العزيز تزوج امرأة للذريق يقال لها أم عاصم ، فهم بها ، فقالت له : إن الملوك إذا لم يتتوجوا فلا ملك لهم ، فهل لك أن أعمل لك مما بقي عندي من الجوهر والذهب تاجاً ؟ فقال لها : ليس هذا في ديننا ! فقالت له : من أين يعرف أهل دينك ما أنت عليه في خلوتك ؟ . . فلم تزل به حتى فعل . فبينا هو يوماً جالس معها ، والتاج عليه ، إذ دخلت امرأة كان قد تزوجها زياد بن النابغة التميمي ، من بنات ملوكهم ، فرأته والتاج على رأسه ، فقالت لزياد : ألا أعمل لك تاجاً ؟ فقال : ليس في ديننا استحلال لباسه ، فقالت : فوَدينِ المسيح إنه لعلى إمامكم ! فأعلم بذلك زياد حبيب بن أبي عبيدة بن عقبة بن نافع ، ثم تحدثا به حتى علمه خيار الجند ، فلم تكن له همة إلا كشف ذلك حتى رآه عياناً ، ورآه أهله صدقاً ، فقالوا : تنصر ! ثم هجموا عليه فقتلوه . . »[2] . وربما تكون يد القصّاص قد فعلت فعلها في هذا الخبر ، ولكن مغزاه في جملته عظيم القيمة ، فهو يدل على روح المودة العائلية التي كانت تسود بيوت العرب بعد استقرارهم في الأندلس واتخاذهم النساء من أهل البلاد ، وهو كما رأينا جو عائلي فيه ألفة وفيه محبة وفيه دعابة ذات معانٍ عظيمة بالنسبة إلى من

---

(١) نفس المصدر ، ص ٣٩ .

(٢) أخبار مجموعة ، ص ٢٠ .

يؤرخ لذلك المجتمع العربي الإيبيري ، أو الأندلسي بتعبير أصح ، الذي نشأ عن الفتح الإسلامي للبلاد[1] .

١٨٦ ـ التزاوج بين العرب وأهل البلاد

لقد اتجه اهتمام خليان ريبيرا ، عندما أراد دراسة موضوع التزاوج بين المسلمين وأهل البلاد ، إلى الجواري ، ومضى يلتمس في مجموعات الوثائق المستعملة ـ كمجموعة أبي جعفر أحمد بن محمد بن مغيث ـ نصوصاً تثبت إقبال العرب على شراء الجواري الجليقيات والقطلونيات ومن إليهن[2] ، ولكن فاته أن الزواج بالجواري كان قليلاً بالأندلس ، فقد كن غاليات الثمن في تلك البلاد . قال الأصطخري : « والذي يقع من المغرب الخدم السود من بلاد السودان والخدم البيض من الأندلس والجواري المثمنات ، تأخذ الجارية والخادم عن غير صناعة على وجوهها ألف دينار وأكثر »[3] . ولم يكن يستطيع دفع هذا الثمن إلا القليل ، أما بقية العرب والبربر فكانوا يصاهرون أهل البلاد مصاهرة عادية كالذي رواه ابن القوطية عن زواج سارة القوطية ابنة المُنْذُ بن غيطشة ، من تزويج هشام بن عبد الملك إياها من عيسى بن مزاحم « فقدم معها الأندلس وقبض ضياعها ، وهو جد ابن القوطية ، وولد له منها ولدان : إبراهيم وإسحاق ، ثم توفي عنها في العام الذي دخل فيه عبد الرحمن بن معاوية الأندلس ، فتنافسها حَيْوَة بن ملامس المذحجي وعمير بن سعيد اللخمي ، فعني ثعلبة بن عبيد الجذامي بعمير بن سعيد عند عبد الرحمن بن معاوية ، فأنكحه إياها ، وولدت له حبيب ابن عمير جد بني سِيد وبني حجاج وبني مسلمة وبني حجر الجُرْز ، وهؤلاء أشراف ولد عمير بأشبيلية ، إذ كان له أولاد من غيرها ، ولم يشرفوا شرف هؤلاء ، وهذا الخبر في كتاب عبد الملك بن حبيب في فتح الأندلس في أرجوزة

---

(١) JULIAN RIBERA Y TARRAGO, *Disertaciones y Opusculos* (Madrid 1928) tomo I. p. 122.

(٢) نفس المصدر ، ص ١٥ وما يليها .

(٣) أبو اسحاق ابراهيم بن محمد الفارسي المعروف بالاصطخري ، مسالك الممالك ، طبعة دي خويه ، ليدن ١٩٢٧ .

تمام بن علقمة الوزير أو أكثره »[1] .

وإذاً فقد ارتبط الكثيرون من العرب والبربر بعلاقات المصاهرة مع أهل البلاد وعاشوا معهم متجاورين متساوين ، وعن طريق هذا التجاور انتشر الإسلام بين أهل الجزيرة . ومن الواضح أن المسلمين لم يحاولوا إرغام الناس على دخول الإسلام ، لا عن عدم اهتمام بنشر الإسلام ، أو عن كراهة لانتشار الإسلام بسبب إضراره ببيت المال كما يقول ليفي بروفنسال[2] ، بل لأن هذا كان أسلوب العرب الذين جروا عليه في نشر الإسلام في كل بلدٍ دخلوه : كانوا ـ على الأغلب ـ يدعون الناس حتى يتبينوا فضائل الإسلام بأنفسهم ويدخل منهم فيه من يريد ، بل ليس صحيحاً أن الجيوش الفاتحة لم تكن تعني بالدعوة إلى الإسلام ، لأن الحقيقة أنها كانت تضم دعاة للدين ، بل كان الفاتحون أنفسهم يحرصون على إدخال الناس في الإسلام ، ومثال ذلك : « إن الناس قحطوا بإفريقية عاماً فخرج [موسى بن نصير] فاستسقى ، فأمر رجلاً فقص على الناس ورقّقهم ، فجعل يذكر . . . »[3].

وذكر أن عقبة بن الحجاج السلولي كان « صاحب جهاد ورباط وذا نجدة وبأس ورغبة في نكاية المشركين ، وكان إذا أسر الأسير لم يقتله حتى يعرض عليه الإسلام حيناً ويرغبه فيه ويبشره بفضله ، ويبين له عيوب دينه الذي هو عليه ، فيذكر أنه أسلم على يده بذلك الفعل ألف رجل »[4] .

ولا نملك من النصوص ما يمكننا من تتبع إنتشار الإسلام في الأندلس ،

(١) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٦ .
ولقب بن حجر الوارد هنا : الجُرْز ، يغلب أنه لفظ عجمي : El gordo ، أي السمين وبنو سيد الوارد ذكرهم في النص يمكن أن تكون صحة اسمهم بنو سعيد .

(٢) LEVI - PROVENÇAL, *Hist. de l'Espagne Musulmane* (2e. éd. Paris, 1950) tome I, p. 74.
وقد قال ذلك أيضاً في كتابه عن « إسبانيا الإسلامية في القرن العاشر » ص ٣٢ ـ ٣٣ .

(٣) انظر القطعة التي أوردها خليان ريبيرا بتاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية ، ويغلب أنها مقتطعة من « الإمامة والسياسة » ، ص ١٨٤ .

(٤) المقري : نفح الطيب ، طبعة محيي الدين ، جـ ٤ ، ص ١٨ .

ولكن ابن القوطية وابن عذارى يؤكدان إنتشار الإسلام وقوته في الأندلس في أول ولاية السمح بن مالك (١٠٠ هـ / ٧١٩ م) ، قال ابن القوطية : « كان عمر بن عبد العزيز رحمه الله قد عهد إلى السمح بإخلاء الأندلس من الإسلام ، إشفاقاً دخل عليهم (كذا) إذ خشي تغلب العدو عليهم ، فكتب إليه السمح بن مالك يعرفه بقوة الإسلام وكثرة مداينهم وشرف معاقلهم ، فوجه حينئذ جابراً ليخمس الأندلس . . »[١] . أما ابن عذارى فيقول إن السمح كتب إلى عمر بن عبد العزيز يقول : « إن الناس قد كثروا بها وانتشروا في أقطارها ، فأضرب عن ذلك »[٢] ، والمراد بالناس هنا المسلمون . ثم إن الأندلس يبدو لنا ، عند دخول عبد الرحمن الداخل ، بلداً إسلامياً استبحر الدين واستقرت قواعده فيه . وتلك ظاهرة فريدة في بابها ، فإن الفتح الإسلامي للأندلس لم يكن قد مر به نصف قرن ، ومع ذلك فهي حقيقة واقعة لا مناص من قبولها وانتظار ما عسى أن نعثر عليه من نصوص تفسرها وتقدم لنا تفاصيلها .

١٨٧ - عجم الأندلس

وقد كان المسلمون يطلقون على أهل الأندلس جميعاً اسم العجم أو عجم الأندلس ، وربما أطلق اسم الروم ومفرده رومي ، وإن كانت هذه التسمية نادرة الاستعمال . فلما تمكن سلطان المسلمين أصبحوا يسمون عجم الذمة أو الذمة أو أهل الذمة ، فمن كان لهم عهد منهم سموا المعاهدين ومفرده المعاهد ، وربما قالوا المعاهدة من النصارى أو النصارى المعاهدون : أما اليهود فكانوا يسمون اليهود فقط أو الذميين[٣] .

فلما بدأ أهل البلاد يدخلون في الإسلام أطلق على من أسلموا منهم المسالمة - مفرده مُسالم - أو الأسالمة - مفرده أسلمي - ثم أطلق على أولادهم الذين نشأوا

---

(١) ابن القوطية : افتتاح ، ص ١٢ .

والعبارة التي كتبنا إلى جوارها (كذا) يمكن تقويمها هكذا : إشفاقاً [مما] دخل عليهم . . .

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب (الطبعة الثانية ، لايدن ١٩٤٨) ، ص ٢٦ .

(٣) انظر البيان الذي أورده سيمونيت :

FRANCISCO JAVIER SIMONET, *Historia delos Mozarabes de Espana* (Madrid, 1897 - 1903) pp. VII - IX del Prologo.

على الإسلام إسم المولَّدين ـ مفرده مولَّد ـ واستمرت هذه التسمية تُطلق عليهم حتى نهاية القرن الثالث الهجري ، ثم تلاشت بسبب اختلاط الناس وتحول أهل المملكة الإسلامية في الأندلس إلى أندلسيين دون تمييز[1] .

١٨٨ ـ خطأ تسميتهم بالمستعربين

أما لفظ « مستعرَب » ، وجمعه مستعرَبون ، فلم يظهر في النصوص أو الكتابات الرسمية إلا في زمن متأخر على خلاف ما يظن ، وربما كان اللفظ جارياً على الألسن في اللغة الدارجة ، كما نقول نحن « إفرنجي » ، فإذا كتبناه قلنا فرنسي أو إنجليزي أو أوروبي أو أمريكي . ودليلنا على ذلك أن اللفظ لا يظهر فيما لدينا من كتب المؤرخين والجغرافيين والفقهاء وأهل الأدب ومن إليهم ، ولكنه ظهر في وثائق العقود الجارية بين الناس إبتداء من القرن الحادي عشر الميلادي ، ثم في كتابات نصارى الأندلس سواء باللاتينية أو االإسبانية القديمة (عجمية الأندلس) إبتداء من القرن الحادي عشر أيضاً . ففي الوثائق اللاتينية كانوا يقولون : Castellanos, Mozarabes atque Francos ، وذلك تمييزاً للنصارى الأندلسيين من أهل النواحي التي استولى عليها ملوك إسبانيا النصرانية عن القشتاليين والفرنجة وهم المهاجرون إلى إسبانيا النصرانية من أهل غالة ، ممن أقبل للاشتراك معهم في حرب المسلمين ، ثم استقر في النواحي التي استغلبها النصارى وأصبح من أهلها . وكان ملوك النصارى يميزون رعاياهم من القشتاليين وحلفاءهم من الفرنجة عن نصارى الأندلس الاسلامي الذين دخلوا في طاعتهم . فقد كان أولئك الأخيرون مستعرَبين ثقافة ولساناً وأسلوب حياة ، وكانت لهم طقوسهم الدينية الخاصة بهم المسماة EL Rito Mozarabe ، وكان لهم رجال دين خاصون بهم يقيمون صلواتهم على أسلوب خاص وبلغة خاصة هي عجمية أهل الأندلس ، وهي خليط من الإيبيرية الرومانية القديمة واللاتينية الدارجة والقوطية والعربية ، ثم ألغيت هذه الطقوس فيما بعد ، وفرضت الطقوس الكاثوليكية واللغة الكاثوليكية على نصارى إسبانيا جميعاً .

---

(١) انظر : سيمونيت : نفس المصدر ، ص ١٦ من المقدمة .
LEVI - PROVENÇAL, *Hist. de l'Espagne Musulmane* (2e. éd.) I. pp. 74 - 75.

ويبدو أن هذه التسمية كانت شائعة على ألسن نصارى الأندلس فقط ، وأن استعمالها في إسبانيا النصرانية لم يبدأ إلا عندما استولى ملوك النصارى على بلاد فيها إسبان نصارى مستعربون ، لأن إحدى الوثائق التي صدرت عن الأمبراطور ألفونسو السابع حوالي سنة ١١١٨ تقول : quos vacabunt Mozarabes (= الذين يسمون مستعربين) ، وفي خطاب وجهه البابا يوجين الثالث إلى أهل طليطلة سنة ١١٤٦ م (سقطت طليطلة في أيدي النصارى سنة ١٠٨٥ م) يقول : quidam Muzarabes Noncupantur (= أولئك الذين يسمون مستعربين) ، وجاء في تاريخ حياة القديس تيوتونيوس Teotonius التي كتبت في نفس العصر : quandam christianorum gentem quos vulgo mozarabes vocant (= وأولئك النفر من المسيحيين الذين يسمون في اللغة الدارجة مستعربين) وفي منشور صدر عن الأمبراطور ألفونسو السابع إلى أهل وادي الحجارة سنة ١١٣٣ يقول :

ad vos totos christianos Muzarabis quos ego traxi cum dei auxilio de potestate arracenorum

(= إليكم يا جميع النصارى المستعربين الذين استخلصتهم بفضل الله من سلطان العرب) . ونصوص ذلك العصر كله تفرق بينهم وبين نصارى قشتالة والفرنجة تفريقاً واضحاً كما رأينا ، بل كانت النصوص تؤكد اختلافهم عن بقية النصارى في طقوس العبادة ، بسبب اختلاطهم بالعرب واستعرابهم ، فقد جاء في كتاب عن الراهب شيمينيوس أسقف طليطلة : Ergo ejusmodi homines quod arabibus permixti viverent Mistarabes appelati sunt et illorum ecclesiasticus ritus officium Mistarabum (= ولهذا يسمى الناس الذين عاشوا مع العرب مستعربين ، وطقوسهم الكنسية تسمى الطقوس المستعربية)[1] .

---

(١) أورد هذه النصوص كلها سيمونت في مرجعه الذي أشرنا إليه (ص ٨ وما يليها من المقدمة) .

وقد جرت عادة المؤرخين المحدثين على تسمية أهل الذمة من النصارى الذين عاشوا في ظلال الحكم الإسلامي بالمستعربين ، وهي تسمية خاطئة كما رأينا . وأول من وقع في ذلك الخطأ هو=

وخلال القرن الثاني عشر ظهرت الكلمة في وثائق النصارى الأندلسيين في البلاد التي استولى عليها النصارى ، وكانوا يكتبون هذه الوثائق بالعربية ، فكانوا يقولون مثلاً : « دون يوان مستعرب » (= السيد خوان ـ أيام العرب كان يسمى يحيى ـ المستعرب) . وفي بعض الأحيان كانت الكلمة تكتب بصيغتها العجمية ، مما يدل على أن اللفظ لم يكن يكتب قبل ذلك بالعربية ، فقد جاء في إحدى الوثائق « دون يوان ـ مستارَب » . ولكن الأغلب أن ترد الكلمة في هذه الوثائق في صورتها العربية الصحيحة : « دون بِطْرُه بن مرتين مستعرب » و « دون لب بن بيطرة مستعرب » و « . . من كبار مدينة طليطلة من المدرجين والمستعربين والقَشْتَلَنين » و « دون دُمِنْقُه (Domingo) ابن بيطرة الذي كان أميناً للحصارين » . . بل كانوا يستعملون اللفظ في صيغته الإسبانية : « . . بقرية عين الديك المسماة ببال دي مستعربِشْ في شِشْلة مدينة طليطلة » ، أي أن قرية عين الديك كانت تسمى Val de Mozarabes (وادي المستعربين) في ناحية طليطلة[1] .

وإذاً فلفظ مستعرب لم يستعمل عند عرب الأندلس بصورة رسمية ، وإنما كان الجاري قولهم : « العجم » أو « النصارى» أو « نصارى الذمة » ، تفريقاً لهم عمن أسلم منهم حديثاً (الأسالمة والمسالمة) أو أبناء هؤلاء (المولدين) .

= سيمونيت نفسه ، فانه لم يعن بدراسة تاريخ هذا اللفظ ، وإن كان هو صاحب الفضل في اكتشاف أصله العربي ، فقد كان الناس قبله في حيرة من هذا الأصل ، وجعله بعضهم محرفاً عن Mixtarabes أي المختلطين بالعرب . ونلاحظ أننا نقرأ اللفظ « مستعرب » بكسر الراء وصحته بفتحها ، لأن أهل الأندلس كانوا يقولون « موزاراب » لاموزاريب . وقد جرى على نفس الخطأ فسمى الأندلس الإسلامي مستعربين ليفي پروفنسال وإيزيدورو دي لاس كاخيجاس وبقية مؤرخي إسبانيا الإسلامية من الأوروبيين . وقد عنينا نحن هنا بالبحث عن هذا اللفظ في كتب المسلمين فلم نجده ، فرجح لدينا أنه كان لفظاً دارجاً جرى على ألسنة الناس في الأندلس للدلالة على الذميين الذين استعربوا لساناً وأسلوب حياة ، وأنه لم يظهر في الكتابات إلا من القرن الثاني عشر الميلادي أو أواخر الحادي عشر على الأكثر : ظهر في الكتابات اللاتينية أولاً ثم انتقل إلى كتّاب الإسبان أنفسهم كما هو وارد في النص .

(١) F. J. SIMONET, *Op. cit.* pp. XIV - XV.

فـابن حيان يقـول : « حصـون المسـالمـة والنصـارى » و « تحزبت المسـالمـة مـع المولدين » ، وابن الأبار يقول : « فصب على المولدين والعجم منه » .

ويبدو أن الاستعراب كان يسبق الإسلام في معظم الحالات ، فقد اختلط « العجم » بالمسلمين وأخذوا لغتهم وأسلوبهم في الحياة ، ثم كان يسلم منهم من يسلم شيئاً فشيئاً ، بل كان بعض أولئك العجم ما يكادون يسلمون حتى يظهروا تفـوقاً في العـربية ، بـل منهم من تفوق في الفقـه ، فقد جـاء في « تـاريـخ علماء الأنـدلس » لابن الفرضي في تـرجمة عبـد الله بن عمـر بن الخـطاب ، من أهـل أشبيلية أنه كان « من مسالمة الذمـة ، فملأ أشبيليـة علماً وبلاغـة ولسانـاً ، حتى شَرِقت به العرب ، فلما حدثت الثائرة بينها وبين الموالي قتل يـومئذ ، وذلـك سنة ٢٧٦ »[١] .

وكان هذان الفريقان : أهل الذمة والمسالمـة ، ثم أبناؤهم من المـولدين ، يكـونون معـظم سكان الأنـدلس ، ابتداء من نهايـة الفترة التي نتحـدث عنها . وكان عدد أهل الذمة أكثر بكثير من المسالمة والمولدين أول الأمر ، ثم لم يزل عدد هؤلاء الأخيرين يزيد حتى أصبحوا معظم سكان الأندلس .

١٨٩ - المسالمة والمولدون فـأما عن المسـالمة والمـولدين فـواضح من النصـوص أنه لم يكن هناك فرق ما بين وضعهم العام ووضع العرب والبربر المسلمين أصـلاً ، فقد كـان الـذمي إذا أسلم انتقـل إلى وضـع المسلمـين دون تفـريق أو تمييـز ، وهذه ظـاهرة أخرى يختلف فيها الأنـدلس عن سـائـر نـواحي الـدولـة الإسلاميـة، بل ليس لدينا دليل واحد على أن الأندلس عرف التمييز بين الصلح والعنوة . نعم شرع بعض الولاة في إحصاء نواحي الأندلس وتعرف ما فتح منها صلحاً وما فتح عنوة ، كـما سنرى ، ولكن هـذه العمليات لم تتم ، وبقي الحـال في الأندلس مبهماً في هذه الناحية ، فأصبح غير المسلمـين كلهم ذمة دون تمييـز ، ومن أسلم منهم دخـل المجموعـة الإسـلامية ، وتلاشى كـل شيء يتصل بـأصله تماماً . وربما كان السبب في ذلك هذه القلقلة التي سادت عصر الولاة كله ، فلم

(١) ابن الفرضي : علماء الأندلس ، ترجمة ٦٤٧ .

يتسع وقت الولاة لتنظيم شيء أو لتحديد وضع ، فسارت الأمور على عواهنها ، وسنرى مصاديق ذلك في كلامنا عن الإدارة والمال في الفصل التالي ، وسنتبين أن ذلك كان من حسن حظ الأندلس ، ورب ضارة نافعة ! فلو ان « جهبذة » الولاة والعمال عملت في هذا البلد عملها الذي عملته في غير الأندلس من بلاد الإسلام لما أسلم أهله واستعربوا بهذه السرعة ، ولما كانت لأهله هذه الصفحة المشرقة في تاريخ الإسلام .

وربما كانت الجماعات الأولى من أولئك الذين أسلموا من العبيد ورقيق الأرض ، فقد رأينا أن إسبانيا القوطية ضمت من الأولين آلافاً كثيرة ، ثم إن حالة رقيق الأرض كانت من السوء بحيث بدا الإسلام لأولئك الناس وكأنه خلاص من المتاعب والشقاء . وسنرى أن الجبايات في الأندلس كانت أخف بكثير من مثيلاتها في الأمصار الأخرى ، وأن أهل الأرياف كانوا أحراراً ، سواء أسلموا أم لم يسلموا ، وأنهم تمتعوا في ظل هذا العهد الجديد الذي طلع عليهم بأمان ورفاهية لم تعرفها أوروبا إلى أواخر القرن العاشر الميلادي على الأقل .

١٩٠ ـ رأي بروفنسال

كان أولئك المسالمة والمولدون إذاً من طبقات اجتماعية شتى قبل إسلامهم ، كان منهم العبيد ورقيق الأرض والزراع واهل المدن بشتى صنوفهم : الأشراف والأوساط وأهل الأسواق ، وكان فيهم موال وغير موال ، فتساووا جميعاً في رحاب الإسلام . وجدير بنا أن نلاحظ أن الأندلس لم يعرف التشدد والتعصب حتى إمارة الأمير هشام بن عبد الرحمن الداخل ، عندما قامت دولة الفقهاء وتسلطوا على العامة ونصبوا أنفسهم حكاماً إلى جانب الأمراء . ويؤيد الأستاذ ليڤي بروفنسال ما ذهبنا إليه من إقبال أهل الجزيرة على الإسلام ويقول: « وقد أصبح نفر من أبناء أولئك المسلمين الجدد من مياسير أهل الطبقة الوسطى ، بل منهم من أصبحوا سادة أغنياء عن طريق التجارة أو الزراعة ، وقد مضوا في هذا المضمار حتى غاب عنهم أن أجدادهم كانوا مستقرين في إسبانيا قبل الإسلام بزمن طويل ، وذهب بعضهم إلى ادعاء نسب عربي ـ دفعوا في تلفيقه مالاً كثيراً ـ يسمح لهم بالزهو بأنهم من أصول عربية ، واحتفظ بعضهم بعد إسلامهم بأسمائهم القديمة ، وظلوا يعرفون بها

مثل بني أنجلين Angelino وبني شَبَرِيقُ Savarico الأشبيليين ، وفيما بعد ذلك بزمن طويل ، بني لُنْقُ Longo وبني القَبْطُرنُه Kabturno وآخرين كثيرين . ولقد فخر أحد مؤرخي إسبانيا الإسلامية ، وهو ابن القوطية ، الذي عاش في القرن العاشر الميلادي ، بأصله الذي يرجع به إلى بيت الملك غيطِشَة ، وهذا هو السبب في تلقبه بابن القوطية . ولكن الذي كان يحدث في غالب الأحيان أن التزاوج بين المولدين والمسلمين الداخلين كان يقضي عند بيوت هؤلاء المولدين على ذكريات أصولهم الإسبانية البعيدة . وقد حدثت على عجل حركة اختلاط بشرية واسعة المدى بين عناصر سكان أهل الجزيرة الأندلسية ، وأصبح من العسير شيئاً فشيئاً تمييز أهل البلاد الأصليين من الداخلين عليهم » .

« ومهما يكن من أمر فإنه ـ حتى في حالة أولئك الإسبان الذين تخلوا عن دين آبائهم واتخذوا أسلوب حياة المسلمين الداخلين ، واندرجوا في نطاق نظامهم الاجتماعي ـ لم يفقد المولدون أبداً شخصيتهم الخاصة بهم . وإنه ليرجع إلى وجود أولئك المولدين في ذلك البلد ـ ووضعه متطرف وجزري منعزل بالنسبة إلى بقية بلاد الإسلام ـ أن تميز الأندلس في نواحٍ كثيرة بأنه قطعة فريدة في بابها في عالم الإسلام ، سواء أكان ذلك التفرد في صور حياته السياسية أو كان في مثله الأعلى الحضاري والثقافي . ومن المهم ألا ننسى أنه ابتداء من القرن الثامن (الميلادي) أو التاسع على الأكثر ، حتى القرن الخامس عشر ، لم تكن اللغة العربية قط هي اللغة الوحيدة المستعملة في الأندلس ، وأنه كانت هناك عناصر كثيرة من سكانه تتحدث بلهجات دارجة عجمية مشوبة بالإيبيرية والعربية ولكنها مشتقة قبل كل شيء من اللاتينية ، وليس هناك ما يمنع من القول بأنه إلى عصر متأخر من عصور التاريخ الأندلسي ، غلبت على ألسنة أهل الأندلس رطانة عامة إسبانية[1] في كل مكان تقريباً ، وتحدث بها الناس أكثر مما كانوا يتحدثون بالعربية ، ومن الطبيعي أن يكون ذلك أظهر في الأرياف منه في

(١) استعمل المؤلف هنا لفظ xoine اليوناني . والكوينية كانت لغة دارجة مستعملة في البلاد التي على شواطىء البحر الأبيض كلها ، وكانت جارية على ألسن التجار والملاحين في نواحي هذا البحر كلها .

المدن ، وقد غلبت هذه الرطانة بصورة أوضح على اللهجات البربرية »[١] .

١٩١ ـ آراء في أجناس سكان الأندلس

وفي موضع آخر من « تاريخ إسبانيا الإسلامية » يقول ليڤي بروڤنسال: « وتعطينا عبارة لم تنشر بعد لمؤلف أندلسي نجهل اسمه ، أوردها في سياق رسالة قديمة عن كبار بيوت أهل فاس[٢] بياناً بالغ الغرابة عن التكوين البشري للمجتمع الأندلسي وعن اختصاص كل عنصر من العناصر التي كان يتألف منها السكان المسلمون في الجزء الذي ساده الإسلام من شبه الجزيرة في نهاية الخلافة بشيء من الأعمال الزراعية أو الصناعية اليدوية : ويمكن تقسيم هؤلاء السكان بناء على ما ذكره

---

(١) LEVI - PROVENÇAL, *Hist. de l'Espagne Musulmane* (2e. éd. (Paris, 1950 Vol I, pp. 76 - 77.

وقد علق المؤلف على هذه العبارة في الهامش بالاشارة إلى ما سبق أن ذكرناه من قول ابن حزم أن عرب داربلْ شمالي قرطبة كانوا إلى عصره لا يتحدثون « اللطينية » (الجمهرة ٤١٥) مما يدل على أن ذلك الفريق من العرب كان شيئاً نادراً .

(٢) اسم هذا الكتاب « ذكر مشاهير أهل فاس في القديم » ، وقد ألف في القرن الخامس عشر . انظر :

LEVI - PROVENÇAL : *Islam d'Occident*. I. p. 39 note 45.

وتوجد نسخة من هذا المخطوط في المكتبة الشريفية في رباط (رقم ١٣٩٤) والنص المشار إليه في الورقة ٢١ .

وإليك نص التعليق الذي يشير إليه بروڤنسال في هذا المرجع : ورد هذا المخطوط من مكتبة البعثة العلمية القديمة في مراكش ، وهو موجود في المكتبة الشريفية في رباط تحت رقم د ١٣٩٤ (D. 1394) وقد نسب هذا المؤلف الصغير إما الى عبد القادر الفاسي المتوفي سنة ١٠٩٠ هـ / ١٦٨٠ م ـ انظر عنه كتابي (كتاب بروڤنسال) تاريخ الشرفاء . *Historiens des Chorfa*, pp. 264 - 265. أو إلى أبي الوليد إسماعيل بن الأحمر مؤلف كتاب « روضة النسرين » المتوفي في فاس عام ٨٠٧ / ١٤٠٤ ـ ١٤٠٥ . ويبدو أن نسبة الكتاب الى المؤلف الثاني اقرب الى المعقول ، بشرط ان يُفهم ان الاشارات المتعلقة بحوادث وقعت بعد وفاة ابن الأحمر قد أضيفت فيها بعد ، وهي إشارات كثيرة تتعلق بحوادث القرن التاسع الهجري . انظر :

عبد الحي الكتاني : فهرس الفهارس ، فاس سنة ١٣٤٦ للهجرة ، جـ ١ ، ص ١٠١ :

Actes du VIIIe. Congrès de l'Institut des Hautes Etudes Marocaines, dans Hespéris, t. XIX. 1934 p. 196.

وقد اطلعنا على هذا المخطوط والفقرة المشار إليها وأبدينا آراءنا فيها في المتن .

ذلك المؤلف المجهول إلى أربعة أجناس : البربر الذين دخلوا الأندلس من المغرب أو إفريقية ، وأهل البلاد من النصارى الذين دخلوا الإسلام ، واليهود الذين أسلموا ، ثم ـ بطبيعة الحال وفي المكان الأول ـ العرب ، ويضمون الهاشميين وبقية العرب الذين هاجروا إلى الأندلس من جزيرتهم بكل جراثيمهم (= أصولهم) . وقد انضافت لكل من هذه الأجناس جماعات من الموالي » .

« واستناداً إلى المعلومات التي يوردها هذا المؤلف ، كان العرب الذين دخلوا إسبانيا من الحجاز أو اليمن أو الشام أو مصر أو ليبية أو إفريقية وحتى من السوس الأقصى ، يتجمعون في المدن الكبيرة ، حيث كانوا يتجنبون قدر المستطاع الاشتغال بالحرف البسيطة ويحتلون أعلى الوظائف في خدمة الدولة أو القضاء ، واشتغل بعضهم بالتجارة أو عنوا باستثمار أراضيهم . وليس في هذه العبارة ـ أي عبارة المؤلف الأندلسي ـ شيء جديد لم نكن نعلمه . ويكفي أن نلقي نظرة على خريطة توزيع السكان في الأندلس في القرن التاسع ، لكي نتبين أن المهاجرين العرب لم يعقدوا صفقة خاسرة عندما استقروا في الأندلس في المناطق الأوفر غنى أو الأكثر خصباً أو التي حبتها الطبيعة بخيراتها من الجزء الساحلي والذي يليه إلى الداخل في جنوبي الجزيرة أو شرقها . فقد كانوا يختصون أنفسهم في هذه النواحي بأحسن الأراضي ، ويضمنون لأنفسهم بذلك دخولاً تسمح لهم بالعيش عن سعة سواء في ممتلكاتهم ، أو ـ وكان هذا هو الأغلب ـ في عواصم النواحي أو في كبار المدن ، وخاصة أشبيلية وبلنسية وسرقسطة ، وحتى في العاصمة (قرطبة) في القرن العاشر ، إذ اجتذبتهم إليها لطائف الحياة المترفة التي كان يحياها أشراف قرطبة حول بلاط الخليفة . . . »[1] .

وقد عاد بروفنسال ففسر كلام ذلك المؤلف الأندلسي وذهب إلى أن سكان الأندلس يقسمون ، بناء على ذلك الكلام ، كما يلي :

---

(١) LEVI - PROVENÇAL, *Op. cit.* III pp. 172 - 173.

(أ) أبناء الإسبان الذين دخلوا في طاعة المسلمين صلحاً ودخلوا في الاسلام وأقاموا في مواضعهم التي كانوا فيها .

(ب) أبناء الإسبان الذين دخلوا في طاعة المسلمين عنوة ، فأصبحوا بحكم الفتح أسرى ثم أسلموا وأقاموا في مواضعهم .

(جـ) أبناء المستعربين الذين أسلموا بعد الفتح ، وأبناء أسرى النصارى الذين أتت بهم الفتوح والغزوات ، ثم اعتنقوا الإسلام واستقروا نهائياً في الأندلس(1) .

ثم قال : « إن هذا التقسيم يبدو مطابقاً للواقع إذا عرفنا أن دخول الإسلام لا يستتبع من تلقاء نفسه المساواة في الحقوق الكاملة بين من أسلموا صلحاً ومن أسلموا عنوة . وعلى أي الأحوال ، فقد اقتصر أولئك المسلمون الجدد ـ الذين كانوا يعرفون كما رأينا بصورة عامة بالمولدين والمسالمة (أو الأسالمة) ، وبحسب هذا النص ـ على تربية الماشية والزراعة في الأرياف وعلى صيد السمك والأعمال البحرية على الساحل . أما في المدن فقد زاولوا ، هم ومواليهم حرفاً وأشغالاً يدوية واشتغلوا كذلك بالتجارة الصغيرة ، وذلك كله على وجه التقريب . وهذه الملاحظات ، مهما بدا لنا من قلة أصالتها لا تخلو من قيمة . فهي تؤكد الدور العظيم الذي قام به المولدون ـ الذين كانوا يؤلفون أكثر أهل الأندلس من ناحية العدد والأهمية ـ في الحياة الاقتصادية في البلاد ، فقد كانوا في هذه الناحية أوفر العناصر نشاطاً وأكثرها تلاؤماً مع ظروف الحياة في شبه الجزيرة ، مثلهم في ذلك مثل المستعربين ثم البربر إلى حد معين . وقد دل الأمويون (الأندلسيون) على أحسن صور الحكمة السياسية عندما شجعوا هذه العناصر على النهوض ، وذلك بإطلاق الحرية للكثيرين منهم في أن يتمولوا ويندرجوا أكثر في الجماعة الإسلامية ، حيث كان العنصر الفاتح يكوّن أرستقراطية قليلة العدد جداً . وكذلك دل الذين سبقوهم إلى حكم الأندلس في القرن الثامن على مقدرة سياسية عندما احتضنوا المولدين ، فحلوا ـ على الصورة

---

(1) LEVI - PROVENÇAL, *Op. cit.* III p. 180.

الـوحيدة المعقـولة ـ تلك المشكلة التي واجهتهم كـما واجهت غيـرهم من حكـام المسلمين في كل البلاد التي استقر فيها أمر الإسلام ، وذلك الحل هو السيطرة ـ بمساعدة سادة البلاد القدماء أنفسهم ـ على بلاد واسعة لم يكن الفاتحـون وحدهم ليملكوا من قوى الاحتـلال ما يكفي للمحـافظة عليهـا ولمواجهـة موقف العـداء الذي اتخذه أهل البلاد الـذين كانـوا ينتظرون أول فـرصة ليتحـرروا من سلطان كانوا يرون أنه يجاوز حد الاحتمال »[1] .

١٩٢ ـ خطأ هذه الآراء والأحكام

وهذه الأحكام العامة كلها لا تخلو من أخطاء : فأما عبارة ذلك المؤلف المجهول فواضح أنه لم يعتمد فيها عـلى معرفـة صحيحة بأحوال الأندلس خلال تلك العصـور الأولى ، فلم يكن سكان الأنـدلس يتألفـون من العناصر الأربعـة التي ذكرهـا أولاً وهي : العرب والبـربر والنصـارى واليهود الـذين أسلموا ، أو من العنـاصر الثلاثـة التي ذكـرهـا ثـانيـاً وهي : الإسبـان الـذين فتحت نـواحيهم صلحـاً ثم أسلمـوا ، والـذين فتحت نـواحيهم عنوة ثم أسلمـوا ، ثم أبناء المستعربين الذين أسلمـوا بعـد الفتـح ، ويضاف إليهم أولاد أسرى الغزوات والفتوح الذين استقروا في الأندلس .

فـأما تقسيمـه الأول فواضـح منـه أنه أسقط النصـارى الـذين ظلوا عـلى دينهم ، وكانوا كـما سنرى يمثلون نسبـة عاليـة من سكان البـلاد ، وأما تقـسيمـه الثاني فظاهر أنه مضطرب غير مستقيم . ثم إن تفـريقه بـين من فتحت نواحيهم صلحـاً ومن فتحت نواحيهم عنـوة لا محـل لـه هنـا ، فـإن مـسلمي الأنـدلس لم يستـطيعوا أبـداً تمييز أرض صلح من أرض عنـوة في هـذه البـلاد ، وانتهى بهم الأمر إلى اعتبار من أسلم منهم جميعـاً مسلمين يتمتعـون بنفس الحقوق ، ومن لم يسلم منهم أهـل ذمـة ، وطبقـوا عليهم أشـراط الشـريعـة في أبسط صـورهـا . وينبغي أن نـلاحظ أن صدر الإسلام لم يعرف مـا عرفتـه العصور المتـأخـرة من مضـايقات أهـل الذمـة ، كاختصـاصهم بملابس خـاصة وتحـريم ركـوب بعض الدواب عليهم وما إلى ذلك ، إنما كان الإسلام إذ ذاك سمحاً طلقاً يتـرك الناس

---

(١) LEVI - PROVENÇAL, *op. cit.* III. pp. 180 - 183.

وشأنهم ما أدّوا الأموال المفروضة عليهم ، وهذه السماحة هي التي حببت الناس فيه وجعلتهم يقبلون عليه ، وكأنما اجتذبهم إليه عدم إصرار المسلمين الأول على إدخالهم في الدين ، فلما أقبل الفقهاء وأخذوا يقننون ويشرعون ويخرّجون ويستعينون بالعوام على إقامة جاه لهم لا يقل عن جاه الدولة - إن لم يزد عليه - ظهرت هذه المضايقات التي ازدادت ثقلاً كلما بعد العهد بسماحة الإسلام الأولى وبساطة من حملوا لواءه . وكلما زاد الفقهاء أثقالاً على من بقوا على دينهم من أهل البلاد ازدادوا تمسكاً به ونفوراً من الدخول في الإسلام ، لأن المسألة لم تصبح مسألة دعوة سمحة وإنما تحدياً وتهديداً ، والتحدي من جانب يبعث تحدياً في الجانب الآخر كما يقول آرنولد توينبي في دراسته الجليلة للتاريخ .

وأغلب الظن أن أحكام هذا المؤلف مستقاة من بعض افتراضات المؤرخين المتأخرين ممن كانوا ينظرون في كتب الفروع والأحكام والفتاوى ويستخرجون منها أحكاماً يطلقونها على الماضي ، ظناً منهم أن الإسلام كان هكذا دائماً ، أو رغبة منهم في توجيه سياسة أهل الحكم في أيامهم حيال الذميين وجهة خاصة بالزعم بأن ذلك كان الحال أيام « السلف الصالح » .

١٩٣ - هل كان العرب أرستقراطية مترفعة عن غيرها في الأندلس ؟

ولقد تابع بروڤنسال هذه الآراء فقال بأنه كان هناك في الأندلس تمييز بين أهل الصلح وأهل العنوة ، وسنرى أن شيئاً من هذا لم يكن في الأندلس ، ثم اعتبر اليهود جنساً قائماً بذاته ، ولم يكونوا إلا قلة اندرج معظمها في عداد المسلمين . ثم ذهب يقول من عنده إن العرب كانوا يكونون أرستقراطية خاصة ، والواقع أنهم لم يكونوا كذلك ، وإنما كانت الأرستقراطية الحقيقية في بيوت الموالي ولم يكونوا عرباً على ما رأيناه في الفصل السابق ، وقد ظل الجاه والسلطان في هذه البيوت إلى آخر أيام الخلافة الأموية ، أما العرب فقد اندرج منهم في أهل البلاد من اندرج ، وبقي منهم في العواصم نفر يطلبون العيش كغيرهم ، وبقيت منهم في الأرياف جماعات محتفظة بأراضيها كما احتفظ غيرهم من غير العرب بأراضيهم ، فيما عدا عرب الكور المجندة ، وكان لهؤلاء وضع خاص كما سنرى ، إذ كانوا

نواة القوة العسكرية للدولة أول الأمر ، وكان لهم من الامتياز والاعتزاز بأنفسهم ما كان لأمثالهم من العسكريين في كل مكان في تلك العصور . وعندما استبدل أمراء بني أمية جند الصقالبة بجند العرب وجعلوا أولئك الصقالبة نواة جيشهم انحدر جند العرب إلى المكان الثاني ، فأحفظهم ذلك ، وكان من أكبر أسباب الفتنة الكبيرة التي أشعل العرب نارها من أوائل حكم الأمير محمد إلى أوائل عهد الناصر . ويلاحظ بصفة خاصة أن ثورة العرب هذه وغضبهم على الأمراء ، الذين أحلوا غيرهم مكانهم في الجيش واعتمدوا على الموالي في شؤون الدولة ، كانا السبب الأول في اتجاه العرب إلى أذى المولدين والعجم ، وهذا الأذى بدوره هو الذي روع هؤلاء واستنهضهم إلى المقاومة ، فكان ذلك عصب ثورة عمر بن حفصون وغيره ممن قادوا ثورات المولدين ومن انضم إليهم من نصارى الذمة ، ولم يكن سبب ثورتهم سوء المعاملة أو ثقل الجبايات ، ولم يكونوا ينتظرون أول فرصة للتحرر من نير كانوا يرون أن احتماله يجاوز الطاقة كما قال بروفنسال .

* * *

١٩٤ - أهل الذمة

من الطبيعي أن يكون أهل الذمة معظم أهل الأندلس الإسلامي خلال السنوات الأولى التي أعقبت الفتح ، وأن يقل عددهم شيئاً فشيئاً ، كلما قدم عهد الإسلام في البلاد حتى يصبحوا أقلية بالنسبة إلى العرب والبربر والمسالمة والمولدين . ولقد بينا فيما سبق كيف أنهم كانوا يعيشون على اتصال مباشر بالمسلمين ، ما بين عرب وبربر في الريف والمدن ، وأشرنا كذلك إلى أن التمييز الواضح بينهم وبين المسلمين في الوضع والمعاملة ، لم يظهر إلا في عصر متأخر ، عندما تمكن أمر الفقهاء ووضعوا ما شاءوا من القيود لا على الذميين فحسب ، بل على المسلمين أيضاً .

ولقد أخطأ كثير من الباحثين الذين تعرضوا لدراسة أحوال الذميين في الأندلس وغيره من بلاد الإسلام ، عندما التمسوا الحدود والقواعد التي وضعت لهم من كتب الفقه والنظم الإسلامية ، وفاتهم أن هذه الكتب كلها وضعت في

زمن متأخر عن عصر صدر الإسلام ، فهي لا تمثل الوضع في صدر الإسلام ، بل هي لا تمثل الوضع في العصور التي كتبت فيها ، فالكثير مما تحتويه من قواعد وأحكام إنما تمثل « أماني » مؤلفيها ، وما كانوا يرون أن يكون عليه أهل الذمة بحسب ما انتهى إليه تصورهم وتفسيرهم للآيات والأحاديث وآراء كبار الأئمة . ونحن إذا قرأنا اليوم كتاب « الخراج » لأبي يوسف أو كتاب « الأموال » لأبي عبيد أو « الأحكام السلطانية » للماوردي إنما ندرك أن ما في كتبهم إنما هو « المثل الأعلى » للنظم الإسلامية كما ارتآه أولئك الفقهاء ، وليس هناك مؤرخ محقق يقول بأن هذا هو النظام الذي كان جارياً بالفعل : إذ الواقع أن أحوال المسلمين كانت أسوأ بكثير ، وأحوال الذميين أحسن بكثير مما في هذه الكتب ، وكان هدف الفقهاء من هذه المبالغة هو طلب الرفق بالمسلمين والتشديد على الذميين ، حسباناً منهم أن هذا يسرع بإسلامهم ؛ ولم يتحقق شيء مما رجوه : لا المسلمون تحسنت أحوالهم ، ولا الذميون أسرع إسلامهم .

١٩٥ ـ وضع الذميين في المجتمع الأندلسي خلال هذه الفترة

ولقد رأينا فيما سبق كيف كان لون العلاقات بين كبار عرب الأندلس وكبير نصارى الذمة أرطباس ، ورأينا كيف كان الأمر صداقة بين الجانبين لا سيادة جانب على جانب ، وأن ميمون العابد ، وكان قطباً من أقطاب الإسلام الأندلسي في ذلك العصر ، ذهب يطلب إلى هذا الذمي قطعة أرض ليزرعها على أساس المزارعة ، أي اقتسام الثمر بينه وبين صاحبها ، ولو أن العرب كانوا غاصبين مستبدين ـ كما زعم خافيير سيمونيت وإيزيدورو دي لاس كاخيجاس ـ لما احتاج هذا الرجل إلى أن يطلب أرضاً من أرطباس على هذه الصورة .

ولا نزاع في أن العرب لم يمسوا النصارى الذين صالحوا على أنفسهم بسوء ، فقد روى صاحب « فتح الأندلس » أن موسى بن نصير رأى النبي صلى الله عليه وسلم أثناء عبوره إلى الأندلس فنصحه « بالرفق بالمشركين »[1] ، وهي رواية أسطورية في الغالب ، ولكنها على أي حال تدل على اتجاه المسلمين حيال

(١) فتح الأندلس ، ص ٥ .

غير المسلمين أثناء الفتح وبعده بقليل . ومما يؤيد ذلك عبارة للرازي يقولها في سياق الحديث عن أم عاصم (إيلونا) زوج لذريق : « وكانت قد صالحت عن نفسها وأموالها وقت الفتح ، وباءت بالجزية ، وأقامت على دينها في ظل نعمتها ، إلى أن نكحها الأمير عبد العزيز فحظيت عنده ، ويقال إنه سكن بها في كنيسة بأشبيلية »[1] : مما يدل على أن من كان يصالح على نفسه من النصارى ويقبل دفع الجزية كان يضمن حرية دينه والبقاء « في ظل نعمته » . وسنرى أن ذلك كان صحيحاً في جملته وتفصيله ، وأن كل ناحية من نواحي الأندلس صالحت على نفسها بمعاهدة خاصة ، وأن هذه المعاهدات اختلفت فيما بين بعضها وبعض ، من حيث الصيغ والتفاصيل واتفقت في الروح والأساس . بل إننا نلاحظ أن الفاتحين كانوا يتصرفون تصرفاً واسعاً فيما يعتقدونه من عهود مع أهل النواحي ، بل ذهب بعضهم الى حد « الابتكار » الذي يتجاوز ما تبيحه السوابق والقواعد ، ومن أمثلة هذا ما يرويه صاحب فتح الأندلس من انه « عندما وصل موسى إلى الفتح المنسوب إليه انقطع إليه ذلك الموضع ، فأقرهم على حالهم ، فسموا موالي موسى »[2] .

ومن أمثلة ذلك أيضاً ما حكاه الرازي عن فتح طارق لأستجة ، قال : « ثم نازل أهل أستجة ، وهم في قوة ومعهم فل عسكر لذريق ، فقاتلوا قتالاً شديداً ، حتى كثر القتل والجراح بالمسلمين ، ثم إن الله تعالى أظهر المسلمين عليهم ، فانكسروا ، ولم يلق المسلمون بعد ذلك حرباً مثلها ، وأقاموا على الامتناع إلى أن ظفر طارق بالعلج صاحبها ، وكان مغتراً سيىءالتدبير، فخرج إلى النهر لبعض حاجاته وحده ، فصادف طارقاً هناك قد أتى لمثل ذلك ، وطارق لا يعرفه ، فوثب عليه طارق في الماء ، فأخذه وجاء به إلى المعسكر ، فلما كاشفه اعترف له بأنه أمير المدينة ، فصالحه طارق على ما أحب ، وضرب عليه الجزية وخلى سبيله ، فوفى بما عاهد عليه . . »[3] . وقد كان المسلمون يحرصون على

(١) رواه المقري في نفح الطيب ، جـ ٢ ، ص ١٧٨ .
(٢) فتح الأندلس ، ص ١٤ .
(٣) المقري : نفح ، جـ ٢ ، ص ٢٤٣ ـ ٢٤٤ .

الـوفاء بعهـودهم ، حتى في الحالات التي يبـدو لهم أنهم خدعـوا فيها ، كحـالـة تدمير الذي احتال على جند المسلمـين بحيلة بارعـة فصلنا أمـرها في كـلامنا عن الفتـح ، وقد وفى المسلمـون رغم ذلك لتـدمير ، قـال الرازي : « فمضـوا عـلى الوفاء له ، وكان الوفاء عادتهم »[١] .

١٩٦ ـ عهود المسلمين للنواحي — وقد ضاعت نصوص معظم المعـاهدات التي عقـدها المسلمـون مـع مـا فتحـوه من النـواحي ، ولكن بقي لنـا النص الكـامـل لمعاهدة عبد العزيز بن موسى مـع تدمـير وقطعـة هامـة من عهد مـوسى بن نصير لأهل ماردة أوردهـا الرازي في القـطعة البـاقية من تـاريخه في تـرجمتها الإسبـانية ونصها : « . . . فذهبوا (يريد أهل ماردة) إليه ، وقالوا إنهم يتركون له كل مـا كان لمن مات منهم ومن جـرح (في القتال بينـه وبينهم) وممتلكات الكنـائس وما فيها ، وكذلك ما تحويه من الأحجـار الكريمـة وغيرهـا من الأشياء الـطيبة وكـل ممتلكـات رجال الـدين . وبعـد أن تم التـوقيـع عـلى ذلـك في عهـود صحيحـة (مؤكدة) فتحوا لـه الأبواب وأدخلوه البلد وأسلمـوه إياهـا . ولم يمس المسلمون من أقام في البلد من النصارى بأذى ، وأما من أراد ترك البلد منهم فتركوه يمضي دون أذى . . . »[٢] . وأمـا نص الأمان الـذي أعـطاه عبـد العـزيـز بن مـوسى لصـاحب تدمـير فقد أورده الضبي في « البغيـة » ، ووردت ترجمتـه الإسبانيـة في قـطعة الـرازي المشار إليهـا ، وقد أوردنـا نصـه في كـلامنـا عن فتـح الأنـدلس

(١) نفس المصدر ، ص ٢٤٧ .

(٢) النص :

... Et fueronse para el, et pleitaron que le diessen todo el aver de los muertos, et de los feridos, et de las iglesias, et de lo que en ellas estaba, ansi como piedras preciosas et otras nobles cosas, et todo el aver de los clerigos. Et despues que esto fué firmado por buenas cartas abrieronsse las puertas, et acogieronlo dentro, et entregaronlo de ella. Et aquellos christianos que hi moravan nos les facian mal, et los que irse querian ibanse, et non les facian mal...

PASCUAL DE GAYANGOS, *Memoria sobre la autenticidad de la Cronica denominada del Moro Rasis*. p. 78.

وسنعرض له في الفصل التالي عن الإدارة ، ويهمنا في هذا المقام أن ننص على ما فيه من الضمانات التي منحها للذميين .

وقد اعتمد نفر من الباحثين الإسبان في دراسة أحوال أهل الذمة في الأندلس على وثيقة تسمى « عهد عمر بن الخطاب رضي الله عنه للنصارى » . وهي وثيقة ظاهرة الوضع ، إذ إنها تشير إلى إلزام النصارى بملابس خاصة منها « القلنسوة » و « العمامة » وهي ملابس لم يعرفها المسلمون في أيام عمر رضي الله عنه ، وتحرم عليهم كذلك ركوب الخيل وما إلى ذلك ، ولم يعرف عن عمر أنه نهى النصارى عن ذلك . والحقيقة أن هذا « العهد » من وضع فقهاء العصور المتأخرة ، ولا يجوز اتخاذه أساساً لدراسة أحوال أهل الذمة في عصر صدر الإسلام(١) .

١٩٧ - تطور النظم الإسلامية

ويبدو أن مؤرخي الإسلام جميعاً ، ما بين قدامى ومحدثين ، مسلمين وغير مسلمين ، يغيب عنهم أن النظم التي جرى المسلمون عليها في حكم الأقاليم والمعاملة التي اختصوا بها أهل الذمة لم توضع كاملة من أول الأمر ، وإنما تكاملت شيئاً فشيئاً مع الزمن ، وخضعت في كل مكان للظروف المحلية . ومن أمثلة ذلك أن أبا يوسف يذهب في كتاب « الخراج » إلى أن تقدير الجبايات تقديراً إجمالياً ودفع الخراج جملة واحدة غير جائزين ، في حين أن الوثائق البردية التي عثرنا عليها تدل على أن حكام المسلمين جروا على ذلك أول الأمر : ففي مصر مثلاً اتفق عمرو بن العاص مع ممثلي القبط على أن يؤدوا ما عليهم جملة واحدة تشمل الجزية والخراج جميعاً ، وقد جرى الأمر على ذلك أيام عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي السرح ، ثم

---

(١) نشر هذا النص المستشرق بيلان في المجلة الأسيوية الفرنسية . انظر :
BELIN, *Fetoua relatif a la condition des dzimmis, et particulièrement des chrétiens, en pays musulmans, dans Journ. Asiat.* tome XVIII de la IVe. serie. pp. 126 sqq et 138 sqq.

وترجمه سيمونيت في كتابه الآنف الذكر . ملحق ٢ ، ص ٨٠١ وما يليها .

كـان التقسيم والتقنين بعـد ذلك[1] . بـل إن تحديـد معنى الجزيـة والخراج غـير واضـح ، فتسمى الجزيـة في بعض الأحيان « خـراج الرؤوس » ويسمى الخـراج « جزية الأرض » . ذلك أن الذين عقـدوا العهود مـع أهل البـلاد المفتوحـة هم الفـاتحون ، وهم رجـال عسكريـون عمليون ، كـل ما كـان يعنيهم إقرار الأمن وضمـان طاعـة البلاد المفتـوحة وإشعـار أهلها بسمـاحة الإسلام وعدل الـدولة الإسـلامية ، ثم ضمان حق الدولة في الجبايات ، وهم لهذا كـانوا لا يـدققون في طريقة الجباية ولا يتدخلون في شؤون أهل البلاد إلا بالقدر الـذي يضمن حقوق الدولة . ولم ينتقل الأمر إلى أيدي الفقهاء والمقننين إلا فيها بعد ؛ وقد بدأ الفقهاء عملهم على أسلوب علمي : يسألون عن الصلح والعنوة ، ويلتمسـون الأحكام من القرآن الكريم والـسنة ، ويتصرفون فيها يصـدرونه من أحكـام تصرفـاً واسعاً ذكياً يدل على إدراك وسعة فهم ، كما نرى في موطأ مـالك ومـا استند عليـه مثل مـدونة سحنـون : ثم مضى عهد كبـار الفقهاء وأئمـة الشرع في منتصف القـرن الثالث الهجري تقـريباً ، وبـدأ عهد « الفقهـاء السياسيـين » أي الفقهاء الـذين طمحـوا إلى السلطان عن طريق التقـرب من الحكام حينـاً أو الاستعانـة بالعـوام حينـاً آخر لإقـامة جـاه يستندون إليـه . ولا نجد هـذه الـظاهـرة عـلى صـورتهـا الواضـحة ، التي يمكننا تأريخها ، إلا في المغرب والأندلس ، وفي هذا البلد الأخير بصورة خاصة ، حيث نجد دولة الفقهاء وجهاً لوجه أمام دولـة الأمراء ، ونجـد دولـة الفقهاء تبني جـاههـا عـلى إيمـان العـوام ، وتشـرِّع بمـا يـرضيهم ويستثـير عواطفهم ، ومن هنا كانت مناداتهم بكل ما يرضي مشاعر الجماهير ، ومن ذلك التشدد مع الذميين ، وتحـريض الأمراء عليهم وتحـريض العامـة على الأمـراء إذا

---

(١) انظر مناقشة ذلك في :

C. H. BECKER, *Beitraege zur Geschichte Aegyptens unter dem Islam.* II, p. 83 sqq, 124 sqq.

- *Die Entstehung von Usr und kharagland in Aegypten in Zeitschrift der Assyriologie,* XVIII (1904 - 1905) 301 - 319.

- *Papyri Schott Reinhardt,* I (Heidelberg, 1906) S. 37 sqq.

هم قربوا رجالاً منهم(١) . وكان الفقهاء حريصين على أن يؤيدوا مذاهبهم بتفسيرات خاصة لأحكام الشرع ، وربما ابتكروا وثائق ونسبوها إلى رجال الدولة الإسلامية الأولى ، كما رأينا في الوثيقة المنسوبة إلى عمر بن الخطاب وكما نرى في الوثيقة المنسوبة إلى عبد الرحمن الداخل وغير ذلك كثير(٢) .

والحقيقة أن المسلمين الأولين كانوا يجرون على تسامح كريم صادر عن إدراك فطري أن هذه هي السياسة المثلى لاجتذاب الناس إلى الإسلام وإقناعهم بعدالة الدولة الإسلامية . وذلك أمر لا ينبغي أن يغيب عنا عند التأريخ للنظم الإسلامية : ينبغي أن نقف عند ما لدينا من الوثائق الأصلية وشواهد المؤرخين الموثوق فيهم دون محاولة إكمال الفجوات من أحكام أبي يوسف وقدامة بن جعفر ويحيى بن آدم وأبي عبيد بن سلاّم .

* * *

١٩٨- المسلمون يدعون أهل الذمة احراراً

ضمن المسلمون للنصارى واليهود من أهل البلاد حريتهم ، وأدخلوهم في ذمتهم مقابل الجزية والخراج على ما تقضي به الشريعة الإسلامية . وسنرى في الفصل التالي أن المسلمين في الأندلس لم يفرقوا كثيراً بين الصلح والعنوة ، فنال كل المسيحيين تقريباً نفس

---

(١) انظر مثلاً تحريض الفقهاء للعامة على الحكم الربضي لأنه أطلق يد ربيع القومس متولي المعاهدين بالأندلس من النصارى في المعاون والمغارم على المسلمين (أعمال الأعلام ، لابن الخطيب ، طبعة بيروت بعنوان : إسبانيا الإسبانية ، بيروت ١٩٥٦) ، ص ١٥ . وتحريض هاشم بن عبد العزيز للأمير محمد علي قومس بن أنْتُنْيان بسبب توليته إياه الكتابة (ابن القوطية : افتتاح ، ص ٨٢-٨٣) .

(٢) أورد سيمونت نص هذه الوثيقة الموضوعة المنسوبة إلى عبد الرحمن الداخل ، وهو : « بسم الله الرحمن الرحيم . كتاب أمان الملك العظيم عبد الرحمن للبطارقة والرهبان والأعيان والنصارى الأندلسيين أهل قشتالة ومن تبعهم من ساير البلدان ، كتاب أمان وسلام ، وشهد على نفسه أن عهده لا ينسخ ما أقاموا على تأدية عشرة آلاف أوقية من الذهب وعشرة آلاف رطل من الفضة وعشرة آلاف رأس من خيار الخيل ومثلها من البغال مع ألف درع وألف بيضة ومثلها من الرماح في كل عام إلى خمس سنين . كتب بمدينة قرطبة ، ثلاثة من صفر عام اثنين وأربعين ومائة » .

الحقوق ، ولم يمس المسلمون من الممتلكات إلا ما كان ملكاً لبيت لذريق وأفراده أو للذين قتلوا في الحرب مع المسلمين ، وكذلك أملاك الكنيسة ، فاعتبرت هذه كلها غنيمة أخرج خمسها فجعل ملكاً للدولة ، وترك الباقي بيد من كانوا يزرعونه يؤدون عنه خراجه فيئاً للجماعة الإسلامية كلها . ولما كانت أملاك الكنيسة والبيت المالك كثيرة جداً ، فإن الدولة لم تستطع إحصاءها كلها ، بسبب إشتغال الأمراء بالحروب والفتن ، فوضع الكثير من أفراد الجيوش الغازية أيديهم على أرض كثيرة واستقروا فيها على أن يؤدوا للدولة ما لها من مال . بل إن المسلمين أطلقوا أسرى النصارى في أراضي الخمس ليعمروها ، فكأنهم اعتبروهم مزارعين كغيرهم ممن استسلم وباء بالجزية والأمان .

١٩٩ ـ النصارى يقاضون بقانونهم

وقد ترك المسلمون نصارى الأندلس أحراراً ينظمون أمورهم على النحو الذي أرادوه ، ما داموا على الطاعة يؤدون ما عليهم من الأموال ، فظلوا يفصلون في أقضيتهم وفقاً للقانون القوطي القديم[١] ، وظلت علاقاتهم بكنائسهم وقساوستهم على ما كانت عليه قبل الفتح . وكان يدير أمور الجماعات المسيحية الكبيرة في المدن والأرياف رجال من نصارى عجم الأندلس يسمون بالقمامسة ، وواحدهم قومس Comes ، وهو لقب كبير كان مقصوراً قبل ذلك على القوط ، فلما أزال العرب أمر القوط صار القمامسة من أهل البلاد ، فكأن الفتح الإسلامي رد إليهم اعتبارهم من هذه الناحية[٢] .

٢٠٠ ـ الجماعات النصرانية تنظم نفسها

وقد ترك العرب للجماعات النصرانية نظامها المدني الذي كانت جارية عليه أيام القوط ، وهو نظام مدني وإداري أيضاً ، أي أن القائمين بأمره كانوا مسؤولين عن كل ما يتصل بأمور رعاياهم فيما بين أنفسهم ، كانوا يجمعون ضرائبهم ويؤدونها إلى بيت المال نيابة

---

(١) المعروف باسم Forum Judicum وفي الإسبانية Fuero Juzgo ويعرف باسم Lex Gothorum أو Lex Judicum .

(٢) SIMONET, *op. cit.* pp. 106 - 107.

عنهم ، وكانوا يعينون لهم القضاة الذين يفصلون في منازعاتهم بحسب القانون القوطي ، وكانوا يشرفون على كنائسهم ويتولون أمور قساوستها ، أي أنه وجد من أول الأمر نظامان إداريان جنباً إلى جنب : واحد للمسلمين وواحد للنصارى . أما في القضايا التي تقع بين المسلمين وغير المسلمين ، فكان ينظر فيها قضاة المسلمين ويحكمون فيها بشريعة الإسلام ، ولهذا جاء في أحد كتب الفقه الأندلسية : « ويستحب للقاضي الجلوس للحكم في رحاب المسجد الخارجة عنه من غير تضييق عليه في جلوسه في غيرها ، ليصل إليه اليهودي والنصراني والضعيف وهو أقرب المواضع »(١) .

٢٠١ ـ التشريع الإسلامي والقانون القوطي

وسنرى في الفصل التالي أن مسلمي الأندلس في ذلك العصر كانوا يجرون فيما يتصل بالتشريع والتنظيم على مذهب الأوزاعي ، وهو مذهب أهل الشام في ذلك العصر ، يعتمد على القرآن والسنة ، ويفسح مجال الرأي ، فيعتبر ما فعله الصالحون من خلفاء بني أمية من الآثار الصالحة التي يمكن القياس عليها ، وقد كان العصر الأموي كله عصر فتوح وحروب وتوسع كثرت فيه المشاكل والمسائل الناجمة عن الحروب والفتوح ودخول أمم جديدة في الإسلام ، وكان لا بد من القضاء فيها برأي سريع حازم عملي ، ولهذا قيل إن فقه الأوزاعي فقه عسكري ، وكان معظم امتداد الإسلام إذ ذاك في بلاد جرى أهلها على التشريع البيزنطي أو الروماني ، فدخل تشريع خلفاء بني أمية ورجالهم الكثير من أصول القوانين البيزنطية والرومانية ، ولهذا قيل إن فقه الأوزاعي تأثر بالتشريع الروماني(٢) ، وقد رفض الكثيرون من المفكرين المحدثين هذا الرأي اعتزازاً منهم بأصالة التشريع الإسلامي (٣) .

ونظن أن الوضع في الأندلس يعطينا رأياً نافعاً في هذا الموضوع ، فها

---

(١) SIMONET, *op cit.* p. 99.

(٢) انظر : JOSEPH SCHACHT, the Origins of Mohammedan Jurisprudence; 72. 288 - 289.

(٣) أحمد أمين : فجر الإسلام ، الطبعة الخامسة ، ص ٢٤٨ .

نحن أمام حالة فريدة في بابها : تشريعان ساريان جنباً إلى جنب تقر الإدارة الإسلامية ما يصدر عنهما : تشريع إسلامي يطبق على المسلمين ، وغير المسلمين في حالات خاصة ، وتشريع قوطي روماني نصراني يطبق على النصارى . والتشريعان يسيران جنباً إلى جنب. فإذا ذكرنا أن معظم أهل الأندلس في الفترة الأولى بعد الفتح كانوا نصارى ، أي يطبق عليهم القانون القوطي ، وأن القاضي المسلم كان إذا جلس للحكم ، جلس في موضع يصل إليه فيه النصارى واليهود ، وأنه كان يستمع إلى متخاصمين قد يكون بعضهم مسلمين وبعضهم نصارى ، ويجتهد في أن يصدر حكماً يرضاه المتخاصمون ويكون في نفس الوقت متمشياً مع أحكام الشريعة الإسلامية ويكون قابلاً للتنفيذ في نفس الوقت ـ أفليس من المعقول في هذه الحالة أن يستمع القاضي وهو في مجلسه إلى ما يقوله النصراني معتمداً فيه على ما جرى عليه العمل من القانون القوطي ، ولم يكن كله متعارضاً أو بعيداً عما يقول به الشرع الإسلامي ؟ لقد كان القاضي المسلم في ذلك الحين قاضي المسلمين ، وكان يسمى لهذا « قاضي الجند » لأن المسلمين جميعاً كانوا إذ ذاك معتبرين جنداً ، ولم يسم بـ « قاضي الجماعة » إلا في زمن متأخر[1]، عندما صارت الجماعة الأندلسية كلها جماعة إسلامية ، وتضاءل نفوذ «قاضي العجم» حتى اقتصر على الأقلية المسيحية. وكان « قاضي الجند » هذا مضطراً إلى الاستماع إلى حجج المتخاصمين ، والكثيرون منهم نصارى أو مسالمة ، ومنهم من يطالبون بحقوق أقرها لهم القانون القوطي ، فهل يستبعد والحالة هذه أن يجتهد القاضي في العثور على رأي يضمن للناس حقوقهم ويربطه بطريقة ما بأصول التشريع الإسلامي؟[2] لقد جاء في وصية عقبة بن الحجاج السلولي إلى قاضيه مهدي بن مسلم ـ وهي دستور القضاة في الأندلس إذ ذاك ، وكان مهدي بن مسلم من أبناء المسالمة ، أي من المولدين ، أي نشأ في بيت يتحدث أهله بالعجمية ويجرون على ما جرى عليه قومهم من قوانين

(١) النباهي : تاريخ قضاة الأندلس ، ص ٢١ .

(٢) راجع ما يقوله جوزيف شاخت عن فقه الأوزاعي وحركة إدخال بعض قواعد التشريع التي وجدها المسلمون في البلاد المفتوحة في الفقه الإسلامي :

JOSEPH SCHACHT, *op. cit.* pp. 288 - 289.

القوط ـ : « . . . وأمره أن يساوي بين الخصوم بنظره واستفهامه ولطفه ولحظه ، وأن يفهم من كل أحد حجته وما يدلي به ، ويستأني بكل عيي اللسان ناقص البيان ، فإن استقصاء الحجة ما يكون به لحق الله تعالى قاضياً وللواجب فيه راعياً ، فقد يكون بعض الخصوم ألحم بحجته وأبلغ في منطقه وأسرع في بلاغ المطلب ، وألطف حيلة في المذهب وأذكى ذكاء وأحضر جواباً من بعض ، وإن كان غير الصواب مرماه . . . »(١) . والإشارة هنا ـ كما يغلب على الظن ـ إلى أولئك الذين لا يحسنون الإبانة عما في نفوسهم بالعربية ، إذ هم حديثو عهد بها ، فإذا ذكرنا أن مهدي بن مسلم هو الذي كتب عهده بنفسه عن الأمير عقبة ابن الحجاج تأكد في نفوسنا هذا المعنى(٢) .

ولدينا أمثلة قليلة جداً من قبول قضاة الأندلس لأشياء مما جرى به العرف أو القانون الجاري في تلك البلاد بين أهل البلاد . قال الخشني : « ومن ذلك أن أحمد بن أبي خالد سمع محمد بن عمر بن لبابة يقول : حضرت وقد خاصم إليه رجل في فرن بناه صاحبه فأضر الدخان به وبالجيران ، وهذه المسألة يقول [فيها] ابن قاسم إن ذلك من الضرر الذي يجب قطعه ، ولا يباح اتخاذه ، فقضى سليمان بن أسود بغير ذلك : أن يجعل أنبوباً في أعلى الفرن ، فيخرج الدخان من أعلاه فلا يضر ذلك بمن جاوره ، فكان محمد بن عمر [بن لبابة] يفتي بهذا ويحمل الناس عليه فيما أخبرني أحمد بن خالد »(٣) . وهناك مثل آخر يحكيه الخشني في ترجمة القاضي الحبيب بن أحمد بن زياد اللخمي ، فقد ذكر أن مجاعة حدثت في أيام الأمير محمد ، فكثر التطاول من المفسدين ، « فولى السوق حينئذ إبراهيم بن حسين بن عاصم ، وأمره بالاجتهاد ، وعهد إليه بالتحفظ وأذن [له] بالتنفيذ في القطع والصلب بلا مؤامرة منه ولا استئذان ، فكان إبراهيم يجلس في مجلس نظره في السوق ، فإذا أوتي بالفاسد المفدح قال له :

---

(١) الخشني : قضاة الأندلس ، ص ٢١ .
(٢) نفس المصدر ، ص ٢٠ .
(٣) نفس المصدر ، ص ١٣٧ .

اكتب وصيته ! ودعا له بشيوخ فأشهدهم على ما يوصي به ، ثم صلبه ونحره ؛ فكان بين يديه من المصلوبين عدد عظيم . فأتاه قوم بنفر من جيرانهم فشكوا إليه تطاولاً على ما يكون من أشرار الأحداث ، وهم لا يشكون أنه سيزجره الزجر القوي ، وإن أفرط في عقابه فالسجن ، فقال لشيخ منهم : ما يستحق عندك ؟ فقال ـ على وجه المثال ـ : ما استحق هؤلاء ! وأشار إلى المصلّبين، فقال إبراهيم بن حسين [له] ولأصحابه : انصرفوا ، فانصرفوا . ثم قال للفتى : أكتب وصيتك ! فقال له : آتقِ الله فيَّ ، فإنه لم يبلغ ذنبي أن أستحق القتل والصلب . فقال له : بذلك شهد عليك الشهود ، فقتله وصلبه . فلما بلغ الشهود ذلك أتوه فقالوا له : لم نشهد عندك على الفتى بذنب يجب فيه القتل ! فقال : أو لم يقل قائلكم إنه يستحق ما يستحق هؤلاء ؟ فقالوا له : « على المثل ! » ، قال : فإثم ذلك في رقابكم ، إذ لم تحسنوا الإبانة من أنفسكم »[1] .

وظاهر أن هذين الحكمين مستقيان من جاري العرف والقانون القوطي ، فوضع المداخن أمر لم يكن معروفاً في المشرق، والحكم به يعتبر تجديداً مقتبساً من البيئة الأندلسية ، وقتل الحدث للذنب البسيط غير جائز في الشريعة الإسلامية ، ولكنه جائز في شريعة القوط . بل إن القضاة أنفسهم كانوا يجيزون لأنفسهم ما لا يجيزه أهل التقى والورع في المشرق ، فقد خطب زياد بن عبد الرحمن ـ الذي أصبح قاضياً فيها بعد ـ ابنة القاضي معاوية بن صالح ، وأحب رؤيتها قبل البناء بها « على ما يفعله بعض الناس ، فتحيل النساء عليه في ذلك وأتين به عند العشاء الآخرة ، فصار في الأسطوان ، فنفرت دابة معاوية منه واشتد قلقها من أجله ، حتى خرج معاوية إلى الصلاة فسمع حس الدابة فرابه ذلك ، فدعا بالمصباح ، فوجد زياداً في مذود الدابة في بعض زوايا الأسطوان ، فما زاد على أن قال له : استوصوا [بحرمات المسلمين يستوصي الله] بكم خيراً ، ثم خرج إلى الصلاة »[2] . وأمر كهذا ما كان يجيزه عرف أهل التقى

---

(١) الخشني : قضاة الأندلس ، ص ١٧٨ ـ ١٧٩ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٣٥ .

والعلم في المشرق، ولو فعله رجل لما ولي القضاء أبداً، ولكن زياد بن عبد الرحمن ولي القضاء بعد ذلك وصار من كبار أهل العلم والفتيا ، وهذا أثر من آثار البيئة الأندلسية في تصرفات شيوخ الأندلس وحكمهم على الأشياء .

وروى الخشني أن القاضي محمد بن زياد اللخمي كان يتساهل مع السكارى ويتغافل عنهم ، حتى لقد أتوه برجل « يتمايد سكراً » فأمر القاضي بأخذه ليقيم عليه الحد ، وكان يرافق القاضي صديق له فقيه هو محمد بن عيسى الأعشى ، فلما كان في موضع ضيق . « تقدم القاضي وتأخر الأعشى ، ففي تأخره عن القاضي التفت إلى الذي كان يمسك السكران فقال : يقول لك القاضي : أطلقه ! فأطلقه ، ثم افترقا جميعاً . ونزل القاضي ودعا بالسكران ، فقيل له : أمرنا عنك أبو عبد الله الفقيه أن نطلقه ، فقال : وفعل ؟ قال : نعم ! قال : أحسن ! » . وقد علق الخشني على ذلك محتجاً ، وقال : « وما أتى عن القضاة في هذا المعنى خاصة من الإغضاء عن السكارى والتغافل لهم والرقة عليهم ، فلا أعرف لذلك وجهاً من الوجوه يتسع لهم فيه القول ويقوم لهم فيه العذر ، إلا وجهاً واحداً ، وهو أن حد السكر من بين الحدود كلها لم ينصه الكتاب المنزل ، ولا أتى فيه حديث ثابت عن رسول صلى الله عليه وسلم . . إلى آخره »[1] . وقد فات الخشني ، وهو من فقهاء القرن الرابع الهجري ، أن قضاة الأندلس أيام محمد بن زياد ، أي منتصف القرن الهجري الثاني ، لم يكونوا يحكمون بالنصوص فقط ، بل كانوا يجتهدون ويراعون البيئة المحلية ، ويتأثرون بما حولهم ، وأن القانون كائن حي يتغذى بما حوله وينمو ويتطور ، وإذا كان تاريخ أي جماعة يتجلى بأصدق صورة في تاريخ تشريعها ، فلا شك أن المجتمع الاسلامي والشرع الإسلامي لا يشذان عن هذه القاعدة ، وأن التشريع في صدر الإسلام كان حياً متطوراً متقبلاً لكل جديد ، مثله في ذلك مثل الجماعة الإسلامية في ذلك العصر ، فلما جمدت هذه الجماعة جمد هو الآخر ولم يعد يتطور .

---

(١) الخشني : قضاة ، ص ١٠٢ ـ ١٠٣ .

وقد جمد التشريع الإسلامي ووقف عن التطور عندما تحول إلى علم ثابت الأصول والفروع على أيدي الفقهاء ، ولا يبدو ذلك في صورة هي أوضح مما ظهر به في الأندلس والمغرب ، فقد كان التشريع في هذين البلدين أول الأمر سهلاً مرناً يأخذ من البيئة المحلية كثيراً ويطوع ما يأخذه لأصول الإسلام ، بل اشترك نفر من أهل المغرب والأندلس مع مالك بن أنس في تكوين مذهبه ، فأهل الأندلس يذهبون إلى أن مالكاً روى عن قاضيهم معاوية بن صالح[1] ، وأهل المغرب يقولون إن سحنوناً كان صاحباً لابن القاسم يجالسه ويشاوره[2] ، واستمر ذلك حتى اكتمل مذهب مالك وأقبل إلى المغرب والأندلس تلاميذ مالك ونشروا مذهبه وحملوا الناس عليه وكرهوا كل تجديد أو ابتكار . هنا جمد التشريع ولم يعد له سبيل إلى التطور ، وأخذ باب الرأي يضيق شيئاً فشيئاً حتى أصبح « رأي مالك » فقط وأصبح الفقهاء هم أهل الحديث ، وتلاشى مذهب الأوزاعي وقامت دولة المالكية وفقهائها .

ومن المحقق أن تشريع قضاة الأندلس الأول قد ضاع معظمه ، قال الخشني : « وذكر محمد بن وضاح قال : قال لي يحيى بن معين : جمعتم حديث معاوية بن صالح ؟ قلت : لا ! قال : وما منعكم من ذلك ؟ قلت : قدم بلداً لم يكن أهله يومئذ أهل علم ! قال : أضعتم والله علماً عظيماً ! »[3] . وقال محمد بن عبد الملك بن أيمن إنه بحث عن كتب معاوية بن صالح فلم يجدها ، قال : « فلما انصرفت إلى الأندلس طلبت أمهاته وكتبه ، فوجدتها قد ضاعت بسقوط هم أهلها »[4] . ويؤكد الخشني أن أحد قضاة ذلك العصر الأول في الأندلس ، وهو المصعب بن عمران ، لم يكن « بالمتسع في علم السنن ولا في رواية الأخبار » فبماذا كان يحكم ؟ ثم يقول بعد ذلك إن « زياد بن عبد الرحمن أول من دخل الأندلس بالفقه والحلال والحرام »[5] مما يفهم منه أن أحكام

(١) نفس المصدر ، ص ٣٠ .

(٢) المالكي : رياض النفوس (قام على نشره حسين مؤنس سنة ١٩٥١) جـ ٢ ، ص ٢٥٠ وما يليها .

(٣) الخشني : قضاة الأندلس ، ص ٣١ .

(٤) نفس المصدر والصفحة .

(٥) نفس المصدر ، ص ٥٠ .

الأنـدلس لم تكن تجري قبـل ذلك عـلى فقه ثـابت معروف ، بـل على الاجتهـاد والـرأي والقياس . وربمـا كان المـراد هنا أن زيـاداً أول من دخل الأنـدلس بفقه مالك ، وهو أمر لا يغـير من الوضـع كثيراً ، ولـدينا بـراهين تؤيـد ذلك ، فمن ذلك ما يحكيه ابن القوطية من أن عيسى بن مزاحم عنـدما تـزوج سارة القـوطية قدم معها إلى الأندلس « وقبض ضياعها »[1] ، والزوج في الشريعة الإسلامية لا يقبض أملاك زوجه إلا بشروط ، ولكن القانون القوطي يقره مبدأ عاماً . ويؤيد ما نقولـه النباهي في حـديثه عن المصعب بن عمـران القاضي ، قـال : « وكان يسروي عن الأوزاعي وغيـره ، وكـان لا يقلد مـذهبـاً ، ويقضي بمـا يسراه صواباً »[2] . ومن الثابت أن قضاة الأندلس في ذلك العصر لم يكونوا يرون بأساً بمخالفة مـا ينص عليه الأئمـة ، ومن ذلك أن القـاضي محمد بن بشـير كان « لا يجيـز الشهـادة عـلى الخط في غـير الأحبـاس ، ولا يـرى القضـاء بـاليمـين مـع الشـاهد » ، وقـد علق على ذلـك محمد بن عمـر بن لُبَابـة بقـولـه : « قـد علم القاضي ـ حفظه الله ـ إختلاف أهل العلم ، وما ذهب إليه مالك وأصحـابه من اليمين مع الشاهد ، وما ذهب إليه قضاة بلدنا منذ دخلته العـرب ، من أنهم لا يرون اليمين مع الشاهد ولا يقضون به . . »[3] مما يـدل على أن قضـاة الأندلس كانت لهم آراء خاصة يجرون عليها .

٢٠٢ ـ عمـل قرطبـة

ومن الثابت أيضاً أنه كان لقضاة قرطبة فقه خاص يجرون عليـه وينكـره غيـرهم من قضـاة المغـرب والمشـرق ، وهـذا الفقـه القرطبي يسمى بتسمية خاصة تـدل على أنـه مستقى من جاري العـرف وأعمال الناس بحكم العادة ، فكان يسمى « عمل قرطبة » ، وللمقري رواية طـويلة في هذا الباب لا بأس من إيرادها على تواليها لأهميتهـا . قال المقـري : « واعلم أنه لعظم أمر قرطبة كـان عملها حجـة بالمغـرب ، حتى أنهم يقولـون في الأحكام : هذا مما جرى به عمل قرطبة . وفي هذه المسألة نزاع كبير ، ولا بأس أن نذكر ما

(١) ابن القوطية : تاريخ افتتاح الأندلس ، ص ٦ .
(٢) النباهي : قضاة الأندلس ، ص ٤٧ .
(٣) نفس المصدر ، ص ٥٠ .

لا بد منه من ذلك . قال الإمام ابن عرفة رحمه الله تعالى : في اشتراط الإمام على القاضي الحكم بمذهب معين ـ وإن خالف معتقد المشترك اجتهاداً وتقليداً ـ ثلاثة أقوال : الصحة للباجي ، ولعمل أهل قرطبة ، ولظاهر شرط سحنون على مذهب من ولاه الحكم بمذهب أهل المدينة ، قال المازري : مع احتمال كون الرجل مجتهداً . الثاني : البطلان للطرطوشي ، إذ قال : في شرط أهل قرطبة هذا جهل عظيم . الثالث : تصح التولية ويبطل الشرط ، تخريجاً على أحد الأقوال في الشرط الفاسد في البيع للمازري عن بعض الناس ، انتهى مختصراً . قال ابن غازي : إن ابن عرفة نسب للطرطوشي البطلان مطلقاً ، وابن شاس إنما نسب له التفصيل ، انتهى . . ولما ذكر مولاي الجد الإمام قاضي القضاة بفاس سيدي أبو عبد الله المقري التلمساني في كتابه القواعد شرط أهل قرطبة المذكور ، قال بعده ما نصه : وعلى هذا الشرط ترتب عمل القضاة بالأندلس ، ثم انتقل إلى المغرب ، فبينما نحن ننازع الناس في « عمل المدينة » ونصيح بأهل الكوفة مع كثرة من نزل بها من علماء الأمة كعلي وابن مسعود ومن كان معهما : ليس التكحل في العينين كالكَحَل ، سنح لنا بغض الجمود ومعدن التقليد !

الله أخّر مدتي فتأخرت   حتى رأيت من الزمان عجائبا

يا لله والمسلمين ! ذهبت قرطبة وأهلها ولم يبرح من الناس جهلها ! ما ذاك إلا لأن الشيطان يسعى في محو الحق فينسيه ، والباطل لا زال يلقنه ويلقيه . ألا ترى خصال الجاهلية ـ كالنياحة والتفاخر والتكاثر والطعن والتفضيل والكهانة والنجوم والحظ والتشاؤم وما أشبه ذلك ـ وأسماءها ـ كالعتمة ويثرب ـ وكذا التنابز بالألقاب وغيره مما نهى عنه وحذر منه كيف لم تزل من أهلها (يريد أهل قرطبة) وانتقلت إلى غيرهم مع تيسر أمرها ، حتى كأنهم لا يرفعون بالدين رأساً ، بل يجعلون العادات القديمة أساً ، وكذلك محبة الشعر والتلحين والنسيب وما انخرط في ذلك السلك ثابتة الموقع من القلوب ، والشرع فينا منذ سبعمائة سنة وسبع وستين لا نحفظه إلا قولاً ، ولا نحمله إلا كلا ؟ . . انتهى »[1] .

---

(١) المقري : نفح الطيب ، طبعة محيي الدين ، جـ ٢ ، ص ٩٣ ـ ٩٤ .

وهذه عبارة لا تحتاج إلى تعليق ، فهي تجمل كل ما قلناه من تأثر التشريع في الأندلس بالبيئة المحلية ، وجرى القضاة في قضائهم « على العادات القديمة » واعتبارهم ما يصدرون من أحكام « عملاً » خاصاً بهم يلتزمونه ولو اشترط الأمير الذي يوليهم أن يحكموا بمذهب معين . وذلك هو الأمر الطبيعي المعقول ، لأن القانون جزء من الحياة العامة يتأثر بما فيها ويجاريه ولا مفر للقضاة من إفساح المجال لما جرى عليه الناس ، ما دام لا يتعارض مع الأصول ، وما دام مالك قد اعتبر عمل أهل المدينة أساساً من أسس تشريعه ، وأبو حنيفة قد خضع للبيئة العراقية وصاغ في حدودها مذهبه ، فقد كان من الطبيعي أن يكون لقضاة الأندلس فلسفة خاصة في أحكامهم ، فلسفة قائمة على قبول جاري العرف والقانون والتقليد ، وإن وصف الفقهاء ذلك بأنه « جهل عظيم » .

٢٠٣ ـ اختلاف نظم القضاء في الأندلس عن مثيلاتها في المشرق

وإنما استطردنا هذا الاستطراد لأن منطق التاريخ ـ إلى جانب ما أوردناه من البراهين ـ يؤيد ما ذهبنا إليه من التشريع في الأندلس بالتشريع القوطي الذي كان العمل جارياً به في الأندلس قبل أيام المسلمين : وإذا كان هناك قاض للعجم يحكم بـ « سنة النصارى » ، وقاض للمسلمين يحكم بسنة الإسلام ، جنباً إلى جنب ، وكلما انقضى حين دخل نفر من النصارى في الإسلام وصار منهم قضاة وفقهاء ، فإن تسرب أشياء من « قضاء العجم » إلى قضاء المسلمين أمر طبيعي . بل بلغ من ذلك التأثر أن أخذ تنظيم القضاء العام في الأندلس صورة يختلف فيها عن نظم القضاء في المشرق جملة وتفصيلاً ، فظهر نظام القضاة المشاورين وتألفت منهم هيئة تسمى « المَشْورة » وهي صورة « الكوريا » Curia القضائية في نظام القضاء الروماني ، وهذه «المشورة» أو الكوريا هي التي تضع القواعد الفقهية وتحدد المبادىء ، في حين اقتصر أمر القضاة على التطبيق ، مما لا يتسع المجال لدراسته في العصر الذي نؤرخ له[1] .

---

(١) ليس هنا مجال الكلام عن وجوه اختلاف نظم القضاء في الأندلس عن مثيلاتها في المشرق . وقد أشار الى ذلك خليان ريبيرا في مقدمته لتاريخ القضاة للحارث بن أسد الخشني ، واعتمد على كلامه ليفي بروفنسال =

٢٠٤ ـ العرب يحترمون نظم البلديات

وقد وجد العرب في الأندلس مدناً كبيرة كثيرة منظمة أمورها تنظيماً طيباً ، وصادفوا لأول مرة نظم البلديات وحكومات المدن ، ووجدوا كل مدينة وحدة قائمة بذاتها ولها زمام حولها يتبعها . وقد كانت أحوال المدن الرومانية في غرب أوزوبا قد اضطربت واضمحلت بسبب غارات الجرمان وما أحدثته من الفوضى والاضطراب والفقر ، ولكن هيكل التنظيم المدني كان باقياً ما يزال[1] . وقد احترم العرب

= فيما أورد من مادة طيبة عن القضاء في الأندلس في الجزء الثالث من « تاريخ إسبانيا الإسلامية » . وقد قدمت مادة طيبة عن الموضوع في بحثي عن « سقوط خلافة قرطبة » (بالفرنسية) ويهمني أن أشير هنا إلى بعض المراجع الهامة لدراسة هذا الموضوع لم يشر إليها أحد ممن اشتغل به ، وهي :

JOSE LOPEZ ORTIZ : *La recepcion de la Escuela Maliqui en Espana.*

- La Curia Musulmana.

SANCHEZ ALBORNOZ : *Los Arabes y las origines del feudalismo.*

LACARRA : *Fueros navarros del siglo XII.*

GONZALEZ PALENCIA : *El Fuero Latino de Albarracin.*

SALVADOR VILA : *El capitulo del matrimonio del formulario notorial de Aben Moguit.*

وكلها ظهرت في حوليات تاريخ القانون الإسباني :

Anuario de Historia del Derecho Espanolù

ابتداء من المجلد السابع سنة ١٩٣٠ وما يليه .

وفي كتاب « المعيار المغرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل إفريقية والأندلس والمغرب » لأبي العباس أحمد بن يحيى التلمساني الونشريشي (أو الونشريسي) طبع حجر ، فاس ١٣١٤ و ١٣١٥ ، مادة طيبة ونافعة ابتداء من الجزء الخامس .

(١) لم يدرس أحد إلى الآن تطور أحوال المدن الإسبانية خلال العصور الوسطى ، وكل ما لدينا معلومات عامة مستخلصة من تطور أحوال المدن في غالة وإيطاليا . والرأي الغالب هو أن الاضمحلال العام الذي شمل المدن الرومانية جميعاً خلال العصر الروماني المتأخر أدى إلى تدهور المدن ، فاختفى بعضها وتحول الباقي إلى قرى ، وأصبح التقسيم الإداري زراعياً خالصاً يقوم على وحدات ضرائبية تعرف الواحدة منها باسم territoria وإن ظل الناس يطلقون لفظ المدينة على التيريتوريا وموضع المدينة القديمة urbs وزمامها . انظر

MANUEL TORRES y RAMON PRIETO BANCES, en *Historia de Espana dirigida* por D. Ramon Menéndez Pidal. Vol. III (Madrid, 1940) p. 220.

والآراء التي يبديها المؤلفان حافلة بالأخطار . وقد أتى الخطأ من أن هذين الباحثين الإسبانيين نقلا أقوال مؤرخين ألمان وفرنسيين حاسبين أن مثل ذلك قد حدث في إسبانيا ، وفاتهما أن الفتح الإسلامي أوقف اضمحلال المدن في إسبانيا كما سترى فيما يلي .

هذا التنظيم على اعتبار أنه جزء من احترامهم لعهودهم مع أهل الـذمة ، وكانوا أول الأمر معظم أهل المدن . وقـد أفاد العـرب من احتفاظهم بهـذا النظام فيـما بعد ، إذ إنه عندما أسلم معـظم أهل المـدن وتعربـوا اتسـعت حدود هـذا النظام فشمـل المسلمين أيضـاً من أهل المـدن ، وعُرب وأصبـح جزءاً من النـظام العام للأندلس .

٢٠٥ ـ قومس الأندلس أقـام العرب عـلى أهل الـذمـة والنصـارى رئيسـاً منهم ولقبـوه بقـومس الأندلس أو زعيم نصـارى الـذمـة ، وجعلوه مسؤولاً أمـامهم عن كل مـا يتصل بـرعايـاهم من النصارى ، وأحـاطوه بمـا يليّق به من الاحتـرام . وكان أول القمامسـة هـو أرطباس ، وسنتحـدث عنه بعـد قليـل . حقيقة إن هذا اللقب لم يظهر في النصوص إلا أيام عبد الرحمن الـداخل ، ولكن صورة الخبر الـذي يتضمن هذا اللقب عنـد ابن القوطيـة تدل عـلى أن الوظيفـة كانت قديمة والجديد هو اللقب[1] . وستستمر الوظيفة بهذا اللقب بعد ذلك .

٢٠٦ - العرب يتركون لأهل الذمة حرية اختيار رؤسائهم ويـذكـر الـراهب الـذي كتب مـدونــة البلدة Chronicon Albeldense أن العـرب تركـوا لأهل البـلاد من النصارى حق اختيار حكامهم ومنظمي أمورهم :

.. Et unusquisque ex illorum origine de semit epsos comites eligerent, qui per omnes habitantes terrae illorum pacta Regis congregarentur [٢] .

وورود هـذا اللفظ بصيغة الجمـع في هذا النص يفهم منـه أنه كـان هناك أكثر من قومس ، والأقرب إلى المعقول أنه كان على رأس النصارى في كل ناحيـة قومس ، لأن كل ناحية في إسبانيا كان لها قومس على أيام الرومـان ثم القوط من

---

(١) انظر عن لقب قومس Comes في إسبانيا القوطية :
MANUEL TORRES y RAMON PRIETO BANCES, *op. cit.* p. 221.

(٢) SIMONET, *op. cit.* p. 108.

بعدهم ، فأقرَ العرب هذا الوضع[١] ، واشترطوا ـ كما هو واضح في النص ـ أن تنتخبه الجماعة النصرانية بنفسها ، على خلاف ما كان الحال عليه أيام القوط ، إذ إن ملك القوط كان يعين القمامسة من أصحابه والمقربين إليه ، إذ إن المعنى الأصلي للفظ Comes هو رفيق أو صاحب . وهذا التغيير في طريقة تعيين القمامسة طبيعي ، لأن ملك القوط قد زال ، فانتقل حق اختيار الحكام إلى الجماعة النصرانية ، واكتفى العرب باختيار القومس الأعلى وهو الملقب بقومس الأندلس ، ولم يروا أن يتركوا له حق تعيين قمامسة النواحي ، لأن ذلك كان يعطيه سلطاناً واسعاً خطراً ، إذ إن الغالبية العظمى من أهل البلاد كانت نصارى . وسنرى بعد قليل كيف أن قومس الأندلس أساء التصرف مع إخوانه في الدين ، حتى في الحدود التي وضعها العرب لسلطانه .

ويذهب سيمونت إلى أن سلطان قمامسة المدن كان لا يقتصر على المدن التي ينتخبهم أهلها ، بل يمتد إلى كل الناحية الداخلة في زمامها ، ويقول : « ولا شك أنه كان يعاون القمامسة موظفون آخرون أصغر منهم ، كانوا يعملون تحت إدارتهم خاضعين لسلطانهم في المدن ، وينوبون عنهم في القرى الداخلية في زمام ناحيتهم ، وكانوا يتولون الأعمال المختلفة من إدارية ومالية وقضائية »[٢] .

---

(١) يبدو أن هناك شيئاً من الالتباس في قول مانويل توريس في الموضع الذي أشرنا إليه في الهامش قبل السابق أن القومس في أيام القوط كانت له سلطاتٌ عسكرية ومالية وقضائية ، ولهذا كان يُسمى Comes civitatis (قومس المدينة) أو Comes territorii (قومس الناحية) أو Comes provinciae (قومس المديرية) أو Comes exercitus (قومس الجيش) إذ يغلب على ظننا أنه كان هناك أكثر من قومس ، لكل منهم اختصاص ، وفوق هؤلاء جميعاً كان الدوكس dux أي القائد أو الحاكم الأعلى ، وهو هو الذي كانت له الاختصاصات المتعددة . ويبدو أن القمامسة كانوا قد أصبحوا في أواخر أيام القوط مجرد موظفين ، كل منهم يوكل بناحية من نواحي الإدارة ، وصغر شأنهم تبعاً لذلك ، لأننا لا نجد القمامسة يتصدون للعرب دفاعاً عن نواحيهم . حقيقة إنهم كانوا جميعاً قوطاً ، وقد هربوا بعد واقعة وادي لكة ، ولكن يمكن أن يُقال أيضاً إن أمرهم كان قد ضعف ، فلم تعد لهم القيادة ، ولهذا لم تذكرهم النصوص .

(٢) SIMONET, *op. cit.* p. 108.

٢٠٧ ـ الوظائف القوطية تدخل في النظام العربي العام

وكان أصحاب وظائف أهل الذمة يلقبون أول الأمر بألقابهم اللاتينية التي عرفت بها أيام الرومان والقوط ، ثم عربها الناس عندما غلبت العربية على غيرها في شبه الجزيرة ، ثم أخذت اللفظة العربية على ألسنة الناس صورة إسبانية عندما جرت في الاستعمال الدارج ، وقد صحب هذا التطور اللفظي تطور في معنى الوظيفة واختصاصها في بعض الأحيان .

٢٠٨ ـ قاضي العجم

كان القاضي يسمى أولاً « يودكس Judex » ، ثم حلت محلها لفظة « القاضي » العربية ، ثم صارت هذه اللفظة على ألسنة الناس أَلْكَالْدِ Alcalde ، وبهذه الصورة دخلت اللغة القشتالية وظلت فيها إلى اليوم ، وتطور معنى الألكالد أيضاً مع الزمن فصار إلى ما يشبه « العمدة » عندنا (في المدن الصغيرة والقرى » ، والأغلب أن هذا التطور حدث عندما أسلم معظم الناس وتضاءل بذلك اختصاص قاضي العجم في الفصل في القضايا ، وأصبح أشبه برئيس شرفي تنتخبه الجماعة النصرانية من غير اختصاص واضح ، كما هي حالة العمد في المدن الصغيرة . وقد حدث تطور شبيه بذلك أيام القوط في اختصاصات القضاة : فقد كان للقوط قضاة من أنفسهم يسمون في اللاتينية Millenarii وفي الدارجة Theofadi إلى جانب قاضي الأهالي من الإيبيريين الرومان الذي كان يسمى Judex ، ثم غلب اختصاص هذا الأخير حتى أصبح قاضي الإيبيريين الرومان والقوط جميعاً وتحول قاضي القوط (الميليناريوس أو الثيوفادوس) إلى موظف عسكري[١] .

---

(١) يستعمل لفظ يودكس (Judex = قاض) في التشريعات القوطية استعمالاً واسعاً ، فيطلق على القاضي وعلى الموظف بصورة عامة ، وربما أطلق لفظ يودكس على حاكم الناحية بدلاً من Comes ، ومن ثم فان ما يذكره القانون القوطي Liber Judicum من وجود Iudex Provinciae أو Iudex Civitates ليس معناه قاضي المديرة أو قاضي المدينة بل يراد به الحاكم . وكان لهؤلاء اليوديس Iudices نواب في النواحي . كان يشترط في اليودكس أن يكون من القوط في حين كان النواب Vicarii من أهل البلاد . ويلاحظ أن هذا الاضطراب في استعمال لفظ يودكس لم يقتصر على اللفظ بل شمل الاختصاصات أيضاً ، فأصبح حاكماً أو موظفاً كما رأينا . وقد انتقل هذا إلى قضاة العجم في =

٢٠٩ ـ صاحب المدينة وإلى جانب القومس ، وهو حاكم المدينة وزمانها ، وهو ما عرف في النظام الإسلامي بالكورة ، كان يوجد في النظام الروماني ثم القوطي حاكم خاص للمدينة Defensor Civitatis أي حامي المدينة أو حارسها ، فبقيت هذه الوظيفة وعربت إلى « صاحب المدينة » ، وصارت في عجمية أهل الأندلس Zahalmedina أو Zafalmedina أو Zalmedina ، وستدخل هذه الوظيفة في النظم الإسلامية الأندلسية ، وسيتولاها مسلمون فيما بعد[١] .

٢١٠ ـ المشرف وكان هناك موظف يوكل بشؤون المال في الناحية، يعرف قبل العرب باسم Praedectus aerarii فعربها العرب إلى « المشرف » وانتقل هذا اللفظ إلى عجمية أهل الأندلس في صور شتى : alamosérife و almossarif و almoxerife و almoxarife ، وبهذه الصورة الأخيرة بقي اللفظ في اللغة القشتالية .

٢١١ ـ مستخرج الخراج أما قومس الخزانة Comes thesaurorum فقد حل محله « مستخرج الخراج » أو مستخرج خراج الذمة ، إلى جانب

= الأندلس الاسلامي ، فهم يسمون في بعض الأحيان « الوزير القاضي » ولفظ وزير هنا ليس مجرد لفظ تشريف ، بل يدل على أن قاضي العجم كان يتمتع بسلطات تنفيذية إلى جانب وظيفته القضائية . ولا نجد قضاة مسلمين يلقبون بالوزير القاضي إلا في الأزمنة المتأخرة عندما انحط معنى لفظ وزير ، وأصبح مجرد لقب تشريف .

انظر : و MANUEL TORRES y RAMON PRIETO BANCES : *ibidem*.
PEDRO AGUADO BLEYE, *Manuel de Historia de Espana*, tomo I (Madrid, 1947) p. 368.

(١) ذهب سيمونت في كتابه المعروف Historia de los Mozarabes (ص ١٠٨ ـ ١٠٩) إلى أن تعريب هذه الوظائف كان كما يلي :

القاضي = judex

صاحب المدينة = praetor urbanus

المشرف = praefectus acrarii

وقد خالفناه في ذلك كما يرى في النص .

وقد خلط بين المحتسب والأمين والعريف ، وصوبنا ذلك في كلامنا .

عامل الخراج المعروف في النظم الإسلامية ، وقد تضاءلت أهمية « مستخرج الخراج » مع الزمن .

٢١٢ ـ صاحب الشرطة وكان هناك موظف مكلف بالأمن في المدينة يعرف باسم Praetor urbanos فحل محله « صاحب الشرطة » ، وقد انتقل هذا اللفظ إلى عجمية أهل الأندلس في صور مختلفة مثل Sahba Seorta و Sacbascorta ، ودخلت الوظيفة في النظام الإسلامي كما هو معروف . ومن الطريف أن العرب أخذوا نظام الشرطة ولفظها في المشرق من البيزنطيين (شرطة = Securitas) ثم حملوا الوظيفة بلفظها إلى الأندلس حيث أخذ اللفظ صورة عربية في العجمية الأندلسية .

٢١٣ ـ الأمين وكان العمال في المدن منظمين منذ العصر الروماني على صورة هيئات تشبه النقابات تعرف كل منها بالكلية Collegia[1] ، وكان لكل منها رئيس مسؤول عن أهل الحرفة وضرائبهم أمام الدولة ، وقد اضطرب نظام هذه النقابات على أيام القوط ، فلما أقبل العرب أعادوا تنظيم هذه النقابات ، وجعلوا على رأس كل منها رئيساً من أهلها يسمى « الأمين » ، وقد انتقل هذا اللفظ إلى عجمية الأندلس ، فكان يقال el alamin .

٢١٤ ـ العريف وكان لهذا التنظيم أثره في استقرار أحوال المدن وأهلها ، وكان معظمهم كما قلنا من أهل الذمة . وقد ظهرت نتائج هذا الاستقرار بصورة خاصة بين الصناع ، إذ تحسنت أحوالهم بصورة لم تكن قبل أيام المسلمين ، وظهر من بينهم أساتذة مهرة في صناعاتهم عرف الواحد منهم بالعريف والجمع عرفاء ، وقد انتقل لفظ عريف إلى عجمية أهل الأندلس في صورة alharif (وتحرف إلى alhariz) ومنها إلى القشتالية el alarife واقتصرت بعد ذلك على رؤساء البنائين ، ولا زال اللفظ باقياً في الإسبانية إلى اليوم .

وقد تطورت هذه المصطلحات بعد ذلك تطوراً أوقع الكثير من الباحثين

(١) AGUADO BLEYE, *Op. cit.* p. 248.

في الخطأ ، فخلط بعضهم بين الأمين والمحتسب ، وسنتحدث عن هذا الأخير في كلامنا على التنظيم الإسلامي العام للأندلس ، وخلطوا بين القاضي والوزير ، لأن لفظ الوزير أخذ معاني خاصة في الأندلس ، منها معنى الأستاذية أو التمكن من صناعة ما ، بل أصبح لفظاً من ألفاظ التشريف ، فيقال : الوزير القاضي فلان ، أو الوزير المشرف فلان ، أو الوزير الكاتب وما إلى ذلك . ويبدو أن هذا الترخص في استعمال لفظ الوزير ، والقاضي كذلك ، بدأ أولاً بين جماعات أهل الذمة ، فكانوا يخاطبون قاضيهم بقولهم : « الوزير القاضي الأفضل دون ملنده بن لَنْبَطار رحمه الله » أو « الوزير القاضي دُمِنْقُه أَنْتُلِين » ، ومن الغريب أن لفظ القاضي في الإسبانية وهو Juez لقي أيضاً مثل ذلك الانحدار ، فقد جاء في قاموس بطرس القلعي (Pedro de Alcala) في تعريف لفظ alarife Juez albanir (= قاض بنّاء ، يريد معلم بناء) ، و juez de edificios (= قاضي مبان ، يريد معلم مبان)[1] .

٢١٥ ـ الزراع وسنتحدث في الفصل التالي عن تنظيم العرب للسكان عموماً ، ولكن ما دمنا بصدد الكلام عن أهل الذمة ، فلنقل شيئاً عن الزراع ، وكان معظمهم أول الأمر من أهل الذمة . لقد أزال العرب النظام الذي كان سائداً أيام القوط والذي كان يجعل الزراع جميعاً إما رقيق أرض Servi ، أو عمال أرض أحراراً أقرب الى الرقيق ingenui inferiores ، أو عبيداً esclavi فأزال العرب ذلك كله ، فلم يبق إلا الأحرار والعبيد أو الأرقاء ، فإذا أسلم الرقيق صار حراً له ما للأحرار من حقوق ، أما رقيق المسلمين الأندلسيين فحكمهم حكم الرقيق كله في العالم الإسلامي ، وهو معروف . وقد احتفظ العرب بالتنظيم العام للزراع في قرى أو ضياع aldeas .

٢١٦ ـ المسلمون والكنيسة يحلو لبعض المؤرخين أن يصوروا ما أصاب الكنيسة الإسبانية من الأذى على أيدي المسلمين ، ويطيل بعضهم ـ مثل سيمونت ولاس كاخيجاس ـ الحديث بالتفصيل عن الكنائس التي تهدمت

---

(١) CF: SIMONET, *op. cit.* p. 109.

والمتاعب التي لقيها بعض النصارى على أيدي المسلمين ، ولا يسع القارىء وهو يتتبع ما يقولونه إلا أن يأسف إذ يجد مؤرخين محدثين لا زالوا يجرون في مضمار عصب الدين في حديثهم عن أشياء وقعت قبل قرون متطاولة ، خاصة وقد عادت إسبانيا نصرانية ، وأصبح كل ما يتصل بإسبانيا الإسلامية تاريخاً ماضياً ، وأصبحت المبالغة في العصبية الدينية أو العنصرية مجرد تشويه للتاريخ .

ومن الغريب أن هذه العصبية تشمل عصور ما قبل الإسلام ، ففي كل ما لدينا من التواريخ التي كتبت حديثاً لإسبانيا يحاول المؤرخون أن يثبتوا أن إسبانيا كانت على الأقل منذ المجمع الديني الطليطلي الثالث الذي عقد في سنة ٥٨٩ بلداً كاثوليكياً خالصاً لا شبهة فيه لمذهب مسيحي آخر ، ولا صوت يعارض قواعد هذه العقيدة كما قررها ذلك المجمع ، بل إننا لنجد مفكراً طائر الصيت مثل مارثيلينو مننديث اي بلايو يتصدى لنقد المذهب الآريوسي في حماس المبشر الذي يخشى خطر أقوال آريوس المصري على العقيدة الكاثوليكية الراهنة ، هذا وقد ذهب آريوس وذهبت أيامه منذ نيف وثلاثة عشر قرناً (توفي آريوس سنة ٣٣٦ م) ولم يكن الرجل إلا مفكراً مسيحياً حاول جهده أن يصل إلى الحق بحسب ما انتهى إليه فهمه لنصوص الكتاب المقدس ، والمؤرخون المنصفون ينظرون إليه بإجلال ، لا تقديراً لرأيه ، بل لأنه كان أحد الباحثين عن حقيقة العقيدة المسيحية في عصر كان البابوات والأساقفة وغيرهم من رجال المسيحية يحاولون فهمها وتوضيح قواعدها . وإذا ذكرنا أن آريوس ولد سنة ٢٨٠ وأيفع وأخذ يتعرف عقيدته المسيحية حوالي سنة ٣٠٠ وأن المسيحيين جميعاً كانوا إذ ذاك يطلبون النجاة في باطن الأرض ، ويقيمون كنائسهم في السراديب والمغاور ، إذا ذكرنا ذلك قدرنا جهده كمفكر وكمؤمن مسيحي ، لأن المسيحية لم يعترف بها ديانة كغيرها من ديانات الأمبراطورية الرومانية إلا بعد صدور منشور ميلان في سنة ٣١٢ ، ثم إن الذي دحض آراء آريوس وقطعه بالحجة كان مفكراً مصرياً آخر هو أثناسيوس المعروف باسم الأنبا طناش ، فقد تولى بطريركية الإسكندرية بعد الأنبا إسكندر ، ونحن عندما نؤرخ للكنيسة المصرية إنما ننظر لآريوس ـ رغم إنكار الكنيسة المصرية له ـ على أنه مفكر جدير بالتقدير ، وشخصية لها

قيمتها في تاريخ الفكر المسيحي والإنسان عامة دون أن يملكنا الخوف من أن تعود آراؤه فتشوب عقائد الكنيسة القبطية المصرية .

ولكن منندذ بلايو وأجوادو بلاي من مؤرخي إسبانيا المحدثين يحملان عليه حملة عنيفة ، ويرددان كلام القديس إيزيدور الأشبيلي في حماس كأننا لا زلنا اليوم في معركة الآريوسية والكاثوليكية(١) .

٢١٧ ـ المسيحية في إسبانيا القوطية

وهذه الروح نفسها هي التي تسود ما لدينا اليوم عن أحوال الكنيسة أيام القوط ، فلم تكن المسيحية الإسبانية أيام القوط كتلة واحدة : كانت هناك نزعات وآراء معارضة ينادي بها جماعات من الناس ، ولم تكن كلها رحمة وسلاماً ، فقد كانت هناك اضطهادات ومحاكمات وكان هناك ضحايا ، ولكن هذا كله يسدل عليه ستار كثيف ، فلا نظفر إلا بإشارات عابرة عنه ، والهدف من ذلك فيما يبدو هو تصوير هذه الكنيسة على أنها كانت رمزاً لوحدة الوطن الإسباني وسلامه ، مما يجسم بطبيعة الحال ما أصاب إسبانيا بدخول الإسلام فيها ودخولها في الإسلام ، ويعظم بالتالي قيمة عودتها الى المسيحية .

٢١٨ ـ الكنيسة والدولة أيام القوط

بل إن أجوادو بلاي ، وهو مؤرخ معاصر له مكانة ، يحاول أن ينفي عن الكنيسة القوطية خضوعها للدولة ، وهي حقيقة بسيطة يسلم بها المؤرخون المنصفون لا تضير الكنيسة الكاثوليكية في شيء ، وإليك مثلاً من حديثه :

«إن الاتحاد الوثيق بين الكنيسة والدولة ، ابتداء من المجمع الطليطلي الثالث، لا يسمح بالقول بأن الكنيسة القوطية كانت كنيسة قومية (يريد أنها كانت كاثوليكية أي عالمية)، ذلك لأن الملك كان لا يوجهها ولا يحكمها ، ولا

---

(١) MARCELINO MENENDEZ y PELAYO, *Historia de los Heterodoxos Espanoles,* tomo I (Madrid, 1946) pp. 306 sqq.
AGUADO BLEYE, *op. cit.* I p. 363.

وانظر ص ٣٤٧ حيث يقرر بلاي أنه غير آسف على احراق كتب الآريوسيين وغيرهم من المخالفين ويسخر من أحرار الفكر الذين يأسفون على ضياعها !

يجوز كذلك أن نسمي الدولة القوطية حكومة ثيوقراطية ، لأن الكنيسة لم تكن تسود الدولة . حقيقة كان الملك يتدخل في الشؤون الكنسية ، ولكن هذا التدخل يرجع في أصوله إلى أيام الأمبراطورية وأيام الآريوسية . كان ملوك القوط يدعون المجامع الدينية للانعقاد ، كما كان يفعل ذلك قبلهم الأمبراطوران قسطنطين وثيودوسيوس . بل إن ملوك القوط لم يكونوا يدعون إلى عقد المجامع فقط ، بل كانوا يحضرون جلسة الافتتاح للمجمع الطليطلي يحيط بهم نفر من الحاشية الملكية aula regia ، وكانوا يقرأون الكتاب الملكي tomo regio وهو برنامج الموضوعات التي سيبحثها المجمع . وكانت قرارات المجمع توقع بإمضاءات من حضر من رجال الحاشية إلى جانب إمضاءات الأساقفة والقساوسة ورعاة الكنائس » .

« ولم يكن لمجامع طليطلة سلطة تشريعية فيما يتصل بالشؤون المدنية ، بل في الشؤون العقيدية فحسب . ولم يكن للقرارات المتصلة بالعقيدة أثر في الشؤون المدنية إلا إذا أقرت ذلك القوانين التي يصدرها الملوك . كانت القرارات في هذه الحالة تعتبر قوانين ، لا بمحض صدورها عن المجامع ، وإنما بإقرار الملوك إياها . كان الأساقفة بصفتهم من كبار أهل الدولة يعتبرون جزءاً من الحاشية الملكية ، وكانوا تبعاً لذلك جزءاً من المحكمة التي تنظر في الجرائم السياسية والمخالفات التي يرتكبها أهل الطبقة العليا . وقد شاعت هذه الصور من تدخل الملوك في شؤون الكنيسة بعد ذلك بقليل في كل الدول الأوروبية في العصر الوسيط . إن تأثير الكنيسة في قرارات الملوك لم يكن ناشئاً عن أن القانون يقرر ذلك ، ولم يكن قائماً على أساس من النظام العام ، بل كان سببه الامتياز الفكري الذي تمتع به رجال الدين ، ولم يقتصر هذا الامتياز على إسبانيا ، بل كان شائعاً في كل بلاد غرب أوروبا » .

ثم يقول بعد ذلك : « . . . إن مجمع طليطلة ، بعد انعقاده الرابع في سنة ٦٣٣ ، وبسبب اعتبار لعنة الكنيسة مبدأ سياسياً ، أصبح محكمة عليا ، ضماناً للملك ورعاياه ، وكانت هذه المحكمة تفرض على الناس احترام شخص الملك ، وأقامت من نفسها سلطاناً معدِّلاً لسلطان الملك ، وأوجدت نوعاً خاصاً

من الجرائم ضد الوطن يعاقب بعقوبتين : عقوبة مدنية ولعنة الكنيسة . وقد قال منندذ بيدال : إن هذه الملكية الكاثوليكية التي كان للأخوين ليـاندور وإيـزيدور عليهـا أثر عـظيم لا يمكن أن تكون ثيـوقراطيـة . لم يكن رجل الـدين يحكم بل يوجه ، وكان ينفع الحاكم كما ينفع المحكوم : إن التدخل والتشابك بين الكنيسة والدولة كانا أقوى في إسبانيا منهما في أي بلد آخر معاصر ، لأنهما كـانا من صنـع المجامع »[١] .

وهذا الكلام ـ الذي اجتهد العالمان الجليـلان في صياغتـه على هـذا النحو الذي يبدو وكأنه « تأملات » أكثر مما هو حقائق تاريخية ـ يحـاول الرد عـلى حقيقة تجمع عليها كتب التاريخ غير الإسبانيـة ، وقد أوجـزها جيبـون في عبارة بسيـطة عندما قـال إن إسبانيا القوطيـة كانت : a priest ridden state « دولـة يركبهـا القسـاوسة » ، وربمـا كانت خـلاصة مـا أراد أجوادو بـلاي الرد عليـه في عبارتـه الآنفة الذكر .

لقد عرفت الكنيسة كيف تستغل نصرها بتحويل ريكاريدو إلى الكاثوليكية وفـرض سلطانها على الـدولة ، فـاستـولت عـلى أرضـين وعقـارات بلغت خمس الأرض الخصيبة في إسبانيا كلها ، وقامت سيفاً مسلطاً عـلى رؤوس الناس ، كـما ستصبـح المالكيـة فيها بعـد ، فحرقت كتب المـذاهب المخـالفـة ، وفي مقـدمتهـا المذهب الآريوسي ، وعوقب المعارضون بالقتل والنفي والتشريـد وانتزاع أبنـائهم منهم وما إلى ذلك من العقوبات[٢] .

٢١٩ ـ رأي راينهارت دوزي

ولسنـا نريـد أن نجاري المؤرخ راينهـارت دوزي في مبالغتـه في تصوير سوء حالة الكنيسة ومـا جر إليـه اتحادهـا مع الـدولة في ذلـك العصر ، فقد كـان دوزي ملحداً يحسب أن حـرية الفكـر معناهـا مهاجمـة

---

(١) MENENDEZ PIDAL, *Historia de Espana,* tomo III (Madrid, 1940) *Introduccion,* p. XLI. AGUADO BLEYE, *op. cit.* p. 366.

(٢) MENENDEZ PELAYO, *op. cit.* I p. 352.
وهذا المفكر الجليل يبرر ذلك كله ويدافع عنه .

رجال الدين أياً كانوا ، ولقد قسا في « تاريخ إسبانيا الإسلامية » على رجال الدين جميعاً نصارى ومسلمين . ولكننا نكتفي من كلامه بعبارة تغني عن كلام كثير ، فقد قال بعد أن سخر ما شاء له أسلوبه اللاذع من رجال الدين عندما صاروا إلى القوة والسلطان : « . . . ومن الآن فصاعداً ، وبعد أن أصبحوا ملاكاً لأراض فسيحة تعمرها أعداد غفيرة من رقيق الأرض ، وأصحاباً لقصور فاخرة تعج بالعبيد ، تبين القساوسة أنهم أسرفوا في المسير ، وأن زمان تحرير الرقيق لم يحن ، وأنه لن يحين إلا بعد انتظار قرون لا أدري عددها . لقد دهش القديس إيزيدور الفَرَمي[1] وهو متأبد في صحارى الصعيد ، من أن مسيحياً يستطيع أن يملك عبداً ، في حين أن قديساً آخر يحمل اسم إيزيدور أيضاً ، هو أسقف أشبيلية المشهور ، الذي كان خلال زمن طويل روح مجامع طليطلة الدينية و « فخر الكنيسة الكاثوليكية » كما قال الآباء الذين اجتمعوا في المجمع الثامن ، لا يردد عندما يتحدث عن الرق آراء سميه وإنما آراء حكماء الأعصر القديمة ، آراء أرسطو وشيشيرون . لقد قال الفيلسوف الإغريقي : «إن الطبيعة خلقت بعض الناس ليحكموا وبعضهم الأخر ليطيعوا » ، وقال الفيلسوف الروماني : « ليس هناك ظلم في أن يقوم بالخدمة أولئك الذين لا يعرفون كيف يحكمون أنفسهم » ،وإيزيدور الأشبيلي يقول نفس الشيء :

acquus Deus ideo discrevit hominibus vitam, alios servos constituens, alius dominos, ut licentia male agendi servorum potestate dominantium restringatur.

(= . . . ولهذا السبب أيضاً ميز الله مصائر الناس بعضهم على بعض : فصار بعضهم عبيداً ، وصار بعضهم سادة ، وذلك حتى يكون سلطان السادة مانعاً لسريان الشر الذي يصدر عن العبيد) .

ولكنه يناقض نفسه ، لأنه يقرر أن كل الناس سواسية أمام الله وأن

---

(١) هو القديس Sanctus Isidorus Pelusii نسبة إلى بلوزيوم وهي الفرما . ولهذا سميناه الفرمي .

خطيئة الإنسان الأول ، وهو يعتبرها أصل العبودية ، قد زالت بالخلاص (بدخول المسيحية) . «وإننا لبعيدون كل البعد عن الرغبة في لوم رجال الدين إذ لم يعتقوا العبيد ، وعن الرغبة في مجادلة رأي أولئك الذين يؤكدون أن العبد غير قادر على عبء الحرية . نحن لا نجادل ، وإنما نكتفي بأن نقرر حقيقة كان لها نتائج هامة ، وهي أن رجال الدين بسبب تناقضهم ، لم يحققوا آمال الرقيق . وقد ساء حال أولئك المساكين بدلاً من أن يتحسن ، لقد اتخذهم الجرمان - مثلهم في ذلك مثل غيرهم من الشعوب الجرمانية في ولايات الدولة الرومانية الأخرى - خدماً خاصاً لهم وفرضوا عليهم السخرة . وجدير بنا الإشارة إلى عُرف جدَّ ولم يكن معروفاً أيام الرومان فيما يبدو ، وهو أن تُلزَم أسرة من الرقيق بأداء خدمة معينة إلى السيد بصورة وراثية ، فتقوم أسرة بعينها بزراعة الأرض للسيد ، ويخلف الآباء الأبناء في ذلك ، وتقوم أسرة أخرى على نفس المنوال بالصيد ، وثالثة بحراسة قطعان الماشية ، ورابعة بأعمال النجارة وخامسة بالحدادة وهكذا »[1] .

« ولم يكن الرقيق أو العبد ليستطيع الزواج بدون موافقة سيده ، فإذا تزوج دون أن يحصل على هذه الموافقة اعتبر زواجه كأن لم يكن ، وفصل بينه وبين زوجته بالقوة ، وإذاً تزوج رجل من طبقة الرقيق إمرأة في ملك سيد آخر تقاسم السيدان الأولاد مناصفة . وإذاً فقد كان قانون القوط في هذه الحالات أقل إنسانية من قوانين الأمبراطورية الرومانية ، لأن الأمبراطور قسطنطين حرم التفريق بين النساء وأزواجهن وبين الآباء وأبنائهم والأخوة وإخوتهم[2]. وعلى العموم لا يمكن الشك في أن حالة طبقة الرقيق لم تكن بالغة القسوة تحت سلطان القوط ، [ويتبين ذلك] عندما تتأمل القوانين العديدة القاسية التي أصدرها القوط ضد الرقيق والعبيد الآبقين ، وعندما نرى رقيق أشتريس - وكانت أحوالهم فيها قد بقيت على ما كانت عليه في إسبانيا كلها دون تغيير - يقومون

---

(١) انظر : MUNOZ, *Fueros*, p. 123 - 125.

(٢) انظر : MUNOZ, *Del Estado de las personas en los reinos de Asturias y Leon.*

بثورة عامة ضد سادتهم »[١] .

ثم يستطرد دوزي قائلاً : «وإذا كان القساوسة لم يحسنوا بصورة ما أحوال الرقيق ، فإنهم لم يفعلوا شيئاً أيضاً للطبقة الوسطى ، ظل أهل هذه الطبقة (الكوريالس Curiales) على ما كانوا عليه : تابعين للأرض التي يعيشون عليها . وعلاوة على ذلك ، لم يعد من حق أي مواطن أن يبيع ممتلكاته . لقد انتقل الحرص على جباية أموال الدولة من أباطرة الرومان إلى ملوك القوط ، ضمن ما انتقل إليهم من تقاليد الرومان ، بل إنه ليبدو أن التلاميذ (وهم القوط) لم يلبثوا أن فاقوا أساتذتهم (وهم الرومان) في هذا المضمار . ظلت الطبقة الوسطى إذاً في شقائها وسوء أحوالها ، ولا تنكر قرارات مجامع طليطلة ذلك » .

« وبقيت كل الجروح التي كان الناس يئنون منها في العصور الرومانية : ظلت الملكية محصورة في أيد قليلة (في صورة إقطاعيات ضخمة) ، وبقي الرق بصورة عامة ، ونتيجة لذلك ظل العمل في الأرض نصيب الزراع وملك الأراضي نصيب الملاك »[٢] .

٢٢٠ ـ الحالة العامة بعد اتحاد الكنيسة والدولة

والواقع أن اتحاد الدولة والكنيسة ، بعد تحول ريكاريدو إلى الكاثوليكية لم يجلب معه السلام واتحاد الشعب كما يتصور بعض المؤرخين ، ولم يأت وصول رجال الدين إلى السلطان إلا بالنتائج الطبيعية التي نتجت عن مثل هذه الظاهرة على طول التاريخ : اضطهاد المخالفين والقسوة عليهم والمحاكمات الدينية وإثراء رجال الدين وتحول الدين إلى أداة للحكم ، وتعرض لكل ما تتعرض له أدوات الحكم

---

(١) *Forum Iudicum,* V, 4, 19, : *De non alienandis privatorum et curialem rebus.*

وهذه التعليقات الثلاثة الأخيرة والواردة بنصها على هامش كلام دوزي الذي نتابعه :

Cf : R. DOZY, *Histoire des Musulmans d'Espagne* (2e éd. dirigée par LEV - PROVEÇAL. Leyde, 1932) vol. I, p. 265 - 266.

(٢) DOZY, *Ibidem.*

كلها من نزوع إلى الاستبداد ، وأخطاء في السياسة ، وتعرض رجال الدين للنقد والمخاصمات ونفور الناس . وقد حدث مثل ذلك في الإسلام ، عندما وصل المعتزلة إلى السلطان أيام المأمون ، وعندما قامت المالكية في الأندلس ابتداء من أيام عبد الرحمن الأوسط .

ومع ذلك ، فإن الاتجاه الغالب على التأريخ الإسباني للعصر القوطي ينكر هذه الحقيقة ، ويتصدى لدحضها بالحماس والبلاغة والقسوة في الحكم على المخالفين ، لا بحقائق التاريخ . ويبدو هذا الاتجاه في أظهر صورة في كلام كاتب إسبانيا الأكبر في العصور الحديثة مننذذ پلايو ، وإليك مثلاً من كلامه الذي يذكرنا بعنف أبي محمد علي بن حزم في مجادلاته مع خصومه : « يقولون إن المجامع الدينية اغتصبت اختصاصات ليست من حقها . من الذي يستطيع تأييد هذا السخف ؟ في أي ناحية كان العلم وفي أيها كان الجهل ؟ لمن كانت الكنيسة تتنازل عن وظيفة تعليم أبنائها وتوجيههم ؟ أكانت تتنزل عنه لأتباع ويتريك (Los Witericos) ووخشندش Los Chindasvintos أو إيرڤيج Los Ervigios الذين وصلوا إلى الحكم عن طريق قتل الملك السابق أو بواسطة حيلة حقيرة تحرمه من التاج ؟ لقد كانت الإنسانية تستطيع أن تحقق تقدماً واسعاً في حكم أمثال أولئك الأمراء ! إن وصاية المجامع على الدولة لم تفرض فرضاً ولم تنتزع انتزاعاً ، وإنما ساقها القانون الإلهي وسعى إليها ملوك القوط أنفسهم » .

« لم يوافق كل الشعب الأريوسي على الانفضاض عن عقيدته ، وذلك لسوء حظه وحظ الملكية القوطية ، فبالإضافة إلى بعض الدخلاء من الأساقفة ، كان هناك عنصر محارب معاد (للكاثوليكية) ولا يمكن التفاهم معه ، عنصر لم ينسجم مع الحضارة الإسبانية الرومانية ، التي لم يستطع إدراك كنهها ، ولم يستمع إلى تعاليم الكنيسة ، بل تصدى لاضطهادها قدر ما استطاع عن طريق مؤامرات أو ثورات ضد الملوك الذين كانوا يؤيدونها . هذه المعارضة العسكرية الكافرة تمثلت أولاً في صورة ويتريك Witerico وتمثلت ظاهرة إلى حد ما في اغتصاب وخَشَنْدش Chindasvinto للعرش ، وفي الحرب التي شنها هيلديريك

وبولس (Hilderico y Paulo) على الملك « وامْبا » ، وتمثلت قبل كـل شيء في موقف غيطشة وأولاده ، أو أولئك الخونة ـ أياً كانوا ـ الذين فتحوا للعرب أبواب الزقاق . وقد وصلوا دون شك إلى إدراك ما طلبوا من الانتقام الوضيع ، وزالوا من الوجود كشعب جزاء وفاقاً لهم على ما كان من شـرهم وخبثهم . إن الشعب الذي نهض لاسترداد أرض الوطن شبراً شبـراً كان شعبـاً إسبانيـاً رومانيـاً ، إذ اندمج فيه القوط الطيبون اندماجاً تاماً ، أما عصبـة النبلاء الـذين باعـوا وطنهم فقد أغرق الله ذكرهم في بحر التاريخ »[1] .

٢٢١ ـ الخلافات الدينية والفتح الاسلامي

وهذا الكلام يفتح لنا بـاباً في تفسـير سرعـة انتشار الإسـلام في الأندلس ، فهوـ عـلى ما فيـه من مجافـاة « لسياسـة العلم » كما يقـول أصحابنـا الأندلسيـون في نقدهم لابن حـزم ـ يربط بـين تصـرف غيطشـة وأولاده والنفور الـذي ساد بعض جماعـات من أهـل إسبـانيا القـوطية من استبـداد الكنيسـة واستعـانتهـا بسلطان الملوك . وعـلى ضـوء هـذه الإشارات نفهم أن عداء غيطشة لإيخيكا كان من بعض نواحيه نفوراً من سلطان الكنيسة واتجاهها إلى فرض مذهبها بالقوة . وإذا نحن ذهبنا نتعمق الأمر تبين لنا أن الأمر في إسبانيا قبيل الإسلام كان يشبهه إلى حد بعيـد الموقف في مصر قبيـل الفتح ، فقد كانت منازعات المذاهب في مصر على أشدها ، وكانت مصر ابتـداء من القـرن الثالث المسيحي في صـراع متصـل مـع الـدولـة البيـزنـطيـة ، وكـان المصريون ـ قبل أن تتدخل الدولة البيزنطية في نزاع العقائـد ـ يسوون مشـاكلهم بـأيديهم ، كـما حدث في الصـراع بين الآريـوسية والأثنـاسيوسيـة ، إذ انتصرت الأخيـرة وتلاشى مـذهب آريوس ، وتفـرق البـاقـون من المتـأثـرين بـه ، ومنهم أوريجـانس ، الذي ذهب إلى أنـطاكية حيث تكـونت حولـه مدرسـة كان لهـا في تاريخ المسيحية الشرقية تاريخ طويل ، واتحد المصريون مع أهل الإسكنـدرية في محاربة كل بدعة تناقض المذهب الأرثوذكسي كما تقرر في مجمعي نيقيـة وأفيسوس الأول ، فلما تدخلت الدولة وتصدت لحماية الأرثوذكسية ، وأخذت تفرض عـلى

---

(١) MENENDEZ PELAYO, *Historia de losheterod oxos*... I, p. 347 - 348.

الناس مذاهب معينة ، كما حدث في مجمع أفيسوس الثاني ، بدأ المصريون وأنصارهم يتخذون موقفاً معارضاً للدولة ، بدافع التحدي لسلطانها في صورة معارضة لسلطانها السياسي ، وظهر هذا بصورة واضحة في مجمع خلقيدونية الذي تصورت كنيسة القسطنطينية أنها قضت فيه على منافستها كنيسة الإسكندرية فخاب ظنها ، لأن النزاع تحول بعد ذلك إلى نزاع قومي ، وصمد المصريون وتحولوا شيئاً فشيئاً نحو المونوفيزية وثبتوا عليها رغم اضطهاد قَيْرُس ، ثم انضم قيرس إلى أقباط مصر ، ولم يجد مخرجاً من أذى الدولة إياه إلا بالاتفاق مع العرب ، إذ رجا أن يجد في حكمهم خلاصاً من اضطهاد الدولة وتدخلها الدائم في شؤون العقيدة .

وقد درجنا في دراستنا لتاريخ مصر على أن ننظر إلى الخلافات المذهبية التي كانت متأججة بين مصر والدولة البيزنطية على أنها من آكد الأسباب في تيسير فتح مصر على العرب أولاً ، وفي دخول المصريين في الإسلام بعد ذلك . فأما عن أثر هذه الخلافات في تيسير الفتح فأمر ظاهر لا يحتاج إلى شرح طويل ، وأما من تيسيرها دخول المصريين في الإسلام فنقول فيه إن مناقشات رجال الدين في موضوع طبيعة المسيح واجتهاد كل صاحب مذهب في اجتذاب الناس إلى رأيه وتنفير الناس من مذاهب الآخرين ، ثم تدخل الدولة وحرصها على فرض آراء معينة في ذلك الموضوع ، كل ذلك أوقع الناس في حيرة كبرى من أمر دينهم ، وتضاربت الآراء في أذهانهم ، فلم يعرفوا أيها الصحيح ، ولم يعرفوا كذلك بأيها يأخذون ليضمنوا سلامة عقيدتهم من ناحية وسلامة أبدانهم من أذى الحكام من ناحية أخرى. فإذا هم في ذلك إذ دخل عليهم العرب بالإسلام ببساطة ويسر أصوله ، فبدا لهم وكأنه مخرج من ذلك الحرج كله ، ووجدوه يقرر نبوة عيسى عليه السلام ويلغي مسألة الطبيعتين باستنكاره بنوة المسيح لله وتقريره أنه نبي كغيره من الأنبياء ، وتأكيده ذلك بنفيه مسألة صلب المسيح مما ينقض نظرية الخلاص نقضاً مبرماً . وكان القول « بالخلاص » عبئاً ثقيلاً على نفوس الناس ، إذ لم يتصوروا كيف يخلق الواحد منهم محملاً بإثم خطيئة الإنسان الأول ، وكيف ينبغي عليه أن يسعى في خلاص روحه بالإيمان بالصلب أولاً ثم بشراء نصيبه

من الخطيئة بألوان من الحرمان والعذاب من بينها تلقي الشهادة ثانياً .

وينبغي أن نذكر ذلك كله عند دراستنا لفتح المسلمين للأندلس ودخول أهله في الإسلام ؛ فأما عن أثر الأحوال في إسبانيا في تيسير الفتح فقد فسرناه عندما قلنا إن القوط كانوا طبقة حاكمة متعالية منفصلة عن الناس ، وكان حكمهم ثقيلاً على الناس ، فلما كسر العرب القوط دانت لهم البلاد ، كما دانت لهم مصر بهزيمة البيزنطيين . ولا عبرة بالقول بأن القوط غيروا سياستهم حيال الناس بعد قرارات مجمع طليطلة الثالث في سنة ٥٨٩ وبعد إلغاء الملك رَخَشْفِنْتُو للقانون الذي يحرم زواج القوط بأهل البلاد بعد ذلك بسنوات قليلة ، فإن سلوك الناس لا يتغير بالقوانين بل بفعل الزمن ، وكان ما بين هذه التشريعات الطليطلية ودخول الإسلام زمناً قصيراً لا يسمح بحدوث هذا التغير الحاسم الذي يتغنى به مننذذ بلايو[١] ، فقد ظل القوط حكاماً معتزين بالسلطان وإن أشركوا معهم رجال الدين فيه ، ولو أن أيام القوط طالت لكان من الطبيعي أن يحدث التمازج الذي افترضه مننذذ بلايو ، ولكن العرب دخلوا الأندلس والقوط على ما هم عليه من الانفراد بالسلطان ، فكانت المعركة بينهم وبين القوط لا بينهم وبين الإيبيريين الرومان ، ولهذا كانت قصيرة المدى ، وساعد على تقصير مداها ما كان من ضعف القوط واختلافهم فيما بين بعضهم وبعض . ويقرر ذلك مننذذ بلايو بقوله : « لقد كان لحرص نبلاء القوط على الانتقام (بعضهم من بعض) ثمراته الطبيعية . وربما لم يكن أولئك النبلاء يحسبون أن عملهم هذا سيؤدي إلى هذه النتائج البعيدة ، فقد توجت الغارة العربية التي قام بها طارق وموسى بنصر سريع عجيب ، وذلك بفضل العناصر المعادية التي كانت تغلي في إسبانيا ، وفتحت المدن والحصون عنوة أو صلحاً ، واستسلمت في أوريولة المقاومة الضعيفة التي حاولها تدمير ، وهو القوطي الوحيد الذي حاول أن يرفع رأسه وسط الدمار العام ، وقامت الحاميات العربية واليهودية في أشبيلية وقرطبة وطليطلة وباجة . . . »[٢] .

---

(١) MENENDEZ PELAYO, *op. cit.* p. I. 345.

(٢) MENENDEZ PELAYO, *op. cit.* II, p. 7 - 8.

٢٢٢ - رأي في الخلافات الدينية المسيحية

وإذاً فقد كان للخلافات الدينية أثر بعيد في تيسير الفتح الإسلامي للأندلس ، كما كان لها نفس الأثر في فتح مصر . والمؤرخون الإسبان يستنكرون هذه الخلافات ويحملون حملة بالغة على ما خالف العقيدة الكاثوليكية منها ، ويصفون أصحابها بالخيانة والإجرام والمروق وما إلى ذلك ، ولكنهم لو أمعنوا النظر لبدا لهم الأمر أهون من ذلك بكثير . فإن المسيحية نفسها كانت إلى ذلك الحين موضع مناقشات ، وكانت أصولها غير واضحة أو محدودة ، وكانت المجامع الدينية في الشرق والغرب تجتهد في تحديد أركان العقيدة ، وكل مجمع ينشر على الناس رأياً يقرر أنه الصحيح ويحاول أن يحمل الناس على الأخذ به ، وكان الخلاف بين ما تصدره هذه المجامع يبدو في بعض الأحيان وكأن كلاً منها ينادي بدين يختلف عما ينادي به الآخر .

كانت الكنيسة الشرقية تعتبر مذهبها هو المذهب القويم (أورثوذكس) ، والكنيسة الغربية تعتبر مذهبها عالمياً (كاثوليكي) ، وكانت كل منهما تكفر الأخرى ، بل كان في داخل كل منهما أكثر من مذهب ، ففي الشرق كانت عشرات المذاهب أظهرها النسطورية والمونوفيزية والخلقيدونية ، وفي الغرب كانت الحرب المذهبية بين الأسقفيات بعضها وبعض ، وبينها وبين البابوية ، وقد كانت هذه الأخيرة لا تعني عقيدة فقط وإنما عقيدة ودولة ، فقد كان بابوات روما يرون إذ ذاك أنهم ورثة الرسول بطرس من ناحية وورثة أباطرة الرومان من ناحية أخرى ، ولم يكن ذلك خافياً على أحد ، فكان الملوك يؤيدون بابوات روما أو يناهضونهم تبعاً لمصالح عروشهم ، فقد أيدهم الفرنجة وحاربهم اللومبارد ، وكانت علاقاتهم بكنيسة طليطلة علاقة ولاء يشوبه الحذر ، وبين الحين والحين ، كانت الخلافات تقع بين البابوات ومطارنة طليطلة ، فقد كتب يوليانوس مطران طليطلة إلى البابا في سنة ٦٥٣ يصفه « بجهل مخجل » وكانت الخلافات على أشدها في مسائل العقيدة داخل الكنيسة الإسبانية : حول مسألة الرؤيا Apocalipsis أو مركز كنيسة روما (كنيسة الرسول بطرس) أو قداسة التعميد de sacraenento babtismatis وما إلى ذلك ، وكانت المناقشات بين الأساقفة

حول هذه الموضوعات تطول وتشتد ، وتنتهي عادة بقرار من مجمع طليطلة يفرض على الناس فرضاً .

فإذا كان هذا حال البابوات والمطارنة والأساقفة من الحيرة في مسائل العقيدة فما بالنا بغير رجال الدين من عامة الناس ، وكانت غالبيتهم العظمى لا تقرأ ولا تكتب ولا تفهم من اللاتينية حرفاً ؟ كيف ننتظر أن تكون أمور العقيدة مقررة في أذهانهم بهذه الصورة التي يفترضها مؤرخو إسبانيا ؟ إنما الطبيعي أن تكون أذهانهم مبلبلة كما كانت حال غيرهم من عامة المسيحين في ذلك العصر ، وليس أدل على ذلك من انتشار السحر والكهانة والشعبذة في إسبانيا وغالة ، وهي ظواهر لا تعم إلا في أزمنة الاضطراب السياسي وانتشار المخاوف وضعف الإيمان وهبوط مستوى العقائد . ولم يقبل عليها عامة الناس فقط بل الملوك والنبلاء وبعض رجال الدين ، وابتداء من المجمع الطليطلي الثالث لا تخلو قرارات مجمع منها من بضع مواد تحرم السحر والكهانة والتوسل بالأشجار والأحجار وما إليها لكف أذى الأرواح الشريرة ، بل إن المجمع الخامس اعتبر من يمارس السحر أو يلجأ إلى الكهان ملعوناً من الكنيسة محروماً من رحمة الله ، وإننا لنلمح في بعض قرارات المجامع ضد السحر أن بعض الناس كانوا يلجأون إليه ليتخلصوا من الحكام ، وأن بعضهم الأخر كان يقدم القرابين للشياطين ، بل انحدر الناس إلى الوثنية الصريحة حتى اضطر المجمع الطليطلي الثاني عشر عام ٦٨١ إلى حفز همم القساوسة على القضاء على عبادة الأصنام ، ولم ينحسم الأمر مع ذلك فنجد المجمع السادس عشر يحرم من رحمة الله عبدة الأوثان والأحجار وعيون الماء والأشجار والعرافين والسحرة ، وقرر المجمع الحادي والعشرون طرد القساوسة الذين يصنعون الأحجبة والرقى[١] .

لم تكن النصرانية في إسبانيا القوطية إذاً بالشمول الذي نتصوره ، ولم تكن العقيدة المسيحية واضحة محددة المعالم لعامة الناس ، وإنما كانت القلوب في حيرة والعقول تتلمس طريقها لتفهم ما يلقى إليها ، وكانت الخلافات المذهبية

---

(١) MENENDEZ PELAYO, *op. cit.* I, p. 422 - 428.

كثيرة متضاربة ، وقد قامت مجامع طليطلة بجهد عظيم في سبيل تحديد أصول العقيدة ، وقامت تفرض رأيها بالقوة والعنف ، فكان لذلك أثره الطبيعي : نفر الكثيرون منها وأخذوا يعارضونها ، ولما كان الملوك يؤيدون الكنيسة ويأتمرون بأمرها ، فقد أصبحت المعارضة الدينية معارضة سياسية أيضاً . ولا شك أن الخلاف بين بيتي غيطشة وأخيكا كان له وجهه الديني ، والأسقف لذريق الطليطلي يؤيد ذلك فيقول : « إن غيطشة لم يكن طاغية بغيضاً فحسب ، بل كان ملكاً منشقاً على الكنيسة وثائراً ، يؤيد اليهود ويحابيهم ، ويجمع مجلساً في طليطلة ، ويصدر قرارات منكرة ، ويرد على تحذيرات البابا بفصل مملكته عن البابوية ، ويصدر قراراً يحرم به على رعاياه الاعتراف بسلطان البابا ويثير غضب الكنيسة بتعيين قريبه أوبه Oppas مطراناً لطليطلة ، فقد حشره في هذه الوظيفة حشراً روع الناس ، وكان يحتل كرسي المطرانية قبل ذلك سندرد (الذي عاد إليه عندما اعتلى لذريق العرش) وقتل فافله Favila دوق كنتبرية وسمل عيني ثيودوفريدو Theodofredo وهدم أسوار المدن وأحرق السلاح ، لا حباً في السلام ، كما زعم بعض المولعين بالمتناقضات ، ولكن ليحول دون قيام الثورات على سلطانه المستبد »(١) .

٢٢٣ ـ الإسلام يضع حداً للاضطهادات الدينية المسيحية في الأندلس

ولقد أعفي أصحاب هذه المذاهب والآراء من اضطهاد الكنيسة والدولة عندما صار الأمر للمسلمين ، فقد دخلت الغالبية العظمى من أهل البلاد في الإسلام ، إذ وجدت فيه حلاً سعيداً مريحاً للمشكلة العقيدية . وتلك ظاهرة واسعة المدى لا ينبغي أن تغيب عن نظر أحد ممن يدرسون تاريخ انتشار الإسلام : كانت المشكلة الدينية هماً ناصباً لكثيرين جداً من المسيحيين في تلك الأعصر . فأما العوام والبسطاء فقد أراحوا أنفسهم من العناء ولم يتعبوا أنفسهم في مسائل الطبيعة والطبيعتين وما يترتب عليها ، ونجوا بأجسامهم كذلك من سلطان الحاكمين الذين كانوا يخرجون كل يوم برأي جديد في قالب الوثنية

(١) *apud* MENENDEZ PELAYO, *op. cit.* p. 367 - 368.

القديمة . وأما الأقلية المفكرة فكان بلاؤها عظيماً ، إذ كانت تصر على أن تفهم ديناً في حين أصر رجال الدين على أن يفهموه نيابة عنهم وما عليهم إلا التصديق والترديد .. وهذا الكلام ينطبق على كل بلاد المسيحية في ذلك العصر .

ثم جاء الإسلام يقدم لهم حلاً يطمئن إليه معظم الناس وينجو به معظم القلقين ، بل جاء يعرض حماية لمن أراد أن يقول قولاً لا ترضى عنه الكنيسة ، فأمنت البقية الباقية من النساطرة في العراق وبعض نواحي الشام ، وأمن المونوفيزيون في مصر والشام ، وأمن أصحاب الأقوال المختلفة في إسبانيا . وفي ظلال الخلفاء قال يوحنا الدمشقي ما شاء له القول ، وتفلسف اسبيرايندوس في الأندلس ما شاءت له الفلسفة ، دون أن يخشى أحد منهم أن يحدث له ما حدث لجريجوريوس حاكم قرطاجنة افريقية البيزنطي سنة ٦٤١ ميلادية ، فقد كان رجلاً متديناً وأرثوذكسياً مخلصاً ، ، وكان يعارض كل رأي يعارض المذهب الأرثوذكسي كما أقرته الدولة أيام قسطنطين الثالث ، ثم قتل قسطنطين هذا فجأة في مايو سنة ٦٤١ وتولى العرش هرقلوناس وقامت بالوصاية عليه أمه مارتينه ، فأصدرت أمرها بالارتداد إلى مذهب هرقل ، وكان مونوثيلياً ، ووصل الخبر إلى جريجوريوس فأنكره ، حاسباً أنه إشاعة ، « وقام في الناس يؤكد لهم أن الأوامر بمطاردة الأرثوذكسية إن هي إلا وسيلة يُراد بها النيل من الأمبراطورية المؤمنة الطاهرة الذيل ، وأراد أن يؤكد للناس مقالته ، فحضهم على الاجتهاد في تتبع المونوثيليين واضطهادهم ، غير عالم أن اليوم يومهم ، فلم تكد الأخبار بأفاعيله تصل إلى القسطنطينية ، حتى دُعي إلى هناك ليحاسب أعسر الحساب على ما اقترف من جرم ، فرحل الرجل إلى القسطنطينية ، وهو ـ من حيرته ـ لا يكاد يعرف لنفسه مصيراً »[1] .

وربما بدا غريباً أن يقال إن دخول المسلمين هذه البلاد كلها قد وضع حداً للاضطهادات الدينية فيها ، ولكن هذا هو الواقع . فإن المسلمين تركوا المسيحيين الذين أرادوا أن يظلوا على دينهم أحراراً يفعلون ما يشاؤون ، ولم تجد

(١) حسين مؤنس : فتح العرب للمغرب (القاهرة ١٩٤٧) ص ٤٥ .

البابوية ولا رجال الدين وسيلة لأذى المخالفين ، فقنعت بالشيء الوحيد المعقول : المجادلة والأخذ والرد ، فبينما كانت اللعنة الأبدية والقتل والسجن والتشريد نصيب من يخالف الرأي الرسمي للبابوية والمجامع أيام القوط ، نجد البابا ورجاله يكتفون بخطابات يدحضون بها آراء أليباندوس Elipandus مطران طليطلة الذي قال بعد الفتح العربي بقليل إن المسيح ، من الناحية البشرية ، كان ابناً لله بالتبني فحسب :

« (Christus) Unigenitus autem vocatur secundum divinitatis excellentiam, quia sine fratribus. Primogenitus secundum susceptionem hominis, in qua per adoptionem gratiae fratres habere dignatus est, de quibus esset primogenitus ».

وهي مقالة لو نطق بها أحد في أيام القوط لكان جزاؤه القتل ، ولكن البابا هدريان الأول ورجاله لم يستطيعوا إلا حض المخلصين لهم من رجال الدين على مطاردة هذا الرأي الذي انتشر حتى آمن به نفر من نصارى أشتريس وكنتبرية ممن كانوا خارجين عن طاعة المسلمين ، وكتب إيتريوس Heterius كتاباً في الرد عليه :

Liber Etherii adversus Elipandum,sive de adoptione Christi filii dei.

وقد استمرت هذه الأراء تظهر وتختفي خلال العصور الإسلامية ، ولم يكن لأحدها من الصدى أكثر مما يكون لرأي يطرح للناس ، فيؤيده من يريد وينصرف عنه من يريد ، ولا يبقى آخر الأمر إلا الرأي الذي يقبله العقل ويطمئن إليه القلب ، ولو كانت هناك المجامع وسلطان الدولة لأصبح لكل رأي منها فرقة كما كان الأمر أيام الدولة البيزنطية، إذ إنه لا يحيي الآراء ويقوي المذاهب شيء كالاضطهاد . وقد وقفت الدولة الإسلامية في الأندلس موقف الحياد الكامل ، ولم تفعل فعل الدولة العباسية مثلاً عندما ناصرت النساطرة على من سواهم . وقد بلغ من عدم حفل الدولة الإسلامية في الأندلس لهذه المذاهب ،

ولآراء نصارى الأندلس جملة ، أن ضاق ذرع المَظْهَـريين من رجـال الدين بهـذه الدولة التي تغري المسيحيين بتسـامحها عـلى دخول الإسـلام ، ولا يقرأ أحـد من أهلها شيئاً مما كان رجال الدين هؤلاء يكتبونه في نقـد الإسلام ويمـلأونه بـالطعن الجارح !

لقد شكا الراهب أَلْبَرُ القرطبي من أن أحداً من إخـوانه النصـارى لا يقرأ اللاتينية أو يلقي بـالاً إلى الكتب المقدسـة المكتوبـة بها ، لأن النـاس في الأندلس كانوا في شغل عن ذلك بالعربية ودراستها ومحـاولة التمكن منهـا ، فلما لم يستمع أحد لشكاته أخذ يحـرض المسيحيين عـلى التحرش بـالإسلام والقـرآن والرسـول صلى الله عليه وسلم ، فجعل نفر من النصارى يفعلون ذلك ويعرضون أنفسهم للأذى ، فكانت محنة نصارى قرطبة أولاً ثم طليطلة ثانياً ، وهي الفتنة الـوحيدة من نوعها في التاريخ ، لأن الغالب أن تضطهـد الأكثريـة الأقلية ، أمـا هنا فقـد شاء طموح رجال الدين إلا أن تُضطَهد الأغلبية الحاكمة بالطعن في مقدسـاتها ، ولم يدفع هذا النفر من رجال الدين المسيحيين إلى تحريض الناس عليها إلا هـذا التسـامح الـذي جرى عليـه أمراء بني أميـة في الأندلس . وهـو تسامـح بلغ حد الإهمال ، حتى شعر رجال الدين أن أمـرهم قد ضـاع فلا هم يجـدون سبيلاً إلى الحكم ، ولا هم يملكـون الوسيلة إلى السيـطرة عـلى عقـول الجمـاهـير بـإظهـار بـراعتهم في مسائـل الدين ، فلم يجـدوا طريقـاً للخروج من ذلـك الخمـول إلا بركوب هذا المركب الوعر .

٢٢٤ ـ أثر الإسلام في نصرانية الأندلس

ولقـد ذهـب سيمونت ومن تبعـه إلى القـول بـأن مـا ظهـر بـين نصارى الأندلس خلال العصور الإسـلامية من الآراء المخـالفة لـرأي كنيسة رومـا إنما كـان أثراً من آثـار الإسلام من نصـارى الأندلس ، وليس ذلك من الضروري ، لأن المسيحية نفسها ضمت كل لون من المذاهب والآراء قبل ظهور الإسلام ، مثال ذلك أن مـذهـب أليپـاندوس ـ الذي أشرنا إليه ـ أقرب ما يكون إلى قول النسطورية ، وقد عرفت إسبانيا النـسطوريـة

قبل مجيء الإسلام (١) ، ومثال ذلك أيضاً أن القس أسپيرايندوس Espiraindus وكان من شيوخ الكنيسة الإسبانية في أوائل القرن التاسع الميلادي (أي في أيام الأمير الحكم بن هشام المعروف بالربضي) ، كتب رسالة صغيرة « ضد بعض المذاهب المنحرفة التي ظهرت في هذه الفترة التعيسة ، يقول أصحابها بإنكار سلطان أنبياء الكنيسة وعلمائها ، وجرؤوا على أن يضعوا ألوهية المسيح موضع الشك ، وعلى إنكار عقيدة الثالوث ، إذ أضلتهم الآراء الإسلامية » كما يقول سيمونت في أسلوبه المقذع الجافي ، وعنوان رسالة أسپيرايندوس :

Speraindeo Abbas contra haereticos quosdam negantes trinitatem personarum in unitate substantiae atque divinitatem in Christo (٢)

ولا نستطيع القطع بأن هذه المذاهب كانت أثراً من آثار الإسلام ، لأن هذه الآراء نفسها ظهرت في المسيحية في المشرق والمغرب قبل ظهور الإسلام ، ولا يستبعد أن يكون وجود الإسلام في الأندلس قد أعطى أصحابها حججاً وآراء وقوى مركزهم .

* * *

٢٢٥ - المسلمون والكنيسة الإسبانية

وإذاً فلم تكن المسيحية في إسبانيا قبل دخول الإسلام ثابتة الأركان ولا موحدة الكلمة ولا متمكنة في قلوب الناس جميعاً على النحو الذي يصوره المؤرخون عادة ، بل لم يكن كل النصارى بآمنين على أنفسهم ولا راضين عن الوضع الذي كانت عليه . ومن هنا فإنه يبدو لنا أن ما يسرف فيه بعض المؤرخين من الكلام عما أصاب المسيحية على أيدي المسلمين مبالغ فيه إن لم يكن مناقضاً للحقيقة والواقع . حقيقة إن المسلمين اعتبروا أملاك الكنائس التي تركها أساقفتها وقساوستها وفروا ملكاً للدولة ، وقصروا نفوذ رجال الدين على الدين ، وذلك لا يعني أذى المسيحية

(١) انظر عن النسطورية في إسبانيا :

MENENDEZ PELAYO, *op. cit.* I p. 313 sqq.

(٢) SIMONET, *Mozarabes*, p. 341 - 342.

والمسيحيين ، فقد كانت الكنيسة كما رأينا تملك بنحو خمس الأرض العامرة ، وكان رجال الدين يتولون الحكم باسم الملوك ، ويتعرضون لكل ما يتعرض له أصحاب الحكم من أخطاء وعداوات ، وليس ذلك من صالح الدين في شيء . بل من الغريب أن أولئك الذين يتهمون العرب بأنهم خربوا عشرين أو ثلاثين كنيسة يفعلون ذلك باسم حرية الفكر وحرية العقيدة ، ونحن جديرون بأن نسألهم : كم مسجداً بقي في إسبانيا بعد أن أصبحت السيادة فيها للنصرانية ؟

كان في إسبانيا على أيام القوط ست كنائس جامعة على رأس كل منها مطران ، وكانت هذه الكنائس الست تقوم في قواعد الأقسام الإدارية الكبرى كما كانت على أيام الرومان ، وهي : طركونة وماردة وأشبيلية وأفراغه وقرطاجنة وطليطلة ، ويبدو أن مجمع طليطلة الثاني عشر قد اعتبر مطرانية طليطلة رأس المطرانيات جميعاً .

ثم تلى ذلك الأسقفيات وعددها إحدى وعشرون في إسبانيا القرطاجنية ، ومن المفيد أن نذكرها هنا ، لأن معظمها سيكون قواعد كور في التنظيم الإداري الإسلامي ، وسنذكرها بأسمائها اللاتينية ونتبع كل اسم بمقابله العربي إن وجد ثم القشتالي الذي أخذ عن الصيغة العربية في بعض الحالات ، وبقي إلى اليوم :

Acci	وادي آش	Guadix	
Arcavica	أركبيقة	Arcabica	(عاصمة إقليم كونكة اليوناني)
Beacio أو Biatia	بياسة	Baeza	
Boasti	بسطة	Baza	
Bigastra	(في مرسية)	Bigastro	
Cartago	قرطاجنة	Cartagena	
Castulo	قسْطُلُونة	Cazlona	

Compluto	مـدينة المـائدة	Alcala de Henares
Diania	دانيـة	Denia
Illici	إلْش	Elche
Mentesa	منتيشة	La Guardia, Jaen
Oreto	أوريط	Granatula, Ciudad Real
Oxuma	أشونة	Osma
Palentia	-	Palencia
Setabis	شـاطبة	Jativa
Segobia	شقوبية	Segovia
Segobriga	-	Segorbe
Segontia	-	Soguenza
Valentia	بلنسية	Valencia
Veleria	(في قونقـة)	en Cuenca
Urci	على مقـربة من	Villaricos

وفي ولايـة بيـطي عشر أسقفيات هي :

Hispalis	أشبيليـة	Sevilla
Asidonia	شذونـة	Medina Sidonia
Astigi	أستجة أو إسْجـة	Ecija
Corduba	قرطبـة	Cordoba
Egabro	قبرة	Cabra
Elepla	لبلة	Niebla
Eliberis أو Iliberri	إلبيرة	Elvira
Italica	طالقة	Italica

مالقة Malaca	Malaga	
- Tucci	Martos	

وفي لشدانية (Lusitania) ـ وهي البرتغال الحالية ـ ثلاث عشرة أسقفية هي :

ماردة Emerita	Mérida	وهي القاعدة
أبله Abela	Avila	
بيزو Beseo	Viseo	
Caliabria (على مقربة من Cuidad Rodrigo)	-	
قـورية Cauria	Coria	
قلمـرية Conimbria	Coimbra	
يابرة Ebbora	Evora	
- Egitania	Idania la Vieja	
- Lameco	Lamego	
الأشبونة Olisipone	Lisboa	
أكشونبة Ossonoba	Oxonoba (Faro)	
باجة Pax Julia	Beja	
شلمنقة Salamantica	Salamanca	

وفي جليقية تسع أسقفيات هي :

ـ Braga	Braga	القاعـدة
استرقـة Asturica	Astorga	
ـ Auriense	Orense	
ـ Britonia	Santa Maria de Breto (Cerca de Mondeneds)	
Braga قرب Dumio		
- Iria	Padron (Coruna)	

لُك	Lucus	Lugo	
بـرتقال	Magneto أو Portucale	Meinedo o Oporto	
تـودة	Tude	Tuy	

وفي إسبانيا الطركونية (الشرق) ١٥ أسقفية هي :

طركـونة	Tarracona	Tarragona	القاعـدة
أوقـة	Auca	Oca	
أشونـة	Ausona	Osona	- (في مقاطعة فيش Vich
-	Barcimona	Barcelona	
سرقسـطة	Caesaraugusta	Zaragoza	
قلهرة	Calagurris	Calahorra	
طـرطوشـة	Dertosa	Tortosa	
	Egara	Tarrasa	
أمبريـاش	Empurias	Ampurias	
جرنـدة	Gerunda	Gerona	
لاردة	Ilerda	Lerida	
وشقة	Osca	Huesca	
بنبلونـة	Pampilona	Pamplona	
طرسـونة	Tirassona	Tarazona	
-	Urgello	Urgel	

وفي المقاطعة النربونية ثمان أسقفيات هي :

أربـونة	Narbona	Narbonne	وهي القاعدة
أجـدة	Agatha	Agde	
-	Beterres	Beziers	

Carcassona	قرقشونة	Carcasonne
Elena	-	Elna - Perpignan
Luteba	-	Ludève
Magalona	مجلونة	Magallon Montpellier
Neumaso	نيمة	Nima

فمجموع المطرانيات والأسقفيات على هذه كان ٧٧ ، منها ٨ خارج شبه الجزيرة و ٦٩ في شبه الجزيرة[١] . ومن هذا العدد الكبير يذهب أصحاب المدونات النصرانية ، ويتابعهم المؤرخون المحدثون ، إلى أن العرب خربوا عدداً يبلغ الأربعين ، وهذا القول مبالغة نعرفها من أولئك الرهبان ، لأن المعروف أن المسلمين لم يخربوا في الشام أو مصر كنيسة واحدة ، فلا يعقل والحالة هذه أن يخربوا في إسبانيا نحو نصف الكنائس والواقع يدحض هذا الزعم ، وأبسط الدلائل على ذلك أن المسلمين لم يخربوا كنيسة قرطبة ، مع أنهم استولوا على البلد عنوة ، بل اكتفوا بمشاركة المسيحيين إياها ، وعندما انتشر الإسلام في البلد ، وضاق نصف الكنيسة بالمصلين اشترى عبد الرحمن الداخل النصف الآخر من النصارى ، وأذن لهم في بناء كنيسة أخرى بدل القديمة التي أصبحت كلها مسجد قرطبة الجامع .

بيد أننا لا نستبعد أن يكون بعض الأذى قد أصاب الكنائس الواقعة في الأقاليم التي ظلت خلال الفترة التي نتحدث عنها دار حرب ، وهي كنائس أقاليم جليقية والولاية النربونية والجزء الشمالي من إسبانيا الطركونية وولاية لشدانية . فقد ظلت النواحي ميدان صراع ينال التخريب كل ما فيها : كنائس وغير كنائس ، وهي لم تتخرب لأن المسلمين أرادوا تخريبها ، بل لأن هذا فعل الحرب في كل زمان ومكان .

---

(١) AGUADO BLEYE, *op. cit.* p. 364 - 365.

وربما كان الذي أوقع أولئك الرهبان من أصحاب المدونات النصرانية في الخطأ هو أن الكثيرين من الأساقفة تركوا أسقفياتهم وهربوا أمام الجيوش الإسلامية ، ظناً منهم أن المسلمين سيفتكون بهم ، ولجأوا إلى بلاد الشمال القصي ، فظن الرهبان أن هروب الأسقف والقساوسة معناه تخريب كنيستهم . وقد عاد الكثيرون منهم إلى كنائسهم بعد أن رأوا أن المسلمين لا يعتدون على الكنائس أو رجال الدين ، ويؤيد ذلك القول سيمونيت كبير الحاملين على الإسلام والمسلمين بين المؤرخين الإسبان المحدثين(١) .

وعلى أي الأحوال ، فإن المراجع النصرانية نفسها تذكر أن الأسقفيات والكنائس الآتية بقيت وعاش أهلها في سلام مع المسلمين :

مطرانيات طليطلة وماردة وأشبيلية ،

وأسقفيات وادي آش - أرْكَبِيقَة (في ولاية قونقة) - شذونة - استجة - برشلونة - بسطة - بياسة - بيجاستر (نقلت فيها بعد إلى قرطاجنة) - قَلَهُرة - قورية - سرقسطة - مدينة المائدة (Compluto - Alcala de Henares) - قلمرية - قرطبة - قبرة - لبلة - ألبيرة (غرناطة) - جَرُندة - إلش - مالقة - أرجلُّو (Urgel) - أوسمة - سِجِيَّة (Exea - Segia) - سيجونثيا (Siguenza) - توكي (Martos) - أرشي (Urci ، على مقربة من المرية) - طالِقَة - بلنسية .

والمجموع إحدى وثلاثون مطرانية وأسقفية .

فإذا ذكرنا أن عدد هذه الكراسي الكنسية داخل شبه الجزيرة كان أيام القوط تسعة وستين ، منها تسعة لهم من كراسي الولاية الطركونية الخمسة عشر ، وخمسة من كراسي ولاية إسبانيا القرطاجنية - إذا استبعدنا هذه الكراسي التي كانت واقعة في نواح خارجة عن دار الإسلام وعددها خمسة وعشرون كرسياً ، كان الباقي الذي دخل في ديار المسلمين من قواعد الكراسي الكنسية

---

(١) SIMONET, *op. cit.* 122 - 123.

أربعاً وأربعين . وقد ذكرنا أن المراجع النصرانية نفسها تؤكد وجود واحد وثلاثين ، أي أن الذي اختفى من الكراسي الكنسية أحد عشر .

نقول « اختفى » ولا نقول أزيل أو محي ، لأن هناك ظاهرة هامة لا ينبغي أن نهمل أمرها في ذلك الحساب ، وهي أن قيام دولة الإسلام في الأندلس اقتضى تغييرات إدارية استدعاها وضع الدولة الجديدة : أعيد تنظيم بعض الأقسام الإدارية القوطية عند تحويلها إلى كور ، فأخرجت من بعضها بلاد ضمت إلى أقسام أخرى ، ونقلت قواعد بعض أقسام إلى مدن أخرى أكثر مناسبة للمطالب الإدارية الإسلامية وهكذا ، فكانت النتيجة أن خمل بعض المدن فلم يعد يستحق أن يقوم فيه كرسي كنسي . ولم يقتصر هذا الأمر على الأندلس الإسلامي بل حدث مثله في إمارة أشتريس التي أصبحت مملكة ليون فيما بعد ، فقد ضم مثلاً كرسي أفراغة (Braga - Bracara) إلى كرسي لُك (Lugo - Lucus) ونتيجة لذلك قل عدد الكراسي الكنسية في الأندلس الإسلامي . وعندما كانت تعمر ناحية وتتمدن قاعدتها ـ أي تصبح مدينة ـ كان المسلمون لا يمانعون في إنشاء كرسي كنسي فيها ، ومثال ذلك ما حدث لبطليوس عندما عمرت وكبرت وأصبحت قاعدة كورة : أنشأ المسيحيون فيها كرسياً كنسياً رغم قربها من قورية وماردة . وكان في كل منها كرسي ، بل كانت الأخيرة مطرانية[١] .

٢٢٦ ـ انتقال مركز المسيحية الأندلسية إلى قرطبة

وربما كان أهم تغيير في النظام العام للنصرانية في الأندلس هو انتقال مركز الثقل من طليطلة إلى قرطبة . لم ينقل المسلمون كرسي المطرانية الكبرى من طليطلة إلى قرطبة ، بل تركوه كما كان مراعاة لمشاعر النصارى ، ثم حرصوا على أن يكون المطران قريباً منهم في العاصمة ، بل عقدت مجامع طليطلة في قرطبة[٢] ، وذلك

(١) SIMOENET, *op. cit.* p. 122 - 123.

(٢) SIMONET, *op. cit.* p. 123 - 124.

إجراء بسيط لم يؤثر في أحوال النصارى ولم يمس نظام الكنيسة ، بل استدعاه الصالح العام ، وربما يكون رجال الدين أنفسهم هم الذين حرصوا على أن يكونوا على مقربة من الأمراء والخلفاء ، ولكن مؤرخي إسبانيا النصرانية ينقدون ذلك ويعتبرونه عدواناً على كنيستهم وتعصباً على النصرانية ، وهذا أغرب ما يمكن سماعه من قوم لم يبقوا في الأندلس كله ـ عندما صار الأمر إليهم ـ على مسجد واحد أو مسلم واحد ! ومهما يتأمل الإنسان في منطق أولئك المؤرخين لا يسعه إلا أن يأسف أن يكون هذا مبلغ نفر من أهل الديانة والفكر والعلم في عصرنا هذا من الإحساس الإنساني .

٢٢٧ ـ الكنيسة الأندلسية في النطاق الشرقي

حل أمراء قرطبة محل ملوك القوط ، فانتقل إليهم بذلك الإشراف الأعلى على شؤون الكنيسة في بلادهم ، وجعلوا قرطبة المركز الفعلي للنصرانية الأندلسية ، واحتفظوا لأنفسهم بالحق في تعيين المطران ـ أو إقرار انتخابه بقول أصح ـ وفي الموافقة على الدعوة لعقد المجامع الدينية . وكان هذا في ذاته تغييراً حاسماً في تاريخ الكنيسة الإسبانية . لأن مطرانية طليطلة كانت معتبرة قبل الفتح تابعة لكنيسة روما روحياً وأدبياً ومالياً أيضاً من بعض الوجوه ، فقطع العرب هذه العلاقة وجعلوا للنصرانية الإسبانية كياناً مستقلاً ، فلم يعد النصارى المقيمون في النواحي الخاضعة للمسلمين يرسلون شيئاً من أموالهم إلى روما ، وانقطع مجيء القساوسة والرهبان ورسل البابوية من غالة وإيطاليا بصفة رسمية ، أي أن هؤلاء النصارى انفصلوا تماماً عن إخوانهم النصارى في إيطاليا وغالة وبقية أوروبا ، وتغير اتجاه أولئك النصارى من الغرب إلى الشرق ، واندرجت النصرانية الأندلسية في عداد النصرانية الشرقية وإن كانت كاثوليكية ، وأخذت تتأثر تبعاً لذلك بمؤثرات نصرانية ـ واسلامية ـ آتية من الشرق . ومن هنا فقد أخذت طقوس هذه الكنيسة الأندلسية تختلف عن الطقوس التي سادت الكنيسة الكاثوليكية عامة . وقد أتى هذا الاختلاف نتيجة لدخول الكنيسة الأندلسية في النطاق الشرقي ، ونتيجة لثبات هذه الطقوس على ما كانت عليه أيام دخول

المسلمين ، في حين ظلت بقية الكنائس الكاثوليكية التي كانت على اتصال دائم مباشر مع البابوية خاضعة لكل ما تقرره البابوية من تعديلات وتحديدات تصدر بها أوامر من المجمع الكنسي العام أو مجمع الكرادلة فى روما .

٢٢٨ - الطقوس القوطية الكنسية

ويذهب مؤرخو الكنيسة الإسبانية إلى أن أول من أدخل هذه الطقوس إلى إسبانيا كان القديس الرسولي سان توركواتوس Sanctus Torcuatus مؤسس كنيسة إيزيدور، آش ، ثم حدد أصولها وشعائرها القديسان لياندروس وأخوه إيزيدور ، ولهذا يسميها الأسقف رودريجو خيمينيث شعائر إيزيدور ولياندروس Officium Isidori et Leandri ، ويسميها بعضهم الإيزيدورية فحسب Isidoriano . ثم شاعت وجرى بها العمل أيام القوط ، ومن هنا أطلق عليها اسم الطقوس القوطية Oficio Gote-co - Officium Goticum ، وربما سميت الطقوس الطليطلية Oficio Toledano لأن مجمع طليطلة الرابع قرر تعميقها في كنائس إسبانيا وغالة النربونية كلها . وقد جرى بها العمل في الكنائس في الأندلس الإسلامي دون أن يتعرض لها المسلمون بشيء ، وعندما بدأ ملوك ليون يتغلبون على بلاد المسلمين ، أطلق الليونيون على من كان في هذه البلاد اسم المستعربين كما قلنا ، وأطلق هذا الوصف أيضاً على شعائرهم فسميت بالشعائر المستعربية Oficio Mozarabe .

٢٢٩ - البابوية والطقوس القوطية

وما كادت البابوية تقف على أقدامها في حماية الدولة الكارولنجية الفرنجية حتى أخذت تلقي الشكوك في قيمة هذه الطقوس وكاثوليكيتها ، فبدأت بإرسال حبرين أيام البابا يوحنا العاشر لينظرا في أمر هذه الطقوس ويعرضا عليه رأيهما فيها ، فذهب الحبران إلى كنائس ممالك إسبانيا النصرانية وعادا ليقررا أنها شعائر كاثوليكية سليمة . ولكن البابوية أصرت رغم ذلك على إلغاء هذه الشعائر وإحلال الشعائر الرومانية (نسبة الى روما) محلها ، وما زال البابا جريجوريوس السابع حتى حمل شانجة ملك نَبَرَّة وألفونسو السادس ملك قشتالة وليون على الاستجابة لما يريد ، فألغيت الشعائر

المستعربية في نبرة وقشتالة وليون فيها بين سنتي ١٠٧٧ و ١٠٧٨ رغم معارضة شديدة من نصارى هاتين المملكتين(١) .

ثم جاء دور نصارى الأندلس الإسلامي عندما بدأوا يدخلون في طاعة ملوك إسبانيا النصرانية بعد استغلاب بلادهم . لقد ظلوا آمنين على شعائرهم ما داموا في حمى المسلمين ، فلما صاروا إلى حماية ملوك النصرانية بدأت متاعبهم وعادوا إلى ما كانوا فيه في العصر القوطي ! وقد تحول الأمر إلى صراع دموي اشتبك فيه أنصار الشعائر المستعربية مع أنصار الشعائر الرومانية ، ولو أن أمراً كهذا حدث أيام المسلمين لما وسعت الكلمات غضب المتحاملين على الحكم الاسلامي ، ولكن ما أشد اختلاف معايير القيم في أيدي أولئك الناس ! لقد جمع الأمبراطور ألفونسو السادس مجمعاً في برغُش عام ١٠٨٥ ، ولغى الشعائر المستعربية التي حافظ عليها المسلمون وأحل محلها شعائر فرضت على الناس فرضاً بسلطان الرهبان الكلونيين ، وهم أجانب عن إسبانيا ، كانوا يدخلونها إذ ذاك سادة لأهلها وقساوستها أيضاً .

ولم يرضَ الشعب عن ذلك ، وسرت في صفوفه روح المقاومة ، وقال قائلهم : « نموت أو نستبدل هذا الملك بملك آخر قبل أن نقبل هذا التغيير » . ووقف الملك وحيداً أمام رعيته كلها . وتدخل نفر من الوسطاء في الأمر ، واستقر الرأي أخيراً على تحكيم القدرة الإلهية جرياً على شريعة العصور الوسطى : اتفق الطرفان على أن يوقدوا ناراً ثم يلقى فيها بكتاب صلوات وفق الطقوس المستعربية ، وكتاب صلوات آخر وفق الطقوس الكاثوليكية ، وما يحترق منهما فهو الباطل . ويقص ردريجو الطليطلي هذا الخبر ويؤكد أن النار

(١) يحتج سيمونيت على موقف البابوية من الطقوس القوطية ، ولكن احتجاجه رقيق لطيف لا يقاس بحملاته المقذعة على المسلمين، ولو أن المسلمين مسوا طقوس الكنيسة لما وجد في ألفاظ العنف ـ بل البذاءة ـ ما يكفيه وقد رأيت الإشارة إلى ذلك لبيان روح التعصب الشديد الذي كتب به هذا المؤرخ ومن تابعه ، وهو تعصب يشوه الصورة التاريخية للأندلس الإسلامي تشويهاً تاماً .
Cf : SIMONET, *op. cit.* p. 695.

أكلت كتاب الشعائر الرومانية في حين بقي كتاب الشعائر القوطية سليماً لم يمس ! ويؤكد صاحبنا سيمونيت هذا الخبر، ويروي رواية أخرى يتهم أصحابها بأنهم ممالئون للبابا ، إذ إنهم يقولون إن كتاب الصلوات الروماني عندما طرح لم يقع في النار ، أما القوطي فوقع فيها ولم يصب بأذى وهكذا ثبت أن الاثنين على حق ![1] .

ويقولون إن الطقوس المستعربية سلمت من الأذى نتيجة لهذا الحكم الإلهي ، ولكن ذلك لم ينفعها طويلاً ، فما زال البابوات يؤيدهم الملوك يلحون عليها حتى تلاشت آثارها خلال القرن السابع عشر .

وإنما استطردنا مع تاريخ هذه الطقوس لكي نؤكد ما قلناه ، وهو أنها كجزء من التقاليد الإسبانية القومية عاشت في سلام طالما كان الأمر للمسلمين ، فلما انقضت أيامهم زالت واختفت في ليل التاريخ مع ما ذهب من آثار المسلمين . .

* * *

٢٣٠ ـ وظائف الكنيسة

بقي نظام الكنيسة بعد الفتح سليماً دون تغيير ، كل ما حدث هو أن أسماء الوظائف تغيرت تبعاً لاستعراب ألسنة الناس ، وظهرت لها أسماء هي مزاج من أسمائها الأولى وألفاظ عربية ، وإليك بياناً بأهم هذه الوظائف كما وردت في كتابات نصارى الأندلس ، نوردها على سبيل المثال :

Metropolitanus مطران أو مِطْروبُل (Metropol) .

Episcopus أسقف أو أسقوف .

Archi - Presbiter أرج بْرِشْبِطَر ، وربما سموه بالتسمية الإسبانية Arcipreste فقالوا أرْجْبْرِشْت أو أرسبرشت . وقد

---

(١) SIMONET, *op. cit.* p. 699.

يضعون له اسماً مركباً Archi اليونانية الإغريقية « وقس » العربية ، فقالوا : أرج قس .

Archidiaconus أرجدياقُن أو أرسِدياقُن (إسبانية : Arcidiacono أو Arcediano) .

وقد أبقى المسلمون على كل المؤسسات ذات الصبغة الدينية دون أن يمسوها بأذى ، كأديرة الرجال والنساء والبيع الصغيرة والمصليات العامة والخاصة Capellas ، واحتفظ رجال الدين بملابسهم وأزيائهم[1] ، ثم غيروها شيئاً فشيئاً من تلقاء أنفسهم عندما أخذهم تيار الحضارة المشرقية واستعربوا لساناً وأسلوب حياة ، بل الكثيرون منهم أخذوا أسماء عربية يعرفون بها بين الناس وإن كان لكل منهم اسمه الكنسي اللاتيني أو الإسباني الأصل .

٢٣١ ـ المسلمون وأملاك الكنيسة

وقد وضع المسلمون أيديهم على جزء كبير من أملاك الكنيسة الواسعة ، واستولوا كذلك ، أيام الفتح فقط ،على الكثير من ذخائر الكنائس وخاصة تلك التي تركها رجالها وسدنتها وهربوا . وعندما استقر الأمر لم يعودوا يمسون ذخائر الكنائس . وقد اعتبر المسلمون ما وقع في أيديهم من ذلك غنائم يجري عليها حكم الخمس ، فأما خمس أراضي الكنيسة فقد اعتبر ملكاً للدولة ووزع الباقي بين الفاتحين ، وكان الجند في الغالب يتركون الأرض بيد زراعها يؤدون إليهم عنه مالاً ، ويدفعون منه ما يشاؤون لكنائسهم ، فكأن الأمر لم يتغير كثيراً بالنسبة إلى هذه الأرضين. وأما الذخائر فأخذت الدولة خمسها وتوزع الجند الفاتح الباقي . وكانت الأديرة النصرانية طوال الأعصر الإسلامية آمنة لا يروع أصحابها شيء ، وقد درج المسلمون على التردد عليها لالتماس النبيذ الطيب على عادة مُجان المشرق في هذا الباب ، وقد بلغ من تسامح المسلمين مع نصارى الذمة أن أذنوا لهم في قرع النواقيس .

---

(١) SIMONET, *op. cit.* p. 127.
ISIDORO DE LAS CAGIGAS, *los Mozarabes*, I. p. 65.

وظلت الجماعات النصرانية في المدن والأرياف ملتفة حول أساقفتها وقسسها ورعاتها ، لم يتدخل المسلمون في شيء من عِلاقاتها بهم ، فظلت الكنائس تؤدي وظائفها الاجتماعية إلى جانب وظائفها الدينية ، فكان القساوسة يعقدون الزيجات ويعمدون المواليد ويختارون لهم الأسماء ، ويسجلون المبايعات والعقود بين الناس . وليس بصحيح أن المسلمين خصصوا للنصارى أحياء خاصة يقيمون فيها كما يذهب بعض المؤرخين ، فليس لدينا دليل واحد على ذلك ، ثم هو ليس بمعقول ، وقد كانت عملية دخول النصارى في الإسلام على قدم وساق .

والآن وقد ألممنا بأحوال أهل الذمة من النصارى ، فلنمر سراعاً بتاريخ جالياتهم خلال عصر الولاة .

٢٣٢ ـ سياسة أمراء المسلمين تجاه أهل الذمة

كان عهد عبد العزيز بن موسى ـ ثاني عمال الأندلس المسلمين ـ عهد أمن وخير للنصارى الإسبان ، فقد كان الرجل سمحاً ليناً لا يميل إلى الشدة إلا في حيث لا يجد لنفسه محيصاً عنها ، وقد تزوج أيلونة Egilona زوج لذريق (فيما يقال) وسماها أم عاصم ، وكان بينه وبينها ود كريم كانت نتيجته وبالاً عليه ، لأنه أسرف في الانقياد لها وأحل أن يرضيها باتخاذ سمات ملوك القوط ، فأنكر العرب عليه ذلك وقتلوه(١) . ولم ينفرد عبد العزيز بن موسى بهذا الزواج بل فعل ذلك غيره من كبار العرب ، وقد ذكر لنا الرواة منهم زياد بن النابغة التميمي، مما يدل على أن حركة الامتزاج بين العرب والبربر والإسبان بدأت من زمن مبكر جداً ، وهذا طبيعي ، لأن المسلمين حينما دخلوا هذا البلد دخلوه رجالاً بغير نساء ، فلا بد أنهم اتخذوا نساءهم من أهل البلد ، أي أن الجيل الثاني من مسلمي إسبانيا كان هجيناً ، ولما كان ورود العرب إلى الأندلس قليلاً جداً نظراً لبعد المسافة ،

---

(١) ابن عبد الحكم ، ٢١٢ .
الأخبار المجموعة ، ص ٢٠ .

SIMONET, *op. cit.* p. 149.

فإن الدم العربي الصريح تلاشى في هذا القطر على عجل ، ولن نجد عند قيام الإمارة الأموية عربياً صريحاً إلا في النادر ، حتى عبد الرحمن الداخل نفسه كان هجيناً[1] ، إذ كانت أمه بربرية من نفزة ، وهذا في ذاته من غرائب المقادير : أن تكون أمه من المغرب ، وأن تقسم له الحظوظ سيادة الأندلس حيث كان الكثيرون من رعاياه هجناء من نفس الجنس . وقد أمن نصارى الإسبان في عهد عبد العزيز وبدأوا يطمئنون إلى حكامهم الجدد ، ويبالغ بعض مؤرخي الإسبان في التعليق على سياسة عبد العزيز ، فيذهبون إلى أنه مال الى النصرانية وأنه كان يفضل الإسبان على العرب ، ولكن هذه مبالغات لا يؤيدها نص ولا منطق ، وكل ما في الأمر أن دواعي الشدة قد انقضت وهدأت البلاد فلم يبق إلا اللين والمحاسنة ، وقد فعل ذلك غير عبد العزيز من فاتحي المسلمين كعمرو بن العاص في مصر[2] .

ولم يصادر المسلمون في ذلك العهد المبكر من كنائس أشبيلية ـ وكانت عاصمتهم إذ ذاك ـ إلا واحدة هي كنيسة القديسة رفينا Santa Ruffina وتسميها بعض المراجع كنيسة رُبينة ، ولم يأخذوها كلها بل جزءاً منها جعلوه مسجداً ، بقيت بعد ذلك كنائس كثيرة مثل « كنيسة الماء » وغيرها ، مما يدل على أن المسلمين لم يمسوا عقيدة الإسبان في كثير[3] .

٢٣٣ ـ بيوت فيها مسلمين ونصارى — وفي ذلك العهد المبكر وجدت أسر مختلطة فيها مسلمون ونصارى كبني المُنْذُ أخي غيطشة ، فقد كان حليفاً للمسلمين وتوفي عن ولدين وبنت ، فأما الولدان فهما أَبَّه (أو عباس) الذي قتل في واقعة كوفادونجا وأصبح الثاني مطراناً لأشبيلية ، وأما سارة فقد اختلفت مع عمها أرطباس فذهبت تشكوه إلى الخليفة هشام بن عبد الملك ،

---

(١) انظر عن ذلك :
JULIAN RIBERA, *Disertaciones y Opusculos* I, p. 4 - 15.

(٢) SIMONET, *op. cit.* p. 152.

(٣) SIMONET, *op. cit.* p. 151.

فأنصفها من عمها ورد عليها ضياعها وزوجها عربياً هو عيسى بن مزاحم « فقدم معها الأندلس وقبض ضياعها ، وهو جد ابن القوطية (المؤرخ) وولد له منها ولدان : إبراهيم وإسحاق ، ثم توفي عنها في العام الذي دخل فيه عبد الرحمن ابن معاوية الأندلس ، فتنافسها حيوة بن ملامس المذحجي وعُمير بن سعيد اللخمي ، فَعُني ثعلبة بن عبيد الجذامي بعمير بن سعيد عند عبد الرحمن بن معاوية ، فأنكحه إياها وولدت له حبيب بن عمير جد بني سيد (لعل صحتها سعيد) وبني حجاج وبني مسلمة وبني حجر الجرز . . » أي أن إسحاق وإبراهيم ابني عيسى بن مزاحم[1] المسلمين كان لهما خال نصراني هو مطران أشبيلية . ولا نزاع في أن مثل هذا حدث في أسر كثيرة ، ونحن إذ نشير إلى هذا إنما نضع أصبعنا على بدء حركة « ذوبان » العنصر العربي في العنصر الإيبيري ، هذا الذوبان الذي نتج عنه شعب إسبانيا الإسلامية حاملاً خصائص العرب والبربر والإسبان .

٢٣٤ ـ خلفاء عبد العزيز ابن موسى، وأهل الذمة

وتذهب المراجع النصرانية إلى أن خلفاء عبد العزيز وهم أيوب ابن حبيب اللخمي والحر بن يوسف والسمح بن مالك كانوا معادين لنصارى الأندلس حاملين على النصرانية ، وليس ذلك صحيحاً ، لأن ثلاثتهم أنفقوا خير أيامهم في الجهاد فيما وراء ألبرتات ، وربما يكونون قد عسفوا نصارى النواحي التي ذهبوا لفتحها ، فحسب الرهبان المؤرخون أنهم فعلوا بالإسبان مثل ذلك[2] ، وليس ذلك صحيحاً ولا نملك نصاً واحداً يشير إليه ولو عن طريق غير مباشر . بل الثابت أن كبار القساوسة كانوا نشيطين في ذلك العهد في تجديد الكنائس ، ويذكر إيزيدور الباجي أن فريدواريوس أسقف وادي آش Freduarios, Accitanae sedis Episcopus. وأربانس أسقف طليطلة Urdanus, Toletanae sedis urbis Regiae cathedralis عمرا كنيسة وادي آش في ذلك الحين واشتهر أمرهما وانجفل

---

(١) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٥ ـ ٦ .

(٢) SIMONET, *op. cit.* p. 156 - 157.

الناس إليها دون أن يتعرض المسلمون لهم في ذلك بشيء ، ويذكر سيمونيت ـ رغم تعصبه ـ أمثلة كثيرة تدل على أن النصرانية الإسبانية انتعشت بعد الفتح الإسلامي ـ كما حدث لنصرانية مصر ـ انتعاشاً ظاهراً[١] بعد دخولها في طاعة المسلمين أيضاً .

وكان سندريدو Sindredo مطران طليطلة قبيل أيام الفتح قد هجرها وفر حينما أقبل المسلمون[٢] ، وصالح نصارى البلد على أنفسهم بشروط خاصة احتفظوا فيها ببلدهم شبه مستقل : احتفظوا بحكومة محلية يقيمونها بأنفسهم ، واحتفظوا بمعظم كنائسهم وبرجال الدين الذين بقوا فيها بعد فرار المطران وبعض رجاله . فظل هذا البلد عامراً بالكنائس الكبيرة ، أعظمها كنيسة « جميع القديسين » Omnium Sanctorum ، وظلت الأديرة التي في أرباض البلد قائمة لم يمسها المسلمون بأذى كبير ، وإن كانوا قد استولوا على الكثير من ذخائرها كمذبح كنيسة طليطلة الكبيرة المشهور في النصوص العربية بمائدة سليمان .

أما الكنيسة الجامعة السابقة ، وهي كنيسة القديسة مريم (سانتا ماريا) التي كانت معتبرة قبل ذلك قاعدة المسيحية الكبرى في إسبانيا فقد حولها المسلمون الى مسجد جامع ، وانتقل مركز المطرانية إلى كنيسة أخرى كبيرة تسمى كنيسة القديسة ماريا دي ألفيثين Santa Maria de Alficen ، وقد نقل النصارى إلى هذه الكنيسة أوراقهم ووثائقهم وكل ما كان في الكنيسة القديمة من الذخائر ، وظلت على ذلك طوال العصور العربية[٣] .

وكان العرب قد أقاموا حليفهم أبه (عباس)[٤] مطراناً للبلاد خلفاً

---

(١) SIMONET, *op. cit.* p. 160 - 162.

(٢) التاريخ المنسوب لإيزيدور الباجي ، فقرة ٣٥ .
SIMONET, *op. cit.* p. 163.

(٣) SIMONET, *op. cit.* p. 166.

(٤) هكذا كتب ابن القوطية اسمه ، انظر ص ٤ .

لسندريدو ، ولكن أهل البلد لم يرضوا به وتركوه في مطرانيته ، وأقاموا لأنفسهم مطراناً آخر يسمى أوربانو Urbano وكان قبل ذلك مرتلاً في الكنيسة ، ولم يعترض المسلمون على ذلك .

٢٣٥ ـ ثورة أكويلا واستسلامه

وكان المسلمون بعد أن فرغوا من تثبيت أمرهم في البلاد وإخضاع مراكز المقاومة فيها ، قد مضوا في احتلال بقية النواحي التي كانت قد تركت على حالها لانعدام المقاومة فيها . مثال ذلك أن طركونة وإقليمها تم احتلالها على يد الحر بن يوسف ، وكانت طركونة عاصمة ولاية إسبانيا الطركونية ، وكانت فيها كنيسة جامعة على رأسها مطران ، وكان يقيم فيها أحد أبناء غيطشة المسمى أكويلا Aquila ، فحسب أن العرب يتركون هذه الناحية له كما ظن غيره من آل غيطشة أن العرب يتركون البلاد لهم ، فلما استبان أن العرب مقيمون في البلاد وأنه لن يصل إلى العرش على أيديهم حاول الوثوب بهم في طركونة ، فسار إليه السمح وأخضع البلد وأنزل به شيئاً من التخريب . فلما قُتل السمح بعد ذلك في وقعة طولوشة حاول أكويلا الثورة من جديد . ولكن عنبسة بن سحيم قضى على حركته ونهب البلد نهباً ذريعاً ، واستسلم أكويلا وانتقل إلى طليطلة فأقام فيها ، ولم يحاول الثورة بعد ذلك ، وقد استعرب أبناؤه من بعده وحفظت لنا النصوص اسم أحد أحفاده وهو حفص بن أَلْبَرُّ Alvaro قاضي العجم[1].

٢٣٦ ـ نصارى الأندلس يحجون إلى بيت المقدس

ومن طريف ما يلاحظ أن نصارى الإسبان انتهزوا فرصة دخولهم في طاعة الدولة الإسلامية لكي يذهبوا إلى بيت المقدس للحج ، ويذكر لنا الرواة النصارى قصة قس يسمى القديس ڤيليبالدو San Willibaldo ذهب للحج إلى الأراضي المقدسة ، ووصل إلى الرُّها ليزور كنيسة القديس توماس فيها ، فاشتبه عامل البلد العربي في أمره وسجنه ، ثم أطلق سراحه حينما استبان أنه من أهل الذمة في

(١) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٥ .
سيمونيت ، ص ١٧٠ ـ ١٧١ .

الأندلس ، ويبدو أن هذا الحادث أخاف ڤيليبالدو فلم يعد إلى بلده وإنما إلى دير موت كاسينو في إيطاليا ، ومنها انتقل إلى روما سنة ٧٤١ حيث أقامه رجال الكنيسة أسقفاً لمدينة أيخشتات في المانيا[1]. ولكن يبدو أن عدد هؤلاء الحجاج النصارى لم يكن كبيراً .

٢٣٧ - عبد الرحمن الغافقي وأهل الذمة

وتجمع المراجع النصرانية على أن نصارى الأندلس لقوا أذى كبيراً على يد عبد الرحمن الغافقي وعبد الملك بن قطن ، ولا نملك من النصوص العربية ما يؤيد هذا أو ينفيه وإن كانت الدلائل كلها تدل على أن عبد الرحمن اشتد مع نصارى الركن الشمالي الشرقي من شبه الجزيرة بسبب احتماء مونوسة بهم ، وكان بطبعه رجلاً عسكرياً عنيفاً ومسلماً متفانياً لا يكاد يحفل لغير الإسلام والمسلمين . ويؤكد إيزيدور الباجي أن عبد الملك بن قطن عسف النصارى عسفاً شديداً في ولايته الأولى[2] .

٢٣٨ - موقف عبد الملك ابن قطن من أهل الذمة

وقد أراد عبد الملك أن يعتدي على تدمير صاحب ناحية مرسية الذي عقد العرب معه الصلح المعروف على يد عبد العزيز بن موسى ، ووضع ابن قطن يده على بعض أراضيه ، فلم يسع تدمير إلا الرحيل إلى المشرق حيث لقي هشام بن عبد الملك وشكا إليه عامله عبد الملك بن قطن ، فأحسن هشام لقاءه وأكد له شروط الصلح الذي عقده عبد العزيز بن موسى وأقره أخوه سليمان بن عبد الملك ، وانتهز تدمير الفرصة واتصل بنصارى الشام حيث لقي منهم إكراماً عظيماً ، ثم عاد إلى بلاده حيث أقام في إقليمه آمناً حتى توفي سنة ٧٤٣ م[3] .

---

(١) SIMONET, *op. cit.* I. 175.

(٢) الأخبار المجموعة ، ص ١٤٩ .
سيمونيت ، ص ١٨٣ .

(٣) الأخبار المجموعة ، ص ١٤٩ .
سيمونيت ، ص ١٨٣ .

٢٣٩ ـ المسلمون ونصارى قلمرية ـ وكان المسلمون حينما فتحوا نواحي الغرب قد قبلوا من أهل قلمرية Conimbria صلحهم وأقروا البلد على حاله ، وأقام عبد العزيز بن موسى عليه حاكماً عربياً تسميه وثيقة لاتينية Alboacem ibn Mahamat Alhamar ibn Tarif وربما كانت صحة الاسم العربي أبا عاصم بن محمد الأحمر بن طريف ـ في سنة ٧١٦ م . وكانت المدينة إذ ذاك عامرة وبها كنيسة كبيرة ، فأقام أبو عاصم على عجم البلد قومساً يسمى آيدولفو Aidulfo ، فلما مات خلفه ابنه أتاناجيلدو Atanagildo وأعقبه ابنه تيودوس Theodus ، وأقام على الأسقفية قساً يسمى لوربان Lorban . واستمر أمر البلد على هذا الحال من الاستقلال تحت السيادة الاسلامية العليا حتى سقطت في يد النصارى سنة ١٠٥٨ ميلادية ، وحول هذا البلد تكونت فيها بعد إمارة البرتغال وحلت محل ولاية لشدانية (لوزيتانيا) الرومانية ، وإنما أشرنا إلى ذلك لنضع أيدينا على أوائل احتلال المسلمين للبرتغال وحكمهم إياها . وقد أحسن أبو عاصم معاملة نصارى ناحيته وارتبط مع أهلها بأواصر الود وصار يخرج للصيد ـ وكان مولعاً به ـ معهم ، وكان يوقر الرهبان ويقربهم ، وتذهب الوثيقة التي أشرنا إليها إلى أنه ألزم نصارى قلمرية بأن يدفعوا جزية مقدارها ضعف ما كان يدفعه المسلمون النازلون فيها، وجعل على كل كنيسة جزية قدرها خمسة وعشرون مثقالاً Pesanta من الفضة، وعلى كل أسقفية مائة مثقال وعلى كل دير خمسين مثقالاً ، واستثنى من ذلك دير لوربان فقد أعفاه من كل شيء ، لأن رئيسه كان حليفاً للمسلمين[1] ، وترك رهبانه أحراراً . وتذكر المراجع حاكماً مسلماً آخر لقلمرية في هذه الفترة يسمى مروان بن موسى ، حكمها بعد أبي عاصم وسار على طريقته في التودد إلى الأهلين والإحسان إليهم والولع بالصيد .

٢٤٠ ـ عقبة ابن الحجاج وأهل الذمة ـ وتختلف المراجع فيما بينها على موقف عقبة بن الحجاج السلولي من النصارى وحالهم في أيامه ، فأما القطعة الإسبانية التي بين أيدينا من تاريخ الرازي فتقول في حوادث سنة ٧٣٤ م : « وقد

(١) SIMONET, *op. cit.* p. 182.

وضع عقبة هذا أموره كلها في أيدي النصارى ، فأراحوه وأعانوه ، وكانوا معه بالليل والنهار »[1] . وأما إيزيدور الباجي فيقول عنه إنه « راك البلاد روكاً جديداً وأحصى كل ما فيها ، وطالب النصارى بأن يؤدوا ما عليهم بأشد ألوان العنف ، ولم يغادر أي وسيلة تمكنه من ملء خزانة الدولة بالمال من أي طريق »[2] . ولكنه يقرر في نفس الوقت أن عقبة لم يختص النصارى وحدهم بهذه الشدة ، بل عامل بها المسلمين كذلك ، أي أنه اشتد على الناس أجمعين . والواقع أن عقبة كان رجلاً حازماً شديد الحرص على حقوق الدولة ، دائم المواظبة على القيام بواجباته . وقد روينا أخبار اجتهاده في محاربة النصارى في الشمال وفي غالة ، وكان إلى ذلك مولى بعيداً عن نزعة العصبية العربية ، فلا يبعد أن يكون قد قرب أهل البلاد وسوى بينهم وبين العرب في المعاملة ، وبهذا تصدق الروايتان وتضيفان شيئاً جديداً هاماً عن عقبة بن الحجاج وحكمه في الأندلس .

وتذكر الروايات النصرانية أن الراهبين الأخوين ڤوتو Voto وفيلكس Felix أنشآ في عهد عقبة دير سان خوان دي لاپينيا San Juan de la Pena في لحف جبل أورويل Oruel في أقصى الشمال ، وقد ازدهر هذا الدير فيما بعد وكان له أثر بعيد في التاريخ الأندلسي بعد ذلك بثلاثة قرون : إذ اتخذه أنيجو خيمينيث Inigo Jiménez المعروف باسم أريستا Arista وكراً وعاصمة لإمارة بنبلونة التي أنشأها وكان لها دور عظيم فيها بعد في حركة الاسترداد ، وقد أصبح اسم هذه الإمارة حينما اتسعت بعض الشيء مملكة شُبُرْب El Reino de Sobrarbe ودخلت بعد ذلك في مملكة نبرة . وكان الأخوان ڤوتو وفيلكس من أغنياء النصارى في سرقسطة ، فلما رأيا تكاثر المسلمين في هذه الناحية وانتشار الإسلام بين أهلها باعا ممتلكاتهما وفرقاها على الفقراء ومضيا إلى جبل أورويل حيث أنشآ دير پينيا هذا ، مما يدلنا على أن المسلمين حينما نزلوا هذه الناحية لم

---

(١) SIMONET, *op. cit.* p. 184 - 185.

(٢) إيزيدور ، فقرة ٦١ .

يستولوا على ما بيد أهلها النصارى من الأملاك ، بل تركوهم على حالهم ، وكانت سرقسطة قد صالحت عن نفسها بشروط طية ضمنت لأهلها الحرية في كل شيء ، وقصة هذين الأخوين ترينا كيف كانت عناصر المقاومة النصرانية تتكون في بطء منذ أوائل أيام الحكم الاسلامي ، وتدل كذلك على أن المسلمين تركوا النصارى من أهل البلاد أحراراً في إنشاء ما يريدون من الأديرة(١) .

فلما وقعت الثورة البربرية أثناء ولاية عبد الملك بن قطن واشتدت المجاعة في الأندلس ، أخذ بعض النصارى الإسبان يهاجرون الى نواحي الشمال القاصية : إلى أشتريس وكنتبرية ، ويبدو أن أعداد هؤلاء المهاجرين لم تكن كثيرة ، لأن مراجعنا العربية لا تشير إليها(٢) .

وقد عرفنا فيما سبق أن أبا الخطار فرق الشآميين وأنزلهم في بعض كور الأندلس « وكان إنزالهم على أموال أهل الذمة من العجم »(٣) ، « وجعل لهم ثلث أموال أهل الذمة طعمة » . وقد حاول سيمونيت أن يفسر هاتين العبارتين بأن أبا الخطار فرض على النصارى الإسبان الذين أنزل العرب في كورهم ضريبة جديدة مقدارها ثلث أموالهم ، وهو تفسير خاطىء ، إذ لم يزد على أهل الذمة شيء جديد ؛ وإنما أخذ الشآميون ثلث الجباية ، ومن هنا لا محل لما يذهب إليه سيمونيت من القول بأن حال أهل الذمة ساء في أيام أبي الخطار بسبب هذه الزيادة المزعومة .

بيد أن أبا الخطار أخطأ في إنزال بعض الشآميين في نواحي تدمير التي ضمن العرب سلامتها بصلح أوريولة الذي عقده تدمير مع عبد العزيز بن موسى ثم

---

(١) SIMONET, *op. cit.* p. 190 - 191.

(٢) SIMONET, *op. cit.* p. 193.
إيزيدور فقرة ٦٣ ـ ٦٦ .

(٣) ابن القوطية ، ص ٢٠ .
ابن عذارى : البيان ، جـ ٢ ، ص ٣٤ .
فتح الأندلس ، ص ٣٦ ـ ٣٧ .

عـاد هشام بن عبـد الملك فأكـده . وكـان صـاحب تـدمـير إذ ذاك أتـانـاجيلدو Atanagildo الذي خلف أباه تدمير سنة ٧٤٣ م ، فلم يكد يسمـع بتصرف أبي الخطار حتى اعترض عليه وأعلن أن ذلك يخالف نصوص معاهدة أوريـولة ، وكانت العلاقات بين أتاناجيلدو والنازلين في أرضـه من البلديين طيبـة ، فنهضوا ينصحون أبا الخطار بالعدول عن ذلك ، فغضب أبو الخطار ، وأراد عقاب أتانـا جيلدو ، ففرض عليه غرامة قـدرها سبعـة وعشرون ألف قـطعة من الـذهب ، وسبه وأهانه ، فمضى أتاناجيلدو يتحبب إلى جند مصر من الشآمين الذين كانوا بأرضه ، واجتذبهم بإحسانه ، فتوسطوا لـه عند أبي الخـطار ، وما زالـوا به حتى أسقط الغـرامة ورد عـلى الرجـل اعتباره واحتـرم حقوقـه(١) . وإنما ذكـرنا هـذه الحكـاية لكي نستـدل منها عـلى علائق من الـود كانت قـد تأصلت بـين العرب النـازلين في الأريـاف وأهلها من النصـارى الإسبان ، فهـذا أتانـاجيلدو يعـاونـه البلديون والشآميون على رفع الظلم عنه ، وسنرى في تاريخ كبـير نصراني آخـر ـ هو أرطباس ـ أمثلة أخرى كثيرة تؤيد ذلك .

ويـذهب الأصطخري إلى أن المسلمين وضعـوا يدهم عـلى نصف كنيسة قـرطبة الجـامعة (١٣١ هـ / ٧٤٨ م) أي في هـذه الفترة التي نتحـدث عنهـا . ذلـك أنهم كانـوا قد عـاهدوا أهـل قرطبـة على أول الفتـح بأن يـدعوا لهم هـذه الكنيسـة الجامعـة المعروفـة بكنيسة القـديس بجنت أوبـزنت (Sanctus Vicen-tius (San Vicente وأقاموا لأنفسهم مساجد صغيـرة . فلما نقلوا مركـز الدولـة إلى قرطبـة وكثر المسلمون فيها وفي أرباضها ، ضاقت بهم هذه المساجد الصغيرة واحتاجوا إلى مسجد جامع ، فقاسمـوا النصارى كنيستهم الجـامعة كـما فعلوا في دمشق والرها ، « فشاطر المسلمون أعاجم قرطبة في كنيستهم العظمى التي كانت بداخلها ، وابتنى المسلمون في ذلك الشطر مسجداً جـامعاً ، وبقي الشـطر الثاني بأيدي الروم وهدمت عليهم سائر الكنائس »(٢) . ويذهب مؤرخونا إلى أن ذلك

---

(١) SIMONET, *op. cit.* p. 199 - 200.

(٢) ابن عذارى : بيان ، جـ ١ ص ١٤٤ .

تم على أول زمان الفتح ، والواقع غير ذلك ، لأن الثابت من صلح قرطبة مع المسلمين أن هؤلاء تركوا للنصارى كنيسة سان بجنت الجامعة ، ولدينا نص من الأخبار المجموعة يدل على أنها كانت لا تزال كنيسة في سنة ١٣٠ هـ / ٧٤٧ م[1] ، وللرازي رواية تدل على أن ذلك حدث في ولاية أبي الخطار ، وبعد سنة ١٣٠ هـ / ٧٤٧ م على الأغلب[2] .

٢٤١ - أرطباس وفي هذه الفترة تظهر شخصية أرطباس Ardabast زعيم عجم الذمة وابن غيطشة إلى جانب كبار الشخصيات العربية في أيام أبي الخطار ومن جاء بعده . ويبدو لنا أرطباس رجلاً مهذباً حسن التصرف واسع الحيلة ، ينصح عمال الأندلس في شؤون سياسة بلاده ويعامل زعماء العرب بكياسة تدعو إلى الإعجاب. ومن أمثلة ذلك رواية ابن القوطية التي أتينا بطرف منها ، وهي رواية تدل على حسن تصرفه وتلقي ضوءاً على أسلوب حياة العرب والإسبان والنصارى في ذلك العصر ، وقد ذكرنا فيما سبق فقرة منها ولا بأس من إيرادها على تواليها هنا ، يقول : « وحكى الشيخ ابن لبابة رحمه الله عمن أدركه من الشيوخ أن أرطباس كان من عقلاء الرجال في أمر دنياه ، وأنه دخل عليه عشرة من الشآميين فيهم أبو عثمان وعبد الله بن خالد وأبو عبدة ويوسف بن بخت والصميل بن حاتم ، فسلموا وجلسوا على الكرسي المحيطة بكرسيه . فلما أخذوا مقاعدهم ، وحيا بعضهم بعضاً ، دخل ميمون العابد جد بني حزم البوابين ، وهو أحد الموالي الشآميين ، فلما رآه أرطباس داخلاً قام إليه والتزمه وجعل يقوده إلى كرسيه الذي قام منه ، وكان مصمَّداً بالذهب والفضة ، فأبى الرجل الصالح من الجلوس عليه ، وقال له : لا يحل لي هذا ، فجلس على الأرض وجلس معه ، ثم قال له : ما جاء بمثلك إلى مثلي ؟ فقال ميمون : قدمنا

= ابن بطوطة : رحلة ، ص ١٩٨ .
ابن جبير : رحلة ، ص ٢٦٣ .

(١) الأخبار المجموعة : ص ٦١ .

(٢) المقري : نفح ، جـ ١ ، ص ٣٦٨ .

إلى هـذا البلد وظننا أن ثـوانا لا يـطول فيه ، ولـم نستعد للمقـام ، فحدث من الاضطراب على موالينا بالمشرق ، ما نتوهم به أنا لا نعود إلى موضعنا معه ، وقد وسع الله عليك ، فأريد أن تعطيني ضيعة من ضياعك أعتمرها بيـدي ، وأؤدي إليك الحق منها وآخذ الحق . فقال له أرطباس : لا والله مـا أرضى أن أعطيـك ضيعة مناصفة ، ودعا بـوكيل لـه فقال لـه : ادفع إليـه المجشر الذي عـلى وادي شوس وما فيه من الغنم والبقر والعبيد ، وادفع إليه القلعة بجيان ، وهي القلعة المعروفة بقلعة حزم ، ملكها [بياض] فشكر وقام ، وعاد أرطباس إلى مقعده ، فقال له الصميل . يا أرطباس ! ما يعجـزك من سلطان أبيك إلا نفـاد الطيبـة ! أدخـل عليك ، وأنـا سيد العـرب بالأنـدلس ، ويدخـل أصحابي هؤلاء معي ، وهم سادات الموالي بالأندلس ، فلا تزيدنا من الكرامة على القعود على العيدان ! ويدخل هذا السوّال، فتصير من إكرامه إلى حيث صرت! فقـال له أرطبـاس: يا أبا جوشن ! أهل ديانتك يخبروننا أن أدبهم لم يأخذك ! ولو أخذك لم تنكر عليَّ برَّ من بررت ، وكـان الصميـــل أمياً لا يقـرأ ولا يكتب : إنكم أكـرمكم الله ، [وأنتم] إنما تكرمونه عز وجل [إذا أكرمتم الصالحين] . وقد روينا عن المسيح صلى الله عليه وسلم أنه قال : من أكـرم الله من عباده وجبت كـرامته عـلى جميع خلقه ، فكأنما ألقمه حجراً . فقال لـه القوم : دع هـذا وانظر فيـما قصدنـا له ، حـاجتنا وحـاجة الـرجل الـذي قصدك وأكـرمته واحـدة ، فقال : أنتم ملوك ، وليس يـرضيكم إلا الكثير ، فـوهبهم مائـة ضيعة ، صـار منهـا لكـل منهم عشر ضياع ؛ منها طُرُش لأبي عثمان ، والفنتين لعبد الله بن خالد ، وعقـدة الزيتـون بـالمدور للصميـل بن حاتم » ؛ وهي حكـاية حـافلة بكل مـا يعيننا عـلى تصـور العلاقات بين العرب ونصارى الإسبان في ذلك العصر[1] .

ولم يكن أرطباس رجلاً كريماً كيساً في كل حال ، بل ذكر المؤرخون ما يدل على جشعه وطمعه ، فقد انتهز فرصة وفاة أخيه المُنْذ وتركه ابنة واحدة هي سارة

---

(١) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٤٠ .
وقد حرف سيمونيت هذه العبارة عند ترجمتها ، انظر ص ٢٠٥ .

وابنين صغيرين ووضع يده على أملاكهم وكانت ألف ضيعة ، فذهبت سارة إلى المشرق ، وعادت منه وقد حكم لها هشام باسترداد ضياعها ، وزوجها عيسى بن مزاحم[1] . وكان أرطباس يتخذ هيئة الأمراء فيجلس على كرسي مصَمَّد بالذهب والفضة كما رأينا في الفقرة السابقة ، ويضرب لنفسه قبة عظيمة إذا خرج مع الأمير « وحولها من الهدايا غير قليل ، إذ كانت الهدايا تتلقاه في كل محلة من ضياعه . فنفس عليه الأمير [عبد الرحمن بن معاوية] . . . »[2] .

٢٤٢ ـ المطران سيشيليا وتدل الدلائل كلها على أن النصارى لم يصبهم شيء من الأذى أثناء الحروب العنيفة التي دارت بين العرب ، بين أبي الخطار والصميل ، فقد ازدهر أمر مطرانية طليطلة ورأسها حبر جليل ضليع له صيت في الحوليات النصرانية وهو سشيليا Cixilia ، كان دائم الحرص على سلامة العقيدة النصرانية ، حتى لقد كان يشتد مع أصحاب المذاهب الخارجة على الكاثوليكية ، وكان يعمر ما يهي من الكنائس ، وكتب النصارى في امتداحه القصائد اللاتينية[3] .

ومن دلائل الحرية التي كان النصارى يتمتعون بها في هذه الفترة تمكنهم من نقل الكثير من الأشياء المقدسة التي انتثرت من الكنائس التي تهدمت إلى كنيسة أبيط الجامعة ، حتى لقد عمرت هذه الكنيسة لهذا العهد وانتقلت من بيعة صغيرة إلى كنيسة كبيرة عامرة ، ولم يتعرض المسلمون للنصارى في شيء من ذلك ، مما يدل على أنهم تمتعوا بحرية كاملة في كل ما يتصل بأمورهم الدينية[4] .

ويذكر ابن حيان في عداد الثوار الذين خرجوا على يوسف الفهري رجلاً

---

(١) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٤ ـ ٥ .

(٢) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٣٦ ـ ٣٧ .

(٣) SIMONET, *op. cit.* p. 207.

ويكتب اسمه في النصوص بصور مختلفة : Zixilanus, Cixilanus, Cigilia .

(٤) SIMONET, *op. cit.* p. 211 - 212.

يسمى عروة بن الوليد ، ثار في مدينة باجة في أهل الذمة وغيرهم فملك أشبيلية وكثر جمعه ، إلى أن خرج عليه يوسف فقتله »[١] ولم يذكر لنا ابن حيان شيئاً نتعرف منه شخصية الوليد هذا ، ولكن الغالب أنه لم يكن نصرانياً مستعرباً ، وإنما عربياً جمع نفراً من العرب وأهل الذمة وثار بهم في هذه الناحية .

وربما كان دافع هؤلاء النصارى إلى الاستجابة لدعوة رجل كالوليد هو الزيادة التي فرضها يوسف على أهل الذمة ، ذلك أن الجباية نقصت بسبب هلاك الكثيرين من النصارى أو فرارهم من أرضهم نتيجة للحروب العنيفة التي دارت بين العرب أيام يوسف ، فطالب يوسف الباقين منهم بأداء المبالغ التي كانت قد تقررت عليهم في اتفاقات الصلح ، فنقل ذلك على أفرادهم وترددت شكواهم منها[٢] .

٢٤٣ - النصارى يعمرون بعض البلاد الخالية

وحينما ازدادت الحروب بين العرب حدة ، وضربت المجاعة بجرانها على الأندلس بين سنتي ١٣٣ و ١٣٨ هـ / ٧٥٠ - ٧٥٥ م ، وعادت جماعات البربر التي كانت تعمر النواحي الشمالية الغربية من شبه الجزيرة واستولى أذفونش الأول على الكثير منها ، كثرت هجرة النصارى من البلاد التي كانت خاضعة لحكم المسلمين إلى هذه النواحي الخالية الفاصلة بين دار الإسلام وبلاد مملكة ليون ، فيما بين نهري تاجة ودويره لتعميرها ، فعمرت لُك وليون وسلمنقة وأبلة وأوكا وشقوبية وأمايا ، وقد كان المهاجرون إلى هذه النواحي من كل طبقات النصارى : أشرافاً وغير أشراف Tam nobiles quam ignobilis . وعمرت لُك بالنصارى وقام على تعمير كنيستها حبر كبير هو أدواريوس (Odoario في النصوص الإسبانية) وكان قد فر منها حينما دخلها العرب ، فعاد إليها مع أذفونش الأول واستقر فيها ومضى يقيم شعائر النصرانية فيها من جديد وجعلها أسقفية عامرة ، واتخذ لقب مطران .

---

(١) المقري : نفح ، جـ ٢ ، ص ١٣ .

(٢) SIMONET, *op. cit.* p. 217.

٢٤٤ ـ تعمير شقوبية

وكذلك عمرت شقوبية بعد أن كان الكثيرون من أهلها قد تركوها وهربوا إلى الجبال على أوائل أيام الفتح ، ولكن معظم الهاربين عادوا بعد أن صالح الباقون منهم على أنفسهم بصلح طيب ضمن لهم حرية تامة في كل شيء لقاء دفع جزية مقررة ، وكانت المدينة قبل الفتح عامرة بالكنائس الكبيرة ، مثل سانتا ماريا دلوس هويرتوس Santa Maria de los Huertos وسان ڤيسنت San Vicente ولاترينيداد La Trinidad وسان خيل San Gil وسان أنطون San Anton وكلها قديمة ترجع إلى ما قبل عصر ريكاريدو[١] . وقد اطمأن النصارى في بلدهم هذا بعد أن تأكدوا أن العرب لن يصيبوهم بضرر ، فمضوا يقيمون كنائس جديدة أهمها سان ماركوس San Marcos وسان بلاس San Blas وشنت ياقب Santiago . وكان العرب ينزلون كثيراً بهذه المدينة في غزواتهم نحو الشمال ، ثم تخوفوا من كثرة النصارى فيها ، فأخرجوا الكثير منهم إلى الأودية المحيطة بها لكي يجعلوا البلد ثغراً . ويبدو أن مقامهم بها لم يطل ، لأنهم لم يخلفوا فيها إلا أثراً قليلاً جداً ، ولم يرد لها ذكر كثير في التواريخ الإسلامية ، وقد احتفظت لنا الروايات النصرانية بأسماء ثلاثة من أحبار هذا البلد لقبوا بالمستعربين الثلاثة Los tres santos mozarabes كانوا على جانب عظيم من الزهد والصلاح ، حتى لقد فرقوا أملاكهم في الفقراء وخرجوا إلى بادية عند مصب نهر الدوراتون El Rio Duraton وخف إليهم الناس وعمرت بهم هذه الناحية القاحلة من برديل Bardulia ، وهكذا نلاحظ أن الفتح الإسلامي أدى ـ بطريق غير مباشر ـ إلى تعمير الكثير من نواحي الأندلس الخالية ، وكانت هذه الناحية من أعمر نواحي برديل حينما تكونت فيها إمارة قشتالة خلال القرن التاسع الميلادي[٢] .

وعندما اشتد ساعد الإسلام وانتظمت أموره في خلال الدولة الأموية استعاد المسلمون المنطقة الواقعة بين نهري التاجة ودويرة ، ووضعوا أيديهم على

---

(١) SIMONET, *op. cit.* p. 223.

(٢) IBID, p. 226.

كبار مدائنها مثل أبله وشقوبية . وقد ثبتت حدود الإسلام فيما بعد عند خط في منتصف المسافة بين الدويرة وتاجة ، فبينما كانت أبله وشقوبية من بلادهم نجد شلمنقه خارجة عنها . ولم يحاول المسلمون الوصول إلى نهر الدويرة والثبات عنده بصورة دائمة .

٢٤٥ - ميلاد إمارات شبرب وأرغون ونبرة

وفي خلال السنوات الأخيرة من فترة الولاة تقلص سلطان المسلمين عن كثير من نواحي الشمال الشرقي القاصية في جهة البشكنس Vasconia كما تقلص ظلهم من ناحية الشمال الغربي على مارونيا ، وإلى هذه الفترة يرجع ميلاد إمارات شبرب Sobrarbe وأرغون Aragon ونبرة Navarra في ناحية البشكنس وجبال البرت ، وكانت هذه الناحية قبيل دخول العرب البلاد مقسمة إلى ثلاث مقاطعات صغيرة هي Calagurri (قلهرة) في الجنوب و Exea de los la bal- (leros (Segia في الشمال الشرقي و Pamplona (بنبلونة) في الشمال[١] . وكلها واقعة في سهل ريوخة Rioja . وكانت قلهرة مركز أسقفية عامرة ، فلما افتتحها العرب هرب كبار رجال الدين فيها إلى غالة أو إلى جليقية ، وأقام بعضهم في أبيط (Oviedo) .

وفي هذه السنوات أيضاً عاش ذلك الراهب الذي كتب الحوليات التي نسبت زماناً طويلاً إلى إيزيدور الباجي Isidorus Pacensus ، إذ حسب الناس أنه كان أسقفاً لباجة (Pax - Julia) في البرتغال الحالية . وقد ثبت بعد أبحاث طويلة أن هذه الحوليات لم تكتب في باجة وإنما في طليطلة ، ولم يكتبها إيزيدور ولكن راهب غير معروف . وهذه الحوليات تاريخ طيب جداً لأحداث الأندلس في هذه الفترة ، ولأحداث الخلافة الأموية المشرقية كذلك . مما يدل على أن نصارى تلك الأيام كانوا يعرفون الكثير عن أحوال المسلمين عامة وتاريخهم كذلك[٢] .

(١) IBID, p. 227.

(٢) SIMONET, *op. cit.* p. 231.

٢٤٦ ـ اليهود في إسبانيا قبل الفتح

أشرنا في الفصل الأول من هذا الكتاب إلى سياسة القوط حيال اليهود ، وبينا كيف كانت هذه السياسة بعيدة الأثر في موقفهم من الدولة القوطية جملة ، وفي موقفهم من العرب الفاتحين .

وعلينا الآن أن ندرس موقف المسلمين منهم بعد الفتح ، وأن نرى كيف كان دخول المسلمين خيراً عليهم ، وسنرى في غضون الكلام كيف كان موقف المسلمين حاسماً في تاريخ اليهود جملة ، وأن المسلمين لو واصلوا سياسة القوط والكنيسة الطليطلية من اليهود لما كان لهم اليوم شأن في الوجود .

كان موقف الدولة الرومانية من اليهود موقف عداء واضطهاد ، وما زال ذلك العداء يشتد حتى قضى الرومان على دولة اليهود في فلسطين وخربوا بيت المقدس وهدموا معبد سليمان سنة ٧٠ ميلادية ، فتفرق اليهود في نواحي الأرض . وبلغ من كراهة الرومان لليهود أنهم حسبوا أول الأمر أن النصارى يهود ، وإلى هذا الظن الخاطىء يرجع السبب في الاضطهادات الأولى التي لقيتها النصرانية من الرومان .

وقد ورثت الكنيسة المسيحية عن الدولة الرومانية هذه الكراهة وفي تلك العصور الأولى من تاريخ المسيحية كانت جرائم اليهود حيال المسيح وأصحابه ماثلة أمام المسيحيين جميعاً ، فحرص المسيحيون على تتبع اليهود طلباً للثأر . وقد كان هذا التتبع هادئاً غير ملحوظ في المشرق ، وأما في الغرب ، فقد ثابرت كنيسة روما على تتبع اليهود وتشريدهم ، فهربوا إلى النواحي التي كان سلطان هذه الكنيسة فيها ضعيفاً ، هربوا إلى إسبانيا والشمال الإفريقي وبلاد الشرق ، وربما أوغل نفر منهم في بلاد الجرمان حتى أدركوا سواحل البلطيق ، وفي بلاد الصقالبة حتى الفولجا وشواطىء البحر الأسود .

٢٤٧ ـ اضطهاد القوط لليهود

وقد كثرت جماعاتهم في إسبانيا حتى أننا لنجد مدناً كاملة يعمرها اليهود في أواخر العصر القوطي ، ومن تلك المدن اليُسانة

Lucena وإلبيرة Ileberis من مدن الجنوب . وعندما وصل رجال الدين إلى السلطان على عهد ريكاريدو ، بدأت المجامع الطليطلية تضيق الخناق عليهم ، فأصدر المجمع الطليطلي الثالث قراراً بضرورة تعميد الأولاد الذين يولدون من زيجات يهودية نصرانية ، ثم أصدر ششبوتو سنة ٦١٣ قراراً يخير اليهود بين التنصر أو الهجرة من البلاد . وقد عارض القديس إيزيدورو هذا القرار ، وأيد مجمع طليطلة الرابع قرار ششبوتو فاضطر الكثيرون من اليهود إلى الهجرة وتظاهر بعضهم الآخر باعتناق المسيحية ، وهؤلاء هم الذين يسمون باليهود المستترين Judaizantes . وقد ضاق القوط بهم ذرعاً فقرر المجمع الطليطلي الثامن ضرورة تعميدهم من جديد ، وامتحان نصرانيتهم بتقديم لحم الخنزير إليهم ليأكلوا منه . ثم حرمت إقامة الشعائر الدينية اليهودية ، وصودر ربع أملاك من ظلوا على اليهودية ، وصبت لعنة الكنيسة على المسيحيين الذين يعاونون اليهود على إقامة شعائرهم ، وقد تتبع القوط اليهود حتى طردوهم من أربونة .

وبلغ هذا التعقب مداه على أيام الملك إيرفيج حيث قرر المجمع الطليطلي الثامن عشر إرغام اليهود جميعاً على التنصر أو مبارحة البلاد في مدى عام ، فكانت النتيجة أن زاد عدد اليهود المسترين . وبدأ اليهود يتحركون سراً للقضاء على الدولة القوطية ، وأحس القوط بما كانوا يدبرون ، فقرر المجمع الطليطلي السادس على أيام أخيكا اعتبار اليهود جميعاً رقيقاً وتوزيعهم على المسيحيين ، وحرم على هؤلاء الأخيرين عتقهم ، وتقرر فصل أولادهم عنهم ، وتنصير الأولاد وتربيتهم تربية مسيحية ، واستثنى من ذلك يهود سبتمانية(١).

وقد حاول أخيكا أن يخفف الوطأة عن اليهود ، فأزال عنهم بعض ما كانوا يلقونه من إرهاق ، ولم يكد اليهود يتنفسون الصعداء حتى بدأوا يكيدون للقوط ، ونمي إلى أخيكا أنهم يتصلون بأبناء عمومتهم في المغرب ويحاولون إغراء العرب بفتح إسبانيا ، فانقلب عليهم ، وأصدر المجمع الطليطلي السابع عشر

(١) MANUEL TORRES y PEDETO PRIETO BANCES, *op. cit.* III, p. 180 - 183.

قراراً في سنة ٦٩٤ بالعودة إلى الاضطهاد السابق . وليس لدينا - من مراجعنا العربية - دليل على اتصال اليهود بالعرب وتحريضهم إياهم على المسير إلى إسبانيا ، وإن كنا لا نستبعده ، لأننا سنجد اليهود إلى جانب العرب أثناء الفتح وبعده [١].

٢٤٨ - المسلمون واليهود

وقد رأينا كيف وقف اليهود إلى جانب المسلمين أثناء الفتح ، وكيف كانوا يدلونهم على عورات البلاد وثلمات الأسوار وما إلى ذلك ، وكان من الطبيعي أن يكافئهم المسلمون على ذلك ، فاتخذوا منهم حرساً لما يفتحونه من البلاد إلى جانب الحرس الإسلامي . وقد لقي اليهود بعد ذلك تسامحاً مطلقاً من العرب ، سواء خلال عصر الولاة أو ما بعده ، فكانت لهم بيعهم ورجال دينهم يمارسون شعائرهم ما أحبوا ، ولا نسمع خلال العصور الإسلامية باضطهاد اليهود إلا ابتداء من القرن الحادي عشر ، أي بعد سقوط الخلافة وافتراق الكلمة وشيوع الفوضى . ولقد كانت الأندلس جنة اليهود خلال العصور الوسطى كلها : بلغ بعضهم مبلغ الوزارة ، ونظر إليهم المسلمون نظرتهم إلى إخوان ، حتى أصبح الأندلس موئل اليهود ، بل إن حركة بعث اللغة العبرية والأدب العبري بدأت في إسبانيا ، نشأت ونمت بين أظهر المسلمين وتحت أعينهم ، بل كان بعض علماء المسلمين يعينون اليهود على إنشاء نحو لغتهم . ولقد استعرب اليهود منذ زمن مبكر ، فأخذوا لغة العرب وملابسهم واندرجوا في غمارهم [٢] .

٢٤٩ - تنظيم جماعات اليهود

وليست لدينا مراجع عربية أو عبرية عن أحوال جماعات اليهود في الأندلس الإسلامي ، ولكن القوانين والمنشورات التي أصدرها ملوك إسبانيا النصرانية عندما سقطت بلاد الأندلس الإسلامي في أيديهم واحدة بعد أخرى ، تعطينا فكرة عن تنظيم هذه الجماعات في ظلال الإسلام . وجدير بالملاحظة أن أمراء المسلمين وخلفاءهم لم يصدروا تشريعات

---

(١) IBIDEM, III, 132

(٢) LEVI - PROVENÇAL, *Histoire...*, I, p. 80 - 81.

خاصة باليهود ، مما يفهم منه أنهم كانوا متساوين مع بقية السكان ، فلم تكن هناك حاجة إلى تشريعات خاصة لهم ، بعكس ما حدث عندما سيطرت النصرانية على البلاد ، إذ أفرد اليهود بمعاملة خاصة ، ومضايقات انتهت بالقضاء عليهم في إسبانيا كلها . وهذا وحده يكفي للدلالة على فضل المسلمين على يهود إسبانيا ، وهو فضل لم يعن مؤرخ يهودي واحد بالإشارة إليه : لقد أظلهم الإسلام واستنقذهم من أذى القوط والكنيسة ، وبسط عليهم أمراء المسلمين أمانهم ، فلما زال أمر المسلمين من إسبانيا كان ذلك إيذاناً بزوال أمر اليهود أيضاً .

وتبدو لنا جماعات اليهود ، في الوثائق الإسبانية ابتداء من القرن الثاني عشر الميلادي ، منظمة تنظيماً دقيقاً . وليس من المعقول أن جماعات اليهود كانت على هذا التنظيم من أول الأمر ، ولكن الطبيعي أن يكون قد بدأ في صورة بدائية ، ثم تكامل مع الزمن ، وقد أتاح له الحكم الإسلامي فرصة هذا التكامل ، بما ضمن من حقوق الذميين ، ومنهم اليهود .

رأينا في كلامنا عن الفتح كيف أن المسلمين كانوا إذا وجدوا في بلد يهوداً جعلوهم في جملة حرس المدينة ، و « ضموهم إلى القصبة » أي أنهم أوسعوا لهم مكاناً في الجزء المحصن من البلد ، وهو القصبة . ومن الطبيعي أن يتجمع اليهود في جزء معين من القصبة ، وهذا الجزء هو الذي أصبح مع الزمن حي اليهود أو حارة اليهود ، وحارة هنا تعني حياً أو قسماً من المدينة ، كما هو الحال في المغرب إلى اليوم ، إذ تقسم المدينة إلى حارات ، وهذا الحي أو الحارة هو الذي عرف فيما بعد باسم اليودرية أو الخودرية Juderia في مصطلح إسبانيا النصرانية .

٢٥٠ ـ حكومة الجماعات اليهودية

وتسمى جوالي اليهود في النصوص الإسبانية باسم عربي : aljama (الجماعة) ، ويغلب أن يطلق هذا الاسم على جماعة اليهود في النواحي الداخلة في دولة الإسلام ، أو في نواحي قشتالة وليون التي تأثرت بالحضارة العربية بصورة ظاهرة ، أما النواحي التي لم

تتأثر بالحضارة الإسلامية إلا قليلاً ، مثل قطلونية ، فالغالب أن تسمى باسم عبري : كاحال Kahal . وكان يرأس كل جماعة نفر من الظاهرين منهم يسمى الواحد منهم « البَرور » ، وكان لهذا النفر مجلس يسمى « البَرُوريم » (البرورين) وقد يسمى البرور مقدماً (الجمع في العبرية مقدميم = مقدمين) أو نعمان (والجمع نعمانيم Ne'emanim) . وكان لكل جماعة نفر من المستشارين يعرفون عادة باليوعاظيم (الواعظين) ، ويغلب أن لفظ مقدَّم غلب في جماعات اليهود التي أقامت في البلاد الإسلامية ، وقد ترجم هذا اللفظ إلى الإسبانية عندما زال أمر الإسلام ، فأصبح المقدمون في المدن التي استغلبها النصارى يعرفون باسم أدلانتادوس (adelantados) أو (Adenantados) .

وكان البرورون والمقدمون والنعمانون ينتخبون أول الأمر ، ثم أصبح السابقون منهم يعينون من يخلفهم ، وكانت مدة ولايتهم عاماً ، وقد اختلف عددهم من مدينة لأخرى بحسب حجم الجماعة اليهودية وأهميتها . وكانوا مسؤولين أمام الحكومة الإسلامية عن كل ما يتصل بالجماعة من ضرائب والتزامات أخرى .

وكما كانت للنصارى قوانينهم ، فكذلك كانت لليهود قوانينهم وقضاتهم ، وكانت الإدارة الإسلامية لا تتدخل في شؤونهم، بل كان للجماعة اليهودية الحق في تطبيق ما تصدره محاكمها من عقوبات . وفي الحالات التي كان الخلاف فيها يقع بين مسلمين ويهود ، كان الأمر يرفع لقاضي المسلمين .

وكانت لليهود بيعهم التي تقام فيها صلواتهم ، وكانوا أحراراً في ذلك لا يعرض لهم المسلمون في شيء ، وليس لدينا دليل على أن حي اليهود كان يحاط بأسوار في البلاد الإسلامية ، بخلاف الجودريات في البلاد النصرانية ، فقد كانت لها أسوار عالية . وكذلك كان الحال في بقية بلاد النصرانية ، فقد عرفت في بولندا وألمانيا باسم الجتو Ghetto . وكانت العلاقات بين المسلمين واليهود متصلة مطلقة من كل قيد ، مما جعل اليهود يسرعون بالاندماج في الجماعة الاسلامية ، فاستعربت ألسنتهم وأخذوا لباس المسلمين ، وأسلمت منهم

جماعات كثيرة مع الزمن[1] .

وبعد ، فهل أجدى ذلك على الإسلام والمسلمين شيئاً ؟

كانت النتيجة أن وقف اليهود إلى جانب النصارى عندما بدأ الصراع بين الجانبين على مصير إسبانيا ، ووضعوا أنفسهم في خدمة الغزاة يقومون لهم بنفس المهمة التي قاموا بها للمسلمين . وإذا نحن فسرنا موقف اليهود من الدولة القوطية بما كانوا يلقون منها من العنت ، فما تفسير خيانتهم للمسلمين ولم يلقوا منهم إلا خيراً ؟ لقد أحس المسلمون في القرن الحادي عشر بخطأ أجدادهم فيما جروا عليه من تسامح وإكرام مع اليهود ، ولكن الوقت كان قد فات ! بيد أن الإسبان أنفسهم تكلفوا بسداد الدين لليهود ، فما كاد الأمر يستتب لهم حتى بدأوا يطاردون اليهود قبل أن يطاردوا المسلمين ، وما زالوا يلحون عليهم حتى استأصلوا شأفتهم من البلد الذي تخونوه أكثر من مرة . وفر من نجا بحياته منهم إلى الغرب ونواحي البحر الأبيض وهم اليهود السَّفراديون ، وهم نصف يهود العالم اليوم . والنصف الآخر هم الأشكنازيون ، وهم سلائل أولئك الذين ذكرنا أنهم فروا أمام اضطهاد الرومان والكنيسة الكاثوليكية إلى بلاد الجرمان والصقالية ، تكاثروا هناك وانضمت إليهم جماعات من الهاربين من انفجارات العداوة التي كانت تثور في بلاد أوربا الغربية ، وفي ألمانيا وبولندا ونواحي

(١) اعتمدنا في جمع هذه المعلومات على ما كتبه اليهود عن تاريخهم في إسبانيا ، ومن الغريب أن نفراً منهم يستطرد عن أحوال اليهود في الأندلس الإسلامي كأنهم يتهربون من الاعتراف بفضل المسلمين ، وفريق آخر منهم ينكر الواقع ، ويتحامل على المسلمين . وجدير بالملاحظة أن كثيراً جداً من هذه المؤلفات كتب قبل اعتداء اليهود الحالي على العرب واغتصابهم قطعة من فلسطين لإنشاء دولة فيها ، مما يدل على أن اليهود ـ حتى علماءهم ـ كانوا يضمرون العداوة والكيد للمسلمين منذ زمن طويل . انظر .

ABRAHAM A. NEUMAN, *The Jews in Spain.* (Philadelphia. The Jewish Publication Society of America) 2 Volumes. 1948.

FRITZ BOER, *Die Juden in Christlischen Spanien*

JACOB, *Sources of Spanish - Jewish History* (New York 1894).

J. PERLES, *Rabbi Salomo ibn Abraham Ibn Aderth.* (Breslau 1863).

روسيا ، عاشوا في مخابىء وأحياء مقفلة تسمى الجِتُّو ، ولم يبارحوها إلا مع العصور الحديثة . ثم تجمع اليهود جميعاً على أيامنا ونسوا ما أسلف إليهم الناس جميعاً من أذى ، ولم يصبح لهم هدف في الحياة إلا القضاء على العرب والمسلمين ، وما أحسن إليهم في التاريخ أحد بمثل ما أحسن العرب والمسلمون .

الفصل الحادي عشر

الإدارة والمال

٢٥١ - قلة المراجع عن شؤون الإدارة والمال

لم تصمت مراجعنا العربية - الأندلسية وغير الأندلسية - عن ناحية من نواحي التاريخ كما صمتت عن نواحي الإدارة وشؤون المال . فعلى طول التاريخ الإسلامي وعرضه ، ليس لدينا بيان رسمي واحد عنيت دولة من الدول الإسلامية بوضعه ، تورد فيه النواحي الداخلة تحت سلطانها وحدودها ، وما يتبع كلاً منها من المدن والقرى بوصفها وحدودها ، وما ينبغي على أهلها من مال ، وما كان لهؤلاء الناس من حقوق مختلفة الأوضاع القانونية على الأرض وما فيها ، كما هو الحال فيما يتصل بنظم الدولة الرومانية . واعتمادنا فيما يتصل بالمشرق على بضعة بيانات نقلها بعض المؤرخين والجغرافيين ، عن أوراق وقعت بين أيديهم بطريق المصادفة ، تحدد دخل جزء من الدولة أو نفقاته في فترة معينة ؛ ومثال ذلك البيان الذي أورده ابن خلدون في « المقدمة » ، نقلاً عن خط رجل يسميه أحمد ابن محمد بن عبد الحميد « بما يحمل إلى بيت المال ببغداد أيام المأمون من جميع النواحي ، نقلته من جراب الدولة »[1] . وهو بيان ناقص لا يبين إلا دخل جزء من أجزاء الدولة ، وهو بعد ذلك حافل بالمشاكل ، سواء فيما يتصل بأسماء النواحي وتقسيمها ، أو معاني المصطلحات التي يستعملها . ومثال ذلك أيضاً البيان الذي أورده قدامة بن جعفر في جزء من « كتاب الخراج » نشره دي خويه

---

(١) ابن خلدون : المقدمة ، ط . بولاق ، ص ١٥٠ - ١٥١ .

في ليدن سنة ١٨٨٩ ، عن دخل الدولة العباسية أيام المعتصم[١] ، وهو بيان مضطرب في حاجة إلى دراسة طويلة . وهناك بيان ثالث وصل إلينا عن طريق المصادفة البحتة ، فقد أراد الوزير علي بن عيسى بعد عزله أن يقدم للخليفة المقتدر « حساباً » عما وصل إليه من أموال الجباية وما أنفقه منها ، وقد عثر البارون ألفريد فون كريمر على ذلك الحساب ونشره ؛ وهو بيان خاص لا نستطيع الاعتماد على ما فيه اعتماداً تاماً ، نظراً لأنه صادر عن وزير في موقف الدفاع عن نفسه[٢] .

وهذه البيانات كلها لا تعيننا على رسم صورة كاملة لتقسيم الدولة الإداري وشؤونها المالية ، حتى إذا استعنا في فهمها بالشروح التي أوردها الخوارزمي في كتابه القيم « مفاتيح العلوم »[٣] للمصطلحات المالية ، وبالتفصيل الطيب للمصطلحات الجغرافية والإدارية الذي أورده ياقوت في مقدمة « تقويم البلدان » . وربما كانت مصر أوفر البلاد الإسلامية حظاً من هذه الناحية ، نظراً لما لدينا من الوثائق البردية ذات القيمة العظيمة ، ونظراً لاهتمام بعض مؤرخي مصر ، كالمقريزي في « خططه » والقلقشندي في « صبح الأعشى » ، والنويري في « نهاية الأرب » ، بالكتابة في مسائل الإدارة والتقسيم الإداري وشؤون المال .

* * *

٢٥٢ - التقسيم الإداري

ولكننا لا نملك ، فيما يتصل بالأندلس ، شيئاً يشبه ذلك . وبين هذا الحشد الحافل من المؤلفات الأندلسية في كل فن ، لا نجد مؤلفاً عني بناحية كالتي عني بها المقريزي والقلقشندي والنويري ؛ حتى ابن حيان ، أمير مؤرخي الأندلس ، لم يجد علينا الزمان بنسخة

(١) أبو الفرج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي : نبذ من كتاب الخراج وصنعة الكتابة ، لايدن ١٨٨٩ ، ص ٢٣٧ - ٢٤٠ .

(٢) ALFRED VON KREMER, *Einnahmebudget des Abbassiden Reiches.*

(٣) الخوارزمي ، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن يوسف الكاتب : كتاب مفاتيح العلوم (صنفه سنة ٣٦٦ هـ) القاهرة ١٣٤٤ هـ ، ولايدن ١٨٩٥ .

كـامـلة مـن تـاريخـه ، ولـيس في الـقـطع الـتي بـين أيـديـنـا مـنـه شيء يتناول التقسيم أو التنظيم الإداري ، بل لم يورد لنا بياناً شافياً عن نواحي الدولة وأموالها ، مع أنه وأباه كانا من كتاب الدولة ورجال الدواوين ، ومع أنه كـان ينقل عن أحمد بن محمد الـرازي وابنه عيسى بن أحمد ، وكان كـلاهما من عمال الدولة وخواص الأمراء .

ولا يعلل هـذا الصمت إلا بـافـتراض أن التقسيم الإداري لـلأنـدلس والجبايات التي تقررت على النواحي لم تكن، بالنسبة إلى الأمراء أو كتابهم، مسألة تستوقف الاهتمام والنظر ، كأن العرب حينما دخلوا البلد وجدوا فيه نظاماً إدارياً جارياً ثابتاً صـالحاً فجـروا عليه ، دون الحـاجة إلى إعـادة التخطيط والتنـظيم ، وكأن الظروف العامة في الأندلس ، إلى سقوط الخلافة الأمَوية عـلى رأس المائة الخامسة للهجرة ، كانت مستقرة بصفة عامة ، وكأن مقادير الجبايـة كانت وافـرة طوال هذه الفترة ، فلم تقع الدولة في أزمـات ماليـة وإدارية كـالتي تعرضت لهـا دولة العباسيـين ، أزمات جعلت النـاحية المـالية هي المشكلة الـرئيسية للخـلافة العبـاسيـة من أواخـر القـرن الهجـري الثـالث ، ولم يتـورط الأمـراء والخلفـاء الأنـدلسيون في تلك الأخـطاء الفادحـة التي زعزعت الأسس العـامة التي قـامت عليهـا دول المشرق ، فـاضطرت إلى إعـادة التنظيم والـروك ، وزيادة الجبـايات وابتكار الجديد منها ، وما الى ذلك .

٢٥٣ ـ كتاب الأندلس وتقسيمه الاداري

وهذا ـ على الأقـل ـ هو مـا يبدو لنـا مما بـين أيديـنا من تاريـخ الأندلس . فعلى الرغم مما يحفل به هذا التاريخ من أخبار الفتن والثـورات ، فإن الحـال كان دائـماً رخياً والنـاس في سعة وبيت المال عامراً بالدخل والمـدخر ، حتى في أيـام فتنة العـرب وأهل الذمة التي شغلت الأندلس من أواخر إمارة محمد إلى منتصف عصر عبد الرحمن الثالث ، لا نسمع عن إفلاس بيت المال أو مصادرات العمال والـوزراء والتجار التي يحفـل بها تـاريخ دول المشـرق ، وهذا أمـر لا يمكن أن ينتـج إلا عن رخـاء شامل جعل عامة السكان بنجـوة من الفقر المـدقع الـذي يؤدي إلى الثورة ، ولا يمكن أن يكون إلا إذا كانت هناك موارد مستمرة منتظمة لثروة الأفراد والدولـة ،

عما لا يمكن أن يتحقق إلا مع افتراض وجود نظام إداري سليم وتنظيم مالي صالح ، هذا بالإضافة إلى الحكمة الإدارية التي اتصف بها الأمراء والخلفاء ، والنزاهة ـ النسبية ـ في شؤون المال والحكم التي اتصف بها الوزراء والعمال ورجال الدولة في العاصمة والنواحي .

وهذا الاستقرار الإداري والاقتصادي ، هو الذي صرف المؤرخين والجغرافيين عن الموضوع ، لأن مؤرخ التاريخ الإسلامي إنما يؤرخ عادة للحوادث الجسيمة والثورات والفتن والاضطرابات ، فإذا لم يجد من ذلك شيئاً ملأ فراغ صفحاته بأخبار الشعراء والكتاب والفقهاء ومن إليهم . وإن الناظر إلى تاريخ دول المشرق في موجز تاريخي جامع ، مثل « الكامل » لابن الأثير ، ليجد أن المشكلة الرئيسية التي دار عليها تاريخ المشرق حتى نهاية العصر العباسي الأول هي مشكلة الحكم : من يحكم ومن لا يحكم ؟ من يرث الخلافة ومن لا يرثها ؟ وابتداء من خلافة الواثق تختفي مشكلة الحكم لتحل محلها المشكلة المالية ، فقد كانت الدولة في حالة إفلاس حقيقي من عهد المتوكل ، وعلى صخرة الأزمة المالية تهاوى الخلفاء والوزراء والكتاب ، وعجز الجميع عن أن يجدوا لها حلاً ، وانتهى الأمر بزوال الدولة كلها جملة . وواضح أن المشكلة المالية بدأت من أول يوم قامت فيه دولة بني العباس ، فقد تربع خلفاؤها على أمبراطورية واسعة تضم ولايات فسيحة ، لكل منها طبيعة وأحوال خاصة ، فكان لا بد من وضع نظام إداري وآخر مالي ، ولم يوضع هذا ولا ذاك . ومضت الأيام والخليفة لا يعرف ما عنده وما ليس عنده ، والرعية لا تعرف ما عليها ، ولم يتنبه إلى الأمر أحد طالما كانت الدولة في سعودها والجباية وافرة ، ولكن الإنفاق كان دائماً أكثر من الوارد ، وقد أحس بذلك هارون الرشيد فطلب إلى أبي يوسف القاضي أن يضع له دستوراً إدارياً مالياً ، فوضع له مبحثاً فقهياً لم ينتفع به الرشيد أو من جاء بعده . وجاء يوم وجد الخليفة فيه بيت المال خالياً ، فبدأ في مصادرة أموال الناس ، ونظر الوزراء والكتاب إلى المكوس والمغارم والمعاون يقتضونها من الناس قسراً ، فثبطت الهمم وأخذت الثروة القومية تتلاشى ، ونزر الوارد إلى بيت المال شيئاً فشيئاً ، حتى وصلت الدولة إلى

الإفلاس ، وبدأت مأساة تصفية الدولة العباسية من القرن الرابع الهجري .

أما في الأندلس فلم يحدث من ذلك شيء ، وهذا ما يحدو بنا إلى القول بأنه لا بد أنه كان هناك نظام إداري مالي ثابت سليم ، لأن الثروة الطبيعية للبلاد لا تغني شيئاً إذا كان النظام فاسداً . فقد كان « ارتفاع » الأهواز مثلاً مضرب المثل ، ولكن سوء النظام وفساد ذمم العمال هبطا بها إلى حضيض الفقر البالغ . ومصر كذلك كانت من أغنى بلاد دولة الاسلام في المشرق ، ولكنها أفلست تماماً في منتصف العصر الفاطمي بسبب سوء الإدارة وفساد النظام المالي ، وتوالت عليها المجاعات والغلوات والمحن التي يفصلها ويشرح أسبابها المقريزي في كتابه الفريد في بابه «إغاثة الأمة وكشف الغمة» . ولسنا نجد في الأندلس شيئاً يشبه ذلك : لا نجد أميراً أو خليفة يمسح أراضي الدولة أو يعيد تحديد الأقسام الإدارية ، لا نجد كوراً يجمع بعضها إلى بعض أو تقسم تقسيماً جديداً لمواجهة ظروف إدارية طارئة ، ولا نجد جبايات ثقيلة تفرض على الناس فيشكون منها . وهذه ظاهرة لا تفسر إلا بما قلناه : وجد العرب تقسيماً إدارياً مستقراً صالحاً ، فأخذوه كما هو ، ووضع العرب من أول الأمر نظاماً مالياً لم يحتاجوا بعد ذلك إلى تغييره ، ومضى العمل به على ما هو عليه ، ولم يتعرض واحد من النظامين لشيء من التغيير الحاسم يستوقف انتباه المؤرخين .

ثم إننا نجد أن كل التفاصيل التي لدينا عن تقسيم الأندلس إلى كور وأقاليم تتفق فيما بينها اتفاقاً واضحاً مع اختلاف العصور التي كتبت فيها ، وحتى مع افتراض أن كل ما كتب بعد الرازي أخذ عنه ، فلا يعقل أن ينقل عنه أحمد ابن عمر بن أنس العذري المتوفي سنة ٤٧٨ / ١٠٨٩ ، وأبو عبيد البكري المتوفي سنة ٤٨٧ / ١٠٩٤ ، ومحمد بن أيوب بن غالب الغرناطي المتوفي في أواخر القرن السادس الهجري / الثاني عشر الميلادي ، وأبو الحسن علي بن سعيد المتوفي سنة ٦٨٥ / ١٢٨٦ ، ومحمد بن عبد المنعم الصنهاجي الحميري الذي كتب في سنة ٨٨٦ / ١٤٨١ ، وغيرهم كثيرون ، دون أن يشير واحد منهم إلى تعديل أو تغيير أصاب نظام الكور وحدودها وما يتبعها من المدن رغم اختلاف

الأعصر التي كتبوا فيها . ولقد زار الأندلس رحالة كابن حوقل ، وكتب عنه جغرافيون كابن الفقيه وابن رستة والأصطخري والمقدسي ، وهم جميعاً ممن يهتمون بالتقسيمات لإدارية ونظم المال ، فلم يبين أحد منهم حقيقة ذلك التقسيم أو التعديلات التي أدخلت عليه ، بل وقف ياقوت طويلاً عند مصطلحات الأندلسيين الإدارية ، وبين الفروق بينها وبين ما يستعمله أهل المشرق ، دون أن يشير إلى أصول هذه المصطلحات وما يمكن أن يكون قد نالها من التغير والتعديل . وكل ذلك يلقي في الروع أن الرازي ، عندما كتب « صفة الأندلس » ، إنما كان يكتب عن نظام مقرر ثابت لم يتكلف العرب في وضعه مشقة . وليس في ما بين أيدينا من كتب التاريخ إشارة إلى وضع هذا النظام أو من وضعه أو في أي وقت كان وضعه ، مما ينتهي بنا إلى القول بأن العرب وجدوا في الأندلس عند دخولهم تقسيماً إدارياً ثابتاً للبلاد ، فساروا عليه مع بضعة تعديلات شكلية اقتضتها الأحوال الجديدة ـ وسنشير إليها ـ واستبدلوا ما وجدوا من التسميات والمصطلحات بما حملوه معهم من المشرق ؛ وثبت الأمر على ذلك .

فإذا صح هذا الرأي ، فما هو هذا التقسيم ؟ هل هو تقسيم إسبانيا الإداري على عهد القوط ؟ ثم ، ما هو هذا التقسيم القوطي ؟ ما أصله وما حدوده ، وما هي درجة انطباقه على ما بين أيدينا من تقسيم الأندلس الإسلامي إلى كور وأقاليم ؟ . . أم هل هو التقسيم الكنسي إلى مطرانيات وديقونيات ؟

٢٥٤ ـ أصول التقسيم الإداري الإسلامي في الأندلس

من الثابت أن القوط لم يضعوا لإسبانيا تقسيماً إدارياً ، وأنهم تنعموا بالتقسيم الروماني الذي وجدوه في البلاد عند دخولهم ، فلنرجع إلى العصر الروماني لنتتبع هذا التقسيم من أوله .

كانت للرومان عناية خاصة بالتنظيم الإداري ، فلا تكاد ناحية من النواحي تدخل تحت سلطانهم حتى يخضعوها للنظام الإداري لدولتهم ، ويحددوا وضعها السياسي داخل الدولة أو علاقتها بها إذا كانت محالفة

أو صديقة ؛ وكان مجلس الشيوخ لا ينفك يعيد النظر في النظم ويعدلها أو يعيد وضعها بما يتفق مع الظروف القائمة . فلما اختفت الجمهورية وجاء عصر الامبراطورية تابع الأباطرة هذا الاهتمام ، ومن هنا كان لكل ولاية من ولاياتهم تاريخ إداري حافل بالتطورات . وفيما يتصل بإسبانيا سار هذا التطور جنباً إلى جنب مع امتداد سلطان الرومان على الجزيرة وتمكن قبضتهم منها ، وتأثر إلى جانب ذلك بما قام في البلاد من ثورات أو حركات معادية للرومان . ويهمنا من هذه التقسيمات كلها التقسيم الأول الذي وضع سنة ٢٠٦ قبل الميلاد ، والتقسيم الأخير الذي تم في عهد دقلديانوس ، والذي يسمى عادة تقسيم قسطنطين أو « قسمة قسطنطين » كما يقول كتابنا الإسلاميون .

٢٥٥ ـ تقسيم دقلديانوس المعروف بقسمة قسطنطين

فأما التقسيم الأول فهو الذي يجعل إسبانيا قسمين إداريين كبيرين ، يحكم كلاً منهما موظف كبير بلقب پروكنسل Proconsul أولاً ثم بلقب پرايتور Praetor فيما بعد ؛ هذان القسمان هما إسبانيا الدنيا Hispania Citerior واسبانيا القصوى Hispania Ulterior . وقد كان هذا التقسيم أساساً لكل تقسيم جاء بعده في الفترة الرومانية ، فانقسمت إسبانيا القصوى في عهد الأمبراطور أجريبا سنة ٢٧ قبل الميلاد إلى ولايتي بيطي Betica ولشدانية Lusitania . وفي أيام كاراكالا ظهرت ولاية إسبانيا الدنيا الجديدة الأنطونية Hispania Nova Citerior Antoniana وتضم إقليمي جليقية وأشتريس ، وفي عهد دقلديانوس ظهرت ولايتا إسبانيا الطركونية Hispania Tarraconensis وإسبانيا القرطاجنية Hispa-nia Cartaginensis[1] . وهذا يصل بنا إلى تقسيم دقلديانوس الأخير الذي ينسب إلى قسطنطين ، وبمقتضاه أصبحت إسبانيا ديقونية Diocesis ـ أي عملاً كبيراً بالمصطلح العربي ـ تابعة لمديرية الغالتين Praefectura Galliarum داخلة في القسم الغربي من الدولة الرومانية ، وهو التقسيم الذي وصل إلينا في وثيقة

(١) MANUEL TORRES, *La Peninsula Hispanica, Provincia Roman. En Historia de Espana* dirigida por R. MENENDEZ PIDAL,. II. Madrid, 1935. p. 371 - 372.

رسمية إسمها : بيان بالوظائف الجليلة في الدولة وغير ذلك Notitia dignita-tum utriusque Imperii [1] . وتضم إسبانيا بحسب هذا البيان ست ولايات Provinciae ، هي : باطقة Betica ، ولشدانية Lusitania ، وجليقية - أشتريس Calicia Asturica ، والولاية الطركونية ، والولاية القرطاجنية ، ثم أضيفت إليها مرطانية الطنجية Mauretania Tingitana والجزائر الشرقية Pro-vincia Balearica .

وقد ذكر كتابنا العرب هذه التقسيمات مع تحريفات ظاهرة سنتحدث عنها فيما بعد ، فقال أحمد بن عمر بن أنس العذري : « . . . تم ذكر الأندلس الأول على قسمة قسطنطين ، وهو الذي جزأها على ستة أجزاء : أضاف الثلاثة فسماها بالأندلس الأدنى ، وذلك من قرطاجنة الحلفاء ، وهي لورقة ، وجعل معها مدينة بلنسية ومدينة شاطبة ، إلى أقصى الغرب ، وأضاف الثلاثة أيضاً فسماها بالأندلس الأقصى ، وذلك من أوريولة إلى سرقسطة وما وازاها . وسماها غير قسطنطين بالأندلس الغربي وبالأندلس الشرقي ، وذلك بجري الأنهار ؛ فما جرى منها إلى الغرب سماه الغربي ، وما جرى أنهاره إلى الشرق سماه بالشرقي . والقسمة من تدمير ، ونهرها جار إلى الشرق » [2] . وإذا نحن نظرنا إلى التقسيم الروماني الأول إلى إسبانيا الدنيا وإسبانيا القصوى تبينا أنه ينطبق تماماً مع كلام العذري ، فيما عدا المدن التي يذكرها ، فإن الحد الفاصل بحسب التقسيم الروماني هو نهر تدمير بالفعل ، أما قوله إن بعضهم يسمي

---

(١) نشر هذه الوثيقة الهامة Seeck سنة ١٨٧٦ ، وانظر عنها ايضاً :

TH. MOMMSEN. *Vergeichnis der romischen Provinzen aufgesetzt um* 297. Abhand - Lnngen der Berliner Akad. d. Wiss. Phill. Hist. KL. 1862. S. 489 - 518. Gesam-melte Schriften, vol. V. 1908, S.S. 561 - 588.

C. JULLIAN, *De la réforme provinciale attribuée a Diocletien.* Rev. Hist. XIX, 1882, p. 331 - 374.

(٢) أحمد بن عمر بن أنس العذري : نظام المرجان في المسالك والممالك (مخطوط يعده للنشر الدكتور عبد العزيز الأهواني) ورقة ١٧ .

القسمين الأندلس الشرقي والأندلس الغربي فيفسره تصور الجغرافيين المسلمين للهيئة العامة لشبه الجزيرة الإيبيرية ، وهو تصور يجعل الساحل الشرقي لشبه الجزيرة كله ساحلاً جنوبياً تقريباً .

٢٥٦ - قسمة قسطنطين كما يعرضها البكري

ولأبي عبيد البكري نص أكثر تفصيلاً وأهمية ، لا بالنسبة إلى التقسيم الإداري أيام الرومان ، بل أيام المسلمين كما سنرى ، قال :

« وحدَّت الأوائل الأندلس بعبارات مختلفة . وحَدَّها قسطنطين حدوداً ستة : جعل الجزء الأول من حدودها من مدينة نربونة ، وهو حد ما بين غاليوش (Gallos = الغاليون) وبين الأندلس (إسبانيا) وأضاف إليها سبع مدن مما حواليها وهي بَطَرِّش (Betteris = Béziers بيزييه)، وطُلْيوشة (Tolosa = تولوز) ومقَلُونة (Magallona = Maguelonne) ونومشو (Nemauso - Nimes) وقرقشونة . وفي قرقشونة هذه الكنيسة العظمى عندهم ، تسمى شَنْت مريّة غراثية (Sainte Marie de Grâce) وفيها سبع سوار من فضة ، ولها يوم عيد ترده العجم من الآفاق ، وبينها وبين برشلونة ٢٥ يوماً .

وجعل الجزء الثاني من مدينة براقرة (Bracara = Braga) ، وهو حوز جليقية وشلطيانة (Celtiana) وهو بلد ابن غومس[1] ، وجعل لها اثنتي عشرة مدينة مما حواليها ، منها : مدينة برطقال (Portus Gallensis = پورتو) ، ومدينة تُودي (Tude = Tuy) ومدينة أوْرِيَة (Sedes Auriensis =

---

(١) في القرن الحادي عشر كان الإقليم الواقع في الركن الشمالي الغربي من إسبانيا فيما بين شنت ياقب والبحر يسمى بلاد الكلت Celticos .

اما ابن غومس ، فالمراد به على الأغلب غرسيه بن فرناندو الاول ملك جليقية في أيام البكري (ملك من ١٠٦٥ إلى ١٠٧١) .

Cf : LEVI - PROVENÇAL, *La Péninsule Ibérique*, p. 247, n. 3 - 4.

auria = orense) ؛ ومــديــنــة لــكــة (Lugo - Luco - Lucus asturicum) ومدينة سرطانية (Santa Maria de Bretona = Britonia) ، ومدينة أشترقة (Astorga = Asturica) ، ومدينة شنت ياقو (Santiago) ، ومـدينة كنيسة الذهب[1] ، ولها يوم يرد فيه من إفرنجة ومن رومة ومن جميع نـواحيهم كلهـا . ومدينـة ايريـة (Iria = Iria Flavia وتسمى اليوم Padron) ، ومـدينـة بطقة ، ومدينة شارّة (Sarria) .

وجعـل الجزء الثـالث من مدينـة طركـونـة (Tarragona - Tarracona) وأضاف إليها مدينة سرقسطة وأشقـة (Huesca = Osca وتسمى أيضاً وشقـة) ولاردة وطرطوشة وتطيلة ، وأعمـال بلدان ابن شـانجـو كلها[2]، وبلد بليـارش (Pallars) ، وبـرشـلونـة وجـرنـدة (Gerona) ، ومـديـنـة أنبـورش (Ampurias) ، ومدينة بنبلونـة ومدينـة أوقة (Oca = Auca) ومـدينة قلهـرة (Calagurris = Calahorra) ، ومدينة طرسونة (Tarazona) ، ومدينة أمايـة (Amaya وتكتب أيضاً أمايا) .

وجعل الجزء الرابع عشـرين مدينـة ، قاعـدتها مـدينة طليـطلة ، وأضاف إليها مدينـة أوريط (Oreto = Oretum) ، ومدينـة شقـوبيـة (Segovia) ، ومـدينة أركبيقـة (Ercavica) ، ومدينة وادي (الحجارة) ، ومـدينة شغونسـة (Siguenza) ، ومـدينـة أكشـومـة (Osma = Oxuma) ، ومـدينـة بلنسية ، ومـدينة بـلازيا (Palencia = Palentia ?) ، ومـدينة أوريـولة ، ومـدينة ألش (Elche)، ومدينة شاطبة مدينة دانية، ومدينة بياسة (Baeza)، ومدينة قسطلونة (Cazlona = Castulona) ، ومدينة منتيشة (Mentesa) ، ومدينة وادي آش (Guadix) ، ومـدينـة بسـطة (Baza) ومـدينـة أرش (Urci) وهي بجـانـة

---

(١) يبدو أن هناك اضطراباً في سياق الكلام . وقد يستقيم المعنى إذا قلنا : و[هي] مدينة كنيسة الذهب .

(٢) المراد هنا شانجُه الرابع ملك نبرة ، وقد حكم بين سنتي ١٠٥٤ و ١٠٧٦ .

Cf : LEVI - PROVENÇAL, *La Péninsule Ibèrique*, p. 248, n. I.

(Pechina)[1] .

وجعل الجزء الخامس قاعدته مدينة ماردة ، وأضاف إليها اثنتي عشرة مدينة ، وهي : باجة (Beja) ، مدينة أكشونبة (Ocsonoba) ، ويابرة (Evora) وشنترة (Cintra)، وشنترين (Santarem)، والأشبونة وقلمرية (Coimbra) ، وقورية (Coria = Caurium) ، وشلمنتقة (Salamantica = Salamanca) ، وصمورة (Zamora) وهي محدثة براً إلى شنت ياقوب .

وجعل الجزء السادس قاعدته مدينة أشبيلية ، وأضاف إليها لبلة (Niebla) وقرطبة وقرمونة ومورور (Moron) ومرشانة والجزيرة (Algeciras) وتاكرنا ورية وأشونة (Osuna) وأستجة (Ecija = Astigi) وقبرة وأعمالها إلى بجانة ، وإلبيرة وجيان ومنتيته (؟) وباكرتة (؟) وأبذة (Ubeda) وبياسة (Baeza) »[2] .

وخلاصة كلام أبي عبيد البكري أن تقسيم قسطنطين يجعل إسبانيا ستة أقسام كبرى يسميها أجزاء ، وكل قسم يتبعه عدد من المدن كما يلي :

١ ـ قسم نربونة : ويتبعه ٧ مدن لم يذكر البكري منها إلا خمساً ، هي : بطرش ـ طليوشة ـ مقلونة ـ نومشو ـ قرقشونة .

٢ ـ قسم براقرة : وهو حوز جليقية وبلاد الكلت ، وتتبعه ١٢ مدينة لم يذكر البكري منها إلا ١١ هي : برطقال ـ توذي ـ أورية ـ لكة ـ برطانية ـ أشترقة ـ شانت ياقو ـ مدينة كنيسة الذهب (كذا) ـ إيرية ـ بطقة ـ شارة .

---

(١) يلاحظ أن الإقليم المجاور للمرية وبجانة كان يسمى أرش اليمن ، وقد ذهب ابن عبد المنعم الحميري في مادة بجانة إلى أن الأرش وهو العطية أي النحلة ، أي أن أرش اليمن معناه الإقليم الذي منح لليمنيين ؛ وهذا غير صحيح ، وأصل أرش هنا لفظ Urci القديم ، وهو موضع قديم في تلك الناحية .

انظر الترجمة الفرنسية للروض المعطار ، ص ٤٧ ، هامش ٣ .

(٢) أبو عبيد البكري : قطع من جغرافية البكري نشرها بروفنسال ذيلاً على ترجمته الفرنسية لـ « الروض المعطار » .

LEVI - PROVENÇAL, *La Péninsule Iberique*, pp. 246 - 249.

٣ ـ قسم طركونة : ويتبعه ١٤ مدينة هي : سرقسطة ـ أشقة ـ لاردة ـ طرطوشة ـ تطيلة ـ بليارش ـ برشلونة ـ جرندة ـ أنبورش ـ بنبلونة ـ أوقة ـ قلهرة ـ طرسونة ـ أماية .

وأدخل في ذلك الجزء « أعمال بلد ابن شانجة كلها » أي نبرة « ناڤار » .

٤ ـ قسم طليطلة : ويتبعه ٢٠ مدينة ذكر منها ١٨ هي : أوريط ـ شقوبية ـ أركبيقة ـ وادي الحجارة ـ شغونسة ـ أكشومة ـ بلنسية ـ بلازيا ـ أوريولة ـ ألش ـ شاطبة ـ دانية ـ يباسة ـ قسطلونة ـ منتيشة ـ وادي آش ـ بسطة ـ أرش (بجانة) .

٥ ـ قسم ماردة : ويتبعه ١٢ مدينة ذكر منها ١٠ هي : باجة ـ أكشونبة ـ يابرة ـ شنترة ـ شنترين ـ الأشبونة ـ قلمرية ـ قورية ـ شلمنتقة ـ صمورة .

٦ ـ قسم أشبيلية : ويتبعه ١٧ مدينة هي : لبلة ـ قرطبة ـ قرمونة ـ مورور ـ مرشانة ـ الجزيرة الخضراء ـ تاكرنا ـ ريه ـ أشونة ـ أستجة ـ قبرة (وأعمالها) ـ البيرة ـ جيان ـ منتيتة (؟) ـ باكرتة (؟) أبذة ـ بياسة .

ونلاحظ ما يلي :

١ ـ إن البكري لا يعطي الأجزاء أسماء واضحة ، ولا يضع لها حدوداً بل يكتفي بالقول : « جعل الجزء الأول من حدودها من مدينة نربونة » و « جعل الجزء الثالث من مدينة طركونة » ، والمراد بهذا على الأغلب : « من حد مدينة نربونة » و « من حد مدينة طركونة » ، ويراد بذلك الزمام الذي يتبع المدينة بحسب النظام الروماني كما سنرى .

٢ ـ إنه لم يذكر قواعد الأجزاء إلا في ثلاث حالات : الرابع وقاعدته طليطلة ، والخامس وقاعدته ماردة ، والسادس وقاعدته أشبيلية .

٣ ـ المفهوم ضمناً أن لكل مدينة مما يذكر أعمالاً تابعة لها ، فهو يقول مثلاً : « وقبرة وأعمالها إلى بجانة » ، ويقول مرة أخرى : « وصمورة وهي محدثه براً إلى شنت ياقوب » ، وهي عبارة جعلها ليڤي پروڤنسال في ترجمته الفرنسية :

Zamora (Samura) Ville de fondation moderne, dédiée a Saint Jaques.

أي أنه قرأ براً بكسر الباء ، وفسر « إلى شنت ياقب » بقوله : « بشنت ياقوب » . ونفضل نحن أن نقرأ العبارة : «وصمورة ، وهي محدثة ، [وأعمالها] براً إلى شنت ياقوت » قياساً على « وقبرة وأعمالها إلى بجانة » .

٤ ـ وقد سميت الأجزاء إما باسم القاعدة، كما هو الحال في الأجزاء الرابع والخامس والسادس ، أو بالنسبة إلى المدينة الرئيسية فيه ، التي يميزها بقوله مثلاً : « جعل الجزء الأول من حدودها من مدينة نربونة » ، أو « وجعل الجزء الثاني من مدينة براقرة » ، ويريد أن الجزء يُحكم من المدينة التي يذكرها .

* * *

٢٥٧ ـ التقسيم الكنسي

وإذا نظرنا إلى هذا التقسيم وجدناه ينطبق تماماً من حيث الأجزاء على التقسيم الكنسي لإسبانيا أيام القوط ، فقد كانت هناك ست مطرانيات تقابل تماماً أجزاء قسطنطين بحسب رواية البكري ، وينطبق كذلك على تقسيم دقلديانوس الذي وصل إلينا في وثيقة سنة ٢٩٧ م التي أشرنا إليها ، وإليك جدولاً مقارناً يوضح هذه الحقيقة :

تقسيم دقلديانوس بروفنسيات (ولايات)	تقسيم قسطنطين أجزاء	التقسيم الكنسي مطرانيات	قواعد الأجزاء
	ما بين جاليوش والأندلس .	أربونة	نَرْبُونة
جليقية أشتريس	حوز جليقية	جليقية	بْرَاقَرَة
طركونة	طركونة	طركونة	طركونة
قرطاجنة	طليطلة	قرطاجنة	طليطلة
لُشْدانية	ماردة	لُشْدانية	ماردة
باطِقَة	أشبيلية	باطِقَة	أشبيلية

ويـلاحظ أن تقسيم دقلديانـوس لا يجعل ولايـة نربـونة داخلة في ديقـونية إسبانيا وإنما في ديقونية غالة ، وكانت الاثنتان تكونان مديرية الغـالتين Praefec-tura Galliarum كما قلنا .

وقد أضيفت إلى ديقونية إسبانيا في نفس عهد دقلديانـوس ولايـة مرطـانية الطنجية (Mauretania Tingtana) ، وهي إقليم طنجـة أو ما عـرف فيما بعـد باسم العدوة الافريقية . وفيما بين ٣٧٠ و ٤٠٠ ميلادية أضيفت إلى إسبانيا ولاية الجزائر الشرقية (Provincia Balearica) .

وسنقف عند هذا التقسيم قليلاً ، لأنه فيما نعتقد الأساس الذي قـام عليه كل تقسيم إداري آخر لشبـه الجزيـرة ، بما في ذلـك التقسيم العربي . لأن شبـه الجـزيرة الإيبيريـة مقسم طبيعيـاً إلى أقسام تصلح بهيئتهـا الجغـرافيـة لأن تكـون أقساماً إدارية، وخاصة بالنسبة إلى الأقسام الصغيرة، وإذا كان تقسيم إسبانيا إلى عمالات كبيرة ، ثم تقسيم هذه العمالات إلى مديريات قد مر في أدوار مختلفة ، حتى انتهى إلى الصـورة التي ثبت عنـدهـا في تقسيم دقلديانـوس سنـة ٢٩٧ ميلادية ، فإن تقسيم هذه المديريـات إلى أقسام إداريـة أصغر لم يكلف الـرومان أي عناء ، بل يبدو أن الرومان وجدوا هذه الأقسام الصغيـرة قائمـة ، فلم يكن عليهم إلا أن يثبتوا حدودها الجغرافية ويضعوها في الوضع القانوني الذي ينسجم مع نظمهم الخاصة بالمدن والأقاليم . وهذه التقسيمات نفسها هي التي أخـذتها الكنيسة وجعلتها أساساً لتقسيم المطرانيات إلى ديقـونيات ، مـع بعض تغييرات طفيفة اقتضتها مطالب التنظيم الكنسي[١] ، وأخذها العرب بعد ذلك مع إدخال تغييرات محلية في الغـالب اقتضتها طبيعـة النظام الإسلامي العام ، وسنتحـدث عن ذلك في حينه .

* * *

(١) MANUEL TORRES y RAMON PRIETO BANCES, *en Hist. de Espana, dirigida por* R. MENENDEZ PIDAL, III, Madrid 1940. pp. 276 - 279.

٢٥٨ ـ المدينة أساس للتقسيم الاداري الروماني

ومن الواضح أن هناك تشابهاً بين الأسس العامة التي سار عليها كل من الرومان والعرب في تقسيماتهم الإدارية . فقد كانت « المدينة » هي الأساس الذي قام عليه التنظيم الإداري السياسي الروماني(١) ، وكانت المدن هي المراكز التي اعتمد عليها العرب أيضاً في الحكم والإدارة . ولقد انتفع العرب باهتمام الرومان بالمدن وتنظيمهم إياها وعنايتهم بإتقان بنيانها وتزويدهم إياها بما استطاعوا تزويدها به من وسائل العمران المدني ، ولا يبدو ذلك بصورة هي أوضح مما يبدو بها في الشام والأندلس . ففي الشام تعلق العرب بالمدن وتجمعوا فيها وجعلوها مراكز عسكرية ، وألحقوا بكلى منها جانباً من الريف اعتبروه حوزاً للمدينة أو زماماً ، وهذا هو ما عرف بالأجناد . أما في الأندلس ، فكان شأن المدن أهم ، وكان الرومان عندما دخلوا البلاد ، قد وجدوا فيها مراكز ومواضع عامرة بالناس ، بعضها يلتف حول مدن كبيرة (Civitas - Civitates) وبعضها يلتف حول مدن بدائية أقرب إلى القرى (Gens - Gentes) .

وكان مفهوم المدينة عند الرومان مفهوماً سياسياً واجتماعياً خاصاً ، أخذوه عن الإغريق وأضافوا إليه وعدلوه بما يناسب الطبيعة العسكرية السياسية الخاصة بدولتهم . وأصبحت المدينة مرادفاً لنظام سياسي يتضمن حرياتٍ وحقوقاً وواجبات معينة يعتبر الحصول عليها حصولاً على حق المواطنة الرومانية . فإذا دخل الرومان بلداً قسموه أقساماً بحسب طريقة دخول نواحيه مع حوزتهم : عنوة أو صلحاً أو بمحالفة أو ما إلى ذلك . وقد يرفع الرومان مستوى بعض النواحي بعد زمن ويمنحونها حق المدينة أي حق المواطنة . ولم تكن المدينة عندهم مجرد مدينة ، بل كان لها زمام محيط بها (Orbs - is) تابع لها حكمه كحكمها وسكانه مواطنون فيها ، لهم ما لأهلها من حقوق وعليهم ما عليهم من واجبات . وإذا كان هذا الزمام واسعاً قسم إلى أقسام ، لكل قسم اسم ينسب إلى قرية كبيرة أو إلى زراعة غالبة عليه أو إلى ظاهرة معينة تميزه كسند جبل أو

(١) MANUEL TORRES, *en Hist. de Espana,* Dirigida por R. MENENDEZ PIDAL, II Madrid 1935, p. 379.

جبل أو ساحل أو سهل أو ما الى ذلك . فلم تكن هناك نواح لا تتبع مدينة ما ، وإذا ذكرت مدينة قصد في نفس الوقت ما يتبعها من النواحي . وقد ثبت الرومان زمامات المدن وفصلوا أمرها فيها أصدروه من وثائق خاصة بها[1] .

وعندما ظهر نظام الولايات (Provinciae) في نهاية أيام الجمهورية الرومانية نشأت المديريات عن مجموعات من المدن وزماماتها ، وحددت مساحة كل منها بمعرفة لجنة خاصة من عشرة رجال ، وأصدر بمديريات كل ناحية من أملاك الرومان قانون خاص يحدد ما يتبع كلاً منها من المدن وأحوازها ، وفيها يتصل باسبانيا لدينا قانون أو قائمة ولايات إسبانيا (Lex o Formula Privinciae Hispaniae) الذي يحدد ما يتبع كل مديرية من المدن والنواحي . وإذا كانت المديريات قد تكونت من زمامات ما أدخل في حوزها من مدن ، فإن الأساس الثابت للتقسيم الإداري في إسبانيا كان المدينة وحوزها ، فقد تغيرت حدود المديريات من عصر لعصر ، أما زمامات المدن فقد ظلت ثابتة وظلت هي الأساس ، ومضى الأمر على ذلك بقية أيام الرومان وأيام القوط أيضاً .

وقد تحددت أحواز المدن بالوثائق التي كان يصدرها الرومان ، فقد كانوا أهل تنظيم وترتيب ، وعناية بتسجيل كل شيء . وقد كانوا إذا فتحوا بلداً اجتهدوا في ترتيب أرضه وأهله : فأما الأرض التي وجدوها أو أدخلوها في حوزة مدينة فاحتفظ أهلها بالحقوق التي منحها الرومان للمدينة ، واعتبرت هذه الأرض (Municipia) من الناحية القانونية ، وأما الأرض التي استصفوها أو أوجدوها طلقة لا تتبع أحداً فقد أنشأوا فيها المستعمرات (Coloniae) وجلبوا إليها المعمرين (Coloni) لتعميرها لقاء ضريبة يؤدونها على أساس ما يمتلكه كل معمر من أرض . أما المدن نفسها فقد اختلف وضعها بحسب علاقتها بالرومان ، فهناك مدن دخلت في طاعة الرومان صلحاً ، وهناك مدن دخلت في طاعتهم عنوة . وكانت للرومان أسس قانونية خاصة بهذه المدن ، فمنها ما

---

(1) MANUEL TORRES, *op. cit.* p. 374.

صالح الرومان بعقد صلح يجعلها حليفة لهم (Foedera) ، ومنها ما منحه الرومان وضع الحليف (Déditio) ، ومنها ما كان يمنح حق إنشاء مجلس بلدي له حق التصويت في المسائل الهامة ، ومنها ما لم يكن له هذا الحق Sine) (Sufragio ، ومنها ما كان يدفع للرومان جزية معينة (Stipendium) أو (Tributum) ، ومنها ما كان معفى منها . وكان للوضع الخاص بكل مدينة أثر عظيم في تاريخها خلال العصرين الروماني والقوطي ، سواء فيا يتصل بمركز البلد في الإقليم الذي يقوم فيه أو بطريقة حكومته لنفسه والحور التابع له أو بعلاقته بالدولة المركزية : الرومانية أولاً ثم القوطية بعد ذلك .

والمهم لدينا أن هذا كله كان عظيم الأثر بالنسبة إلى وضع هذه البلاد ونواحيها في الدولة الإسلامية . فنلاحظ مثلاً أن معظم نواحي إسبانيا لم تقاوم الفاتحين المسلمين ، لأنهم عقدوا مع أهلها محالفات محلية تشبه تلك التي كانت قائمة بينهم وبين الرومان ، فلم يتغير عليهم شيء بدخول المسلمين ، ومن ثم فلم يكن هناك ما يدعو إلى المقاومة ، واستقر معظم هذه النواحي داخل الدولة الإسلامية استقراراً سلمياً قائماً على تعاقد مكتوب ، عقد حفظ لها حقوقها وحدد التزاماتها حيال الدولة الإسلامية . وقد احترم العرب هذه العهود ، حتى في أيام الفتن التي فصلنا أمرها حرص العرب على ألا يمسوا المدن وأهلها ، وتبعت المدن نواحيها ، فكان ذلك من أوكد أسباب الاستقرار والرخاء في الأندلس الإسلامي فيا بعد .

ومن المعروف أن أوضاع المدن قد تقارب بعضها من بعض خلال القرون الرومانية المتأخرة ، وأن أوضاع الناس قد تقاربت كذلك ، فلم يعد هناك إلا الأحرار والعبيد ، فأما الأحرار فكان منهم أهل المدن الأصلاء (Cives) وأهل النواحي التابعون لبلديتها (Municeps) والمعمرون (Coloni) والزراع (Inculae) . وكانوا كذلك إما مدنيين تابعين لمشيخة البلد (Curia) أو أهل قبائل جرمانية لم يستقروا بعد تابعين لمشيخة القبيلة ، وكانت تكون من المشيختين هيئة تسمى (Comitia Tributa) أو (Comitia Curiata) تقوم

بحكم البلد والحوز التابع له ، يتقاسم رجال المشيختين الوظائف فيها[1] .

* * *

٢٥٩ ـ القوط والتقسيم الروماني

ولم يدخل القوط تغييراً ذا بال على هذه الأوضاع ، فقد حلوا في البلاد محل الرومان[2] ، وكانوا من الناحية القانونية معتبرين مجرد نازلين في البلاد بمقتضى العرف الروماني المسمى (Hospitalitas) وهو لفظ عسير الترجمة ، فمن الناحية اللغوية معناه « الضيافة » ، أما في الواقع فأخذ معنى الاستيلاء على نسبة معينة من الأرض والعقار ، أي أن الهوسبيتاليتاس كانت أول الأمر إذناً للقوطي في أن ينزل وعائلته « ضيفاً » على مزارع روماني مع إعطائه حق الملكية على ما يتنازل له عنه المزارع الروماني وينزله فيه من بيت أو أرض . ثم أصبحت هذه الضيافة حقاً مقرراً للجرماني ، يستولي بمقتضاه على أرض وعقارات . وربما أقطعت الدولة لحلفائها من الجرمان ناحية بأكملها ينزلون مزارعين مع أهلها ويكون لهم في الواقع حق ملكيتها ، ومهما كانت الصورة التي نزل بها القوط أرض الدولة ، فإن الأمر انتهى بتملك القوط لما نزلوا به من النواحي على صورة تعبر عنها إحدى المدونات بقولها فيما يتصل بإنزال الدولة الرومانية للقوط في أقطانية : « إن أقطانية سلمت للقوط Aquitania Ghotis tradita .

وكانت القاعدة في مثل هذه الحالة أن القوط كانوا يستولون على ثلثي الأرض ، ويتركون للمزارع الروماني أو اللاتيني أو الإيبيري الروماني الثلث فحسب ، أي أن كل قرية أو ناحية كانت تسلم ثلثي أرضها للنازلين بها من القوط ، وكانت القسمة تحدد تحديداً دقيقاً في حالة نزول الجرماني الأرض واشتغاله بالزراعة بيده أو بواسطة عبيده ، أما في حالة عدم اشتغال الجرمان بالزراعة ، فكانت القاعدة أن يفلح الناس الأرض ويسلموا ثلثي الغلة للقوط ،

---

(١) MANUEL TORRES, *op. cit.* . p. 384.

(٢) ANTONIO BALLESTEROS y BERETTA, *Historia de Espana y su influencio en la historia universal,* tomo I (2a. ed. Madrid, 1934. p. 909.

وكانت حصص القوط تسمى الأنصبة ، واحدها نصيب (Sors, Sortes) ، أما الباقي بيد أهل البلاد فكان يسمى بالأثلاث (Terciae)[١] . ولم تكن القسمة لتقتصر على الأرض ، بل كانت تشمل ما عليها من الدور والماشية والرقيق أيضاً . وخرجت من القسمة أراضي الغابات (Compascua) وأراضي المراعي ، فقد تركت مشاعاً . أما الأراضي التي كانت تملكها الدولة فقد وضع ملوك القوط أيديهم عليها ، في حين دخلت الضياع الكبيرة (Latifundiae) في القسمة أيضاً ، وانتقلت ملكيتها لكبار القوط[٢] .

وقد دخل القوط غالة وإسبانيا قبائل ، يرتبط أفراد كل قبيلة منها برابطة تقابل العصبية العربية تسمى (Sippe) وتسمى في المصطلح الروماني (Centena) ، لأن الغالب أن كل قبيلة كان عليها أن تقدم للجيش القوطي مائة من المقاتلين . وقد انحلت روابط العصبية القبلية القوطية بتقادم عهدهم في البلاد ، وخاصة فيما يتصل بالمزارعين منهم .

٢٦٠ ـ اضمحلال المدن خلال العصر القوطي

وقد أصاب المدن في الدولة الرومانية كلها اضمحلال عام ، حتى ليذهب بعض الباحثين إلى أنها أخذت تتلاشى ابتداء من القرن الرابع الميلادي ، نتيجة لغارات الجرمان واضطراب أمور الدولة وضياع الأمن ، وقد تحول بعضها إلى قرى أو حصون ، واختفى بعضها الآخر تماماً ، وتحول غرب أوروبا كله إلى عالم زراعي قروي ، وانحطت فيه كل الظواهر المتصلة بالمدن كالتجارة والصناعة المنظمتين ، وتحول المجتمع الأوربي إلى مجتمع زراعي ، وهي الصفة الغالبة التي يوصف بها المجتمع الأوروبي في العصور الوسطى المبكرة .

ولما كان العرب قد دخلوا إسبانيا أوائل القرن الثامن الميلادي ، أي في الوقت الذي كانت المدن تتلاشى فيه في بقية غرب أوروربا، فقد وجدوا فيها كثيراً من المدن باقية في حالة اضمحلال شديد . وذكرها قليل في النصوص على أي

(١) MANUEL TORRES y RAMON PRIETO BANCES, *op. cit.* III. p. 151.

(٢) ANTONIO BALLESTEROS, *op. cit.* I. p. 913.

حال ، وتذكرها النصوص أيام القوط بالتسميات الثلاث التي كان الرومان يستعملونها : (Civitas, Civitates - Oppidum, Oppida - Urbs, Urbis) دون تفريق بين أنواعها أو أهميتها ؛ والثابت أنهم كانوا يطلقون هذه التسمية على كل موضع مأهول مسور ، وكان لها نظام خاص لحكومتها هو نظام المشيخة (الكوريا) الذي أشرنا إليه . وتذكر النصوص أيضاً قرى كبيرة غير مسورة وتسميها (Vicos) ، وتذكر القلاع (Castillos) ، ولم تكن مجرد قلاع بل كان يعيش الناس فيها وحولها ، وتذكر الباجي (Pagi) ـ مفردها باجوس ـ ويراد بها الدوار الريفي ، أما المدينة المحصنة القائمة على مرتفع من الأرض فتسمى (Castrum) ، وتذكر المراجع البرج (Burgos) وهي معسكرات القوط التي تحولت إلى مدن أو قرى كبيرة ، والڤيلا (Villa) وهي الدوار يقيمه المالك الكبير وسط أرضه ، ثم يتحول إلى قرية وربما مدينة وربما سورت وحصنت . وهذه المواضع كلها سيسميها العرب مدناً دون تمييز أول الأمر، ثم يميزون بعضها عن بعض بمرور الزمن .

٢٦١ ـ الكنيسة تحتفظ بالتقسيم الروماني

وإذا كانت أحوال الدولة الرومانية في عصورها المتأخرة قد أدت إلى اضمحلال المدن واختفائها شيئاً فشيئاً ، فإن الكنيسة احتفظت بالهيكل العام للتنظيم الروماني القديم ، فجعلت المديريات على تقسيم دقلديانوس وقسطنطين مديريات كنسية (Provinciae Ecclesoasticae) يمتد سلطان مطران كل منها على جميع النواحي التي كانت داخلة فيها في التقسيم الروماني ، وجعلت المدن الكبيرة الواقعة في الولاية ديقونيات (Diocesi) يتولى كل منها أسقف (Episcopus) ، وجعلت الأقاليم التابعة لكل مدينة من هذه أبرشيات (Parrochiae) يتولى كلاً منها برشبطر (Presbiterus) يعينه الأسقف ويناوله كتاب الصلوات (Liber Officialis) وهو شارة التعيين . وقد أحكمت الكنيسة هذا التنظيم واحتفظت به قائماً ، وإن تعارض مع الواقع[١] ، فقد تضاءلت مدن كانت كبيرة في العصر

---

(١) ANTONIO BALLESTEROS, *op. cit.* I p. 930.

الـروماني ولم تصبـح غير قـرى ، ومع ذلـك ظـل لأهلهـا الحق في أن يكـون لهم أسقف ، وتلاشت مدن أبرشية تماماً ، ومع ذلك كان لها برشبطر يمثلها ويتحدث باسمها ، وأصبـح هذا التقسيم النـظري هو التقسيم الإداري في نـظر الناس . ولم يحدث هذا في إسبانيا وحدها بل في كافـة بلاد الأمبراطوريـة الغربيـة ، التي دخلت شيئاً فشيئاً تحت سلطان كنيسة روما . وظل هذا الوضع قـائماً حتى أقبـل العرب وقضوا على القوط واتصلوا بالناس رأساً ليستعينوا بهم على تنظيم البلاد ، وأخـذوا عنهم هذا النـظام وأعطوه صفـة إدارية مـع تعديـلات اقتضتها ظـروف الدولة العربية الإسلامية .

وهذه الظروف تتلخص في أن مركز الثقـل في الأندلس الإسلامي كان في الجنوب ، في حوض الوادي الكبير وجنوبه بصورة خاصة وما يوازي هذا النهر في شرقي الأندلس وغـربه ، فتـزاحم الناس هنـاك وتزايـد العمران وأزهـرت المدن القائمة ، ونمت قرى وتمدنت وأصبحت مدناً مما اقتضى إنشاء كور جديدة صغيرة حول المدن التي كبـرت وعظم شـأنها . فبينما كـان مركـز الثقل أيـام الرومـان في الشمال الشرقي حول طركونة ونربونة (ولم تنشأ ولايات باطقة وجليقية ولشدانية وما إليها إلا فيما بعد) ، وبينما كان مـركز الثقـل أيام القـوط هو الـوسط حول طليطلة ، نجد أن اهتمام العرب انصرف معظمه إلى الجنوب .

٢٦٢ ـ الاتجاه العربي في التقسيم الإداري

وكان الاتجاه الإداري في الأندلس الإسلامي يميل نحو الاقسـام الإدارية الصغيرة تيسيراً لضبط الأمن وربط المال ، بل يبدو أن ذلك هو الاتجاه في الإدارة الإسلامية عامة فحوض الدجلة والفـرات مثلاً كـان يضم ما لا يقـل عن خمس عشرة كورة ، ولا يشذ عن ذلك إلا الشام ، فقد قسـم إلى مناطق عسكرية كبيرة تسمى « الأجناد » كما قلنا .

ثم إن النظم الإدارية الإسلامية كانت لا تميل إلى تجزئة الوحدات الإدارية إلى أجزاء والأجزاء إلى أجزاء أصغر كما رأينا في النظام الرومـاني والنظام الكنسي الذي قام على أساسه . فاكتفى المسلمون بالكـور ، كل كـورة تتبعها مـدن وكل

مدينة تتبعها أقاليمهـا أو زمامـاتها ، وقـد أدى ذلك إلى تبسيط السلم الاداري ، فالإدارة المركزية يتبعهـا عمال الكـور ، وعمال الكـور يتبعهم عمال المـدن وهم المسؤولون عن زمامات المدن أو أقاليمها ، وجرت العـادة أن يعين عـامل المـدينة عاملاً خاصاً بـالمدينـة نفسها يسمى صـاحب المدينـة . ومن هنا فقـد كان عـدد المـوظفـين في الإدارة الإسـلاميـة لا يبلغ خمس عـددهم في الإدارة الـرومـانيـة ، وخاصة منذ أيام دقلديـانوس الـذي زحم الإدارات بالمـوظفين وجعلهم طبقـات بعضها فوق بعض ، فثقـل عبؤهم على الخـزانة من نـاحية واتسـع المجال لأكـل أموال الدولة من ناحية أخرى .

٢٦٣ - الأجنـاد وقد عرف الأندلس الإسلامي نظام الأجناد أو الكور المجندة .

وقد أخذ العرب هذا النظام عن البيزنطيين ، والمراد بها ولايات عسكرية ينزلها « جند » والجند خمس فرق من المحاربين ، وهي تقابل (Tema) في التنظيم البيزنطي ، ويسميها العرب البند والجميـع بنود، وهي تقـابل الثغـور ويحكمهـا قائـد عسكري . وكـان الجنـد أول الأمـر تنـزلـه قبيلة واحـدة أو عـدة قبائل متحالفة ، ويكون لها خراج الناحية في مقابل تقديمها لجند كـامل أي خمس فرق من المحاربين . ولم يعرف نظام الأجناد إلا في الشام ، إذ قسمها المسلمـون إلى أجناد خمسة هي : فلسـطين والأردن ودمشق وحمص وقنسـرين (وتبعتهـا أول الأمـر بلاد الجـزيرة) . وقـد كان نـظام الأجناد من أوكـد أسبـاب قـوة الـدولـة الأمـويـة ، إذ ضمن لهـا المحـاربـين[١] . ومن الشـام انتقـل نـظام الأجنـاد إلى الأندلس على أيام أبي الخطار الحسـام بن ضرار سنـة ١٢٥ / ٧٤٣ مع اختـلاف واحد ، هو أن الجند في الشام كان يضم كوراً كثيرة أما في الأندلس فكان يقـابل كورة واحدة . ومن هنا يغلب على الظن أن أجناد الأنـدلس كان عليهـا أن تقدم أعداداً من الجند أقل من خمسة فرق . وقد ظلت هذه الأجناد عصباً من أعصـاب القوة العسكرية الأندلسية إلى منتصف حكومة عبد الـرحمن الناصر عـلى الأقل .

---

(١) ياقوت : معجم البلدان ، طبعة الخانجي ، جـ ١ ، ص ٣٨ .

ولـدينا من عهـد الأمير محمـد بيان بأعداد من كـانت بعض النواحي تقـدمه من الفرسان إلى جيش الدولة . وإذا نـظرنا إلى هـذا البيان تبينـا أهمية نـظام الأجناد بالنسبة للقوة العسكرية للإمارة الأموية الأندلسية :

كورة البيرة	٢٩٠٠ فارس	جيان	٢٢٠٠ فارس
كورة قبرة	١٢٠٠ فارس	باغة	٩٠٠ فارس
كورة تاكرنا	٢٩٩ فارس	الجزيرة	٢٩٠ فارس
كورة أستجة	١٢٠٠ فارس	قرمونة	١٨٥ فارس
كورة شذونة	٦٧٩٠ فارس	رية	٢٦٠٠ فارس
كورة فحص البلوط	٤٠٠ فارس	مورور	١٤٠٠ فارس
كورة تدمير	١٥٦ فارس	ربينة	١٠٦ فارس
قلعة رباح وأوريط	٣٨٧ فارس[1]		

وهـذا البيان نـاقص ، والكور المخـطوط تحتها هي من الكـور المجنـدة ، ويلاحظ بوضوح أن أربعاً من الكور المجندة كانت تقدم من الفرسان أضعاف ما تقدمه عشر كور غير مجنـدة . وذلك يعـطينا فكـرة عن الأهمية العسكـرية لنـظام الأجناد . ولم يبين لنا أحد من المؤرخين النظام المـالي الخاص بـالأجناد في الشـام والأندلس ، ولكننا نستنتج ذلك من البيان المقارن الذي أوردناه ، إذ لا يفسر أن كورة شذونة تقدم أضعـاف ما تقـدمه كـورة أكبر منهـا وهي تدمـير إلا بأن هـذه الكور كانت تقـدم فرسـاناً بـدلاً من الضرائب ، ويؤيـد ذلك قـول المؤرخين إن الشـاميين الـذين نزلـوا هذه الكـور « كان إنـزالهم عـلى أمـوال العجم من خـير ونعم »[2] ، أي في مقـابـل تملكهم لجـزء معـين من أمـلاك العجم ونعمهم ،

(١) ابن حيان ، برواية ابن عذارى : البيان المغرب ، طبعة بروفنسال وكولان (لايدن ١٩٥١) جـ٢ ، ص ١٠٨ - ١٠٩ .

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب (نفس الطبعة) ص ٣٣ . وقد نقل لنا ابن الخطيب كلام ابن حيان =

ويؤيده أيضاً أن عرب الكور المجندة بالذات هم الذين قاموا بالثورة الكبيرة التي شغلت عصري محمد وعبد الله وجزءاً من عصر الناصر ، وأسبابها ترجع إلى تمسك العرب النازلين بهذه النواحي بما كان لهم من حق التملك والاستقلال بنواحيهم ثم ميلهم إلى عسف من كان يسكنها من أهل البلاد ، ونفور هؤلاء لمحاربتهم ، ورفض أولئك العرب لطاعة الإمارة القرطبية ، اعتزازاً منهم بما كانوا فيه من استقلال بنواحيهم وما اجتمع لهم من الثروة نتيجة لذلك الاستقلال . ومن طريف ما يلاحظ أن ثورات العرب ووثباتهم بالدولة في الأندلس وغيره كانت تقع في كثير من الأحيان نتيجة للرخاء والثروة وشعور العرب بقوتهم ، ونزوعهم إلى التخلص من السلطان . وهذا سبب من أسباب الثورات فات بيكون أن يذكره ضمن ما ذكره من أسباب الثورات .

ولسنا نجد فيما بين أيدينا من نصوص التاريخ إشارة واحدة إلى قيام واحد من الولاة أو الأمراء أو الخلفاء بتكوير الأندلس ، أو تقسيمه إلى أقسام إدارية ، حتى أحمد بن محمد الرازي صاحب أول وأوفى تاريخ للأندلس لم يشر إلى ذلك . ونحن نجد الأندلس في كلامه مقسماً تقسيماً إدارياً ثابتاً منذ زمن طويل فهو يذكر ما يذكر من الكور على اعتبار أنها أشياء معروفة . أما في جغرافيته فهو

= في هذه المناسبة ، فقال إن الذي أشار على أبي الخطار بذلك كان أرطباس ، أشار عليه « بتفريق القبائل الشآميين الغالين على البلد من دار الامارة قرطبة ، إذ كانت لا تحملهم ، وإنزالهم بالكور ، على مثل منازلهم التي كانت في كور شامهم ، ففعل ذلك عن اختيار منهم ، فأنزل جند دمشق كورة إلبيرة ، وجند الأردن كورة جيان ، وجند مصر كورة باجة ، وبعضهم بكورة تدمير ، فهذه منازل العرب الشآميين ، وجعل لهم ثلث أموال أهل الذمة من العجم طعمة ، وبقي العرب والبلديون والبرابرة شركاؤهم . . . » - الاحاطة ، طبعة محمد عبد الله عنان (القاهرة ١٩٥٦) جـ ١ ، ص ١٠٩ .

ويلاحظ أن هذه هي أول مرة تنزل الدولة الإسلامية فيها عرباً على أموال العجم من رعاياها وتعطيهم الحق في تملك ثلث هؤلاء الأخيرين . وفي النسختين المخطوطتين اللتين نشر عنهما الاستاذ عنان « ثلثا أموال أهل الذمة » ، وقد استبعد الناشر هذه الصورة وأثبت « ثلث » من عنده ، ونظن أن الثلثين أصح لأنها تقابل انصبة القوط من الأرض (Sors - Sortes) على ما ذكرناه ، ثم إن صاحب الرأي في إنزال هؤلاء الشآميين على أموال العجم قوطي هو أرطباس . وسنعود للكلام على هذه الناحية عند الناحية المالية .

يعطينا بياناً كاملاً لا يضم إشارة واحدة إلى تغيير أو تعديل . والاستنتاج البسيط من ذلك هو أن أحداً من المسلمين لم يضع هذا النظام وإنما وجدوا تقسيماً قائماً فأخذوه .

٢٦٤ ـ المقدسي والتنظيم الإداري للأندلس

ولم يتحدث من الجغرافيين المشرقيين عن تقسيم الأندلس إلى كور إلا المقدسي في « أحسن التقاسيم » ، أما الأصطخري وابن حوقل فكلامهما عام غير دقيق ولا يمكن التعويل عليه في هذا المطلب . فإذا نظرنا في كلام المقدسي بشيء من التدقيق وجدناه حافلاً بالمشاكل ، وخاصة إذا قارناه بكلام الرازي ، والمصطلح الذي يستعمله مضطرب ، ولا غرابة في ذلك ، فهو رجل مشرقي على علم تام بأقاليم المشرق ، وخاصة خراسان وهيطل ، وهو يحاول أن يطبق على الأندلس ما وجد من القواعد هناك ، فشاب كلامه لبس شديد . ولكننا لا نستطيع إلا أن نضعه موضع الاعتبار ، نظراً لقلة ما لدينا من المعلومات عن هذا الموضوع .

يجعل المقدسي قرطبة كورة كبيرة ، ويسمي أقاليمها الرساتيق ، ويقول في رواية المعلومات التي أخذها عن « بعض الأندلسيين » : « قلت : هل بقي لقرطبة غير هذه الرساتيق والمدن ؟ قال : لا ، قلت : فأشبيلية وبجانة ، وذكرت عدة من البلدان ، قال : هذه نواح لها أقاليم ، كما تقول : القيروان وتاهرت وسجلماسة ، وهم يسمون الرستاق إقليماً ، فعلمت أنها كور على قياسنا ، وأنها إن لم تكن أجل من كور هيطل ، فليست بأقل منها ، فيحصل القول وأثبت الدلائل على أن مثل المغرب كمثل المشرق ، كل واحد منهما جانبان ، فكما أن المشرق خراسان وهيطل يفصل بينهما جيحون ، فكذلك المغرب والأندلس يفصل بينهما بحر الروم . غير أنا نعجز عن تكوير الأندلس ، فتركناها على الجملة ، ووصفنا كورة قرطبة لما كثر المخبرون عنها واتضح عندنا أمرها . وعرضت كتابي على شيخ من مشايخهم ، فقال : على هذا القياس يجب أن تكون الأندلس ثماني عشرة كورة ، فعدَّ : بجانة ـ مالقة ـ بلنسية ـ تدمير ـ سرقوسة (كذا وصحتها سرقسطة) ـ يابسة (كذا ، وربما كانت صحتها

بياسة) ـ وادي الحجارة ـ تطيلة ـ وشقة ـ مدينة سالم ـ طليطلة ـ أشبيلية ـ طليوث ـ باجة ـ قرطبة ـ الجزيرة الخضراء . وسألت آخر ، فقال : صدق ، وزاد إلبيرة ـ خُشْنُبَة . ويجوز أن يكون بعض هذه البلدان نواحي قياساً على إيلاق وكشْ والصَّغانيان ، والله أعلم بالصواب »(١) .

ولو عددنا الكور التي يذكرها لوجدناها ١٧ لا ١٨ ، فإذا أضفنا إليها الاثنتين اللتين يذكرهما بعد ذلك كان الحاصل ١٩ كورة ، ثم إنه يذكر كورا مثل سرقوسة ويابسة ، ليست من كور الأندلس ، ونظن أنه ينبغي تصحيح الأولى إلى سرقسطة والثانية إلى بياسة . ومعلوماته كلها في هذا الصدد غير دقيقة ، وعذره واضح . ولكن له عبارة تستوقف النظر لعظيم دلالتها ، وذلك حيث يقول : « وأما الأندلس ، فنظيرها هيطل من جانب المشرق ، غير أننا لا نقف على نواحيها فنكورها ، ولم ندخلها فنقسمها ، ويقال إنها ألف ميل »(٢) ، وموضع الغرابة في هذه العبارة أن الأصطخري كتبها بينما كان كتاب الرازي في جغرافية الأندلس ذائعاً بين الناس منذ أمد طويل . ومن عجب أن مثل الأصطخري ـ على تدقيقه وسعة اطلاعه ـ لا يستأنس بمثل هذا المرجع . وهذا القول يصدق كذلك على ابن حوقل ، وإذا كنا نستنتج من ذلك شيئاً ، فهو أن كتاب الرازي لم يكن متداولاً بالصورة التي نتصورها إلى نهاية القرن الرابع الهجري ، أما بعد ذلك فقد كان المرجع الأول لمن كتب في صفة الأندلس .

ويذهب المقدسي إلى أن الكورة في الأندلس تعادل الرستاق والإقليم في المشرق ، وعبارته هنا مضطربة لا نستطيع الاعتماد عليها ، فهو يقول : « وهم يسمون الرستاق إقليماً ، فعلمت أنها كور على قياسنا » ، ثم إنه يقول : « قلت : وهل بقي لقرطبة غير هذه الرساتيق والمدن ؟ قال : لا » ، ونخلص من ذلك بأن المقدسي يرى أن الأندلس تنقسم إلى كور ، والكور تنقسم إلى

---

(١) شمس الدين المقدسي : أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم ، (طبعة دي خويه) لايدن ١٩٠٦ ، ص ٢٣٤ ـ ٢٣٥ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٢٢٢ .

رساتيق ، أي أقاليم ، وهذا ينطبق على تعريف ياقوت الحموي للكورة وللرستاق[1] .

والغالب على الجغرافيين المسلمين فيما يتصل بالأندلس أن يكتفوا بذكر المدن كناية عن الكور التي هي قواعدها ، فيقولون مثلاً : جيان وماردة ويريدون كورتي جيان وماردة . وقد وقعوا بسبب ذلك في أخطاء واضحة ، لأن الكورة في الأندلس كانت تضم أكثر من مدينة كبيرة ، وليست كل مدينة كورة ، وإنما جاء الخطأ من أن المدن في الأندلس كانت لها أحواز تابعة لها ، وهي التي سميت أقاليم ، فنظر الجغرافيون فوجدوا مدناً لها أقاليم ، فحسبوا أن كل مدينة كورة .

٢٦٥ ـ نصوص جديدة

وبين أيدينا الآن ثلاثة نصوص جديدة غاية في الأهمية بالنسبة إلى موضوعنا : الأول أصل كامل للترجمة البرتغالية لجغرافية إسبانيا للرازي ، والثاني مختصر لجغرافية الرازي وضعه ابن غالب وضمنه كتابه « فرحة الأنفس » ، والثالث قطعة صالحة من جغرافية أحمد بن عمر بن أنس العذري للأندلس .

٢٦٦ ـ ترجمة كاملة لجغرافية الرازي

فأما الترجمة البرتغالية لنص جغرافية أحمد بن محمد الرازي فهي أكمل ما لدينا من النصوص المترجمة لهذه الجغرافية التي ضاع أصلها العربي ، وقد عثر عليها الأستاذ البرتغالي لويس لندلي سنترا ضمن نسخة كاملة من ترجمة برتغالية كاملة لتاريخ إسبانيا العام الذي صنفه الملك العام ألفونسو العاشر ، وترجم القطعة الجغرافية إلى الفرنسية الأستاذ ليفي بروفنسال ونشرها في مجلة الأندلس ، وقدم لها بمقدمة قال فيها إن هذه النسخة أكمل من كل ما لدينا من ترجمات جغرافية الرازي ، وذكر كيف أن هذه الجغرافية ـ في صورتها العربية ـ هي الأصل الذي نقله عدد عظيم من الجغرافيين وأولهم في المغرب أبو عبيد البكري وابن عبد المنعم الحميري ، وفي المشرق القزويني . وقال إن هذا النص يدل على أن الناقلين عن الرازي قد

---

(١) ياقوت : معجم البلدان ، (طبعة الخانجي) ، جـ ١ ، ص ٢٦ ـ ٢٨ .

أفسدوا هيكل جغرافيته بما أدخلوه من معلومات جغرافية ، ظنوا أنها تضيف شيئاً ، واستطرادات تاريخية ضيعت الكثير من نظام الأصل وتناسقه[١] .

٢٦٧ ـ تعليق منتقى من « فرحة الأنفس » لابن غالب

وأما قطعة محمد بن أيوب بن غالب فقد نشرها الدكتور لطفي عبد البديع في مجلة معهد المخطوطات العربية ، وهي ليست نص ابن غالب بل « تعليقاً منتقى » منه كما يدل على ذلك العنوان . ولكننا ما نكاد نطالعه حتى نتبين أن ابن غالب قد نقل جغرافية الرازي نقلاً حرفياً في معظم المواضيع ، وأفسد هذا النقل هنا وهناك باختصارات أخلت بالسياق وإضافات من عنده . غير أننا نستطيع بمقابلة النص المترجم لجغرافية الرازي بهذا النص أن نستخرج جغرافية الرازي كاملة مع الاستعانة بالفقرات التي نقلها عنه البكري وابن سعيد والمقري وابن الخطيب وغيرهم . وقد كونا نحن هذا النص الكامل للاستعانة به في هذا الفصل عن تقسيم الأندلس الإداري . وسنرى في الفصل التالي أن الرازي اعتمد في تصنيف جغرافيته على صفة للأندلس صنعها المؤرخ اللاتيني الإسباني باولوس أوروزيوس المعروف عند العرب بهروشيش[٢] .

٢٦٨ ـ قطعة من جغرافية العذري

والقطعة الثالثة نص فريد في بابه لأحمد بن أنس العذري في جغرافية الأندلس ، عثر عليه الدكتور عبد العزيز الأهواني وتفضل فأذن لنا في الاستفادة منه . ومن أسف أن النص ناقص ، فهو لا يتناول إلا بضع نواح من الأندلس ، ولكنه

---

(١) LEVI - PROVENÇAL, *La description de l'Espagne d'Ahmad al - Razi.* al - Andalus, vol. xviii 1953, fasc. I pp. 51 sqq.

وهي ترجمة فرنسية للنص الذي نشره لويس لندلي سنترا .

Cronica Geral de Espanha de 1344. edicao critica de texto portugues por LUIS F. LINDLEY CINTRA. II, Lisboa 1952 (Academia Portuguesa de Historia).

ونص جغرافية الرازي يقع في صفحات ٣٩ ـ ٧٥ من هذه الطبعة .

(٢) الدكتور لطفي عبد البديع : نص أندلسي جديد : قطعة من كتاب « فرحة الأنفس » لابن غالب عن كور الأندلس ومدنها بعد الأربعمائة . وعنوان القطعة : تعليق منتقى من [فرحة] الأنفس =

تناولها تناولاً شاملاً عظيم القيمة بالنسبة إلى موضوعنا[1] .

وإذا نحن درسنا المعلومات التي تتضمنها هذه الأصول الثلاثة على ضوء البيانات القيمة التي يقدمها لنا ياقوت في مقدمة « معجم البلدان » وفي تضاعيف مواده الخاصة بالأندلس خرجنا بنتائج إيجابية تمكننا من تصور التقسيم الإداري للأندلس الإسلامي تصوراً لا يبعد عن الحقيقة كثيراً . وأول ما يستوقف نظرنا أن الأندلس كان له من أول الأمر نظام خاص يختلف كثيراً عن النظم التي جرى عليها العمل في الدولة الاسلامية . وإذا كان المسلمون قد جروا في التقسيم على أسامى الكورة والرستاق في بلاد الجزيرة وما يليها شرقاً ، ونظام الكورة فقط فيما يتصل بمصر ، ونظام الأجناد فيما يتصل بالشام ، فإن الأندلس لم يعرف هذه التقسيمات المشرقية إلا في صورة معدلة تتفق مع ظروفه الخاصة ، بل هو لم يعرف نظام الرساتيق أصلاً ، وكان تطبيق نظام الأجناد فيه تطبيقاً محدوداً من حيث المساحة التي طبق عليها ومن حيث طبيعته ذاتها كما رأينا .

ونبدأ فنلاحظ أن الترجمات التي لدينا لجغرافية الرازي تقسمها إلى أقسام تسميها (Distritos) أو (Districts) وهي لفظة يجعلها ليفي بروفنسال معادلة للفظ كورة . فإذا قارنا ذلك بنص ابن غالب ، لاحظنا أن هذا الأخير يذكر نوعين من الأقسام الإدارية : الكورة والمدينة ، ولكي نستطيع تبين المراد بهذين المصطلحين والفرق بينهما نذكر ما يورده من الكور والمدن :

الكور : قبرة ـ البيرة ـ جيان ـ تدمير ـ بلنسية ـ ماردة ـ باجة ـ لبلة ـ

= في تاريخ الأندلس ، للحافظ محمد بن أيوب بن غالب الأندلسي ، مجلة معهد المخطوطات العربية مجلد ١ ، جزء ٢ (القاهرة نوفمبر ١٩٥٥) ، ص ٢٧٢ وما يليها .

(١) عثرت على ترجمة العذري واسم كتابه عند ياقوت ، فقد قال في مادة المرية : « وينسب اليها أبو العباس أحمد بن عمر بن أنس العذري ، ويعرف بالدلائي المري . رحل إلى مكة وسمع من أبي العباس أحمد بن الحسين الرازي وطبقته ، وبمصر جماعة أخرى . وهو مكثر ، سمع منه الحميري وابن عبد البر وأبو محمد بن حزم ، وكانا شيخيه ، سمع منهما ، وكان قديماً كلما رجع من المشرق سمعا منه . وله تآليف حسان ، منها « كتاب أعلام النبوة » وكتابه المسمى « نظام المرجان في المسالك والممالك » . ومولده في ذي القعدة سنة ٣٩٣ وتوفي سنة ٤٧٦ وقيل ٧٨ ببلنسية » .
ياقوت : معجم البلدان ، طبعة الخانجي ، جـ ٨ ، ص ٤٣ .

قرمونة ـ أشبيلية ـ مورور ـ شذونة ـ الجزيرة الخضراء ـ رية ـ أستجة .

المدن : طرطوشة ـ طركونة ـ لاردة ـ بريطانية ـ أشقة ـ تطيلة ـ سرقسطة ـ مدينة سالم ـ شنتبرية ـ طليطلة ـ قلعة رباح ـ أوريط ـ فريش ـ شنترين ـ أشبونة . أكشونبة ـ قرطمة ـ حصن ببشتر .

وهذا بخلاف قرطبة ، وكان لها وضع خاص سنتحدث عنه .

ونلاحظ أن صاحب « التعليق المنتقى » من « فرحة الأنفس » قد وقع في أخطاء في عملية التلخيص ، فقد ذكر مثلاً « لبلة » تحت اسم حصون لبلة ، والحقيقة كما يتبين من « ياقوت » أن لبلة كورة ، وكذلك جعل « قرطمة » مدينة قائمة بذاتها مع أنها عند الرازي وياقوت مدينة من مدن كورة رية . ويلاحظ أيضاً أن « الانتقاء » من « فرحة الأنفس » عمد إلى اختصار مخل في بعض الأحيان ، فقد روى ياقوت عن ابن غالب نفسه قطعاً كبيرة هامة ساقطة من التعليق الذي بين أيدينا . وسنشير في بعض تعليقاتنا إلى أخطاء أخرى وقع فيها صاحب التعليق .

أما النص المترجم لجغرافية الرازي ، فواضح أن المترجمين أدخلوا يدهم فيه ، فأضافوا أشياء جديدة لا يمكن أن تكون عند الرازي ، وفي بعض الأحيان تكون الإضافة خفية يعسر تبينها ، وفي أحيان أخرى تكون واضحة يلحظها القارىء وهو يتصفح ، ومن ذلك إضافة كورة باسم أشتانيا (Exitania) بين قلمرية ولشبونة ، وجعله بطليوس كورة ، وكذلك باروشة ورقوبل (Racupel) وسرتة (Zorita) . وواضح أن الذين قاموا بالترجمة لألفونسو العاشر حاولوا تعديل تقسيم إسبانيا على الصورة التي كانت عليها أيام هذا الملك . ومن هنا فإن ذلك النص قد يفيد الذين يدرسون نظم إسبانيا النصرانية في القرن الثاني عشر الميلادي فائدة لا يجدونها في أصل آخر . وستظهر هذه الإضافات كلها في جغرافية الإدريسي ، مما يدل على أن هذه الترجمة المحرفة كانت بين يديه وهو يؤلف كتابه .

* * *

٢٦٩ ـ التقسيم إلى مدن وكور وبعد ذلك نسأل : ما السر في التقسيم إلى مدن وكور ؟ إذاً نظرنا إلى « المدن » وجدناها تشبه الكور إلى حد بعيد ، فلكل مدينة منها حوز واسع فيه أقاليم ومدن أخرى وقرى ، فمدينة طرطوشة « لها حصون كثيرة وأقاليم واسعة »[1] ، ومدينة لاردة « لها حصون كثيرة »[2] ، ومدينة بريطانية لها أحواز ومدن ، « فمن مدنها ببشتر وهي من أمهات مدن الثغر » ، « ولها حصون كثيرة »[3] ، وكذلك مدينة وشقة ، ومدينة تطيلة لها مدائن كبيرة مثل طرسونة وأرنيط وفارة وناجرة[4]، ومدينة فِريش « لها من الأقاليم إقليم لواتة وإقليم المرج وإقليم السند وإقليم قسطانية وإقليم موالي موسى »[5] ، وهكذا . بل إن « ياقوت » يتحدث عن لاردة كما لو كانت كورة ، فيقول : « ينسب إلى كورتها عدة مدن وحصون ، تذكر في مواضعها »[6] ، ويقول إن فريش « لها رستاق يكون فيه قرى »[7] ، وهو يتحدث عن شلون ويقول : « ناحية بالأندلس من نواحي سرقسطة نهرها يسقي أربعين ميلاً طولاً »[8] ، والناحية هنا هي الإقليم ، لأنه يقول إن أهل الأندلس « يسمون الناحية إقليماً » ، أي أن ناحية واحدة من نواحي مدينة سرقسطة تبلغ ٤٠ ميلاً طولاً ، وهو يذكر أوقانية (Ocana) ويقول : « جبل من أعمال طليطلة بالأندلس من ناحية القاسم فيه قرى وحصون »[9] ، ويذكر أشقة ويقول :

---

(١) ابن غالب : فرحة الأنفس ، ص ٢٨٦ .

(٢) نفس المصدر والصفحة .

(٣) نفس المصدر والصفحة .

(٤) نفس المصدر ، ص ٢٨٧ .

(٥) نفس المصدر ، ص ٢٨٩ ـ ٢٩٠ .

(٦) ياقوت : معجم البلدان ، جـ ٧ ، ص ٣١٣ .

(٧) ياقوت ، جـ ٦ ، ص ٣٧٤ .

(٨) ياقوت ، جـ ٥ ، ص ٢٩٠ .

(٩) ياقوت ، جـ ٢ ، ص ٣٧٦ .

« مدينة بالأندلس متصلة الأعمال بأعمال بريطانية »[١] . وعندما يتحدث عن طرطوشة يقول : « مدينة بالأندلس تتصل بكورة بلنسية، ولها ولاية واسعة كثيرة وبلاد في جملتها »[٢] . ويقول عن مدينة قلعة أيوب : « مدينة عظيمة جليلة القدر بالأندلس بالثغر . . من أعمال سرقسطة ، ولها عدة حصون »[٣] ، ويقول عن قَلَهُرة : « مدينة من أعمال تطيلة في شرق الأندلس » ، أي أن مدينة تطيلة تتبعها مدينة أخرى هي قلهرة[٤] . ويقول عن بقيرة (Viguera) : « مدينة في شرق الأندلس معدودة من أعمال تطيلة ، بينهما أحد عشر فرسخاً » [٥] .

ويفهم من ذلك كله أن هناك أقساماً إدارية تسمى مدناً أو تنسب إلى مدن ، أقسام واسعة لها أحواز فسيحة فيها مدن كبيرة وقرى وحصون . وهذا شيء لا شبه له في المشرق . فإن المدينة هناك مدينة ولا زيادة ، لها خططها وأرباضها ، وهي بدورها تتبع الكورة التي تقع فيها . أي أن نظام المدن كأقسام إدارية لم يعرف إلا في الأندلس .

فإذا نظرنا إلى هذا النوع من المدن وجدناه كله في الثغور الشمالية والغربية . كلها تقع في حوض نهر إبرة ، وما بين إبرة وتاجة ، وفي حوض تاجة ، ثم بين المجرى الأدنى للوادي آنة وساحل المحيط ، فيما عدا فريش ، وسنتحدث عنها فيما بعد ، أي أنها كانت النواحي الثغرية ، السياج الذي يحمي الأندلس الإسباني . وهذا السياج يبدأ عند طرطوشة في الشرق ثم طركونة فلاردة ـ بريطانية ، وشقة ، تطيلة ـ سرقسطة ـ مدينة سالم ـ شنتبرية ـ طليلة وقلعة رباح ـ أشبونة ـ أكشونبة .

وهناك ثلاث من هذه المدن تستوقف انتباهنا بصورة خاصة ، هي قرطبة

(١) ياقوت ، جـ ١ ، ص ٢٩٥ .
(٢) ياقوت ، جـ ٦ ، ص ٤٢ .
(٣) ياقوت ، جـ ٧ ، ص ١٤٨ ـ ١٤٩
(٤) ياقوت ، جـ ٧ ، ص ١٥٤ .
(٥) ياقوت ، جـ ٢ ، ص ٢٥٣ .

وطليطلة وسرقسطة . فأما قرطبة فلا تذكر النصوص أنها كورة ، بل مدينة تتبعها أقاليم ومدن أخرى ، بل إن ابن عبد المنعم الحميري يقول عن قرطبة : « وهي في ذاتها مدن خمس يتلو بعضها بعضاً ، وبين المدينة والمدينة سور حاجز ، وفي كل مدينة مايكفيها من الأسواق والفنادق والحمامات وسائر الصناعات »[1] ، وليس في تخطيط قرطبة كما نعرفه ما يؤيد أنها كانت تحيط بها خمسة أسوار ، وإنما الذي يفهم من ذلك أنها كانت مدينة ذات حوز واسع فيه خمس مدن تتبعها ، ويفسر ذلك قول المقدسي في « أحسن التقاسيم » : « وسألت بعض العقلاء منهم على الرساتيق المحيطة بقرطبة والمنسوبة إليها والمدن ، فقال : إنا نسمي الرستاق إقليماً ، فالأقاليم المحيطة بقرطبة ثلاثة عشر مع مدنها ، فذكر أرجونة ، قسطلة ، شوذر ، مارتش ، قنبانش ، فج ابن لقيط . . الخ »[2] ، أي أن المراد بمدن قرطبة أقاليمها ، وسنعود إلى هذه العبارة بعد قليل . بل يبدو أن ابن عبد المنعم الحميري اختلط عليه أمر أبواب قرطبة فحسبها أسواراً ، فقد ذكر المقدسي أن « للمدينة خمسة أبواب : باب الحديد ، باب العطارين ، باب القنطرة ، باب اليهود ، باب عامر » . وليس لدينا من أي مرجع ذكر لكورة تسمى كورة قرطبة ، مما يفهم منه أنها كانت « مدينة » على النظام الأندلسي الذي ذكرناه .

وينطبق ذلك أيضاً على سرقسطة وطليطلة ، فهما أما تذكران دون صفة معينة ، أو يقال « مدينة » . ومع ذلك فقد كانت كل منهما ذات « ولاية واسعة » تتبعها مدن وحصون وقرى ، فسرقسطة « لها مدن ومعاقل ، منها مدينة قلعة أيوب ، عظيمة جليلة القدر ، ولها من الأقاليم عدة »[3] . وكذلك طليطلة فهي « من أجلّ المدن قدراً وأعظمها خطراً وأشدها حصانة . . ولها من الأقاليم إقليم شاقرة وفيه حصون عدة ، ثم إقليم ششلة ، ومدينة وقش ، ثم إقليم الأشبورة وإقليم القاسم وغير ذلك »[4] . وابن عبد المنعم الحميري يذكر طليطلة على أنها

---

(١) ابن عبد المنعم الحميري : الروض المعطار ، ص ١٥٣ .

(٢) المقدسي : أحسن التقاسيم ، ص ٢٢٢ .

(٣) ابن غالب : فرحة الأنفس ، ص ٢٨٨ .

(٤) نفس المصدر ، ص ٢٨٨ - ٢٨٩ .

مدينة ، ويقول : « ولها من جميع جهاتها أقاليم رفيعة وقلاع منيعة ، وعلى بعد منها في جهة الشمال الجبل المعروف بالشارات »[1] ، وياقوت يقول : « طليطلة مدينة كبيرة ذات خصائص محمودة بالأندلس ، يتصل عملها بعمل وادي الحجارة من أعمال الأندلس ، وهي غربي ثغر الروم وبين الجوف والشرق »[2] .

وأما فريش ، فهي درع قرطبة ، فهي بأقاليمها الواسعة تقوم إلى الشمال الغربي من العاصمة ، وتمتد أقاليمها شمالها وشمال شرقيها ، وهذه الأقاليم كثيرة يذكر منها ابن غالب خمسة ، هي «إقليم لواتة وإقليم المرج وإقليم السند وإقليم قسطانية وإقليم موالي موسى »[3] ، فهي إذاً في عداد الثغور ، ولهذا ظل حكمها حكم الثغور ، واعتبرت مدينة .

وإذا تذكرنا قسمة قسطنطين التي حَدَّت الأندلس حدوداً ستة هي : نربونة وجليقية وطركونة وطليطلة وماردة وأشبيلية ، والتي قام على أساسها التقسيم الكنسي إلى ست مطرانيات هي : جليقية وقاعدتها براقرة ، ولشدانية وقاعدتها ماردة ، وباطقة وقاعدتها أشبيلية ، وقرطاجنة وقاعدتها طليطلة ، وطركونة وقاعدتها طركونة ، وأربونة وقاعدتها أربونة ، لاحظنا أن اثنين من هذه الأقسام خرجا من أول الأمر عن نطاق الأندلس الاسلامي هما جليقية وأربونة ، فالباقية هي لشدانية وباطقة وقرطاجنة وطركونة ، وإذا ذكرناها بقواعدها قلنا ماردة أشبيلية وطليطلة وطركونة ، وقد استبدل المسلمون أشبيلية بقرطبة وطركونة بسرقسطة ، أي أن الباقية على هذا الأساس هي أقسام ماردة وقرطبة وطليطلة وسرقسطة . وهذا يفسر لنا بقاء الثلاث الأخيرات من هذه مدناً ، فقد كانت كل منها على أيام الرومان فالقوط قاعدة قسم إداري كبير يعدل سدس البلاد ، أو قاعدة ولاية كبيرة تضم عدداً من الديقونيات على النظام الروماني

---

(١) ابن عبد المنعم الحميري : الروض المعطار ، ص ١٣٢ .

(٢) ياقوت ، جـ ٦ ، ص ٥٦ ـ ٥٧ .

(٣) ابن غالب : فرحة الأندلس ، ص ٢٩٠ .

حسب تقسيم دقلديانوس ، والديقونية ليست ولاية ، وإنما هي مدينة لها حوز أو زمام ، وقد أصبحت هذه المدن تسمى دوقيات أو كونتيات على أيام القوط ، وعلى هذه الهيئة دخلت في التنظيم الإسلامي ، فبقيت مدناً لها أحواز[١] .

* * *

٢٧٠ ـ المدينة كقسم إداري

والخلاصة أنه كانت هناك كور ومدن ذات أحواز واسعة حتى اشتبهت بالكور . وقد عبر عن ذلك ابن حوقل بقوله : « وفيها ـ أي في الأندلس ـ مدن يزيد بعضها على بعض في المحل والجباية والارتفاع والولاة والقضاة والمخلَّفين على رفع الأخبار ، ويقال لأحدهم مخلَّف ، وليس بها مدينة غير معمورة ذات رستاق فسيح إلى كورة ، فيها ضياع عداد واكرة وسعة وماشية وسائمة وعدة وعتاد وكراع »[٢] ، وإذاً فليس في الأندلس ـ على قول ابن حوقل ـ إلا مدينة ذات رستاق فسيح أو كورة ، وهذا هو الذي قلناه .

وهذا هو الذي حير الجغرافيين المشارقة في أمر تقسيم الأندلس ، فالأصطخري يقول : « والأندلس بلدان عريضة كثيرة المدن خصبة واسعة ، ومدينتها العظمى تسمى قرطبة »[٣] ، ثم يمضي في وصف الأندلس فلا يذكر غير المدن ويقول مثلاً : « ثم إلى بلاد مرسية على مدينة لقنت ، إلى بلاد بلنسية » ، ثم يقول : « وهذه المدن التي ذكرناها على الشط كلها مدن كبار عامرة » ، ثم « ومن مشاهير مدن الأندلس جيان وطليطلة ونفزة وسرقسطة ولاردة ووادي الحجارة وتُرجالة وقورية وماردة وباجة وغافق ولبلة وقرمونة ومورور وأستجة ورية ، وكلها مدن عظام »[٤] ، ثم « ووادي الحجارة مدينة ،

---

(١) LEVI - PROVENÇAL, *Hist. de l'Espagne Musulmane,* tome III (Paris, 1953) p. 48.

(٢) ابن حوقل : كتاب صورة الأرض ، الطبعة الثانية ، لايدن ١٩٣٨ ، جـ ١ ، ص ١١٦ .

(٣) الأصطخري : مسالك الممالك ، ص ٤١ .

نفس المصدر ، ص ٤١ ـ ٤٢ .

وهي وما حواليها من المدن والقرى تعرف بمدن بني سالم » . وهو لا يذكر « الكورة » في الأندلس إلا في ثلاث حالات : «ورية كورة عظيمة خصيبة ومدينتها أوجدونة ، ومنها كان عمر بن حفصون ، الذي خرج على بني أمية بها ، وفحص البلوط كورة خصبة واسعة ، ومدينتها غافق ، وقورية مدينة كانت كبيرة إلا أنها خربت بعصبية وقعت بينهم . . . وماردة من أعظم مدن الأندلس وكذلك طليطلة . . وشنترين كورة عظيمة ومدينتها قلمرية . . »[(١)] ، أي أن الأمر مختلط عليه ، فمعظم الأندلس عنده مدن لها بلاد ، فيما عدا ثلاث يجعلها كوراً مع خلط واضح . هذا مع علمنا باهتمام الأصطخري بالتقسيمات الإدارية ، وذكره الكور والرساتيق بالتحديد في كل ناحية يتحدث عنها [(٢)] .

وموقف المقدسي ، وهو لا يقل عن الأصطخري اهتماماً بالتقسيمات الإدارية ، لا يختلف عن موقف الأصطخري ، فهو يقول : « وأما الأندلس فنظيرها هيطل من جانب المشرق ، غير أنا لا نقف على نواحيها فنكورها ، ولم ندخلها فنقسمها ، ويقال إنها ألف ميل ، وقال ابن خرداذبة : الأندلس أربعون مدينة ، يعني المشهور منها ، لأن أحداً لم يسبقنا إلى تفصيل الكور ووضع القصبات ، فبعض المدن التي ذَكر قصبات على قياس ما رتبنا . وسألت بعض العقلاء منهم على الرساتيق المحيطة بقرطبة ، والمنسوبة إليها ، والمدن ، فقال : إنا نسمي الرستاق إقليماً ، فالأقاليم المحيطة بقرطبة ثلاثة عشر مع مدنها ، فذكر أرجونة ، قسطلة ، شوذر ، مارتش ، قنبانش ، فج ابن لقيط ، بلاط مروان ، حصن بُلكونة ، الشنيدة (السند ؟) ، وادي عبد الله ، فريش ، المائدة ، جيان ، وعلى ما دل آخر الاسم ، هي ناحية مدنها : الجعز ، بيغوا ، مارتش ، قانت (يريد لقنت) ، غرناتة ، منتيشة ، بياسة ، وسائر مدن الأندلس المذكورة : طرطوشة ، بلنسية ، مرسية ، بجانة ، مالقة ، جزيرة جبل طارق ، شذونة ، أشبيلية ، أخشنبة ، مرية ، شنترين ، باجة ، لبلة ، قرمونة ،

---

(١) نفس المصدر ، ص ٤٣ .

(٢) لاحظ مثلاً دقته في الكلام عن فارس وعنايته الشديدة بتقسيماتها الإدارية ، ص ١٠٠ وما بعدها .

مـورور ، أستجة »[1] ، وهـذا كلام مختلط بعض الشيء ولكننـا نخرج منـه بمـا يلي :

١ ـ إن ابن خرداذبة يقول إن الأندلس أربعون مدينة .

٢ ـ إن أحـداً من الجغـرافيـين والكتـاب لم يسبق المقـدسي إلى ذكـر كـور الأندلس وقصبات هذه الكور .

٣ ـ إن أهل الأندلس يسمون الرستاق اقليماً .

٤ ـ إن أقاليم قرطبة ١٣ .

٥ ـ سائر مدن الأندلس المذكورة ١٦ ذكرها بأسمائها ، وجعلها كلها مدناً ليس فيها كورة واحدة .

وللأصطخري نص آخر طويل ملخصه ما يلي :

١ ـ إن لقرطبة ١٣ رستاقاً هي :

أرجونة على ١٥ ميلاً .

قسطلة على ١٣ ميلاً من أرجونة .

شوذر على ١٨ ميلاً من قرطبة .

مارتش على ١٥ ميلاً من قرطبة .

قنبانش على ١٥ ميلاً من قرطبة بموضع يقال له قنبانية .

مرج ابن لقيط على ٢٥ ميلاً من قرطبة .

بلاط مروان على ٣٠ ميلاً من قرطبة .

بريانة .

---

(١) المقدسي : أحسن التقاسيم ، ص ٢٢٣ ـ ٢٢٤ .

حصن بلكونة على ٤٠ ميلاً من قرطبة .

الشنيدة (السند) على يومين من قرطبة ، المنزل فج ابن لقيط .

وادي عبد الله على ٤٠ ميلاً من قرطبة ، المنزل وادي الرمان .

فريش على ٦٠ ميلاً من قرطبة .

جيان على ٥٠ ميلاً من قرطبة ، إسم الرستاق أولبة .

٢ ـ يعتبر الأصطخري جيان كورة ، ويقول إن « بكورتها حر هو في عداد نواحيها » . ومن رأينا أن « حر » ينبغي أن تقرأ : جزء .

ومدنها ، أي مدن جيان :

الجعز على ١٠ أميال من جيان .

بيغوا .

مارتش في قنبانية .

منتيشة .

غرناطة ، على واد به منية طوله ١٣ ميلاً فيه للسلطان كل عجيبة .
بياسة .

٣ ـ ويقول : قلت : هل بقي لقرطبة غير هذه الرساتيق والمدن ؟ ، قال : لا ، قلت : فأشبيلية وبجانة ، وذكرت عدة من البلدان ، قال : هذه نواح لها أقاليم ، كما تقول : القيروان وتاهرت وسجلماسة . وهم يسمون الرستاق إقليماً ، فعلمت أنها كور على قياسنا .

٤ ـ عرض المقدسي كلامه على شيخ من مشايخهم ، فقال : على هذا القياس يجب أن تكون الأندلس ١٨ كورة ، فعد : بجانة ـ مالقة ـ بلنسية ـ تدمير ـ سرقسطة ـ يابسة ؟ ـ وادي الحجارة ـ تطيلة ـ وشقة ـ مدينة سالم ـ

طليطلة ـ أشبيلية ـ بطليوث ـ باجة ـ قرطبة ـ شذونة ـ الجزيرة الخضراء .

وزاد آخر : إلبيرة ـ خشنبة[1] .

وغريب أن يخلط المقدسي هذا الخلط مع أنه كتب كتابه بعد الرازي بنحو قرن ، فإن جغرافية الرازي كتبت حوالي سنة ٨٩٠ م في حين أن المقدسي كتب كتابه سنة ٩٨٥ . ومن الواضح أنه لم ينظر فيه واكتفى بالاعتماد على معلومات أخذها عن بعض الأندلسيين مشافهة ، وربما كانت لمعلوماته لهذا السبب أهمية خاصة .

والمهم لدينا أن أولئك الأندلسيين قالوا إن بلادهم أقاليم ، وإنهم يسمون الرستاق إقليماً ، والمعروف أن الرستاق جزء من الكورة ، وعندما أرادوا أن يطبقوا تقاسيم المشرق على الأندلس قالوا إن الأندلس يجب أن تكون على ذلك ١٣ كورة . ويهمنا في كلامه ما نقله عن ابن خرداذبة أن الأندلس ٤٠ مدينة ، وحقيقة قال ابن خرداذبة ذلك ، وقد ألف ابن خرداذبة كتابه بين سنتي ٢٣٠ و ٢٣٤ / ٨٤٤ ـ ٨٤٨ ، وقال ذلك أيضاً اليعقوبي الذي كتب بعد ذلك بخمس عشرة سنة ، والهمداني وقد كتب بعد اليعقوبي بثلاثين سنة . أما معاصره ابن رستة فحديثة عن الأندلس قليل القيمة[2] .

فإذا كان أوائل الجغرافيين ـ من أمثال ابن خرداذبة واليعقوبي والهمداني وابن رستة ـ لا يشيرون صراحة إلى أن الأندلس كان مقسماً إلى كور ، وإنما هو عندهم مقسم إلى مدن ، ولا يذكرون « الكورة » إلا نادراً وعلى سبيل التجوز لا التحديد ، وإذا كان متأخروهم ـ كالأصطخري وابن حوقل والمقدسي ـ ينصون على « المدن » نصاً صريحاً ، فلا تذكر الكورة عندهم إلا على سبيل الشرح والتوضيح ، كما رأينا في حالة المقدسي ، فإن ذلك يدل على أن الأساس الأول

---

(١) المقدسي : أحسن التقاسيم ، ص ٢٣٤ ـ ٢٣٦ .

(٢) Cf : JOSE ALEMANY BOLUFER, *La geografia de la Peninsula Ibercia en los escritores arabes* (Revista del Centro de Estudios Historicos de Cranada y su Reino) tomo IX 1919 n. 3 - 4 pp. 119 sqq.

الـذي اتخذ لتقسيم الأنـدلس كان الأسـاس الرومـاني والقوطي من بعـده ، وهو نـظام المدن ذات الحـوز . فإذا قـالوا مـدينة تـطيلة مثلاً أرادوا بـذلك « ولايـة » واسعـة منـسوبـة إلى تطيلة . ولم نـأت بلفظ « الولايـة » هنا من عنـدنا ، بـل إنه مصطلح يستعمله الجغرافيـون كقول يـاقوت : « طـرطوشـة ، مدينـة بالأنـدلس تتصل بكورة بلنسية ولها ولاية واسعة وبلاد كثيرة تعد في جملتها »[١] . وقـوله : « كـركي ، اسم حصن من أعمال أوريط بـالأنـدلس لـه ولايـة وقـرى »[٢] . و « ولايــة » هي التـرجمــة الإصــطلاحيـة للفظ (Provincia) ، وقــد سميت الـديقونيـات الرومـانية ولايـات دوقية (Provincia Ducado) ودوقيـة كـونتيـة (Provincia Condado)[٣] بحسب رتبـة القـائـد الـذي كـان يتـولاهـا ، لأن الأقسـام الإدارية كلهـا أصبحت وحدات عـسكـريـة ، فقـد كـان القـوط شعبـاً محـارباً . وحـل محلهم العرب ، وكـانوا شعبـاً محاربـاً أيضاً ، فمضـوا على هـذا النظام ، واعتبروا الأندلس كله مدناً لا كوراً .

* * *

٢٧١ - ظهور مصطلح الكورة — أمـا مصطلح الكـورة فلم يظهـر إلا بعد سنـوات ، وظهر عـلى سبيل التجوز لا عـلى أنه مصـطلح إداري . وأول ما نـسمـع به في سنـة ١٣٥ / ٧٥٢ في خبـر تفـريق أبي الخـطار الحسـام بن ضرار الكلبي للشامية على ست كـور مذكـورة بأسمـائهـا وهي : إلبيرة وريـة وشذونة وأشبيلية وجيان وباجة[٤] . وتـذكر أيضـاً تدمـير ولكنها لم تكن إذ ذاك كورة ، وإنما كانت ناحيـة معاهـدة بيد صـاحبها تـدمير ، ولم تصبـح كورة إلا في عهد عبد الرحمن الداخل .

ونـلاحظ أن هذه الكـور كلها في الجنـوب والجنوب الغـربي ، وأنها كانت

---

(١) ياقوت ، جـ ٦ ، ص ٤٣ .

(٢) ياقوت ، جـ ٧ ، ص ٢٤١ .

(٣) LEVI - PROVENÇAL, *op. cit.* III, p. 48.

(٤) ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ٢ ، ص ٣٣ .

كوراً مجندة على نظام أجناد الشام الخمسة ، ولم تكن أجناد الشام « كوراً » ككور مصر مثلاً ، بل كانت مناطق عسكرية كما قلنا . على أن لفظ الكورة يستعمل بعد ذلك ، فقد ذكر صاحب الأخبار المجموعة » أن الصميل بن حاتم ويوسف الفهري ومن معهما « اجتمعوا على يوسف بأن تركوا كورة رية ليحيى بن حريث »[1] .

ويبدو أن نظام الكور فيما يتصل بنواحي الجنوب عمم من أيام عبد الرحمن الداخل ، أما نواحي الثغور التي ذكرناها فقد ظلت مدناً ذات أحواز حتى نهاية أيام الخلافة .

بهذا يكون العرب قد أخذوا ـ فيما يتصل بالتقسيم الإداري ـ بالنظام الروماني القوطي الذي وجدوه ، ثم عدلوه بعض الشيء بحسب ما اقتبسوه من نظم المشرق ومؤثراته ، ولكنهم تركوا نواحي الحدود والثغور كما هي : مدناً عسكرية ذات أحواز[2] .

---

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٥٧ .

(٢) ويلاحظ أن مصطلح الكورة لم يكن في بلاد الإسلام محدد المعنى بالشكل الذي نتصوره ، خذ مثلاً تعريف ياقوت للكورة ، وهو أدق ما لدينا : « ذكر حمزة الأصفهاني أن الكورة اسم فارسي بحت (كذا) يقع على قسم من أقسام الاستان . وقد استعارتها العرب وجعلتها اسماً للأستان ، كما استعارت الإقليم من اليونانيين، فجعلته اسماً للكشخر. فالكورة والأستان واحد . . . قلت أنا : الكورة كل صقع يشتمل على عدة قرى ، ولا بد لتلك القرى من قصبة او مدينة أو نهر يجمع اسمها ذلك اسم الكورة، كقولهم: دارا بجرد مدينة بفارس لها عمل واسع يسمى ذلك العمل بجملته كورة دارا بجرد ، ونحو نهر الملك ، فانه نهر عظيم مخرجه من الفرات ، ويصب في دجلة ، عليه نحو ٣٠٠ قرية ، ويقال كذلك جميعه نهر الملك ، وكذلك ما أشبه ذلك » ـ (ياقوت ، جـ ١ ، ص ٣٦) .

وهذا كلام غير متناسق لا يخرج الإنسان منه بمفهوم واضح للكورة . وربما كان سبب ذلك الغموض أن « الكورة » كمصطلح إداري لم تستعمل بصورة منتظمة الا في مصر ، أما في العراق وما يليه شرقاً فكان المصطلح يستعمل تجوزاً ، وقد استعمله الجغرافيون من أمثال المقدسي والأصطخري للتسهيل . وهما يخلطان بين الكورة والرستاق والرُّم وما الى ذلك من المصطلحات الإدارية . أما في الأندلس ، فلم يستعمل لفظ « كورة » استعمالاً دقيقاً ، وأظهر مثال لذلك استعماله في الروض المعطار . مثلاً : أقليش : « . . . وهي قاعدة كور شنتبرية » (ص ٢٨) =

٢٧٢ - التقسيمات الفرعية : الإقليم

ولكنهم لم يتابعوا المشرق في التقسيمات الفرعية للكور والمدن . فهم لم يقسموا الكورة والمدينة إلى رساتيق أو ما يشبهها . لأن الرستاق - كالكورة - قسم زراعي يشتمل على مساحة مزروعة فيها قرى . ولم تكن المساحات الأرضية هي أساس التقسيم في الأندلس ، بل كانت المدن وما يتصل بها من أحواز . وإذا كانت المدينة تابعة للكورة في المشرق ، فإن الكورة هي التي تتبع المدينة في الأندلس . ولهذا فقد قسمت الكورة أو المدينة في الأندلس إلى مدن أو نواح ، لكل مدينة أو ناحية حوز يسمى إقليم . قال ياقوت في تعريف الرستاق : « قلت : الذي عرفناه وشاهدناه في زماننا في بلاد الفرس أنهم يعنون بالرستاق كل موضع فيه مزارع وقرى . ولا يقال ذلك للمدن كالبصرة وبغداد ، فهو عند الفرس بمنزلة السواد (أي أرض زراعية) عند أهل بغداد ، وهو أخص من الكورة والأستان »[١] .

وقال في تعريف الإقليم عند الأندلسيين : « الاصطلاح الثاني لأهل الأندلس خاصة ، فإنهم يسمون كل قرية كبيرة جامعة إقليماً . وربما لا يعرف هذا الاصطلاح إلا خواصهم ، وهذا قريب مما قدمناه عن حمزة الأصفهاني ، فإذا قال الأندلسي : أنا من إقليم كذا ، فإنما يعني بلدة أو رستاقاً بعينه »[٢] . وهذا تعريف واضح يدل على أن الأندلسيين يعنون بالإقليم القرية الكبيرة أو البلدة وحوزها المتصل بها طبعاً . قارن ذلك بمعنى الإقليم عند المشارقة : « كل ناحية مشتملة على عدة مدن وقرى إقليم ، نحو الصين وخراسان والعراق والشام ومصر وإفريقية ونحو ذلك »[٣] فالإقليم في الأندلس بلدة تتبعها أرض ،

= ألش : « . . . من كور تدمير » (ص ٣١) - إبندة : « . . . مدينة من كور بلنسية » - أوريولة : « . . . حصن بالأندلس ، وهو من كور تدمير » (ص ٣٤) ، ومثل هذا كثير جداً . وقد ذهب ليفي بروفنسال إلى أن كور هنا معناها كورة ، أي أن الجمع يستعمل في معنى المفرد .

LEVI - PROVENÇAL, *Hist. de l'Esp. Mus.* III, 48.

ولكننا نرجح أنه يستعمل الكورة هنا بمعنى الإقليم .

(١) ياقوت : معجم ، جـ ١ ص ٣٧ - ٣٨ .

(٢) ياقوت : معجم ، جـ ١ ، ص ٣٩ .

(٣) نفس المصدر والصفحة .

وفي المشـرق أرض تتبعها بـلاد ، والفرق واضـح لا يحتاج إلى بيـان . في الشرق أخـذ العرب الأسـاس الفـارسي وهـو الأرض ، وفي الأنـدلس أخـذوا الأسـاس الروماني وهو المدينة . ولا عجب والحالة هذه أن كانت مدن الشرق جميعها قرى كبيرة في اضمحلال متصـل ، ومدن الأنـدلس مدنـاً حقيقية ذات نـظام وتخطيط وهيئة ، وكانت في صعود دائماً . ولا غـرابة في أن يفـاخر المقـري المشارقـة بمدن الأنـدلس ، ويقول إننـا نجـد في الأنـدلس المـدينـة الكبيـرة إلى جـانب المـدينـة الكبيرة . ولا غرابة أيضاً في أن نجد فكرة أمراء الأندلس في إنشاء المدن أقرب إلى المفهوم الصحيح للمدن ، وما من ناحية اختـطوها هنـاك إلا بقيت إلى يومنـا هذا ، وأمامنا مرسية والمرية وتطيلة ومدينة سالم وقلعة أيوب وما إليها ، نستطيـع أن نقارنها بالبصرة والكوفة وواسط الأنبار والفسـطاط والمهديـة وما إليهـا مما دثـر وذهب أمره ، لأنها إما كانت معسكرات أو مراكز زراعية .

وقد أوردنا فيما سبق أمثلة من الأقاليم التي تنقسم إليها الكور والمدن ذات الأحـواز ، ولكن العـذري يقـدم لنـا نصـوصـاً تـزيـد معنى الإقليم الأنــدلسي وضوحاً ، ويهمنا بصفة خاصة حديثة عن أقاليم قرطبة ، قال :

عدد أقاليم قرطبة ، وهي خمسة عشر إقليماً :

إقليم المُدوَّر :

عدد قراه في المغارم[1] تسعون قرية ، منها في العشور ثلث [. . .]

القمح : ٨٥ مدياً و ٤ أقفزة .

الناض[2] : ٣٩٨٠ مثقالاً .

---

(١) المغرم : تسمية عامة تطلق على الضرائب غير الشرعية ، والجمع مغارم .

(٢) كانت الضرائب على المنقولات في الأنـدلس تجبى نقداً أو عيناً ، فاذا بيعت نقـداً سميت الناض ، وإذا بيعت عينـاً سميت وظيفاً ، وكـان الناض يعتبـر في الأندلس ضـريبة خـاصـة بـالجيش ولهذا يسمى أحياناً الناض للحشد .

الطبل[1] للعام : ٤١٤٠ ديناراً .

الصدقة والبيزرة : ٤١٢ ديناراً و ٤ دراهم .

إقليم القصب :

القرى في الوظائف ٨٧ ، منها في العشور ٥٦ قرية .

القمح	١٤٢ مديا .
الشعير :	١١١ مديا .
الطبل للعام :	٢٧٠٠ ديناراً و ٤ دراهم .
الناض للحشد :	٤٧٧٢ مثقالاً .
الصدقة والبيزرة :	٢٠٣ دنانير و ٤ دراهم .

إقليم لَوْرة :

القرى :	٦٤ قرية . . منها للعشور . . .
القمح :	١٧٣ مدياً و ١٠ أقفزة .
الشعير :	٣٠٠ . . . و . . . قفيز .
الناض للحشد :	٢٤٧٢ مثقالاً .

إقليم الصدف :

القرى :	٢٨ قرية ، منها للعشور . . .
القمح :	٨٩ مدياً و ١١ قفيزاً . . .
الشعير :	١٩٣ مدياً . . .
[الناض] :	[. . .] ٤٧٥ مثقالا .
الصدقة :	[. . .] .
الطبل للعام :	[. . .] ٥٥ [. . .] و $\frac{٢}{٧}$.

(1) الطبل ضريبة شخصية ، كان الناس يؤدونها عيناً ، وتعتبر معونة مالية للدولة في مقابل الخدمة من الإعفاء العسكرية .

إقليم بني مرة :

القرى :	١٧ قرية .
القمح :	١١٧ مديا [. . .] أقفزة .
الشعير :	٢٥٤ مديا و ٣ أقفزة .

إقليم منْيَانة :

القرى :	٢٦ قرية .
القمح :	١٢١ مدياً [. . .] قفيزا .
الشعير :	٢٢٨ مدياً و ٦ أقفزة .
الناض للحشد :	٧٠٠ مثقال .

إقليم كُرتش :

القرى :	٦٠ قرية ، منها للعشور ٣٠ قرية .
القمح :	٢٢٠ مدياً [. . .] أقفزة .
الشعير :	١١٦ مدياً و ٦ أقفزة .
الناض للحشد :	٧٣٠ مثقالاً .
الطبل للعام :	١٧٨٢ ديناراً و ٤ دراهم .
الصقة والبيزرة :	٤٩ ديناراً و ٤ دراهم .

وهكذا بالتفصيل في بقية الأقاليم ، وهذه هي أسماؤها مع عدد قراها :

إقليم الفَتْل : ٤٨ قرية .

إقليم الهزهاز : ٧٣ قرية .

إقليم وايه الملاحة : ٨٤ قرية .

إقليم وايه الشعراء : ٩٤ قرية .

إقليم أولية السهلة : ١٠٢ قرية .

وإلى هنا ينتهي بيان الأقاليم كما يورده العذري ، أي أنه يذكر أن عدد الأقاليم ١٥ ولا يذكر إلا ١٢[١] .

ونخرج من هذا البيان القيم بأن الأقاليم كانت محددة تحديداً دقيقاً بما على كل منها أن تؤديه من الجبايات ، وهذا التحديد لا يذكر ما على كل قرية أن تؤديه بل تذكر جملة ما ينبغي أن يؤديه كل إقليم في مجموعه من أصناف الضرائب . أي أن الإقليم كان وحدة مالية في نظر الدولة ، وهذه هي الحقيقة الأولى التي تهمنا ملاحظتها هنا .

ثم نعود فنسأل : ما هو الأساس الذي عمل عليه هذا التقسيم ؟ لو أن المسلمين هم الذين وضعوه للاحظنا بين الأقاليم لوناً من التناسب في عدد القرى على الأقل ، فلا نجد إقليماً ١٧ قرية وإقليماً ١٠٢ ، ثم إن أسماء معظمها ليس عربياً مما يدل على أن الإقليم بحدوده واسمه كان موجوداً قبلهم ، كما حدث في مصر ، عندما أخذ العرب الباجركيات البيزنطية (Pagarchoi) وسموها كوراً ، وتلك هي الحقيقة الثانية التي يهمنا النص عليها .

وإذاً فالأقاليم وحدات إدارية وجدها العرب بحدودها عند دخولهم ، فتبنوا هذه الحدود وحددوا ما عليها من المال . كل إقليم يضم عدداً من القرى ، فهناك قرى تدفع العشور ، وهي بطبيعة الحال قرى الحبوب ، والزراعات ، وقرى تؤدي جبايات تحدد بحسب طبيعة إنتاجها ، وهي نواحي الثمار والأشجار والزيتون والغابات والصيد والمعادن وما إليها . والقرية في ذاتها ليست وحدة ، بل الإقليم هو الوحدة .

---

(١) قال أبو عبيد البكري : « وبقرطبة أقاليم كثيرة وكور جليلة ، وكانت جباية هذه الأقاليم في أيام الحكم بن هشام :

الحشد وناض الطبل والبيزرة للعام ١٤٢٠٠٠

ومن وظيفة القمح ، مديا ٥٣٠٠٠

ومن الشعير .... ٧٣٠٠٠ ... »

أوراق من جغرافية البكري جمعها ليفي بروفنسال ذيلاً على ترجمته الفرنسية للروض المعطار :
LEVI - PROVENÇAL, *La Péninsule Ibérique*, p. 250 — 251.

وللعذري نص آخر يذكر الأقاليم بحدودها الجغرافية ، اوإذا ضممنا هذا النص إلى النص السابق ازداد معنى الإقليم عندنا وضوحاً . يقول العذري :

أقاليم سرقسطة :

إقليم المدينة : وهو من باب سرقسطة ، قبلةً منها الى عقبة مليلة .

إقليم قصر عباد : وهو متصل بإقليم المدينة . وقصر عباد مجاور لطرطوشة ، وهو في هذا العصر منصرف إلى طرطوشة .

إقليم قُتُنْدة : وهي على ستين ميلاً من مدينة سرقسطة . وفي هذا الإقليم يخرج نهر بلطش (Pleitos) من فج يعرف بفج بذرة (Pedro ?) .

إقليم زيدون : وهو مجاور لطرطوشة ، ومجاور لبلنسية ، ومجاور لتدمير ، ومجاور لشنت بريه . وفي هذا الإقليم من ناحية مدينة غلوازة يتفجر نهر شليقة (Jalico) ثم يمضي حتى يواقع نهر شلون (Jalon) .

إقليم بلطش (Pleitos) : ونهره يسقي من قرية مواله Muela del) (Ebro إلى مدينة سرقسطة ، طول ٢٠ ميلاً ، غرب عن عين بلطش .

إقليم قنتش : وله عين ، يسقي من ناحية بلد نوبة (Villa Nueva) إلى أن يصب ماؤها في نهر إبرة ما طوله ٢٠ ميلاً .

إقليم شلون : وهو غربي من سرقسطة ، ونهره يسقي من قرية قبانس (Cabanas de ebro) وركلة (Ricla) ـ وحكى بعض من يعرف نهر شلون أنه يعم بالسقيا نحو ثمانين قرية .

إلى اخر هذه الأقاليم ، وواضح أن هذه التحديدات كلها زراعية ، تعنى بالري والأنهار والعيون وما تسقيه . والتقسيم الزراعي في أساسه مالي ، لأن الذين يرسمونه ينظرون إلى ما يغله كل قسم وما يؤديه من جباية . ثم إن التحديدات الجغرافية تحديدات ثابتة لا تتغير بتغير الأعصر ، أي أن حدود الأقاليم كما أقرها المسلمون كانت موجودة قبلهم ، فأخذوها كما هي ، بأسمائها في معظم الحالات ، وترجموها أو أعطوها أسماء عربية في أحوال قليلة .

وليس معنى ذلك أن كل الأقاليم أخذها العرب كما هي ، بل الحكم هنا على الأمر الغالب ، لأن استقرار قبائل العرب والبربر في بعض النواحي أوجد أقاليم جديدة تنسب إلى من سكنها ، كإقليم القاسم أو بني القاسم الداخل في حوز مدينة سالم ، فقد كان إقليماً واسعا نسب إلى أولئك القوم ، وهو الذي ذكره الإدريسي باسم إقليم القواصم وصحتها القواسم ، وإقليم بني مرة في حوز قرطبه وإقليم زنانة وإقليم كنانة في حوز بلنسية ، وما إلى ذلك .

٢٧٣ ـ الجزء ويذكر العذري إلى جانب الأقاليم أقساماً إدارية أخرى تسمى الأجزاء ، مفردها « جزء » . وهو يورد هذه الأجزاء بعد الأقاليم مباشرة ، مثال ذلك في كلامه عن بلنسية يقول :

أقاليم بلنسية :

إقليم المَنيرة (Almenara) ، وإقليم أندة (Onda) ، إقليم شُيُرب ؟ ، إقليم زنانة (Zanete) ، وإقليم كنانة (Benicanena) ، إقليم شلينة ، إقليم أولهيل (Ollierea) ، إقليم لباية ، وله رتبة أولية ، إقليم ممح ؟ ، إقليم شارقة (Jerica) .

ثم تلى ذلك الأجزاء دون أي تفصيل :

جزء الساحل ، جزء قلبيرة (Calavera) وجزء الجزيرة ، جزء البيضاء (Albayda) وغلثار ، جزء الأسناد ، جزء فحص شاطبة ، جزء براكانة ، جزء مدينة التراب ، جزء مصمودة ، جزء بني غتيل ، جزء قسطانية ، جزء فقيرة (Viguera) ، جزء مسل ، جزء مربيطر .

ونلاحظ أولاً أن عشرة على الأقل من هذه الأجزاء منسوبة إلى مدن من كورة بلنسية ، وأن اثنين منسوبان إلى أقوام : مصمودة ، بنو غتيل ؛ واثنين منسوبان إلى معالم جغرافية : الساحل ، الأسناد .

وليس هناك ما يدل على أن هذه الأجزاء كان فيها قرى . وقد وقع في ظني أنها قد تكون أجزاء من أقاليم ، فلم يصح ذلك ، ولم يصح أيضاً أن تكون أجزاء أو أحياء من مدينة بلنسية نفسها .

وقد وجدت عند ياقوت ـ وهو كنز الجغرافية الإسلامية ، ولم يدرس بعد دراسة كافية ـ تعريفاً للجزء في الأندلس يعيننا بعض الشيء على فهم معناه ، فقد قال في كلامه عن مدينة رباح : « ولها عدة قرى ونواح ، ويسمونها الأجزاء ، يقوم مقام الإقليم ، كما ذكرنا في اصطلاحهم في لفظة الإقليم في أول الكتاب ، منها جزء البكريين ، وجزء اللخميين وغير ذلك »[1] . وقال تحت لفظ « جزء » : « رمل الجزء بين الشِّحر وبيرين ، طوله مسيرة شهرين ، تنزله أفناء القبائل من اليمن ومعد ؛ وعامتهم من بني خويلد بن عقيل ، قيل إنه يسمى بذلك ، لأن الإبل تجزأ فيه بالكلأ أيام الربيع فلا ترد الماء »[2] . وهذا التعريف ينطبق على ما ذكر آنفاً من الأجزاء : « جزء البكريين وجزء اللخميين وغير ذلك » . ثم لاحظت أن الأجزاء لا توجد إلا في النواحي التي تكثر فيها أراضي المراعي مما نزلته بطون العرب بكثرة : أشبيلية وبلنسية وقلعة أيوب وما يشابهها ، ولا توجد في النواحي المحروثة المزروعة من قديم الزمان ، فإذا أضفنا إلى ذلك ما لاحظناه من أن معظم الأجزاء ينسب إلى مدن ، خرجنا من ذلك بأن الأجزاء قد تكون مساحات من الأرض خصصت للإبل والماشية ، وينطبق عليها حكم أرض العشب والكلأ في التشريع الإسلامي ، فلا تكون مملوكة لأحد ، وإنما مشاعاً للجماعة كلها ، ولا يجبى عنها مال . وقد كانت في شبه الجزيرة أراض كثيرة يجري عليها هذا الحكم من قديم الزمان ، وهي أراضي المراعي المشاع (Compascuas) التي ذكرناها آنفاً .

بهذا تكون قد اجتمعت لنا فكرة واضحة إلى حد ما عن الأساس الذي اتخذه العرب لتقسيم الأندلس تقسيماً إدارياً : ساروا على ما وجدوه قائماً في البلاد مع تكييفه على نحو يتفق مع ظروفهم في شبه الجزيرة دون أن يغيروا روحه : ظلت المدينة هي الأساس تتبعها الأرض ، وحينما حولوا بعض المدن إلى كور ظلت المدينة أساس الكورة ، ولم تكن الكورة هي الأساس تتبعها المدينة . ولم تكن المدينة في الأندلس بمعناها في المشرق : مجموعة من الأبنية يحددها سورها ،

(١) ياقوت ، جـ ٤ ، ص ٢٢٠ .

(٢) ياقوت ، جـ ٣ ، ص ٩٣ .

بل بالمعنى الروماني : نواة لإقليم أو أقاليم كل أهلها يعتبرون من أهل المدينة . وقد اقتضى الأمر اعتبار الكثير من مدن الجنوب وحدات مستقلة ، فجعلوها كوراً ، لأن مركز الثقل في الأندلس الإسلامي كان في الجنوب ، ولهذا صغرت مساحات الكور في الجنوب بينما اتسعت في الشرق والغرب . أما الوسط ونواحي الشمال فقد ظلت مدناً بالمعنى الروماني القديم ، مدناً لها أحواز وفي أحوازها تقع مدن أخرى ذات أحواز .

٢٧٤ - المدينة الأم وقد جرت العادة بأن تسمى المدينة الرئيسية بالأم والجمع أمهات ، والمدن الفرعية بالبنات مفردها بنت ، وقد تتحول الأم إلى بنت إذا زادت عليها في العمارة إحدى بناتها . قال ابن عبد المنعم الحميري في كلامه عن طرسونة : « كانت مستقر العمال والقواد بالثغور . وكان أبو عثمان عبيد الله بن عثمان ، المعروف بصاحب الأرض ، اختارها محلاً وآثرها على مدن الثغور منزلاً . وكانت ترد عليها عُشر مدينة أربونة ويرشلونة ، ثم عادت طرسونة من بنات تطلية ، عند تكاثر الناس بتطلية وإيثارهم إياها لفضل بقعتها واتساع خطتها »[1] . وكذلك حدث لألبيرة ، فقد كبرت بنتها غرناطة وأصبحت الأم وعادت ألبيرة من بناتها . ومثل ذلك حدث لبجانة ، إذ اختطت وعمرت واتسعت حتى صارت أماً ، « ثم خرجت وانتقل أهلها إلى المرية وعادت المرية أماً » . وتسمى المساحة التي تشغلها المدينة نفسها بخطة المدينة ، وقد تكون الأم أكبر مدن الناحية وأهمها دون أن تكون القاعدة أو القصبة ، لأن القاعدة أو القصبة يشترط فيها الحصانة والمنعة ، وخاصة في نواحي الثغور . فلم تكن قبرة مثلاً قصبة الكورة المنسوبة إليها ، بل كانت القصبة بيانة ، لأنها - كما يقول ياقوت - « كبيرة حصينة على ربوة يكتنفها أشجار

---

(١) الروض المعطار ، ص ١٢٣ .

وقد يستعمل لفظ « الأم » للدلالة على أكبر مدن الناحية ، قال صاحب « الروض » في الكلام عن أولية السهلة (ص ٣٤) : « بالأندلس ، قريبة من قرطبة ، تعرف بالرملة ، وهي أم الأقاليم ، كثيرة الأهل واسعة الخطة ، مثمرة الأرضين ، بها ديار للعجم متقنة البنيان . . . » .

وأنهار »[١] . وكذلك الحال مع قلب ـ وهي Calpe القديمة ـ فقد كانت أول الأمر قاعدة كورة موررور[٢] . وعندما اختط الأمير محمد مدينة مجريط جعلها قاعدة « مدينة » وادي الحجارة . وكذلك عندما اختط عبد الرحمن الأوسط مدينة مرسية ، نقل إليها قاعدة كورة تدمير ، وكانت قبل ذلك في أوريولة[٣] . وتسمى الضواحي بالأرباض ، مفردها ربض ، إذا كانت صغيرة متصلة بعمارة المدينة ، فإذا كانت كبيرة منقطعة عن عمارة البلد سميت بالحاضر ، مثال ذلك أن طريانة كانت « حاضراً من حواضر أشبيلية »[٤] .

٢٧٥ ـ الحصون والمعاقل

وكما تتبع المدينة مدن ، فكذلك تتبعها حصون ومعاقل . ويغلب على الظن أن هناك فرقاً بين الحصن والمعقل . فالحصن موضع محصن مأهول يشبه أن يكون مدينة ، وقد تتبعه حصون أخرى ، وقد يكون له حوز . مثال ذلك حصن بيطرة فقد عرفه ياقوت بقوله : « بلدة وحصن من أعمال سرقسطة »[٥] ، وقال عن كركى : « اسم حصن من أعمال أوريط بالأندلس له ولاية وقرى »[٦] ، وقال ابن عبد المنعم عن قَيْشَاطة : « حصن بالأندلس كالمدينة ، بينه وبين شوذر اثنا عشر ميلاً ، وفي قيشاطة أسواق وربض عامر وحمام وفنادق »[٧] . أما إذا اتسع الحصن عن ذلك فيصبح « قلعة مدينة » أي حصناً كبيراً ومدينة كبيرة أيضاً ، ومثال ذلك قلعة أيوب وقلعة رباح . في حين أن المعقل لا يزيد عن أن يكون موضعاً محصناً يلجأ إليه المزارعون إذا داهمهم خطر ، أي أنه مجرد كرال (Kraal) . وقد كانت

---

(١) الروض المعطار ، ص ١٦٢ والترجمة الفرنسية ، ص ١٩٤ وتعليق ٣ .

(٢) ياقوت ، جـ ٨ ، ص ٣٩٤ .

(٣) ياقوت ، جـ ٨ ، ص ٢٤ .

(٤) ياقوت ، جـ ٦ ، ص ٤٧ .

(٥) ياقوت ، جـ ٢ ، ص ٣٣٩ .

(٦) ياقوت ، جـ ٧ ، ص ٢٤١ .

(٧) الروض المعطار ، ص ١٦٥ .

وراجع أيضاً كلامه عن حصن « جنجالة » (ص ٦٧) وحصن الثلج (ص ١٠٨) وحصن الكرس (ص ١٦٦ ـ ١٦٧) .

المعاقل كثيرة جداً في الأندلس ، لا يشذ عن ذلك إلا معقل « رنـدة » فقد تحـول إلى بلد .

ومن غـير الميسـور الآن تقـدير حـوز كل كـورة ومدينـة ، أو رسم خريـطة لـلأندلس الإسـلامي وتقسيماتـه الإدارية ، لأن البيـانـين اللذين يقـدمهـا نص جغرافية الـرازي المترجم و « التعليق المنتقى » من « فرحـة الأنفس » ومـا لدينـا من جغـرافية العـذاري وأوراق جغرافيـة البكري ، كـل هـذه لا تقـدم إحصـاء بأقاليم كل كورة ومدينة وحدود هذه الأقاليم ، ولعل جغرافية العذري لو كـانت كاملة لأعانتنا على إدراك هذا المطلب ، ولكنها كما قلنـا ناقصـة ، فلم يبق لدينـا إلا الاكتفاء بمعرفة الأسس العامة للتقسيم وإحصاء الكور والمدن عـلى ما بينـاه ، وربما أعاننا الحظ في المستقبل على إكمال الصورة . وقد ذهب ليڤي بروڤنسال إلى أنه من الممكن رسم صورة كـاملة للتقسيم الإداري للأنـدلس بالاستعـانة بكتب التاريخ ، وهذا صحيح ، ولكن ما بين أيدينا من أصول تاريـخ الأندلس مبتـور في مواضع شتى ، كما هو الحـال مع جغـرافية العـذري . وقد أحصى بـروڤنسـال سبعاً وعشرين كورة غير الثغور . وهذه الكـور هي : قرطبـة ـ فحص البلوط ـ قبرة ـ أستجة ـ أشبيلية ـ قرمـونة ـ لبلة ـ أكشـونبة (شلب) ـ بـاجة ـ مـورور ـ شذونة (قلسانة) ـ الجزيرة الخضراء ـ تاكـرنا (رنـدة) ـ رية أو مـالقة ـ ألبيـرة ـ جيان ـ بجانة ـ تدمير (مرسية) ـ شاطبة ـ بلنسية ـ طليـطلة ـ طلبيرة (أقلش) ـ ماردة ـ بطليوس ـ شنترين ـ لشبونة ـ قلمرية[1] .

وقد تكون هذه هي كور الأندلس في القرن العاشر الميلادي ، ولا نستطيع الآن أن نناقش هذه القائمة ، لأننا لا نملك إحصاء كاملاً لما في كتب التاريخ من معلومات .

* * *

(١) LEVI - PROVENÇAL, *Hist. de l'Espagne Musulmane,* III pp. 49 — 51.

٢٧٦ ـ تقسيم مجاري الأنهار

وقد تبع اعتبار المدن وأحوازها وحدات ادارية بضع صور إدارية لا نجد لها شبيهاً في المشرق ، كاتباع الأنهار أو أجزاء منها للمدن التي تقع عليها أو الأقاليم التي تقع فيها ، مثال ذلك قول العذري في كلامه عن إقليم جلّق من أقاليم سرقسطة : « ونهره يسقي ما وازى قنطرة سرقسطة عشرون ميلاً . ويخرج نهر جَلَّقُ (El Gallego) من جبال السيرطانيين ، ثم يخرج إلى ناحية وشقة إلى سرقسطة ، ويقع في أبرة ، والجزء الأعلى من نهر جلق يروي من الصخيرة إلى منزل حسان إلى قنطرة سرقسطة عشرون ميلاً »[1] . فهنا نرى بوضوح ان النهر تابع للإقليم ، بل إن الأجزاء التي يرويها محدداً تحديداً تاماً ، كما تحدد النواحي التي ترويها الترع والقنوات في نظم الري الحالية . وتسمية النهر باسم الإقليم هنا ليست تسمية جزافية بل لها معنى التبعية الإدارية . ومثال ذلك أيضاً قوله في الكلام عن إقليم شلون (El - Jalon) : « وهو غربي من سرقسطة ، ونهره يسقي من قرية قبانش وركلة إلى باب سرقسطة ٤٠ ميلاً ، وحكي بعض من يعرف نهر شلون أنه يعم بالسقيا نحو ٧٠ ميلاً »[2] . ومعنى ذلك أن أربعين ميلاً من مجرى شلون تبع لإقليم شلون ، والباقي خارج عن هذه التبعية . وعلى هذا الأساس قالوا نهر مرسية ونهر بلنسية وما إلى ذلك ، فقد كانت لهذه الأنهار أسماؤها الجغرافية وكان العرب يعرفونها ، ولكن نسبة النهر هنا تحمل معنى التبعية ؛ أي أن نهر مرسية داخل في حوز مرسية وأقاليمها ، ونهر بلنسية كذلك . بل إن مجاري الأنهار الطويلة كانت تقسم ، فيدخل كل قسم منها في حوز مدينة ، ومثال ذلك نهر الوادي الكبير ، فهو في زمام أشبيلية نهر أشبيلية ، والجزء الداخل من مجراه في حوز قرطبة يسمى نهر قرطبة ، وفي حوز جيان يسمى نهر جيان ، وقس على ذلك بقية كبار الأنهار .

---

(١) العذري : نظام المرجان ، ورقة ١٦١ .

(٢) نفس المصدر والصفحة .

٢٧٧ - المراسي وكانت لمسلمي الأندلس من أول الأمر عناية بالموانيء نظراً لأهمية الصلات مع العدوة الافريقية. وكانوا يسمون الميناء مرسى ، وهي تسمية لها معناها بالنسبة إلى طبيعة الموانى الإسلامية في الغرب الإسلامي في هذه العصور الأولى . ويلاحظ أن أهل المغرب والأندلس دون غيرهم من أهل الدولة الإسلامية ، توسعوا في استعمال لفظ المرسى مقابلاً للميناء وخاصة فيما يتصل بما أنشأه المسلمون منها ، فهم يقولون «مرسى تونس » و « مرسى الخزر » و « مرسى الدجاج » و « مرسى المرية » و « مرسى بجانة » وما الى ذلك ، وهذه كلها موان جديدة نشأت بعد الفتوح الإسلامية ، أي أن الميناء كان يبدأ عادة بأن يكون مرسى للسفن ثم يتطور بعد ذلك كما تطورت تونس والمرية وبجانة ، فأصبحت مدناً ومراسي في نفس الوقت . ويفهم من كلام صاحب « الروض المعطار » أن الميناء قد يبدأ في أول أمره رباطاً بحرياً ، ثم ينشأ عنده مرسى ، ثم يتحول إلى مدينة ، كما حدث في المرية[1] ؛ وقد يبدأ إقطاعاً بحرياً لقبيل من العرب في مقابل حفظ الساحل ، فينشأ فيه مرسى ثم ميناء كما كان الحال مع بجانة . وفي حالة هذه الأخيرة نضع أيدينا على « ميلاد » مدينة . قال صاحب « الروض » : « وبقرب بجانة كان جامع الإقليم الأعظم ، إلا أنها كانت حارات مفترقة ، حتى نزلها البحريون وتغلبوا على ما كان فيها من العرب ، وصار الأمر لهم ، فجمعوها وبنوا سورها »[2] . وقد كانت بجانة - كما هو واضح هنا - قرية صغيرة (هي التي تعرف باسم Pechina) ، وكان حولها أحياء كثيرة آهلة متفرقة هي المسماة هنا بالحارات . وكان لأهل هذه الحارات مسجد جامع كبير بقرب بجانة ، فقام أولئك البحريون بجمع الحارات بعضها إلى بعض ، وأقاموا سوراً حولها وحول بجانة والمسجد الكبير ، فنشأت المدينة .

٢٧٨ - الضياع وتظهر « الضياع » في الأندلس الإسلامي من أول الأمر ، فقد ذكر ابن القوطية أن أبناء غيطشة حالفوا طارق بن زياد على

(١) الروض المعطار ، ص ٣٧ .
(٢) الروض المعطار ، ص ٣٧ .

« أن يمضي لهم ضياع أبيهم وكانت ٣٠٠٠ ضيعة سميت بعد ذلك صفايا الملوك » ، وقد أجابهم طارق إلى ذلك ؛ وقد خص أرطباس منها ألف ضيعة كان يفرق منها على العرب . والضيعة الواحدة هي مقابل الڤيلا (Villa) في النظم الرومانية ، والضياع الكثيرة المتجاورة تقابل اللاتيفونديوم (Latifundium) . وإذا كانت النصوص تدل على أن نظام الضياع استمر في الأندلس واتسع مداه ، كما كان الحال في المشرق أيضاً ، إلا أننا لا نملك ما يدل على بقاء نظام الملكيات الشاسعة (Latifundia) وربما لاحظنا تشابهاً بين الڤيلا، وهي القصر الريفي تحيط به ضيعة أو ضياع واسعة يملكها صاحب القصر ، ومصطلح « المنية » الذي كان شائعاً في الأندلس . فتعريف المنية عندهم قريب من تعريف الڤيلا ، ولكن هناك فرقاً واضحاً بين الضياع والمنيات ، فالضياع قرى تصير إلى ملك مالك كبير وربما أقام فيها ، في حين أن المنية ضيعة تنشأ حول قصر ريفي ينشئه المالك الكبير ، ولكن كليهما من حيث الهيئة والوضع يقابل الڤيلات الرومانية ، ومعروف أن هذه الڤيلات أيضاً كانت تختلف فيما بينها ، ففيها ما يشبه الضياع وفيها ما يشبه المنيات .

٢٧٩ ـ الفحص وهناك مصطلح آخر تحسن الإشارة إليه فيما ذكرنا من مصطلحات جغرافية إدارية ، وهو مصطلح « الفحص » وهو كثير الاستعمال في المغرب أيضاً حتى يبدو لنا أن أصله مغربي ، وقد وضع ياقوت تعريفاً للفحص ، قال : « وسألت بعض أهل الأندلس : ما تعنون به ؟ فقال : كل موضع يُسكَن ـ سهلاً كان أو جبلاً ، بشرط أن يزرع ـ نسميه فحصاً ، ثم صار علماً لعدة مواضع »[1] وكانت الفحوص في الأندلس كثيرة ، ومعظمها أقاليم في كور ومدن ، فيقال إقليم الفحص من أعمال طليطلة أو من أعمال أكشونبة أو أشبيلية . وأكبرها فحص البلوط الذي أصبح كورة فيما بعد .

* * *

(١) ياقوت ، مادة فحص .

وقد يكون بعض الحقائق التي ذكرناها قد وقع فيما بعد ، ولكننا كما ذكرنا نؤرخ لنظام بدون تاريخ ، لم يذكر واحد من مراجعنا متى وضع أو متى عدل ، فلم يبق إلا أن نذكر ما لدينا من المعلومات مطلقة حتى تعيننا أصول جديدة على مزيد من التوضيح ، وإذا كان الرأي الذي ذهبنا إليه ، فيما يتصل بأصول هذه الأنظمة ، أن العرب أخذوها مما وجدوه جارياً لدى دخولهم ، فليس هناك ما يمنع من القول بأن معظم ما أثبتناه من النظم حدث أثناء فترة الولاة التي نتحدث عنها ، ثم دخله الضبط والترتيب والتفصيل والتدقيق فيما بعد .

٢٨٠ ـ المشيخة والكوريا

وقد بينا كيف كانت هذه النظم فريدة في بابها في العالم الإسلامي كله ، ومن الطبيعي أن ينسحب هذا الحكم على ما بُني عليها ، فإذا قلنا إن دخول العرب أحيى المدن التي كانت تتلاشى رويداً رويداً في الأندلس قبلهم ، وأن ذلك الإحياء استتبع انتعاش مشيخات البلاد أو الكوريات الرومانية المدنية القديمة ، فقد انبنى على ذلك تعميم فكرة المشيخات أو المجالس على كثير من النظم الإسلامية في الأندلس ، مما أدى إلى ظهور هيئات خاصة بالأندلس كهيئة « الفقهاء المشاورين » وجماعة الوزراء وما إلى ذلك مما جدَّ بعد الفترة التي نؤرخ لها من النظم .

ذلك أن لفظ مشيخة كان له معنى خاص في الأندلس ، فالمشيخة في المشرق هي الرئاسة أو هي الوظيفة أو الأستاذية ، فيقولون مثلاً إن فلاناً « تولى مشيخة دار الحديث » أو « مشيخة الحديث » بتربة أم صالح ومشيخة الرباط الناصري ومشيخة المالكية » أو « ولي مشيخة المدرسة بالقدس ومشيخة الرباط الناصري بالجبل » أو برع في النحو وانتهت إليه المشيخة »، أما في الغرب الإسلامي فكان له معنى المجلس أو الجماعة ، قال ابن خلدون : « واستبد مشيخة كل بلد بأمره » أو « كانت مشيختها في القديم في بني ورمان من أهلها بما كاثروا ساكنها وملكوا عامة ضياعها ، وكان مشيخة قابس لذلك العهد في بيوتات من أهلها » . والمعنى في هذه النصوص واضح ، فهو الجماعة من أعيان الناس يتولون أمر البلد . ويفسر دوزي معنى المشيخة هنا بأنه «الحق الذي كان لعدد

من الأسر الكبيرة في أن تؤلف مجلساً بلدياً لحكم البلد أو مجلساً جمهورياً » ، بل إن الكلمة وردت بمعنى المجلس البلدي أو أعضائه ، وذكر بطرس الكلاعي Pedro de Alcala في قاموسه أن الشيخ هو العضو في مجلس البلد (Jurado en la Cibdad) والمشيخة هي الطائفة[1] . وهذه كلها معان لم تعرف إلا في المغرب والأندلس ، وفي هذا الأخير خاصة ، وثابت على أي حال أن العرب عندما قضوا على سلطان القوط عقدوا مع أهل كل بلد استسلم لهم عقداً أو معاهدة ، وكان التعاقد يتم مع الكوريا القديمة ، وترجمها العرب إلى المشيخة ، وكانت هذه المعاهدات سبباً في إحياء مشيخات البلاد ، فأصبح في كل بلد مشيخة من أهله هي التي تتخاطب مع العرب وتضمن لهم الأمن والأموال ، فنشطت المشيخات وانتظم أمرها ، وعندما أسلم أهل البلاد احتفظوا بمجالسهم وهي مشيخاتهم ، ومن هنا كان للمدن في الأندلس نظام بلدي يرعى شؤونها وشؤون أهلها . وثبت صلاحية هذا النظام فامتد حتى شمل الحرف ، فأصبح لأهل كل حرفة مشيخة أو مجلس ، ونشأت مشيخة الفقهاء ، وهي جماعة من الفقهاء يتخذهم الأمراء والخلفاء مستشارين وسموا « الفقهاء المشاورين » ، ووزعت اختصاصات الوزير بين نفر من الوزراء كان لهم مجلس .

٢٨١ ـ انفصال العرب عن أهل البلاد أول الأمر

وظاهر من النصوص أن أهل البلاد من النصارى واليهود عاشوا أول الأمر منفصلين عن العرب ، مستقلين بحكومة أنفسهم ، وكان لهم رئيس أعلى يسميه ابن حيان « قومس الأندلس وزعيم عجم الذمة ومستخرج خراجهم لأمراء المسلمين »[2] . أي انه هو الذي كان يتصل بأهل الذمة ويستخرج ما عليهم من الأموال ويؤديها للحكومة المركزية . وكان تعامله مع مشيخات البلاد ، أي أن كل مشيخة كانت

---

(١) انظر دوزي : ملحق القواميس ، مادة شيخ ، جـ ١ ، ص ٨٠٩ .

(٢) ابن الخطيب : الإحاطة في أخبار غرناطة (طبعة محمد عبد الله عنان) الجزء الأول ، القاهرة ١٩٥٦ ، ص ١٠٩ .

تجمع ضرائب بلدها وتؤديها إلى القومس . وقد أشرنا فيما سبق إلى حكومة البلد وذكرنا بعض ما عثرنا عليه من ألقاب موظفيها . وقد أقام العرب لكل ناحية حاكماً من المسلمين ، فأما حاكم الكورة فكان يسمى العامل أو الوالي ، وأما حاكم المدينة ذات الحوز فكان يسمى القائد ، لأنه كان يختار من العسكريين لأن هذه المدن كانت كلها ثغوراً أو مناطق عسكرية على ما قلناه ، وكان حوز الكورة أو المدينة يسمى العمل أو النظر أو الولاية أو الحوز .

أما العرب فقد عاشوا أول الأمر مستقلين بأنفسهم ، سواء من نزل منهم المدن أو من عاش منهم في الريف ، وقد احتفظ لنا ابن الخطيب في الإحاطة بنص رواه عن ابن حيان والرازي يوضح أحوال المسلمين من عرب وبربر تمام التوضيح ، ونحن نورده هنا بنصه مع تقسيمه إلى فقرات زيادة في البيان :

١ ـ « قال أبو مروان (بن حيان) : أشار على أبي الخطار أرطباس قومس الأندلس وزعيم الذمة ومستخرج خراجهم لأمراء المسلمين ـ وكان هذا شهير العلم والدهاء ـ لأول الأمر ، بتفريق القبائل الشاميين الغالبين[1] على البلد ، من دار قرطبة ، إذ كانت لا تحملهم ، وإنزالهم بالكور على شبه منازلهم التى كانت في كور شامهم .

٢ ـ ففعل ذلك عن اختيار منهم ، فأنزل جند دمشق كورة البيرة ، وجند الأردن كورة جيان ، وجند مصر كورة باجة ، وبعضهم بكورة تدمير ؛ فهذه منازل العرب الشاميين[2] .

---

(١) قرأها محمد عبد الله عنان : العلميين ، وشرحها في الهامش بأنها نسبة إلى علم مكان بالشام ، ولا محل لذلك التكلف لأن صحتها الغالبين كما أثبتناه .

(٢) النص هنا ناقص وغير دقيق ، وصحته ما أورده ابن عذارى إذ قال إن أبا الخطار انزل أهل دمشق بالبيرة وأهل الأردن برية وأهل فلسطين بشذونة وأهل حمص بإشبيلية وأهل قنسرين بجيان وأهل مصر بباجة وبعضهم بتدمير .

انظر ابن عذارى : البيان ، طبعة ليفي بروفنسال وكولان ، ليدن ١٩٥١ ، ص ٣٣ .

٣ ـ وجعل لهم ثلث أموال أهل الذمة من العجم طعمة .

٤ ـ وبقي العرب البلديون والبرابرة وشركاؤهم ، وسكنوا واغتبطوا وكثروا وتمولوا ، إلا من كان قد نزل منهم لأول قدومه في الفتوح على غنائمهم[1] لم يعرض لهم في شيء منها .

٥ ـ فلما رأوا (يعني العرب الشاميين) بلداناً شبه بلدانهم بالشام نزلوا وسكنوا واغتبطوا ، وكثروا وتمولوا ، إلا من كان قد نزل منهم لأول قدومه موضعاً رصيناً فإنه لم يرتحل عنه ، وسكن به مع البلديين ، فإذا كان العطاء أو حضر الغزو لحق[2] بجنده ، وهم الذين كانوا سموا الشاذة[3] حينئذ .

٦ ـ قال أحمد بن موسى [الرازي][4] : وكان الخليفة يعقد [للشاميين] لواءين : لواء غازياً ولواء مقيماً .

وكان رزق الغازي بلوائه (أي صاحب اللواء) ٢٠٠ دينار ويبقى المقيم (أي صاحب اللواء المقيم) بلا رزق ثلاثة أشهر ثم يدال (صاحب اللواء) بنظيره من أهله او غيرهم .

٧ـ وكان الغزاة من الشاميين ، مثل أخوة المعهود له (أي صاحب لوائهم) أو بنيه أو بني عمه يرزقون عند انقضاء غزاته ١٠ دنانير .

---

(١) أثبتها محمد عبد الله عنان : عنائهم ، وهي قراءة لا يستقيم بها المعنى ، والصحيح ما أثبتناه . وسنفصل فيما يلي كيف اعتبر جند الأندلس الأرض غنيمة بخلاف ما يقضي به تشريع عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

(٢) أثبتها عنان : ولحق بجنده ، والواو زائدة .

(٣) أثبتها عنان : الشادة بالدال ، وهو خطأ . راجع دوزي : ملحق القواميس ، مادة شاذ ، جـ ١ ، ص ٧٣٩ .

(٤) أضفنا ما بين الحاصرتين من عندنا ، لأن المراد أحمد بن محمد بن موسى الرازي لا أحمد بن موسى العدوي الذي ذكره عنان في الهامش نقلاً عن كشف الظنون .

٨ ـ وكان يعقد المعقود له (أي صاحب اللواء) مع القائد (أي قائد الجيش المركزي ، ومعنى يعقد له أن يتعهد له) يتكشف عمن غزا ويستحق العطاء ، فيعطى على قوله تكرمة له .

٩ ـ وكانت خدمتهم (أي خدمة الشاميين) في المعسكر (أي الجيش العام للدولة) واعتراضهم إليه (أي أن قيادة الجيش هي التي كانت تستعرضهم قبل الخروج) .

١٠ ـ ومن كان من الشاميين غازياً من غير بيوتات العقد (أي من غير بيوتات أصحاب الألوية) ارتزق خمسة دنانير عند انقضاء الغزو .

١١ ـ ولم يكن يعطي أحد من البلديين شيئاً غير المعقود له .

١٢ ـ وكان البلديون أيضاً يعقد لهم لواءان : لواء غاز ولواء مقيم .

١٣ ـ وكان يرتزق الغازي] بلوائه مائة دينار وازنة . وكان يعقد لغيره إلى ستة أشهر ، ثم يدال بنظيره من غيرهم .

١٤ ـ ولم يكن الديوان والكتبة إلا في الشاميين خاصة .

١٥ ـ وكانوا أحراراً من العُشر ، معدين للغزو .

١٦ ـ ولا يلزمهم إلا المقاطعة على أموال الروم التي كانت بأيديهم .

١٧ ـ وكان العرب من البلديين يؤدون العشر مع سائر أهل البلد (= أهل البلاد) .

١٨ ـ وكان أهل بيوتات منهم (أي من أهل البلاد) يغزون كما يغزو الشاميون ، بلا عطاء ، فيسير بهم إلى ما تقدم ذكره ؛ وإنما كان يكتب أهل البلد في الغزو .

١٩ ـ وكان الخليفة يخرج عسكرين إلى ناحيتين .

٢٠ ـ فيستتر بهم (أي يستعين بالمقيدين من أهل البلاد في الغزو ليحتمي بهم أثناء غياب العسكرين الرسميين في الغزو) .

٢١ ـ وكانت طائفة ثالثة يسمون « النظراء » من الشاميين والبلديين ، كانوا يغزون كما يغزو أهل البلد من الفريقين »[١] .

وهذا نص واضح مفصل يلقي ضوءاً على أسلوب حياة العرب ووظيفتهم في المجتمع الأندلسي . وأهم ما يعنينا منه هو أن جماعات العرب انتشرت في البلاد ونزلت النواحي وملكت الأرض ، وكثرت وتمولت . وغالبية هؤلاء من البلديين ، أما الشاميون فقد كانت لهم الصدارة ، كانوا عماد الجيوش وأصحاب الديوان والكتبة فيه ، وكان عليهم أن يقدموا للجيش المركزي لواءين ، لواء يخرج للغزو ولواء يقيم على الأهبة ، واللواء الغازي لا يقيم في الغزو إلا ثلاثة أشهر ثم يعود ويخرج الثاني ، وكان الكل لواء أمير يرزق ٢٠٠ دينار عن كل غزوة ، أما الجند وأقارب صاحب اللواء فكان الواحد منهم يرزق عشرة دنانير في نهاية كل غزوة . وكانوا في مقابل هذه الخدمة الحربية المستمرة يعفون من أداء العُشر ، ويستولون على ثلث أموال من نزلوا بأرضهم من أهل البلاد . أي أن الدولة منحتهم حق ملكية ثلث هذه الأموال . فإذا ذكرنا أن القوط أيضاً كانوا يستولون على ثلث الأموال في مقابل الخدمة العسكرية ، تبينا أن أولئك الشاميين حلوا في الواقع محل القوط في وضعهم وحقوقهم . وإقطاع المحاربين الثلث عرف غير إسلامي ، وانما هو استمرار لتقاليد القوط مع خلاف واضح استتبعته العدالة الإسلامية ، فإن القوطي كان يستولي على الثلثين (sors- sortes) ويترك لأهل البلد الثلث (Tercia) ، أما العرب فلم يسمحوا للمحارب منهم بغير الثلث وتركوا الثلثين لأهل البلاد .

---

(١) ابن الخطيب : الاحاطة ، ص ١٠٩ ـ ١١١ .

أما العرب البلديون ـ وهم القدامى من اليمنيين والشاميين ، ومعظمهم من اليمنيين ـ فقد اختلطوا بأهل البلاد وزرعوا وحصدوا وسقط عنهم التكليف العسكري ، غير أنهم كانوا يستطيعون الانخراط في ألوية خاصة بهم ، ولا يقدر عطاء إلا لرؤسائهم أصحاب ألويتهم ، أما المقاتلون منهم فلم يكونوا يعطون شيئاً ، وحسبهم ما كانوا يحصلون عليه من غنيمة ، وكانوا يدفعون العشر كغيرهم من زراع أهل البلاد ، في حين كان الشاميون معفين من العشور ، كما كان القوط معفين من الضرائب .

٢٨٢ ـ اشتراك أهل البلاد في الجيوش

والإشارة إلى أهل البلاد هنا جديرة بالملاحظة ، والمراد بهم كما قلنا أهل البلاد الأصليون ،فهؤلاء لم يكونوا ملزمين بالغزو بل كان يتطوع منهم من يريد ، ويقيد اسمه في سجلات المعسكر ولكنهم كانوا لا يرزقون ، شأنهم في ذلك شأن البربر والعرب البلديين ، وكانت تؤلف منهم قوات احتياطية يستعين بها الحاكم إذا خرجت جيوشه للغزو .

٢٨٣ ـ التقليد الشامي

والخلاصة أن الشاميين الذين أتوا مع بلج أصبح لهم مركز ممتاز ، فهم رجال الأجناد وأهل الديوان ، وهم لا يدفعون العشور ؛ أي أن الدولة الإسلامية الأندلسية صارت شامية بعد مجيء طالعة بلج : أصبح أهل الشام أصحابها وذوي المكانة العليا فيها ، وهذا ما يعرف في تاريخ الأندلس بالتقليد الشامي ، وقد أيد أمراء بني أمية هذه الشامية على طول تاريخهم ، حتى أن الأمير محمداً رفع الشاميين فوق غيرهم ، وقرر لهم ذلك الامتياز الذي سيحافظون عليه حتى منتصف إمارة عبد الرحمن الناصر على الأقل .

* * *

٢٨٤ ـ الادارة المركزية

لا تكاد المراجع التي بأيدينا تقدم لنا شيئاً يعيننا على تكوين صورة تقريبية عن النظام الذي أدار العرب به شؤون الأندلس خلال الأربعين سنة التي سبقت قيام الدولة الأموية ، وقد كان

من الميسور أن نقول إن الأندلس أدير على النحو الذي أديرت به مصر مثلاً خلال القرن الأول الذي تلا الفتح ، لو كانت لدينا بضع معلومات رئيسية تؤيد القول بأن الأمر في الأندلس كان كما كان في غيره من البلاد التي فتحها المسلمون ، ولكن هذه المعلومات الرئيسية ليست بين أيدينا مع الأسف ، حتى الخراج والجزية ـ وكانا موضع اهتمام مؤرخي الفتوح ـ لا نجد لهما ذكراً واضحاً في تواريخ الأندلس التي بين أيدينا ، بل ليس فيها ذكر لقدر الخراج أو نظامه ولو مرة واحدة نستطيع القياس عليها ، ولو أننا قلنا إن الأندلس لم يرسل إلى دار الخلافة خراجه مرة واحدة لما بالغنا ، ويبدو من مجموع ما لدينا من المعلومات أن عرب الأندلس الذين فتحوه أداروه على غير نظام ثابت معروف كما سنرى(١) . وسنورد فيما يلي ما لدينا من البيانات عن الإدارة المركزية .

* * *

٢٨٥ ـ نظام الولاية

ويبدو اضطراب هذا النظام في صورة واضحة جداً في طريقة تولي ولاة الأندلس مناصبهم ، فقد فتح الأندلس على يد عامل إفريقية موسى بن نصير : بعث مولى من مواليه البربر هو أبو زرعة طريف فاستطلعها له ، ثم بعث مولى آخر بربرياً هو طارق بن زياد ففتحها ، ثم عبر هو بنفسه فأتم هذا الفتح وأصبح أول ولاتها ، واعتبرت

---

(١) اكتفى صاحب « فتح الأندلس » في بيان سياسة المسلمين بقوله إن موسى غفت عينه أثناء العبور إلى الأندلس و « رأى موسى النبي صلى الله عليه وسلم فبشره بالفتح ، وأمره بالرفق بالمسلمين والوفاء بالعهد للمشركين . . . » ، وهذا هو كل ما نجده في هذا الكتاب عن حكومة المسلمين في الأندلس في عهد الولاة !

انظر : « فتح الأندلس » ، ص ٥ .

وقد اكتفى نفس المؤلف في الكلام عن تصرف طارق في الغنائم بقوله : « وجمع طارق الغنائم وأخرج خمسها ، وقسم باقيها » دون أن يذكر لنا ماذا فعل طارق بهذا الخمس ـ (فتح الأندلس ، ص ٧) . ثم أكد بعد ذلك أمر تقسيم الغنائم بين الفاتحين وفصل تلك الغنائم بأنها كانت سبياً ومتاعاً وأرضين ورباعاً (أي بيوتاً) ـ نفس المصدر ، ص ١٣ . وبلغ من اضطراب أخبار مصير خمس الدولة من المغانم أن ذهب نفس المؤلف إلى أن هشام بن عبد الملك وهبها لحفيده عبد الرحمن (كذا) فأرسل هذا من لدنه نائباً عنه ليجمعها له ، وتلك أسطورة من غير ريب ، يغلب أنها ظهرت بعد قيام الدولة الأموية الأندلسية ـ (فتح ، ص ١٥) .

الأندلس جزءاً من المغرب يولي عليها عامل المغرب من يريد من رجاله ، كما اعتبرت إفريقية ولاية تابعة لوالي مصر في أول أمرها ، ولهذا ترك موسى عليها ابنه عبد العزيز بن موسى حينما رحل إلى المشرق في أواخر سنة ٩٥ هـ . ولم يثبت الخليفة سليمان بن عبد الملك في الولاية ، فظل والياً معتمداً على وصاة أبيه له بالحكم .

فلما قتل عبد العزيز بن موسى انفرد جند الأندلس بإقامة واليهم ، فأقاموا أيوب بن حبيب اللخمي ابن أخت موسى بن نصير : لم يولّه والي إفريقية ولا الخليفة سليمان بن عبد الملك أيضاً ، ويفهم من النصوص أن البربر كانوا أصحاب اليد الطولى في قيامه بالولاية .

وأراد سليمان بن عبد الملك أن يصحح هذا الوضع الشاذ ، فقرر أن يعيد هذا الحق إلى والي إفريقية ، فلما ولى على إفريقية محمد بن يزيد عجل هذا فبعث اليها الحُر بن عبد الرحمن ، ويبدو أن الحر أحس أن عرب الأندلس سيعارضون في ولايته وسيدافعون عن هذا الحق الذي كسبوه لأنفسهم ، فاستصحب معه أربعمائة من وجوه إفريقية ليؤيدوه ، وقد قبله أهل الأندلس دون مقاومة ، ولم يكد المقام يستقر به حتى عجل ينقل دار الإمارة من أشبيلية إلى قرطبة ، وربما كان دافعه إلى هذا رغبته في الابتعاد عن جماعات العرب التي استقرت في أشبيلية وكثرت فيها ، ورغبته في أن يكون بموضع أقرب إلى الجزيرة الخضراء والمغرب من أشبيلية ، ولم يكن دافعه مجرد الرغبة في جعل دار الإمارة بمكان يتوسط شبه الجزيرة كما تقول المراجع ، لأن قرطبة ليست في وسط الجزيرة على أي حال .

ولم تطل ولاية الحر على الأندلس أكثر من سنتين وثمانية أشهر (ذو الحجة ٩٧ ـ رمضان ١٠٠ هـ / أغسطس ٧١٦ ـ مارس ـ أبريل ٧١٩ م) لم يستطع خلالها أن يقوم بأمر ذي بال .

٢٨٦ ـ تفكير الخلافة في إخلاء الأندلس

فإذا كانت خلافة عمر بن عبد العزيز وجدنا أنفسنا أمام أمر غريب لم نسمع بمثله في بلد آخر مما فتح المسلمون وهو رغبة الخلافة في إخلاء الأندلس واسترجاع العرب منها ، ولو ورد لنا هذا في مرجع واحد لما علقنا عليه أهمية كبيرة ، ولكن إجماع المراجع على ذكره يجعلنا نفكر في البواعث التي حدت بعمر بن عبد العزيز إلى التفكير فيه ، وهو المتحمس للإسلام الراغب في بسط رواقه وإدخال الناس كلهم في رحابه . ولا شك في أن دافعه إلى ذلك كان إحساسه بأن أحوال المسلمين في الأندلس ليست على ما يرام ، وأن مستقبل الإسلام في هذا البلد القصي لا ينبىء بخير كثير ، ويبدو أن غرض عمر بن عبد العزيز الأول من إرسال السمح كان استطلاع أمر البلاد ، مما يدلنا على أن أخبار الأندلس كانت طوال الفترة الماضية منقطعة تماماً عن مركز الخلافة ، وأن عمر بن عبد العزيز لم يكن يعرف عنها شيئاً ، ولم يكن يصل إليه شيء من أموالها ، ولهذا « أمره أن يحمل الناس على طريق الحق ، ولا يعدل بهم عن منهج الرفق ، وأن يخمس ما غلب عليه من أرضها وعقارها ، ويكتب إليه بصفة الأندلس وأنهارها ، وكان رأيه نقل المسلمين منها ونقلهم عنها ، لانقطاعهم عن المسلمين واتصالهم بأعداء الله الكفار ، فقيل له إن الناس قد كثروا بها وانتشروا في أقطارها ، فأضرب عن ذلك »(١) .

بيد أن ارتباط فكرة إخلاء الأندلس بمجيء السمح وأمره بتخميس ما غلب عليه من أرضها يلقي على الموضوع شعاعاً من النور ، ويفهمنا أن الأندلس لم يكن قد تم تخميسه إلى ذلك الحين ، ولم يكن قد بعث الى دمشق بشيء من أمواله ، فلا عجب أن وقر في أذهان الخلفاء أنه بلد لا خير للمسلمين فيه وليس لهم بين رحابه بقاء فأرادوا إخلاءه . ثم إن أمر المسلمين لم يستقر فيه خلال الولايات الثلاث الماضية على نحو يبعث على الأمل في صلاح مستقبله ـ فقد حاول عبد العزيز بن موسى الوثوب بالخلافة ، ووقع بينه وبين عرب

(١) ابن عذارى : البيان ، جـ ٢ ، ص ٢٥ .

الأندلس خلاف شديد ، فلما قتل قدم البربر على أنفسهم أيوب بن حبيب اللخمي ابن أخت موسى بن نصير ، فكان في توليته على هذا النحو ما أثار مخاوف الخلافة ، ثم خلفه الحر بن عبد الرحمن الثقفي ، ولم يولِهِ سلطان وإنما ولاه محمد بن يزيد عامل إفريقية لسليمان ، فلم يظهر كفاءة خاصة ؛ وكانت البلاد في حاجة إلى من يرتب أمورها ويضع أسس الإدارة العربية فيها ، ووجدت الخلافة نفسها بين أمرين في شأن الأندلس : إما إخلائه أو تنظيمه ، فلما استبانت صعوبة الأمر الأول لم يبقَ إلا المضي في الثاني . وسنتحدث عن أعمال عمر بن عبد العزيز الإدارية في فقرة تالية ، وإنما يكفي أن نذكر هنا في حديثنا عن نظام الولاية ، أن السمح كان أول والٍ تقيمه الخلافة على الأندلس ، وأن عمر بن عبد العزيز حين استقر رأيه على المضي في تعمير الأندلس ، لم يعهد إلى واليه السمح بن مالك في روك البلد وإحصاء أراضيه وتنظيم أموره على أسس الشريعة ، بل ندب لذلك مولى من مواليه تُسميه المراجع « جابرا » نستطيع القول إن الخلافة اعتبرته عامل خراج للأندلس ، وفصلت بذلك شؤون الخراج عن الولاية العامة ، ولم يتح لجابر هذا أن يستمر في مهمته ، فقد رفع يده عن التخميس بمجرد أن وصله نبأ موت عمر بن عبد العزيز ، ولم تلبث ولاية السمح نفسه أن انتهت ، إذ قُتل على ما رويناه وعادت الأندلس إلى التبعية لإفريقية ، وقد حاول جند الأندلس انتزاع هذا الحق من عمال إفريقية ، فأقاموا عبد الرحمن الغافقي والياً ، وكانت تلك هي ولايته الأولى ولكنها لم تدم إذ إن بشر بن صفوان عامل المغرب ولى أحد رجاله - وهو عنبسة بن سحيم - على الأندلس .

ولم يجر الأمر على التبعية المطلقة للمغرب بعد ذلك ، لأن عرب الأندلس لم يدعوا فرصة تمكنهم من استعادة هذا الحق إلا انتهزوها ، فحينما مات عنبسة (شعبان ١٠٧ / فبراير - مارس ٧٢٦ م) عجلوا بإقامة أحد رجالهم وهو عذرة ابن عبد الله الفهري ، ولم تدم ولايته أكثر من شهرين ، لأن بشر بن صفوان عامل إفريقية عجل بإرساله يحيى بن سلامة عاملاً على الأندلس في شعبان من نفس السنة ، ولم تزد ولاية يحيى بن سلامة على سنتين وستة أشهر على أوسع

الفروض ، إذ عزله والي المغرب الجديد عبيدة بن عبد الرحمن واستبدل به أحد رجاله وهو حذيفة بن الأحوص القيسي (ربيع الأول ١١٠ / يونيو - يوليو ٧٢٨ م)[١].

ولم تطل ولاية حذيفة إلا أشهراً ، إذ خلفه عثمان بن أبي نسعة الخثعمي (في شعبان ١١٠ / نوفمبر - ديسمبر ٧٢٨ م) وكذلك وقع للواليين اللذين خلفاه وهما الهيثم بن عبيد الكلابي ومحمد بن عبد الله الأشجعي ، فلم تطل ولاية هؤلاء الأربعة عن سنة وخمسة أشهر (شعبان ١١٠ - صفر ١١٢ / نوفمبر - ديسمبر ٧٢٨ - مارس - ابريل ٧٣٠) . وقد ولاهم جميعاً عمال إفريقية ، حتى عبد الرحمن الغافقي الذي أتى بعدهم فقد كان لا بد أن يقر عبيدة بن عبد الرحمن ولايته رغم ما كان بينهما من خلاف[٢].

وحينما استشهد عبد الرحمن الغافقي (رمضان ١١٤ / أكتوبر ٧٣٢ م) ولى جند الأندلس على أنفسهم عبد الملك بن قطن الفهري ، وقد أقر عامل إفريقية هذا الاختيار ، ولكن عبيد الله بن الحبحاب لم يلبث أن عزله بُعيد ولايته على المغرب ، وولى مكانه عقبة بن الحجاج السلولي . ولا نزاع في أن عرب الأندلس - واليمنيين منهم بوجهٍ خاص - لم يرضوا عن ذلك الإجراء ، فلم يزالوا يرقبون الفرصة حتى إذا سنحت لهم باشتغال عبيد الله بن الحبحاب بثورة البربر في إفريقية عجلوا فوثبوا بعقبة[٣]، ويُقال إن عقبة أوصى لعبد الملك بن قطن قبل موته ، ومهما يكن من الأمر فقد تولى عبد الملك بن قطن للمرة الثانية بإرادة جند الأندلس .

ولم يتدخل عمال إفريقيا ولا الخلفاء في تولية عمال الأندلس من ذلك الحين إلى قدوم أبي الخطار ، فقد وثب بلج بن بشر بعبد الملك بن قطن ، وزعم إن هشام بن عبد الملك أوصى له بالولاية وهو زعم لا نملك ما يؤيده ، وخلفه

---

(١) انظر ثبت الولاة الذي ذيل به لافوينتي إي ألكانترا ترجمته الإسبانية للأخبار المجموعة ، ص ٢٣٣ .

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب والأندلس ، ص ٢١٦ - ٢١٧ .

(٣) ابن القوطية : افتتاح ، ص ١٤ .

ثعلبة بن سلامة بإرادة القيسيين ، ولم يعد الأمر إلى عمال إفريقية إلا في رجب سنة ١٢٧ هـ / ابريل ٧٤٥ م حينما أتيح لحنظلة بن صفوان عامل إفريقية أن يولي على الأندلس أبا الخطار الحسام بن ضرار الكلبي (رجب ١٢٥ هـ / مايو ٧٤٣ م) .

ولا نزاع في أن أبا الخطار كان يتوقع معارضة القيسيين في ولايته ولهذا سار إلى الأندلس شبه متخفف ، وكان معه ثلاثون رجلاً من الشاميين أراد أن يستعين بهم على بني عمومتهم ، وكان لواؤه في سِنٍّ داخل عيبته ، فلما نزل على وادي شوش أصلح من شأنه وركب السن باللواء في القناة ، ثم تقدم ، فلما أشرف من فج المائدة ، والحرب قائمة بين الشاميين والأمويين وبين البلديين والبربر ، ونظر الفريقان إلى اللواء حلوا الحرب وأسرع كل واحد من الفريقين إليه فقال لهم : « تسمعون وتطيعون ؟ فقالوا : نعم . . »[١] . وقد سمعوا بالفعل وأطاعوا أبا الخطار الذي أتاهم بسجل حنظلة بن صفوان بعهد أمير المؤمنين هشام إليه ، ولكن طاعتهم لم تطل إلا ريثما استبانوا في أبي الخطار بعض الميل إلى اليمنية فانقلبوا عليه وقتلوه ، وصار الأمر إلى يوسف الفهري والصميل ، ولا زالا فيه حتى انتزعه منهما عبد الرحمن الداخل .

لم تسر الولاية في الأندلس إذاً على قاعدة واحدة ، بل كانت في يد الخلافة المركزية حيناً ، وبيد عمال المغرب حيناً آخر ، وبيد مسلمي الأندلس أنفسهم في معظم الأحيان ، وكان هذا مظهراً من مظاهر الاضطراب الإداري الذي ساد الأندلس خلال هذه الفترة .

ولسنا نستطيع أن نتعرف مدى السلطان الذي تمتع به كل واحد من هؤلاء الولاة ، فمن الثابت أن قيادة الجند كانت بأيديهم ، وأنهم كانوا يولون القضاة كذلك ، ولكن سلطانهم على مسائل الخراج موضع شك كبير ، وكل ما يمكننا أن نقوله هو أننا لم نسمع عن عامل خاص بالخراج والجباية إلا في حالتين : حالة

---

(١) ابن القوطية : افتتاح ، ص ١٩ .

جابر الذي تحدثنا عنه ، وحالة رجل يُسمى أبا عثمان بن عبد الله « صاحب أزمة الأرض والخراج »[1] ، وربما جاز أن نقول إن شؤون الخراج كانت بيد عمال الأندلس فكانوا يولونه من يشاؤون ، وسنرى أن شؤون المال كانت ترزح تحت خللٍ شديد .

ولما كنا لم نسمع عن ارسال خراج من الأندلس إلى إفريقية أو إلى المشرق ، فالغالب ان عامل الأندلس كان ينفق بعضه على أجناده ويحتفظ بالباقي لنفسه : اما لينفق منه على الحملات والمرافق العامة أو لشؤونه الخاصة .

ولم يرد في النصوص ذكر لبيت المال ، أو صاحب بيت المال ، وحتى في المناسبات التي كان الوالي يخرج فيها بعض المال لشؤون الجند ، نجده يخرجه من عند نفسه لا من بيت المال ، مما يدل على أن عمال الأندلس لم يحفلوا بإنشاء إدارة خاصة لشؤون الخراج .

ولم يمتد سلطان الوالي على عرب الأندلس أجمعين إلا في النادر ، وكانت هناك دائماً جماعات كبيرة خارجة عن سلطانه بنواحيها ، ولم يزد سلطانه في أيام يوسف الفهري على إقليم قرطبة ، وقد أدى ذلك إلى قلة ما لديه من المال ، فهبط سلطان الوالي على البلاد خلال السنوات العشر التي سبقت قدوم عبد الرحمن الداخل هبوطاً بالغاً .

وكان جهد الولاة الأول ـ قبل اندلاع نيران الثورة البربرية واشتداد منازعات العصبية ـ منصرفاً إلى إتمام الفتح ، ومواصلة الغزوات فيما وراء البرانس ، وكان هذا هو عمل الولاة الأول حتى نهاية ولاية عقبة بن الحجاج السلولي[2] ، ثم انصرف عرب الأندلس عن ذلك انصرافاً تاماً تقريباً ، ولم يعد أمراء الأندلس إلى الغزو إلا بعد أن قامت الإمارة الأموية على يدي عبد الرحمن الداخل .

---

(١) فتح الأندلس ، ص ٥٤ .

(٢) LEVI - PROVENCAL, *Hist. de l'Espagne Musulmane,* I. p. 28.

أما اهتمام الولاة بشؤون المرافق العامة فلم نسمع عنه إلا في مناسبة واحدة ، وذلك أثناء ولاية السمح بن مالك القصيرة ، فقد ابتنى قنطرة قرطبة على الوادي الكبير بناء حسناً أورد خبره صاحب « فتح الأندلس » بتفصيل لا بأس من إيراده فقال : « وقال ابن مفرج في تاريخه : أصاب المسلمون إذ فتحوا الأندلس بمدينة قرطبة آثار قنطرة رفيعة القدر معقودة فوق نهرها الجاري على عدة حنايا وثاق الأركان من تأسيس الأمم الماضية الداثرة ، لم يبق منها إلا رسوم ، ولا يصل الناس الى قرطبة إلا في السفن ، فيلقون في ركوبها مشقة عظيمة ، فأمر عمر بن عبد العزيز السمح بن مالك ببنائها ، فصنعت على أتم وأعظم ما عقد عليه جسر في معمور الأرض من حجارة سور المدينة ، وكانت القنطرة القديمة موصولة الرقبة بباب المدينة القبلى المدعو بها »[1] ، وهذا هو المرفق الوحيد الذي حرص ولاة هذه الفترة على الاهتمام به ، إذا استثنينا جبانة قرطبة التي أنشئت في زمن السمح بن مالك أيضاً[2] .

٢٨٧ - ثبت بولاة الأندلس — ونختم كلامنا عن عصر الولاة بثبت بولاة الأندلس من لدن الفتح الى قيام دولة عبد الرحمن بن معاوية الداخل :

١ - طارق بن زياد .

من رجب ٩٢ / أبريل - مايو ٧١١ إلى رمضان ٩٣ / يونيو ٧١٢ .

٢ - موسى بن نصير

من رمضان ٩٣ / يونيو ٧١٢ إلى صفر ٩٥ / أكتوبر - نوفمبر ٧١٣ .

٣ - عبد العزيز بن موسى

من صفر ٩٥ / أكتوبر - نوفمبر ٧١٣ إلى رجب ٩٧ / مارس ٧١٦

---

(١) فتح الأندلس ، ص ٢٥ .
والأخبار المجموعة ، ص ٢٤ .

(٢) ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ٢ ، ص ٢٥ .

٤ ـ أيوب بن حبيب اللخمي

بعد شهور من مقتل عبد العزيز إلى ذي الحجة ٩٧ / أغسطس ٧١٦ .

٥ ـ الحُر بن عبد الرحمن الثقفي

من ذي الحجة ٩٧ / أغسطس ٧١٦ إلى رمضان ١٠٠ / مارس ـ أبريل ٧١٩ .

٦ ـ السمح بن مالك الخولاني

من رمضان ١٠٠ / مارس ـ أبريل ٧١٩ إلى ذي الحجة ١٠٢ / يونيو ٧٢١ .

٧ ـ عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي : المرة الأولى .

من ذي الحجة ١٠٢ / يونيو ٧٢١ ـ صفر ١٠٣ / أغسطس ٧٢١ .

٨ ـ عنبسة بن سحيم الكلبي

من صفر ١٠٣ / أغسطس ٧٢١ إلى شعبان ١٠٧ / يناير ٧٢٦ .

٩ ـ عُذرَة بن عبد الله الفهري

من شعبان ١٠٧ / يناير ٧٢٦ إلى شوال ١٠٧ / فبراير ـ مارس ٧٢٦ .

١٠ ـ يحيى بن سلامة العاملي الكلبي

من شوال ١٠٧ / فبراير ـ مارس ٧٢٦ إلى ربيع الأول ١١٠ / يونيو ـ يوليو ٧٢٨ .

١١ ـ حذيفة بن الأحوص القيسي

من ربيع الأول ١١٠ / يونيو ـ يوليو ٧٢٨ إلى شعبان ١١٠ / نوفمبر ـ ديسمبر ٧٢٨ .

١٢ ـ عثمان بن أبي نسعة الخثعمي

من شعبان ١١٠ / نوفمبر ـ ديسمبر ٧٢٨ إلى المحرم ١١١ / أبريل ٧٢٩ .

١٣ ـ الهيثم بن عبيد الكلابي

من المحرم ١١١ / أبريل ٧٢٩ إلى ذي القعدة ١١١ / يناير ـ فبراير ٧٣٠ .

١٤ ـ محمد بن عبد الله الأشجعي

من ذي القعدة ١١١ / يناير ـ فبراير ٧٣٠ إلى صفر ١١٢ / مارس ـ أبريل ٧٣٠ .

١٥ ـ عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي : (المرة الثانية) .

صفر ١١٢ / مارس ـ أبريل ٧٣٠ إلى رمضان ١١٤ / أكتوبر ٧٣٢ .

١٦ ـ عبد الملك بن قطن الفهري : (المرة الأولى) .

من رمضان ١١٤ / أكتوبر ٧٣٢ ـ شوال ١١٦ / نوفمبر ٧٣٤ .

١٧ ـ عقبة بن الحجاج السلولي

من شوال ١١٦ / نوفمبر ٧٣٤ / صفر ١٢٣ إلى يناير ٧٤١ .

١٨ ـ عبد الملك بن قطن الفهري : (المرة الثانية) .

من صفر ١٢٣ / يناير ٧٤١ إلى ذي القعدة ١٢٣ / سبتمبر ٧٤١ .

١٩ ـ بلج بن بشر القشيري

من ذي القعدة ١٢٣ / سبتمبر ٧٤١ إلى شوال ١٢٤ / أغسطس ٧٤٢ .

٢٠ ـ ثعلبة بن سلامة العاملي

من شوال ١٢٤ / أغسطس ٧٤٢ إلى رجب ١٢٥ / مايو ٧٤٣ .

٢١ ـ أبو الخطار الحسام بن ضرار الكلبي

من رجب ١٢٥ / مايو ٧٤٣ إلى رجب ١٢٧ / أبريل ٧٤٥ .

٢٢ ـ ثوابة بن سلامة الجذامي :

من رجب ١٢٧ / أبريل ٧٤٥ إلى المحرم ١٢٩ / سبتمبر ـ أكتوبر ٧٤٦ .

أعقبت موته أربعة أشهر من الاضطراب تولى الأمر خلالها عبد الرحمن بن كثير اللخمي دون ولاية .

٢٣ ـ يوسف بن عبد الرحمن الفهري

(بالاشتراك مع الصميل بن حاتم) .

من ربيع الثاني ١٢٩ / ديسمبر ٧٤٦ ويناير ٧٤٧ إلى ١٠ ذي الحجة ٧٣٨ / ١٤ مايو ٧٥٦ .

وهو تاريخ بدء إمارة عبد الرحمن بن معاوية الداخل .

* * *

٢٨٨ ـ الناحية المالية

بيد أن عقدة العقد في تاريخ عصر الولاة هي ناحية الخراج وتوزيع الأرض ، وبين المراجع خلاف شديد حول هذا الموضوع ، والواقع الذي نستطيع استخلاصه من مجرى الحوادث هو أن هذه الناحية كانت مضطربة في الأندلس اضطراباً شديداً ، وأن ولاة الأندلس لم يستطيعوا أن يخضعوا أرض شبه الجزيرة وعقارها للقواعد التي تقررها الشريعة للأرضين والعقارات في البلاد المفتوحة ، هذا على الرغم من أن موسى بن نصير قد حاول ذلك على أول الفتح ثم حاد عن النظم التي وضعها وأساء التصرف في الأموال ، وكان هذا من أسباب نكبته ، وكان كذلك من

أسباب البلاء في الأندلس فيما بعد . لأنها لم ترزق بعد ذلك بوال أتاحت له مواهبه وظروفه اعادة الأمور إلى نصابها الذي كان ينبغي أن تكون عليه ، حتى قامت الدولة الأموية .

٢٨٩ ـ أسس النظام المالي في الأندلس برواية محمد بن مزين

وإليك أسس النظام المالي كما قررها موسى بن نصير بين يدي الفتح ، « قال محمد [بن مزين] : وحين تم افتتاح المسلمين [الأندلس] قسمها موسى بن نصير البكري التابعي بين الجيوش الذين دخلوها كما قسم بينهم سبيها وسائر مغانمها ، وأخرج من أراضيها ورباعها الخمس كما أخرجه من سبيها ومتاعها ، واختار من خيار السبي وصغاره مائة الف وحملهم إلى أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك ، وترك سائر الخمس من كبل والسبي (وكذا ، ولعل صحتها كبار السبي) ووخش الرقيق في الخمس من الأرضين يعمرونها ليثلث مال المسلمين ، وهم أهل البسائط ، وكانوا يعرفون بالأخماس ، وأولادهم بنو الأخماس . قال : وأما سائر الناس النصارى الذين كانوا في المعاقل المنيعة والجبال الشامخة ، فأقرهم موسى بن نصير على أموالهم ودينهم بأداء الجزية ، وهم الذين بقوا على ما حيز من أموالهم بأرض الشمال ، لأنهم صالحوا على جزء منها مع أداء الجزية ، في أرض الثمر وأرض الزرع على ما فعله خير من اقتدى به صلى الله عليه وسلم بيهود خيبر في نخيلهم وأرضيهم . . »[1] .

وهي عبارة يفهم منها أن موسى بن نصير اعتبر الأندلس ، ما عدا نواحي الشمال ، قد فتحت عنوة ، فأخذ خمسها لبيت المال ووزع الباقي بين الفاتحين ، وأخذ جزءاً من خمس السبي فبعث به إلى الوليد بن عبد الملك وأطلق الباقي في

---

(١) راجع نص محمد بن مزين الذي نشره دوزي كملحق لمباحثه .

DOZY, *Recherches*, I. Appendix pp. III - VI.

ويلاحظ أن هذه القطعة مأخوذة من الرسالة الشريفية ، وهي قطعة من « رحلة الوزير الافتكاك الأسير » للغساني ، كما سنرى بعد قليل .

وانظر عن محمد بن مزين :

DOZY, *Scrip. Ar. Loci de Abbad.* II, 123.

أرض الخمس ليزرعوه وليثلث مال المسلمين ، وهي عبارة غامضة لا يفهم المراد منها بالضبط : هل تركهم على أن يؤدوا ثلث المحصول أو ثلثيه للمسلمين ؟ ولم يعين لنا النص أرض الخمس هذه ، وربما استطعنا تحديدها على وجه تقريبي مستعينين بما سنورد من النصوص القليلة التي عثرنا عليها .

وأما إشارته إلى الأراضي التي تركت بين يدي أهلها على شرط أداء الجزية عنها فإشارة لا تكاد تغني ، لأنه يقرر أنها أرض « سائر النصارى الذين كانوا في المعاقل المنيعة ، والجبال الشامخة . . بأرض الشمال » ، فأي أرض شمال[1] ؟ وهل لم تكن في غير الشمال بلاد فتحت صلحاً على الإطلاق ؟

ثم يعود محمد بن مزين فيوضح ما قاله بعض الشيء ويقول : « فلم يبق بالأندلس بلدة دخلها المسلمون بأسيافهم وتصيرت ملكاً لهم إلا قسم موسى بن نصير بينهم أراضيها إلا ثلاثة بلاد هي شنترين وقلنبرية في الغرب وشية (Xea) في الشرق ، وسائر البلاد خمست وقسمت بمحضر التابعين الذين كانوا مع موسى

---

(١) وردت هذه العبارة مفسرة بعض التفسير في الرسالة الشريفية كما يلي : « قال محمد بن مزين : وجدت في خزانة بإشبيلية سنة إحدى وسبعين وأربعمائة أيام الراضي بن المعتمد سفراً صغيراً من تأليف محمد بن موسى الرازي سماه بكتاب الرايات . . . وأما سائر النصارى الذين كانوا في المعاقل المنيعة والجبال الشامخة فأقرهم موسى بن نصير على أموالهم ودينهم بأداء الجزية ، وهم الذين بقوا على ما حيز من أموالهم بأرض الشمال ، لأنهم صالحوا على أجزاء منها مع أداء الجزية في أرض الثمرة وأرض الزرع ، على ما فعله خير من اقتدى به صلى الله عليه وسلم بيهود خيبر في نخيلهم وأرضيهم . . . » ـ الرسالة الشريفية ص ١٩٩ .

و « الرسالة الشريفية » مخطوط صغير عثر عليه خليان ريبيرا ونشره ذيلاً على « تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية » (مدريد ١٩٥٦) ، ص ١٨٩ وما يليها تحت عنوان « نبذة من أخبار فتح الأندلس ، وهي مأخوذة من الرسالة الشريفية إلى الأقطار الأندلسية » ، ثم تبين فيما بعد أن هذه الرسالة هي الكتاب المعروف باسم « رحلة الوزير لافتكاك الأسير » لمحمد بن عبد الوهاب الغساني (وزير مولاي إسماعيل وسفيره إلى كارلص الثاني ملك إسبانيا عام ١١٠٢ هـ / ١٦٩٠ ـ ١٦٩١ م . توفي في زنقة الرطل من فاس القرويين عام ١١١٩ ـ ١٧٠٨) . نشرها الفريد البستاني في تطوان سنة ١٩٥١ . وتعرف هذه أيضاً بالرسالة الشريفية ، والجزء الذي نشره ريبيرا منها يبدأ في ص ١٠٧ من طبعة الفريد البستاني .

ابن نصير » أي أن هذا التقسيم لم ينطبق إلا على النواحي التي فتحت بالسيف (عدا النواحي الثلاث المذكورة) . أما ما فتح صلحاً فقد تركه بيد أصحابه على أن يؤدوا الجزية ، ويعود فيناقض نفسه ويقول : « فقال بعض علماء السلف بأرض الأندلس إن أكثرها إنما فتح صلحاً إلا الأقل من مواضع معروفة ، وإنه لما هزم لذريق لم يقف المسلمون بعد ذلك ببلد إلا أذعنوا إلى الصلح ، وكذلك بقي الروم فيها على أرضهم وأموالهم يبيعون ويباع منهم » أي أن الذي فتح عنوة وخمس وقسم باقيه بين الفاتحين كان قليلاً جداً ، وأما بقية المفتوح من أرض الأندلس فقد ترك لأصحابه من أهل البلاد يفعلون به ما يشاؤون على أن يؤدوا عنه الخراج ، وكذلك كان حال بعض أرض الشمال التي صالح عليها أهلها .

ثم يذكر بعد ذلك أن النواحي التي فتحت صلحاً وتركت بيد أهلها توارثها أصحابها ، وأن المسلمين صالحوهم على أرضهم وشجرهم فقط لا سائر أموالهم ، فهذه لم يمسها المسلمون بشيء .

ويقول محمد بن مزين بعد ذلك : « ولما وصل خبر فتحها إلى أمير المؤمنين الوليد ووفد عليه موسى وجماعة من المستفتحين للأندلس معه يستأذنونه في إخلائها والرحيل عنها إلى أوطانهم ، قربهم وأنسهم وأقطعهم الإقطاعات فيها ، وأقرهم على [بياض بالأصل][1] ولم يجعل لهم سبيلاً إلى الخروج منها ، ولا أوسعهم عذراً في إخلائها وردهم إليها وإلى جيرانهم[2] بجوابه » . وطبيعي أن هؤلاء الذين عادوا إلى المشرق وأرادوا ترك الأندلس كانوا من العرب ، زهدوا في البلاد لبعدها عن أوطانهم ، فاستمالهم الوليد إلى البقاء بإقطاعهم الإقطاعات ، وطبيعي كذلك أن هذه الإقطاعات الجديدة كانت من أرض الخمس التي تخص بيت المال .

فلما كانت أيام سليمان بن عبد الملك ، وواليه على الأندلس الحرّ بن

---

(١) بياض في النسخ الثلاث ، ولكننا نفهم من بقية النص أن الكلمة الناقصة هي : أرضهم .

(٢) هذه الكلمة قلقة هنا ، وقد وردت على هذه الصورة في النسخ المطبوعة الثلاث . وربما كانت صحة قراءتها : حيزانهم ، أي ما حاوزه من أرض .

عبـد الرحمن ، أقبلت معه جماعـة من العرب من وجوه إفريقية ، ولم يكن عـددهم عظيماً لأن المراجع تحددهم بأربعمائة فقط ، « فأراد (أي جند السـمح) النزول معهم في أموالهم ومشاركتهم فيما بأيديهم ، فوفد لهم وفد عـلى أمير المؤمنـين عمر وشكـوا إليه ذلـك ، ورغبوا إليه في الرجـوع إلى بـلادهم وإدالتهم بمن ورد مـع السـمح ، فمنعهم من ذلك وآنسهم وعقد لهم ، وأشهد في عقدهم على إقرارهم في أموالهم ، وأقطع الواردين مع السمح إقطاعات غيرهـا ، وقال : هـذه الثغور الهندية لولا إقطاعات عمر بن الخطاب رضي الله عنه الجنـد فيها لم يسـددها ، فكيف بتلك الناحية ؟ فإنا نستخير الله في إجلاء المسلمـين عنها . ثم إنه لم ينفذ ذلك ليبلغ الكتاب أجله »[1] .

ونستنتج من هذه العبارة ما يلي :

١ ـ أن عرب الأندلس الذين كانـوا قد استقـروا بها قبـل سنة ١٠٠ هـ / ٧١٨ م كـانوا أحـرص ما يكـونون عـلى ما أصـابوا من أرض ، وإن مجـرد تفكير السمح في إشراك أربعمائة فقط من العرب الجدد معهم في إقطاعاتهم كان كافيـاً لدفعهم إلى تقرير العودة إلى بلادهم وترك الأندلس جملة ، وهذه مـلاحظة هـامة تلقي ضوءاً على طبيعـة عرب الأنـدلس في ذلك الحـين ، ومقدار حـرصهم على هذا البلد الكبير .

٢ ـ أن تفكـير عمر بن عبـد العزيـز في إخلاء الأنـدلس كـان راجعـاً إلى شكوى هؤلاء العرب وتهديدهم بتركها .

٣ ـ وأن هؤلاء العرب كانوا قد استقـروا فيها استقـروا فية من أرض عـلى اعتبار أنها إقطاعات لهم ، وسنشرح فيما بعد طبيعة هذه الإقطاعات الأندلسية .

٤ ـ وأن عمر بن عبد العزيز اضـطر إلى إرضاء العـرب الجدد بمنحهم إقطاعات جديدة من أرض الخمـس .

---

(١) دوزي : نفس المصدر ، ص ٥ .
ورحلة الوزير لمحمد بن عبد الوهاب الغساني ، ص ١١٣ ـ ١١٤ .

٥ ـ وأن هذا الإجراء كان كفيلاً بإقناع العرب بالبقاء في البلاد . أي أن ارض الخمس أخذت تتناقص شيئاً فشيئاً وتتحول إلى إقطاعات للعرب ، وسنرى أنها ستتلاشى تماماً .

ويفهم من بقية حديث محمد بن مزين أن موسى كان قد بدأ بتخميس أرض الأندلس ، « وأعجلته حركته منها وإرسال أمير المؤمنين الوليد فيه عن استيفاء ذلك » . وكان قد قسم الأخماس التي استطاع تحديدها بين من أقبل معه من العرب ، وكتب لهم سجلات بهذه الإقطاعات وأقر الوليد ذلك ، فلما أراد السمح بن مالك أن ينزل من معه من العرب « مع الأولين والمشاركة معهم في رباعهم وأموالهم ، فشخصت منهم طائفة إلى عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه ، وأخبروه بما صنع موسى بن نصير من قسم الأرض بعد إخراج الخمس ، وإقرار الوليد لهم على ذلك ، واستظهروا بسجلاته التي سجلها لهم ، فأقرهم أمير المؤمنين رضي الله عنه على ما أقرهم عليه الوليد بن عبد الملك ، وعلى ما قسمه بينهم موسى بن نصير ، وأمضى لهم ذلك من أمره وسجل لهم بمثله ، وكتب لهم إلى السمح بن مالك بالوقوف عند عهده وإمضاء ما أمر به ، وانصرفوا إلى ما تخلفوه مسرورين ومبشرين بما لقوه من فضله وعدله ، وكتب إلى السمح أن يدخل الجند الذين دخلوا معه من الأخماس »[1] .

وربما كان هذا هو الدافع لعمر بن عبد العزيز وواليه إلى النهوض لإتمام ما كان موسى بن نصير قد بدأ به من تنظيم أرض الأندلس وتخميسها ، لكي يجد لبيت المال أرضاً غير التي استنفدتها إقطاعات العرب ، ولكي يجد أرضاً يقطعها للذين يقبلون منهم .

واستطاع السمح بن مالك أن يقوم بجزء من ذلك العمل ، وبدأ بإقليم قرطبة فأخرج خمسه فجعل جزءاً منه جبانة للمسلمين ، ولا نعرف إن كان قد أقطع الباقي للعرب أو تركه ملكاً لبيت المال . ولم يفعل السمح أكثر من ذلك ، لأن

(١) محمد بن مزين ، أبحاث دوزي ، جـ ١ ، ملحق ١ ، ص ٦ ، ورحلة الوزير للغساني ص ١١٤ .

مدته لم تطل ، وهكذا ظلت أرض الأندلس وأموالها دون تحديد أو تنظيم ، ولم يفعل أحد بعد ذلك شيئاً حتى قيام الدولة الأموية .

٢٩٠ - رأي ابن حزم

ونخرج من ذلك كله بأن أرض الأندلس لم تخضع في تقسيمها لما خضعت له بقية بلاد الدولة الإسلامية من تحديد أرض الصلح والعنوة وتقرير حكم كل منهما من ناحية الوضع القانوني أو الجبايات ، ويؤيد ذلك نص لابن حزم على أعظم جانب من الأهمية لموضوعنا ، نورده فيما يلي مقسما إلى فقرات زيادة في البيان .

١ - « هذا مع ما لم نزل نسمعه سماع استفاضة موجب للعلم الضروري أن الأندلس لم تخمس وتقسم كما فعل رسول الله فيما فتح ، ولا استطيبت أنفس المستفتحين وأقرت لجميع المسلمين كما فعل عمر رضي الله عنه فيما فتح ، بل نفذ الحكم بأن لكل يد ما أخذت .

٢ - ووقعت فيها غلبة بعد غلبة : البربر والأفارقة والمصريون، فغلبوا على كثير من القرى دون قسمة .

٣ - ثم دخل الشاميون في طالعة بلج بن بشر بن عياض القشيري ، فأخرجوا أكثر العرب والبربر المعروفين بالبلديين عما كان بأيديهم ، كما ترون الآن من فعل البربر ، ولا فرق ، وقد فشا في المواشي ما ترون من الغارات وفي ثمار الزيتون ما تشاهدون من استيلاء البربر والمتغلبين على ما بأيديهم إلا القليل التافه . . ظلم بظلم »[1].

وكلام ابن حزم هذا يقطع كل شك ، ويؤيد ما تراءى لنا في النصوص التي سبق إيرادها ، فقد غلب الفاتحون الأول على ما وقع لهم من أرض ، سواء

---

(١) MIGUEL ASIN PALACIOS, *Un codice inexploraao del Cordobés I.bn Hazm.* Al - Andalus, vol. II, 1934 fasc. I. pp. I - 56.

والمخطوط المشار إليه هو رقم ٢٧٠٤ بمكتبة جامع فاتح بالأستانة ، وقد نشر آسين بالاثيوس تحليلاً ودراسة له مع قطع من ذلك المخطوط ، والنص الذي أوردناه في ص ٣٦ من المقال المذكور .

أكانوا عرباً أو بربراً أو أفارقة (أي من أهل السواحل الإفريقية) ثم جاء عرب الطالعة الثانية وغلبوا البلديين ، وانتزعوا منهم ما قدروا على انتزاعه من الأرض ، وقامت الفتنة بسبب ذلك حتى جاء أبو الخطار ونصحه أرطباس بتفريق عرب الطالعة الثانية على نواح معينة ، وإنزالهم على أرض أصحابها من أهل البلاد على أن يكون لهم ثلثها طعمة ، أي ملكاً ، في مقابل الخدمة العسكرية كما بينا آنفاً .

أما ما يقوله محمد بن مزين من التخميس فأمر لم يصح ، ومن الطبيعي أن يكون موسى بن نصير قد شرع بعد الفتح في إخضاع أرض الأندلس لشروط الشرع ، أو بدأ في التخميس ، ولكن الظروف لم تسمح له بالاستمرار ، ومضى إلى المشرق ، وحاول نفيس الأمر بعض من أتوا بعده فلم يوفقوا ، وظلت الأرض في أيدي من غلبوا عليها ومضى الأمر على ذلك .

٢٩١ ـ رأي ابن الخطيب

وقد اعتبر العرب الفاتحون ما وقع لهم من الأرض غنيمة ، وهذا واضح من قول ابن الخطيب في العبارة التي رواها عن ابن حيان والرازي : « وبقي العرب البلديون والبربر شركاؤهم ، وسكنوا واغتبطوا وكثروا وتمولوا ، إلا من كان قد نزل منهم لأول قدومه في الفتوح على غنائمهم لم يُعرض لهم في شيء منها »[١] .

أما السبب في ترك الفاتحين يستولون على ما استقروا فيه من أرض كأنه غنيمة ،فيفسره قول محمد بن مزين « فلما ولي أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز (رضي الله عنه) الخلافة زاد اعتناؤه بها ، وأنزلها (كذا ، وربما كانت صحتها : وأزالها) عن عمال إفريقية ، وأفرد لها عاملاً ، فبعث إليها السمح بن مالك عاملاً ، فوردها في جند سوى جندها الأول ، فأرادوا النزول معهم في أموالهم ومشاركتهم فيما بين أيديهم ، فوفد لهم وفد على أمير المؤمنين عمر وشكوا اليه ذلك ، ورغبوا إليه الرجوع إلى بلادهم، وإدالتهم بمن ورد معه (أي مع

---

(١) ابن الخطيب : الإحاطة ، جـ ١ ، ص ١٠٩ .

السمح) ، فمنعهم من ذلك وأنَّسهم وعقد لهم ، وأشهد في عقدهم على إقرارهم في أموالهم ، وأقطع الواردين مع [السمح] إقطاعات غيرها ، وقال : هذه الثغور الهندية لولا إقطاعات عمر بن الخطاب رضي الله عنه الجند فيها لم يسددها ، فكيف بتلك الناحية ؟ فإنا نستخير الله في إجلاء المسلمين عنها ، ثم إنه لم ينفذ ذلك ليبلغ الكتاب أجله »[1] .

* * *

٢٩٢ ـ الخلافة تعتبر الأندلس ثغراً

وإذاً فقد اعتبر عمر بن عبد العزيز أرض الأندلس ثغراً مثل الثغور الهندية التي أقطع عمر بن الخطاب أرضها لجندها ، وبناء على ذلك فقد أعطى العرب الأول سجلات بما وضعوا أيديهم عليه من أرض على أنها إقطاعات ، بل أقطع جند السمح اقطاعات أخرى ، وأصبحت هذه قاعدة مقررة . وهذا يفسر لنا ما يقوله محمد بن مزين من أنه « حين تم افتتاح المسلمين [الأندلس] قسمها موسى بن نصير البكري التابعي بين الجيوش الذين دخلوها كما قسم بينهم سبيها ومتاعها وسائر مغانمها وأخرج من أرضها ورباعها الخمس ، كما أخرجه من سبيها ومتاعها ، واختار من خيار السبي وصغاره مائة ألف وحملهم إلى أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك ، وترك سائر الخمس من كبل (صحتها كبار) السبي ووخش الرقيق في الخمس من الأرضين يعمرونها ليثلث مال المسلمين ، وهم أهل البسائط ، وكانوا يعرفون بالأخماس وأولادهم بنو الأخماس »[2] .

٢٩٣ ـ اعتبار أراضي الجنوب إقطاعات لمن استولوا عليها

وواضح أن موسى لم يخمس إلا جزءاً قليلاً من أرض الأندلس ، وهو أرض البسائط في الجنوب ، ربما جنوبي الوادي الكبير ، فاستولى المسلمون الفاتحون على أربعة أخماسه واعتبروها غنيمة واعتبرتها الدولة إقطاعات ، وبقي الخمس

(١) رواه محمد بن عبد الوهاب الغساني في « رحلة الوزير » طبعة ألفريد البستاني ، تطوان ١٩٥١ ، ص ١١٣ . وقد نشر نفس النص خليان ريبيرا فيما نشر من ذلك الكتاب تحت عنوان « الرسالة الشريفية » ذيلاً على تاريخ افتتاح الأندلس لابن القوطية ، ص ٢٠١ .

(٢) نفس المصدر ، ص ١١٢ .

ملكاً للدولة فأطلقت فيه السبي يزرعونه للدولة ، ويؤدون من أمواله الثلث (ليثلث مال المسلمين) وقد اعتبر هؤلاء زراع أرض الدولة وأطلق عليهم اسم الأخماس ، وأولادهم بنو الأخماس .

ويتفق هذا الذي قلناه مع واقع الأحداث التاريخية ، فإن الجنوب بالفعل هو الذي فتحه المسلمون عنوة ، فقد قاتلوا في أقصى الجنوب (واقعة وادي لكه) وفتحوا أستجة وقرطبة عنوة ، فاعتبروا كل ما يقع جنوبي الوادي الكبير أرض عنوة وقسموه على النحو الذي قلناه . ولما كان المسلمون قد فتحوا ناحية ماردة عنوة فقد انسحب هذا الحكم على ما يقع بين الوادي الكبير ووادي آنة ، وما بين هذا النهر والمحيط ، فيما عدا شنترين وقلنبرية فقد استسلم أهلها وعقد المسلمون معهم عهداً فاستثنوا من ذلك الحكم . وكذلك مدينة صغيرة في الجنوب الشرقي تسمى شية (Xea) فقد صالح أهلها . ولم يجر على إقليمها حكم العنوة .

وقد اعتبرت أراضي الجنوب والغرب التي تقاسمها العرب اقطاعات ملكاً لأصحابها يتوارثها الأبناء عن الآباء :

٢٩٤ ـ بقية أرض الأندلس أرض صلح

وأما بقية أرض الأندلس فقد اعتبرت أرض صلح صالح عليها أهلها ، قال محمد بن مزين : « وأما سائر النصارى الذين كانوا في المعاقل المنيعة والجبال الشامخة فأقرهم موسى بن نصير على أموالهم ودينهم بأداء الجزية ، وهم الذين بقوا على ما حيز من أموالهم بأرض الشمال ، لأنهم صالحوا على جزء منها (أي على أداء جزء من غلتها) مع أداء الجزية في أرض الثمرة وأرض الزرع ، على ما فعله خير من اقتدى به صلى الله عليه وسلم بيهود خيبر في نخيلهم وأرضهم »(١) .

وقد رجحنا أن المراد بأرض الشمال هنا ، ما يقع شمالي الوادي الكبير من شبه الجزيرة ، وهذا معقول ، فقد فتحت تلك النواحي كلها صلحاً ، وأخذ

---

(١) نفس المصدر والصفحة .

أهل كل ناحية لأنفسهم عهداً ، وهذا العهد يقرر ما عليهم من مال للدولة ، وواضح أن نصوص هذه المعاهدات لم تكن مثلها واحدة فقد اختلفت بحسب الظروف ، قال محمد بن مزين : « فلما أكمل السمح ما أراد (أي إكمال تخميس أرض الجنوب) خاطب أمير المؤمنين بما عمله في أرض العنوة وأرض الشمال وهي التي فتحت صلحاً ، فإن أهلها صولحوا على الجزية مع أجزاء من الأرض (أي من غلة الأرض) مثالثة ومرابعة كيفما كان طيب الأرض وغلتها ، حسبما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم في خيبر »[1] .

وظاهر إن ما يقوله محمد بن مزين من أن أهل بلاد الشمال « صولحوا على الجزية مع أجزاء من الأرض مثالثة ومرابعة . . . حسبما فعله الرسول صلى الله عليه وسلم في خيبر » إنما هو اجتهاد منه ، فإن الرسول لم يترك أرض خيبر لليهود على أن يؤدوا الثلث أو الربع بل النصف[2]، وقد وجد الفقهاء أنفسهم أمام اتفاقات أقرها حكام المسلمين وخلفاؤهم تبيح لأهل بعض نواحي الأندلس التي فتحت صلحاً أن يؤدوا الثلث أو الربع ، فحاولوا إعطاء ذلك صبغة شرعية ، فقال بعضهم إن الذي جرى فيها كان قياساً على ما صنع بخيبر وفدك بعد ذلك وأنكره آخرون إنكاراً تاماً ، فقالوا إن أرض الأندلس لم يجر عليها

(١) نفس المصدر ، ص ١١٦ .

(٢) قال الطبري في كلامه عن غزوة خيبر : « فلما نزل أهل خيبر على ذلك سألوا رسول الله أن يعاملهم بالأموال على النصف ، وقالوا : نحن أعلم بها منكم وأعمر لها ، فصالحهم رسول الله صلى الله عليه وسلم على النصف ، على أنا إذا شئنا أن نخرجكم أخرجناكم ، وصالحه أهل فدك على مثل ذلك . . » ـ تاريخ الأمم والملوك ، القاهرة ١٩٣٩ ، جـ ٢ ، ص ٣٠٢ .

وقال أبو يوسف (كتاب الخراج ، القاهرة ١٣٥٢ ، ص ٥٠) : « حدثنا مسلم الحزامي (أو الحراني أو الخزاعي) أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دفع خيبر إلى اليهود مساقاة بالنصف ، وعن الحجاج بن أرطاة عن نافع عن عبد الله بن عمر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دفع خيبر إلى أهل خيبر بالنصف» ، ويقول في ص ٨٥ : « أولا ترى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم افتتح خيبر عنوة ، ولم يجعل عليها خراجاً ودفعها إلى اليهود مساقاة بالنصف ؟ » . بل إنه ثابت أن الرسول صلى الله عليه وسلم كره المزارعة على الثلث والربع ، قال أبو يوسف : « وكانوا يحتجون أيضاً في المزارعة بالثلث والربع بحديث جابر عن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كره المزارعة بالثلث والربع » ـ كتاب الخراج ص ٨٩ .

حكم الشرع كما رأينا في كلام ابن حزم الذي أتينا به ، وكما قال فقيه آخر هو أبو جعفر أحمد بن نصر الداوودي فقد قال : « وأما أرض الأندلس فقد طعن فيها بعض الناس ، وزعم أنها أو أكثرها فتحت عنوة ، وأنها لم تخمس ولم تقسم ، غير أن كل قوم وثب على طائفة منها من غير اقطاع من الإمام »[1] .

وإذاً فقد اعتبرت أراضي الجنوب أرض عنوة ، واعتبرها من فتحوها غنيمة وتقاسموها بعد إخراج الخمس منها ، وأيدت الدولة ذلك ، فسجل الوليد ابن عبد الملك لمن استولى عليها من المسلمين وأعطاهم سجلات بذلك ، ثم جاء عمر بن عبد العزيز فأيد ذلك الحكم واعتبر ما استولى عليه المسلمون من الأرضين إقطاعات ، وساوى بينها وبين ما فتح المسلمون من أرض الهند ، فاعتبرها ثغراً يجوز للإمام أن يقطع أرضها لمن فتحوها ومن يقومون على حمايتها ، فإذا كانت في الشرق ثغور هندية ، ففي الغرب ثغور أندلسية . أما أرض الشمال مما فتح صلحاً فقد اعتبرت أرض صلح ، تجري عليها أحكام الصلح التي عقدها المسلمون مع أهلها . وهذا الذي حدث في الأندلس يشبه تماماً ما حدث في المشرق ، فقد اعتبر المسلمون أرض السواد أرض عنوة ، وأرادوا تقاسمها ، فحال عمر بينهم وبين ذلك ، ولم يسمح لهم باعتبار الأرض غنيمة لهم ، بل غنيمة لجماعة المسلمين ، وتركها لأهلها على أن يؤدوا للمسلمين جزءاً من غلتها ، أي صارت أرض فيء . أما ما يلي ذلك شرقاً ، فقد اعتبر أرض صلح ، إذ لم يفتحه المسلمون بحد السيف . وقد روى يحيى بن آدم خبراً يصور ذلك أحسن تصوير فقال : « أخبرنا اسماعيل ، قال : حدثنا الحسن ، قال : حدثنا يحيى ، قال : سمعت حسن بن صالح يقول : كنا نسمع أن مادون الجبل من سوادنا فهو فيء ، وما وراء الجبل فهو صلح ، قال حسن : فمن كان منهم صلحاً فعليهم الذي صولحوا عليه ، فيخلي بينهم وبين أرضيهم ، ولا يوضع عليها شيء ما أقاموا بصلحهم يؤدونه للمسلمين »[2] .

---

(١) رواه سيمونيت في « تاريخ المستعربين » ، ص ٦٨ نقلاً عن مخطوطة الإسكريال رقم ١١٦٠ .

(٢) يحيى بن آدم القرشي : كتاب الخراج (بتحقيق أحمد محمد شاكر) القاهرة ١٣٤٧ ، ص ٢١ .

٢٩٥ ـ نزول العرب في بعض نواحي الشمال

أما من استقر من العرب في ريف بعض نواحي الشمال ، فالأغلب أنهم نزلوا مواضع لم تكن مأهولة أو في أرض الصوافي التي حددها أبو يوسف فيما يتصل بسواد العراق بقوله : « أصفى عمر بن الخطاب رضي الله عنه من أهل السواد عشرة أصناف : أرض من قتل في الحرب ، وأرض من هرب ، وكل أرض كانت لكسرى ، وكل أرض كانت لأحد من أهله ، وكل مغيض ماء ، وكل دير بريد »[1] أي أنه ذكر ستة وترك أربعة ، وأضاف إليها في رواية أخرى أرض الآجام ، ونضيف نحن فيما يتصل بالأندلس أملاك الملوك وأهل بيتهم وأملاك الكنائس ، وكان الموجود في الأندلس من كل صنف من أصناف هذه الأرض كثيراً فتبحبح فيها من شاء الاستقرار في الأرض من العرب ، ووجدت لهذا جماعات منهم في كل ناحية تقريباً . وكانت هذه الأرضون كلها بمنزلة القطائع ، يؤخذ عليها العشر في الغالب ، ومنها في المشرق ما كان يؤدي عشرين ، وللإمام أن يصيرها أرض خراج إذا كانت تسقى من أنهار الخراج[2] . ولما كنا لا نعرف ما كانت تؤديه في الأندلس ، فأسلم الآراء أن يقال إنها كانت تؤدي الحد الأدنى وهو العشر ، خاصة وأن العشر كان هو القاعدة السارية على من تملك الأرض من البلديين والبربر[3] ، وأما عرب الشام فقد ذكرنا حكم ما كان في أيديهم ، ومن البديهي أن يكون زراع أهل البلد قد خضعت أراضيهم لأحكام الخراج عامة .

بهذا تتقرر الأسس العامة التي جرت عليها شؤون الأموال في الأندلس على

(١) أبو يوسف : كتاب الخراج ، ص ٥٧ ـ ٥٨ .

(٢) نفس المصدر .

(٣) جاء في كتاب الخراج ليحيى بن آدم (ص ٨٠ ـ ٨١) : « أخبرنا إسماعيل، قال : حدثنا الحسن ، قال : حدثنا يحيى ، قال : حدثنا قيس عن برد أبي العلاء عن مكحول ، قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : جعل رزق هذه الأمة في سنابك خيلها وأزجة (نصال) رماحها ما لم يزرعوا ، فاذا زرعوا كانوا من الناس » .

وكانت القاعدة العامة ألا تترك أرض دون أن يعمرها أحد ، قال أبو يوسف : « ولا أرى أن يترك [الإمام] أرضاً لا ملك لأحد فيها ولا عمارة حتى يقطعها الإمام ، فإن ذلك أعمر للأرض وأكثر للخراج » ، ص ٦١ .

نحو مفهوم . ولا تعيننا المراجع التي بين أيدينا على التدقيق أكثر من ذلك ، ولهذا فإننا نحجم عن محاولة تقدير أموال الأندلس في هذه الفترة ، خاصة وأن الاضطرابات الكثيرة التي وقعت بين العرب والبربر من ناحية ، وبين اليمنية والشامية من ناحية أخرى ، جعلت الواصل إلى بيت المال دائماً قليلاً . وقد أشرنا من قبل إلى ما ذكره صاحب « الأخبار المجموعة » من نقصان الخراج أثناء الفتنة الكبيرة التي وقعت بين العرب والبربر[1] ، ولم يتحسن الحال عندما انتصر العرب بفضل جند طالعة بلج فقد قطع البلديون الخراج ، وكان معظمهم من اليمنيين ، إذ عز عليهم أن يؤدوا الضريبة للشاميين الغالبين ، وزاد الأمر سوءاً توالي سنوات القحط ، ودام ذلك حتى دخول عبد الرحمن بن معاوية ، فلم تقع في أيام الصميل بن حاتم ويوسف الفهري سنة رخاء إلا في النادر ، فلا عجب أن كان بيت المال خاوياً أو يكاد خلال هذه السنوات .

* * *

٢٩٦ ـ التصرف في أموال الجباية

ومهما كان المال الذي يصل إلى العمال في قرطبة ، فلا بد أن نسأل : ماذا كانوا يفعلون به ؟ هل كانوا ينفقونه في الوجوه التي تقررت له من عمارة البلاد والقيام بشؤونها وأداء الرواتب لأصحابها ثم إرسال الباقي إلى دمشق ؟ هنا نجد أنفسنا أمام حالة فريدة في بابها في أخبار تلك الأيام : ليس لدينا نص واحد صريح يدل على أن شيئاً من مال الأندلس كان يرسل إلى المغرب أو المشرق ، وليس لدينا من أخبار التعمير إلا ما ذكرناه من إعادة بناء قنطرة قرطبة وإنشاء جبانة للمسلمين . بل ليس لدينا نص يشير إلى مطالبة عمال المغرب أو الخلفاء بأموال الأندلس كما كان الحال مع مصر مثلاً ، اذ كان خراج مصر موضوعاً هاماً تسهب المراجع في تفاصيله وذكر مقاديره ، بل تذكر المكاتبات التي دارت بين عمر بن الخطاب وعمرو بن العاص بشأنه ، وكيف أن الخراج كان السبب في عزل ابن العاص واستبدال عبد الله ابن سعد بن أبي السرح به . وصمت المراجع عن هذه الناحية صمتاً تاماً يبدو

---

(١) انظر : « الأخبار المجموعة » ، ص ٦٢ .

في نظرنا أمراً غريباً ، خاصة وأن الذين أرخوا لهذه الفترة ـ كصاحب « الأخبار المجموعة » وابن القوطية وأحمد بن محمد الرازي وابن حيان ـ ومن نقل عن هؤلاء جميعاً من متأخري المؤرخين ، كانوا جميعاً ذوي عناية بشؤون المال والخراج ، ومنهم من كان من كتاب الدولة . ولا يعلل هذا الصمت إلا بأن ولاة الأندلس لم يكونوا يرسلون إلى افريقية أو إلى المشرق شيئاً من المال ، وأن الخلافة كانت يائسة من أمر الأندلس لا تنتظر منه مالاً ، حتى فكر عمر بن عبد العزيز في استرجاع العرب منه وتركه جملة . والراجح أن معظم ما كان يصل إلى عمال الأندلس كان يضيع بين أرزاق الجند وأعطياتهم ونفقات الجهاد فيما وراء جبال ألبرت واستكمال فتح شبه الجزيرة نفسها . ثم أن الأندلس لم يل أموره خلال هذه الفترة كلها إلا خمسة ولاة من الطراز الذي يرجي منه أن يقرر شؤون الأندلس الخراجية على وجه الأحكام والضبط ، وهم : موسى بن نصير وابنه عبد العزيز بن موسى ، والسمح بن مالك الخولاني ، وعبد الرحمن الغافقي ، وعقبة بن الحجاج السلولي[1] . أما الباقون فكانت أشخاصهم من الضعف أو البعد عن التنظيم والميل إلى الفوضى بحيث نستبعد أن يكونوا قد استطاعوا أو اهتموا بأن يضعوا للبلاد ديواناً مالياً منظماً . ومن الغريب أن هؤلاء الخمسة قد عاقتهم ظروفهم عن أن يقوموا بشيء إيجابي في هذه الناحية ، لأن موسى أعجله الوليد عن أن يفعل شيئاً ثم حاسبه بعد ذلك حساباً عسيراً جداً ، وعبد العزيز كان في شبه خروج على الدولة طوال مدة ولايته ، وقد رأينا ما فعل السمح في هذه الناحية ، وأما عبد الرحمن الغافقي وعقبة بن الحجاج فكانت لهما حروب طويلة تستنفد كل ما عسى إن يكونا جمعاه . ثم إن أمر الأندلس كان خلال معظم هذه الفترة إلى عمال إفريقية ، ولم يكونوا هم الآخرون منظمين ممتازين ، ولم تكن ذمم الكثير منهم بعيدة عن النهم ، وشغلتهم إلى جانب هذا كله حروب مع البربر استنفدت مالاً كثيراً جداً ، فلعل ولاة الأندلس كانوا يبعثون بأموالهم إلى عمال إفريقية ، ولم يعن هؤلاء بفصلها عن أموال ولايتهم ، فلم يستطع

(١) وحتى هؤلاء الخمسة لم تخل تصرفاتهم من أخطاء ومخالفات أثارت غضب الخلفاء انظر : فتح الأندلس ، ص ١٩ .

الرواة العثور على شيء يحددها لهم ، ومن هنا كان إغفالهم الإشارة إليها(١) .

وبين أيدينا نصوص كثيرة تؤيد القول بأن شؤون الأندلس المالية خلال هذه الفترة لم تضبط على الأسس الشرعية التي جرى العمل بها في الولايات الإسلامية إذ ذاك ، فقد اتهم موسى بن نصير صراحة بأنه لم يكن يخرج الخمس مما وقع في يده من الغنائم ؛ وكان هذا سبباً من أسباب نكبته(٢)، بل إن سليمان بن عبد الملك « أخذ موسى ومن كان معه من عمال المغرب لما بلغه من اقطاعاتهم الأخماس فغرموا ، وغرم موسى مائة الف »(٣)، وهي رواية تدل على أن موسى بن نصير نفسه مد يده إلى أخماس الغنائم ، وقد رأينا كيف تفرقت أرض الأجناس في قبائل العرب إقطاعات ، أما ما كان يرد من أموال الخراج فقد كان جانب منه يؤدي إلى جند العرب كما رأينا ، والباقي ـ وكان قليلاً ـ كان يتصرف فيه العمال .

* * *

٢٩٧ ـ ثروات العرب الأول في الأندلس

والدلائل كثيرة على أن العمال وكبار العرب كانوا على غنى عريض ، فقد كان الصميل بن حاتم يمتلك داراً كبيرة « بعدوة النهر بقبلي قرطبة » ، وخلف داره كانت عقدة الزيتون المشهورة ، « كانت كلها له ، وكانت مائة صف في كل صف ألف أصل وسقي عظيم من عين هناك »(٤) ، أي أن هذا الشيخ البدوي كان يملك غابة واسعة

(١) ولم تكن أحوال إفريقية من هذه الناحية بأحسن من أحوال الأندلس ، قال ابن القوطية مشيراً إلى هزيمة كلثوم بن عياض القشيري أمام البربر في موقعة الأشراف : « فلما بلغ هشام بن عبد الملك النكبة الدائرة على كلثوم وما اتصل بذلك من فساد إفريقية والأندلس شاور العباس بن الوليد أخاه ، وكان أحله في الشورى محل أخيه مسلمة بعد في هذا الأمر ، فقال له : يا أمير المؤمنين ، ليس يصلح هذا الأمر الا بما صلح به أوله ، فاصرف نظرك وحسن رأيك إلى هذه القحطانية . . . » .

ابن القوطية : افتتاح ، ص ١٧ .

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب والأندلس ، ص ٢١١ .

(٣) فتح الأندلس ، ص ٢٠ .

(٤) فتح الأندلس ، ص ٣٨ .

من أشجار الزيتون فيها مائة ألف شجرة ، وكانت خزانته عامرة بالمال ، حتى لقد وجد في بيته تابوت «فيه عشرة آلاف دينار دراهم »[١] . وكان عامر بن عدي من أشراف بني عبد الدار بالأندلس يملك منية واسعة بغربي مدينة قرطبة ، وكانت تسمى «قناة عامر » وقد بلغ من سعتها أنه حينما استشعر الخوف من يوسف الفهري وأراد التحرز منه «أغلق غلقة عظيمة هم أن يجعلها مدينة ، وأراد أن يبتني بها بنياناً ينضم إليه ويغاور يوسف حتى يأتيه أمداد اليمن »[٢] .

وأقطعت جماعة من بني غافق قرية كاملة بشرف أشبيلية نسبت إليهم بعد ذلك ، وهي مرنانة الغافقين ، ومنهم كان عبد الرحمن بن عبد الله الغافقي الذي استشهد في بلاط الشهداء .

وكان الكثيرون من رؤساء عرب الأندلس في هذه الفترة يملكون ضياعاً واسعة فيها قصور كبيرة ، وكانوا يسمون القصر والضيعة المحيطة به « البلاط » من (Palatum) اللاتينية حتى إنهم سموا قرطبة كلها « بلاط لذريق »[٣] لأنها كانت ملكاً له ، ومن أمثلة هذه البلاطات « بلاط الحر » بن عبد الرحمن[٤] و « بلاط مغيث » الرومي ، وكانت داراً شريفة ذات سقي وزيتون وثمار يقال لها « اليسانة » كانت للملك الذي أسره (مغيث) وكان له فيها بلاط منيف شريف ، فهي تسمى بالأندلس (بلاط مغيث »[٥] ، وكان عبد الله بن خالد من كبار موالي بني أُمية يملك معظم قرية الفتين ، حتى ليقول ابن القوطية إنها كانت « منزل عبد الله بن خالد »[٦] ، وكذلك كان أبو عثمان شيخ موالي بني أمية يملك اقطاعاً كبيراً بقرية طرش من كورة قرطبة[٧] ، بل كان يحدث أن تترك

---

(١) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٢٩ .
(٢) الأخبار المجموعة ، ص ٦٣ .
(٣) المقري ، جـ ١ ، ص ١٦٠ ، جـ ٢ ، ص ٢٣ .
(٤) المقري ، جـ ٢ ، ص ٢٣ .
(٥) الأخبار المجموعة ، ص ٢١ .
(٦) المصدر السابق ، ص ٢٤ .
(٧) نفس المرجع والصفحة .

كورة كاملة لرجل واحد ، كما ترك يوسف الفهري كورة رية لمنافسه يحيى بن حريث ليسكت عنه[1] ، بل كانت قبائل عربية تملك كوراً كاملة ، فقد ذكر صاحب الأخبار المجموعة أن « الثغر كان لليمن »[2] والمراد هنا ثغر سرقسطة ، وكان رجال مثل الصميل ينفقون عن سعة تدل على مال عريض ، قال صاحب الأخبار المجموعة يتحدث عن الصميل عندما سار إلى سرقسطة : « فأتى في مائتي رجل من قريش ومن كان معه من غلمانه وحشمه ومواليه ، فنال بها ملكاً وغنى ، ووفد عليه محاويج الناس ، فأعطاهم الأموال والرقيق ، ولم يأته صديق ولا عدو فحرمه ، فازداد سؤدداً »[3] . وقد روينا خبر دخول نفر من كبار العرب والموالي على أرطباس وإعطائه إياهم الضياع ، قال ابن القوطية : « فوهبهم ماية ضيعة صار لكل واحد منهم عشر ضياع ، منها طرش لأبي عثمان ، والفتين لعبدالله ابن خالد وعقدة الزيتون بالمدور للصميل بن حاتم »[4] . وقد روينا في نفس الخبر كيف إن ارطباس وهب ميمونا العابد « المجشر الذي على وادي شوش وما فيه من البقر والغنم والعبيد والقلعة (أي ضيعة القلعة) بجيان وهي المعروفة بقلعة حزم فملكها . . »[5] . أما الرجال الذين مثل أبي الصباح اليحصبي وحيوة بن ملامس ـ وكانا يوصفان بأنهما « سيدا الغرب » ـ فقد كانوا على ثراء واسع[6] .

وهذه أمثلة قليلة تعيننا على تصور عرب الأندلس في ذلك الحين ، فقد كانوا جميعاً بين مقطعين يملكون أرضاً كثيرة أو قليلة ، أو نازلين في نواح يأخذون نسبة عالية من غلتها ، وكانت لهم إلى ذلك الأعطيات والأرزاق ، وقد أوجد فيهم ذلك الرخاء الذي كانوا فيه نوعاً من الأنانية جعلهم يتصورون أن الأندلس

---

(١) نفس المصدر ، ص ٢٧ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٦٢ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٦٣ .

(٤) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٤٠ .

(٥) نفس المصدر ، ص ٣٩ .

(٦) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٢٥ .

كلها طعمة لهم أو غنيمة وقعت في أيديهم لا يملك أحد أن يشاركهم فيها ، فقد أبوا على عرب الطالعة الثانية نزول بلادهم وتركوهم محصورين في ناحية سبتة حتى كاد يهلكهم الجوع ، وكانوا يقولون : « إن بلدنا لا يحملنا وإياهم » . نعم ، شبه الجزيرة الإيبيرية كله لا يتسع لبضعة آلاف من العرب ! وعندما وفد نحو ٤٠٠ عربي مع السمح بن مالك وطلبوا إلى عرب الأندلس أن يوسعوا لهم في جانبهم ضاقوا بهم وبلغ بهم الأمر أن ذهبوا يشكون إلى الخليفة في دمشق .

* * *

٢٩٨ - القبائل تملك إقطاعاتها ملكاً جماعياً

وإذا استثنينا بعض كبار الرؤساء الذين كانوا يملكون ضياعاً أو بلاطات لهم خاصة ، فالظاهر من النصوص أن حقوق العرب على النواحي التي نزلوا فيها كانت حقوقاً جماعية ، أي أن « الإقطاعات » كانت بيد رؤساء القبائل ، وهم الذين يتولون توزيع الحصص على أفرادها . وبغير هذا لا نستطيع تفسير قول المؤرخين إن « الثغر كان لليمن » ، أو أن أبا الصباح وحيوة بن ملامس كانا « سيدي الغرب »[1] ، بل لا يمكننا تفسير نزول أجناد الشاميين بالكور : كل جند بكورة يكون لهم ثلث أموالها إلا على هذا الأساس ، أي أن « الجند » بأسره كان ينزل الكورة ويعتبر رئيسه صاحب الأمر فيها ، وقد كان الأساس أول الأمر أن ينزل الجند في الكورة دون أن يدعي أفراده من الحق أكثر من ثلث المحصول ، ولكن اضطراب الأحوال في أواخر أيام الولاة جعل الأجناد ملاكاً للنواحي وأصحاب الأمر فيها . وحيث أننا لا نسمع ولو مرة واحدة عن عمال لكور الأندلس في هذه الفترة ، فأقرب الأمور إلى الصحة هو القول بأن العرب النازلين فيها - مقطعين أو مقيمين فقط - كانوا بالفعل أصحاب الأمر فيها . وقد أصبح الأمران سواء مع الزمن كما رأينا ، فيقوم بالأمر رئيس القبيلة أو شيخ مجموع القبائل أو صاحب لواء الجند ، فيجمع الأموال بمعاونة رؤسائها من أهل الذمة ، ويقتطع ثلثها ويؤدي الثلثين لبيت المال إن كان رئيس جند نازل أو يؤدي عشرها فقط إن كان مقطعاً ، وعليه

(١) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٢٥ .

لقـاء ذلك أن يكـون مستعداً بـرجال قبيلتـه للخروج إلى الحـرب عندمـا يدعـوه العامل حسب النظام الذي أوردناه . أي أن أرض الجنوب قسمت بـين فاتحيهـا والمقبلين إليها من العرب والبربر ، لكل قبيلة ناحية هي صاحبة الأمر فيهـا ، لا يربطها بالحكومة المركزية إلا أداء ما ينبغي عليهـا من المال والاشتـراك في الحرب لقاء الرزق والعطاء . وكان لكل قبيلة أو جماعة من القبائل « سجل » من عـامل الأنـدلس أو من الخليفة نفسـه ، تؤيـد بـه حقهـا في نـاحيتهـا . أي أن نـواحي الأنـدلس الجنوبيـة كانت معتبـرة ثغـوراً أو ولايـات حـدود تقيم فيهـا « أجنـاد تتصرف بجزء كبير من محصولها نظير ما تقوم به من خدمة عسكرية دائمة .

على هذا الأساس نستطيع أن نفسر قدرة عرب الأندلس وبـربرهـا الأولين على القتال واستمرارهم فيه : مع النصارى الإسبـان في الشمال ، ومـع نصارى غالة في أول الأمـر ، ثم فيما بينهم وبـين أنفسهم بعد ذلـك ، لأنهم كانـوا جميعاً جنوداً لا عمل لهم إلا القتال ، ولو كانوا توزعوا الأرض قـطعاً صغيـرة فيما بينهم واشتغلوا بـالزراعـة لأصبح من الصعب اقتـلاعهم منهـا وإرسـالهم للحـرب كـما حدث للكثير من عرب مصر ، مثلاً ، ممن زرعوا واندرجوا في غمار الناس ، أما عـرب الأندلس فلم يكن أحـد منهم ليملك أرضـاً لنفسـه ، وإنما الأرض ملك القبيلة كلها ورئيسها يوزعها عـلى أفرادهـا كما يـرى ، فإذا نـاداهم إلى الحرب لم يسعهم إلا التلبية ، وإلا ضاع حقهم في العـطاء في آخر الغـزاة . وبهذا نستـطيع أن نفسر سهـولة تـداعيهم للحرب وخـروج قبائلهم لهـا ، فإذا أهـين شيخ قبيلة خرجت القبيلة للحرب ، وإذا استنجد رئيس عدد من القبائل بني عمومته خفت قبائل بأسرها لعونـه ، لأن رؤساء القبـائل وأصحـاب الألويـة المعقود لهم كـانوا يوجهون الأفراد كما شاءوا ، وكان ذلك من أشد مـا آذى عرب الأنـدلس وعجل بزوال السلطة من أيديهم وانتقالها إلى عبد الرحمن الأموي .

والنتيجة الطبيعية لهذا النظام هو فقـر الإدارة المركـزية وعجـزها عن إدارة البلاد كلها إدارة مـوحدة ، وهبـوط أمر ولاة الأنـدلس واجتراء أجنـاد العرب في النواحي عليهم . فلم تكن الأندلس في واقع الأمر ولاية واحدة بل عدة ولايات

تنفرد بالأمر في كل منها قبيلة أو عدة قبائل يجمعها لواء واحد ، ولم يرزق الله الأندلس خلال هذه الفترة بوال واحد تجرد من نزعات العصبية وطالت مدته حتى يقرر الأمور فيها على قاعدة تؤكد وحدة الولاية وتنزع من قلوب العرب ميول العصبية ونزعات الأنانية التي غلبت عليهم ، ثم إن الخلافة كانت أبعد من أن تستطيع القبض على شؤون الأندلس وإخضاعها للنظم الإدارية الإسلامية المقررة ، فتركوها لعمال إفريقية ، ولم يكن هؤلاء من طراز المنظمين ذوي الشخصيات القوية الممتازة ، وشغلتهم إلى جانب ذلك شؤون المغرب ، وما كان أكثرها ؛ فسارت الأمور في الأندلس خلال هذه الفترة سيراً ارتجالياً لا يكاد يخضع لنظام مقرر أو قاعدة ثابتة ، فاستبد بكل ناحية أصحابها ، وثارت بينهم المنازعات .

ولعل أغرب ظواهر هذا الاضطراب هو أننا لا نجد ذكراً في مراجعنا لخراج هذا القطر الفسيح ، كأنه كان لا يغل شيئاً : لا نملك نصاً واحداً يذكر أن خراج الأندلس أُرسل إلى إفريقية أو إلى المشرق ، بل لا نجد شيئاً يدل على أن الولاة كانوا يجمعون خراجاً منتظماً مقرراً ، اللهم إلا إشارات متناثرة كقولهم إن عقبة بن الحجاج « عدل في الخراج » أو إن الخراج « ضعف » في أوائل ولاية يوسف الفهري ، وهي إشارات لا نستطيع الاعتماد عليها في تكوين فكرة صحيحة عن هذه الناحية الهامة .

* * *

٢٩٩ ـ بعض الوظائف العامة

وإذ كان الأمر كذلك فإننا لا نستطيع تصوير الإدارة الإسلامية في الأندلس خلال هذه الفترة : لا نعرف أي الإدارات وجد وأيها لم يوجد ، وكل ما لدينا أسماء بعض أشخاص يحتلون وظائف إدارية وردت من غير تحديد اختصاص ، كأبي عثمان بن عبد الله **صاحب أزمة الأرض والخراج**[1] ، وعامر بن أبي عدي **قائد الصوائف**[2] ،

(١) فتح الأندلس ، ص ٥٤ .

(٢) الأخبار المجموعة ، ص ٦٣ .

ويحيى بن يحيى التجيبي قاضي هشام بن عبد الملك على الشاميين[1] ، وجد بني سليمان القرائين وكان صاحب الصلاة[2] ، ويحيى بن أبي زيد التجيبي قاضي الجند[3] ، وعيسى بن عبد الله الطويل وكان على المغانم[4] وهذا هو كل ما لدينا ، وهو لا يعيننا على تكوين فكرة عن الإدارة العامة في هذا العهد ، وربما كان الأحجى أن ندع بحث هذه الناحية حتى تتجمع لدينا معلومات أوفى .

بيد أن هناك وظيفة كبيرة لدينا عنها من المعلومات ما يمكننا من الكلام عنها في أمان ، هي وظيفة القضاء في الأندلس ، وكان لها في عصر الولاة أهمية كبرى .

٣٠٠ ـ القضاء كانت للقضاء أهمية خاصة في الأندلس ، وربما لم يبلغ القضاة في بلد من بلاد الإسلام ما بلغوه من علو المكانة ووفرة السلطان وبعد الجاه في الأندلس والمغرب ، ولدينا لتاريخ القضاء في الأندلس كتابان أحدهما لمحمد بن الحارث بن أسد الخشني[5] ، والثاني لأبي الحسن النباهي[6] ، وأورد ابن سعيد في « المغرب » تاريخاً لقضاء الأندلس يكاد يكون كاملاً ، ومعظم من نجد أسماءهم في تراجم علماء الأندلس إنما كانوا قضاة أو لهم بالقضاء صلة كالحسبة والمشاورة وما إلى ذلك ، وأورد المقري في كتابيه « نفح الطيب » و« أزهار الرياض » فصولاً وتراجم ضافية للقضاة ، واختص ابن حيان مشاهيرهم بتراجم مطولة ، أي أن المادة عن قضاء الأندلس وقضاته وفيرة لمن يشاء أن يدرس . وكان قاضي الجماعة في قرطبة شخصية لها أهميتها في مجالات العلم والسياسة في الأندلس ، بحيث لا يمكن التأريخ للأندلس تأريخاً صحيحاً إلا إذا ألم

(١) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٣٤ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٢٨ .

(٣) فتح الأندلس ، ص ٤٣ ويرجح أن صحة الاسم « يحيى بن يزيد » .

(٤) ابن عبد الحكم ، فتوح ، ص ٢١١ .

(٥) كتاب القضاة بقرطبة ، للحافظ العالم أبي عبد الله محمد بن حارث الخشني القروي ، نشره خليان ريبيرا ، مدريد ١٩١٤ .

(٦) تاريخ قضاة الأندلس المسمى « كتاب المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا » لأبي الحسن بن عبدالله بن الحسن النباهي المالقي الأندلسي . نشره إ . ليفي بروفنسال ، القاهرة ١٩٤٨ .

الإنسان بتاريخ قضاته وتنبه للأهمية الكبرى التي كانت لهم في المجتمع الأندلسي[1] .

٣٠١ - مسألة قضاة الأندلس الأول

وكما كان موضوع قضاة الأندلس موضوع اهتمام القدماء فقد كان موضع اهتمام المحدثين ، فكتب فيه دوزي وريبيرا وآسين بلاثيوس وليفي بروفنسال وغيرهم ، وأثاروا مشاكل كثيرة يهمنا منها هنا موضوع قضاة الأندلس الثلاثة الأول ، فقد كان موضع درس وآراء ومناقشات . وأصل المشكلة أن أقدم تاريخ لقضاة الأندلس ، وهو كتاب « تاريخ قضاة الأندلس » الذي ألفه محمد بن الحارث بن أسد الخشني ، وهو مغربي من تونس أورد أسماء ثلاثة رجال ذكر أنهم من قدماء قضاة قرطبة ، وهم مهدي بن مسلم وعنترة بن فلاح ومهاجر بن نوفل القرشي[2] ، وذكر أنهم كانوا قضاة أيام الولاة أي قبل قيام الدولة الأموية الأندلسية ، وذكرهم أيضاً أبو الحسن النباهي[3] ، وفيما عدا ذلك لم يرد لهؤلاء الثلاثة ذكر في حوليات الأندلس ، ولم يشر إليهم أحد من أصحاب كتب التراجم ، حتى ابن الفرضي ؛ وكانت عنايته بشؤون القضاة عظيمة ، ومعظم أخبارهم عند الخشني منسوبة إلى أحمد بن فرج مُنْتِيل ، وهو شخصية قلقة من شخصيات التاريخ الأندلسي ، فقد ذكر ابن الفرضي أنه « كان ينسب إلى اعتقاد مذهب ابن مسرة »[4] ، وكان المسريون يعتبرون في عداد الزنادقة عند فقهاء الأندلس ، وأخبار ابن منتيل لهذا مشكوك فيها لا يوثق في صحتها .

وكان أول من قال بذلك دوزي في حديثه عن المراجع العربية لفتح العرب للأندلس ، وقد ذهب في ذلك المقال إلى أن الكثير من أخبار الأندلس في عصوره الأولى قد وضعها المشارقة والمصريون بنوع خاص ، وضرب لذلك مثلاً

---

(١) انظر عن هذه الناحية كتابنا *Essai sur la chute du Califat Umayyade de Cordoue* (Le Caire, 1948) pp. 66 - 69.

(٢) أورد الخشني تراجمهم ابتداء من ص ١٨ حتى ص ٣٠ .

(٣) النباهي : قضاة الأندلس ، ص ٤٢ - ٤٣ .

(٤) ابن الفرضي : علماء الأندلس ، ترجمة ١٢٧ .

بمحمد بن الحارث بن أسد الخشني الذي يسند الكثير من أخباره إلى رجال لا يوثق في صحة نقلهم[1] مثل ابن منتيل هذا ومحمد بن وليد[2] وعلي بن شيبة[3] وعثمان بن محمد[4]، وهؤلاء أخذوا بدورهم عن أصول مشرقية ، فابن منتيل مثلاً في حديثه عن مهدي بن مسلم يروي عن رجل يسمى أبا العباس احمد بن عيسى بن محمد المقري ، وأن هذا الرجل قد حدثه بحديث مهدي في مدينة تنيس (بالمغرب) ، وبعد أن يورد نص عهد الوالي عقبة بن الحجاج إلى مهدي ابن مسلم بولاية القضاء (وسنعرض له بعد قليل) يقول : « قال محمد (بن الحارث بن أسد الخشني) قال أحمد بن فرج ، فقلت لأحمد بن عيسى : لقد عظمت همتك إذ حفظت مثل هذا وشبهه من الأخبار القديمة ، فقال : حفظت هذا زمن الصبا عن جد لي عمِّر نحو عمري ، وكان من أحفظ الناس لأخبار المغرب وافتتاحه وأخبار بني أمية عندكم ، ولقد كان عندي من كتبه أخبار حسان غريبة ، فذهبت بحريق كان في منزلي ، ولقد بلغني أن بعض من عندكم من بني الأغلب أو غيرهم من الشيعة ادعى هذا العهد ، وكتب به نصاً إلى بعض ولاة القضاة ، وما هو إلا لمهدي بن مسلم هذا عندي [كنت] قديماً أحفظه زمن الصبا عن جدي ، فهل عندكم له ذكر ؟ فقلت له : ما سمعت به عندنا ولا باسم مهدي هذا . فقال : قد سألت غيرك من أهل بلدك ، فلم يكن يعرفه ، فياعجبي[5]! كيف درس خبره عندكم ؟ لكني أظنه لم يعقب ، فاضمحل خبره بالفتن التي دارت في بلدكم »[6] ، وهو خبر طويل مفصل يلقي

---

(1) DOZY, *Etudes sur la conquete de l'Espagne par les Arabes dans Recherches* (3e. éd 1881) I. p. I sqq.

والفقرة الخاصة بمحمد بن الحارث بن أسد الخشني في ص ٣٤ ـ ٣٦ .

(٢) انظر ترجمته عند ابن الفرضي ، ترجمة ١١٧٨ .

(٣) ابن الفرضي ، ترجمة ٩١٨ .

(٤) ابن الفرضي ، ترجمة ٩٠٠ .

(٥) وردت في النص المطبوع : « يا عجمي » ورجحنا تصويبها هكذا .

(٦) الخشني : قضاة ، ص ٢٣ ـ ٢٤ .

شكاً على ولاية مهدي بن مسلم ، ولكنه يدل على تدقيق أحمد بن فرج بن منتيل .

وعندما يروي الخشني أخبار القاضي الثاني عنترة بن فلاح يبدؤه بقوله : « حدثني أحمد بن فرج بن منتيل ، قال : حدثني أبو محمد مسلمة بن زرعة بن روح بالعريش بالشام ، وكان شيخاً كبيراً قد نيف على المائة فيما ذكر لي ، وأدرك حرملة صاحب الشافعي ، وحدثني عنه وعن أمثاله ، وذكر لي أنه من موالي بني أمية ، وكان ذا علم بأخبارهم القديمة والحديثة محباً لهم متشيعاً فيهم »[1] .

وما يورده الخشني من أخبار القاضي الثالث مهاجر بن نوفل القرشي منسوب أيضاً إلى أحمد بن فرج بن منتيل عن أبي محمد مسلمة بن زرعة هذا . أي أن أخبار القضاة الثلاثة مصدرها أحمد بن فرج عن راويتين أحدهما مغربي من تنيس والثاني مشرقي من العريش ، ولهذا فقد رفض دوزي أخبار هؤلاء القضاة الثلاثة ووصف الخشني بقلة التدقيق وإيراده الأخبار دون تمحيص[2] .

وتناول آسين بلاثيوس هذا الموضوع واتجه به اتجاهاً آخر ، ففي بحثه عن محمد بن مسرة ومدرسته قال أن أحمد بن فرج بن منتيل قد اخترع أخبار هؤلاء القضاة اختراعاً ليؤيد بذلك مذهبه ومذهب أستاذه محمد بن مسرة ، وهذا المذهب في نظر آسين لم يكن مذهباً فلسفياً بقدر ما كان اتجاهاً دينياً سياسياً يرمي إلى مناهضة الفقهاء وسلطانهم المطلق في الأندلس يؤيدهم البيت الأموي وما يسميه بالأرستقراطية العربية ، وهو يصف المسريين بأنهم إسبان قوميون[3] ،

---

(١) نفس المصدر ، ص ٢٤ ـ ٢٥ .

(٢) دوزي : نفس المصدر ، ص ٣٤ ـ ٣٦ .

(٣) MIGUEL ASIN PALACIOS, *Aben Masarra y su Escuela, Origines de la Filosofia Hispano Musulmana* (1914).

ويلاحظ أنه ترجم الأسماء على أنها رموز ، فعنترة عنده رمز على رجل شجاع ، ويترجمها بلفظ intrépido ، ونوفل رمز أيضاً ومعناه المصيبة calamidad ، وقد قرأ عنترة بن فلاح ، عنترة بن فلّاح وترجمها labrador .

ومضى يحلل أسماء القضاة الثلاثة فقال أن الأول ، مهدي بن مسلم ، لا بد أن يكون لإسباني نصراني اعتنق الإسلام ، وترجمه هكذا : un mesias hijo de un converso orenegado ، وهو في رأيه ليس علماً على شخص بل رمزاً لاتجاه ، أراد به أحمد بن فرج بن منتيل أن يقول إن الإسبان تولوا القضاء في الأندلس من أقدم العصور ، وفعل آسين بالثاني كما فعل بالأول وترجم اسمه un intrépido hijo de un labrador وترجم اسم الثالث هكذا : uno de la tribu de coraix de los que salieron de la Meca hijo de una calamidad أي أن اسميهما أيضاً مؤلفان كاسم الأول ، وقد وضعها المسريون رموزاً على معان عندهم . وقد أيد خليان ريبيرا هذا القول في مقدمته لتاريخ قضاة قرطبة للخشني ، ولكنه عارض دوزي فيما ذهب إليه من أن الخشني لا يوثق فيه ، وأنه حاطب ليل لا يدقق فيما ينقل[1] ؛ غير أنه أسرف في التفسير والاستنتاج حتى خرج بالموضوع إلى مجال التصورات والأوهام .

وعندما نشر ليفي بروفنسال تاريخ قضاة الأندلس للنباهي وجد أن هذا الأخير يذكر اسماء القضاة المشتبه في أمرهم ، فذهب إلى أن أخبار القضاة الثلاثة صحيحة ، وأغلب الظن أنه لم يقل ذلك استناداً إلى حجج جديدة ، بل لمجرد أن النباهي أيد الخشني في هذا الموضوع . ومن الطريف أن كل ناشر يود أن يؤكد أصالة النص الذي ينشره ، فريبيرا يتهم أحمد بن فرج بن منتيل بالكذب ، ولكنه يؤكد دقة الخشني وأصالة كلامه ، وبروفنسال يتبنى كتاب النباهي ويدحض رأي دوزي ومن تابعه ، وهذه علة لم يسلم منها إلا القليلون من الناشرين .

وأيا كان نصيب أخبار أولئك القضاة الثلاثة من الصحة ، فمن الثابت أنه كان للأندلس على عهد الولاة قضاة ، وسواء أكانت أسماؤهم هي تلك التي ذكر بعضها الخشني أم لم تكن ، فقد قام في الأندلس قضاة . قال الخشني : « سمعت من أهل العلم سماعاً فاشياً أن عبد الرحمن بن معاوية الإمام دخل

---

(١) المقدمة الإسبانية لترجمة كتاب القضاة للخشني ، ص ١٢ وما يليها .

قرطبة وقام بالامامة والقاضي يومئذ يحيى بن يزيد التجيبي ، فأثبته على القضاء ولم يعزله ، وكان من قبل ذلك يقال له وللقضاة قبله « فلان قاضي الجند » ، فلما امتنع الفهري « يريد يوسف الفهري » بغرناطة واضطره الأمير عبد الرحمن رحمه الله إلى النزول ، واشترط (أن يكون التنازل) بحضور القاضي يحيى ، فحضر وكتب في كتاب المقاضاة : « وذلك بحضور يحيى بن يزيد قاضي الجماعة »[1] .

٣٠٢ ـ وإذاً فقد كان القضاة في الأندلس يسمون قضاة الجند حتى أتى عبد الرحمن الداخل ، فأصبح القاضي يسمى قاضي الجماعة ، وكان أول قاض للجماعة يحيى بن يزيد هذا ، ثم تلاه معاوية بن صالح ، وكان يلقب رسمياً بقاضي الجماعة . وهذا التطور معقول ؛ ففي فترة الولاة كان المسلمون هم الجند ، ولهذا كان القاضي قاضيهم ، فلما قامت الدولة الأموية واجتمع حولها الناس ، وكان الإسلام قد انتشر ، أصبح القاضي يسمى قاضي الجماعة . وهذا التطور شبيه بما حدث في بلاد إسلامية أخرى ، مثل مصر . غير أننا ينبغي أن نفرق بين قاضي الجند وقاضي العسكر ، فإن وظيفة قاضي العسكر نشأت بعد تسمية قاضي الجند بقاضي الجماعة ، واضطراره إلى الاستقرار في العاصمة ، ومست الحاجة إلى إقامة قاض خاص بالعسكر ، يخرج مع الجيش ويعود معه . وفيما يتصل بالأندلس لدينا مرحلة انتقالية ، فقد كان يحيى بن يزيد قاضياً للجند ثم صار قاضياً للجماعة مع احتفاظه بقضاء الجند ، فكان يخرج مع الأمير في الغزوات ، واستمر ذلك أثناء قضاء معاوية بن صالح ، ثم اختص قاضي الجماعة بالحاضرة ، وأصبح أشبه بقاضي القضاة ، وأناب عنه قاضياً آخر للعسكر .

قاضي الجند وقاضي الجماعة

وما دمنا لم ننته إلى رأي في موضوع القضاة الثلاثة الأول ، فلا بأس من أن نلم بذكرهم معتمدين على ما أورده الخشني والنباهي من أخبارهم .

---

(١) الخشني : قضاة ، ص ٢٨ ـ ٢٩ .

٣٠٣ ـ عهد تولية القضاء لمهدي بن مسلم

يبدو أن حق تولية قاضي الأندلس لم يتقرر على وجه محدد في فترة الولاة ، فقد كان عامل الأندلس يوليه أحياناً كما ولى عقبة ابن الحجاج السلولي القاضي مهدي بن مسلم ، وهو أول قاض نسمع به في تاريخ الأندلس ، ويبدو أن العامل كان يقوم بالقضاء بين الجند بنفسه قبل ذلك ، يفهم هذا من قول الخشني : « وكان ـ أي عقبة بن الحجاج ـ قد اتخذ بالأندلس مقراً مدينة يقال لها أربونة ، وكان قد عرف مهدي بن مسلم بالعلم والدين والورع ، فكان قد استخلفه على قرطبة وأمره بالقضاء بين أهلها » ، أي أنه تركه قاضياً في قرطبة وخرج بالجند ليقوم بقضائهم بنفسه ، وهذا أمر لا يستبعد على عقبة بن الحجاج ، فقد كان رجلاً ديناً فاضلاً عالماً ، ذكر الخشني ـ رواية عن أحمد بن فرج بن منتيل ـ أنه كان « صاحب جهاد ورباط وذا نجدة وبأس ورغبة في نكاية المشركين ، وكان إذا أسر الأسير لم يقتله حتى يعرض عليه الإسلام حيناً ويرغبه فيه ويبصره بفضله ويبين له عيوب دينه الذي هو عليه ، فيذكر أنه أسلم على يديه بذلك الفعل ألفا رجل »[١] .

ويذكر الخشني والنباهي أن عقبة بن الحجاج أمر مهدي بن مسلم أن يكتب عنه « عهداً لنفسه » أي أمر تعيين ، وقد أجاد مهدي كتابة ذلك العهد ، حتى أصبح أقرب إلى دستور للقضاة ، وقد رأينا فيما سبق كيف أن أحد ولاة إفريقية نقل نصه وأصدر به أمراً بتولية أحد قضاته ، مما يدل على مكانة هذا العهد وأحكامه ، وقد وصفه النباهي نقلاً عن الخشني بأنه : « أصل من الأصول في العهد بالقضاء »[٢] .

ويقول الخشني : « وكان [عقبة] قد عرف مع ذلك بالبلاغة والبيان ، فلما أراد توليته قال له : اكتب عهدك عني لنفسك ، فكتب مهدي بن مسلم الكتاب على أنه صادر عن عقبة بن الحجاج إلى القاضي[٣] ، فبدأ بنصحه بما

---

(١) الخشني : قضاة قرطبة ، ص ١٩ .
(٢) النباهي : المرقبة العليا ، ص ٤٢ . وانظر : أبحاث دوزي ، جـ ١ ، ص ٣٤ ـ ٣٥ .
(٣) الخشني : تاريخ قضاة الأندلس ، ص ١٩ وما يليها .

هو معروف من ضرورة الطهارة والنقاء واتباع الكتاب والسنة والتقرب إلى الله « بإجراء الحدود مجاريها على من وجبت عليه وإعطاء الحقوق من وجبت له . . . وأن يحاسب نفسه في يومه وغده فيما تقلد من الأمانة الثقيل حملها الباهظ عبؤها ، فإنه محاسب وموعد وموعود » ، ثم يقرر بعد ذلك القواعد القضائية الآتية :

١ ـ التلطف مع الخصوم والاستماع لكل ما يقولون والانتباه له والصبر على عيي اللسان ناقص البيان ، وملاحظة أن بعض الخصوم « ألحن بحجته وأبلغ في منطقه وأسرع في بلوغ المطلب وألطف حيلة في المذهب وإن كان غير الصواب مرماه » .

٢ ـ أن يتخير القاضي وزراءه وأهل مشورته والمعينين له من أهل العلم والأمانة . ولم نشر إلى هذه الطوائف الثلاث ممن يستعين بهم القاضي استعانة خاصة في أداء عمله إلا لأنها ستتطور إلى وظائف ثابتة فيما بعد هي وظائف الفتيا والمشورة وأعوان القاضي ، وينص الكتاب نصاً خاصاً على مسألة الشورى في الأحكام .

٣ ـ يجعل الكتاب القاضي مسؤولاً عن حجابه وأعوانه وكل ما يفعلونه ، « فإن أفعالهم منسوبة إليه ومنوطة بيديه ، فإذا أصلح ذلك لم يلحقه عيب ولم يعلق به ريب » .

٤ ـ وأن « يديم » الجلوس للناس بالمسجد والقعود للمتقاضين لا يسأم ولا يتبرم ، وأن يكون صبوراً عطوفاً على « الضعيف عن التودد والزمن الثقيل » وأن يكون عنيفاً مع أهل « التلدد والتقحم في ملتبسات الأمور » .

٥ ـ ويشير الكتاب إلى طائفتين أخريين من المعاونين للقاضي على أداء مهمته ، وهما طائفتا الشهود والمزكين . فأما الشهود فمهمتهم معروفة ، وأما المزكون فيوضح الكتاب مهمتهم بأنهم كانوا يزكون حجج الخصوم وبيناتهم ، وقد أصبح الشهود فيما بعد هيئة ثابتة معروفة للقاضي وهو مسؤول عنهم ، في حين كان المزكون غير ثابتين : لكل خصم الحق في أن يأتي معه بمن يزكي حججه ويؤيده فيما يدعيه .

٦ ـ وفي الكتاب أمر للقاضي بأن يستشير القاضي إبراهيم بن حرب في كل ما أشكل عليه من المهمات ، « ليرد عليه منه ما يعمل به ويمتثله ويقتصر عليه ويصير إليه » . وليست لدينا أي معلومات عن إبراهيم بن حرب ، ولكن هذا النص يدلنا على انه كان معتبراً كصاحب الفتيا فيما بعد ، وهو لهذا يضع إصبعنا على منشأ وظيفة كبيرة سيكون لها في تطور نظام الحكم في الأندلس أثر عظيم[1] .

والكتاب مصوغ في أسلوب رصين بليغ ، يدلنا على أن مهدياً كان عالماً فاضلاً بليغاً ، ويصفه الخشني بقوله إنه كان من « أبناء المسالمة من أهل الدين والعلم والورع » ، ولسنا نعرف بالضبط ما عناه بقوله « المسالمة » : لقد حكم عقبة بن الحجاج بين سنتي ١١٦ و ١٢٣ هـ / ٧٣٤ و ٧٤١ م أي أن مهدي بن مسلم كان رجلاً ناضجاً ممن يعهد إليهم في القضاء بعد نزول العرب الأندلس بنحو ثلاثين سنة ، ولا يعقل أن يكون أبوه قد أسلم وأنجبه وبلغ هو مبلغ النضج وسن القضاء في هذه الفترة ، فلا بد أن يكون مهدي من أبناء مسالمة إفريقية .

ولا نزاع في أن مهدي بن مسلم سار على القواعد التي قررها هو بنفسه في كتاب عهده ، أي أن نظام القضاء قد تقرر على أصول منظمة من أول الأمر ، ولم تدخل فيه بعد ذلك إلا تعديلات طفيفة ، وهذه الحقيقة تقرر لنا ناحية إيجابية جديرة بالإعجاب لعهد الولاة في الأندلس ، ففي ذلك العهد كان قضاة إفريقية يجرون في اعمالهم على وجه مرتجل غير منظم .

٣٠٤ ـ عنترة ابن فلاح

وربما كان هذا البدء الحسن هو السبب فيما تمتع به قضاة الأندلس بعد ذلك من عظيم المكانة . فقد كان القاضي الذي أتى بعد مهدي ـ وهو عنترة بن فلاح ـ حريصاً على مصالح الناس لا يقصر عن التضحية في سبيلهم : حدث أن أصاب الناس محل ، فقام يخطب مستسقياً ،

(١) انظر نص الكتاب عند الخشني ، ص ١٩ ـ ٢٣ ، وربما كانت بعض عبارات قد إضيفت إلى الكتاب فيما بعد ، ولكننا لا نستطيع القطع بذلك .

فقام إليه رجل وقال : « أيها القاضي الواعظ ، قد حسن ظاهرك فحسن الله باطنك . . » .

ـ آمين لنا أجمعين ، فهل أضمرت شيئاً يا ابن أخي ؟

ـ نعم ، بتفريغ أهرائك يكمل استسقاؤك . .

ـ اللهم إني أشهدك أن جميع ما حواه ملكي من المأكول صدقة لوجهك . .

وقد كان ، ووزع القاضي ما في أهرائه على الناس ، ويصور لنا هذا الحديث جانباً من طبائع الأندلسيين الصريحة التي لا تتردد في مجابهة الحكام وطلب الحق منهم ، وفيه كذلك تعريض لاذع بالقاضي(١) . وكان الأندلسيون من أقدر خلق الله على التعريض اللاذع الذي لا يخلو من عمق . . .

وكان عنترة لا يحسن الارتجال ، حتى ليقال إنه كان إذا قام خطيباً أسدل على وجهه نقاباً ويقول : « متى لحظت الناس لم أصل كلاماً » ، ولكن سخرية الأندلسيين أبت إلا أن تزعم « أن خطبته كانت مكتوبة في صحيفة مشبكة في الثوب المسدول على وجهه . . » .

٣٠٥ ـ مهاجر ابن نوفل القرشي

وكان ثالث قضاة الأندلس مهاجر بن نوفل القرشي رجلاً ورعاً تقياً لا أكثر ، إذا تخاصم الناس أمامه لم يزل يعظهم ويخوفهم ويتحسر على نفسه ويبكي حتى ينصرفوا من عنده «باكين وقد تعاطوا الحقوق بينهم »(٢) .

٣٠٦ ـ يحيى ابن يزيد التجيبي

وكان آخر قضاة هذه الفترة يحيى بن يزيد التجيبي ، وهو أول من تسمى بقاضي الجماعة كما قلنا ، وحينما دخل عبد الرحمن ابن معاوية قرطبة ثبته في مكانه . ولم يكن قيام يحيى بالقضاء

---

(١) الخشني : قضاة ، ص ٢٥ ـ ٢٦ .
(٢) نفس المصدر ، ص ٢٧ .

من لدن أحد عمال الأندلس بل كان الذي أقامه قاضياً حنظلة بن صفوان عامل افريقية وبعثه إليها مع أبي الخطار ، وكان قوي الشخصية لا يكاد يهاب أحداً ، فقد حدث أن يوسف الفهري فجأ قرطبة في غياب عبد الرحمن الداخل وظفر بجاريتين لعبد الرحمن فتعرض له القاضي وقال له : « يا لئيم ! عبد الرحمن ظفر ببناتك وكرائمك ، فتلوم عليهن حتى نقلن إلى دارك ، وأنت ظفرت بجاريتين له لم يستحقا منه حرمة فأخذتها ! » فتذمم الفهري وقال : « والله ما رأيت لواحدة منهما وجهاً ! فاقبضهما » وبرىء بهما إليه . وحينما دخل عبد الرحمن الأندلس وقامت الحرب بينه وبين الفهري وانصاره اعتزل يحيى الجند ولم يغمس يده في الدماء ، فلما قامت البيعة لعبد الرحمن أجاب إليها طائعاً[1] .

٣٠٧ ـ معاوية ابن صالح الحضرمي

وكان يحيى بن يزيد مشاركاً في السياسة ، فقد أخذ جانب عبد الرحمن بن معاوية الداخل وتصدى ليوسف الفهري ، وكذلك كان القاضي الذي جاء بعده وهو معاوية بن صالح الحضرمي ، ولم يكن من قضاة عصر الولاة ، ولكنه دخل الأندلس إذ ذاك ، قال الخشني : « وكان من جلة أهل العلم ورواة الحديث ، شرك مالك بن أنس في بعض رجاله : يحيى بن سعيد وغيره ، وروى عن معاوية بن صالح جملة من أئمة أهل العلم ، منهم سفيان الثوري وسفيان بن عيينة والليث [بن سعد] وذكر أن مالك بن أنس روى عنه حديثاً واحداً ، وذكر أنه أتاه يوماً إلى داره ، فانصرف عنه دون أن يصل إليه . قال محمد [بن حارث بن أسد الخشني] وذكر محمد بن وضاح قال : قال لي يحيى بن معين : جمعتم حديث معاوية بن صالح ؟ قلت : لا ! قال : وما منعكم من ذلك ؟ قلت : قدم بلداً لم يكن أهله يومئذ أهل علم . . قال : أضعتم والله علماً عظيماً »[2] وذكر الخشني بعد ذلك مكانة معاوية بن صالح بين محدثي ذلك العصر في المشرق وقال : « قال لي محمد ابن أبي خيثمة : لوددت أن أدخل الأندلس حتى أفتش عن أصول كتب معاوية

---

(١) الخشني : قضاة ، ص ٢٨ .

(٢) الخشني : قضاة ، ص ٣٠ ـ ٣١ .

ابن صالح ! قال ابن أيمن : فلما انصرفت إلى الأندلس طلبت أمهاته وكتبه ، فوجدتها قد ضاعت بسقوط همم أصحابها »[1] .

وكان معاوية بن صالح من أهل الشام من موضع قرب حمص يسمى غناة عبس ، وقد دخل الأندلس قبل دخول عبد الرحمن الداخل فنزل أشبيلية ، وقد ظهر قدره عندما اتى عبد الرحمن فاستقضاه ، واتخذه من رجال رأيه وثقته ، وندبه إلى المشرق ليأتي بأخته أم الأصبغ ، فرحل إلى المشرق ولم يوفق في مهمته لأن أم الأصبغ كانت قد كبرت سنها ولم تشأ الرحلة إلى الأندلس . وفي هذه الرحلة سمع من العلماء وسمعوا عنه ، وعاد إلى الأندلس وقد علا صيته وثبتت قدمه ، وهو من غير شك أول هذه السلسلة الطويلة الجليلة من فقهاء الأندلس [2].

* * *

٣٠٨ ـ اتجاه الأندلس نحو مذهب مالك

وظاهر أن معاوية بن صالح كان من السائرين في طريق مالك ابن أنس ، ولكنه لم يكن مالكياً ، لأن المدرسة المالكية لم تكن قد تكونت وانتظم أمرها بعد ، صحيح أن مالكاً وضع مذهبه كاملاً ، وصاغه على أسلوب يدل على أنه كان واعياً إلى أنه ينشيء تشريعاً كاملاً ، بخلاف أبي حنيفة الذي لم يكتمل مذهبه إلا على أيدي تلميذيه محمد ابن‌عبد الرحمن الشيباني وأبي يوسف القاضي ، وبخلاف الشافعي الذي يبدو أنه لم يكن واعياً أول الأمر إلى أنه يضع تشريعاً ، بدليل أن أصول مذهبه كما وضعها في الحجاز تختلف عن أصوله كما تحددت في صورتها النهائية في مصر . ولكن تكون المذهب لا يعني قيام المدرسة ، لأن هذه تقوم بالأتباع والتلاميذ ، وقد كان مالك أكثر أصحاب المذاهب الفقهية الكبرى تنبهاً إلى أهمية تكوين المدرسة ، فكان شديد العناية بتلاميذه وأصحابه ، بل إننا نلمح في علاقته بأولئك انه كان حريصاً على أن يكون له في كل قطر جماعة منهم ، وهذا ظاهر

(١) نفس المصدر ، ص ٣١ . وانظر أيضاً النباهي : تاريخ قضاة الأندلس ، ص ٤٣ .
(٢) نفس المصدر ، ص ٣٢ .

جداً فيما يتصل بالمغرب والأندلس ، وقد ذكر المالكي في « رياض النفوس » عدداً عظيماً من أهل المغرب وقال انهم من تلاميذ مالك وأصحابه ، وحرص أهل الأندلس على أن يزيدوا في عدد تلاميذ مالك المباشرين من أهل بلدهم ، ولكن البحث الصحيح أثبت أن جانباً عظيماً من هذه المعلومات مخترع في عصور متأخرة ، وقد دفعت إلى الاختراع الرغبة في تعظيم أمر المالكية في الأندلس(1) .

وكل ما نستطيع أن نقوله فيما يتصل بمعاوية بن صالح ومعاصريه إنه من الممكن أن يكونوا قد تتلمذوا لمالك فعلاً ، وأخذوا عنه وأخذ عنهم ، ولكنهم كانوا جميعاً محدثين ، ولم ينتبهوا إلا إلى ناحية الحديث عند مالك : سمعوا منه ونقلوا عنه على أنه فقيه محدث ، ودخلوا الأندلس فقهاء محدثين ، وهذه هي الصفة الحقيقية لمعاوية بن صالح ومن عاصره أو تقدم عليه أو تأخر عنه قليلاً ، من أمثال سعيد بن أبي هند ومحمد بن يحيى السبأي وداود بن جعفر ومحمد بن إبراهيم بن مزين وشبطون بن عبد الله الطليطلي ومحمد بن بشير القاضي وعبد الرحمن بن موسى الهواري(2) ، فهؤلاء جميعاً كانوا فقهاء محدثين وهم الذين وضعوا أسس الدراسات الفقهية في الأندلس ، ولكنهم لم يكونوا من مؤسسي المالكية الأندلسية .

٣٠٩ - نقطة البدء للمالكية الأندلسية

ولكن حياة معاوية بن صالح تضع أيدينا على نقطة البدء للمالكية الأندلسية ، فقد أصهر إليه أحد تلاميذه وهو زياد بن عبد الرحمن المعروف بشبطون ، وهو واحد من ثلاثة من الثابت أنهم مؤسسو المذهب في الأندلس ، وهم الذين أدخلوا الموطأ ونشروه بين الناس ، وعلى أيديهم أصبحت المالكية المذهب الغالب ، بل الرسمي لأهل

---

(1) بحث هذا الموضوع بحثاً مستفيضاً الدكتور محمود علي مكي في بحثه الذي وضعه بالإسبانية وعنوانه : *Estudio sobre las aportaciones Orientales en la Espana Musulmana y su importancia en la formacion de la cultura hispano - musulmana.*

وهو دراسة عظيمة القيمة نرجو أن تترجم إلى العربية وتطبع ليفيد منها الدارسون . والجزء الخاص بموضوعنا ، ص ١٣٣ وما يليها ، وقد اعتمدنا عليه في هذا الجزء من كتابنا .

(2) أورد تراجمهم جميعاً ابن الفرضي في تاريخ علماء الأندلس ، انظر الفهرس .

الأنـدلس ، أولهم الغازي بن قيس وثـانيهم زياد بن عبـد الرحمن هـذا وثـالثهم يحيى بن يحيى الليثي .

وقد كان من الممكن أن نتبع الكلام عن القضاة بالكلام عن الفقه والعلم في الأنـدلس خلال هـذه الفترة ، ولكننـا رأينا أن بحث هـذا الموضـوع في هـذه الفترة لا يعدو أن يكون مقدمة لما سيظهر في عصور تاليـة ، ثم إن الأمر يتـطلب دراسـة الثقافـة المحلية التي وجـدها المسلمـون في الأندلس وأخـذوا منها وتـأثروا بها ، أي الرجوع بالموضوع إلى أصوله البعيدة أيام الرومان والقوط ، فقد كـانت اسبانيا بلد علم وعلماء على أيام هؤلاء ، وكـانت لمؤلفاتهم وآرائهم آثـار بعيدة في تكوين العلم الأندلسي في شتى فروعه ، ثم إننا إذا قدمنا هذه المقدمات الـطويلة لم نستطع الوقوف بالبحث عنـد حدود الفتـرة التي نتحدث عنهـا ، لأن الثمرات كلهـا لم تظهـر إلا بعدهـا ، في عصور تـالية ؛ ولهـذا فقد رأينـا ان نكتفي بهـذه الإشارة ، حتى إذا أتاحت لنـا الظروف دراسـة العصر التالي عـرضنا المـوضـوع كاملاً بمقدماته ونتائجه .

الفصل الثاني عشر

قيامُ الدّولة الأمويَّة

انتهى عصر الولاة على يد عبد الرحمن بن معاوية الداخـل بإقامته الـدولة الأموية الأندلسية ، وكان من الممكن أن ندع الكلام على قيام هذه الدولة لبحث خاص عن العصر الذي تلا عصر الولاة ، ولكن عبد الرحمن دخل الأندلس على أيام يوسف الفهري والصميل بن حاتم ، ودارت بينه وبينهما رحى صراع طـويل انتهى بـانتصـاره عليهـما وزوال أمـرهمـا وزوال المعـالم التي ميــزت الفتـرة التي نـدرسها ، فلم يكن هنـاك بد من الإلمـام بسيرة عبـد الرحمن ودخـوله الأنـدلس وإقامته دولته فيه ، حتى نصـل بعصر الولاة إلى نهايتـه ، ولهذا فـإن حديثنـا عنه يعتبر ختاماً لتاريخ عصر الولاة وبدءاً لتاريخ الإمارة الأموية القرطبية ، ولم نر بدأ من ذلك ، حتى تتجمع أطراف البحث ، وحتى تكون أمامنا صورة كاملة لعصر عظيم الأهمية كما رأينا ، وإن كان قصيراً في عدد سنواته . فإذا تقرر هذا فـلا بد أن ندرس سيرة عبد الرحمن من أولها .

* * *

ولدت الدولـة العباسيـة في الكوفـة في ربيع الأول سنـة ١٣٢ هـ / يونيـو ٧٤٩ م في اليوم الذي بويع فيه لأبي العباس عبد الله بن محمد بعد دخول قـائده أبي سلمة الخلال الكوفة قبل ذلك بأسابيع ، ولم تنقض أشهر حتى رفرفت رايات العبـاسيين عـلى دمشق ، وفر مـروان بن محمد آخـر خلفاء بني أميـة بمن معه من الجند ، ولحق بهم عبد الله بن علي عم السفاح وأوقـع بهم هزيمـة كبيرة عـلى نهير

الزاب أحد فروع دجلة ، وفر مروان وطارده عبد الله بن علي حتى قتله في قرية بوصير بمصر ، وبذلك زالت الدولة الأموية في المشرق من الوجود ، وأعقبت ذلك مذبحة كبرى أنزلها العباسيون بالأمويين حتى لم يفلتوا منهم رجلاً عثروا له على أثر ، واستمرت المذابح بعد ذلك سنوات حتى لم ينج من بني أمية إلا أفراد شردوا في الآفاق .

٣١٠ - فرار عبد الرحمن الى المغرب

وكان بيت معاوية بن هشام بن عبد الملك من أحفل بيوت بني أمية بالمصيبة ، فقد خلف معاوية هذا عقباً وافراً يذكر المؤرخون منهم أربعة ذكور وبنتين ، أما أولهم فهو أبان ، وقد وقع في يد العباسيين فقطعوا يده ورجله وطافوا به في قرى الشام على ظهر حمار ومن خلفه مناد يصيح ، واستمر على هذه المحنة حتى هلك . ولما أعلن أبو العباس أمانه المشهور واحتال به على الإيقاع بأكثر من سبعين أموياً في دير الجماجم ، كان من ضحايا هذا الأمان ابن ثان لمعاوية هو يحيى ، ولم يفلت أخوه عبد الرحمن إلا بأعجوبة ، إذ كان قد خرج في صيد له فلم يفجأه جند العباسيين ، ولم يكد يعلم بما جرى لأخيه حتى استتر بالليل وفر إلى قرية كانت تقيم فيها أختاه أم الأصبغ وأمة الرحمن وابن صغير له وأخ صبي له في الثالثة عشرة من عمره ، ولم يكد عبد الرحمن يستقر في القرية ويشعر بشيء من الاطمئنان حتى رمدت عيناه ، فأقام حبيسا في حجرة خوفاً من رجال العباسيين وطلباً لشفاء عينيه .

فإذا كان في حجرته تلك يوماً فقد فاجأه العباسيون بقوة كبيرة وأقبلوا يحاصرون القرية ، وشاءت المقادير أن ينجو مرة أخرى ، لأن ابناً صغيراً له روعته خيل العباسيين وراياتهم السود فدخل عليه معولاً ، فكان هذا نذير الخطر ، ونهض عبد الرحمن معجلاً ، فأخذ ما استطاع أخذه من المال وودع أختيه وابنه ، وطلب إليهما أن تبعثا إليه مولاه بدراً في مكان عينه لهما في غابة قريبة من القرية ، ثم استصحب أخاه الصبي ومضى لا يلوي على شيء بعد السلامة . وانتظر عبد الرحمن وأخوه في مكان مجاور للقرية حتى وافاهما بدر مولاه

بشيء من المال ، فمضوا حتى أتوا موضعاً على الفرات ، فطلب عبد الرحمن رجلاً يعرفه وأعطاه مالاً ليشتري له خيلاً وطعاماً ، ومضى الرجل يصحبه بدر مولى عبد الرحمن الأمين ؛ وكان من سوء حظ عبد الرحمن وأخيه أن عبداً لهذا الرجل علم بالخبر فأسرع به إلى عمال العباسيين ، فأسرعوا إلى الغابة وحاصروها ، وريع الأخوان فأسرعا يعدوان حتى اختبآ في حديقة على ضفاف الفرات . وأقبل العباسيون يحاصرونهما وضيقوا عليهما حتى كادا يقعان في أيديهم ، ولم يبق أمامهما إلا أن يلقيا بنفسيهما في عباب النهر ويسبحا إلى الضفة الأخرى ، وقد فعلا ، فإذا قطعا من الشوط جانباً فقد تعب الصبي وترامى إلى سمعه نداء رجال العباسيين يعدونه بالأمان إذا عاد ، فانقلب الصبي راجعاً ؛ ولم يكد يخطو على الشط حتى تقاسمته السيوف وأخوه يراه بعينيه فيشتد في سباحته . ووصل إلى بر الأمان سالماً ، ثم مضى ينهب الأرض حتى أدرك مكاناً من فلسطين كان قد ذكره لأخته ، وهناك أدركه مولاه بدر وسالم مولى أخته بمال وجوهر ليستعين بهما في محنته . ومضى الثلاثة معجلين فعبروا بمصر وأفضوا إلى إفريقية حيث كان الحال مضطرباً ثائراً ، فأمنوا برهة في وديان المغرب وشعابه وبين قبائله وأهله الذين فرقتهم الثورات وصرفتهم عن الالتفات إلى دعوة العباسيين[1] .

كانت سنه عشرين سنة[2] حينما أقبل إلى إفريقية ، ولم يكن يؤمل اذ ذاك إلا في النجاة من رجال العباسيين الذين كانوا يتتبعون كل أموي يعثرون له على

---

(١) انظر : الأخبار المجموعة ، ص ٤٦ ـ ٥٦ ، ٦٩ ـ ٧٥ .
ابن عذارى : البيان ، جـ ٢ ، ص ٤٩ .
ابن الأبار : الحلة السيراء ، ص ٣٣ .
المقري : نفح الطيب ، جـ ١ ، ص ٢١٥ .
عبد الواحد المراكشي : المعجب ، ص ١١ .
النويري : نهاية الأرب ، ص ١٥٤ .

(٢) ولد عبد الرحمن سنة ١١٣ هـ (٧٣١ م) في دير حسينة أو دير حنينة على مقربة من دمشق .
انظر ابن عذارى : البيان ، جـ ٢ ، ص ٤٩ .
ابن الأبار : الحلة السيراء ، ص ٣٣ .

أثر ، ولم تكن الظروف في إفريقية لتغذي فيه أي أمل في تحسين الحال ، لأن بربر إفريقية كانوا قد كرهوا العرب كراهة عميقة بعد الذي كان من عسفهم بالبربر وثورة هؤلاء عليهم هذه الثورة العنيفة التي تحدثنا عنها ، وكان دعاة الخارجية وأعداء بني أمية الهاربون قد ملأوا نفوس أهل البلاد كراهة للأمويين وسخطاً عليهم ، فلم يكن للفتى على ذلك بعد السلامة مطمع .

٣١١ ـ المغرب في فترة الانتقال من الأمويين الى العباسيين

وكانت أمور إفريقية قد انتهت على ما ذكرنا إلى عبد الرحمن بن حبيب بن عقبة بن نافع الفهري ، وكان فهرياً من عرب إفريقية ، وكان واسع المطامع عظيم النشاط حارب البربر في جيش كلثوم بن عياض . فلما انهزم كلثوم وفر ابن أخيه بلج ابن بشر في نفر من القيسيين إلى سبتة ، تركهم عبد الرحمن ومضى إلى الأندلس ليلقى قريبه عبد الملك بن قطن الفهري ، وجعل يحرضه على القيسيين ، ثم سارت الأمور في الأندلس على عكس ما رجا وصار الأمر إلى بلج ثم إلى ثوابة ففر عبد الرحمن بن حبيب عائداً إلى افريقية ، حيث جمع نفراً من عرب إفريقية اليمنيين واستطاع أن يطرد حنظلة بن صفوان وجنده من البلاد ويستقر في القيروان حاكماً بأمره[1] .

ولكن باله لم يهدأ رغم استقرار الأمر له ورغم اضطراب الأمر على بني أمية في المشرق ، لأن جنده كان قليلاً ، ولأن قلوب البربر من أهل البلاد لم تكن معه ، لأنه كان في واقع الأمر مغامراً كثير التقلب لا يكاد يقصد إلا لخير نفسه وحدها ، واضطربت البلاد عليه وتناوبتها الأوبئة ، « ثم ثار عليه عروة بن الزبير الصدفي واستولى على تونس ، ثم ثار عليه عرب الساحل ، وقام عليه ابن عطاف الأزدي حتى نزل بطبيناس ، وثارت البربر من الجبال ، وثار ثابت الصنهاجي بباجة فأخذها ، وخرج بناحية طرابلس رجلان يُقال لأحدهما عبد الرحمن والآخر الحارث ، وهما من البربر على مذهب الخوارج ، فقاتل عبد الرحمن

---

(١) ابن عبد الحكم ، ص ٢٢٣ ـ ٢٢٤ .
النويري : نهاية الأرب ، جـ ١ ، ص ٣٨ وما بعدها .

ابن حبيب كل من خرج عليه طائفة بعد أخرى ، حتى دوخ المغرب كله ، وأذل من به من القبائل ، ولم ينهزم له عسكر ولا ردت له راية ، وخافه جميع أهل المغرب »[1] . وأراد أن يؤيد سلطانه ، فكتب إلى مروان بن محمد الجعدي آخر خلفاء بني أمية ، وحصل منه على ولاية المغرب والأندلس جميعاً . ثم قامت الدولة العباسية ، فجعل عبد الرحمن بالكتابة الى أبي العباس بطاعته ، ثم كتب إلى المنصور كذلك وأهدى إليه شيئاً رجاء أن يثبته في البلاد ، وخشي أن يرهقه المنصور بالمطالب ، فكتب يؤكد له أن إفريقية أصبحت إسلاماً كلها ، وانه لن يستطيع إرسال سبايا إليه ، فاغضب كتابه المنصور ، ووقعت النفرة بينهما ، فخلع طاعة المنصور وأحرق الخلع التي كان هذا قد أرسلها إليه ، « وأمر كاتبه خالد بن ربيعة أن يكتب بخلعه ويقرأ على المنابر في سائر بلاد المغرب » ، وبهذا خرج هذا الرجل عن طاعة الدولة وازداد مركزه في البلاد حرجاً[2] .

وطبيعي بعد ذلك أن يظل متربصاً يتخوف على سلطانه من كل أحد ومن كل طارىء ، وتذهب الروايات الإسلامية إلى أن يهودياً أخذ علم النجوم عن مسلمة بن عبد الملك حذره من أموي اسمه عبد الرحمن يقيم ملكاً في الأندلس ، وطبيعي أن هذه أسطورة ابتدعها مؤرخو الأمويين في الأندلس مبالغة منهم في تصوير حياة عبد الرحمن منشىء دولتهم ، والواقع أن عبد الرحمن بن حبيب كان متخوفاً مترقباً لكل أمير أموي هارب يصل إلى بلاده سواء أكان اسمه عبد الرحمن أم لم يكن . وكان نفر من بني أمية هؤلاء قد وفدوا عليه لاجئين ، فتزوج هو وأخوه إلياس من حريمهم ، ثم بدا له بعد ذلك أنهم يدبرون عليه فقتل منهم اثنين ، وكانت لهما أخت تزوجها الياس أخو عبد الرحمن بن حبيب فلم تزل تغريه بأخيه حتى دفعته إلى قتله ، ولم يصف لإلياس الأمر بعد قتله أخاه ، لأن حبيب بن عبد الرحمن ثار به ووقعت بينهما فتنة طويلة .

* * *

(١) النويري : نهاية الأرب ، ص ٣٩ .
(٢) نفس المصدر ، ص ٤٠ .

٣١٢ - عبد الرحمن ابن معاوية في المغرب

وصل عبد الرحمن بن معاوية إلى إفريقية أيام عبد الرحمن بن حبيب ، ومن الطبيعي أن يتخوفه على نفسه ، ولو قد كان هذا الأموي الشارد خامل النفس قنوعاً للجأ إلى عبد الرحمن بن حبيب وعاش في ظله عيشة خمول لا تخلو من الاستمتاع كما كان غيره من أمراء بني أُمية يفعلون ، ولكنه كان مغامراً بطبعه جريء القلب ، ففضل أن يعيش بين البربر حياة قلق واضطراب .

وتحدثنا المراجع أنه تقلب في نواحي إفريقية كلها دون أن يغادر منها ناحية لم يجرب فيها حظه : أقام ببرقة حيناً ، ثم مضى إلى تاهرت حيث استظل برعاية بني رستم حيناً . . ثم اختفى في قبائل مكناسة ، ثم قضى ردحاً في صبرة ، وانتهى به الأمر بعد خمس سنوات من الهرب والتجوال والمغامرة إلى قبائل نفزة على مقربة من طنجة . وكانت أمه من سبيهم ، والظاهر أنه استطاع كسب ودهم لأن كثيراً منهم عطف عليه وقام برعايته ، والظاهر كذلك أنه لم يقنع بحياة الخمول فجعل يدبر على عبد الرحمن بن حبيب ، واتصل أمره بهذا الأخير ، فبعث من يبحث عنه ؛ وكان الطلب عليه شديداً حتى أن امرأة أحد شيوخ نفزة اضطرت إلى إخفائه تحت ثيابها حتى لا يقع في أيدي عمال عبد الرحمن بن حبيب ، وكان يرافقه في هذه المغامرات كلها مولاه بدر ومولى أخته سالم ، وكان عبد الرحمن عنيفاً على موليه هذين لميل إلى الاستبداد كان فيه ، فأما سالم فقد غضب مرة وفارقه بعد أن احتمل شدته وحياة الشقاء معه زمناً طويلاً[1] ، وأما بدر فقد أقام معه مخلصاً له ، وقد قدر له أن يكون أخلص معاونيه في بناء مجده .

أقام عبد الرحمن عند قبائل مغيلة من ساحل طنجة في كنف شيخها أبي قرة ، ولا شك أن شيئاً كثيراً من أخبار الأندلس وما كانت فيه من الاضطراب قد اتصل به ، ويغلب أن استقراره عند مغيلة هؤلاء كان حوالي سنة ١٣٦ هـ (٧٥٣ م) لأن المراجع تحدثنا بأن أمر الأندلس إذ ذاك كان قد استتب ليوسف الفهري والصميل بن حاتم ، وكان سالم مولى اخته قد حدثه بشيء عن خير

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٥٥ (وهو يذكر أن كنية سالم كانت أبا شجاع) .

الأندلس إذ كان قد قدمها مع موسى بن نصير ، فتطلعت نفس هذا الفتى المغامر إلى هذا البلد الواسع الغني الذي أفسد الاضطراب أمره[1] .

٣١٣ - تفكير عبد الرحمن في أمر الأندلس

ولسنا نعلم كيف نشأت الأطماع في ولاية الأندلس في نفس عبد الرحمن ، والثابت على كل حال أنه لم يحاول أن يبني لنفسه ملكاً في أي مكان من إفريقية ، وأن الطمع في الإمارة نشأ في نفسه وهو مقيم بين مغيلة عند طنجة ، وربما نشأت في نفسه هذه الأطماع حينما علم أن في الأندلس جماعة لا بأس بها من الأموية تعيش في ناحيتي إلبيرة وجيان مشطورة بين جندي دمشق وقنسرين ، ولم تكنَ أحوالهم بالآمنة ولا المستقرة لأن أكثرية عرب الأندلس من اليمنيين كانت تنفس عليهم مكانهم وثروتهم ، وكانت كذلك لا ترضى عن تأييدهم ليوسف الفهري وصاحبه الصميل ، ولا بد كذلك أنه تسامع بأن هؤلاء الأمويين في حاجة إلى شخصية قوية تجمع أمرهم وتقوي صفوفهم ، لا بد أنه تسامع بذلك وإلا لما بعث إليهم مولاه بدراً برسالة خطيرة يعرض عليهم فيها رياسته ، وهو لم يفعل ذلك في إفريقية أبداً ، مع أن إفريقية لم تخل من جماعات من موالي بني أمية وأنصارهم ، وكان مستطيعاً تجريب حظه معهم ، لو كانت المسألة مجرد تجريب حظ ، بل قد كان أولى به أن يحاول في إفريقية لأن عرب نواحيها لم يكن فيهم من يقارب الصميل أو يوسف الفهري أو غيرهما من كبار العرب الذين تحدثنا عنهم .

ثم إن بدراً وموالي بني أمية لم يكادوا يعرضون الأمر على الصميل حتى قبل ، مع علمه بأن هذا القبول يعني ضياع سلطانه ، بل إننا نتساءل : لماذا قصدوا الصميل ولم يقصدوا يوسف وهو أضعف من الصميل وأكثر ليناً ؟

هناك حلقة مفقودة تجعل السياق كله قلقاً غير منسجم . وليس لدينا في ذلك الصدد إلا أربع أو خمس روايات لا تكاد إحداها تزيد على الأخريات شيئاً

---

(١) ابن عذاري : البيان ، جـ ٢ ، ص ٤٢ - ٤٣ .
ابن الأثير : الكامل ، جـ ٥ ، ص ٢٣٨ .
البكري : وصف إفريقية (طبعة دي سلين ، الجزائر ١٩١١) ، ص ١٢٣ .

ذا بـال . وربما أعـاننا عـلى استجلاء هـذا الأمر أن نقـرر أنه كـان هناك تفـاهم واتفـاق بين الصميـل بن حاتم وجمـاعة مـوالي بني أمية وزعمـائهم من أمثال أبي عثمان عبيد الله بن عثمان وعبد الله بن خالد ويوسف بن بخت . ولسنا ندري كيف تم هذا التقرب على الرغم مما تؤكده المـراجع من أن مـوالي بني أمية كـانوا معتبرين موالي يـوسف الفهري من يـوم زالت الدولـة الأمويـة في المشرق ، فقـد اعتبر هذا الرجل نفسه وارث كل مـا كان لـلأمويـين في الأندلس ، بمـا في ذلك المـوالي[1] ، وربما يكـون هـذا قـد سـاء هؤلاء المـوالي فسعـوا إلى الانضمـام إلى الصميـل بن حاتم للتخلص من سلطان يـوسف . وسنلاحظ أن هـذا الأخـير لم يفـطن إلى ذلك ومضى يعتبـر موالي بني أميـة مواليـه وأخصاءه ، وكـان ذلك من أخـطائه الكبـرى . ولا يبعد أن يكـون الصميل قـد قربهم إلى نفسـه ليفيد منهم وقت الحاجة .

ولم تكن العـلائق بين الصميـل ويوسف طيبـة على كـل حال ، فقـد كان يوسف منكراً للسيطرة التي يفرضها عليه الصميـل ، وقد رأينـاه يسعى للتخلص منه فيبعثه إلى سرقسطة وكان كل أهلهـا يمنيين لا يـطيقون هـذا القيسي الجافي ، وقد ثاروا عليه وكاد يهلك على أيديهم كما رأينا ، ثم لم يكـد الصميل ينجو حتى عاد يوسف يفكر في بعثه إلى الثغر ، وسيكون ذلك دافعاً بالصميل إلى إلقاء يده إلى عبـد الرحمن والـدخول في دعـوته . ولنـلاحظ كذلـك أن موالي بني أُمية في الأندلس لم يكونوا قليلين ، فقد كـانوا مـوزعين بـين جندين ، ولم يكن عـددهم أربعمائة أو خمسمـائة كـما يظن[2] ، بـل كانـوا أكثر من ذلـك بكثـير ، ولم يكن يـربطهم إلى يـوسف الفهري والقيسيـين إلا الصميل ، فلما تخـلى عنهم الصميل تخلوا عن القيسية ومالوا إلى اليمنية . عـلى أساس هـذه الملاحـظات نستطيـع أن نمضي في رواية الأحداث التي انتهت بإنشاء الإمـارة الأمويـة الأندلسيـة على يـد عبد الرحمن .

من الـواضح أن عبـد الرحمن حينـما أرسـل مـولاه بـدراً ليبـدأ العمـل في

---

(١) انظر الأخبار المجموعة ، ص ٧١ سطر ٥ وبقية السياق .

(٢) تذكر المراجع ان عددهم كان حوالي ٤٠٠ .
انظر الأخبار المجموعة ، ص ٧١ و ٧٢ .

الأندلس في ربيع سنة ١٣٦ هـ كان قد كون لنفسه فكرة واضحة عن الأحوال في البلاد ورسم لبدر خطة العمل ، ودليلنا على ذلك أنه أعطاه خطاباً مكتوباً يعرض فيه على موالي بني أمية أمره ويسألهم تأييده ، ولا شك في أنه عرض عليهم ترشيح نفسه أميراً على الأندلس مكان يوسف والصميل لكي يستطيع أن يضع حداً للفوضى الضاربة أطنابها ولكي يقيم أمر بني أمية في البلاد من جديد ، وقد توجه عبد الرحمن بكتابه إلى جماعتي موالي بني أمية في إلبيرة وجيان . ونقول إنه حدثهم في أمر ترشيحه لولاية الأندلس ، لأننا سنرى من اجتهادهم في الأمر وإلحاحهم في إنفاذه ان المسألة لم تكن مجرد طلب أمان ، ولو كان قد سألهم إيواءه فقط لما احتاج الأمر إلى هذا العناء كله . ولم يضع بدر وقته سدى ، بل اتجه إلى رؤساء موالي بني أمية الثلاثة الذين ذكرناهم وأسلم إليهم خطاب مولاه ، واجتهد في إقناعهم ، ولم يلق صعوبة في ذلك ، لأنهم كانوا رغم اطمئنانهم إلى الصميل لا يكادون يطمئنون إلى بقية القيسيين . فلم يكد أبو عثمان عبيد الله بن عثمان وعبد الله بن خالد ويوسف بن بخت يستوثقون من أمر بدر وسيده حتى نهضوا يخاطبون فيه الصميل ، ولو لم يكونوا أخصاءه وأصدقاءه لما خاطروا بمثل ذلك ، ولكنهم ذهبوا وهم واثقون من أن الرجل موغر الصدر من يوسف ، وأنهم لا يكادون يعرضون عليه الأمر حتى يجيبهم إليه ، راجياً لنفسه من ورائه خيراً كثيراً . وكان موالي بني أمية يعرفون الصميل وما به من نزوع إلى السلطان ، فتلطف رسولاهم في عرض الأمر عليه ، « وذكراه بأيادي بني أمية عنده وعند سلفه ، وقالا له : إن عبد الرحمن بن معاوية نجا إلى بلد البربر وهو مستتر فيه خائف على نفسه ، وأتتنا وصيته يسأل الأمان في نفسه ، ويتوسل إليك بما قد علمته ، وأنت ذاكر له ، فقال : نعم وكرامة ! ونضم يوسف هذا إلى أن يزوجه ابنته ويشركه في سلطانه ، وإلا ضربنا صلعته بالسيف » مما يدل على أن مولي بني أمية عرضا عليه الأمر كأنه طلب أمان فقط ، ولو كانا حدثاه في أن يصبح عبد الرحمن صاحب الأندلس لما قال إنه مستعد لإرغام يوسف على إشراكه معه في الأمر فقط[1] .

---

(١) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٢٣ .

ولنلاحظ كذلك إن الأمويين لقوا الصميل في لحظة كانت نفسه متفتحة فيها لقبوله ، فقد كانت نفسه راضية عن خلاصة مما كان اليمنيون يريدونه به ، وكان لفرط سروره يفرق الأموال في الناس من غير حساب ، ولما كان موالي بني أمية من أكبر الناس فضلاً في خلاصه فقد كانت نفسه متفتحة لقبول أي رأي يتوجهون إليه به . وكانت الأحوال العامة قد تحسنت ، إذ انجابت المجاعة « وأربع الناس وحملت الأرض »[1] ، ولم ينتظروا حتى يستقر الرجل في قرطبة بل كلموه في الأمر وهو في طريق العودة من سرقسطة . عرضوا عليه أمر عبد الرحمن وما يطلب من القدوم إلى الأندلس والاستعانة بأهلها ، ويبدو أن عبد الرحمن تلطف في خطابه فلم يتحدث عن إمارة أو ملك وإنما عرض سوء حاله لكي يعطف القلوب على نفسه ، ولا نزاع في أن الصميل حسبه شاباً مسكيناً لا يطمع في أكثر من أن يكون من رجال الصميل وأنصاره وفي أن يشتد به ساعد القيسيين لانتسابه إلى بيت أمية ، على هذا الأساس وحده نستطيع تفسير قبول الصميل للدعوة وعدم نفوره منها على الأقل ، فسأل الرسولين فترة يروي فيها أمره ، فعجلا وجمعاه ببدر . فاستقبله الرجل استقبالاً طيباً وأعطاه عشرة دنانير وشقة خز[2] .

واستقر الصميل في قرطبة فلم يطمئن يوسف إلى ذلك ، فبدأ يلح عليه في العودة إلى الثغر ، لأن اليمنيين انتهزوا فرصة عودة الصميل إلى قرطبة وانقضوا على سرقسطة يقودهم زعماؤهم عامر وابنه وهب والحباب وتحصنوا بها وأعلنوا خروجهم على يوسف ، وتطلب الأمر القضاء عليهم . وأخذ يوسف يلح على الصميل والصميل يسوف ، علماً منه أن يوسف لا يرمي إلا إلى إبعاده عن قرطبة والتخلص من سلطانه .

وكان يوسف الفهري قد اعتبر موالي بني أمية مواليه هو بعد زوال أمر مواليهم بني أمية في المشرق كما قلنا ، فلما يئس من الصميل بعث إلى رؤسائهم

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٧٠ .

(٢) نفس المصدر والصفحة .

وأمرهم بأن يجمعوا رجالهم ويسيروا بهم نحو سرقسطة ، ولم يكونوا بالطبع راغبين في هذا المسير ، ولكنهم لم يكونوا يستطيعون رفض الأمر ، فجعل رؤساؤهم يتعللون بأن رجالهم لا يستطيعون النهوض إذ إن « كل من كان فيه منهض قد نهض إلى أبي جوشن ، فتقطعوا وأهلكهم الشتاء والسفر مع ما نال الناس من الجهد » ، فصدقهم الرجل وأعطاهم ألف دينار ليتقووا بها على النهوض ، فانتهزوا فرصة غفلته وحاولوا أن يكسبوا منه أكثر من ذلك ، وقالوا : « هم خمسمائة مدون ، وأين تبلغ هذه منهم ؟ » ، فلم يزد . فانصرفوا من عنده وقد قرروا فيما بين أنفسهم أن يستخدموا هذا المال في تحقيق ما كانوا يدبرونه مع بدر والصميل[1] .

وقرر يوسف الرحيل بنفسه بعد أن اطمأن إلى أن موالي بني أمية موافوه ، فرحل في ذي قعدة سنة ١٣٧ ، وخرج معه الصميل يتلكأ ؛ فلما بلغ جيان نزل « بمخاضة الفتح » على مقربة منها حيث أقبل عليه بعض جنده ، ففرق فيهم الأعطيات ، وجعل ينتظر موالي بني أمية ؛ فلما أبطأوا عليه استدعى أبا عثمان عبيد الله بن عثمان ، وسأله عنهم ، فتعلل مرة أخرى ، وأكد له أنهم لاحقون به قبل أن يدرك طليطلة ، وإنما هم منتظرون حتى يجمعوا شعيرهم ليستقووا به . فلم يشك الرجل في كلامه ، وأمره بالعودة إليهم والضغط عليهم في المسير .

ولكن عبيد الله لم يسر إلى إلبيرة ، بل عرج على الصميل في مؤخرة العسكر ، فلما خلا به ذكره بأمر عبد الرحمن وسأله عما استقر عليه أمره ، ويبدو أن الصميل لم يكن فكر ولا روى وإنما فاجأه عبيد الله بذلك وهو على شرابه وقد رضيت نفسه ، فقال له : « أما إني ما أغفلت ذلك ، ولقد رويت فيه واستخرت الله وكتمت الأمر فما شاورت فيه قريباً ولا بعيداً ، وفاءً بما جعلته لكما من ستره ، وقد رأيت أنه حقيق بنصري حقيق بالأمر ، فاكتبا إليه على بركة الله ، فإن [أبي] هذا الأصلع (يريد يوسف) على أن يتخلى لي عن هذا الأمر ،

---

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٧٠ . ويلاحظ أن عدد ٥٠٠ هو عدد المدونين منهم فقط ، لا شك أنه كان هناك عدد كبير من غير المدونين .

وأزوجه من أم موسى (يريد ابنته أم موسى ، وكانت قد أرملت تلك الأيام من زوجها قطن بن عبد الملك) على أن يكون واحداً منا ، فإن فعل قبلنا منه وعرفنا حقه ومنته ويده ، وإن كره هان علينا أن نقرع صلعته بسيوفنا ! »[1] وخرج الأمويون من عنده وقد ملأ البشر والتفاؤل نفوسهم .

ولم يكادوا يخرجون من حضرته وينطلقون بالبشرى إلى قومهم حتى بدأ الصميل يفكر في الأمر ويأخذه مأخذ الجد ، وهنا فقط أدرك خطورة الأمر وأحس أن إقبال عبد الرحمن قد يعني ضياع أمره ، فعجل بإرسال رسول يستوقف رسل موالي بني أمية في الطريق ، ثم لحق بهم على ظهر فرسه « الكوكب » مما يفهم منه أن الأمر روعه ، وقال لهما في أسلوبه الطريف في الكلام : « إني منذ أتيتماني برسول ابن معاوية وكتابه لم أزل في إدارة ، فاستحسنت ما دعوتما إليه ، ثم كان مني إليكما ما كان ، فلما فارقتكما رويت فيه ، فوجدته من قوم لو بال أحدهم في هذه الجزيرة غرقنا نحن وأنتم في بوله . وهذا (يعني يوسف) رجل قد حكمنا عليه مع ما له في أعناقنا . والله لو بلغتما بيوتكما ، ثم رأيتما هذا لظننت ألا أقصر حتى أرجع إليكما لئلا أغركما ، وإنما أعلمكما أن أول سيف يُسل عليه سيفي ! فبارك الله لكما في رأيكما ومولاكما »[2] . فأسقط في أيديهما وعلما أن الرجل جاد فيما يقول ، وأن لا رجاء لهما فيه بعد ذلك . وهكذا انتبه هذا الرجل لأمر نفسه في آخر لحظة ، وعاد إلى بيته وهو لا يشك في أن أمر ابن معاوية هذا قد انتهى ، وكان قد أحب استرضاء أبي عثمان عبيد الله بن عثمان وعبد الله بن خالد فأكد لهما أنه يعطف على مولاهما ، وأنه على استعداد ليعطف قلب يوسف عليه فيزوجه من بيته ويكرمه إذا تخلى عن طلب السلطان .

أراد الصميل شيئاً وأراد الله شيئاً آخر . أراد أن يقضي على آمال

---

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٧٣ .
ابن القوطية : افتتاح ، ص ٢٣ .
(٢) الأخبار المجموعة ، ص ٧٣ .

عبد الرحمن وموالي بني أُمية في السلطان في الأندلس ، فكانت إرادته تلك فتحاً لباب الأمل أمام وجوههم . فقد فكروا بعد يأسهم من المضريين المعديين في الاستعانة بالكلبيين اليمنيين ، فجعلوا في طريق عودتهم إلى إلبيرة لا يكادون يمرون بمنازل يمنية إلا حدثوا أشياخها في الأمر ، وكانوا في ذلك أسعد حظاً من يوم توجهوا بآمالهم إلى الصميل والمضرية ، لأن اليمنيين كانوا منذ هزيمة شقندة ومنذ فشل ثورتهم في سرقسطة ينتظرون بفارغ الصبر فرصة ينتصفون لأنفسهم فيها من أعدائهم المضريين ، فجعلوا ينضمون إلى دعوة عبد الرحمن جماعة بعد جماعة ، ولم يصل زعماء بني أُمية إلى إلبيرة حتى كانوا قد ملأوا أيديهم من أطباء اليمن ، وقرروا الإسراع باستدعاء عبد الرحمن والبدء في العمل قبل أن يفرغ يوسف والصميل من أمر سرقسطة ويعود إلى قرطبة .

عجل موالي بني أمية فندبوا أحد عشر رجلاً منهم فيهم تمام بن علقمة الثقفي الذي شارك في الفتح وكان له فيه جهد مشكور ، وشاكر مولى هشام ، وأعطوا تماماً خمسمائة دينار للنفقة منها ولافتداء عبد الرحمن من بربر مغيلة الذين كان يعيش عند شيخهم أبي قرة المغيلي . وكانت هذه الخمسمائة دينار هي كل ما كان قد بقي لهم من الألف دينار التي أخذوها من يوسف الفهري ليفرقوها فيما بينهم استعداداً للسير معه ، كانوا قد أعطوا كل جندي أموي عشرة دنانير . . . أما الباقي فقد أراد الله أن يكون من نصيب عبد الرحمن هذا الذي سيكون على يديه زوال أمر يوسف والصميل معاً .

واشترى تمام وشاكر وبدر من المال مركباً وعبروا وتسعة آخرون للقاء عبد الرحمن الذي كان ينتظرهم بفارغ الصبر(١) .

* * *

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٧٤ .
ابن القوطية : افتتاح ، ص ٢٤ .

٣١٤ ـ وصول وفد موالي بني امية واليمنيين إلى عبد الرحمن

اقترب رسل موالي بني أمية بمركبهم من شاطىء إفريقية في احدى أمسيات ربيع الآخر سنة ١٣٨ (سبتمبر ٧٥٥) وكان عبد الرحمن قائماً يصلي المغرب ، فلما أبصرهم أسرع إليهم وقفز بدر إلى الماء لكي يسرع إلى مولاه بالبشرى ، ولم تكد الوجوه تتلاقى بعد طول انتظار حتى أفضى إليه بجلية الأمر وأنبأه بتوفيقه مع موالي بني أمية واليمنيين ، وبأن جماعات قوية من هؤلاء تنتظر لتسير في ركابه مؤيدة ، ثم أقبل تمام بن علقمة ، فلم يكد عبد الرحمن يسأله عن اسمه وكنيته (أبو غالب) حتى استبشر به وعول على الإسراع في الرحيل . وأقبل برابر مغيلة يحاولون منعه من الرحيل إلا إذا افتدى نفسه منهم ، ففرق عليهم تمام من المال الذي كان معه ، ولم يخلص عبد الرحمن مع ذلك منهم إلا بصعوبة ، واستوى هذا الفتى الموفق في القارب فانطلق به نحو الأندلس بعد ساعات قليلة من وصول البشرى إليه ، ووطئت قدمه شاطىء الأندلس عند المنكب في أخريات ربيع الثاني سنة ١٣٨ . نزل الأندلس لا تكاد تصاحبه غير آماله ، وتريد المقادير أن تكون ساعة نزوله تلك بدءاً لعصر جديد في تاريخ الأندلس بل في تاريخ الإسلام عامة .

٣١٥ ـ دخول عبد الرحمن الأندلس

لم يُرِح عبد الرحمن في المنكب ، بل سار منها رأساً إلى طُرُّش حيث أراح في دار لأبي الحجاج يوسف بن بخت (شيخ جند قنسرين) واحد كبار موالي بني أمية على ما ذكرنا ، « وهناك جاءته الأموية كلها وجاءه جداد (كذا والأرجح جدار) بن عمرو المذحجي من أهل رية الذي كان بعد ذلك قاضيه في العسكر ، وجاءه عاصم بن مسلم الثقفي وأبو عبدة حسان فاستوزره ، وجاء أبو بكر بن الطفيل ، واختلف الناس إليه » . وهكذا أخذ معسكر عبد الرحمن يغنى بالمؤيدين والأنصار وبدأت طلائع النصر تهب عليه ، فحرص منذ اللحظة الأولى على تنظيم أتباعه هؤلاء وإعدادهم للصراع في سبيل الأمر العظيم الذي يطلبه ، وتناقل أهل الأندلس كلهم خبره[1] .

---

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٧٦ ـ ٧٧ .

في هذه الأثناء كان يوسف والصميل قد وصلا سرقسطة وحاصرا اليمنيين والقرشيين الذين كانوا قد دخلوها وأعلنوا الثورة فيها يقودهم عامر بن عمرو القرشي وابنه وهب والحباب بن رواحة بن عبد الله الزهري الكلابي ، وكان يوسف ينتظر مجيء أبي عثمان عبيد الله وابن خالد بفارغ الصبر على ما وعداه ، ولم يكن يخطر له على بال ما أحكما تدبيره من الأمر أو ما كانت تخبئه له صروف الأيام .

وفي أثناء هذا الانتظار استطاع الصميل أن يرغم اليمنيين الثائرين على التسليم ، فنزلوا له عن سرقسطة على أمان ، واستسلم قوادهم عامر وابنه وهب والحباب وأقاموا عند الصميل كرهائن ، ولو كان الأمر كله في ذلك ليوسف والصميل لقتلاهم ، ولكن نفراً من القرشيين في معسكرهما على رأسهم سليمان ابن شهاب والحصين بن الدجن حالوا بينهما وبين ذلك. فلما فرغ يوسف من أمر سرقسطة فكر في وسيلة يتخلص بها من سليمان بن شهاب والحصين بن الدجن وغيرهما من زعماء القرشية ، فانتهز فرصة انتقاض البشكنس فجمع جمعاً صغيراً من جنده ورماهم به وجعل على رأسه سليمان بن شهاب والحصين وأصحبهما خيار القرشية « وبعثهم في ضعف ولم يكره عطبهم »[1] . فلم يكادوا يفضون إلى دار الحرب ويلقون البشكنس حتى انقض عليهم هؤلاء ومزقوهم وقتلوا معظمهم وفيهم ابن شهاب ، وأسرع الحصين بفلهم إلى سرقسطة وقلبه موغر على يوسف والصميل اللذين أرسلا قومه إلى الهلكة ، وأقام عند أبي زيد عبد الرحمن بن يوسف ، وكان يوسف قد خلفه وراءه عاملاً على سرقسطة .

في هذه اللحظة تحركت في نفس الصميل عوامل القسوة التي عرفناها فيه في مناسبات كثيرة ، فمال إلى قتل رهائن القرشيين الثلاثة بعد أن قتل حاميهم سليمان بن شهاب وهلك معظم أنصارهم في بعث البشكنس ، وجعل يزين الأمر ليوسف ويؤكد له أنه إن فعل هذا خلصت الأندلس له ولولده ، وكان يوسف مقيماً إذ ذاك بمكان يقال له وادي شربنة ، فاستجاب له يوسف وضرب

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٧٧ .

أعناق عامر بن عمرو القرشي وابنه وهب والحباب بن رواحة على رغمه ؛ واطمأن الصميل بعد أن شفى أحقاد نفسه من هؤلاء اليمنيين والقرشيين الذين كادوا يهلكونه أثناء حصارهم إياه بسرقسطة ، اطمأنت نفسه واستراح باله ، فمضى إلى خبائه ـ وكان فيه ابنتاه ـ ليقيل ، فلم يكد جفنه يهدأ حتى طرقت سمعه خطوات رسول يوسف يحمل إليه نبأ عبد الرحمن واجتماع الناس إليه بطرش ، فكأن المقادير أرادت أن لا يهدأ له بال لحظة بعد هذه الجريمة البشعة التي ارتكبها منذ لحظات[1] .

٣١٦ ـ بدء الصراع بين عبد الرحمن ويوسف الفهري والصميل

لم يكد يوسف يقرأ الخطاب حتى بعث يستدعي الصميل ، وانتبه الصميل لخطورة الأمر وأشار على يوسف بأن يعجل بالسير إلى عبد الرحمن بمن معه قبل أن يجتمع إليه الناس ويشتد أمره ، فلم يكد يوسف يتحدث إلى الجند في هذا حتى عارض فيه أكثرهم ، وكانوا متعبين من أثر هذه الحملة المشؤومة التي قاموا بها في بلاد البشكنس ، ثم إن الكثيرين منهم كانوا ساخطين على الصميل ويوسف بسبب ما فعلا بإخوانهم القرشيين ، إذ ألقى ببعضهم إلى الهلكة وغدر بالباقين ، لهذا لم يجبه منهم الا نحو عشرة كانوا هم حملة ألوية القبائل ، ولو أمكنهم التقاعس لتقاعسوا ، اما الباقون فقد طال الشوق بهم إلى بيوتهم فتسللوا إلى أهليهم وتركوا يوسف والصميل وحدهما ، واستحال عليهما الذهاب ، وانقضى الوقت وأقبل الشتاء وهطلت الأمطار وحملت الأنهار ، فلم يجد الرجلان بداً من السير بمن معهما إلى قرطبة . وجعل الناس يهونون أمر عبد الرحمن على يوسف ، وقال بعضهم إنه لا يطلب ملكاً وإنما يطلب العيش الرغد ، فإن كفاه يوسف ذاك وزوجه من بيته رضي وقنع وزال خطره ، واطمأن الرجل إلى ذلك طيلة الشتاء كارها .

في ذلك الحين كان عبد الرحمن جاداً في توثيق أمره في طرش في دار أبي عثمان عبيد الله بن عثمان ، كانت جماعات موالي بني أمية قد توافدت عليه حتى اكتمل عقدها تحت لوائه ، وتسارع إليه اليمنيون لا يشكون في أنه منتصف لهم

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٧٧ ـ ٧٨ .

من القيسيين وقائديهم العاتيين ، بل انضم إليه نفرٌ من القيسيين أنفسهم يتزعمهم جابر بن العلاء بن شهاب وأبو بكر بن هلال العبدي والحصين بن الدجن ، وكانت قلوبهم موغرة على الصميل لما فعل بأصحابهم في حملة الشكنس ولضربه رقاب من نجا منهم بعد ذلك ، وانضم إليه من ثقيف ثلاثة نفر سيكون لهم في مجرى الحوادث أثر عظيم ، هم : تمام بن علقمة الثقفي الذي ذكرناه وعاصم العريان وأخوه عمران ، وانضم إليه كذلك كثير من البربر لم تعطنا المراجع عنهم أي تفصيل ، ولكن معظم البربر كانوا على أي حال يأمنون اليمنيين وينضمون إليهم ، وكان هؤلاء قد تقربوا إليهم بعد هزيمة شقندة . هكذا قوي معسكر عبد الرحمن ، فأخذ ينظم صفوف أنصاره استعداداً للصراع الحاسم إذا انقضى الشتاء .

فلما أقبل الربيع بدأت بطون مضر تتوافد إلى الصميل ويوسف حتى اكتمل جمعهم عندهما في قرطبة ، ويبدو أن عدد من اجتمع من القيسيين كان عظيماً ، لأن الأمويين واليمنيين المجتمعين إلى عبد الرحمن لم يلبثوا أن استبانوا قلة أعدادهم ونصحوا عبد الرحمن بالمرور على بقية منازل اليمنية في نواحيها لكي يصطحب منهم من يستطيع ضمه ، وهذا يدلنا على أن اليمنيين رغم كثرة عددهم في الأندلس كان معظمهم منصرفاً إلى شؤون العيش في النواحي التي نزلوا بها ، فلم يكن ينهض منهم للقتال إلا أعداداً قليلة ، وربما كان هذا هو سبب تفوق القيسيين عليهم في ميادين الحرب ، فقد كان معظم القيسيين جدداً على البلاد أقبلوا مع بلج ، لم تثبت بعد أقدامهم في النواحي التي كان أبو الخطار قد فرقهم فيها ، فكانوا إذا دعا داعي الحرب لبى معظمهم وأسرعوا إلى الميدان ، ومن دلائل ذلك أن يوسف والصميل لم يكادا يدعوان الجند بعد انقضاءُ الشتاء حتى توافد عليهما معظم القيسية ، في حين كان لا بد أن يمر عبد الرحمن على اليمنيين في منازلهم ليحشد أكبر عدد منهم للصراع المقبل .

وجعل نفر من رجال يوسف يوهمه بأن عبد الرحمن لم يأت لملك ، وإنما يكفيه شيء من الخير وحسن المكانة عند يوسف كما قلنا ، ففكر هذا في أن يبعث إليه بشيء من الهدايا مع وفد من أنصاره يعرضون عليه الصلح والمصاهرة ، وتخير

يوسف ثلاثة من خيرة أنصاره هم عبيد الله بن علي شيخ قيس وخالد بن زيد كاتبه الأثير عنده وعيسى بن عبد الرحمن وكان من موالي بني أمية ، ولكنه ثبت إلى جانب يوسف ، لأنه كان على أرزاق الجند وحشم يوسف ، وبعث معهم بكتاب بليغ كتبه خالد بن زيد وأرسل كذلك كسى وفرسين وبغلين ووصيفين وألف دينار ، فسار الرسل حتى بلغوا أرش من كورة رية ، فبدا لعيسى بن عبد الرحمن أن يبقى هو بالهدايا في هذا الموضع ، ويذهب زميلاه بالكتاب ليريا إن كان عبد الرحمن يقبل الصلح أو لا يقبله ، فلما وصلا إلى معسكر عبد الرحمن وجداه عامراً بالناس تتوارد عليه الوفود من أجناد دمشق والأردن وقنسرين وفدا بعد وفد ، وحدثاه بالذي يعرضه يوسف من الصلح والمصاهرة والسلم ، ومالت قلوب نفر من أنصار عبد الرحمن إلى قبول ذلك ، ثم أخرج خالد بن زيد الكتاب وناوله لعبد الرحمن ، فناوله هذا لصاحبه ابي عثمان عبيد الله بن عثمان ليرد عليه بما يشاء ، وهم أبو عثمان بإملاء الجواب ، فملك الزهو خالداً وقال : « يا أبا عبد الرحمن ، لتعرقن أبطك قبل أن تجد فيه جواباً ! » فنالت هذه العبارة الجافية من نفس أبي عثمان ، وكان ـ كغيره من كبار عرب الأندلس ـ يكره خالداً ولا يرتاح إليه ، اذ كان خالد مولى أندلسياً اصطنعه يوسف وصعد بمكانه ، وكان فيه هذا الغرور الذي سنعرفه في الكثيرين من الأندلسيين ، فأثار بغروره نفوس العرب حتى كرهوه وحسدوه على هذه المكانة التي أصابها من نفس سيدهم ، وهو بعد مولى أندلسي أو « علج » كما كانوا يسمونه . أصابت هذه العبارة نفس أبي عثمان فاستطاره الغضب فضرب بالكتاب وجه خالد وسبه سباً قبيحاً وأمر به فكبل بالحديد ، وحاول عبيد الله بن علي أن يتدخل لإنقاذه فلم يفلح . وهكذا فشلت هذه السفارة بسبب هذه العبارة التافهة التي صدرت عن هذا المولى الأندلسي دون أن يقدر موضعها ، وعاد عبيد الله خائب السعي إلى أرش ليجد صاحبه عيسى بن عبد الرحمن قد أسرع عائداً بالهدايا التي معه . وقد انضم عيسى فيما بعد إلى عبد الرحمن ، وصفح عنه هذا وجعله من مواليه ، إلا أنه لم ينس له فعلته هذه أبداً[1] .

---

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٨٠ ـ ٨١ .

سار عبد الرحمن بمن معه إلى شذونة حيث كان جند الأردن ، فانضم إلى جيشه كل من كان بها من اليمنيين وقضاعة وقليل من جند الأردن أنفسهم ، وتحمس لعبد الرحمن شيخ عرب الأردن جدار بن عمر القيسي جد بني عقيل ، وصادف دخول عبد الرحمن شذونة يوم الفطر سنة ١٣٨ (٨ مارس ٧٥٦) فأمر جدار خطيب المسجد بأن يسقط الخطبة ليوسف ويجعلها لعبد الرحمن[١] ، فكانت هذه أول خطبة لعبد الرحمن على منابر الأندلس ، وساعفه المقدار فانضم إليه قبيل من البربر يعرفون ببني الخليع كانوا يقيمون بناحية تاكرنا وكانوا موالي يزيد بن عبد الملك ، فأصبحوا في ولاء عبد الرحمن واشتد بهم ساعده ، وبهذا كان مقام عبد الرحمن بشذونة مقاماً سعيداً على قصره : كسب فيه بضع مئات من الأنصار وسمع بنفسه أول خطيب يدعو له . ثم نزل بمنازل جند فلسطين عند طرف شذونة فانضم إليه سراة القوم وحماة الجند إلا بني كنانة ، فرعى عبد الرحمن حرمة هذا الشيخ ولم يمس أبناءه أو حرمه بضر ، ثم سار إلى أشبيلية حيث جند حمص ، « فخرج إليه خيارهم من اليمن شاميها وبلديها . وبهذا قوي جمع عبد الرحمن بمن انضم إليه من هذه الأجناد الثلاثة ، وزاد حماسه وحماس من معه حتى نظر أحد رؤساء الجند فاذا جند الأردن سائرون بلوائهم وجند فلسطين بلوائهم وجند حمص بلوائهم وعبد الرحمن في مواليه من غير لواء ، فقال : سبحان الله ، ما أشد خلاف أمرنا ! نحن بألوية وصاحبنا بلا لواء ، فأقبل أبو الصباح بن فلان اليحصبي بقناة وعمامة ، والقناة والعمامة لرجل من حضرموت لا أسميه ، ثم دعوا رجلاً من الأنصار لا أسميه تفاءلوا باسمه ونسبه ، فعقد له بقرية قلنبيرة من إقليم طشانة من كورة إشبيلية » فأراد الله أن يكون هذا اللواء المتواضع المرتجل لواء النصر لجنود المسلمين في الأندلس حتى إمارة عبد الرحمن الأوسط، وظل يرفرف على هامات المسلمين حتى خلق وبلي ، وألقى به عبد الرحمن ابن غانم قائد الأمير عبد الرحمن بن محمد واستبدل به غيره فتشاءم بذلك جهور القائد وبحث عن اللواء الخلق فلم يجده ، واختفى من ذلك التاريخ

(١) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٢٤ ـ ٢٥ .

بإحدى نواحي ماردة[1] .

٣١٧ ـ موقعة المصارة وتعجل يوسف والصميل السير من المدور شمالي قرطبة وانحدرا بمن معهما إلى ناحية مقابلة لطشانة Tocina على الشاطىء الغربي للوادي الكبير ، وكان الوقت شتاء والوادي الكبير فياض بالماء ، فامتنع على العسكرين أن يعبر أحدهما إلى الآخر ، ولبثا على ذلك حيناً ، ثم أراد عبد الرحمن أن يلتمس غرة من يوسف ويمضي بعسكره الى قبالة قرطبة ثم يعبر إليها فيدخلها ، فأوقد نار معسكره بليل ، ثم ترك النار موقدة ومضي بعسكره ، وكادت تنجح الحيلة ، لولا أن تنبه لها يوسف وصاحبه فأسرعا عائدين إلى قرطبة ، فكانا مع جيش عبد الرحمن في سباق ، ووقف الجيشان مرة أخرى ينظر أحدهما إلى الآخر عند المصارة على مقربة من قرطبة ، وكانت كفة يوسف أرجح ، لأنه كان مقيماً مع قومه في ناحية زرع وخير ، في حين كان مقام عبد الرحمن في غابات لا مزارع فيها ، فأقام جنده في محل لا يقتاتون إلا ببعض الفول الأخضر أصابوه مما حولهم ، وكانوا يرجون أن يدخل بهم صاحبهم ليقيموا أنفسهم بما فيها من الخير ، ولكنهم لم يستطيعوا[2].

ثم أقبل يوم الخميس التاسع من ذي الحجة سنة ١٣٨ (١٣ مايو ٧٥٦) فاستبشر به عبد الرحمن لأنه يقابل اليوم الذي وقعت في غده معركة مرج راهط وانتصر فيها أموي آخر هو مروان بن الحكم على فهري آخر هو الضحاك بن قيس ، فقرر أن يخوض المعركة الحاسمة مع يوسف الفهري يوم الجمعة التالي ، ومن ثم امر جنده أن يستعدوا ليوم الفصل[3] .

وفي صباح يوم الجمعة العاشر من ذي الحجة سنة ١٣٨ (١٤ مايو ٧٥٦)

---

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٨٤ .
ابن القوطية : افتتاح ، ص ٢٦ .
(٢) الأخبار المجموعة ، ص ٨٦ .
(٣) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٢٦ ـ ٢٧ .
ابن عذاري : البيان ، جـ ٢ ، ص ٤٩ .

صف عبد الرحمن جيوشه في ترتيب وإحكام ، ولم يكونوا ليزيدوا في العدد عن خصومهم ولكنهم كانوا أشد تلهفاً على القتال ، ولم يكن معظمهم متحمساً لقضية عبد الرحمن بقدر ما كان راغباً في إدراك ثأره من القيسيين وشيخيهم الصميل ويوسف ، وكان عبد الرحمن يعرف هذا ويشعر به ، فمضى يدبر الأمر في حرص وحذر وحكمة : ظل يتظاهر بأن الأمر كله لأبي عثمان عبيد الله بن عثمان شيخ الموالي ، فلا يبرم أمراً بدون رأيه ، ولكنه كان يعرف كيف يسيطر على هذا الرجل ويسيره في الطريق الذي يريده في كياسة وحكمة ، ومن دلائل ذلك أنه أحب قبل المعركة أن يشحذ همم اليمنيين فسألهم في شيء من الذكاء : « إنا لم نجيء للمقام ، وقد دعانا هذا الرجل إلى ما علمتم ، وعرض ما سمعتم ، ورأيي لرأيكم تبع ، فإن كان عندكم صبر وجلد وحب للمكافحة فأعلموني ، وإن كان فيكم جنوح إلى السلم والصلح فأعلموني »[1]. قال هذا الكلام وهو يعلم أثره في نفوسهم ، فلم يكد يفرغ منه حتى أصفقوا على القتال جميعاً وزاد حماسهم ، فمضى يعين القواد : فأقام عبد الرحمن بن نعيم الكلبي على أهل الشام ، وأقام على رجالة بني أمية وجماعة البربر عاصم العريان ، وكان من كبار الأموية ، وقد بلغ من حماسه لعبد الرحمن أن خلع سراويله قبل المعركة ليكون ذلك أعون له على القتال فسمي العريان ، وجعل على خيل بني أمية حبيب بن عبد الملك القرشي ، وجعل على خيل البربر إبراهيم بن شجرة الأودي وكان من كبارهم ، وأعطى لواء جيشه كله لأبي عثمان عبيد الله بن عثمان ، ووقف هو وسط خيل بني أمية على فرس أشقر ممسكاً بقوسه ، وعلى هذا النظام عبر الوادي الكبير وأفضى إلى الضفة المقابلة دون أن يعرض له يوسف أو أحد من رجاله ، ويبدو أنه كان يؤمل في الصلح ما يزال ، وعلى ذلك كان كثير من أنصاره ، لم يخوضوا المعركة إلا بعد أن وضعهم عبد الرحمن أمام الأمر الواقع ، فلم يجدوا عن القتال مندوحة .

---

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٦٧ .
ابن القوطية ، ص ٢٨ .

ورتب يوسف جيشه : فجعل على خيل الشام ومضر كلها عبيد الله بن علي ، وعلى الرجالة كنانة بن كنانة وجوشن بن الصميل وعبد الله بن يوسف الفهري ، وجعل على خيل غلمانه وصنائعه من البربر غلامه خالداً سودي .

وأخذت جماعات من مسلمي قرطبة تنضم إلى عبد الرحمن قبيل المعركة ، لأن عدداً عظيماً من موالي خلفاء بني أمية وعمالهم كانوا قد سكنوها منذ زمن طويل ، فصار جيشه بهذا أكثر عدداً وإن كان جيش خصمه أكثر انسجاماً ، وقد لاحظ عبد الرحمن أن نفراً من أنصاره اليمنيين يتحدثون عن فرسه الأشقر ، ويخشون أن يكون قد تخيره خاصة ليهرب به إذا دارت الدائرة عليه ، بل كلمه جماعة منهم في ذلك صراحة ، فلم يكن منه إلا أن رجا أبا عثمان عبيد الله أن يعطيه بغلته ، محتجاً بأن فرسه الأشقر لا يثبت تحته ، وهو إنما يريد مركباً ثابتاً ليستطيع أن يرمي بقوسه على ظهره ، فقبل أبو عثمان وطابت أنفس اليمن ، وهذا يدلنا على أن اليمنيين كانوا يخشون القيسية بعد ما لقوا من الهزائم على أيدي رجالها ، ولو لم يكن فيهم هذا الفتى عبد الرحمن لدارت الدائرة عليهم ، بل لما نهضوا للقتال أصلاً[١] .

دارت المعركة على مقربة من المصارة من أرباض قرطبة ، وقد بدأ القتال بهجوم عنيف قامت به خيل عبد الرحمن على قلب جيش يوسف والصميل ، فلم يمض إلا قليل حتى قتل عبد الله بن يوسف وجوشن بن الصميل ، فلم يصبر الرجلان على القتال بعد ذلك وولیا الفرار بمن معهما ، وثبتت خيل قيس يقودها عبيد الله بن علي القرشي ، فلم يزل عبد الرحمن بن نعيم وعاصم العريان ومن معهما من الفرسان يشتدون في الهجوم حتى قتلوا عبيد الله بن علي ونفراً من كبار القيسية ، فانفرط عقد من بقي وولوا مدبرين ، وكسب عبد الرحمن ذلك اليوم الحاسم الذي كتب فيه للأندلس بل للغرب الإسلامي كله تاريخ جديد ، وسار عبد الرحمن ودخل قصر قرطبة ، وكان من غرائب المقادير أنه ورجاله أكلوا من

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٨٩ .

نفس الطعام الذي كان يوسف قد أعده لنفسه ولأصحابه اذا فرغوا من المعركة[1].

فلما انتصرت اليمنية وقعوا فيما كانوا يقعون فيه عقب كل نصر حازوه في تاريخهم : ملكهم الجشع في المغانم وكادوا يضيعون ثمرة النصر بسوء التصرف وقلة الكياسة ، ذلك أنّ جماعة منهم غرهم هذا النصر فحسبوا أنهم يحسنون صنعاً إذا انقلبوا على عبد الرحمن وموالي بني أمية لكي يصبح النصر خالصاً لليمن ، لأن عبد الرحمن ومواليه كانوا من مضر أيضاً ، وقد دعا إلى ذلك رجال من جذام وخاطبوا فيه قضاعة ، فأبت قضاعة ، واختلف الحيان فلم يفلح التدبير ونجا عبد الرحمن ومواليه ، وقد علم عبد الرحمن بهذا الأمر إذ أنهاه إليه جذامي يسمى ثعلبة بن عبيد فاحترس لنفسه وضم مواليه ، واحترس من أبي الصباح الداعي إلى هذا الأمر الخطير ، وأنشأ لنفسه شرطة جعل عليها عبد الرحمن بن نعيم ، وهذا أول منصب رسمي ينشأ على عهد هذه الدولة الجديدة[2] .

وتسرعت اليمنية بما عرف عنها من الجشع في الغنائم والإسراف في ذلك ، وأسرع رجلان من طيىء فانتهبا دار الصميل بن حاتم بشقندة ، والرجل ينظر إليهما من قمة تل مجاور كان قد هرب إليه على طريق جيان مشرف على قرية شبلار ، فملأ نفسه الألم وتمثل قائلاً :

ألا إن مالي عند طيٍّ وديعة ولا بد يوماً أن ترد الودائع

وكان فيما انتهباه صندوق فيه عشرة آلاف دينار دراهم ، مما يدلنا على عظم الثروة التي كان هذا الصميل يحتجنها ويختص بها نفسه . ولم يستطع

---

(1) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٢٨ .
الأخبار المجموعة ، ص ٨٩ ـ ٩٠ .
ابن عذارى : البيان المغرب ، جـ ٢ ، ص ٤٨ ـ ٤٩ .
فتح الأندلس ، ص ٥٥ ـ ٥٦ .

DOZY, *Mus. d'Esp.* I. pp. 222 - 223.
LEVI - PROVENÇAL, *Hist. de l'Esp. Mus.* I. p. 73 - 74.

(2) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٣٠ .
الأخبار المجموعة ، ص ٩٠ .

عبد الرحمن أن يكف اليمنيين عن النهب إلا في مشقة ، وقد أبدى من النبل كرماً عظيماً ، إذ تعفف عن حريم يوسف وضم زوجته وابنته إلى أهله ، وأهدت إليه زوج يوسف الجارية « حلل » التي ستكون أم ولده وولي عهده هشام . وأقر صاحب صلاة يوسف الفهري على عمله ، وكان فهرياً ، وسيدرك عقبة في ظلال الدولة الأموية نباهة وذكراً ، وكذلك أقر يحيى بن يزيد قاضي يوسف على عمله .

ولم يرض اليمنيون من عبد الرحمن هذا التعفف أو ذلك الكرم ، ويبدو أنهم لم يكونوا ليحسبوا إلا أنه سيكون دائماً طوع بنانهم فيصرفون الأمر كما يشاؤون ، ففاجأهم عبد الرحمن بعد انتصاره بوضع يده على الأمر كله ، فبدأت نفوسهم تتغير عليه ، ومن ذلك الحين تبدأ مؤامراتهم وثوراتهم عليه[1].

٣١٨ - قيام الدولة الأموية الأندلسية

ثم دخل عبد الرحمن المسجد الجامع وصلى بالناس وخطبهم من منبر قرطبة لأول مرة ، فوعدهم بالعدل والإحسان ، ونستطيع أن نقول إن الدولة الأموية الأندلسية قد قامت فعلاً من هذا اليوم ، وبدأ في تاريخ الأندلس عصر جديد[2] ، وكان ذلك يوم الجمعة العاشر من ذي الحجة سنة ١٣٨ هـ ١٤ مايو ٧٥٦ .

٣١٩ - مصير يوسف الفهري والصميل ابن حاتم

وحاول يوسف الفهري والصميل بن حاتم أن يستعيدا ما ضاع من أمرهما على غير طائل : ذهب يوسف إلى طليطلة ليجمع نفراً من أنصاره ، وذهب الصميل إلى جيان ليستنفر من فيها من معد ، ثم التقيا واستوليا على جيان وطردا الحصين بن الدجن عاملها لعبد الرحمن ، ثم مشيا إلى إلبيرة ففر عاملها جابر بن العلاء بن شهاب ، ووجد عبد الرحمن أن لا مندوحة له عن السير نحوهما ، فلم يكد يغادر قرطبة حتى فاجأها أبو زيد أحد أبناء يوسف الفهري بنفرٍ من أنصاره أقبلوا معه من ماردة ،

---

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٩٠ .

(٢) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٢٩ .

ابن عذارى : البيان ، جـ ٢ ، ص ٤٩ - ٥٠ .

فعاد عبد الرحمن إليها ، ووجد أن لا مفر من أن يقيم على حراستها رجلاً يثق فيه فعهد في ذلك إلى عامر بن علي جد بني فهر الرصافيين ، واستوثق من أمره ثم مضى نحو خصميه . ولم يكد عبد الرحمن يصل بمن معه من الجند إلى إلبيرة حتى أحس الصميل ويوسف أنهما لن يستطيعا له حرباً ، فعرضا الصلح على أن يدع لهما عبد الرحمن ما كان لهما من الأموال والأملاك ، وأجابهما عبد الرحمن إلى ذلك على أن يستودعه يوسف الفهري ابنيه أبا زيد عبد الرحمن وأبا الأسود محمد ، واتفق يوسف وعبد الرحمن كذلك على تبادل الأسرى ، فكان من غرائب المقادير أن عبد الرحمن رد إلى يوسف خالد بن زيد كاتبه المولى الإسباني في نظير أبي عثمان عبيد الله بن عثمان ، وكان عبيد الله هو الذي ضرب وجه خالد وأمر بتكبيله يوم تحداه خالد أن يكتسب رداً لخطابه على ما رويناه[1] .

وعاد عبد الرحمن إلى قرطبة وقد دانت له الأندلس جميعها ، عاد وفي ركابه يوسف والصميل ، فمن لطيف ما يحكي أن عبد الرحمن استبان امتياز الصميل ، ولا غرابة فالرجل من الأرومة العربية في أعلى مكان ، قال عبد الرحمن : « لله بلاده . لقد صحبني من إلبيرة إلى قرطبة ما مست ركبته ركبتي ولا تقدم رأس بغله رأس بغلي ، ولا استفهمني في حديث ، ولا افتتح حديثاً بغير أن أسأله عنه » ، ثم يقول صاحب « الأخبار المجموعة » بعد ذلك : « ولا يذكر ـ أي عبد الرحمن ـ مثل ذلك عن يوسف . . . »[2] ، وهي ملاحظة لها معناها ، واستقر الرجلان على كرامة وتوسعة . وأقبل كثير من الناس يطالبانها بحقوقٍ لهم عندهما من أيام ولايتهما ، فأحالهم عبد الرحمن إلى القاضي يحيى بن يزيد التجيبي ، وكان الناس يحسبون أن القاضي ينتهز هذه الفرصة ليشفي نفسه من هذين الرجلين اللذين ألحقا بقوم اليمنيين شر الأذى ، ولكن القاضي امتلك نفسه ، فلم يقض في أمرهما إلا بالحق ، وظل الرجلان على ما أنزلهما عبد الرحمن عليه من الاكرام[3] .

---

(١) الأخبار المجموعة ، ص ٩٣ ـ ٩٤ .

(٢) نفس المصدر ، ص ٩٤ .

(٣) نفس المصدر ، ص ٩٤ ـ ٩٥ .

بيد أن يوسف لم يطمئن إلى أمان عبد الرحمن ، وظلت المخاوف تساوره من ناحيته ، فلم يزل يتحين الفرصة حتى فر من قرطبة ، وحاول أن يستميل الصميل والشامية إلى جانبه فلم يوفق ، فمضى إلى جماعات من البلديين في لقنت وماردة وطليطلة ، وما زال بهم حتى أغراهم بالانضمام إليه ، فثاروا بعبد الرحمن في هذه النواحي ، واستبعد عبد الرحمن أن يكون يوسف قد قام بهذا العمل من تلقاء نفسه ، واتهم الصميل بالتدبير عليه ، وعبثاً حاول الرجل تبرئة نفسه ، وانتهى أمره بأن أُلقي به في السجن . وسجن معه ابني يوسف وكانا عنده رهينتين .

واستطاع يوسف أن يضم جماعات من البلديين ، فسار بهم من لقنت إلى أشبيلية ، ومن غريب الأمر أن معظم البلديين ـ بل والشاميين ـ في هذه الناحية انضموا إليه ، مما يدل على أن عرب الأندلس كانوا إلى ذلك الحين أميل إلى الفوضى والاضطراب ، وأبعد عن فهم قيمة استقرار الأمور وعودة السلام . جمع يوسف نحو عشرين ألف عربي حاصر بهم عامل أشبيلية لعبد الرحمن ، وكان مروانياً يسمى عمر بن مروان قدم على عبد الرحمن منذ قليل في صحبة نفر من الأمويين نذكر منهم جزي بن عبد العزيز بن مروان بعد أن استقرت قدم عبد الرحمن في الأندلس ، ولم يكن لدى عبد الملك إلا نفر قليل من القيسيين . وبدا ليوسف أن يعجل بالسير إلى قرطبة قبل أن يستطيع عبد الرحمن جمع قواته والسير إليه ، ولكن الحظ لم يساعفه ، إذ إن عبد الرحمن استطاع أن يجمع جمعاً من أنصاره ويسير بهم نحو أشبيلية ، ولم يكد يوسف يتحرك نحو قرطبة حتى جمع عامل موررور لعبد الرحمن ـ وهو عبد الملك بن عبد الله ـ من كان عنده من القيسية ثم انضمت إليه جماعة أخرى وسار بهم خلف يوسف وعجلوا يريدون مهاجمة عسكر يوسف من خلف . فتخوف يوسف أن يقع بين الفريقين ، فعاد نحو أشبيلية يريد أن يعجل بالقضاء على عبد الملك ومن معه قبل وصول عبد الرحمن ، واشتبك القتال بين الجيشين وانهزم يوسف هزيمة قاصمة . ومضى يوسف نحو طليطلة ليلجأ إلى صديق له يسمى أبا عروة لا يصاحبه غير مولى

فارسي يسمى سابقاً ووصيف واحد ، فلما صار على عشرة أميال من طليطلة مر بعبد الله بن عمر الأنصاري ، وهو بقرية من قرى طليطلة - « فقيل له : هذا يوسف منهزماً ! فقال لأصحابه : ويحكم ! اخرج بنا نقتله ونريح الدنيا منه ونريحه من الدنيا ونريح الناس من شره ، فقد صار رجلاً ناجشاً للحرب ، فخرج حتى لحقه وليس بينه وبين مدينة طليطلة إلا أربعة أميال ، وليس معه إلا سابق الفارسي مولى لبني تميم ومن يجهله يقول مولى يوسف ، وبقيته بسرقسطة ، ووصيف واحد فقط وقد ماتوا من شدة الركض ، وليس معهم منعة ولا مدفع ، فقتل عبد الله يوسف الفهري ، وقتل سابق وهرب الغلام حتى دخل قرطبة » ، وأقبل عبد الله على عبد الرحمن الداخل برأس يوسف فعجل هذا بقتل أبي زيد ابن يوسف وأبقى على أخيه أبي الأسود لصغر سنه ، ولما أقبل الليل بعث إلى الصميل من خنقه ليستريح من أمره جملة(١) .

* * *

٣٢٠ - نهاية عصر الولاة

هكذا صفا الجو لعبد الرحمن وصار له أمر الأندلس كله غير منازع ، وانتهى على يديه العصر الأول من أعصر الأندلس الإسلامية وهو عصر الولاة . اختفى من الميدان آخر رجلين كانا يمثلان هذا العصر « الجاهلي » في تاريخ الأندلس ، اختفيا حاملين معهما ثارات العصبية وأوضار القبلية ، وخلفا الأندلس لتقوم فيه دولة إسلامية واحدة تقيم شأن الأندلس الإسلامي بعد أن كاد ينهار . وكان من حظ الأندلس أن اختفى هذا العصر المضطرب ، ولو لم تطأ قدم عبد الرحمن أرض هذه البلاد لصار تاريخ الإسلام فيها إلى ما سيصير إليه تاريخ الإسلام في صقلية بعد ذلك بنيف وثلاثة قرون : اختلاف وتفرق وحروب بين المسلمين ، ثم يكتسحهم أعداؤهم وينتهي أمر الإسلام في الجزيرة .

---

(١) ابن القوطية : افتتاح ، ص ٣٠ .
الأخبار المجموعة ، ص ١٠٠ - ١٠١ .
ابن عذارى : البيان ، جـ ٢ ، ص ٥١ - ٥٢ .

مَراجعُ الكِتاب

أ- مَراجع عَربيّة

ابن الأبار، أبو عبدالله محمد بن عبدالله القضاعي: **الحلة السيراء**، طبعة دوزي.

ابن الأثير الجزري: **أسد الغابة في معرفة الصحابة**، القاهرة ١٢٨٠ هـ.

- **الكامل في التاريخ**: طبعة نورنبرج، لايدن ١٨٦٧- ٧٦، وطبعة القاهرة ١٩٤٩.

ابن حزم القرطبي: **جمهرة أنساب العرب**، طبعة ليفي پروفنسال، القاهرة ١٩٤٨.

ابن حوقل، أبو القاسم محمد البغدادي الموصلي: **صورة الأرض**، الطبعة الثانية بإشراف كرامرز، لايدن ١٩٣٨.

ابن حيان. حيان بن خلف: **المقتبس في تاريخ رجال الأندلس**، طبعة أنتونيا، باريس ١٩٣٧.

ابن الخطيب، لسان الدين: **الإحاطة في أخبار غرناطة**، طبعة محمد عبدالله عنان، الجزء الأول، القاهرة ١٩٥٦.

- **أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام وما يجر ذلك من شجون الكلام**، نشره ليفي پروفنسال، الرباط ١٩٣٤؛ ثم أعاد طبعه في بيروت ونشره بعنوان «تاريخ إسبانيا الإسلامية» سنة ١٩٥٦.

ابن خلدون، عبد الرحمن: **المقدمة**، طبعة لويس شيخو، بيروت ١٩٠٨. وترجمة فرنسية بقلم البارون دي سلان، باريس ١٨٦٨.

-: كتاب العبر، بولاق ١٢٨٤هـ/ ١٨٦٧ م (٧ أجزاء).

- : **أخبار البربر ومواليهم من زناتة وذكر أوليتهم وأجيالهم، وما كان بديار المغرب خاصة من الملوك والدول**، وهو الكتاب الثالث من «العبر وديوان المبتدأ والخبر» وقد نشره دي سلان وطبعه في الجزائر ١٢٦٧/١٨٥١ بعنوان «تاريخ الدول الإسلامية بالمغرب»، ثم أعيد ترجمته إلى الفرنسية ونشر الترجمة باسم «تاريخ البربر» سنة ١٨٦٠، وأعيد نشره حديثاً بإشراف المستشرق كازانوفا في باريس سنتي ١٩٣٨ - ١٩٤٠.

ابن عبد الحكم، عبد الرحمن: **فتوح مصر والمغرب والأندلس**، طبعة شارل توري، مطبعة جامعة ييل ١٩٢٢.

ابن عذارى المراكشي: **البيان المغرب في أخبار ملوك الأندلس والمغرب**، طبعة دوزي الجزءان ١و٢، لايدن ١٨٤٨- ١٨٥١؛ والجزء الثالث نشره ليفي پروفنسال في باريس سنة ١٩٣٠. ثم أعاد پروفنسال وكولان نشر الجزءين الأول والثاني في لايدن سنة ١٩٥١ - ١٩٥٢.

ابن الفرضي: **تاريخ علماء الأندلس**، طبعة كوديرا، مدريد ١٨٩٠- ١٨٩٢.

ابن قتيبة: **الإمامة والسياسة**، القاهرة ١٩٠٤.

ابن القوطية، أبو بكر: **تاريخ افتتاح الأندلس**، أعده للنشر جايانجوس ونشره خليان ريبيرا ١٩٢٦.

أبو زكريا: **تاريخ أبي زكريا**، ترجمه وعلق عليه Emile Masqueray الجزائر ١٨٧٨.

أبو المحاسن، جمال الدين يوسف بن تغري بردي: **النجوم الزاهرة في أخبار ملوك مصر والقاهرة**، طبعة دار الكتب المصرية، صدر منه ١١ جزءاً ابتداء من سنة ١٩٢٨.

أبو يوسف: كتاب الخراج، القاهرة ١٣٥٢ هـ.

أخبار مجموعة في تاريخ الأندلس: نشره وترجمه وعلق عليه لافوينتي إي ألكنترا، مدريد ١٨٦٧.

الإدريسي، الشريف: **نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**. نشر الجزء الخاص بالأندلس والمغرب دوزي ودي خويه في لايدن تحت عنوان:

Description de l'Afrique et de l'Espagne

الإصطخري، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد الفارسي: **مسالك المهالك**، طبعة دي خويه لايدن ١٨٦٦-١٨٧٠ ثم أُعيد طبعه سنة ١٩٢٧.

البغدادي، عبد القادر بن طاهر: **الفرق بين الفرق**، القاهرة ١٩١٠.

البكري، أبو عبيدالله بن عبد العزيز: **صفة إفريقية**، مستخرجة من كتاب المسالك والمهالك، نشرها البارون دي سلان في الجزائر ١٩١٠، ثم ترجمها إلى الفرنسية ونشرها في الجزائر ١٩١٣.

البلاذري، أحمد بن يحيى بن جابر: **فتوح البلدان**، القاهرة ١٣١٨.

جرجي زيدان: **العرب قبل الإسلام**، القاهرة (طبعة ١٩٥٧، راجعها وعلق عليها حسين مؤنس).

الحميري، ابن عبد المنعم: **الروض المعطار في خبر الأقطار**، نشره مع ترجمة فرنسية وتعليقات ليڤي پروڤنسال في لايدن ١٩٣٦.

الخشني، محمد بن الحارث بن أسد: **تاريخ قضاة قرطبة**، نُشر مع ترجمة إسبانية لريبيرا، مدريد ١٩١٤.

الخوارزمي، أبو عبدالله محمد بن أحمد بن يوسف الكاتب: **كتاب مفاتيح العلوم**، لايدن ١٨٩٥ والقاهرة ١٣٤٤هـ.

الدباغ، عبد الرحمن بن محمد بن عبدالله الأنصاري: **معالم الإيمان** (٤أجزاء) تونس ١٣٢٠/١٩٠٢.

الدينوري، أبو حنيفة: **الأخبار الطوال**، القاهرة ١٣٣٠/١٩١١.

السلاوي، أحمد بن خالد الناصري: **الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى**، القاهرة ١٣١٠ - ١٣١٢.

السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر جمال الدين: **تاريخ الخلفاء أمراء المؤمنين القائمين بأمر الأمة**، القاهرة ١٣٥١.

الشهرستاني، أبو الفتح محمد بن عبد الكريم: **الملل والنحل**، طبعة و. كيورتون، لندن ١٨٤٢، والقاهرة ١٣١٧.

الضبي: **بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس**، طبعة ريبيرا، مدريد ١٨٨٤ - ١٨٨٥.

الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير: **تاريخ الأمم والملوك**، طبعة دي خويه، لايدن ١٨٨١ وما بعدها، وطبعة القاهرة ١٩٣٩.

العذري، أحمد بن عمر بن أنس: **نظام المرجان في المسالك والممالك والبلدان** (مخطوط يعده للنشر الدكتور عبد العزيز الأهواني).

عنان، محمد عبدالله: **دولة الإسلام في الأندلس ـ العصر الأول**، القاهرة ١٩٤٣.

الغساني، محمد بن عبد الوهاب: **رحلة الوزير في افتكاك الأسير**، طبعة الفريد البستاني، العرائش ١٩٤٠.

قدامة بن جعفر، أبو الفرج: **كتاب الخراج وصنعة الكتابة**، لايدن ١٨٨٩.

القرشي، يحيى بن آدم: **كتاب الخراج**، بتحقيق أحمد محمد شاكر، القاهرة ١٣٤٧.

الكتاني، عبد الحي: **فهرس الفهارس**، فاس ١٣٤٦.

المالكي، أبو بكر: **رياض النفوس** (الجزء الأول) نشر وتحقيق حسين مؤنس، القاهرة ١٩٥١.

المراكشي، عبد الواحد: **المعجب في تلخيص أخبار المغرب**، طبعة دوزي، لايدن ١٨٨١؛ وطبعة محمد سعيد العريان، القاهرة ١٩٤٨.

المسعودي: **مروج الذهب**، طبعة باربييه دي مينار وباڤيه دي كورتي، پاريس ١٨٦١ـ ١٨٧٦.

المقدسي، شمس الدين: **أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم**، طبعة دي خويه، لايدن ١٩٠٦.

المقري، أبو العباس أحمد: **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب**، طبعة دوزي ودوجا وكريل ورايت، لايدن ١٨٥٥ـ ٦١؛ وطبعة الشيخ محي الدين عبد الحميد، القاهرة ١٩٤٩.

ـ: **تاريخ الدول الإسلامية في إسبانيا**، ترجمة إنكليزية جزئية لنفح الطيب مع تعليقات بقلم ب. دجايانجوس، لندن ١٨٤٠ـ ١٨٤٣.

المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي: **البيان والإعراب عما بأرض مصر من الأعراب**، طبعة ڤستنفلد تحت عنوان:

Abhandlung ueber die in Aegypten eingewanderten Arabische Staemme Goettingen, 1847.

-: **المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار**، طبعة القاهرة ١٩٠٦ـ ١٩٠٨.

مؤنس، حسين: **فتح العرب للمغرب**، القاهرة ١٩٤٧.

النباهي، أبو الحسن بن عبدالله بن الحسن: **تاريخ قضاة الأندلس المسمى المرقبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا**، نشره ليفي پروڤنسال، القاهرة ١٩٤٨.

النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب: **نهاية الأرب في فنون الأدب**، طبعة دار الكتب المصرية، وطبعة چسپار رميرو (الجزءان ٢٢و٢٣ الخاصان بالمغرب والأندلس)، مدريد ١٩١٧.

ياقوت، شهاب الدين أبو عبدالله الحموي الرومي: **معجم البلدان**، طبعه الساسي، القاهرة ١٩٠٦.

اليعقوبي: **كتاب البلدان**، طبعة دي خويه، لايدن ١٨٩٢.

ب - مراجع غير عربية

Aguado Bleye. *Manual de Historia de Espana,* 2 vols Madrid, 1947- 1950.

Asin Palacios, miguel. *Abenmasarra y su escuela, origines de la filosofia hispano musulmana.* Madrid 1914.

Baer, Fritz. *Die Fuden in christlischen Spanien,* VI. Teil, Urkunden und Resgesten. Berlin, 1928.

Ballesteros Rafael. *Histoire d'Espagne des origines a nos jours.* Paris, 1938.

Barrau- Dihigo, L. *Recherches sur l'histoire politique du Royaume Asturien,* dans Revue Hispanique LII, 1921.

Becker, C. H.. *Beitraege zur Geschichte Aegyptens unter dem Islam, 2* Haefte.

- *Die Entstehung von Usr und kharagland in Aegypten* in Zeitschrift der Assyriologie, XVIII (1904- 1905)

- *Papyri Schott Reinhardt,* i. Heidelberg, 1906.

Bolufer, José Alemany. *La geografia de la Peninsula Iberica en los escritores árabes,* (Revista del Centro de Estudios Historicos de Granada y su Reino) tomo IX, 1919.

Cirot, G. *Etuds sur l'historiographie espagnole.* Bordeaux 1904.

Codera, F. *Estudios criticos de historia árabe espanola.* Madrid, 1917.

Condé, José Antonio. *Historia de los Arabes en Espana.* Madrid, 1820.

Condeminas, Francisco y Luis Visintin. *Atlas Histórico de Espana.*

Cronica *Mozárabe de* 754. (Atribueda a Isidero Pacence por el **P.** Florez. Publicada por Mommsen bajo el titulo de Continuatio Hispana en 1885).

De Lagoy, M. *Description de quelques Médailles inédites de Massilia,* Aix,1834.

Dozy, Reinhardt Peter-Anne. *Etudes sur la conquète de l'Espagne par les Arabes, dans Recherches sur l'histoire et la littérature de l'Espagne pendant le moyeny-âge.* Lyde, 1881.

- *Histoire des Misulmans d'Espagne* (2e, édition revisée par **Lévi-Provençal**) Leyde, 1932.

- *Script. Ar.* Loci *de Abbab.* Lyde, 1846-1863.

Dubler, César E. *Sobre la Cronica Arabigo-Bizantina de 741y la Influencia Bizantina en la Peninsula Iberica* (Al-Andalus, Vol. XI fasc. 2, Madrid-Granada, 1956).

- *Ueber Berbersiedlungen auf der iberischen Halbinsel,* in Festchrift J. Jud. Zurich, 1943.

Elias Teres. *Linages Arabes en Al-Andalus,* segun la "Jamhara" de **Ibn Hasm,** Al-Andalus, Vol. XXII fasc.1-2

Fernández y Gonzalez, Francisco. *Estado social y politico de los Mudejares de Castilla.* Madrid, 1866.

Floresta *de leyendas heroicas espanolas.* Rodrigo, el último godo. Compil. por **Ramon Menéndez Pidal.** Madrid, 1925.

Fournel, Henri. *Les Berbères, étude sur la conquète de l'Afrique par les Arabes,* 2 Vols. Paris, 1875.

Gautier, E.F. *Le passé de l'Afrique du Nord.* Paris, 1937.

Gayangos, Pascual. *The History of the Mohammedan Dynasties in Spain,* 2 Vols. London, 1840-1843.

- *Memoria sobre la Autenticidad de la crónica denominada del Moro Rasis.* Memorias de la Real Academia de la Historia. Madrid, 1852.

Guerra, A. Fernandez. *Caida y Ruina del Imperio Visigótico-espanol* Madrid, 1883.

Herculano, Alejandro, *Historia de Portugal.* Lisboa, 1863.

Huici Miranda Ambrosio. *Las Crónicas Latinas de la Reconquista.* Valencia, 1913. 2 Vols.

Vol. I, Cronicones burgense, complutense, compostulano, del cerratense, de Don Juan Manuel, albeldense, de Sebastian de Sampiro, de Pelayo y de Cardeña, y Anales complutenses, compostelanos y toledanos:

Vol. II, Cronicon del Silense y Cronicon de Aflonso el Emperador.

Irving, washington. *Legends of the Conquest of Spain.*

Isidiro de las Cagigas. *Los Mozárabes.* Madrid, 1947- 1949.

- *Los Mudejares,* 2Vols. Madrid, 1948.

Isidoro Hispalense (San Isidoro Arzobispo de Sevilla). Divi Isidori... *Historia de Regibus...* Suevorum. Esp. Sagr. III,IV.

Isidoro Pacence,. *Vease Gronica.*

وقد رجعنا إلى القطعة التي نشرها لافوينتي ألكانترا ذيلاً على ترجمته الإسبانية للأخبار المجموعة.

Jacob. *Sources of Spanish- Jewish History.* New- York, 1894.

Lafuente y Alcántara Ajbār Machmua. Madrid, 1867.

- *Cronologia de los gobernodores de Espana.* Apendice III de Ajbar Machmua.

Lafuente y Zamalloa, Modesto. *Historia general de Espana desde los tiempos primitivos hasta nuestros dias.* 30 Vols. Madrid, 1850-1867.

Lammens, H. *Etude sur le règne du calife umayyade Mu'awiya Ier.* Beyrouth, 1908

- *Le Califat de Yazid Ier.* Beyrouth, 1921)

- *Etudes sur le siècle des Umayyades.* Beyrouth, 1930.

Legendre, Maurice. *Nouvelle histoire d'Espagne.* Paris, 1938.

Lembke. *Geschichte von Spanien.* Gotha, 1833.

Levi- Provençal, E... *Histoire de l'Espagen Musulmane.* Paris, 1951.

- *L'Espagne Musulmane au Xe. Siècle.* Paris, 1932.

- *La Péninsule Ibérique.* Leyde, 1938.

- *Islam d'occident* (Etudes d'histoire midiévale). Paris, 1948.

Lianos, Estansiloa Rendueles. *Historia de la villa de Gijon desde tiempos mas remotos hasta nuestros dias.* Gijon, 1867.

Lot, Ferdinand. *La fin du monde antique et le début du moyen- âge.* . Paris, 1927.

Lucas de Tuy. *Cronicon Mundi, Vol.* IV de Hisp. Illustrada derigida por Mariane. PP. 1-116.

Masdeu, J.F. *Historia Critica de Espana.* Madrid, 1805.

Menéndez Pidal, Ramón. *Historia de Espana.* Madrid, 1940.

- *La Espana del Cid.* Madrid, 1929.

- *Origenes del Espagnol.* Madrid, 1950.

Menéndez y Pelayo, Marcelino. *Historia de los Heterodoxos Espanoles.* Madrid, 1946.

Miguel de la Luna. *Historia Verdadera del Rey Rodrigo.*

Mommsen, Theodora. *Auctorum Antiquisimorum,* tomus XI, Cronica Minora (Seec IV, V, VI, VII). Berolini, 1893.

Moncaut, Cenat. *Histoire des peuples et des Etats ;pérénéens* (3e. éd. 1873).

Monés, Hussain. *Essai sur la chute du Califat Umayyade de Cordoue.* Le Caire, 1947.

Neuman, Abraham, A. *The Jewsin Spain* (Philadelphia The Jewish Publication Society of America) 2 volumes, 1948.

Perles, J. *Rabbi Saloma ibn Abrahan ibn Aderth.* Breslau, 1863.

Primera *Cronica General de Espana* (ed. Meméndez Pidal) Madrid, 1906)

Ribera, Julian y Tarrago. *Disertaciones y Opusculos.* Madrid, 1928.

Rodericos Toletanus (Jiménez de Rada, Rodrigo, arzobispo de Toledo). *Rerum in Hispania gestarum chronicon* en Hisp. Illustr II.PP.25- 194.

Saavedra, Eduardo. *Estudio sobre la invasión de los Arabes en Espana.*

Madrid, 1882.

- *Pelayo, Conferencia histórica.* Madrid, 1906.

Saint- Saud, Le Conte, *Monographie des Picos de Europs, Etudes et Voyages*. Paris, 1923.

Sala, Julio Samoza Garcia, *Gijón en la historia general de Asturias.*

Sânchez- Albornoz. *Fuentes de la historia hispano-musulmans del siglo VIII.* Mendoza, 1942.

Schacht, Joseph. *The Origins of muhammedan Furisprudenes. Oxford, 1953.* **Schevenkow, Rudolf.** *Kritische Betrachtungen ueber die Latein- geschriebenen Quellen zur Geschichte der Eroberung Spaniens dureh, die Araber, 1894.*

Simonet, Francisco Javier, *Historia de los Mozârabes de Espana.* Madrid; 1897- 1903.

Thomas, W. Arnold. *The Preaching of Islam.* London 1935.

Viardot, Louis. *Histoire des Arabes et des Mores d'Espagne.* Paris, 1833.

Von Kremer, Alfred. *Einnahmmebudget des Abbassiden Reiches.*

Weil, G. *Geschichte der Islamischen Voelker.* Stuttgart, 1866.

Wellhausen Julius. *Das Arabische Reich und Sein Sturtz.*

ترجمه إلى العربية الدكتور محمد عبد الهادي أبو زيدة بعنوان «تاريخ الدولة العربية إلى نهاية العصر الأموي» ونُشر في القاهرة سنة ١٩٥٨.

Wuestenfeld. *Die Statthalter von Aegypten zur Zeit der Chalifen.* Goettingen, 1875.

Yver, George. *Euric, roi des Visigoths,* dans Etudes d'histoire du moyen-âge dédiées à Gabrial Monod. Paris, 1896.

(ج) الموارد العربية لتاريخ المغرب والأندلس

عند البحث عن اسم يبدأ بلفظي ابن أو أبي أو أداة التعريف «الـ» اترك هذه الثلاثة وابحث عن الاسم في أول الحروف بعد ذلك، فابن أبي الخصال يوجد تحت حرف الخاء وهكذا.

ـ ابن الابار ٤، أبو عبدالله القضاعي: «**المعجم في أصحاب القاضي الإمام أبي علي الصدفي**»، القاهرة (١٣٨٣هـ/١٩٦٣ م).

«**الحلة السيراء**»: تحقيق د. حسين مؤنس، القاهرة (١٩٦٣).

ـ ابن الأثير الجذري (مجد الدين): «**جامع الأصول في أحاديث الرسول**»، تحقيق (عبد القادر الأرناؤوط)، طبعة دمشق (١٣٨٩ ـ ١٣٩٢هـ) ١٩٦٩ ـ ١٩٧٢.

ـ الإدريسي: «**نزهة المشتاق في اختراق الآفاق**»، (روما ١٥٩٢).

ـ أديب مغول (قيصر): «**الإسلام في الشرق الأقصى**»، ترجمة (د. نبيل صبحي) بيروت (١٣٨٩هـ / ١٩٦٩ م).

ـ الحميدي الأزدي (الحافظ أبو عبدالله محمد بن أبي نصر فتوح بن عبدالله): «**جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس**»، القاهرة (١٩٦٦).

ـ قلي (ابن سعيد): «**المغرب في حلى المغرب**» تحقيق (د. شوقي ضيف)، القاهرة (١٩٦٤).

ـ أبو عبدالله محمد بن محمد بن عبد الملك المراكشي الأوسي الأنصاري): «**الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة**».

السفر الأول (القسم الأول والثاني) تحقيق د. محمد بن شريفة بيروت.

بقية السفر الرابع تحقيق د. إحسان عباس، بيروت ١٩٦٤م.

السفر الخامس (القسم الأول والثاني) بيروت ، ١٩٦٥ م.

السفر السادس . بيروت ، ١٩٧٣ .

وبقية الأجزاء قام بتحقيقها ونشرها في بيروت الدكتور محمد بن شريفة.

- الباجي (سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب أبي الوليد): «نص أندلسي»، ترجمة ودراسة بالانكليزية (د. دنلوب).

- الباجي (أبو مروان عبد الملك بن محمد بن أحمد بن محمد بن إبراهيم): «المن بالإمامة على المستضعفين بأن جعلهم الله أئمة وجعلهم الوارثين»، تحقيق «د. عبد الهادي التازي»، بيروت (١٣٨٣هـ/١٩٦٤ م).

- بالنثيا (آنخل جنثالث): «تاريخ الفكر الأندلسي»، ترجمه عن الإسبانية (د. حسين مؤنس)، القاهرة (١٩٥٥).

- بروفنسال (ليفي): «الإسلام في المغرب والأندلس»، ترجمة د. السيد محمود عبد العزيز سالم ومحمد صلاح الدين حلمي القاهرة (١٩٥٦).

- البكري: أبو عبيد: «وصف إفريقية والمغرب» من كتاب المسالك والممالك للبكري. بتحقيق البارون ماك جوكين دي سلان، الجزائر ١٨٤٠.

- البلنسي، الحافظ مجد الدين أبو الخطاب عمر بن الحسن بن علي بن محمد بن حية الكلبي الأندلسي: «المطرب من أشعار أهل المغرب»، تحقيق (إبراهيم الابياري ود. حامد عبد الحميد ود. أحمد أحمد بدوي) القاهرة (١٩٥٤).

- توينبي، أرنولد: «الإسلام والغرب والمستقبل»، ترجمة د. نبيل صبحي، بيروت ١٣٨٩هـ/١٩٦٩م.

الجربي، محمد أبو رامس: «مؤنس الأحبة في أخبار جربة»، تحقيق محمد المرذوقي، تونس (١٩٦٠).

- ابن حزم الأندلسي، أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد: «التلخيص لوجوه التخليص»، تحقيق د. إحسان عباس، القاهرة (١٣٨٠هـ/١٩٦٠م).

«نقط العروس» تحقيق د. شوقي ضيف، جامعة القاهرة (١٩٥١).

«طوق الحمامة في الالفة والالاف»، تحقيق حسن كامل الصيرفي القاهرة ١٩٥٩.

ـ د. حسين مؤنس «رحلة الأندلس»، القاهرة (١٩٦٣).

ـمعالم تاريخ المغرب والأندلس، القاهرة ١٩٨٠.

«السيد القمبيطور وعلاقته بالمسلمين» القاهرة (١٩٥٠).

«المسلمون في حوض البحر الأبيض المتوسط إلى الحروب الصليبية»، القاهرة (١٩٥١).

ـ ابن حيان، أبو مروان حيان بن خلف بن حسين بن حيان بن محمد: «المقتبس في أخبار بلد الأندلس».

الجزء الثاني، تحقيق د. محمود علي مكي، بيروت، ١٣٩٣هـ/١٩٧٣م.

قطعة من الجزء الثاني نشرها ليڤي بروڤنسال، ١٩٥٠.

الجزء (السفر) الخامس، مخطوطة المكتبة الملكية بالرباط رقم ٨٧ قام بتحقيقه ونشره هـ. يدرو شالميتا ومحمد صبح. مدريد ١٩٨٢.

جزء مختص بخمس سنوات من خلافة الحكم المستنصر تحقيق عبد الرحمن علي الحجي، بيروت ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٥م.

ـ إبن الخطيب، لسان الدين أبو عبدالله محمد بن عبدالله بن سعيد بن علي بن أحمد السلماني: «الإحاطة في أخبار غرناطة»، تحقيق (محمد عبدالله عنان) القاهرة (١٣٩٤هـ/ ١٩٧٤).

«نفاضة الجراب في علالة الاغتراب»، تحقيق د. أحمد مختار العبادي القاهرة.

«كناسة الدكان بعد انتقال السكان»، تحقيق د. محمد كمال شبانة، القاهرة.

« روضة التعريف بالحب الشريف »، تحقيق محمد الكناني، بيروت.

«أعمال الاعلام». ثلاثة أجزاء:

الأول: لا يزال مخطوطاً.

الثاني: نشره ليڤي بروڤنسال تحت عنوان «تاريخ إسبانيا الإسلامية».

الثالث: نُشر بعنوان «تاريخ المغرب العربي في العصر الوسيط»، تحقيق د. أحمد مختار العبادي ومحمد ابراهيم الكتاني المغرب (١٩٦٤).

- ابن خاقان الفتح، «قلائد العقيان من محاسن الأعيان»، تونس (١٣٨٦هـ/١٩٦٦م).

- ابن خلدون: «العبر» بيروت (١٩٥٨- ١٩٦٠).

- ابن خلكان، أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد بن أبي بكر: «**ووفيات الأعيان وأبناء أبناء الزمان**»، تحقيق د. إحسان عباس، بيروت (١٩٦٨).

- الدباغ، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد الأنصاري الأسيدي: «**معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان**»، تحقيق إبراهيم شبوح، القاهرة، (١٣٨٨هـ ١٩٦٨).

- العذري ابن الدلائي، أبو العباس أحمد بن عمر بن أنس العذري: «**نصوص عن الأندلس**»، تحقيق د. عبد العزيز الأهواني، مدريد (١٩٦٥).

- ابن أبي دينار القيرواني، أبو عبدالله محمد بن أبي القاسم الرعيني القيرواني: «**المؤنس في أخبار أفريقيا وتونس**»، تحقيق محمد شمام، تونس (١٩٦٧).

- ابن الزبير، أبو جعفر أحمد بن ابراهيم: «**صلة الصلة**» تحقيق ليفي بروفنسال، الرباط (١٩٣٧).

- ابن زيري، عبدالله بن بلقين بن باديس بن حبوس: «**التبيان**»، تحقيق ليفي بروفنسال، القاهرة (١٩٥٥).

- سالم، السيد عبد العزيز: "**قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس**"، بيروت ١٩٧١.

- السلمي، أبي مروان عبد الملك بن حبيب: نص، نشر ودراسة بالإسبانية، د. محمود علي مكي، مدريد (١٣٧٧هـ/١٩٥٧م).

- شبانة، محمد كمال: «**يوسف الأول ابن الأحمر سلطان غرناطة**»، القاهرة (١٩٦٩).

- ابن صاعد، أبو القاسم الأندلسي الطليطلي بن أحمد بن أحمد بن عبد الرحمن بن محمد: «**طبقات الأمم**»، القاهرة.

- طرخان، إبراهيم علي: «**المسلمون في أوروبا في العصور الوسطى**»، القاهرة (١٩٦٦).

- ابن عبد البر، أبو عمر يوسف: «**الاستيعاب في معرفة الأصحاب**» تحقيق علي محمد البجاوي. القاهرة (١٣٨٠هـ/١٩٦١م).

- ابن عميرة الضبي، أحمد بن يحيى بن أحمد: «**بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس**»، القاهرة (١٩٦٧).

- عنان، محمد عبدالله: «**نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين**»، القاهرة (١٣٨٦هـ/١٩٦٦م).

- «**الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال**»، القاهرة (١٣٨١هـ - ١٩٦١م).

«**لسان الدين بن الخطيب**»، القاهرة (١٣٨٨هـ/١٩٦٨م).

- ابن عياض، القاضي عياض بن موسى: «**ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك**»، تحقيق د. أحمد بكير محمود، بيروت (١٣٨٤هـ/١٩٦٥م).

٦ - الغبريني، أبو العباس أحمد بن أحمد بن عبدالله: «**عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المئة السابقة ببجاية**»، تحقيق عادل نويهض بيروت (١٩٦٩).

- الغرناطي، محمد أيوب ابن غالب: «**فرحة الأنفس في أخبار الأندلس**»، تحقيق د. لطفي عبد البديع، القاهرة (١٣٧٥هـ/١٩٥٥م).

- الغساني، محمد بن عبد الوهاب: «**رحلة الوزير في افتكاك الأسير**» المغرب (١٩٤١).

- الفاسي، علي بن أبي زرع: «**الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية**»، الرباط (١٣٩٢هـ/١٩٧٢م).

- ابن فرحون، برهان الدين ابراهيم بن علي بن محمد: «**الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب**»، القاهرة (١٣٢٩ هـ).

- ابن الفرضي، الحافظ أبو الوليد عبدالله بن محمد بن يوسف بن نصر الأزدي: «**تاريخ علماء الأندلس**» القاهرة (١٩٦٦).

- ابن القاضي، أبو العباس أحمد بن محمد المكناسي: «**درة الحجال في أسماء الرجال**»، تحقيق محمد الأحمدي أبو النور، القاهرة - تونس (١٣٩٠هـ/١٩٧٠م).

- ابن القطان، أبو علي الحسن بن أبي الحسن علي بن محمد بن عبد الملك بن يحيى: «**نظم الجمان**» تحقيق د. محمود علي مكي، الرباط.

- القزويني، زكريا: «**آثار البلاد وأخبار العباد**»، بيروت (١٣٨٠هـ/١٩٦٠م).

- ابن القوطية، أبو بكر محمد: «**تاريخ افتتاح الأندلس**»، تحقيق د. عبدالله أنيس الطباع، بيروت (١٩٥٧).

- القيرواني، أبو العرب محمد بن أحمد بن نعيم: «**طبقات علماء إفريقية وتونس**»، تحقيق علي الشابي ونعيم حسن الباقي، تونس (١٩٦٨).

- القيرواني الخشني، أبو عبدالله محمد بن حارث بن أسد: «**قضاة قرطبة**»، القاهرة (١٩٦٦(.

- ابن الكردوس التوزري، أبو مروان عبد الملك: «**الاكتفاء في أخبار الخلفاء**»، نشر تحت عنون: «تاريخ الأندلس لابن الكردبوس ووصفه لابن الشباط»، تحقيق د. أحمد مختار العبادي، مدريد (١٩٧١).

- الكناني، أبو زكريا يحيى بن عمر بن يوسف بن عامر: «**كتاب أحكام السوق**»، تحقيق د. محمود علي مكي، مدريد (١٣٧٥هـ/١٩٥٦م).

- كنون، عبدالله: «**أبو البقاء الرندي**»، طبعة مدريد (١٣٧٨هـ/١٩٥٨م).

- المالكي، أبو بكر عبدالله: «**رياض النفوس**»، تحقيق د. حسين مؤنس، القاهرة (١٩٥٤).

- المدني، أحمد توفيق: «**المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا**»، تونس (١٣٦٥هـ).

- المراكشي بن عذاري، أبو عبدالله محمد: «**البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب**».

الأجـزاء:

الأول والثاني: تحقيق كولان وليفي بروفنسال، باريس (١٩٤٨).

الثالث: تحقيق ليفي بروفنسال، باريس (١٩٢٩).

الرابع: جمع وتعليق د. إحسان عباس، بيروت (١٩٦٧).

القسم الثالث: نشراً مبرسي هويثي ميرانـدا ومساهمـة محمد بن تـاويت ومحمد ابراهيم الكناني: تطوان (١٩٦٠).

ـ المراكشي، محيى الدين عبد الواحد بن علي: «**المعجب في تلخيص أخبار المغرب**»، تحقيق محمد سعيد العريان، القاهرة (١٣٨٧هـ/١٩٦٧م).

ـ المقري التلمساني، شهاب الدين أحمد بن محمد: «**أزهار الرياض في أخبار عياض**»، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي، القاهرة (١٣٣٩ ـ ١٣٤١هـ/١٩٣٩ ـ ١٩٤٢ م).

ـ «**نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين بن الخطيب**» تحقيق د. إحسان عباس، بيروت (١٣٨٨هـ/١٩٦٨ م).

ـ مكي، محمود علي: «**وثائق تاريخية جديدة**» مدريد (١٩٥٩ـ ١٩٦٠).

ـ «**مدريد العربية**» القاهرة.

ـ المنذري، الحافظ: «**مختصر صحيح مسلم**» تحقيق محمد ناصر الدين الألباني، طبعة الكويت (١٣٨٨هـ/١٩٦٩م).

ـ مؤلف مجهول: «**أخبار مجموعة**»، مدريد (١٨٦٧).

«**نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر**» تحقيق الفريد البستاني، المغرب (١٩٤٠). نشره (ليڤي بروڤنسال وغرسيه غومس) مدريد (١٩٥٠).

ـ الناصري السلاوي، الشيخ أبو العباس أحمد بن خالد: «**الاستقصا لاخبار دول المغرب الأقصى**»، تحقيق ولدي المؤلف جعفر ومحمد، الدار البيضاء (١٩٥٤م).

ـ النباهي، أبو الحسن علي بن عبدالله بن محمد بن محمد بن الحسن: «**المرتبة العليا فيمن يستحق القضاء والفتيا**» نشر ليڤي بروڤنسال، القاهرة (١٩٤٨).

ـ«**وثائق عربية غرناطية**»، تحقيق لويس سيكودي لوثينا، مدريد (١٣٨٠هـ/ ١٩٦١ م).

(د) موارد غير عربية

Amador de los Reos y Villalto.

Inscripciones Arabes de Cordoba, La Mezquita Aljama Madrid, 1879-1880.

Asin Palacios, Miguel.

La Eccatologia Musulmana en la Divina Comedia, 2a ed. 1962. A. Bell.

La Religion Musulmana en Berbérie, Vol. 1, 1938. C.H. Bouquet, **Alger,** 2 éme édition, 1946.

M. Caudel, l'Afrique du Nord, **Les Byzantins et les Berbers avant les invasions,** 1900.

E. Fagnan.

Extraits inédits relatifs au Maghreb,Alger, 1924.

Brett, Michael.

Problems in the interpretation of the History of the Maghreb in the light of some recent publications. Journat of African History. XIII, 3 (1972).

Conde, Antonio José.

Historia de Espana Musulmana, Madrid, 1848.

b. Coni Gastambide

La Historia de la Bula de Cruzada, Vitoria 1958.

Dozy, Reinhardt Peter-Ann.

Histoire des Musulmans d'Espagne. Nouvelle Edition par Levi Provençal Leyde, 1931.

Recherches sur l'Histoire de la Litterature des Arabes d'Espagne pendant le Moyen- Âge, 3 éme ed.1881.

H. Fournel.

Les Berbers, 2 vol. Paris 1875-1880.

E. C. Gautier.

Les Siecles Obscurs de l'Histoire du Maghreb, 2éme ed. Paris 1938.

Hady Roger Idris,

Initiation à la Tunésie . Paris 1950.

Huici Miranda, Ambrosio,

- **Las Grandes Batallas de la Reconquista,** Madrid, 1956.
- **Historia lolitica del Imperio Almohade,** 3 vols. Valencia 1956.

José Antonio Maravall,

El Concepto de Espana en la Edad-Media, Madrid, 1954.

Julien, Charles-André.

Histoire de l'Afrique du Nord de la Conquete Arabe a 1830 2éme Edition par Roger Le Tourneau, Paris 1966.

Justo, Perez de urbel.

Historia del Condado de Castilla, Madrid, 1945.

Lacarra, José Maria.

Historia de la Edad Media, Barcelona 1960.

Levi Provençal.

- **L,Espagne Musulmane** au Xé.Siecle, Paris 1932.
- **Histoire de L'Espagne Musulmane,** 3 Volumes, 2 ed. Paris 1948.
- **Les Historiens de Chorfa,** Paris- Larose 1922.

F. Lot. Ch. Pfister et F.L. Ganshof.

Les Destinées de l'Empire d'Occident, de 395 a 888. **(Histoire du Moyen-Âge de Glotz)** tome 1, Paris 1940, p. 233- 253.

Luis Gonzalez de Azevedo

Histoire de Portugal. Lisboa, 1942- 1944.

Marcais, George,

L'archictecture Musulmane d'Occident, Paris 1954.

أبو زكريا، كتاب للسير وأخبار الأئمة (الأباضية في المغرب) نشر قطعة منه مع ترجمة فرنسية ماسكراي بعنوان:

Masqueray, **Chronique d'Abou Zakaria** (Livré de Beni Mzab) Alger, 1878.

Mercier Ernest,

Histoire de l'Afrique Septentrionale, Paris 1981.

J. E. Martinez Fernando.

Jaime II de Aragon- Su vida Familiar, Barcelona 1949.

Menendeoz Pidal, Ramon.

La Espana del Cid, 2 vols Madrid, 1940.

Moreno, Manuel Gomez.

- Arte Arabe Espanol hasta los Almohades.

- Arte Mozarabe. Volumenes III y IV de **Historia Universal del Arte Hispanico**, Madrid, 1951- 1954.

Pellegrin **A' Histoire de la Tunisie,** Tunis 1948.

W. Piskorski,

Las Cortes de Castilla en el periodo de transito de la Edad Media à la Moderna (1188- 1520) Barcelona 1933.

E. Saavedra,

Estudio sobre la invasion de los Arabes en Espana, Madrid, 1892.

C. Sanchez Alboronzo.

Espana un enigma Historica, Buenos Aires,1926.

Torres Balbas. Leopoldo,

Arte Califal (Historia de Espana dirigida por R. menendez Pidal) Tomo V, 2a ed. 1956.

Fr. Simonet,

Historia de los Mozarabes de Espana, Madrid, 1904.

M. Torres, **El Estado Visigotico.**

Algunos datos sobre su formacion y principios fundamentales de su organizacion en Anuario Hist. Der. Espanol III, 1926 y p. 307- 457.

Wansbrough, John,

On recomposing the Islamic History of North Africa.

Journal of the Royal Asiatic Society.

أما التواريخ العامة لإسبانيا فكثيرة. أشرنا إليها في المدخل البيلوغرافي لتاريخ الأندلس من كتاب معالم تاريخ المغرب والأندلس (القاهرة ١٩٨٠) (ص ٢٠٩ وما بعدها من ذلك الكتاب) ومعظم هذه الكتب تحمل عنوان:

Historia de Espana

Historia General de Espana.

Ambrosio de Morales, Estéban de Garibay, F. Juan de Mariana.

Alejandro Herculano, Antonio Alcala Galiano, Modesto Lafuente.

Rafael Altamira, Ramon Menendez Pidal.

وانظر كذلك كتاب:

Antonio Ubiezto, Juan Regla, Joséd Maris Jover,

Introduccion a la Historia de Espana, Barcelona 1963.

وهو على إيجازه من أحسن ما ألفه الاسبان في تاريخ إسبانيا العام. ومؤلفوه ثلاثة من أساتذة جامعة بلنسية.

الفهارس العامّة

الأعـــــلام

ـ أ ـ

ـ ب ـ

- ت -

- ث -

- ج -

- ح -

- خ -

- د -

- ذ -

- ر -

- ز -

- س -

- ع -

ـ غ ـ

- ف -

- ق -

- ك -

- ل -

- ن -

- هـ -

- و -

- ي -

الأماكن

ـ أ ـ

ـ ب ـ

- ت -

- ج -

- ح -

- خ -

- د -

- ر -

ـ ز ـ

ـ س ـ

- ش -

- ص -

- ط -

- ع -

- غ -

- ف -

ـ ق ـ

ـ ك ـ

ـ ل ـ

ـ م ـ

- ن -

ـ هـ ـ

ـ و ـ

ـ ي ـ

أعمال أخرى للمؤلف

مؤلفات:

أ ـ تاريخ:

١ ـ تاريخ قريش، الطبعة الأولى، العصر الحديث ـ دار المناهل، بيروت ٢٠٠٢.

٢ ـ الشرق الإسلامي في العصر الحديث، الطبعة الثانية، القاهرة ١٩٣٨.

٣ ـ فتح العرب للمغرب، القاهرة ١٩٤٧.

٤ ـ Essai sur la chûte du Califat Umayyade de Cordoue. Le Caire, 1948.

٥ ـ صور من البطولة (القاهرة ١٩٤٩ و١٩٥٦).

٦ ـ مصر ورسالتها (القاهرة ١٩٥٥ و١٩٥٦).

٧ ـ Historical Atlas of the Muslim Peoples (in collaboration With R. Roolvink and Others). Amsterdam, 1957.

٨ ـ مصر من الفتح الإسلامي إلى نهاية الإخشيديين ـ فصل في كتاب «تاريخ الحضارة المصرية».

٩ ـ نور الدين محمود، الطبعة الثالثة، جدة ١٩٨٥.

١٠ ـ رحلة الأندلس (حديث الفردوس الموعود)، جدة ١٩٨٥.

١١ ـ أطلس تاريخ الإسلام ـ القاهرة ١٩٨٧.

ب ـ أدب:

١ ـ حكايات خيرستان.

٢ ـ أهلاً وسهلاً.

أبحاث:

١ ـ عقد بيعة بولاية العهد لأبي عبد الله محمد المعروف بالخليفة الناصر الموحدي، نشر في الجزء الثاني من المجلد الثاني عشر من مجلة كلية الآداب بجامعة القاهرة.

٢ ـ تطور العمارة الإسلامية في الأندلس، نشر في المجلد الأول من حوليات كلية الآداب بجامعة عين شمس.

٣ ـ وثائق عن مهدي السودان، نشر في العدد الثاني من المجلد الثاني من حوليات كلية الآداب بجامعة عين شمس.

٤ ـ غارات النورمانيين على الأندلس بين سنتي ٢٢٩ و٢٤٥هـ/ ٨٤٤ و٩٥٨م، نشر في العدد الأول من المجلد الثاني من مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية.

٥ ـ السيِّد القمبيطور وعلاقاته بالمسلمين، نشر بالعدد الأول من المجلد الثالث من مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية.

٦ ـ المسلمون في حوض البحر الأبيض المتوسط إلى الحروب الصليبية، نشر في العدد الأول من المجلد الرابع من مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية.

٧ ـ المجتمع في الدستور، بحث نشر في كتاب «روح الدستور» وهو رقم ٢٥ من سلسلة «اخترنا لك».

٨ ـ لكي لا ننسى. . هذا صوت التاريخ، بحث نشر في كتاب «قناة السويس ـ حقائق ووثائق» وهو رقم ٢٩ من سلسلة «اخترنا لك».

٩ ـ سبع وثائق جديدة عن دولة المرابطين. صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد، مجلد ٢ سنة ١٩٥٤.

١٠ ـ De nuevo sobre las fuentes árabes de la historia del Cid صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد، مجلد ٢ سنة ١٩٥٤.

١١ ـ Egipto y el Mediterraneo فصل نشر بالإسبانية والفرنسية في

كتاب Panorama del Mundo Arabe، الذي نشره معهد العلوم السياسية في مدريد سنة ١٩٥٤.

١٢ ـ نصوص سياسية عن فترة الانتقال من المرابطين إلى الموحدين. صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد، مجلد ٣ سنة ١٩٥٥.

١٣ ـ أسنى المتاجر في بيان أحكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر، للونشريشي. صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، مجلد ٥ سنة ١٩٥٧.

١٤ ـ La division politico - administrativa de la España musulmana صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد، مجلد ٥ سنة ١٩٥٧.

١٥ ـ الفولكلور، تاريخه ومدارسه ومناهجه. صحيفة «المجلة» العدد ٢٣ سنة ١٩٥٨.

نشر وتحقيق:

١ ـ رياض النفوس لأبي بكر المالكي، الجزء الأول، القاهرة ١٩٥١.

ترجمة:

١ ـ الأمبراطورية البيزنطية لنورمان بينز (ترجمة عن الإنجليزية بالاشتراك مع الدكتور محمود يوسف زايد) طبعتان بالقاهرة ١٩٥٠ و١٩٥٧.

٢ ـ الشعر الأندلسي لغرسيه غومس (عن الإسبانية) طبعتان بالقاهرة ١٩٥٢ و١٩٥٧.

٣ ـ تاريخ الفكر الأندلسي لجونذالذ پالنثيا (عن الإسبانية) القاهرة ١٩٥٥.

٤ ـ ثم غاب القمر ـ مسرحية في ثمانية مناظر مقتبسة من قصة The Moon is Down لجون شتاينبك، القاهرة ١٩٥٦.

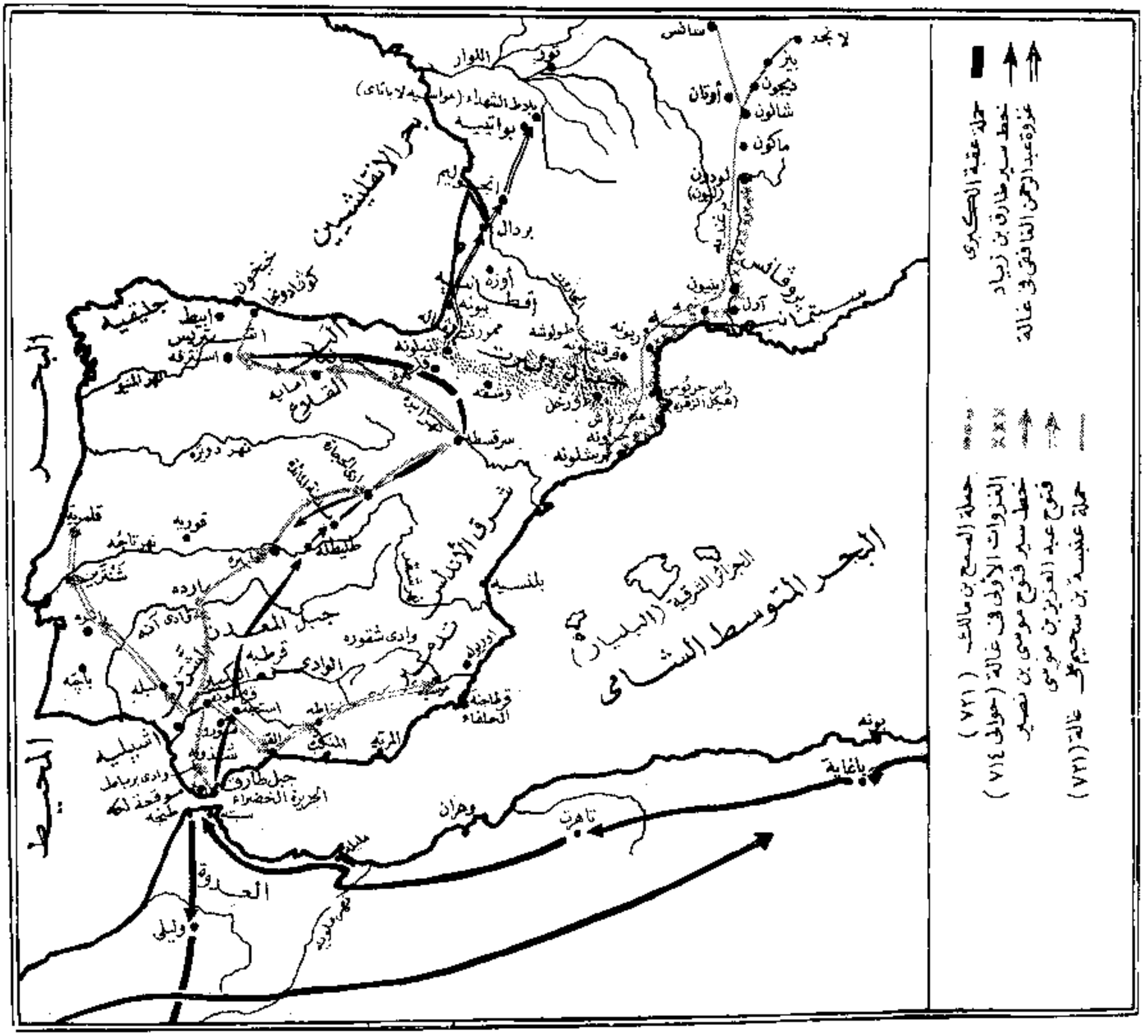
فهـــرس

الفصل الخامس: صراع العرب والبربر ٢٠١ ـ ٢٧٣

الفصل الثاني عشر: قيام الدولة الأموية. ٦٥٩ ـ ٦٨٧

الفهارس العامة

فتوح المغرب الأقصى والأندلس



THE DAWN OF AL-ANDALUS

A Study of the history of Muslim spain from the Arab conquest in 711 A.D. till the rise of the Umayyad Emirate of Cordova in 756 A.D.

BY
HUSSAIN MONÉS

DAR Al-MANAHEL   Al-'ASR Al-HADITH

Fax:(01)314220 Tel.:(03)701036 P.O.Box:5645-14
BEIRUT - LEBANON